أنور الرّفاعي

الإسلام في حضارته ونظمه

الإدارية والسياسية والأدبية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والفنية

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

الرقم الاصطلاحي: ٠١١، ٠٣٢٥
الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-342-9
الرقم الموضوعي: ٢١٠
الموضوع: دراسات إسلامية
العنوان: الإسلام في حضارته ونظمه
التأليف: أنور الرفاعي
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: مطابع المستقبل - بيروت
التجليد الفني: علي الحمصي - بيروت
عدد الصفحات: ٧٠٨ ص (فني)
قياس الصفحة: ١٧×٢٥سم
عدد النسخ: ٢٠٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص. ب: (٩٦٢) دمشق - سورية
برقياً: فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
E-mail: info @fikr.com

1997
صناعة النشر
مسؤولية وإبداع

إعادة
1417هـ = 1997 م
ط٣: 1983م

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

جاء الإسلام ، بدعوة دين ، ودعوة دولة ، ودعوة حياة اجتماعية وسياسية واقتصادية وفكرية ، ووضع اسس العقيدة التي يجب ان يؤمن بها اتباعه ، ورسم حدود المعاملات بمختلف أنواعها التي تساعد على اقامة مجتمع « اسلامي » متميز .

وانتشر الاسلام كدين ، وظهر الإسلام كدولة ، وحمل العرب في الحجاز أولاً أعباء الدعوة وتأسيس الدولة ، ثم حملها عرب الجزيرة قاطبة ، وحرروا الأرض العربية خارج شبه الجزيرة ؛ الشام والعراق ومصر ، وشمال افريقيا حتى بحر الظلمات ، كما حمل المسلمون غير العرب هذه الدعوة ، بعد أن آمنوا بها .

وتجاوزت الدعوة الدينية وإقامة دولة الإسلام ، حدود الأرض العربية إلى ما وراء جبال زاغروس شرقاً ، ومضيق الزقاق (جبل طارق) غرباً ، وتسربت عبر الصحارى والجبال . وظهرت للوجود « امبراطورية » عربية ـ إسلامية كبرى تمتد حتى حدود الصين ، وسهول سيبريا ، واحواض أنهار فرنسا الجنوبية والغربية ..

وانتقل الاسلام كدين ، دون أن يرافقه حكم العرب المسلمين إلى أقطار أخرى متباعدة ، كاندنوسيا والصين والفيليبين ، ومناطق افريقية كثيرة ...

وامتزج ، تحت الحكم العربي الإسلامي ، أفراد شعوب كثيرة اختلفت لغاتها وعاداتها وتقاليدها ، وتنوعت عقائدها الدينية ، لكنها جميعاً ، ارتضت بغلبة اللغة العربية على انتاجها الفكري ، وبالذوق العربي الأصيل المشوب بما في أذواق الشعوب الأخرى من جمال ، على انتاجهـا المادي ، وبالدين الإسلامي على عقيدتها .. فاصبحت السمة المميزة لهـذه المجتمعات المتعددة في شتى أنحاء الدولة العربية والإسلامية استعمال اللغة العربية ، لغة الحكام ولغة القرآن ، ولغة العبادة ، وانتشار الدين الاسلامي بتعاليمه السمحة .. مع بقاء لغات محلية ، وعقائد دينية اخرى . وأسهم في هذه السمة المميزة كل من العرب وغير العرب ، ومن المسلمين وغير المسلمين ، ونتج عن ذلك كله حضارة خاصة ، ليست حضارة عربيـة خالصة ، وليست حضارة إسلامية خالصة ، بل حضارة سداها العروبة ولحمتها الاسلام ، تشوبها التأثيرات الفكرية والفنية والاجتماعية والاقتصادية الاخرى .

فماذا تسمى هذه الحضارة الجديدة : هل تسمى حضارة اسلامية ، لأن الإسلام بعثها ورسم حدودها ؟ أم تسمى حضارة عربية لان العرب حملوا لواءها وأثروا فيها أكثر ما أثروا وخاصة في نشأتها ؟ وكيف نسميها اسلامية بحتة ، وعقائد الفرس ، وعقائد وتأثيرات المسيحية واليهودية برزت في بعض جوانبها ؟ وكيف نسميها عربية ، وعادات وتقاليد وعلوم وفنون الامم غير العربية من اعاجم وهنود وتركستانيين وخزر وأتراك وبربر وزنج ونبط قد بقيت ظاهرة أو خفية ، تلعب دورها في حياة الناس اليومية وفي أعمالهم وتصرفاتهم ...؟

فاذا بقيت الصفـة الغالبـة في الأرض التي كانت عربية قبل الاسلام واستمرت بعده هي صفة العروبة والاسلام ، فان حضارة إسلامية فارسية ،

وإسلامية هندية ، وإسلامية مغولية ، وإسلامية تركية ، وإسلامية اندلسية وإسلامية اندنوسية ... الخ كانت فيما وراء الحدود العربية الطبيعية .

لهذا ، لم يتفق الباحثون على اسم عام شامل لهذه الحضارة ، فسماها بعضهم حضارة عربية ، لغلبة العروبة عليها ، وسماها بعضهم حضارة اسلامية لروح هذا الدين المسيطر عليها ؛ وسماها بعضهم حضارة عربية ـ اسلامية إشارة إلى انها من نتاج العروبة والاسلام ؛ مع ما فيها من تأثيرات غير عربية وغير اسلامية ..

وإذا انطبقت هذه التسمية الاخيرة على اكثر اجزاء الامبراطورية العربية ، فإنها لاتنطبق على البلاد التي لم يصلها الحكم العربي لامن قريب ولامن بعيد، كجاوه وسومطره، لهذا آثرنا تسمية كتابنا : الاسلام في حضارته ونظمه .

وقد حاولنا جاهدين تزويد الكتاب بأكبر عدد من الرسوم الاصلية لمظاهر الحضارة المادية في ظل الاسلام ، بعد أن بسطنا هذه الرسوم بخطوط توضح الشكل الاصلي .

والله الموفق

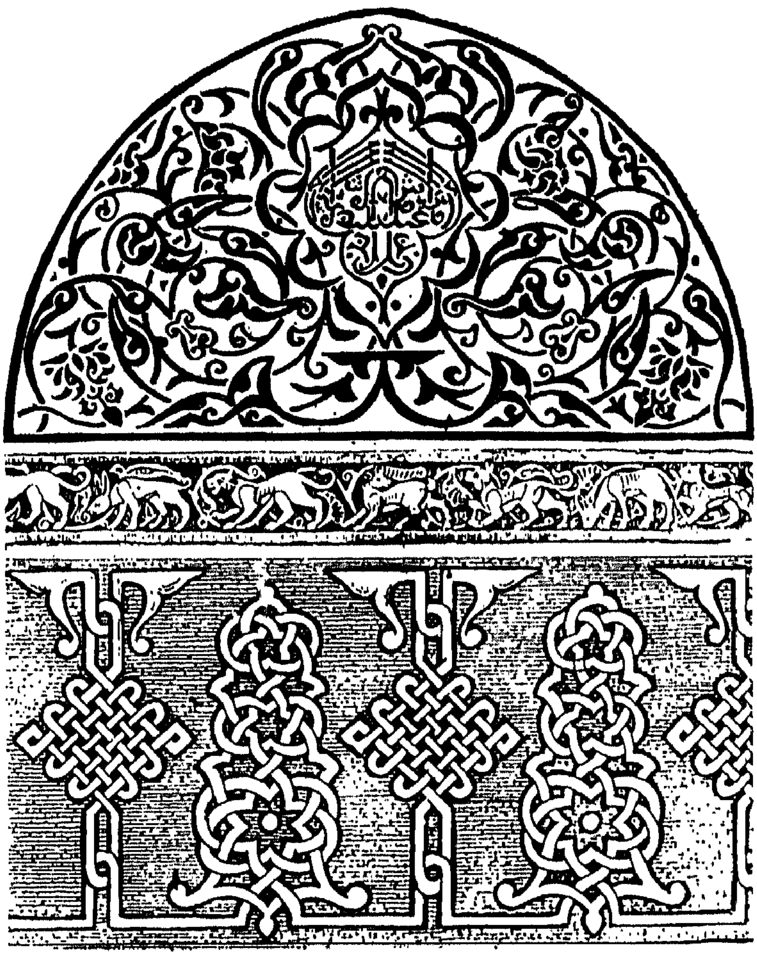
أنور الرفاعي

دمشق في ١٥/٢/١٩٧٣ م
١١/١/١٣٩٣ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الأوّل

حضارة عرب الجاهليّة



الفصل الأول

حضارة عرب الأطراف في الجاهلية

عرب الجاهلية

خضع الوطن العربي قبل الإسلام إلى نفوذ أجنبي في أكثر أجزائه ، فالفرس احتلوا بلاد الرافدين ، والشام ومصر ، وأخرجهم منها الإغريق ، لينشئوا دويلات هلنستية كالبطالسة والسلوقيين . وتخلى هؤلاء للرومان الذين أعقبوهم في إخضاع الشام ومصر وشمال أفريقيا لإمبراطوريتهم ، ولما انقسمت الامبراطورية الرومانية إلى شرقية وغربية ، استعاد الفرس أنفاسهم ، وما جاء القرن السادس الميلادي حتى كان سير الحضارة العربية مزلزلاً وئيداً ، ومعظم أطراف الجزيرة مع مصر وشمالي أفريقيا تحت سيطرة السلطتين الكبيرتين في العالم آنذاك وهما البيزنطيون والفرس . . . وإذا كان نصيب الروم حكم الطرف الغربي من الهلال الخصيب أي الشام ومن فيها من غساسنة وقبائل عربية أخرى ، فإن الفرس استأثروا بالنصيب الأوفى ، فكان لهم العراق ومن فيه من لخم وإياد وتغلب وشيبان وبكر

وتميم ، ولهم سواحل البحرين وعمان وحضرموت ، كما بات لهم اليمن بعد أن طردوا الأحباش منه . . . وبذلك لم يسلم من الحكم الأجنبي سوى المنطقة الوسطى من الجزيرة العربية أي الحجاز ونجد والربع الخالي . . . والحجاز سيتمخض بعد قليل عن نبوة محمد بن عبد الله ﷺ ، وسترتفع فيه راية الإسلام ، فتحرر أقطار الوطن العربي ، وتحمل الرسالة إلى ما وراء الحدود العربية .

فكيف كانت حضارة عرب الأطراف في الهلال الخصيب ، عند الغساسنة والمناذرة ، وكيف كانت حضارة عرب الجزيرة في المدن والبوادي ، في هذه الفترة التي سبقت الإسلام والتي أطلق عليها اسم العصر الجاهلي .

مصادرنا عن العصر الجاهلي : من أين نستقي معلوماتنا عن هذا العصر الذي سبق الاسلام بقرن او قرنين ، ولم نعثر بعد على أوابد وتماثيل ، او نقوش وصور ، او نصوص ، او بناء من هذا العصر ، نعتمد عليها ، كمادة ، للبحث ، وجل ما وصلنا ، هو اشعار العرب الجاهليين ، وبعض حكمهم وامثالهم وقصصهم ، فهل يكفي هذا ليكون « مرآة الحياة الجاهلية » ؟ ويرى طه حسين ان هذه المرآة يجب ان تلتمس في القرآن الكريم ، لا في الأدب الجاهلي ، لان القرآن حين ردّ على الوثنيين فيما كانوا يعتقدون من وثنية ، ورد على اليهود ، ورد على النصارى ، ورد على الصابئة والمجوس ، انما رد على اتباع هذه المعتقدات في جزيرة العرب وفي مكة ويثرب بشكل خاص ، والا لما حفل بهذا الردّ سكان هاتين المدينتين وما جاورهما من مناطق سكنية ، لان الامر لا يعنيهم مباشرة . . . والقرآن إذن هو الذي يمثل لنا الحياة الدينية القوية التي دعت اصحابها الى ان يجادلوا عنها ما وسعهم الجدل ، وهو الذي يمثل العقلية القوية القادرة على الجدال والخصام والخوض في المسائل المعضلة التي ينفق الفلاسفة فيها حياتهم دون ان يوفقوا لحلها : في البعث ، في الخلق ، في مكان الاتصال

بين الله والناس ، في المعجزة وما الى ذلك ، وهو الذي يمثل لنا الحياة السياسية حين يحدثنا عن اتصال عرب الجزيرة بمن حولهم من الامم ، هذا الاتصال القوي الذي قسمهم احزاباً ، وفرقهم شيعاً ، وجعلهم يعنون بسياسة الفرس والروم والحبش والهند وتتبع اخبارهم ، وهو الذي يمثل لنا الحياة الاقتصادية ، فيقسم العرب الى فريقين : فريق الاغنياء المستأثرين بالثروة المسرفين في الربا ؛ وفريق الفقراء المعدمين او الذين ليس لهم من الثروة ما يمكنهم من ان يقاوموا هؤلاء المرابين او يستغنوا عنهم . وهل يعنى القرآن هذه العناية كلها بتحريم الربا والحث على الصدقة وفرض الزكاة لو لم تكن حياة العرب الاقتصادية الداخلية من الفساد والاضطراب بحيث تدعو الى ذلك ..؟ وهو الذي يمثل لنا الحياة الاجتماعية حين يقسم العرب الى طبقتين : طبقة المستنيرين الذين يمتازون بالثروة والجاه والذكاء والعلم ، وطبقة العامة الذين لا يكاد يكون لهم من هذا كله حظ . وحين ينظم ويدعو إلى البرّ بالوالدين ، ويحدد العلاقات بين الرجل والمرأة ، ويفصل بالارث ، ويحبب تحرير الرقيق إلى النفوس ، ويدعو الى مكارم الاخلاق جميعها .

وينهي طه حسين رأيه بقوله : واذا كان العرب اصحاب علم ودين ، وأصحاب شرف وقوة وبأس ، واصحاب سياسة متصلة بالسياسة العامة ، متصلة بها مؤثرة فيها ، واصحاب اقتصاد داخلي وخارجي معقد ، فما اخلقهم ان يكونوا امة متحضرة راقية ، لا أمة جاهلة همجية.[1] وهذا ما يؤيد رأي العلماء من ان اسم الجاهلية اطلق على العصر الذي سبق الاسلام ، لا بمعنى الجهل ضد العلم ، بل بمعنى السفه والغضب والنزق لتقابل كلمة الاسلام التي تدل على الخضوع والطاعة لله جل وعز ، وما يطوى فيها من سلوك خلقي كريم »[2].

(١) طه حسين ، في الادب الجاهلي (فصل مرآة الحياة الجاهلية)
(٢) شوقي ضيف : العصر الجاهلي (فصل العصر الجاهلي)

١ ـ حضارة المناذرة والغساسنة

تأثر المناذرة والغساسنة بالفرس والبيزنطيين : كان هذا التأثير أمراً طبيعياً ، فقد دخل كل من المناذرة والغساسنة في الدارة الحضارية لمدنيتين كانتا أقوى وأعرق المدنيات المعروفه ، بينما لم يحمل هؤلاء ولا أولئك معهم من الصحراء ومن اليمن ، سوى آثار حضارية محدودة . وقد تناول ذلك التأثير الحضاري مختلف نواحي الحياة عند المناذرة والغساسنة بحيث يمكن أن يظهر بوضوح لو درسناها واحدة واحدة .

فأما في الحياة الاجتماعية فقد اقتبس الغساسنة ، كما اقتبس المناذرة[1] ، مظاهر المجتمع الرومي او الفارسي في الملابس والأعياد والعادات واتخاذ القصور والبلاطات والحاشية وارتياد المسارح وإقامة الألعاب . وكان الغساسنة من هذه الناحية أكثر تأثراً بالروم من المناذرة بالفرس لكثرة ترددهم على القسطنطينية ، ودخول الحضارة البيزنطية بعمق إلى المدن الرئيسية التي انتشرت بها قبل وصولهم إلى الشام بزمن طويل ، على أن شعب الإمارتين من قبائل العرب احتفظ مع ذلك بمظاهر الحياة البدوية حتى نكاد نعده رغم الاستقرار نصف بدوي . وأثر ذلك على الأمراء أنفسهم ، فقد ظل المناذرة يعتزون بأنسابهم العربية لا يشوبونها ، ويجهزون اللطائم (القوافل

---

(١) واحتلت الحيرة وامراؤها حيزا كبيرا في اقاصيص العرب واخبارهم واشعارهم فطالما تحدثوا عن قصري الخورنق والسدير .. وكان المناذرة أوسع سلطاناً من الغساسنة اذ دانت لهم بالطاعة اليمامة والبحرين وعمان وقبائل العراق وعلى راسها بكر وتغلب واكثر الشعراء من استعطائهم حتى لا تغزوهم جيوشهم ، كما اكثروا من مدحهم تلمسا لاعطياتهم .

التجارية) لحسابهم إلى أسواق العرب كل سنة ، ويلحقون بالبادية – ومثلهم في ذلك الغساسنة – كلما ألم بهم أمر ، ويضربون الخيام خارج المدينة لاستقبال الضيوف . بل إن أسرة الغساسنة كانت تقيم في الجولان في « معسكر » لا في مدينة .

وأما في التنظيم السياسي فإن أمير المناذرة كان صورة عن ولاة كسرى الإقطاعيين المطلقي السلطة مدى الحياة ، ولكنه لا يحكم سوى القبائل العربية المستقرة أو المتجولة في الحدود على طول وادي الفرات . وقد منحه الساسانيون لقب « ذي التاج » وقد يستعمل له لقب ملك (كما ورد في نقش النمارة للملك امرىء القيس) . وكذلك كان الأمير الغساني « أمير بدو » تدفع له بيزنطة المال ليقوم بما يكلف به من عمل ، ولكن سلطته مقيدة بسلطة الحكام المدنيين والحربيين الذين ترسلهم الحكومة المركزية . إنما هنالك تحت إمرته عدد غير قليل من العمال الصغار في ولايته الواسعة ذات الصحاري الممتدة حتى ما وراء تدمر ، وكلهم يرجعون إليه زمن الحرب وفي بعض الأمور زمن السلم . وقد منح الروم أمير غسان لقب (فيلارك) منذ سنة ٥٣٦ م ثم رفعوا رتبته إلى (السيد البطريق) ، وهو لقب سام جداً لأن طبقة البطاركة في بيزنطة تعد أعلى الطبقات الاجتماعية على الإطلاق ، وهي أرقى من رتبة القنصل ، وعلاقتها بالامبراطور تشبه علاقة الكرادلة بالبابا . ولم يكن الروم قبل الغساسنة ينعمون على عمالهم من العرب إلا « بالأكاليل » فانعموا عليهم سنة ٥٨٠ « بالتاج » لكن لم يعطوهم لقب (ملك) . وتقلبات ألقاب الغساسنة وسلطاتهم كانت تتبع التقلبات الإدارية والقوانين التنظيمية التي يصدرها أباطرة بيزنطة .

بجانب هذا عرف المناذرة والغساسنة كلاهما الجيوش النظامية بتأثير الفرس والروم ، وكان الجيش العربي يعد قطعة هامة في جيش الدولتين ، وينظم في كل دولة على طريقتها ، بشكل كتائب مثل كتيبتي الشهباء والدوسر عند المناذرة ، والكتائب التي وصفها النابغة الذبياني عند الغساسنة . ولا شك أن الأمارتين كانتا تحتفظان بجيوش بدوية غير نظامية للصحراء ، إذ كان على الأميرين حماية خط الحصون القائمة على الحدود الصحراوية سواء في الشام أو العراق ، ولعله كان لهما نوع من الخدمة العسكرية على عربهما كالذي يكون عادة في القبائل .

وأما في الدين : فلم يتأثر المناذرة والغساسنة بحضارة الامبراطوريتين إلا أقل التأثر ؛ بلى ! قد اعتنقوا المسيحية — دين الروم إذ ذاك — اعتنقها المناذرة والغساسنة جميعاً ، ولكن كلًا من الإمارتين كانت تخالف دولتها على نحو ما فالغساسنة اعتنقوا النصرانية على المذهب اليعقوبي (القائل بالطبيعة الواحدة للمسيح) مع أن مذهب الدولة هو الملكاني . وكان الجدل والحقد على أشده بين هذين المذهبين ، وعقدت المجامع الروحية العديدة لحل الخلاف دون طائل . كما أن المناذرة خالفوا ، بتنصرهم ، دين الفرس الرسمي : الزرادشتية المجوسية . وقد حاول الروم كما حاول الفرس التأثير بالقوة في هذه الناحية فلم يفلحوا ؛ حاولت بيزنطة تحطيم ذوي المذهب الواحد ولكن أمراء غسان احتالوا في صرف تدابيرها . وحاول الفرس ، حين ظهور المزدكية ، فرضها على النعمان بن المنذر ففشلوا !

وأما في الثقافة والعمران : فقد كان الاثر البيزنطي في الامارتين واضحاً إذ لم يكن للغساسنة والمناذرة من تقاليد فكرية سابقة ولا أسلوب في العمران مؤثل فتلقفوا تقاليد وأساليب البلاد التي غشوها . وكانت بلاد

فارس في مرحلة تأثر واسع بالثقافة الهللنستية ، فكان من الطبيعي أن يتأثر المناذرة لا سيا وأن عدداً من أسرى الروم أنزلوا بالحيرة فكونوا بها مستعمرة ثقافية لعلها هي التي أذاعت النصرانية فيها ، وهكذا نجد ان الحياة الفكرية في الحيرة وفي أطراف الشام (بين تدمر ودمشق وبصرى والجولان) تقعان تحت تأثير متشابه من المراكز الثقافية الهلينية : انطاكية والرّها وحرّان وجنديسابور أيضاً وكلها تحيط ،عن قرب ، بالهلال الخصيب . على أن كلًا من أهل الحيرة ومن الغساسنة لم يكتبوا بالفارسية ولا باللاتينية بل كتبوا بالخط النبطي الآرامي في آخر صوره قبل أن يتحول الى الخط العربي ، فكأن الآرامية لجأت أمام ضغط الثقافات الأخرى إلى أطراف الصحراء ، وهذا لا يمنع أنه وجد في الإمارتين من يقرأ ويكتب باللاتينية والفارسية ويترجم منهما وإليهما . وأثر اللاتينية يمكن أن يرى في النقوش الغسانية واضحاً . كما أن الغساسنة لم يخرجوا في أساليبهم العمرانية عن الأسلوب اليوناني — الروماني . والمناذرة قد تأثروا لحد ما بهذا الأسلوب ؛ نستنتج ذلك من قصة ذلك البنّاء الروماني (سنمار) الذي بنى للنعمان الأول قصر الخورنق في عشرين عاماً فجزاه بجزاء سنمار : بالموت ! لكن ما من شك في أن المناذرة قد بنوا معظم أبنيتهم الأخرى على الأسلوب الفارسي .

مدينة بصرى : بدأت حضارة بصرى قبل مجيء الغساسنة إليها بقرون متطاولة بعيدة . فقد ورد ذكرها في رسائل ملوك آشور إلى فرعون مصر آمنوفيس الثالث ثم الرابع (١٤١١ — ١٣٨٥ ق.م .) كقاعدة للقسم الشرقي من أرض آدوم، وقد تتالت عليها الحضارات المختلفة، وكان آخرها وأظهرها الحضارة النبطية ثم الهيللنستية ثم الرومانيــة . وإنما وصل الغساسنة آخر العصر الروماني .

فمدينة بصرى إذن وإن زاد فيها الغساسنة إلا أنها كانت موطدة المعالم من قبلهم ، ولا تعكس تأثيرهم بقدر ما تعكس تأثير الحضارة اليونانية ـ الرومانية في العرب المتحضرين بالشام وقتئذ .

كانت بصرى في عهد الأنباط مركزاً للدين والتقاليد والحكم والتجارة النبطية ، ولعلها صارت عاصمة الأنباط (في أيام رئبال الثاني سنة ٧١م) فاقاموا فيها عدداً كبيراً من الهياكل والقصور التي لم يبق منها إلى اليوم سوى واجهة قصر فريد في مثاله ، وعمود واحد من بنـاء ! وما كاد الرومان يسقطون بطرا (سنة ١٠٦ م) في عهد تراجان (٩٨ — ١٠٧م) حتى اتجهوا إلى بصرى فوسعوها وشادوا بها كثيراً من الأبنية الرائعة حتى سميت : « بصرى ـ تراجان الجديدة » ، وفازت في عهد اسكندر سيفروس (٢٠٧ — ٢٣٥ م .) بامتيازات كثيرة ، وحين تولى فيليب العربي من صلخد عرش روما (٢٤٢ م .) زاد في أبنيتها وامتيازاتها حتى أبلغها مرتبة المدن الكبرى فأضحت « بصرى متروبوليس » . واختلاف الأشكال والأسماء الادارية لم يكن يؤثر في مركز بصرى فقد كانت هي قاعدة الولاية دوماً . وبلغ من أهميتها في مطلع الإسلام أن قال فيها خالد ابن الوليد : بصرى « ميناء الشام والعراق » . ويجب أن نشير إلى أن سقوط تدمر قد انعش تجارة بصرى ووسع عمرانها كما أن إقامة الحاكم الروماني ومعسكر الجيش (الفرقة البرقاوية الثالثة) فيها أدخل إليها جميع مظاهر الحضارة اليونانية الرومانية ، فكانت حضارتها نسخة راقية من حضارة كل مدينة يونانية — رومانية في الشام كلـه ؛ كان لبصرى سور قوي يطيف بها ويدخل منه الى المدينة بباب روماني ذي قوسين يعلو أحدهما الآخر ، ويخترقها ـ على الطريقة الهلينية الرومانية — شارع ذو أعمدة من الجانبين وأروقة ، وفي صدره قصر الحاكم الروماني ، وبالقرب منه هيكل وثني

هائل لم يبق منه اليوم سوى عمود قائم كما أن بالمدينة بناء لسقاية السكان أقيم في القرن الثاني ، كانت عضادات واجهته مؤلفة من أعمدة أربعة ترتفع (١٤ م) . ومازالت وحدها قائمة ، وكان ببصرى سوق تجارية مسقوفة كشفت حديثاً وأزيلت عنها الأتربة ، وفيها إلى جانب هذا عدد من الكنائس الكبيرة أشهرها كنيسة الراهب بحيرا (أوهكذا يسمون أطلالها الآن) وكاتدرائية جوليانوس التي أقام الامبراطور جوستينيان على مثالها كنيسة (أيا صوفيا في القسطنطينية) وكنيسة رافنا في (إيطاليا) . وفي منتصف الشارع ذي الأروقة أقامت الفرقة المرابطة في المدينة قوس نصر ذكرى لمجدها الحربي، وبجانب قوس النصر نجد : المسرح وهو أجمل ما في بصرى من الأوابد :

بناء ضخم على شكل نصف دائرة يطوقها من أعلاها رواق ذو أعمدة مملوء بالمقاعد الحجرية ، ومن دون الرواق تتدرج السلالم الحجرية صفوفاً مقسمة إلى ثلاثة مجاميع تقطعها بالطول وبالعرض ممرات وأبواب للدخول والخروج . وتنتهي السلالم في أرض المسرح بدائرة ، تستعمل للمصارعة ، أمام جدار مرتفع به قاعة التمثيل وما يليها . وهي ثلاث طبقات بعضها فوق بعض ، وبعد رفع الأنقاض عنه ، برز لنا أجمل وأكمل مسرح في العالم الهلينستي .

وإلى جنوب المسرح يقوم الملعب المستطيل وكان يجري فيه ما كان يجري في كل مدينة رومانية : سباق للعربات وللخيل وألعاب لها دورة كدورة الألعاب الأولمبية كل أربع سنوات ، وتتصل بصرى بعد هذا كله بأهم المدن بطرق مبلطة عليها الصوّى (علامات الطرق) .

لكن إذا لم يظهر للغساسنة أثر كبير في بصرى فإن لهم آثاراً أخرى

خارجها ، فقد أعادوا بناء القناطر التي تجري فيها المياه إلى مدينة الرصافة (سرجيوس) المقدسة جداً . كما بنوا القناطر والصهاريج والكنائس في أنحاء إمارتهم ، ولعل عدم ظهور آثارهم في بلدة معينة يرجع إلى أنهم كانوا ينتقلون ويستقبلون الشعراء في تلك الحصون — القصور التي أقاموها على حدود الصحراء . وقد اكتشف المستشرق الفرنسي (دوسو) أنها تؤلف في شرق حوران سلسلة دفاعية تبدأ بحصون الصفا ثم القصر الأبيض ثم النمارة ثم صلخد والسويداء ودير الكهف والقلعة الزرقاء ثم قصر المشتى والقسطل واللجون والكرخ ومعان . وربما كان بعض هذه القصور — الحصون من بناء الغساسنة وقد توسع كثير منها حتى أصبح مدناً فيها المسارح والكنائس والقصور . وقد وجد منها آثار مدهشة أهمها بقايا قصر المشتى (التي ذهبت إلى برلين هدية السلطان عبد الحميد الثاني إلى الامبراطور غليوم) وطول واجهته عشرون متراً بارتفاع خمسة أمتار فيها افريز من النقوش البارزة الرائعة . ثم بقايا القصر ذو المربع والنقوش الجميلة من صور الطير والخيل والفهود والسباع والبقر والافيال والسمك .

ومن مراكز الغساسنة عدا ما مرّ ، بلدة أم قيس وكانت المياه تأتيها بأقنية من الحجر ، وفيها مسرح للتمثيل والألعاب ، ويعتقد أن بناءها كان متأخراً .

ولعلنا أخيراً نتمم وصفاً لمدنية الغساسنة إذا نحن أوردنا هذه الصورة التي رسمها حسان بن ثابت شاعر الغساسنة ثم شاعر النبي لمجلس الأمير جبلة بن الايهم الغساني : « . . . رأيت عشر قيان : خمس روميات يغنين بالرومية ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة . وكان (جبلة) إذا جلس للشراب فرش تحته الآس والياسمين واصناف الرياحين وضرب له العنبر والمسك في صفحات الذهب والفضة . وأتي بالمسك الصحيح في صحاف الفضة ، إذا كان شاتياً ؛ وان كان صائفاً بطن بالثلج ، واوقد له العود المندى

بطن بالثلج ، وأتى هو وأصحابه بكساير صيفية ينفصل (يتميز) هو وأصحابه بها ، وفي الشتاء بفراء الفَنَكْ (دابة فراؤها اطيب الأنواع) وما أشبهه .»

مدينة الحيرة : اتعب العرب اذهانهم في تسقط اشتقاق عربي لاسم هذه المدينة ، وهي كلمة سريانية معناها (معسكر) أو (حظيرة) عربها العرب إلى الحيرة[1] ولعل هذا الاسم يلقي بعض الضوء على نشأتها . فحين نزل اللخميون موقع الحيرة بنى زعيمهم على الطريقة المعروفة في اليمن ، قصرا حصيناً ونزلت قبيلته بالخيام عنده ، ثم اتسعت الأبنية مع الزمن حول القصر ، فأصبحت بلداً واسعاً زاد في أهميته حسن موقعه وتعدد أجناس سكانه وانتهاء طريق الحجاز التجاري به وهكذا تختلف الحيرة عن بصرى بأنها نشأت وتحضرت مع تحضر المناذرة . واتخذها هؤلاء عاصمة لهم فكانت تنسب إليهم ، ولاشك بعد هذا أنها كانت أقل عمراناً من بصرى كما كانت أقل تأثراً بحضارة الفرس ، ولذلك كان ميل العرب إليها أشد واتصالهم بها أقوى ، ويظهر أن الحيرة كانت ميدان لهو واسع بما فيها من حانات وجوارٍ وغناء ، حتى لقد تميز سكان الحيرة بنوع خاص بهم من الغناء عرف باسمهم . والحياة الاجتماعية في الحيرة كانت مزيجاً بدوياً حضرياً وغالب السكان كانت تجمعهم الديانة المسيحية ، ويسمون بالعباد ، وبيدهم الصناعات والأعمال والثقافة ، وبلاط المناذرة بصورة خاصة كان رفيع التقاليد لدرجة دفعت يزدجرد لأن يرسل ابنه بهرام الى النعمان بن المنذر (٤٣١ — ٤٧٣ م) ليتولى تربيته على الطريقة العربية ، فتعلم لديه الكتابة والرمي والقانون والحكمة والفروسية ، مما يدل على مبلغ رقي البلاط الحيري في القرن الخامس للميلاد ومبلغ الثقة به

---

(١) قصر الحير الغربي الذي وجد قرب تدمر لهشام بن عبد الملك اشتق اسمه من المصدر نفسه .

وقـد بـني في الحيرة عـدد كبير من القصور الحجرية التي اشتهرت وعرفنا بعض اسمائهـا كقصر الرواء والقصر الابيـض وقصري الخورنق والسدير ، وهما قصران كبيران كالقلاع بنيا في شرقي الحـيرة . الخورنق منهما على مرتفـع متسلط على المدينـة بجانب الفرات ، وبلـغ من فخامة القصرين أن سمى العرب ملك الحيرة « رب الخورنق والسدير » . وعدا هذا فقد كان في الحيرة عدد كبير من الكنائس والأديرة والبيـع منها بيعـه كبرى كانت مقراً للأساقفة النسطوريين تولاها جماعة منهم ، ثم عدد من الأديرة ساهم نساء القصر المالك في بنائها كدير هند الكبرى (أم عمرو بن المنذر) وهند الصغرى ابنته . وبعض هذه الأديرة أقيم على الطراز الفارسي أو البيزنطي كدير حنظلة ودير علقمة ودير عبد المسيح .

وكانت دولة المناذرة منظمة على الطراز الفارسي فيها عدد من وجوه الدولة وفيها الجيش والدواوين والكتاب الذين يعرفون الفارسية والعربية ويترجمون منها واليها ، وقد أرسل ملوك الحيرة بعض ابنائهم ليعملوا في بلاط كسرى ، ويظهر أن الكتابة كانت شائعة في أوساط الحيرة ، وأقدم من تعلم الكتابة في العرب إنما تعلمها فيها بطريق الاتصال التجاري . وأقدم الخطوط العربيـة التي سبقت عصر النبـوة كانت تنسب للحيرة وللانبار . والخط الحيري هو ما نعرفه اليوم بالكوفي القديم .

ولم تقتصر حضارة المناذرة على الحيرة ، فقد وجد بجانبها عدد من المدن التابعة لها مثل هيت والأبلة والأنبار . ومعظمها بقي إلى العهد الاسلامي.

الفصل الثاني

حضارة عرب الحجاز
في الجاهلية

الحياة الاجتماعية :

لاحظ الباحثون أن الجزيرة العربية كانت طوال تاريخها ولا تزال حتى اليوم تحوي نوعين متقابلين من الحياة : حياة البدو الرحل في الوسط ، وحياة الزراع المستقرين في الاطراف . وهذه الظاهرة يجب أن نفتش عن تفسيرها في البيئة والظروف الجغرافية ، فالجزيرة العربية ليست صحراء مطلقة ولكنها في معظمها بيئة سهلية ، محدودة الثروة ، فقيرة الانبات تجف مناطقها واحدة بعد أخرى ، وتتخللها خاصة على الأطراف ، واحات تسمح بالزراعة والاستقرار ، وهكذا يضطر السكان إلى التدرج من حياة النقلة الدائمة ، تبعاً للجفاف الدوري ، إلى الاستقرار الدائم وبناء المدن في الواحات . وبعبارة أخرى هكذا يحدد الانتاج نوع الحياة ويتبدل شكل الحياة بتبدل شكل الانتاج . وكل البقاع التي تتفق مع الجزيرة العربية في

ظروفها الجغرافية كصحارى منغوليا وتوركستان وإيران ... الخ تتفق معها في أنماط الحياة ، وفي تنظيم المجتمع وتتفق معها لحد كبير في التاريخ .

إذن فقد وجد في الحجاز ونجد بدو وحضر . والبدو هم الكثرة الغالبة في نجد ، بينما غلب الحضر على القرى والواحات الغربية : في الحجاز .

ويقوم التنظيم الاجتماعي ، لدى البدو والحضر على السواء ، على القبيلة . وكل الشعوب في طورها البدوي مرت بهذا النظام فالاغريق الأوائل والرومان في بدء عهودهم والتتر والمغول جميعاً كانوا ينقسمون قبائل ، وعدم الارتباط بالأرض يورث الحرية التي ترفض كل سلطة . وللبداوة في الصحراء قوانين عامة لاتقل شأناً في وضعها وتنظيمها عن قوانين الحياة الصناعية في المدن ، ومعظم مظاهر التنظيم القبلي مظاهر عامة مرتبطة ببداوة كل أمة ، ثم تغادرها الأمة إلى المرحلة المدنية فينظم المجتمع إما على أساس الفرد الحر ، كما في اليونان ، أو العائلة كما فعل الرومان ، أو الملك — الآله كما كانت مصر القديمة ، أو جمهور المؤمنين كما صار إليه المجتمع الاسلامي.

ونحن نستعمل كلمة قبيلة بالمعنى العام الاصطلاحي لأنها اسم خاص لأحد أقسام المجتمع البدوي غلب على الأقسام الأخرى ، فهناك ما هو أكبر منها وما هو أصغر وهي بالترتيب : الشعب (كعدنان) والقبيلة (كربيعة ومضر) والعمارة (كقريش) والبطن (كعبد مناف ومخزوم) والفخذ (كهاشم وأمية) والفصيل (كبني طالب) .

تقوم الرابطة القبلية على الدم والنسب الواحد لا على العقيدة ولا المدينة والعصبية القبلية شديدة تظهر في أقوالهم : انصر « أخاك ظالماً أو مظلوماً » وقول الآخر :

لايسألون أخاهم حين يندبهم　　　للنائبات على ما قال برهانا !

وتشبه قبيلة العرب القبيلة الكورسيكية في تنظيمها ، فرئيس القبيلة أو

شيخها يصل إلى زعامته غالباً بالنسب أو بالغنى والشجاعة والرأي ، وسلطته مطلقة إلا في أمور الحرب والقضاء ، فينظر فيها بالاشتراك مع المجلس القبلي المؤلف من كبار القبيلة ، إنما له على القبيلة حقوق الرئاسة وهي كما في قول الشاعر :

لك المرباع منا والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول[1]

والعائلة في القبيلة يمثلها ربها ، وهو في القبيلة جندي لايملك سوى بيته من الشعر ، مطلق السلطة له على أولاده حق الوأد وحرمان الارث والخلع (التبرؤ) والطلاق والزواج بمن شاء . أما الفتيان فلم تكن القبيلة تعترف برجولتهم إلا بعد حفلة تكريس ذات مراسيم كان يقوم بها الشيوخ في مجلسهم ، فيقلدون الفتى السيف رمزاً لاضافة محارب للقبيلة ؛ وكذلك الفتيات كن يكرسن بالباسهن دراعة بدل المؤصد . ولعل هذه الاحتفالات كانت ذات لون ديني إلا أن معالمها ضاعت .

ويتبع القبيلة طبقة الموالي ، فمن ليس له قبيلة تحميه يدخل القبيلة بالولاء ، كما يتبع العائلة العبيد ، وهم يأتون إما شراء أو اسراً بالحرب أو لسداد دين.

وهناك خارج نظام القبيلة أناس عرفهم العرب باسم الصعاليك أو الذؤبان أو الخلعاء وهم من تخلت عنهم القبيلة أو تخلوا عنها . وفقدان عضوية القبيلة في الفيافي مصيبة لا يحتملها إلا الأشداء ، ولذلك كان لهؤلاء الصعاليك ذكر خاص في تاريخ الأدب العربي ، ومعظمهم كان من الشعراء ومن العدائين الذين يسبقون الخيل.

ولم يكن تنظيم الحضر ، سكان الواحات ، يختلف عن تنظيم الاعراب القبلي سوى أن الملكية عندهم موطدة ، بينما المرعى والماء والأرض عند البدو مشاعة للجميع .

---

(١) المرباع : ربع الغنيمة . الصفايا : ما يصطفيه الرئيس لنفسه . النشيطة : مايصيبونه في الطريق قبل الغزو . الفضول : هو ما فضل من الغنيمة مما لا تصح قسمته .

وكان ثمة عداء بين البدو والحضر قوامه اختلاف طراز الحياة ورقي المستوى العقلي في الحضر . . . إن صدى هذا الاختلاف ليظهر في الآيات الكريمة . قال تعالى : « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله » (التوبة آية ٩٨) « قالت الأعراب آمنا . قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » . (الحجرات آية ١٤) .

وكان الحضر أغنى ، لغنى أرضهم ، بالخصب أو بالموقع ، فتأثرت زعامة القوى بالغنى لحد كبير وكثيراً ما ظلم الفقير فيها . وقد ظهرت في المناطق الحضرية محاولات لايجاد تنظيم اجتماعي وسياسي جديد كالذي جرى في مكة ويثرب ولدى قبائل بكر ، وكان ظهور الإسلام انقلاباً قفز بهذا التطور البطيء فاوصله إلى غايته .

الاخلاق والعادات العربية :

الاخلاق العربية في مجموعها نتيجة مباشرة للوضع الاجتماعي والاقتصادي . وصدى لتلك البيئة القبلية الشحيحة الموارد ؛ ويرى المستشرق (جولد زيهر) أن جماعها يمكن أن تشمله كلمة « المروءة » والفضائل العليا في كل مجتمع تنتج دوماً من الحاجات ، ويكون الخُلُق عادة كالضمان المعنوي والمؤيد لتلك الحاجة .

والعربي المثالي شجاع ، لأن القبيلة المهددة دوماً بالغزو محتاجة دوماً للحماية ، سريع النجدة حتى التهور لأن السير في الصحراء الفلاة غير مأمون وكلهم قد يسير فيها ، لاينام على ثأر لأنه إن نام ، نام الناس عن الثأر له فهي أنانية في شكل غيرية ... وهكذا فالكرم حتى الاسراف دليل الاعسار ، بل إن فقر البيئة هو الذي يظهر ميزة هذا الخلق ويدعو لوجوده والتمدح به ، والعصبية الشديدة مظهر دفاعي ضد تفكك القبيلة

وكذلك حماية الجار والوفاء بالعهد ... وكان أكثر ما تمدح به شعراء الجاهلية اغاثة الملهوف وحماية الضعيف والعفو عند المقدرة ، والانفة وإباء الضيم ، فالعرب لا تنكر شيئاً مثل انكارها للهوان والضيم فهي السوأة الكبرى والمثلبة العظمى إذ يعنيان الذل .

وهذه الأخلاق التي نحللها جميعاً من لوازم الطور البدوي نجدها لدى كل أمة في بدء نشأتها ، على أن ثمة أخلاقاً عريقة في النفس العربية ، أصيلة فيها ، هي التي تميز العربي ، كالحرية : التي يبالغ بها العربي حتى تدفعه للتمرد على الأرض وعلى الاستيطان . والفردية : التي لا تذوب إلا أمام الولاء القبلي وهذا الولاء نفسه ما هو إلا فردية اتسعت فشملت القبيلة كلها . والارستقراطية : فالعربي مملوء بالاعتزاز بنفسه وبقومه شديد الانفة حتى ليقتل إذا شعر بطيف الاهانة ، والعدل : حتى كان يقوم هذا الخلق مقام القانون والمؤيدات في المجتمعات المنظمة .

والعادات العربية في معظمها تطبيقات للخلق العربي ولحاجات الوسط الاجتماعية والاقتصادية واقوى العادات عندهم : الغزو ، وهو ناحية من نواحي اللهو القومي والحاجة المادية ؛ وليس ضرباً من اللصوصية وإن كان أشبهها . فالقتال في شريعة الصحراء سجية من سجايا الرجولة وهو من هذه الجهة ركن من اركان الحياة الاجتماعية ، ويقضي العرف ألا تسفك الدماء فيه إلا عند الضرورة الماسة . ثم إن الغزو يعمل على انقاص عدد النفوس التي يجب أن تُعال ، فهو من هذه الجهة ضرورة اقتصادية وإن لم يزد في مجموع ما في البلاد من الاقوات . والغزو هو القاعدة العامة والسلم هو الشاذ عندهم . وكانوا إذا أعوزهم النهب اغاروا على الجيران :

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا !

وهذا المذهب في التحليل يفسر كل عادات العرب الاخرى ، فالمفاخرة بالانساب نوع من الارستقراطيـــة وهو من مستلزمات حياة البداوة . والمعاقرة تطبيق للكرم وهو ان يتسابق اثنان أيهما اكثر ذبحاً لإبله . والنضال تمرين على الحرب وهو المباراة برمي السهام والاصابة بها ولها أنواع ثلاثة : مبادرة ، ومحاطّة ، ومناضلة .

وهناك عدا هذا عادات اجتماعية أخرى لها مراسيمها الخاصة كالاستقسام بالأزلام عند هبل . وهي نوع من استشارة الغيب أو معرفة رأي الآلهة ، والزجر والعيافة وهي الاستدلال بطيران الطير او بصوته على الحوادث . والطرق بالحصى لنفس الغرض . والفـأل والطيرة وهي التفاؤل والتشاؤم بالطيور والاسماء والاعمال . الخ وجز النواصي وهو انهم كانوا إذا اطلقوا الشريف من الاسر جزوا ناصيته ليفخروا بها . وإذا اسروا شاعراً عدواً ربطوا لسانه بنسعة ، وإذا مرض الامير حملوه على الاعناق ، وإذا تنصبوا للثأر حرموا على انفسهم الخمر ... الخ .

وهناك آفات تشيع في المجتمع الجاهلي ، كالادمان على الخمر واستباحة النساء والقمار ، ولعل فيما يصف طرفة في معلقته من خصال الفتى الثلاث وهي : الخمر والفروسية والتمتع بالنساء ، ما يشير إلى الفخار ببعض الآفات الاجتماعية . فحديث الخمر في الجاهليـــة جرى على كل لسان ، واشتهر بالحديث عنهـا وعن كؤوسها ودنانها وحوانيتها ومجالسها اعشى قيس ، وعدي بن زيد العبادي الحيري . وعرض لها كثيرون في اشعارهم مفاخرين بانهم يحتسونها ويقدمونها لرفاقهم . واكثر من كان يتجر بها اليهود والنصارى وكانوا يجلبونها من بصرى وبـــلاد الشام ومن الحيرة . ويقال ان باعة الخمور المتجولين بين القبائل كانوا يضربون خيـامهم في بعض الاحياء او بعض القرى أو ببعض المخيمات عند المنتجعات ، ويضعون فوقها راية تعلن عنهم ، فيأتيهم الشباب ليشربوا وليسمعوا القيان ممن يصاحبنهم .

مكانة المراة في الجاهلية :

كل حكم مطلق فيما يتعلق بمكانة المرأة الجاهلية يخطيء في الغالب ، ذلك لأن قيمة المرأة كانت تختلف باختلاف الزمن وباختلاف القبائل والحضر ، وباختلاف المكانة الاجتماعية . والشيء العام الاكيد هو أن عمل المرأة في البيت دوماً الاحتطاب وجمع الماء وخياطة الثياب ونسج الخباء . الخ ... فاذا كانت الحرب خرجت تشجع الرجال وتنقر على الدف وتضمد الجراح وتمنع من الفرار .

ونستطيع القول بجانب ذلك ان المرأة كانت تعطى المكان الثاني في المجتمع البدوي ، لأن القيم الاجتماعية عند الاعراب مبنية على أسس لا يمكن للمرأة ، بحكم عوامل كثيرة فيزيولوجية واجتماعية ، أن تحوزها ، ومتى كانت إحدى النساء تتخطى قدرها ، وتمتاز بشيء بما يميز الرجال رفعت مكانتها ولم يضن عليها الناس بالتقدير . وهكذا وجدت بين نساء العرب شاعرات وتاجرات وكاهنات ذوات شرف وسيادة ومكانة كما اشتهرت الغازيات في الحروب والمتميزات بميزة كزرقاء اليمامة مثلاً ... وكان من تقاليد الاشراف مثلاً ألا يزوجوا بناتهم إلا بعد مشورتهن ، ومنهن من كانت تشترط حق الطلاق فلا تدافع . كما ان العربي كان ينتسب لأمه انتسابه لأبيه . ثم ألم يكن الشعراء يستفتحون قصائدهم بالنسب كأحب شيء إلى قلب البدوي ؟

غير ان الذي نذكره هنا هو حوادث فردية محدودة ويجب ألا تحجب عنا الواقع : فالمرأة كانت دون الرجل ولو أنها تمتعت بحرية واسعة لديه ، ويظهر ذلك في نواحي كثيرة نذكر منها ما صوره القرآن الكريم مثلاً قال تعالى : « وإذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى عن القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب

ألا ساء ما يحكمون » . ونفهم مبلغ هذا الحزن لولادة الانثى إذا عرفنا ان المجتمع كان يتطلب قوى لحمايته والانتاج له ، والمرأة في حاجة للحماية وهي مستهلكة وتنتج مستهلكين !!

ونقف عند ظاهرة « الوأد » فقد طالما ذكرت ، وندد الكتاب بها، والحق أنها أول كل شيء لم تكن عامـــة في العرب ، ولكن في بعض قبائلهم ، ولم تكن عامة في هذه القبائل ولكن لدى الفقراء فيها ، ثم لم يكن يلجأ الفقراء إلى الوأد إلا في سني القحط والاملاق ... وأخيراً لم يكن جميع الفقراء يقومون به فهو ظاهرة محدوده تماماً نستطيع ان نعرف قلتها من فخر الفرزدق بأن جده افتـدى قبل الاسلام مائة موؤدة ، فلو أهملنا مبالغة الفرزدق جانباً ، لرأينا أن هـذا العدد بالنسبة لسكان الجزيرة العربية ضئيل ، عدا ان هذا الثري وامثاله كانوا يفتدون الموؤودات ، فيخففون بذلك من خطر تلك الظاهرة . ولم يكن الوأد خوف العار ولكن « خشية إملاق » ولعله صورة من تنازع البقاء للتخفيف من النسل المتكاثر.

ولعله حل عملي للتخلص من عدد النساء الذين كن يزدن كثيراً عن الرجال بسبب الغزوات المتوالية والحروب الطوال التي تقلل اعداد الذكور ، اذ من الثابت ان عدد النساء في الجاهلية زاد دائماً على عدد الرجال اضعافاً مضاعفة ؛ فاذا اضفنـــا إلى ذلك مـدرك العرض عند البدوي الجاهلي خاصة وقسوة الحياة الاقتصادية ، وضحت لنا المشكلة التي تعرضت لهـا الحياة الاجتماعية يومذاك . والحل المحتوم الذي قبلته الحياة الجاهلية هي ان يجعل الرجل الواحد في عصمته عدداً كبيراً من النساء ، حتى تظل الانساب معروفة في عمودها المخصوص من الرجال ، ولو قبل الجاهلي ان يترك النساء الزائدات على عدد الرجال يتصفحن وجوه الرجال لاختلطت الأنسباب ، وفقد البدوي الجاهلي الفخر الاعظم في حياته الاجتماعية .

من اجل ذلك ساد تعدد الزوجات سيادة مطلقة ، ولم يحدد عرف او تقليد عدد الزوجات المطلق ، وتعددت اشكال الزواج فعندهم غير الزواج العادي بالصداق او العقد (وهو الشكل الذي اقرّ به الاسلام فيما بعد) زواج المتعة وهو زواج لأجل ، متى انقضى وقع الفراق ، وزواج الشغار وهو تبادل الاخوات بين المتزوجين . وزواج الاستبضاع (وهو لا يختلف عن الزنا في شيء ، فكان إذا اعجب رجل بفارس او بطل شريف اذن لاحدى زوجاته ان تستبضع منه . وكان هذا نادراً جداً) وزواج الرهط دون العشرة بامرأة واحدة ، وزواج المقت (وهو ان يرث اولاد الرجل نساءه اذا مات ، على الا يتزوج احدهم أمه التي ولدته) وزواج الاسترقاق (بالشراء) ، وزواج السبي . . . الخ . . وهذا كله ان دل على شيء فعلى بقاء النسل في كل قبيلة صريحاً معروفاً . حتى الاتصال بالبغايا في الجاهلية كان كثيراً ما ينحو هذا المنحى . فمعاوية يلحق زياد بن سمية بنسب ابيه ويعتبره اخاه شرعاً . واذا كان اليمنيون يفخرون بان حكمتهم النساء ، فان بعض العرب عيرّهم بان حكمتهم امرأة .

وهذا كله إن دل على شيء فعلى أن مكانة المرأة لم تكن كبيرة الاحترام إلا في بعض الأحوال الخاصة .

الحياة الفكرية :

لم يكن عرب الجاهلية في جزيرتهم في عزلة عن العالم المعاصر لهم ، فإن الامارات التي على التخوم الشمالية والدول العربية القديمة ، والتجارات الرائجة الغادية بين بوادي العرب وواحاتهم ، من جهة ، وبين مناطق الحضارة الفارسية والبيزنطية من جهة أخرى ، ثم دخول كثير من اليهود والنصارى مع كتبهم السماوية وعقائدهم إلى بلاد العرب ، كل ذلك كان من شأنه أن

يخرج عرب الجزيرة من العزلة ويصل بين أفكارهم وبين العالم . وانا لنجد أثر حياتهم العقلية المتطورة واضحاً في القرآن الكريم الذي صورهم يجادلون ويخاصمون كأقوى مايكون الجدل والخصام ، حول مسائل شائكة كالروح والقدر وصفات الله والمعجزات الخ ...

غير أن هذا الاتصال بالأمم الأخرى رغم كثرة وسائله كان ضيقاً بسبب تفاوت المستوى العقلي والاجتماعي بين عرب الصحراء وبين الروم والفرس ، والاقتباس أكثر مايكون حين تتقارب مستويات الفكر ، ثم بسبب انتشار الامية بين الجاهليين ، هذا عدا ما يلحق النقل الشفهي للمعارف والأفكار من تشويه وتحوير واجتزاء ... وسنجد في بعض معارف عرب الجاهلية شيئاً من الاقتباس ، يقل ويكثر حسب نوع المعرفة وقابليتهم للاقتباس فيها . وسنرى أيضاً أن مجمل المعارف العربية الجاهلية لا يصح أن يسمى علوماً ، ولكنها معلومات تجريبية تحدد اتساعها وضيقها ، الحاجة والبيئة . وكذلك كانت هذه المعلومات شفوية تنقل بالمران ولم تعرف التدوين إلا في زمن متأخر بعد ظهور الإسلام .

الشعر :

ما استطاع عرب الشمال أن يبنوا حضارة مادية على الرمال فتبلورت حضارتهم في إتقان « اللفظ » الذي يحبونه . وهم يفوقون شعوب الأرض جميعاً باستحسانهم لهذا « السحر الحلال » الذي هو إحكام الألفاظ وجمال المنطق . ولذلك كان أعظم ما أثر عنهم هو توطيد اللغة العربية وقول الشعر .

والشعر عند العرب — كما عند اليونان — أول الأنواع الفنية التي ظهرت . وهو بضاعة الأمم في البداوة . وشعر الجاهلية — كالشعر العربي كله —

غنائي . بمعنى أنه شخصي يمثل نفسية قائله ثم انه يعتمد على الموسيقى . ولعله اشتق من ضلعها ، فاعتمد عليها أول أمره فكان يغنى . وأخذ منها أوزانه ، ثم تدرج في الانفصال عنها وبقي له منها إلى اليوم الإنشاد .

ثم إن الشعر الجاهلي – كالشعر العربي الإسلامي من بعده – يعتمد على سحر اللفظ لا على الحادث الزمني كما في الشعر اليوناني والغربي ، فكل روائعه صور تجمدت ، ولحظات فقدت الزمن فجأة فوقفت ، لا تتعلق بما قبلها ولا ما بعدها ، وحكمة اقتطعت من الحياة وليس فيها ذلك النسيج الخفي المتصل من الخيال الذي يربط الأجزاء ويدخل في الصورة عامل الزمن . وأخيراً فالشعر الجاهلي قليل الابتكار والتنوع يصرح أصحابه أن ليس من جديد يأتون به « هل غادر الشعراء من متردم ؟ » .

وقد انصبت مواضيع الشعر الجاهلي على ما يشغل خاطر البدوي : المرأة والناقة والحصان ، والفخر والمديح والهجاء والحكمة . وقد وصلنا من هذا الشعر نماذج كثيرة لعل معظمها منحول ، حمل على أصحابه لما ضاعت أقوالهم الأولى . وليس الانتحال مقصوراً على العرب ولكنه موجود لدى الأمم جميعاً كالرومان واليونان .. وكان للانتحال أسباب كثيرة منها السياسي ومنها الديني ومنها لتفسير القصص أو لهوى الرواة أو للشعوبية والدس !

وكان للشعر مقام كبير لدى العرب . كان يرفع ويضع ، ويثير الحرب ويرأب الصدع . ولعل قصة المعلقات تفيدنا هنا ، فالرواة يزعمون أن العرب تنخلت الشعر وانتقت منه سبع أو عشر قصائد كتبتها بماء الذهب على الرقاق وعلقتها بالكعبة تعظيماً لها . وهذه الأقصوصة إن لم تكن تدل على شيء ، فإنه يتبقى لنا منها فكرتها أي مبلغ تعظيم العرب للشعر . وكانت القبيلة إذا نبغ فيها شاعر أولمت له واعتزت به اعتزازها

بالمحاربين ، لأن دوره يشبه عن قرب دور الصحافة اليوم في نشر المفاخر ورد المثالب ومهاجمة الأعداء . وكانت سهولة حفظ الشعر وسيلة لروايته ونشره ، وقصائد الشعر كانت تعرض في الأسواق التجارية مع البضائع . ويروون ان قبة من أدم كانت تضرب للنابغة الذبياني في عكاظ ليحكم بين الشعراء الذين يقدمون لإنشاد قصائدهم عليه في الموسم . وهو تنظيم للسوق الأدبية لا ندري مداه ولا من كان يقوم به ؟ ويشبه ما كان لدى اليونان من تنظيم لمسابقة المأساة التمثيلية .

وقديماً قيل « الشعر ديوان العرب » بمعنى انه مستودع أمرهم كله ، وباعتمادنا على ما وصلنا من شعر جاهلي ، نلاحظ ان اوزان الشعر التي صنفها الخليل بن احمد بخمسة عشر بحراً ، تدل على عهد طويل من التكامل والرقي .

والقصائد الجاهلية في تركيبها وتبويبها تدل على وجود مدرسة طويلة العهد بالمران والتنظيم ، تبدأ ببكاء الاطلال ، ثم تنتقل الى وصف الناقة ، ثم الى غرض الشاعر من فخر او اعتذار او تشبيب او مديح . . ومن هنا جاء اتهام شعراء الجاهلية بعدم التنوع وقلة الابتكار .

الامثال والحكم :

هي أصدق دلالة على المستوى العقلي من الشعر ، لانها صوت الشعب العادي ، لم يداخلها صنعة الشاعر ولا وزنه ولا قوافيه ونحته ، والصعوبة في فصل أمثال الجاهليين عن الامثال الاسلامية بعد ان جمعها الجامعون معاً في كتب واحدة دون تمييز . وان كان بعضها واضح الاصل بموضوعه ولغته وروحه .

ودراسة ما ثبت لدينا من امثال جاهلية تدل على ايثار الجاهليين النظرة الجزئية الموضعية لا البحث الكلي الشامل .

ويلحق بالامثال ، ما عرف باسم الاحاجي والالغاز ، وهي نوع من اللعب الفكري ، وما ورد من قصص على لسان الحيوان وهو كثير ، ضرب للعبرة والعظة ، ويمكن أن نلحق أيضاً بالامثال العديد من الحكم التي كثر اجتماعها في خطب الخطباء .

القصص :

وهو باب كبير من أبواب الأدب ، ووجه من وجوه العقل الجاهلي ، والقصص الجاهلي متنوع الموضوع ، فهناك القصص عن ايام العرب ووقائعهم الحربية ، وهناك احاديث الهوى ، وهناك قصص المسامرة حول نار القافلة مساء ، وفيها المقتبس من قصص يونانية وفارسية .

الخطـابة :

تتصل نشأة الخطابة عادة بنشأة النثر الفني ، وهـذا النثر لا ينشأ إلا متأخراً بسبب الحاجـة فيه إلى الروية والفكر وإلى مستوى من الروية والفكر لا يتفق للبدوي البدائي . ثم إن الخطابـة بصورة خاصة لا تظهر في الشعوب عفواً كما تظهر باقي الفنون ، ولكنها ظاهرة اجتماعية تحتاج إلى نوع خاص من الحياة العامـة المتطورة ، ويحتاج حفظ الخطب إلى دراية بالكتابة ، وليست كالشعر يساعد وزنه وقافيته على استذكاره . ولا شك ان الخطابة العربية قد تأخرت كثيراً في ظهورها عن الشعر . وقد وصلنا من خطب العرب شيء يسير وهو على قلته ظاهر الانتحال في معظمه ، كخطبة قس بن ساعدة الايادي ، وخطب الوفد الذي قيل ان النعمان أوفده لكسرى . ونستخلص من هذه الخطب الخصائص التي كانت تميز الخطابة العربية الجاهلية . فهم كانوا يسجعون على الغالب ، ويوجزون

ليسهل الحفظ ، ويملؤون خطبهم بالحكم والأمثال ، متلاحقة ، متتابعة ، في ذلاقة وإحكام . وأحياناً يزجونها ببعض الشعر ، ومجال الخطابة واسع فكان العرب يخطبون في المفاخرة والمنافرة واصلاح ذات البين وفي الزواج وعند الوعظ . ومن عادات الخطباء أن يقفوا على نشز من الارض أو على راحلة وأن يستعينوا بالاشارات مع الكلام وقد يعتمدون على مخصرة في السلم وعلى السيف في الحرب .

والخطيب لسان قومه يقدمونه للكلام ؛ ومن هنا نشأت مكانة الخطيب المهمة ، ولو أنها لم تكن تساوي مكانة الشاعر . ومن اشهر خطباء الجاهلية قصي بن كلاب جد الرسول العربي ، واكثم بن صيفي ، وقس بن ساعدة الايادي ، ودريد بن زيد الحميري ، وزهير بن جناب ، والحارث بن عباد البكري ، وقيس بن مسعود الشيباني ، وعامر بن الطفيل ، وكعب بن لؤي ... الخ .

المعارف العربية : يمكن ان نجملها فيما يأتي :

علم النجوم :

وردت بعض معلومات العرب بهذا العلم في القرآن الكريم وفي الاخبار . ومنها يتبين لنا انه تسربت إلى عرب الشمال في الجاهلية بعض معلومات العرب القدماء مثل الكلدان وبابل من الشمال ، واليمن من الجنوب ، وقد احتاج العرب إلى علم النجوم للسُرَى بالليل وللتنجيم . وعبدت لديهم بعض الافلاك . ونستنتج من الاسماء الكثيرة التي اعطوها للنجوم ان لعرب الشمال باعاً طويلاً فيها فهناك المجرة والفرقدان والدبُران والعيوق والثريا وسهيل والسماكان والشعريان والزهرة ... الخ . بل ان أبا الحسين عبد الرحمن الصوفي (٣٧٦ هـ — ٩٨٦ م) اثبت نحو ٥٢٠ اسماً لمختلف النجوم عند عرب الجاهلية .

وقد لوحظ على صور العرب الفلكية انها مغايرة لصور اليونان وانها تجعل السماء صورة من حياة البادية ، يؤلف فيها البدوي ، في السموات العلى ، قصة حياته من جديد . كما لوحظ على معلوماتهم الفلكية أنها عملية ولا تعتمد على المسلمات العلمية والحساب ، وكانت تتناقل بالمران ولم يعن أحد بتدوينها أو التأليف فيها إلا فيما بعد الاسلام .

ولعل الكثير من هذا العلم إنما اقتبسه عرب الجزيرة من الكلدانيين من العرب القدماء وخاصة من الصابئة — عبدة الكواكب — يدل على ذلك تشابه اسماء البروج بين العربيـــة والكلدانية ، أو لعل مردّ هذا هذا التشابه هو اصل اللغتين الواحـد ... فمن اسمـاء البروج مثلاً الثور والسرطان والجدي يقابلها في الكلدانية : ثورا ـ سرطان ـ كديا . واسماء الكواكب ، فالمريخ في العربية يقابله مرداخ في الكلدانية .. وفي كلام العرب واشعارهم كثير من اسماء الكواكب كالفرقدين والسماكين والشعرى والجوزاء والزهرة والعيوق .

علم الأنـــواء :

كانت لعرب الصحراء مخايل في السماء والجو يستظهرون منها اوقات الخصب والمحل ، ونتاج الحيوان ، والحر والبرد ، وتفصيل الازمنة ، وسقوط المطر وهبوب الريح ، وكانت حاجتهم لمثل هذه المعلومات ملحة فأكثروا منها .

الطب والبيطرة :

لا يكاد يستغني مجتمع عن الطب . والطب عنـــد عرب الشمال في الجاهلية كان يقوم على مصدرين :

١ — التجربة العملية ، وكانت تتناقل بالتوارث والمران .

٢ — المعلومات العلمية ، وكان بعض عرب الجزيرة يسافر الى عواصم العالم

المتمدن آنذاك – فارس وبيزنطة – لتلقي الطب . ومن أولئك : الحارث ابن كلدة الثقفي الذي قدم اليمن كما ذهب الى جند يسابور في فارس وتعلم بها.

وكانت المعالجة مزيجاً من الرقي والعقاقير النباتية والحجامة والكي والبتر والفصد . وإذا اتخذنا اللغة دليلا تخيّل إلينا أن العرب عرفوا معظم الأمراض ووصفوا أعراضها واستعملوا كثيراً من الآلات الجراحية وذلك لغنى معجمهم بالمفردات وبالأسماء الطبية .

ومن أشهر الأطباء بجانب الحارث بن كلدة ابنه النضر ، وهو ابن خالة الرسول العربي ، التقى بالعلماء وتلقى عنهم الحكمة والفلسفة والطب ، أسر في معركة بدر فقتل . ومنهم ابن حذيم من تيم الرباب ويروون أنه أطب من الحارث ، ومن الجراحين ابن ابي رومية التيمي .

واقتضت حياة البداوة والرحلة والتنقل إلى العناية بالخيل والجمال والسوائم بأنواعها ، ومداواتها وإكثارها واستخدام كل منها لما يصلح له ، من البان او لحوم او جرّ وحمل او ركوب ، ومن اشهر بياطرة الجاهليين العاص بن وائل .

الانســاب :

والعلم بها ظاهرة تعرفها جميع الشعوب في الطور البدوي ، وقد عقد ابن خلدون في مقدمته فصلاً « في أن الصريح من النسب انما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معناهم » ويعلل ذلك بالعزلة الصحراوية التي يعيشونها .

عني العرب أي عناية بالأنساب وتفاخروا بها لأن مجتمعهم القبلي يقوم على رابطة الدم والرحم ، وكثيراً ما كانت الأنساب القديمة ترمم وتسد فراغاتها ، غير أن الأنساب الحديثة كانت تحفظ بتفاصيلها ، ويدعى

الناس لتعلمها ، ونجد صدى ذلك في قول عمر بن الخطاب : « تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد إذا سئل أحدهم بمن أنت ؟ قال من قرية كذا ! »

قسم النسابون المجتمع الى مراتب ست على ترتيب بنية الانسان وهي ما علمناه من الشعب والقبيلة والعمارة ... الخ . وكانوا يحفظون بجانب الأسماء في النسب المفاخر والمخازي فكان علم النسب بمثابة تاريخ للقبائل العربية وأيامها .

واشتهر من علماء النسب دغفل بن حنظلة الدوسي الذي ضرب به المثل . فقيل : أنسب من دغفل . ومنهم ابن لسان الحمرة واسمه ورقاء الأشقر وعبد الله بن حصين من تيم اللات . والنخار بن أوس القضاعي . وزيد ابن الكيس النمري ، وصعصعة بن صوحان وأبو بكر الصديق .

الفراسة والقيافة :

الفراسة هي الاستدلال بهيئة الشخص وكلامه وظاهر اعضائه على اخلاقه وصفاته . والقيافة هي تتبع الأثر أياً كان قدماً أم خفاً أم حافراً . ونعرف ضرورة هذا العلم القائم على التجربة والمران الطويل اذا عرفنا أن البدوي معرض للغزاة دوما . وللتيه في الفلاة وللتقصير عن قومه . الـخ وقد ذكر عن العرب في هذا الباب ما يكاد يعد من المستحيلات . قالوا إنهم كانوا يميزون بين قدم الرجل والمرأة ، والبكر والثيب ، والشيخ والشاب ، والأعمى والبصير ، وربما نظر القائف أشخاصاً عديدة فألحق الابن بأبيه ، وميز الاجنبي عن الغريب . ولعلنا نذكر قصة أولاد نزار الذين وصفوا بعيراً ضائعاً لصاحبه دون أن يروه فاتهمهم باغتصابه !

واشتهر بالقيافة من العرب بنو مدلج من كنانة وبنو لهب من الأزد ولا يزال هذا العلم في البدو إلى اليوم .

ولدى عرب الجاهلية عدا هذه المعارف ، الريافة وهي معرفة مكامن الماء في الأرض . ولديهم أيضاً :

الكهانة والعرافة :

وكلاهما يعني التطلع للغيب ، وربما اختصت الكهانة بالمستقبل والعرافة بالماضي . ويتمثل جزء البدوي من القدر في هذين العلمين اللذين وجد مثلهما في بابل ، ولعلهما إرث من تلك الحضارة ، كما وجد شبيه بهما لدى الاغريق في معبد دلفي ، وعند المصريين في معبد سيوه ، وعرفنا شيئاً قريباً منهما لدى الرومان .

لفقت الكهانة العربية بكثير من الأساطير بحكم طبيعتها ويمكن أن نتبين مما يروى أن الكاهن كان مرجع القبيلة في كل معضل : يستشيرونه في الحوائج ويستنبئونه المستقبل ويستفسرونه الرؤيا . وكان العراف خاصة يكشف المخبآت ويعالج المرضى ، وتتصل العرافة من هنا بالطب . ويعلل الأعراب هذه المعرفة الشاملة عند الكاهن والعراف بأن لهما أتباعاً من الجن تسترق السمع إلى السماء وتحمل إليهما كل خبر . ولسؤال العراف والكاهن وجوابهما مراسيم معينة ، وكانت أجوبة الكهان تعطى سجعاً ، وقد حمل عنهم من السجع شيء كثير . وكثرة ما وصلنا من أسماء الكهان دليل على انتشار الكهانة على مقياس واسع لدى عرب الشمال والجنوب على السواء . ومن مشاهير الكهان : سطيح بن مازن قيل إنه يدرج كما يدرج الثوب ، لا عظم فيه إلا جمجمة رأسه . وشق بن صعب وكان شق رجل أي ذا يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة .. إلخ وطريفة الكاهنة الحميرية وزبراء من بني وئام وسلمى الهمذانية وضافر بن التوأم وسواد بن قارب . ومن مشاهير العرافين : عراف اليمامة ، رباح بن عجلة ، وعراف نجد الأبلق وفيهما يقول الشاعر :

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفياني

العقائد الدينية قبل الاسلام :

عرف عن عرب ما قبل الإسلام أنهم وثنيون ، وعرفت وثنيتهم وتقاليدها في القرآن الكريم « بالجاهلية » . وبالرغم من ذهاب معظم أخبارها ، فقد تسرب إلينا نتف كثيرة من أساطير الجاهليين ومعتقداتهم وأفكارهم ، وكلها تدل على أن الوثنية العربية ليست بسيطة التركيب ولا قريبة المتناول ، فما وصلنا منها يدل على أنها في مرحلة راقية، وأن كثيراً من قديمها قد بقي في متأخرها وأن بعض أحوالها صبغ بالأفكار اليهودية أو الصابئية أو المسيحية ، أو اتحد مع عقائد أجنبية . ومن الضروري أن نلجأ في تفهمها إلى تصنيف تاريخي يمهد لبيان تطورها وتعقدها مع الزمن .

واستعراض الأساطير والعقائد العربية الجاهلية يدلنا على أن الوثنية العربية مرت في أطوار تشبه تلك التي مرت بها وثنيات الأمم الأخرى فإنها عرفت :

١ً) الطور الحيوي : وفيه اعتقد العرب أن في كل شيء حياة ، فعبدوا الشجر والحجر والجن ،واعتقدوا أن العُشَر شجر الشياطين . وأن الصفا والمروة هما : رجل وامرأة فسقا في الحرم فمسخا حجرين وأن الضب هو يهودي مسخ فلا يؤكل لحمه .. وأن حجارة الحرم تحمل قدسيته فهم يحملون منها للعبادة في ديارهم .. الخ .

٢ً) الطور الطوتمي : وفيه تحصر الحياة والأرواح في أشياء محدودة ؛ ومن بقايا هذا الطور ما وجد عندهم من تسمية الإنسان بأسماء الحيوان ومن عبادة بعض البهائم ، كالجمل الأسود عند طيء ، والكبش الابيض ؛ ومن التشاؤم بالغراب والبوم . ومن عبادة أصنام على شكل الحيوان كيغوث وهو على شكل نسر ، ويعوق وهو على شكل فرس . إلخ .

٣ً) الطور الوثني وتعدد الآلهة : وفيه وصل العرب إلى تصور الإله

بأشكال إنسانية ، وتعددت الآلهة عندهم وتخصصت ومهدت للطور الوحداني الذي جاء بـــه الإسلام .

وقـد أدرك الإسـلام العرب وهم في هذا الطور الوثني فلندرسـه في وضعه الأخير :

يزعم الرواة أن عمرو بن لحي هو أول من نصب الأصنام في الكعبة : رأى جماعة في هيت يتعبدون فطلب منهم صنماً فأعطوه . كما يزعمون أن أبا كبشة هو أول من أتى بعبـادة النجوم . وهما روايتـان رمزيتان لا يستخلص منها إلا أن بعض الوثنية العربية قد دخلت إلى العرب من البلاد الأجنبية . وهي لاشك تسربت تسرباً مع التجارة والاختـــلاط والتقليد فأضيفت إلى الوثنية المحلية المتطورة . وإلى ما ترسب من أطوار العقيدة الأولى ووجدت جميعها معاً .

وقد عرف الجاهليون ــ الحضريون خاصة ــ حياة دينية عميقة يعكس لنا القرآن الكريم صورة واضحة لها في ذلك الخليط من المتدينـين بكل دين الذين أحاطوا بالنبي يجادلونه وينافحونه ويدفعون عن آلهتهم ومعتقداتهم ضده . ولا شك أن الأعراب اقـل تديناً من أهل القرى ، بعضهم يرمي الصنم بالازلام حين لا يوافق رغبته (كامرىء القيس)، وبعضهم يأكل ربه « المصنوع من التمر » (كبني حنيفة)، وثالث يضرب الإله ــالوثن بالحجر لان إبله أجفلت منه فتفرقت . ومع ذلك فكل من أهل القرى والأعراب كانوا يشتركون في تقاليد دينية واحدة يحجون ويعتمرون ويصومون وينشئون البيوت الدينية (كالهياكل) ويتوجهون إلى الأوثان بالرغائب.. على اختلاف في مدى الاحترام لها . ويمكن أن نعد من العقائد العربيـة الخالصة في الجاهلية عبادة :

ذات أنواط : وهي شجرة قرب مكة يناط بها السلاح ويذبحون عندها كل سنة ويعتكفون يوماً .

ذو الخلصة : وهو بيت في قرية ثروق قرب اليمن له سدنة وحجاب، ويحج إليه الناس ويطوفون وينحرون كما يفعلون عند الكعبة ، فيه صخرة بيضاء وشجرة هي الخلصة ، ويستقسمون عنده بالأزلام ، كما فعل امرؤ القيس .

سعد : وهو صخرة طويلة قرب الشاطىء ومثلها الحطيم وهي عـــدة صخرات قرب مكة .

الكعبة : وسنأتي على ذكرها بعد .

أما العقائد الدخيلة على العرب فهي أكثر عدداً وأوضح صفات ، ومنها :

هبل : وهو كبير الآلهة العربية الجاهلية، كان تمثالاً من عقيق أحمر على صورة الانسان ، مكسور اليد اليمنى ، أدركته قريش كذلك ، فجعلت له يداً من ذهب ، ونصبته في الكعبة ؛ ويستقسمون عنده بأقداح سبعة . ويقارب أن يكون اسمه (هبعل = البعل) ولعله يقابل (مردوخ) البابليـين وبعل الكلدانيين . فأصله لاشك دخيل ، وبمقارنة وظائف هذه الآلهة مع ماروي عن هبل يتضح لنا أنه كان إله الخصب والرزق ، ومن ثم إله السعادة عند العرب وربما كان أيضاً إله الحرب

وكان في جوف الكعبة امام هبل ، سبعة اقداح مكتوب في احدهـا « صريح » والآخر « ملصق » فإذا شكوا في مولود اهدوا الى هبل هدية ، ثم ضربوا بالقداح (السهام) فان خرج صريح الحقوه بأبيه ، وان خرج ملصق دفعوه . كما كان فرع آخر منها مخصصاً للزواج ، ورابع للسفر ، وخامس للتجارة وهكذا .. فاذا اختصموا في امر أو ارادوا اما سفراً او عملاً أتوه فاستقسموا بالقداح عنده ، فما خرج عملوا به وانتهوا اليه ... وعنده ضرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله .

اللات : وهي إلهة الشمس ، وقد عرفنا أنها عبدت لدى الأنباط، أخذها العرب غالباً عن طريقهم وكانت تمثل عند النبط بصخرة مربعة

العزى : هي عشتار ، اوفينوس ، عبدها العرب القدماء في اليمن وبابل ولدى الأنباط والتدمريين ، وكان لها بيت وعليه سدنة وبه تمثال للعزى : امرأة ذات قناع ولعلها ترمز إلى إلهة الجمال والزواج .

وهناك أيضاً مناة : إله الموت (كما عند الأنباط) ، ثم (ود) إله العشق والحب .. الخ ، ويغوث : الذي كان يحارب مع عبدته ، و (يعوق) و (نسر) و (سواع) ، كما كان من آلهتهم رضا وتيم وشمس لتميم وذو الشرى وله معبد ضخم في سلع (بطرا) ،ويقابل الاله ديونيسيوس عنداليونان اله الخصب والخمر .

وقـــد عبد العرب بجانب هذه الأصنام ، الافلاك ولكن في عصر متاخر جداً . لأن عبادة الشمس والقمر والنجوم تحتاج إلى تجريد لم تستطعه العقلية العربية أول الأمر . ويظهر أن عبادتها كانت ترفق ببعض الطقوس فلها هياكل عليها السدنة ، ولها صلوات ثلاث في اليوم ، ولها صوم أيام معلومة من الشهر . يتبعها عيد ورقص وغناء ومعازف .. الخ . ويروى أن ملوك الحيرة كانوا يقدمون الضحايا البشرية من اسراهم للإله — الكوكب الزهرة (فينوس) أو (عشتار) — وإذا كانت عبادة الافلاك خطوة نحو الرقي الديني ونحو التفكير بالإله فإنا نستطيع أن نتبين هذا التقدم الفكري في ناحية أخرى حين بدأ اسم « الله » الذي كان يعطي لكل صنم معبود ، ينفصل عن الصنم ويقوم بنفسه ، وأضحت الأوثان بعد ذلك واسطة للعبادة لا هدفاً لها . « وما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » .(القرآن الكريم).

وسجلت العقلية العربية تقدماً آخر يشهد به القرآن أيضاً حين رد بعض العرب كل أمر لعلة واحدة هي (الدهر) « وما يهلكنا إلا الدهر » . ولا شك أن الحنيفية دين إبراهيم الخليل التي كثر أتباعها قبل ظهور الاسلام في مكة ، وجدت بتأثير التقدم العقلي من جهة ، والاتصال بالديانات الموحدة من جهة اخرى ، يدلنا على ذلك أشخاص معتنقيها : ورقة بن نوفل . وعبد المطلب بن هاشم . واكثم بن صيفي . وقس بن ساعدة الأيادي وأمية ابن أبي الصلت . . الخ .

وأخيراً وجدت في جزيرة العرب أيضاً الديانتان السماويتان اليهودية والنصرانية :

اليهودية : وقد دخلت إلى الجزيرة من يهود فلسطين بدليل انتشارها في الحجاز على الطريق الشامي . ولا نعرف تاريخ دخولها ولعله يرجع إلى أيام الاضطهاد الروماني ، والسلوقي من قبله ، لليهود . ولانستطيع أيضاً أن نجزم بشأن يهود الجزيرة هل هم يهود الأصل أم هم عرب تهودوا، ولعلهم خليط من الاثنين . وقد نشر اليهود ثقافتهم وأفكارهم الدينية وصدى مجالاتهم الفلسفية بين العرب ، واشتهروا بمعرفة الأنبياء والإلهيات ، حتى سألهم العرب عن نبوة محمد بن عبد الله ﷺ . وأعظم مراكزهم كانت في يثرب وخيبر .

النصرانية : ولم تنتشر هذه الديانة كثيراً بالرغم من إحاطتها بالجزيرة العربية من الشمال ومن انتشار بيعها في الصحراء ، ومن محاولة الأحباش في اليمن بثها ونشرها حتى بين عرب الحجاز ونجد ، زمن كنيسة « القليس » وحملة الفيل . ولعل سبب ذلك حداثتها ، وقصور الأعراب عن تفهم الفلسفة التي أحيطت بها وعن قبول أعاجيبها .. الخ بدليل أن أفكارها إنما وصلت إلى الطبقة المستنيرة من حضر العرب .

الحياة الاقتصادية :

فرضت البيئة نوع الاقتصاد الذي يعيش به البدو فالمواد الاولية هي لدى البدو ، المنتجات الحيوانية من الوبر والصوف والشعر ، والألبان ومشتقاتها واللحوم والجلود والشحوم والتمر . ثم لدى اهل القرى نجد منتجات الواحات من قمح وزراعات محـــدودة . والقبيلة كالواحة وحدة اقتصادية مغلقة فيها نجار وحداد وحلاق وبعض الصناعات البدائية من طب وبيطرة وإصلاح اسلحة ونسيج ...

ولما كان الفقر هو الصفة العامة وبغض المهن واحتقـــار الزراعة هما الفكرتان السائدتان لأن العمل والانتاج في العرف البدوي ليسا جديرين بالرجل الشريف ؛ نتج عن ذلك أن توجه العرب إلى :

١ ــ الغزو المتبادل : غزو قوافل التجــار ومناطق الحضر والقبائل الاخرى .

٢ ــ استغلال موقع البلاد بالتجارة ما داموا لا يستفيدون منها في الانتاج.

أما الغزو فقد ذكرناه ؛ واما التجارة فقد احتلت بالضرورة مكاناً محترماً لدى العرب فعملوا بها : وسطاء ، وناقلين للبضاعة أو تجـاراً لحسابهم . وساعد انهيار اليمن والانباط وتدمر وقلة اهتمام الشام والعراق بالعمل التجاري على ارتفاع قيمة الواحات والقرى الحجازية الواقعـة على الطريق بين اليمن والشام . وعادت الحياة لهذه الطريق القديمة ، عبر الجزيرة العربية بين الشرق والغرب . وبرز للعالم التجاري قبيلة وقرية حجازيتـان ، أما القبيلة (فقريش) وأما القرية (فمكة) أم القرى .

وتجارة الجزيرة كانت قسمين : تجارة خارجية وتبادل داخلي .

استولت قريش على التجارة الخارجية في القرن السادس ونظمت رحلات

قوافلها ووطدت علاقاتها مع الامم المجاورة « بالإيلاف » ، وهي المعاهدات التجارية . وفتحت في مكة بيوتاً تجارية (وكالات) للروم والاحابيش وعرف العرب القروض بالفائدة وبالغوا في الربا واصبحت عقلية الكثيرين عقلية تجارية انعكست في تفكيرهم ولغتهم وأعمالهم ؛ نجد ذلك واضحاً تمام الوضوح في خطاب القرآن الكريم لهم كقوله تعالى « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم » « هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله » « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ». « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » . ونجد مثل ذلك في الأمثال العربية وفي « مبايعة » الخلفاء بالملك ، وفي كثرة ألفاظ السفر والبيع والتجارة في اللغة . الخ . .

وبلغ من تعلقهم بالتجارة أن رسول الله كان مرة يخطب لصلاة الجمعة فوصلت القافلة ، فترك المصلون الصلاة اليها فأنزلت الآية « وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً ، قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة .. » ولعل مما يستلفت النظر ان الرسول العربي (ﷺ) والخلفاء الثلاثة الأول كانوا تجاراً وكذلك معظم الصحابة ، أما عروض التجارة فهي عروض تجارة اليمن القديمة مضافاً إليها التمر والزيت والأدم والبرود ، وكانوا يرجعون من الشام والحيرة بالزيت والخمور التي عم شربها والنسائج الحريرية ... الخ . وقد اختص اليهود بالربا والمعاملات المالية وباستيراد البلح والشعير والقمح في شمال الحجاز .

أما التبادل الداخلي في الجزيرة فكان يتم في :

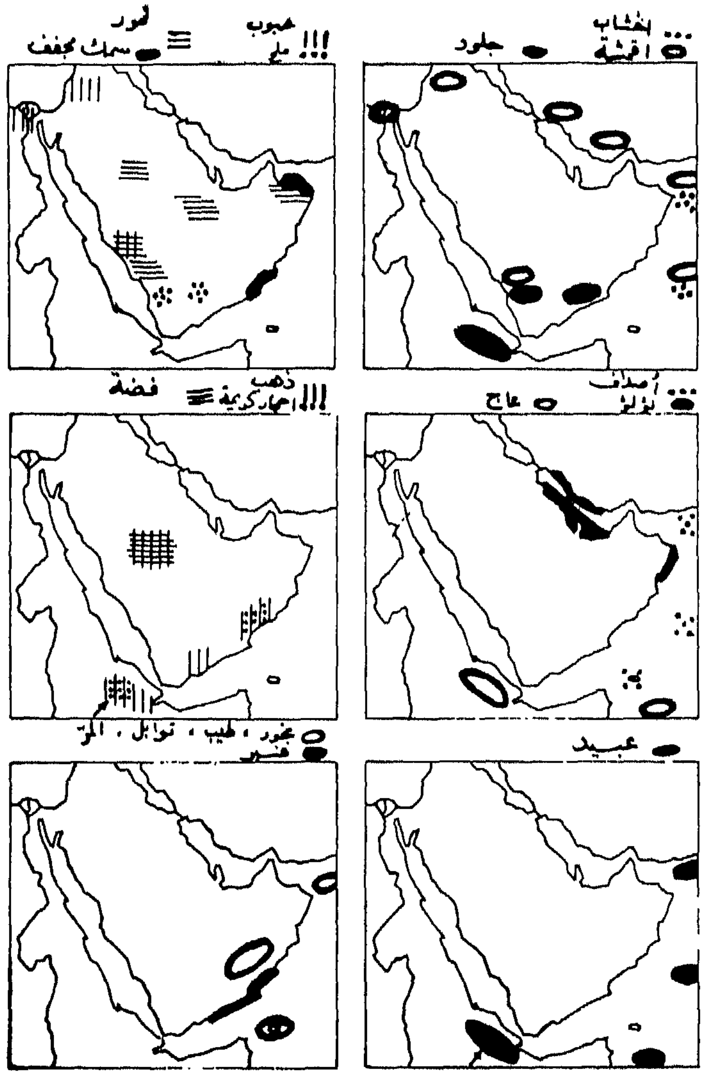
اسواق العرب :

وهي أماكن معينة يلتقي الناس بها في مواعيد معينة لتبادل عروض التجارة ، ولا تهمنا منها الأسواق المحلية بين قريتين أو قبيلتين ، ولكن تهمنا

منها الأسواق العامة التي تتجاوز التجارة إلى كثير من الشؤون الاجتماعية الأخرى . وكانت الأسواق القريبة من السواحل أو الطرق أهم من الأسواق الداخلية ، لأن هذه مقصورة على قبائل العرب وتلك أكثر تنوعاً في الرواد وفي السلع .

كانت هذه الأسواق حولية أي دورية من الحول إلى الحول ؛ ينتقل العرب والتجار من إحداها إلى الأخرى فلا يحول الحول حتى يعودوا إلى السوق الاولى وهكذا .. وتحمى الأسواق من عبث الفاتكين والغزو بطرق شتى ، فأما ما كان في مناطق النفوذ الفارسي كسوق الحيرة والبحرين وعمان والمشقّر فيحميه عامل الفرس وتغلب عليه الصبغة الفارسية . وما كان منها في نفوذ الروم كسوق بصرى وأذرعات (درعا) وأيلة (العقبة) وغزة فيحميه الروم ويغلب عليه التنظيم الروماني . وما كان في جزيرة العرب فإما أن يحميه الأمير القريب من السوق كأمير دومة الجندل في في السوق التي تقوم في بلده وأمير اليمامة في سوق حجر .. الخ . وإما أن تحميها الأرض الحرم والاشهر الحرم أي أن تقام في أرض حرم العرب بها على أنفسهم سفك الدم (حول الكعبة مثلاً) أو في أشهر اتفق على إلقاء السلاح فيها كشهر ذي القعدة وذي الحجة والمحرم ورجب الاصم .

وهذه الهدنة المقدسة أوجدتها لدى العرب ضرورات اقتصادية واجتماعية فالتحمت مع المعتقدات الدينية . ويتناول حماة الاسواق في العادة « مكساً أو عشراً » من التجار مقابل الحماية والاذن بالتجارة ، إلا أسواق الاشهر والبقاع الحرم . وهذا النظام كله شبيه بما كان في أوربا في القرون الوسطى إذ كانت أسواق التجارة تعقد حول قصر السيد الاقطاعي فيجمع من أهلها إتاوة معينة ؛ أو حول الكنائس التي تعتبر منطقة حراماً لا يقربها



شكل — ٩٤ —

جزيرة العرب والمواد الاساسية لتجارة عرب الجاهلية ومناطق تواجدها

أحد بالأذى . كما كان رجال الدين يعلنون الهدنة الإلهية في أيام من الأسبوع والسنة معينة ، فيحرم القتال وتسلك البضائع طريقها آمنة .

وكان للعرب أنواع مختلفة من البيع كالرمي بالحصاة (يأخذ المشتري ما يصيبه بالحصاة بمبلغ معين) والملامسة (البيع دون النظر) والمعاومة (بيع نتاج عدة أعوام سلفاً) وحبَل الحبلى (بيع ابن الجنين الذي في بطن الناقة) والمزابنة والسرار .. الخ .

ولكن سوق نوع من البيع فسوق دومة الجندل بيعها بالحصاة وبيع سوق المشقّر بالملامسة والإيماء والهمهمة . . الخ .

وما كان اجتماع العرب في كثير من هذه الاسواق للبيع والشراء فقط بل كانت تقضى فيها كثير من الشؤون الاجتماعية والسياسية . وكلما كبرت السوق وزاد روادها زادت أهميتها واتسعت أغراضها فيجري فيها الفداء والأسر ودفع الديات والقضاء بين القبائل وطلب الزواج وجمع الإتاوات كما يعرض فيها نتاج القرائح من شعر وخطب وتجري فيها الدعوات الدينية المختلفة كما كان يفعل قس بن ساعدة وأمية بن ابي الصلت ثم محمد عليه السلام .

اهم اسواق العرب في الجاهلية عشرون :

كانت سوق دومة الجندل أول سوق تقوم في العام (أول ربيع الأول حتى منتصفه) ثم ينتقل إلى هجر (أول ربيع الآخر) ومنها إلى المشقر (أول جمادى الأولى حتى سلخه) ثم إلى سوق عمان (التي تنتهي بنهاية جمادى الاولى) ومن بعدها إلى سوق حباشه (الأيام الثلاثة الأولى من رجب) ومنها إلى سوق صحار (من عاشر رجب حتى الخامس عشر منه) فسوق دبا بجانبها (آخر يوم من رجب) ثم يتوجهون إلى سوق الشحر (في

النصف من شعبان) فإلى سوق عدن (العشر الأول من رمضان) يليها سوق اخرى في الحجاز (من نصف رمضان لآخره) فـإذا كان أول ذي القعدة بدأت سوق عكاظ التي تنتهي في منتصف الشهر (وتقوم في نفس الوقت سوق حضرموت وتستمر حتى آخر الشهر) فاذا كان العشر الأخير من ذي القعدة اجتمـع الناس في سوق مجنة ثم ينفضون منها إلى سوق ذي المجاز (الأيام الثمانية الأولى من ذي الحجة) ثم يحجون ويخرجون إلى سوق خيبر بعـد الحج ثم ينتهون إلى سوق حجر (بـين عاشر المحرم ونهايته) ومنها يصعدون شمـالاً حتى سوق دير أيوب (وهي قرية شيخ سعد اليوم بحوران) وبعدها بسبعين يوماً يقيمون سوق بصرى ثم سوق اذرعات (درعا) وقد يقصدون سوق الحيرة بالعراق حتى إذا أهل ربيـع الأول كان الحول قد حال فيعودون إلى دومة الجندل ...

عـكاظ . هي نخـل في واد بـين مكة والطائف في أرض الحرم . وكانت سوق عـكاظ أهم أسواق العرب على الإطلاق ويحسبها المرء مدينة من الخيام تقوم مـع هلال ذي القعدة وتنفض متى أضحى بدراً إلى قابل. وهي أحفل الأسواق بالناس يؤمها العرب من كل فج كما يؤمها غيرهم . ويحفظ الناس لهذه السوق حرمتها المزدوجة (في المكان والزمان) فاذا قاتلوا فيها ــ وقـد فعلوا مرات معدودة ــ سموا حروبهم تلك « بحروب الفجار » وأهم ما في هذه السوق أنها كانت سوقاً أدبية وسياسيـة بجانب كونها سوقاً تجارية ، وكل ما ذكرناه من أعمال العرب بالأسواق كان يتمثل بها ، أو لا يجري الكثير منه إلا فيها . ففيهـا المنافرة والمفاخرة والبغاء وحانات الخمر وإقامة الأنصاب للغادرين والأوفيـاء والمعاظمـة في المصائب وجمـع الإتاوات والأحلاف السياسية ، هذا عدا مجامـع الشعر والوعظ والدعوة الدينية

بقي كثير من أسواق العرب بعد ظهور الإسلام قائماً مدة طويلة .
وعمرت سوق عكاظ أكثر من قرنين ونصف القرن (بدأت قبل الهجرة بسبعين سنة واستمرت في الإســلام حتى سنة ١٢٩ هـ) وكانت سوقُ حباشة التي انفضت سنة ١٩٧ هـ آخر الأسواق العربية اندثاراً .

ولا نغالي إذا قلنا أنه كان لهـذه الاسواق أثر كبير جداً في ظهور العصبية العربية بين الجاهليين وفي توحيد عاداتهم ولغتهم ودفعهم في تيار الحضارة وتبيان حاجتهم إلى الأنقاذ والوحدة السياسية .

المدن : أهم حواضر الحجاز هي :

مكـة :

اختلف الناس في اشتقاق هذا الاسم والأرجـح أنه اسم بابلي أصله بكا = بيت وإذا تذكرنا الآية الكريمة « وإذ يبني إبراهـيم القواعد من البيت وإسماعيل » رجـع بناء مكة إلى القرن التاسـع عشر قبل الميـلاد ورجـع اسمها أيضاً إلى الاسم الذي أعطاه لهـا إبراهيم وابنه .ولا ننسى أنها من بين النهرين .

أقيمت قرية مكة حول البيت الذي هو معبد للعبـادة « بواد غـير ذي زرع قرب ماء أجاج (بئر زمزم). وتاريخها الأول غامض ، ولعلهـا سلخت مئات من السنين في النسيان . سكنها خلالها ــ حسب رأي الرواة ــ العمالقة أول الساكنين . أتراهم يقصدون بالعمالقة قوم إسماعيل ؟ الذي نعلمه أن إسماعيل قد تزوج من (جرهم) وهذه القبيلة اليمانية ما لبثت أن سادت مكة دون العمالقة ودامت ولايتها حتى سنة ٢٠٧ م إذ غلب على البـلدة قبيلة (خزاعة) وهم يمانيون أيضاً يقودهم عمرو بن لحي (أول من أدخـل الأصنام إلى العرب ؟) فلما كانت سنة ٤٤٠ م استطاع قصي بن كلاب أن يغلب على مكة فيدخل إليها قسماً من قومه : (قريش) ، قريش

البطاح (الأطراف) ، لا قريش الظواهر (الضواحي) ، ويبتدىء بقصي تاريخ جديد ليس لقريش ولكن لمكة كلها ، فهذا الفكر المنظم المبدع الذي يمكن أن يقارن لحد ما بصولون اليوناني أو بكبار رؤساء جمهورية البندقية . قطع البلدة أرباعاً وأنزل كل بطن من قريش في ربع . واستطاع بالمصاهرة أو بالغلبة أن يستلم مفاتيح الكعبة من آخر خزاعي يملكها . وقيل أنه اشتراها بزق خمر !! . ثم نظم أمور مكة على شكل مبتكر جمهوري – قبلي أو أوليجاركيه أُسَرية يمكن أن تشبه بجمهوريتي البندقية وقرطاجة لسيطرة الماليين من أرباب التجارة ورؤوس الأموال عليها .

أقام إزاء هيكل الكعبة داراً سميت دار الندوة جعل بابها إلى الهيكل ويجتمع فيها شيوخ قريش وأشرافها وهي أشبه بمجلس الشيوخ في النظم اليونانية والرومانية الأولى . ويشترط في عضو الندوة شرف المولد وبلوغ الأربعين ، وقد تولى قصي رئاستها ، ثم قنن باقي السلطات في المدينة وضمها إليه فكان له :

١ – اللواء : وهي سلطة الحرب فلا تعقد راية إلا بيده .

٢ – الحجابة : وهي حجابة البيت الحرام أي السلطة الدينية .

٣ – الحكومة : وهي السلطة القضائية وكان يشترك فيها مع الندوة ولعلها منحت لبني سهم .

ووزعت بعض الوظائف الثانوية على الأسر الأخرى فكان لبني أسد المشورة ، ولبني تيم الأشناق (الديات) ، ولبني عدي السفارة ، ولبني جمح الأزلام .. الخ

ولا يفترق قصي في وضعه هذا عن (الملك) في الملكية الرومانية الاولى . إلا بأنه لا يحمل لقب الملك . والمؤرخون المسلمون منحوه فيما

بعد هذا اللقب رمزاً لهذه السلطة الواسعة . وقد دعم قصي هذه السلطة بأن أوجد عملين يؤيدان مكانة الكعبة ونفوذ مكة الديني والاقتصادي وهما : السقاية والرفادة ، أي سقاية الحجيج وإطعامه . وفرض لذلك ما يشبه الضريبة على أهل مكة ، وقد أورث هذه السلطات جميعاً لابنه البكر عبد الدار . غير أن بني عبد مناف ، ابنه الثاني ، نازعوا ، فيما بعد ، أولاد عمهم عبد الدار ذلك كله . ثم اتفقت قريش على أن تكون السقاية والرفادة لبني عبد مناف وزعيمهم إذ ذاك (هاشم) . وتبقى الحجابة واللواء لبني عبد الدار . أما الحكومة فقد اختص بها بنو سهم .

لم يتغير نظام مكة بعد ذلك ولكنها تعرضت لخطر داهم في زمن سيادة عبد المطلب بن هاشم هي محاولة الأحباش تحطيم الكعبة سنة ٥٧٠ م وهم أصحاب « الفيل » « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ».

وترجع أهمية مكة في القرون التي سبقت الإسلام إلى أمرين :

١ ـ مركزها التجاري وقد عززته قريش بكل قوتها : نظمت القوافل ، فكان لها رحلتان : رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام، عدا الرحلات إلى الحيرة . وتزيدت في الدين ، وبالغت في نشر قدامة البيت الحرام لحماية نفسها وحماية تجارتها في الصحراء من غزو الفتاك .

وربطت علائقها مع الأمم المجاورة « بإيلاف » أي باتفاقات أو بأذون تجارية : عقد هاشم بن مناف أحدها مع أمراء الغساسنة والرومان فأذن له ولقومه بالتجارة مع الولاية العربية في بصرى ومع ولاية فلسطين في غزة ، وعقد عبد شمس أخوه إذناً آخر مع ملوك الحبشة بأكسوم ، ونال مثل هذا الإذن أخواه نوفل والمطلب من الحميريين في اليمن ، ومن فارس والمناذرة في العراق . ونشأت في مكة بيوت تجارية (وكالات) للحبشة وللرومان لعلها نتيجة لهذه الاتفاقات .

وبلغ من تغلغل التجارة في قريش أن قيل « من لم يكن من قريش تاجراً فليس بشيء » .

وقد هيأ لها التصادم المستمر بين الفرس والروم أن تزدهر تجارتها ، وكانت قريش تأخذ إتاوة تسمى « الحريم » إذا نزل تجار من عير مكة في بلدهم ، سواء كانوا عرباً أو أجانب إذ ثبت أنه كان ينزلها بيزنطيون وفرس للتجارة يدل على ذلك تواجد الصحابيين الجليلين صهيب الرومي وسلمان الفارسي في الحجاز ، واشتهرت عدة بيوت مكية بالثراء مثل بيت الأمويين والمخزوميين وعبد الله بن جدعان حتى أن بعض العرب كانت ترى سادة قريش فوق آل جفنة الغساسنة ، بل فوق كسرى وآل كسرى . وكان الشعراء يقصدونهم بالمديح طلباً للعطاء والنوال وقد جاء في تاريخ اليعقوبي أن عبد المطلب جد الرسول عليه السلام دفن في حلتين قيمتها الف مثقال من الذهب

وذاع الربا الفاحش فبلغ من ٤٠٪ إلى ١٠٠٪ وكثر الفقراء لتفاوت الثروات ، وانتشرت طبقة المدينين، وكان سداد الدين المستحق من القسوة بحيث يمس الأعراض أحياناً ، ويمس الحرية الشخصية

وقد أثرت التجارة على بعض القرشيين فتعلموا القراءة والكتابة من الحيرة كما تعلموا المفاسد الاجتماعية ، فكل كبراء قريش كانوا مثلاً ، تشربون الخمر ! وبعضهم يلعب الميسر .

٢ ــ مركزها الديني ووجود الكعبة فيها :

الكعبة : هي بناء مربع رفع قواعده على ما علمنا إبراهيم وابنه اسماعيل (عليهما السلام) وفي ركن منها الحجر الأسود ، ويظن أنه قطعة من نيزك سقطت من السماء ، وقد تهدمت الكعبة وأعيد انشاؤها مرات ــ على ما يظهر ــ

وكان آخر تهدم أصابها ، قبل الاسلام في أوائل القرن السابع ، فالتمس القرشيون بعض الروم المسافرين في البحر الأحمر فأعادوا بناءها ورفع محمد ابن عبد الله ﷺ (قبل البعثة) بيده حجرها الأسود إلى مكانه ، بعد أن اختلفت القبائل على شرف رفعه . وكانت الكعبة تكسى — كما هي حالها حتى اليوم — بكسى شتى من الحبرات والبرود وعصب اليمن والأنماط . ويجعل ما بقي من الكساء المهدى لها في خزانة بداخلها فإذا بلي شيء مما عليها أخلف عليها ثوب آخر ولا ينزع مما عليها شيء .

وكانت القبائل تشترك في ثمن الكسوة عدا مايهدى لها من الطيب والمجامر . وتعظيم الكعبة كان عاماً في العرب أشار إليه مؤرخ يوناني من القرن الأول للميلاد هو (تيودور الصقلي) . وقد عظم العرب الأرض التي تقع بها الكعبة فسموها الحرم وكانوا يرعون حرمتها أكثر من رعايتهم للأشهر الحرم بدليل أنهم انتهكوا حرمة هذه الأشهر فحاربوا أثناءها وتلاعبوا بها فكانوا ينسئونها (يؤجرونها) ، ولم يجترىء أحد على حرم الكعبة . وكان المنصرف من الحج يحمل معه حجراً من منطقتها يتعبده . وإذا خاف أحدهم من فتاك الطريق جعل في عنقه قلادة من لحاء شجر الحرم فلا يعرض له أحد بسوء . وقد حاول الأحباش صرف الناس عنها إلى المسيحية فبنوا كاتدرائية « القليس » في اليمن وزينوها بأروع التماثيل والزخارف فلم يفلحوا في ذلك فقدموا بحملة الفيل لهدمها ففشلوا أيضاً مما عزز مركزها تمام التعزيز .

دخلت الأوثان إلى هيكل الكعبة زمن خزاعة على ما يظهر وما زالت تكثر وتزيد القبائل فيها حتى حطم فيها رسول الله ﷺ عام فتح مكة (سنة ١٠ هـ) (٣٦٠) صنماً متعددة الأشكال والحجوم والمادة . وأكبرها صنم قريش العقيقي (هبل) وقد كانت جدران الكعبة مزينة

بالرسوم الوثنية ، ولعل الذين رسموها هم أولئك البناؤون الروم ، فهي إذن صور من الوثنيات اليونانية ؛ وقد أمر الرسول ﷺ علياً بن أبي طالب بمحوها ، عام الفتح فمحاها .

وكان للعبادة في الكعبة مراسيم معينة : يحج الناس إليها في التاسع من ذي الحجة فيحرمون ويطوفون ويلبون ويرمون الحجارة ويتمسحون بالأنصاب والأوثان والأصنام التي فيها ويهدون ماهم مهدون ، ثم ينصرفون . وكان أهل الحرم يؤمون الناس في المناسك ، وسدانة البيت عندهم وراثية في آل (عبد الدار) وهم يشبهون الأسر الدينية التي كان بيدها تنظيم الأعياد الدينية لدى اليونان .

يثرب :

تختلف عن مكة في أنها واحة كبيرة ذات بساتين فيها الفواكه والنخيل وألوان الثمرات . تقوم بين ثلاث حرار (الحرة الاحجار السوداء المتجمعة) ويجري إليها ماء (بطحان) كما يجري إلى غربها وادي العقيق .

وتاريخها كتاريخ مكة غامض المطلع ، وسكانها الأوائل لانعرف عنهم إلا أنهم يمانيون أي بعكس سكان مكة العدنانيين ، فإذا تذكرنا النزاع العدناني والقحطاني وأضفنا إليه ارتفاع نجم مكة وغناها بالتجارة وليس ليثرب شيء من ذلك ، وكلتاهما محطة قوافل ، عرفنا أن هناك منافسة كبيرة وعداء يختلف بين الهدوء والصخب كان يقوم بين حاضرتي الحجاز .

وقد قدم اليهود إلى يثرب ، في زمن نجهله ، والأرجح أنه كان في أيام الاضطهادات الآشورية ثم السلوقية والرومانية . ثم دخل يثرب قبيلتان عربيتان من الأزد هما الأوس والخزرج .

ويظهر أنهم أخرجوا اليهود إلى الحرة الشرقية ، حرة واقم ، حيث تجمعت قبائلهم بعضها بجانب بعض : بنو قريظة وبنو ظفر وبنو هدل وبنو النضر وبنو قينقاع وبنو عبد الأشهل وبنو حارثة .. الخ

وظل الأوس والخزرج في السيطرة على الواحة حتى مطلع القرن السابع للميلاد إذ اختلفوا فكانت بينهم حروب تهادنوا بعدها واتفقوا ؛ وكاد يتم في يثرب تنظيم دولة يرأسها ملك ، هو عبد الله بن ابي . لكن هجرة النبي ﷺ إلى المدينة غيرت مصيرها

وقبيل هذه الهجرة كان قد ظهر في يثرب رجل من حكمائها اسمه أبو عامر الراهب تأثر باليهودية كما تأثر بالمسيحية في الشام ورجع يدعو إلى دين ألفه فلما فشل بعد الهجرة الإسلامية ، فر إلى الشام ومات فيها .

وهاتان المحاولتان محاولة الدولة والدين ، تدلان على أنه كان في يثرب حركة فكرية وسياسية تحاول أن تتبلور وتأخذ شكلاً منظماً وجدته فيما بعد بالإسلام .

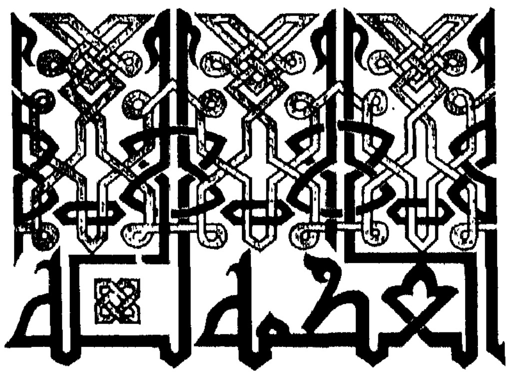
الطائف :

هي مصطاف أهل مكة وتقع في شرقها الجنوبي ، بلد النخيل والأعناب والمناخ الحسن . تقوم من دونها الحدائق والبساتين ويطيف بها سور لا تجد له شبيهاً في مكة ولا في يثرب ، ولعل سكانها وهم قبيلة بني ثقيف قد اقتبسوا فكرته عن اليمن .

وكان لبعض سراة المكيين أرباض وبساتين في الطائف لكن معظم الأرض لثقيف التي اشتهرت بالغنى . ويظهر من مجموعة أخبار البلدة أنها عرفت تقدماً حضارياً حسناً فكان أهلها يعلمون العرب الكتابة . واشتهرت فيها بعض الصناعات كالدباغة . كما أنها كانت ذات زراعة متقدمة ، وتجارة متصلة ، وشهرة بالربا ، والمعاملات المالية . وقد عرفت من آلات الحرب المجانيق والدبابة فاستعملتها في حربها ضد الرسول العربي (ﷺ) حين حاصرها بعد فتح مكة .

الباب الثاني

حضارة العرب المسلمين



الفصل الأول

أنظمة الحكم في الاسلام

الجاهلية والاسلام : تعتبر البعثة النبوية الحد الفاصل في تاريخ العرب من النواحي الدينية والاجتماعية والسياسية والثقافيــة ... ويسمى العهد الذي سبق البعثــة بالعصر الجاهلي ، كما ذكرنا ، والذي تلاه بالعصر الاسلامي . وليست كلمة الجاهلية مأخوذة من الجهل بمعناه المعروف وهو ضد العلم ، وإنما المقصود منها جهل العرب السبيل الحقيقي لمعرفــة الله وعبادته ، واتصافهم بكثير من العادات التي يجب أن لا توجد في مجتمع راقٍ متمدن ، وقد أبطلها الاسلام بتعاليمه ، كالسفه والأنفة والغضب والحمية ، والمفاخرة بالنسب لا بالعمل الطيب ، وقد أطلقت كلمة الجاهلية على جميع ما يمتّ بصلة إلى الفترة التي سبقت العهد الاسلامي .

وكلمة الاسلام جــاءت من السلم وهي تؤدي معنى السلام والأمن والمسالمة وعدم الخصام ، ثم أدت إلى معنى الخضوع والانقياد لأوامر الله ورسوله ، وأطلقت أخيراً كلمة مسلم ، على كل من اتبع ديانة محمد عليه السلام ، وأصبحت كلمة اسلام تـدل مع الزمن على معانٍ ثلاثة هي

دين – دولة – ثقافة : إذ يقصد بالاسلام الدين الاسلامي بجميع تعاليمه وعقائده ، ويقصد به الدولة الاسلامية التي أنشأها العرب بعد إيمانهم بالدين الجديد ، إذ بقي كثير من سكان البلاد التي فتحت في الشام والعراقين ومصر على دينه الأصلي ، مع خضوعه للدولة العربية الجديدة التي اتخذت الاسلام دينها الرسمي ، وكثير منهم دخل الدين الاسلامي لغاية سياسية بحتة وهي تخلصه من دفع الجزية التي تفرض على الذميين ، وليتقرب من الطبقة العربية الحاكمة . كما يقصد بكلمة اسلام ، الثقافة الاسلامية التي تطورت مع الزمن وأصبحت تمثل مزاجاً من ثقافات الأمم القديمة كالفرس واليونان والهند والسريان والآراميين ، فقد أحيت الثقافة الاسلامية بحق ثقافات الشرق الأدنى المندثرة وخلقت من تمازجها ثقافة جديدة ، ساهم بها العرب والعجم على السواء ، وكان انتصار العرب فيها من ناحيتي اللغة والدين ، وانتصار العجم فيها من النواحي العلمية والفنية التي اتخذت الطابع العربي – الاسلامي .

والواقع كان الاسلام عامل وحدة عربية بين العرب في الجزيرة والاطراف ، وعامل وحدة روحية بين اتباعه على اختلاف الوانهم ولغاتهم وتباعد ديارهم ، وعامل وحدة قومية لجميع الذين اصبحوا يتكلمون العربية مسلمهم ومسيحيهم ، فبفضل القرآن حفظت اللغة العربية الفصحى ، وبفضل القرآن والحديث نشأت علوم دينية ولغوية وادبية ونتاج فكري عام ، وصار الاسلام فيما بعد ، منذ بعث محمد ، حتى اليوم ، لا ينفصل عن الثقافة العربية ، وصارت الحضارة العربية ، حضارة الاسلام ، سواء ساهم فيها المسلمون او غير المسلمين ، عرب او عجم ، واصبح الاسلام بنظر المسلمين عقيدة وشريعة وحضارة ومثلا عالية ، وبنظر العرب المسلمين والمسيحيين معا ثقافة وحضارة وتراثا روحياً وامجاداً مشتركة[1] .

---

(1) نكتفي هنا ان نورد قولا واحدا لكاتب مسلم ، واقوال بعض كتاب النصارى في القومية العربية أو في الحضارة العربية يؤيدون هذا الراي :

تعاليم الاسلام : تقسم تعاليم الاسلام إلى قسمين : عقائد وأعمال :

العقائد : ويقصد بها الإيمان القلبي ومنهـــا قوله تعالى : « آمن

قال طه حسين في مؤتمر الادباء الثالث عام ١٩٥٨ م : « اذا اردنا ان نعرف متى تكونت القومية العربية ، فينبغي ان نردها الى ظهور الاسلام ، فالمكون الحقيقي للوحدة العربية بجميع أنواعها وفروعها ـ الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية واللغوية ايضا ـ انما هو النبي صلى الله عليه وسلم ، هو الذي جاء بالقرآن ودعا الى الحق ، حتى كانت الهجرة ، وحتى اسست اولى مدينة اسلامية ، او بعباره ادق ، اولى مدينة عربية منظمة عرفها التاريخ ، تكونت فيها النواة الاسلامية للقومية العربية ، وهي مدينة يثرب ، ولم ينتقل النبي الى جوار ربه الا وقد تمت وحدة الجزيرة العربية ووجدت قومية عربية منظمة لها قانونها هو القرآن ، ولها نظامها السياسي الذي يقوم على ما دعا اليه القرآن في العدل والانصاف والمساواة بين الناس ، ولها حكامها المنظمون والمنظمون ايضا .

وبعد ان اتم النبي توحيد الامة العربية ونهض خلفاؤه من بعده ، جعلت هذه القومية العربية تتجاوز الجزيرة العربية الى الاقطار الاخرى .. ولم يكد القرن الثاني ينتهي حتى ننظر الى القومية العربية فنجدها ليست في الجزيرة وحدها ، وانما هي قبل كل شيء في هذه البلاد التي فتحت والتي امتزج فيها العرب بغيرهم من سكان البلاد الاصليين .

اذن هناك قومية عربية جديدة انشأها ، لم تتألف من عنصر عـربي خالص ، وانما تتألف من جميع العناصر التي كانـت تسكن هـذه البلاد ، فانشأ الاسلام اذن امة جديدة ، وجعل هذه الامة عربية ، عربية اللغـة وعربية التفكير والشعور ، وعربية الحضارة وعربية الادب .. » .

واعلن امين نخلة ان للاسلام اعتبارين : احدهما العقيدة وهي خاصة بالمسلمين ، وثانيهما الثقافة واللغة والتاريخ ، حتى لكأن العرب جميعا مسلمون بهذا الاعتبار فقال : « ان ملة القرآن والانجيل تتلاقيان ، حتى كأن الاسلام اسلامان ، واحد بالديانة ، وواحد بالقومية واللغة ، أو كأن العرب جميعا مسلمون حين يكون الاسلام اهتداء بمحمد وتمسكا بقوميته وكلفا بلغته .. » واكد « ان محمدا صاحب رسالة عامة للبشر جميعا وهو في الوقت نفسه مفخرة للعرب كلهم » ، وأيده فيما ذهب اليه الياس خليل بقوله : « محمد هو لنصارى العرب كما هو لمسلميهم . ايها المسلمون ليس محمد لكم وحدكم ، ولكنه لنا ولكم ، هو نبي دينكم وهو شهادة حق مقدسة في ديننا ودينكم . ومحمد للقومي منا عربي عظيم من قريش .. مولد ابن عبد الله القرشي مولد للقوة ، وتحرر للجهاد لاخوة عربية مقدسة هي انقى اخوة عرفها بشري في عين بشري .. » .

الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلّ آمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ورسله .. »

فالإعتقاد بالله ، أول ركن من العقائد الاسلامية ، وإذا كان الاعتقاد بوجود إله للعالم يكاد يكون عامّاً بين الشعوب المتمدنة بعد اضمحلال عبادة الأوثان ، ونبذ فكرة تعدد الآلهة ، فان مفهوم الاله يختلف من اتباع ديانة إلى أخرى ، ويدعو الاسلام لعبادة إله واحد لا شريك له ، لم يلد ولم يولد ، رب السماوات والارض ورب العالمين خالق العالم ومدبر أمره ، أحاط بكل شيء علما . ومن العقائد الايمان بوجود ملائكته ، وكتبه المرسلة ، ورسل يختارهم الله من البشر فيبعثهم لهداية النـــاس ، وخاتم هؤلاء الأنبياء هو محمد عبده ورسوله أي هو بشير ، بعثـه الله ، وبلغه أوامره كما بلغ من سبقه من الأنبياء بواسطة الوحي الذي لم يكن أبداً عبارة عن تجسد الله وإنما من طريق روحي لم نعلمه حق العلم ، وقد أنزل القرآن على محمد فصار كتاب المسلمين المقدس والمرجع الأساسي لهم في جميع أمورهم الدينيـة ، كما أن من العقائد أيضاً الايمان باليوم الآخر أي يوم القيامة ، وبالحساب ، وبالجنة والنار ، وبالشياطين ، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى .

الاعمال : وتتناول شتى أنواع الاعمال التي يقوم بها المسلم وهي :

١ـ عبادات : وهي ما يقوم بها المسلم لعبادة ربه كالصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج لمن استطاع إليه سبيلا .

٢ـ اخلاق : ولم يكتف الاسلام أن يؤمن اتباعه بمعتقداته ويؤدوا فرائضه بل وضع لهم أسساً أخلاقية ، وطلب اليهم أن يعيشوا في الحياة معيشة دنيوية أساسها الفضائل وحسن المعاملة والتعاون على الخير ، فهدم

كثيراً من العادات الجاهلية كالوحدة القبلية والوحدة الجنسية وأحل محلها الرابطة الدينية ، وكان التفاضل بشرف القبيلة أو الجنس فأحل محلها العمل الصالح والتقوى ، ومنع شرب الخمور ، ولعب الميسر ، والربى ، والكذب والغش والخداع ، والتجسس ، كما دعا إلى مكارم الاخلاق كالصدق ، والعفو عند المقدرة ، والوفاء بالوعد ، وما إلى ذلك من الاخلاق الحميدة وقد قال عليه السلام : « إنما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » .

٣ـ اجتماع : : وضع الاسلام أسس كثير من الامور الاجتماعية ، كقواعد الإرث ، والزكاة ، وغنائم الحروب ، وأصول المبايعات والمفاوضات ، وحدد نظم الأسرة وتكوينها ، والزواج والطلاق ، وبين علاقة الفرد بالمجتمع ومعاملة الأفراد ، وما يتعلق بالقصاص وحدوده ، كما هدى إلى الآداب العامة كبدء التحية والسلام واحترام المسنين والنساء ..

٤ـ سياسة : وحتم على اتباعه إطاعة الله ورسوله ، وأولي الأمر في الامة ما أطاع أولو الامر أوامر الله . وأمر بالجهـــاد ، والاستعداد للحروب ضد الاعداء والدعوة للدين .

٥ـ انسانية حضارية : صحيح ان دعوة الاسلام انصبت فيما انصبت فيه إلى محاربة الوثنية والتأكيد على عبادة الله ، الاحد ، الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولكنها في نفس الوقت نقلت مثالية العرب من صعيد الصحراء ، إلى صعيد البشرية جمعاء ، ومن إطار القبيلة إلى إطار الانسانية فوحدت بين القبائل في العمل وفي الهدف ، وألقت في روع العربي انه إنسان في هذه الحياة ينضم إلى الاسرة الانسانية ، يسهم معها في رفاه الانسان وتقدمه ، وتنظيم حياته واستثماراته لقوى الطبيعـــة ، وحولت غريزته وحيويته من الغزو والصراع القبلي المحلي في سبيل بعير يغنمه ، أو متاع يسلبه ، أو ارض يرعى فيها سوائمه ومورد ماء يقيم حوله ، أو

من قتال في سبيل انفة جاهلية او تفاخر في النسب ، إلى الجهاد في سبيل تحقيق العدالة والمساواة بين الناس ، وتحريرهم من مختلف انواع العبوديات : تحرير الرقيق من عبودية الرق ، وتحرير المرأة من الظلم الاجتماعي الذي سلبها حقوقها ، وتحرير الطبقات الكادحة من عبث الحكام ، ومنع الغش والفساد والخيانة والغدر والاستثمار ، وأكل الاموال بالباطل وما إلى ذلك من أمور ، كما حثت دعوة الاسلام على استخدام العقل البشري في البحث والتجربة وتتبع العلم ودراسة آلاء الله ، ومخلوقاته ، وما في الطبيعة من اسرار ، واستجلاء غوامضها والافادة من طاقاتها .

ومرجع تعاليم الاسلام الاساسي هو القرآن ، ثم ما أثر عن الرسول من حديث ، ثم أخذ المسلمون فيما بعد يقيسون على ما ورد في هذين المصدرين او يجمع علماؤهم على صحة أمر أو بطلانه . وهو ما عرف بالاجماع .

القرآن : وهو كما ذكر في بعض آياته « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » وقد نزل على رسول الله منجماً في نحو عشرين سنة ، حسب مقتضى الحال ، وتطور الحوادث وتبعاً للمناسبات، وكان رسول الله ﷺ ينقل لأصحابه ما ينزل عليه من سوره وآياته ، فيحفظونها عن ظهر قلب ، ويكتبونها على عسب النخل (جريدة النخل) أو ألواح اللخاف (الحجارة البيضاء الرقيقة) أو قطع العظم ، وهو بلغة عربية جذلة ، ومن السهل الممتنع ، حتى ان بلاغته سحرت العرب وآمنوا به لعجزهم عن مجاراته ، وكان بلغة قريش ، واستعمل بعض كلمات من لغات القبائل الاخرى ، كما عربت فيه بعض الكلمات الاعجمية ، وأوجدت فيه كلمات جديدة ذات معان جديدة . وتقسم سوره إلى مكية

وهي التي نزلت بمكة من البعث حتى الهجرة ، وتشمل معظم القرآن ، وتمتاز بقصرها وايجازها ، وأسلوبها المتين ، وهي تدعو إلى وحدانية الله ورفض عبادة الأوثان ، وتبين صفات الله تعالى ، وتثبت اليوم الآخر والحساب والجنة والنار ، وتبين ما يستطيع الانسان أن يتقرب به إلى الله تعالى من اخلاق فاضلة ومعاملة حسنة ، كما ذكر فيها بعض العبادات العملية التي تربط الانسان بالله وتوجهه نحو الخير كالصلاة ، وفيها أمر الرسول بالجهاد في سبيل نشر دعوته . أما السور المدنية وهي التي نزلت بعد الهجرة فتمتاز بقلة عددها وطولها وتبلغ ثلث القرآن ، وتمتاز بما فيها من قصص تاريخية للأقوام الغابرة لتكون عبرة للمعتبرين ، وكثير من هذه القصص موجود في الكتب المقدسة للديانتين الموسوية والمسيحية ، وقد تناولت الشرائع الاجتماعية والمدنية التي تكون أساساً لمعاملات الناس بعضهم مع بعض والقيام بالأعمال الدينية فذكرت فيها احكام الصلاة والصوم والحج والزكاة ، وفيها تحريم الخمر والميسر ولحم الخنزير ، وذكر الاحوال الشخصية كالزواج والطلاق والمهر والميراث ، وذكرت ايضاً كثيراً من القوانين المدنية والجزائية كالقصاص ، والقتل ، والثأر ، والسرقة ، والقذف والزنا ، وعتق الرقبة ، وكانت آخر آياته تلك التي نزلت على الرسول عليه السلام في حجة الوداع قبل وفاته بثلاثة اشهر : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

وبعد وفاة الرسول ﷺ رأى أبو بكر ان كثيراً من الحفاظ قد قتلوا في حروب الردة فخاف على القرآن من الضياع ، واشار عليه عمر بجمعه في كتاب واحد ، فجمع القرآن وسجل في نسخة واحدة بقيت عند ابي بكر ثم عند عمر من بعده ، ثم عند ابنته حفصة إحدى زوجات الرسول عليه السلام ، ولما كان عهد عثمان نقلت منه ست نسخ ، وارسلت اربع

منها إلى مكة والبصرة والكوفة والشام وابقيت واحدة لأهل المدينة ، واحتفظ عثمان بالنسخة السادسة ، ومن هذه النسخ الاصلية نقلت النسخ التي وصلت إلى ايدينا ، والقرآن هو الكتـــاب الوحيد في العالم الذي لا يوجد فيه اختلاف في نصه أو تشكيله او روايته مهما تعددت طبعاته وتنوعت وقد قال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

لا جدال في أن القرآن الكريم معجزة النبوة وآية رسالة محمد ﷺ وقد تحدى القرآن العرب حين نزوله على ان يأتوا بمثله او بعشر سور من مثله او بسورة من مثله فعجزوا .

والتحدي بالبيان والبلاغة والاسلوب والايجاز وبالأخبار الصادقة عن الامور المستقبلة .. ولهذا قال بعض الباحثين المعاصرين ان القرآن ليس شعراً ولا يوصف بأنه نثر . فقسم الكلام إلى ثلاثة اقسام : شعر ونثر وقرآن ...

وقد عدّ القرطبي في القرن السابع الهجري (المتوفى ٦٧١ هـ) اوجه اعجاز القرآن في عشرة اوجه ، ومنها تشريعاته . . . وشرح الامام محمد عبده (المتوفى سنة ١٩٠٥ م) هذه الاوجه العشرة . . . ان تشريعات الكتاب الكريم منها ما هو تنظيم اجتماعي ومنها ما هو خاص بالسياسة والحكم ، ومنها ما هو خاص بالنظام المالي والانظمة المدنية ، ومنها ماهو خاص بأمن الجماعة وسلامتها ، ومنها ما هو خاص بنظام الحرب والسلم ، وعلاقة غير المسلمين بالدولة الاسلامية ، ومنها ما هو خاص بمقاومة الرق والقضاء عليه تدريجياً . .

اذا ادركنا هذا بدقة ووعيناه وفهمناه ، يتبين لنا ان تشريعات القرآن الكريم هي باب عظيم من ابواب اعجازه للبشر وتحديهم[1] .

---

(١) من مقال للدكتور أحمد عبد المنعم البهي الاستاذ بجامعة الكويت العربي عدد ١٢٨ .

الحديث : والحديث أو السنة هو ماورد عن الرسول عليه السلام من قول أو فعل أو تقرير ، فلقد روي عن الرسول كثير من الاقوال التي قالها في مناسبات كثيرة ، وأجاب عن كثير من أسئلة صحابته يفسر لهم ما غمض عليهم من آي الذكر الحكيم ، أو يشرح لهم المجمل منها أو المطلق أو العام كأوقات الصلاة وعددها وكيفيتها ، وما يبطلها . (إذ فرض القرآن الصلاة ولم يبين تفاصيلها) ، كما قام الرسول بكثير من الاعمال الدنيوية الثانوية التي لم يرد ذكرها في القرآن . فجميع ما أثر عن الرسول ، وما نقله صحابته عنه من بعده يعرف بالحديث ، وللحديث قيمة كبرى في الدين الاسلامي تلي رتبة القرآن مباشرة ويعتبر متمماً لتعاليم القرآن وسنتعرض في كلامنا عن الحياة الفكرية إلى القرآن وتفسيره وأصول الفقه المستنبطة منه ، وإلى الحديث وجمعه وتدوينه وتفسيره .

أثر الاسلام في حياة العرب : كان طبيعياً أن يؤثر الاسلام بتعاليمه ومعتقداته الجديدة بالعرب تأثيراً واضحاً ، حتى لقد خلقهم خلقاً جديداً ، وجعلهم في مدة لا تتجاوز نصف قرن من الزمان يوحدون شملهم في الجزيرة العربية ويخرجون منها ليرثوا ملك دولتي الأكاسرة والقياصرة ، وليؤسسوا دولة قوية متماسكة تصل حدودها إلى المحيطين الاطلسي والهندي ، وتتاخم في الشمال الدولة البيزنطية وتقف في الجنوب عند الصحراء ، ولا يذكر التاريخ عاملاً دينياً واقتصادياً وسياسياً أثر في أمة ما ، تأثير الاسلام بالعرب ، فاذا استطاع موسى أن يخرج ببني اسرائيل من مصر ويرفع عنهم نير العبودية ، وإذا دفع الجدب والجفاف الأقوام الآسيوية إلى الهجرة نحو الغرب ، وإذا نقل بطرس الاكبر الروس من شعب شرقي إلى أمة أوربية ، فان جميع هؤلاء لم يستطيعوا

أن يتركوا الأثر الذي تركه الاسلام في العرب ، وكان تأثير التعاليم الاسلامية متدرجاً ولكن سريعاً ، وكان أول ما فعل بالعربي أن رفع مستواه العقلي وجعله يفكر بوجوده وبالله وبآلاء الله ، فنقله من عبادة نصب وأوثان لاتضر ولاتنفع إلى عبادة رب العالمين ، ووضع له مثلاً أعلى يختلف عن مثله الاعلى في الجاهلية الذي كان يتمثل في التمتع بلذات الحياة ولذائذها والانغماس في اللهو والشراب ومعاقرة بنت الحان ولعب القمار وعدم التفكير سوى بالحياة الدنيا ، وأصبح مثله الأعلى الخلق الفاضل ، وعبادة الله والتقوى والصلاح والعمل للسعادة في الحياتين : الدنيا والآخرة ، والتمسك بكثير من العادات الاجتماعية والاخلاقية .

« ويروى أن جعفر بن أبي طالب الذي هاجر إلى الحبشة بعداً عن اضطهاد المشركين أجاب النجاشي عندما سأله عن حال المسلمين وتعليمات الدين الجديد بقوله: « أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الاصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الارحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله فينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبده نحن وآباؤنا من دونه من الأوثان . وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانه وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء . ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة . وأمرنا أن نعبد الله وحده ولانشرك به شيئاً . وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من عند الله فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئاً . . . » (ابن هشام ج ١ ص ٣٠٤ — ٣٠٥) وفي هذا القول مقارنة لطيفة لحال العرب في جاهليتهم وأثر الاسلام في أتباعه منهم » .

ولم تؤثر تعاليم الاسلام تأثيراً وبدرجة واحدة على جميع أتباعه العرب

وغيرهم ، إذ نلاحظ نزاعا محتدما بين النزعات الجاهلية والنزعات الاسلامية ، بين العادات والتقاليد القديمة ، وبين التعاليم والديانة الجديدة . وظهر هذا النزاع في كثير من الحوادث سواء في عهد الرسول أو الخلفاء الراشدين أو العصر الاموي . وكان الدين الجديد ينتصر بالتدريج على ما يمت بصلة إلى الجاهلية ، وكان هنالك أناس لازالوا ينزعون الى شيء من التسامح أو عدم التقيد بأوامر الدين ونواهيه ، كشرب الخمور ، والانغماس في الترف ، وترك الصلاة ، أو عدم دفع الزكاة ؛ كما كان هناك أناس آخرون ، دخل الاسلام إلى قلبهم فملأ عليهم جوانحهم وصرفهم عن كل شيء الا عن اتباع تعاليمه والتقيد بها ... واذا لم يستطع الاسلام أن يجعل من العرب أفراداً متساوين في ايمانهم وعقيدتهم وأعمالهم الفردية ، فانه استطاع أن يجعل من العرب كمجموع ، أمة جديدة ، ذات خلق جديد وأهداف جديدة ، فانسابوا مدفوعين بعامل نشر الدين الجديد ورفع راية الاسلام ، آملين بالفوز في الحياة الدنيا ، أو بجنات النعيم في الآخرة ، الى البلاد المجاورة لجزيرتهم وتزعموا الحضارة العالمية في عصور كانت فيها بقية انحاء العالم تتخبط في دياجير الجهل والتعصب والانحطاط .

تطور نظام الحكم في الاسلام

نظام الحكم في عهد الرسول : أخذ الرسول عليه السلام بعد البعثة في في الدعوة لدينه الجديد ، وما لبث أصحابه ان ازدادوا ، ولما كانت بيعة « العقبة الثانية » التي اجتمع فيها ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان من أهل يثرب وبايعوا الرسول عليه السلام فيها « على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وبناتهم » ، انتخب الرسول منهم اثني عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس ، وقال لهم « أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وانا كفيل على قومي » فكان ذلك أول تنظيم حكومي للرسول ؛ وعندما هاجر الرسول من مكة الى يثرب واستقبله أهلها وأحلوه المحل الأول في مدينتهم ، واستغنوا عن تتويج عبد الله بن أبيّ ، أصبح الرسول الرئيس الأعلى لحكومة يثرب ، وقد نزلت عليه سور التشريع المختلفة وهو في يثرب ، وكانت هذه الآيات تساعده على إيجاد دستور حكومي عام منتظم ، وأخذ المسلمون يرجعون الى الرسول لحل جميع مشاكلهم ، وهكذا جمع الرسول السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ، وكان يحكم بوحي من الله ، أو باجتهاد يراه مناسباً ، وكان حكمه في كلا الحالين قاطعاً غير قابل للتمييز . واخذت صورة الجهاز الحكومي بالظهور ، إذا كان الرسول يجلس في مسجد المدينة المنورة ويقبل عليه الناس يسألونه حل قضاياهم ، أو يتعلمون منه تعاليم الدين الجديد ، أو يقدمون طاعتهم وإيمانهم به وبدينه ، وكثيراً ما كان الرسول يستشير أصحابه وخاصة أبابكر قبل أن يقطع بأمر لم ينزل فيه نص شرعي ، حتى ان بعض الاعاجم

اعتبروا أبا بكر وزيراً للرسول تشبيهاً له بوزراء أكاسرتهم أو قادتهم . ولم يكن الرسول يصر على رأيه الخاص ، فيما اذا اقتنع بوجود رأي أحسن منه كما روي مرة انه « نزل منزلاً للحرب فقيل له : إن كان بوحي فسمعاً وطاعة ، وإن كان باجتهاد ورأي فليس منزل مكيدة ، فقال : باجتهاد ورأي ، ورحل » ولكن من المتفق أن الرسول لا يقر على خطأ .

وكانت آيات التشريع تنزل حسب تطور جماعة المسلمين ، وانتقلت بهم بالتدريج من العادات والتقاليد الجاهلية الى التعاليم الاسلامية الجديدة ، وهذا هو سبب وجود آيات الناسخ والمنسوخ في القرآن ، إذ لابد للقوانين الالهية من مراعاة الحال التي تطبق عليها الاحكام ، ومن قوله تعالى:« ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » . وقد تعرض التشريع الجديد الذي أصبح أساساً لنظام الحكم الاسلامي الى جميع مايصدر عن الانسان من أعمال ، سواء من عبادات كما ذكرنا ، أو من أمور مدنية كالبيع والشراء ، والقروض والايجار ، أو أمور جنائية كالقتل والسرقة وقطع الطرق ، أو تنظيم الأسرة ، كالزواج والميراث أو أمور سياسية دولية كالقتال ، ومعاملة أهل البلاد المفتوحة ، والذميين ، وتقسيم الغنائم . وكانت أعمال الرسول ﷺ هي المفسر لكثير من هذه الآيات التي جاءت مجملة عامة ، كما أنه قام بوظيفة رئيس الحكومة المدني بتعيين كتّاب الوحي وإرسال الصحابة في تفقيه القبائل في الدين ،وأئمة المسلمين في الصلاة ، وجباية الزكاة ، وإرسال الكتب الى الملوك يدعوهم فيها الى الاسلام ، وقاد بنفسه كثيراً من الحروب ، وعين القواد ، ورسم لهم خطط القتال الى غير ذلك من الأمور الدنيوية ،إلى جانب قيامه برسالته الأساسية وهي الدعوة الدينية .

نظام الحكم بعد الرسول : ترك الرسول (ﷺ) من بعده مصدرين أساسين للتشريع ولأنظمة الحكم هما : القرآن وما فيه من آيات للتشريع ، واعماله التي قام بها واحاديثه التي فاه بها وهو ما عرف بالحديث والسنة ، وقد واجه المسلمون من بعده كثيراً من المشكلات أخذوا يحلونها بالقياس بما حدث في عهد الرسول ، كما أخذوا بالتدريج يقتبسون انظمة الحكم التي كانت سائدة عند غيرهم من الممالك كالفرس والبيزنطيين والاغريق . وقد وضع عمر بن الخطاب أسس نظام الدولة الاسلامية ، إذ قسم دولته إلى أقسام ادارية كبيرة ، وولى عليها الولاة ، وعيّن القضاة وعمال الخراج ، وبين لهم وظائفهم وأعمالهم ، وأمر قادته باتخاذ مدن جديدة ليقيم فيها الجند حتى لا يختلطوا مع السكان ويميلوا الى الحياة الزراعية والاستقرار ، فتضعف فيهم روح الجندية والجهـــاد ، وكثيراً ماغادر عاصمته المدينة الى الولايات ليتفقد حال رعيته وسيرة ولاته ، وليشرف على أمور دولته ، كما أوجد ديوان الجند لترتيب اعطيات المحاربين . وزاد معاوية وعبد الملك بن مروان في أقسام الجهاز الحكومي ، فأوجد الأول نظام البريد والعسس ، وعرّب الثاني الدواوين وسك نقوداً عربية . وتطورت أنظمة الحكم من بعدهما وخاصة في العصر العباسي حيث أوجدت الوزارة واستحدثت كثير من الدواوين الجديدة . ويمكن القول بأن نظام الحكم كان في عهد الخلفاء الراشدين نظاماً دستورياً أساسه الآية الكريمة « وشاورهم في الأمر » ، كالنظام الجمهوري الدستوري ، وانقلب إلى نظام ملكي في العهد الاموي وصارت تؤخذ البيعة لابن الخليفة قبل وفاة أبيه ، كما أدخلت فكرة حق الملوك الالهي المقدس التي يؤمن بها الفرس على الخلافة في العصر العباسي ، وسنلاحظ تطور نظام الحكم الاسلامي في كثير من الظواهر التي سنذكرها فيما يأتي من أبحاث في عهد الخلافه الاسلامية ، من نظام شوري إلى نظام ولاية العهد والبيعة

إلى تطوير الدواوين وتنظيمات الشرطة والقضاء وبيت المال ووسائل الدفاع وغيرها .

الشورى والبيعة : آمن المسلمون بالرسول (ﷺ) واتبعوا أوامره وانتهوا عن نواهيه ، واعتبروه مصدر جميع السلطات ، ولم يكن لهم الخيار في ذلك لأن الله قد اختاره هادياً وبشيراً ، وبعثه بالرسالة ، وأوحى اليه ، وقد قال تعالى : « والنجم إذا هوى ، ماضلّ صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى ، علمه شديد القوى » (سورة النجم) .

ولما انتقل الرسول عليه السلام الى جوار ربه ، شده الناس لهذه الفاجعة المفاجئة واتجهوا في آرائهم وجهات مختلفة ، فبعضهم رأى أن الرسول الذي بلغهم أوامر الله ونواهيه قد فارقهم إلى ربه ، ولا يوجد انسان آخر من البشر يخلفه ويتصف بصفاته ، فأخذوا يفكرون في من يلي أمورهم من زعمائهم حتى لا يخضعوا لشخص آخر غريب عن قبائلهم أو بطونهم ، وتداعوا للاجتماع في سقيفة بني ساعدة للتشاور في أمر خلفه ، وقد افضى اجتماعهم إلى انتخاب أبي بكر الصديق ، خلفاً للرسول ، وكان انتخابه بطريقة شورية ، إذ رشح الأنصار للأمر سعد بن عبادة سيد الخزرج ، وبعد نقاش طويل بين الأنصار والمهاجرين ، ومجيء أبي بكر وعمر وأبي عبيدة ، وإدلاء كل فريق بحججه بأنه هو الأحق بخلافة الرسول ﷺ ، وبعد خطبة أبي بكر في هذا الصدد ، تقدم عمر وبايع أبا بكر وتبعه أبوعبيدة ثم زعماء المجتمعين ، ودعيت بيعة أبي بكر هذه بالبيعة الخاصة ، إذا لم يبايعه سوى الحاضرون في السقيفة . ثم أقرت عامة مسلمي المدينة هذه البيعة في مجلس عام عقد بمسجد الرسول ﷺ في المدينة ، وعرفت بيعتهم بالبيعة العامة ، ووافق مسلمو الجزيرة بعد ذلك على هذه البيعة . ولما شعر أبو بكر

بدنو أجله أوصى لعمر من بعده ، بعد أن استعمل فكره في اختيـار أليق شخص لهذا المنصب الجليل ، وبعد أن استشار أصحابه ووافقوا على ذلك . أما عمر فانتخب ستة من الصحابة فوّض لهم اختيار خلفه ، ووضع لهم نظاماً يتبعونه في المشاورة والاختيار ، وحدد لهم المدة الـكافية لذلك ؛ وأمر بضرب عنق من يخالف رأي الجماعة والاغلبية . ولما قتل عثمان انتخب أهل المدينة علياً وبايعوه .. وإذا نظرنا إلى انتخاب هؤلاء الراشدين الأربعة رأينا أن انتخابهم كان شورياً ، فليسوا من قبيلة واحدة ، وكان المسلمون يوافقون على هـذا الاختيار ، وكانوا لا يجبرون أحـداً بالقوة على مبايعتهم ، وإذا كان بعض الناس يظن أن في انتخاب أبي بكر شيئاً من المفاجاة أو عدم الاجماع لأن عدد المجتمعين في سقيفة بني ساعدة كان قليلاً ، فان ذلـك ليس من الحقيقة في شيء ، لأن انتخابه كان فيـه نقاش طويل ، وكان المجتمعون هم وجوه الصحابة من المهاجرين والانصار .

هذا ما كان من انتخاب خلفـاء الرسول عن طريق شوري ، أما في العهد الذي تلا عهد الراشدين فلم تكن هنـــاك شورى في اختيار أمراء المسلمين ؛ وهناك نوع آخر من الشورى ، ويقصد به المشاورة في الأمر « وشاورهم في الأمر » ، وقد ذكرنا أن الرسول ﷺ نفسه كان يستشير أصحابه في كثير من المسائل ، كما أن خلفاءه كانوا يجمعون مجلساً من وجوه الصحابة لا ستشارتهم في ما يعرض لهم من الأمور .

أما البيعة ، فيقصد بها مبايعة الخليفة على أنـه رئيس للمسلمين ينظر في أمورهم الدنيوية ويتولى إدارة زمامهم ، وكانت بيعـة أبي بكر أن تقدم منـه الناس وجعلوا أيديهم في يده وصافحوه وبايعوه على أن يسير بهم على سنة رسول الله ﷺ ، وصارت مصافحـة اليدين بعد ذلـك عامة في المبايعة ، وبايع الناس عمر على أن يسير على سنة الرسول وأبي بكر ،

ويقال إنه عندما اتفق الستة الذين انتخبهم عمر للتشاور فيما بينهم لانتخاب خليفة ، كلفوا عبد الرحمن بن عوف أن يشاور في الامر ، ويختار من بينهم ؛ واحداً فلما كان بالمسجد ، وكان يفكر في أحد شخصين همـا : عثمان وعلي ، قال لعلي : عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده ، قال علي : أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي ، وسيرة الخليفتين من بعده ، ثم دعا عثمان وأعاد عليه ما قاله لعلي ، فقال عثمان نعم وكرر جملة عبد الرحمن ، وكان ذلك وحده كافياً لترجيحه على علي ومبايعته ، أي أنه فضل عثمان على علي لأن الأخير لم يرض أن يعد بالعمل بسنة الرسول ومن خلفه ، بل وعد بأن يعمل بحسب علمه ومقدرته ..

وكانت البيعة تؤخذ في مسجد المدينة المنورة من وجوه أهلها ، ثم يرسل الخبر إلى الأمصار فيوافقون على ذلك ويبايعون ولاتهم باسم الخليفة . ولما اختلف الناس في عهد علي ومعاوية ، صاروا يبايعون من شاؤوا ، وبعد أن استقر الامر لمعاوية وأوجد فكرة ولاية العهد ، بايع الناس يزيداً في حياة معاوية ، ثم جددوا له البيعة بعد وفاته ، وهكذا أصبحت البيعة تعطى للخليفة قبل توليته ، ثم تجدد ثانية عند توليته منصبه ، وتطورت فيما بعد عندما صار الخليفة يختار وليين لعهده ، كما تطور شكل البيعة ، فنرى قادة بني أمية مثلاً لا يكتفون من أهل الحجاز بمبايعة الخليفة كما جرى في بقية الاقطار الاسلامية ، بل أصروا على أن يعترف كل منهم أثناء بيعته على أنه خول للخليفة يزيد ، كما صارت هناك نصوص خاصة تقال عند البيعة وخاصة في العصر العباسي ، وأصبحت في بدء القرن التاسع الهجري في عصر ابن خلدون كما يصفها هو تشبه : « تحية الملوك الكسروية من تقبيل الارض أو اليد أو الرجل أو الذيل .. واستغني بها عن مصافحة أيدي الناس التي هي الحقيقة في الأصل ، لما في المصافحة لكل أحد من التنزل والابتذال المنـافين للرياسة وصون المنصب الملوكي ... »

الفصل الثاني

الخلافة الاسلامية

« الخليفة موظف سياسي قبل ان يكون موظفاً دينياً ، وان الواجبات الدينية الملقاة على عاتقه ، لا تعطيه حقوقاً دينية او روحية تجعله يمتاز عن غيره من المسلمين » .

« ارنولد »

الخلافـة : ما كاد مسلمو المدينة المنورة يستفيقون من الصدمة التي فاجأتهم بوفاة الرسول ﷺ حتى فكروا فيمن يخلفه ، واجتمع بعضهم ـ كما ذكرنا ـ في سقيفة بني ساعدة ، وبعد نقاش حاد ، التفت عمر إلى أبي بكر وقال : « ألم يأمر النبي ﷺ بأن تصلي أنت يا أبا بكر بالمسلمين ؟ فانت خليفته ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعاً » (ابن هشام) ثم قال : « ابسط يدك أبايعك ، فبسط يده فبايعه ، وبايعه المهاجرون والأنصار » .

وقد لقب أبو بكر بلقب خليفة رسول الله ، ومعنى ذلك أنه إذا انقطعت النبوة بموت الرسول ، فلقد خلفه أحد أتباعه في رئاسة أمور المسلمين الدنيوية ، فمنزلته من المسلمين من الناحية الدنيوية كمنزلة الرسول

منهم ، له عليهم الولاية العامة ، والطاعة التامة ، وله حق تنفيذ شرائع الدين باقامة الحدود ومعاقبة المرتدين ؛ وهو يجمع بين السلطتين الدينية والروحية ...

معنى كلمة خلافة : الخلافة لغة مصدر خلف . يقال : خلفه خلافة ، كان خليفته وبقي بعده ، والخليفة السلطان الاعظم ؛ والجمع خلائف وخلفاء

وقد سمي من يخلف رسول الله ﷺ في اجراء الاحكام الشرعية خليفة . أما الخلافة في الاصطلاح : فهي رياسة عامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي . يقول ابن خلدون في ذلك : والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الاخروية والدنيوية الراجعة اليها ، اذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع الى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به .

القرآن والسنة ونظام الحكم : يحاول الفقهاء أن يلتمسوا للخلافة سنداً من القرآن والسنة ؛ ويدللون على صحة دعواهم بما نزل في القرآن الكريم من الآيات التي وردت فيها كلمة خلافة : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم .. » (س .النور) . « وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم» (س. الانعام) «واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم في الارض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الارض مفسدين » (س . الاعراف)

نلاحظ من هذه الآيات ان الكلمة هنا ذات معنى عام وليست خاصة بشخص واحد له السلطة والزعامة . ولكن ورد في القرآن آيتان فيهما معنى فرديا لشخص مميز وهما : « ياداود إنا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين

الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » (س . ص) « وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفـة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيهـا ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » (س . البقرة) .

ويقول بعض الفقهاء معلقين انه عندما أعلن الله عن نيته في خلق آدم دعاه خليفة ، لان آدم كان خليـفة الملائكة الذين اعتادوا أن يعيشوا على الارض قبل خلق الانسان . ويفسر بعضهم الآخر كلمة خليفة بمعنى وكيل ونائب وبديل وخلف بمعنى الذي يفوز بمنصب سام وهكذا فانهم يشرحون أن آدم وداود سميا باسم خليفة اذ كان كل منهما على الارض نائباً عن الله في هداية الناس وانذارهم بما أمر الله . وهذا التفسير يزيد في هيبة وسلطة الخليفة . انما الملاحظ ان كلمة خليفة في هاتين الآيتين لا يقصد منها معنى الحكم والنفوذ السياسي .

فالقرآن كما رأينا لم يشر الى نظام الحكم الذي يجب أن يتبعه المسلمون بعد النبي ﷺ ولكن آياته تحض على طاعة أولي الأمر : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » .

واذا ما لجأنا الى الحديث النبوي لمعرفة ما لم نعثر عليه في القرآن عن وضـع المسلمين السياسي ، نجد بعض الاحاديث تذكر كلمتي الخلافـة والامامة مثل ما روي عنه عليه السلام قوله : (الخلافة في قريش والحكم في الانصار والدعوة في الحبشة) . (الخلافة بعدي أربعون سنة ثم تصير ملكاً عضوضاً . (الائمة من قريش) . (يا أيها الناس اتقوا الله وان أمر عليكم عبد حبشي مجدع فاسمعوا له وأطيعوا) . الا أنها أحاديث يشك في صحتها بعض المؤرخين ، لان المسلمين لم يسمعوا بها الا بعد وفاة النبي ﷺ . ولو كانت معروفة أو سمعها الناس لما اختلفوا فيما بينهم حين اختيار من يخلف النبي ﷺ .

ويعتقد بعض المؤرخين ان معظم الاحاديث التي تبحث في شؤون الحكم قد دست على النبي من قبل بعض الجماعات والفرق الدينية ذات النزعات السياسية لتأييد وجهة نظرها فيما يتعلق بالحكم . ونحن نعلم أن الخلافة كانت أول مسألة اشتد فيهـا الخلاف بين المسلمين ، وتشعبت آراؤهم ، وتكون حولها أهم الفرق الاسلامية كالخوارج والشيعة والمرجئة .

آراء الفرق الاسلامية والمؤرخين حول اختيار الخليفة :

لم ير المسلمون بدأ من إقامة خليفة للنبي بعد وفاته يقوم بنشر الدين ويدبر شؤون المسلمين ، وبما أنه لم يوص بالزعامة لاحد من أصحابه أو أهله الا ما روي عن لسانه فيما بعد أثناء بيعة أبي بكر ، فقد اتجهت كل فئة منهم تريد أن يكون الخليفة منها ، وبذلك قام النزاع واشتد الخلاف بينهم لخوفهم أن يحكم من يحل محل الرسول هواه وعشيرته في رقاب الناس ومصالحهم ، كما لا يبعد أن يعلي هذا المركز من شأن القبيلة التي ينتمي اليها الخليفة . وكانت أهم الآراء التي ظهرت حول اختيار الخليفة هي :

١ ــ **راي المهاجرين :** وحجتهم أنهم أول من آمن بالنبي ﷺ وصبروا على الاذى ولم يستوحشوا لقلة عددهم ، وهم قومه وعشيرته ، وهم من قريش ، والعرب لا تدين إلا لهم . ولو انتخب الخليفة من قبيلة أخرى لقامت القبائل ينافس بعضها بعضا وانتشرت الفتن الداخلية .

٢ ــ **راي الانصار :** وحجتهم أن النبي ﷺ لبث في قومه في مكة ثلاث عشرة سنة يدعوهم الى الاسلام فما آمن الا قليل ، ولا منعوا رسول الله من الاذى ، ولا أعزوا الدين ، فلما هاجر من مكة الى المدينة نصره الانصار وآمنوا به وأعزوا دينه ، وكانوا معه على عدوه حتى خضعت له جزيرة العرب ، وتوفي ﷺ وهو عنهم راض وبهم قرير عين فهم أولى الناس أن يخلفوه .

٣ ـ راي الشيعــة : وهم أنصار أهل البيت،لا يحبذون فكرة الانتخاب في اختيار الخليفة ، ويرون أن تكون الخلافة في بيت النبي (يشبههم البعض باصحاب النظرية الالهية) وأقرب الناس اليه عمه العباس بن عبد المطلب وابن عمه علي بن أبي طالب . ولكن العباس لم يكن من السابقين إلى الاسلام، فقد حضر غزوة بدر مع المشركين . فأولى الناس من قرابة النبي علي . فهو أول الناس اسلاما ، وزوج فاطمة بنت النبي ، وجهاده وفضله وعلمه لاينكر .

ويقول الشهرستاني ان الامامية وهي احدى فرق الشيعة يعتقد أصحابها أن النبي عين علياً خلفاً له تصريحاًوتعريضاً أماتصريحاًفقوله: «من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره واخذل من خذله . . . » . أمـا تعريضـاً فهي أن النبي ﷺ مثلا أمّر في كثير من البعوث أناساً على أبي بكر وعمر وغيرهما من الصحابة ، ولكنه ما أمّر على علي أحداً قط .

٤ ـ راي الخوارج : وهو أن الخلافة يجب أن تكون باختيار عربي حر من المسلمين ، واذا اختيرمسلم،فلا يصح أن يتنازل او يحكم، وليس بضروري أن يكون الخليفة قرشياً بل يصح أن يكون من قريش ومن غيرهم ولو كان عبداً حبشياً . واذا تم الاختيار كان رئيس المسلمين ، ويجب ان يخضع خضوعاً تاما لما أمر الله وإلا وجب عزله . وقد أدخلوا بعض التعديل على رأيهم فشرطوا الاسلام والعدل بدل العروبة والحرية . لهذا دعاهم فان فلوتن بالجمهوريين لمبادئهم الديمقراطية المتطرفة . وقد خالفوا نظرية الشيعة القائلة بانحصار الخلافة في بيت النبي ونظرية أهل السنة القائلة بان الخلافة في في قريش . وهذا ما دعاهم الى الخروج على خلفاء بني أمية ثم على العباسيين لاعتقادهم أنهم جائرون غير عادلين ، لم تنطبق عليهم شروط الخلافة في نظرهم.

٥ ــ راي المرجئــة : وهم محايدون ، لا ضد الدولة ولا معها ، نظرتهم واحدة نحو جميع الذين أدلوا بنظرياتهم في الخلافة . فكلهم مصدق بالله ورسله وكلهـــم مؤمن . فهم لا يكفرون أحـداً من الذين تقاتلوا في سبيل الحكم كالامويين والشيعة والخوارج وغيرهم . وهم يرون مهادنة بني أمية صحيحة ، وأن خلفاءهم مؤمنون لا يصح الخروج عليهم . وقالوا لسنا نستطيع أن نعين المصيب فلنترك امرهم جميعاً الى الله . من هذا نلاحظ ان موقفهم ازاء حكم الامويين موقف تأييد ولكنه تأييد سلبي لا ايجابي .

٦ ــ راي المعتزلة : يقولون بحرية ارادة الانسان ، وان الامة تختار إمامها ، إذ ان القرآن لم ينص على الصفات الـتي يجب أن تتوفر في حاكم المسلمين . إلا أنهم لم يتفقوا فيما بينهم في اشتراط ان يكون الامام من قريش . وقالوا : ان حديث (الائمـة من قريش) لم يكن متواتراً ، إذ لو تواتر لما ادعت الانصار مشاركة المهاجرين في الخلافة ، بل ان عمر بن الخطاب كان يجوّز إمامة المولى فقد قال : لو كان سالم (مولى حذيفة) حياً لوليته .

كما قالوا بصحة خلافة الراشدين . وقد اختلفوا في أيهم أفضل، إلا أن معظمهم يجعلون ترتيب الاربعـة في الفضل كترتيبهم في الخلافة . اما في الحرب بين علي ومعاوية فانهم يؤيدون وجهة نظر علي . وبناء على ذلك تكون نظرتهم الى خلافة بني امية على انها غير صحيحة ، وكان موقفهم منهم موقف كراهية وان لم يشوروا ثورة الخوارج . ويجب ألا يغرب عن بالنا انهم ايدوا بعض الخلفاء : من امويين (يزيد بن عبد الملك) وعباسيين (المأمون والمعتصم والواثق) لما اعتنق هؤلاء مبادىء المعتزلة الدينية .

٧ ــ راي ابن خلدون : رأى في السياسة الدينية الخير للبشر . لأن هذه السياسة تؤدي إلى إسعاد المجتمع في جميع أحوالهم من عبادة أو معاملة

حتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الانساني ، أي أن الحكومة الدينية هي خير أنواع الحكومات . والخلافة في نظره وكالة عن النبي ، والخليفة يمثل النبي في السلطة السياسية والدينية ولا يمتاز عن سائر المسلمين إلا من حيث كونه منفذاً للأحكام وحارساً للدين . ولم ير بأساً من أن يختار المسلمون الخليفة من أصحاب العصبية أياً كانت جنسيتهم : « وليس الملك لكل عصبية ، وإنما الملك على الحقيقة لمن يستعبد الرعية ويجبي الأموال ويبعث البعوث ويحمي الثغور ولا تكون فوق يده يد قاهرة ، فمن قصرت به عصبيته عن بعضها فهو ملك ناقص لم تتم حقيقته ... واشترطنا في القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولي عصبية قوية غالبة على من معها لعصرها ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية » .

ويرى ابن خلدون ضرورة وجود الخلافة في قريش بعد وفاة النبي للأسباب التي ذكرناها سابقاً كما يقول أيضاً : (ان قريشاً كانوا عصبة مضر وأصلهم ، وأهل الغلب منهم ، وكان لهم على مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك) . فهو يرى أن اختيار الخليفة من قريش كان لأنها أكثر القبائل كفاية لها ، وليس للنسب وعراقة الأصل سبباً في هذا الاختيار . ويرى المؤرخ آرنولد انه روعي في اختيار الخلفاء الراشدين طريقة اختيار شيخ القبيلة ، مع مراعاة الحال والجاه والاحترام بسبب السن أو المكانة والنفوذ ، أوبالنسبة للعلم والتفقه ، أو ما أدى من خدمة المصلحة العامة . وهذا ما يؤيد رأي ابن خلدون .

نشاة الخلافة وتطورها في زمن الراشدين والامويين والعباسيين

الخلافة زمن الراشدين :

مات النبي ﷺ ولم يخلف ذكراً ولا أوصى بالخلافة لأحد (إذا استثنينا

رأي الشيعة في ذلك ، فاختلف المسلمون عند موته من مهاجرين وأنصار وغيرهم فيمن يخلفه كما مر معنا . وكان الأنصار أول من فكر في ضرورة الاسراع لانتخاب خلف للرسول كي لا تدب الفوضى وتتشعب الآراء إذا ظل المسلمون بدون رئيس . لهذا تداعوا للاجتماع في سقيفة بني ساعدة ليتشاوروا في الأمر ويختاروا من بينهم خليفة . فاتفقت كلمتهم على ترشيح سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج . فسمع بذلك المهاجرون فعجل إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة . وقام بين الطرفين نقاش طويل وأدلى كل فريق منهم بالحجة على أن هذا الأمر له دون غيره . وقال أحد الأنصار : « منا أمير ومنكم أمير » ، فرد عليه عمر مبيناً أن هذا الأمر لقريش وقال : « هيهات أن يجتمع اثنان في قرن . والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ... »

وقد انحازت الأوس إلى صف المهاجرين إذ كرهت أن يكون للخزرج السلطان.

وخاف عمر من انقسام المسلمين وأراد أن ينهي الأمر في ذلك الاجتماع فبادر إلى أبي بكر وبايعه وقال له : « ألم يأمر النبي بأن تصلي أنت يا أبا بكر بالمسلمين فأنت خليفته ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعاً » . ثم تبعه أبو عبيدة وباقي الناس . وتعرف هذه البيعة بالبيعة الخاصة . ثم أقر عامة مسلمي المدينة في اليوم التالي هذه البيعة في مسجد الرسول ﷺ وعرفت بيعتهم بالبيعة العامة .

والأسباب التي سهلت انتخاب أبي بكر دون سائر المهاجرين من بيت النبي وغيرهم هي :

١ً — تكليف النبي له أثناء مرضه أن يؤم المسلمين في الصلاة .

٢ً – كي لا تجمع النبوة والخلافة في بني هاشم ، وكان هؤلاء قد اعتبروا بأن النبي منهم . وقد روي عن الحسن بن علي لما تنازل عن الخلافة لمعاوية قوله : « أبى الله أن يجمع النبوة والخلافة فينا » . .

٣ً – السبق في الاسلام .

٤ً – كان رفيق النبي الوحيد في هجرته إلى المدينة وساعده الأيمن ، ونزول الآية الكريمة مشيرة إليه « الا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار » .

انتخاب عمر : لما مرض أبو بكر واحس بدنو أجله خشي أن ينقسم المسلمون على أنفسهم من أجل الخلافة ، كما كاد أن يحصل من قبل . فرأى ببعد نظره أن يحتاط لذلك بتعيين خلف له . ولكنه رغب أن لاينفرد برأيه ، فاستدعى إليه أصحاب الرأي في الأمة كعبد الرحمن بن عوف وعثمان وأسيد بن حضير وسعيد بن زيد وغيرهم من المهاجرين والأنصار فأثنوا كلهم على عمر وبذلك عينه أبو بكر خلفاً له . (١)

انتخاب عثمان : ألحّ بعض الصحابة على عمر لما طعن وأشرف على الموت أن يعين خلفاً له . وبعد نقاش بينه وبينهم عين سبعة أشخاص هم : علي وعثمان وسعد وابن عوف والزبير وطلحة بن عبيد الله وابنه عبد الله ابن عمر على ألا يكون له من الأمر شيء . وأوصى أن تكون الخلافة للرجل الذي يقع عليه الاختيار . وقد اجمعت الآراء على تعيين عثمان أو علي . فانتخب آخر الامر عثمان .

---

(١) راجع : انور الرفاعي : الانسان العربي والتاريخ ص ١٦٧ وما بعدها عن كيفية اختيار الخلفاء الراشدين ومبايعتهم .

انتخاب علي : قامت فتنة أدت إلى قتل عثمان وانتخب علي بعده ، إلا أن انتخابه لم يكن عاماً ، إذ امتنع عن ذلك بنو أمية وطلحة والزبير والمغيرة وغيرهم . وازداد عدد المستائين منه لما عزل ولاة عثمان ومنهم معاوية ، ونقل العاصمة من المدينة إلى الكوفة مما حدا بالاستاذ نيكلسون إلى القول بانه كان ينقصه حزم الحاكم ودهاؤه وتعوزه الحنكة السياسية .

انتخاب الخلفاء الراشدين: جاء في القرآن الكريم قوله تعالى:« وأمرهم شورى بينهم »، ويمكننا مع بعض التحفظ ان نقول أن في انتخاب الخلفاء الراشدين الأربعة فكرة الشورى إذ بيعتهم تبعد عن النظام الوراثي . إذ حصل في انتخابهم جميعاً ترشيح ومشاورة وقبول أكثر الزعماء المسلمين ثم موافقة سائر الأمة . فلم يكن هناك اكراه أو ضغط أو استعمال للسلاح في تعينهم ، إنما جرى الانتخاب باتفاق وتأييد الأكثرية . وإذا وجد معارضون ومخالفون ومستنكفون فهو أمر طبيعي إذ نلاحظ في عصرنا هذا مثل ذلك أو أشد منه لما يجري انتخاب رؤساء الجمهوريات . وتذكر المصادر انتخابات تمت بأكثرية ضئيلة جداً . ورب معترض يقول إن هذه الأكثرية لم تحصل في بعض الأحيان كما جرى لعلي بن أبي طالب إذ لم يبايعه سوى أهل المدينة ولم يؤخذ في انتخابه رأي غيرهم من المسلمين . إلا أنه يمكن الرد على ذلك بأن مذهب مالك برمته مبني على رأي أهل المدينة .

الخلافة زمن الأمويين : لما انتقلت السلطة الى الأمويين أصبحت الخلافة ملكاً استبدادياً آل إلى أصحابه بقوة السيف والسياسة والمكايد . وبذلك تبدل نظام الخلافة ، فبعد ان كان يعتمد على الشورى ويستند إلى الدين ، أصبح يقوم على أساس التوريث ،ويستند إلى السياسة أولاً والدين ثانية . وادخلت كل مظاهر الابهة التي تمتع بها الملوك والقياصرة .

إلا أنه ينبغي الا يغرب عن أذهاننا أثر البيئة في تطور شكل الحكم. كانت المدينة حاضرة الدولة العربية زمن الراشدين وسكانها من العرب وكانت الخلافة تتلاءم مع العادات والتقاليد العربية ، ولكن عندما اصبحت دمشق عاصمة الدولة واختلط العرب بسكان البلاد المفتوحة المتأثرين بالنظم والعادات البيزنطية والفارسية ، كان على الأمويين أن ينسجموا والبيئة الجديدة ، فتبدل نظام الخلافة وأصبح أشبه شيء بالنظام الملكي أو القيصري . ومن ثم زادت السلطة الزمنية للخليفة . على أن الطبيعة العربية والنفوذ العربي ظلا سائدين . وقد قال سيد أمير علي في ذلك : « كانت الحكومة في العهد الأموي حكومة مطلقة مشبعة بحرية القول التي فطر عليها عرب الصحراء والعلماء ورجال الدين ، تلك الحرية التي مكنتهم من تغيير نزعة الخليفة معتمدين في ذلك على آية من القرآن أو بيت من الشعر » .

الخلافة زمن العباسيين : حذا العباسيون حذو الامويين في التوريث . وبما أن دولتهم قامت على اكتاف الفرس تأثرت الخلافة بنظم الحكم لدى ملوك الفرس الذين كانوا موضع قداسة الشعب . والذين كانوا يعتقدون أن حقهم في الملك مستمد من الله ، لذلك ازدادت الصفة الروحية في الخليفة لاعتقاد الفرس بنظرية الحق الملكي المقدس وغدا البلاط العباسي اشبه شيء ببلاط الاكاسرة ، فصار الخليفة شخصاً مقدساً واصبح ظل الله في الارض كما يبدو ذلك في قول المنصور « إنما انا سلطان الله في أرضه » . وهذا يخالف تماماً حال الخلافة في العهود الماضية ، ويتجلى ذلك في قول أبي بكر « ان احسنت فشجعوني وان اسأت فقوموني بحد سيوفكم » وقول عمر ابن عبد العزيز « لست بخير من أحدكم ولكني أثقلكم حملاً » .

سلطة الخليفة ومقارنتها بنظم الحكم الاخرى التي عرفت في القرون الوسطى :

تشمل سلطة الخليفة جميع النواحي المدنية والدينية والحربية ؛ إذ له على الأمة الولاية التامة والطاعة التامة وله حق القيام على دينهم فيقيم فيهم حدوده وينفذ شرائعه . وله بالأولى حق القيام على شؤون دنياهم أيضاً . بيده وحده زمام الأمة فكل ولاية مستمدة منه وكل خطة دينية أو دنيوية متفرقة عن منصبه فهو الحاكم الزمني والحاكم الديني .

وجمع كل هذه السلطات بيد الخليفة كان سبباً رئيسياً في قوة العرب وازدياد نفوذهم واتساع سلطانهم كما قال غوستاف لوبون : « وقد كانت تلك النظم السياسية سبب عظمة العرب ... ولا شيء أصوب من جمع « محمد » لجميع السلطات المدنية والحربية والدينية في يد واحدة أيام كانت العرب مجزأة ، فقد فتح العرب العالم في قرن واحد بعد أن كانوا من أشباه البرابرة المتحاربين قبل ظهور « محمد » .

انما يجب أن لا يغرب عن بالنا ان الخليفة مهما اتسعت سلطته لايستطيع مخالفة القانون الذي يتألف من القرآن والسنة . مع العلم ان سلطة الخليفة واسلوب الحكم وتطبيق الشرع يختلف زمن الراشدين عنه زمن الامويين والعباسيين . ففي زمن الراشدين كان الخليفة يستعين في تصريف مهام الدولة بمجلس من الشيوخ يتألف عادة من الصحابة الاولين يجتمعون في مسجد النبي يساعدهم جمع من الأشراف والرؤساء .

أما بعد ذلك فالخليفة كان الحاكم المطلق يستشير ان اراد أو ينفرد بحكمه كما كان يفعل في غالب الأحيان . إلا أن اعتماد الخلفاء على العناصر الأجنبية زمن العباسيين أضعف من سلطتهم وجعلهم آلة بيد الأتراك والسلاجقة والبويهيين وغيرهم حتى قال أبو الريحان البيروني (٤٤٠ هـ) « أنه لم يبق للخليفة من الأمر شيء اللهم الا ما كان متعلقاً بالدين وحراسته » .

وكان العثمانيون حريصين جداً على ابراز هذه السلطة الدينية حتى على غير رعاياهم . ففي معاهـدة كوتشوك قينارجي بين العثمانيين والروس سنة ١٧٧٤م انتهز العثمانيون فرصة مطالبة الروس بحماية مسيحيي الارثوذكس في في الدولة ليطالبوا بحق مماثل للسلطـان العثماني على مسلمي الامبراطورية الروسية . كما أن السلطان عبد الحميد الثاني جعل السلطة الدينية رسمية وقد نص عليها في الدستور الذي أصدره سنة ١٨٧٦م .

وإذا نحن قارنا الخلافة بغيرها من نظم الحكم عند الامم الاخرى في القرون الوسطى ،كما فعل توماس ارنولد، نجد في الغرب حاكمين أحدهما زمني وهو الامبراطور والآخر روحي وهو البابا . أما في الشرق فالخليفة يجمع بين السلطتين الزمنية والدينية .

فالامبراطورية الغربية لم تكن مستحدثـة الوجود بل كانت استمراراً لامبراطورية وثنية سابقة حتى أن شارلمان تلقب بالقاب الاباطرة الوثنيين . أما الخلافة فإنها لم تقم على نظـام سياسي سابق بـل هي نظـام مستحدث وليد الظروف والأحوال التي نشأت، على أثر ظهور الاسلام .

والخلافة تختلف عن البابابوية وقد وقع بعض الكتاب والمؤرخين في خطأ تشبيه سلطتها أمثال : ماركو بولو عندما كتب عن بغداد بأنها مدينة عظيمة اعتادت أن تكون كرسي خليفة كل المسلمين في العالم كما هي في روما كرسي البابا لجميع المسيحيين . وياقوت الحموي (١٢٢٩) م الذي قال عن روما أنها المدينة التي يسكن فيها البابا الذي يطيعه الفرنجة وهو لهم بمنزلة الإمام متى خالفه أحد منهم كان عاصياً عندهم ومخطئاً يستحق النفي والطرد والقتل ، وابن الجوزي (١٢٥٧) م الذي يدعو البابا خليفة الفرنجة .

فالبابا هو قسيس أعظم يستطيع أن يغفر خطايا المذنبين وأن يغير ويلغي القوانين التي وضعها أسلافه . أما الخليفة فلا يستطيع أن يشرع مبدأ دينياً جديداً ولا يعفو عن الخطايا ولا يمارس وظيفة كهنوتية ما . فسلطة الخليفة اذن دينية ولكن ليست روحية ، أي أنه يستطيع باعتباره حامي الدين ان يعلن الحرب ويعاقب الخارجين على الدين ويؤم الناس في الصلاة .

وبقيت الخلافة قائمة بالرغم من كثير الظروف التي لابستها سواء بشكلها العائلي الملكي في العهد الأموي ،أو بشكلها المقدس في العصر العباسي أو بانقسامها عندما وجد أكثر من خليفة واحد في العالم الاسلامي ، أو بضعفها وانقراضها ثم إحيائها كما حدث عقب غارات التتر على بغداد ، وإعادتها في عهد المماليك في مصر ، وانتقالها إلى غير العرب وهم الأتراك العثمانيون ، حتى كانت الحرب العالمية الاولى ، وانهزام تركيا ، وقيام مصطفى كمال باشا ، وإلغاؤه الخلافة رسمياً في آذار سنة ١٩٢٤م .

وإذا كان الخلفاء الراشدون أشبه برؤساء الجمهورية من حيث طريقة انتخابهم الشورية ، فان سلطتهم كانت تتعدى سلطة رؤساء الجمهورية بمعناها الحديث ، إذ كانوا خلفاء النبي يجمعون كلتى السلطتين الدينية والمدنية ، وبيدهم جميع السلطات التشريعية والتنفيذية والادارية ، يعينون مساعديهم والموظفين ، ولهم الحق في قبول رأي مجلس الشورى أو عدم التقيد به ، أما الامويون فقد حولوا الخلافة إلى ملكية وراثية ، وبالرغم من سيرهم على سياسة معينة وهي اعتمادهم على العنصر العربي وعلى الاحتفاظ بعرشهم بجميع الوسائل ، واستخدام بيت المال والوظائف الادارية ، والقتل والتهديد والحروب والضرب على كل من تحدثه نفسه في منازعتهم السلطات ، فإنهم

قد تركوا لبعض ولاتهم صلاحيات واسعة في إدارة ولاياتهم ، كما فعل معاوية إذ أعطى ولاية مصر لعمرو بن العاص ، وهبه خراجها طيلة حياته ، كما أعطي زياد بن أبيه وابنه عبيد الله والحجاج سلطات واسعة أيضاً ، وما انتقلت الخلافة إلى العصر العباسي حتى أصبح الخليفة يحكم بحق مقدس ، وعاد إلى جمع السلطات كلها بيده ، وانتقم لذلك العباسيون الأوائل من كل من أوجسوا منه خيفة كأبي سلمة الخلال ، وأبي مسلم الخراساني ، والبرامكة ولما ضعف أمر الخلفـــاء العباسيين في الدور العباسي الثاني والأخير ، واستقلت كثير من الدويلات بادارة شؤونها ، بقي امراء هذه الدويلات يعترفون بسلطان الخليفة الديني ، ويرساون إليه الهدايا والأموال مقابل اعتراف الخليفة الشرعي لهم بامارة ما استحوذوا عليه ، ونجد أن أن بعض المتنفذين وخاصة أمراء الأمراء ، والسلاجقة والبويهيين والأتراك من قبلهم ، قد كانوا يضغطون على كثير من الخلفاء ، بل يسومونهم سوء العذاب ، بسمل أعينهم أو تقطيع ألسنتهم ، أو وضعهم في قيظ الشمس دون طعام أو شراب حتى يموتون ، دون أن يجسروا على الغاء الخلافة أو تحويلها اليهم وهم من غير العرب؛ بما يدلنا على تطور سلطة الخليفة وكيف أصبحت دينية بحتة وليست سياسية ، أي أن الخليفة أصبح يتولى هذا المنصب ، ولا يشرف أبداً على أمور الدولة السياسية وإنما يوافق على تعيين أكبر رجال الدولة ، ويرسل الخلع وشارات الأمارة ، كما أن قيام الخلافة الفاطمية بمصر وجنوبي الشام ، والخلافة الأموية بالاندلس إلى جانب خلافة بغداد ، وكل خلافة تدعي أنها الشرعية في العالم الاسلامي ، وما عداها متعد عليها ؛ يدلنا على ذلك كثير من الوثائق التي تبودلت بين الخلافتين العباسية والفاطمية في ادعاء كل فريق أحقيته بالخلافة ، وكل يدعي نسبه برسول الله ، وإنه يجب أن يرث ولاية المسلمين وخلافتهم

كما يدلنا على ذلك الحروب التي نشأت بين الفاطميين والأمويين ، في الأندلس مثلاً ، أو محاولات العباسيين للقضاء على خلافة الأندلس الأموية واتفاقهم ، مع شارلمان أو غيره من ملوك الفرنجة في سبيل محاربة الخلافة الأموية في الأندلس .

أما في العصر العثماني ، فلقد فضل السلاطين أن يتلقبوا بلقب « خادم الحرمين الشريفين » لما في ذلك من شرف لهم وبأنهم يمثلون الزعامة الدينية في البلاد الاسلامية إلى جانب الزعامة العسكرية التي أخذوها بقوة الفتح ؛ ولقد أخذوا لقب الخلافة من آخر الخلفاء العباسيين الذي كان يقيم في القاهرة ، في العصر المملوكي ، وليس له إلا وظيفة الرئيس الديني ، الذي يتوج أو يوافق على مركز السلاطين المماليك ، هذا وإن اختلفت الآراء في أنه هل كان السلطان سليم الأول الذي فتح سوريا ومصر هو أول من تلقب بلقب خليفة المسلمين أو أن ابنه السلطان سليمان هو أول من تلقب بهذا اللقب ، فإنه مما لا شك فيه أن سلاطين آل عثمان وقد كانوا أقوياء ، كانوا يجمعون جميع السلطات العليا بأيديهم ، وكانت إرادتهم هي القانون النافذ في جميع البلاد التي تخضع لهم ، ولما ضعف أمرهم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أخذوا يستغلون كلمة (خليفة المسلمين) في غايتهم السياسية ليظهروا امام الدول الأوربية بأنهم زعماء البلاد الاسلامية لا التي تخضع لهم فحسب ، بل الخاضعة لغيرهم من الأمم المستقلة ،وأخص من استفاد من هذا اللقب هو السلطان عبد الحميد ، الذي دعا إلى جامعة إسلامية ليكسب عطف الشعوب الاسلامية في الهند واندونسيا والبلقان وليظهر أمام أوربا بمظهر القوي ، وبعد سقوط عبد الحميد ، حددت سلطة الخليفة أو السلطان العثماني بالوظيفة الدينية وسلب كل سلطة سياسية ، حتى كانت جمهورية مصطفى كمال والغاء الخلافة رسمياً ، ولا يزال بعض المسلمين

يفكرون بضرورة إحياء الخلافة ، كمركز ديني لا سياسي ، ولكن لم يزل الخلاف حول من يتولى هذا المنصب الجليل .

القاب الخليفة : لقب أبو بكر بخليفة رسول الله ، ولما ولي عمر ، ارادوا تلقيبه بخليفة خليفة رسول الله ، فاستثقل ذلك على اللفظ ، ولقبوه بأمير المؤمنين بمعنى أنه أمير ، أي قائد المؤمنين ويجمع السلطتين الحربية والادارية ، ثم أطلق عليه وعلى من أتى خلفه لقب خليفة فقط ، وأراد بعضهم أن يطلق عليه اسم الامام ، وخاصة الشيعة ، بمعنى إمامة المسلمين في الصلاة والأمور الدينية ، وفرقوا بين الامام والخليفة ، وكان للشيعة أئمة خاصون مع وجود الخلافتين الأموية والعباسية ، حتى إذا استطاعوا تأسيس الدولة الفاطمية ، جمع خليفتهم اللقبين في شخصه .

وقد اتخذ الخلفاء المسلمون القاباً بجانب اسمائهم ، ولم يهتم بذلك الامويون بقدر العباسيين ، ويروي القلقشندي نقلاً عن ابن حزم ان لقب معاوية الناصر لحق الله ، ولقب مروان بن محمد القائم بحق الله ، وتذكر مصادر اخرى ان لقب عمر بن عبد العزيز المهدي كما لقب الناس الخليفة هشاماً بالأحول ، ومروان بن محمد بالجعدي والحمار ، ويزيد الثالث الاموي الناقص . . .

ولما قامت دولة بني العباس ، وارادت ان تحكم على اساس ديني ، وتبنت فكرة « الحق الالهي المقدس » عمل خلفاؤها على تثبيت هذه الفكرة بالقاب غلب على اسمائهم ، واول خليفة عباسي هو ابو العباس الذي لقب بالسفاح ، ويظهر انه كان يقصد به الكرم والسخاء ، لا التقتيل والمجازر او كلا المعنيين معاً . وقد استعمله ابو العباس في خطبته لاهل الكوفة فقال : « انا السفاح المبيح » وذلك في صدد وعدهم بالعطاء الكثير والسخاء

الوفير ، ولم يكن في معرض توعدهم بالقتل والتشريد وان كانت سيرته فيما بعد اثبتت انـه لسفاح بمعنى قاتل او جزار .

واتخذ الخليفة العباسي الثاني ابو جعفر لقب المنصور بعد قضائـه على الثورتين العلويتين في عهده : ثورة الحجاز بقيادة محمد النفس الزكية (المهدي العلوي)وثورة البصرة بقيادة ابراهيم بن عبيد الله المحض .

ويرى فان فلوتن ان القصد من اتخاذ هذا اللقب يعني انه « الشخص الذي اعانه الله تعالى على احراز النصر » .

واتخذ الخليفة الثالث محمد بن عبد الله لقب المهدي وقدلقبه اخوه المنصور بهذا اللقب وذلك لاعلاء شأنه في نظر الرعية . . وهكذا تعاقبت الالقاب مثل: الهادي والرشيد وكلها القاب تضفي على الخلفاء العباسيين الاوائل معنى القوة والسلطة الآلهية .. بينما تحولت الالقاب مع ضعف الخلفاء الى : المتوكل على الله ، والمعتصم بالله والمستنصر بالله والمستعين بالله وغيرها ممن يعتمدون على نصر الله وتأييده .

وفي العهود الاخرى في محاولات انقاذ العالم الاسلامي من الخطر الذي يتهدده عادت الالقاب الى صيغة جديدة .. الناصر لدين الله أو (خادم) او (حامي) الحرمين الشريفين .

الشورى : اعتمد الخلفاء الراشدون على الشورى في البت في الامور الهامة وحل المشاكل العامة ، وكانت الشورى على نوعين : جماعة من كبار الصحابة يعتمدهم الخليفة ويستشيرهم فيما يعرض له من أمر ، قبل البت فيه ، وعامة اهل المدينة وزعماء الوافدين اليها ، كما فعل عمر ، حين كان يأمر المنادي ان ينادي « الصلاة جامعة » وبعد الصـلاة يخطب عمر بالمصلين ويعرض عليهم الموضوع الذي يريد ان يعرف فيه رأي سواد الناس ، ومما روي عن عمر انه خطب مرة وقال : « انني لم ازعجكم الا لان تشتركوا معي

فيما حملت من اموركم ، فاني واحد كأحدكم ، وانتم اليوم تقرون بالحق ، خالفني من خالفني ووافقني من وافقني ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هو هواي ، معكم من الله كتاب ينطق بالحق ، فوالله لئن كنت نطقت بأمر اريده . ما اريد به الا الحق » .

ومما يروى انه بهذه الطريقة فصل في عدة مسائل خطيرة ، كان ذلك ، حين اثيرت مسألة قسمة اراضي الشام بالعراق بين الجند المحاربين ، ومانع عمر ، فقد استغرق الجدل فيها عدة ايام ، وحين عزم عمر بعد نهاوند قيادة الجيش بنفسه فعارضه عثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف ، وكان عمر في مجالسه هذه في المسجد قد حلّ قضايا رواتب المجاهدين وانشاء الوظائف والدواوين وتعيين العمال وبعض قادة الجيوش .. ويروى ان عمر قال : لا خلافة بدون شورى . ومع تطور الدول الاسلامية نظم امر الشورى واصبح ركناً جوهرياً يرتكز عليه نظام الحكم .

شروط الخلافة وصفات الخليفة : لقد أورد بعض المؤرخين كالماوردي والبيروني وابن خلدون ضرورة توفر صفات في الخليفة والا فالمسلمون في حل من الخضوع له . لذلك نجد أنه في العهد العثماني استفاد البعض من أفراد الاسرة المالكة والسياسيين من ضعف بعض الخلفاء فاستصدروا فتوى من شيخ الاسلام بخلعهم وإقامة غيرهم .

وهذه الصفات هي : العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس واختلف في شرط خامس وهو النسب القرشي .

١ – العلم : أي أن يكون عالماً بشؤون الدين والاحكام الشرعية . ويقول ابن خلدون « ولا يكفي من العلم الا أن يكون مجتهداً ، لان التقليد نقص ، والامامة تستدعي الكمال في الاوصاف والاحوال » .

٢ً – العدالـة : أي أن يكون مستقيما متجنباً للمعاصي معروفاً بحسن السيرة والاخلاق الحميدة بين الناس .

٣ً – الكفايـة : أي قادراً على حماية الحدود بصيراً بالحروب ، كفيلًا بحمل الناس عليها قويا على معـاناة السياسة ، كفيئاً على حماية الدين وجهاد العدو واقامة الاحكام وتدبير المصالح .

٤ً – سلامة الحواس والاعضاء : أي أن يكون سليما من الجنون والعمى والصمم والخرس وما يؤثر فقده من الاعضاء على العمل كفقد اليدين والرجلين

٥ً – النسب القرشي :وقد أجمع عليه الصحابة يوم السقيفة معتمدين الحديث « الائمة من قريش » . ولكن بعد تسلط الاعاجم على الخلفاء شك كثير من المحققين والفقهاء في هذا الشرط حتى ذهبوا الى نفيه . وعولوا في ذلك على أحاديث أخرى كالتي تقول : « اسمعوا وأطيعوا وان ولي عليكم عبد حبشي »

ولابن خلدون رأي خاص هو أن يكون الخليفة من أصحاب العصبية أياً كانت جنسيته . وبما أن الغلبة والنفوذ كانتا لقريش بعد وفاة النبي ﷺ فمن الضروري أن تكون الخلافة فيهم وقتئذ .

ولاية العهد : يقول ابن خلدون : « بما أن الخليفة هو الناظر في مصالح الامة الدينية والدنيوية وهو وليها والامين عليها وقد منحته ثقتها فانه من متممات مهمته أن يؤمن مصلحة المسلمين بعد وفاته ، وأن يعين لهم من يتولى أمورهم كما كان هو يتولاها . » وقد جرى ذلك في عهد الراشدين بشكل شوري فقد عهد أبو بكر لعمر من بعـده بمحضر من الصحابة الذين أجازوه وأوجبوا على أنفسهم طاعة عمر . وكذلك عهد عمر الى سبعة أشخاص أمر اختيار خليفة من بينهم ، على أن يستثنى ابنه عبد الله فينتخب ولا ينتخب . فتركزت

الآراء على عثمان وعلي . فحكم عثمان وبعد مقتله تولى الخلافة علي . وهذه الطريقة أيدها كثير من المؤرخين والناقدين لانها تجمع بين الجمهورية والملكية المطلقة والشورى . فهي جمهورية لان الخليفة كان ينتخب من جمهور القرشيين بلا حصر ولا تعيين ، وهي شورية لان الانتخاب كان بالشورى؛ وهي ملكية مطلقة لان الخليفة كان مطلق التصرف .

ثم لما آلت الخلافة الى الامويين والعباسيين وأصبحت إرثية كان الخلفاء يبايعون لاولادهم بولاية العهد أو لغيرهم من ذوي قرابتهم .وقد أيد ابن خلدون ذلك التغيير الذي جرى في تعيين ولي العهد بين عهد الراشدين والعهد الاموي والعباسي إذ يقول : ان بعض الخلفاء كانوا يتحرون الحق ويعملون به مثل عبد الملك وسليمان من بني أمية ، والسفاح والمنصور والمهدي والرشيد من بني العباس وأمثالهم بمن عرفت وحسن رأيهم للمسلمين والنظر لهم ؛ ولا يعاب عليهم إيثار أبنائهم وإخوانهم وخروجهم عن سنن الخلفاء الاربعة في ذلك فشأنهم غير شأن اولئك ... لان العصبية قد أشرفت على غايتها من الملك ، والوازع الديني قد ضعف واحتيج الى الوازع السلطاني ... ».

وكان الخلفاء إذا رأوا غير واحد من أولادهم أو اخوتهم اهلاً للخلافة بايعوا لاحدهم ،وشرطوا أن يخلفه فلان ،أو فلان كما فعل يزيد بن عبد الملك لما بايع أخاه هشاماً على أن يخلفه ابنه الوليد الذي كان صغير السن . كما كان الخلفاء يعرضون عزمهم في تعيين خلفهم على أهل الرأي كما فعل المنصور لما أراد البيعة لابنه المهدي وكان جعفر يعترض عليه في ذلك فأمر المنصور باحضار الناس ، وقام الخطباء فتكلموا ، وقامت الشعراء فاكثرت في وصف المهدي فرجحت بذلك كفته .

والعهد كتاب يكتبه الخليفة أو من يكتب له ، ويختمه بخاتمه وخواتم

أهل بيته ويحفظ في مكان أمين في خزانة او مسجد او في الكعبة كما فعل الرشيد . كما انه يدعى لولي العهد على المنابر بعد الدعاء للخليفة .

البيعة : البيعة هي العهد على الطاعة فاذا بايع الرجل اميراً كأنه عاهده وسلم اليه النظر في امر نفسه لايخالفه في شيء؛ وكان العرب اذا بايعوا الامير وعقدوا عهده جعلوا ايديهم في يده تأكيداً للعهد بما يشبه فعل البائع والمشتري . وصارت البيعة مصافحة الايدي وهو مدلولها بعرف اللغة .

واقدم بيعة في الاسلام بيعة الانصار للنبي ﷺ بالعقبة قالوا: «يارسول الله انا براء من ذمامك حتى تصير الى دارنا . فاذا وصلت فانك في ذمامنا نمنعك بما نمنع منه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا » .

ولما يبايع الخليفة يأتون له بموكب الخلافة ، وهي افراس مسرجة ، ولكل دابة سائس ، بالالبسة الفاخرة ، فيركب الخليفة وحوله الفرسان من كبار الدولة ويمشي بين يديه رجل يحمل حربة . ويصف الجنود في الطريق صفين يسير الموكب بينهما الى دار الحكومة . ثم يرد عليه وفود المهنئين وكانت العادة أن يبدأ كبار الدولة بالمبايعة ثم من يليهم من أصحاب المناصب . وفي الدولة العباسية كان أول من يبايع الخليفة قادة الجيش وقضاة بغداد في كثير من المرات .

وكان العرب يميلون في المبايعة الى الاختصار ، وكانت البيعة تتلى شفاهاً ثم صارت تكتب وتحفظ . وكانت تتألف من كلمات فصارت صفحات كثيرة بما ادخل فيها من الحشو والاطناب .

علامات الخلافة : وهي ثلاثة أشياء : البردة والخاتم والقضيب توارثها الخلفاء عن الرسول عليه السلام . وكان الخليفة الجديد يستلمها من القديم ويورثها لمن بعده .

١ — **البردة :** هي بردة النبي ﷺ التي خلعها على الشاعر كعب بن

زهير لما رجع إلى النبي تائباً مستغفراً ومدحه بقصيدته المشهورة « بانت سعاد فقلبي اليوم متبول » وظلت البردة عند اهل كعب حتى اشتراها معاوية اثناء خلافته باربعين الف درهم وتوارثها الخلفاء الامويون والعباسيون[1] .

٢' ــ **الخاتم** : اتخذه الخلفاء تشبهاً بالنبي . وقد استعمل النبي الخاتم لما كتب إلى قيصر وكسرى يدعوهما إلى الاسلام . وخاتمه من فضة نقش عليه « محمد رسول الله » كل كلمة بسطر . وانتقل هذا الخاتم إلى ابي بكر ثم إلى عمر وعثمان . ويقول البخاري أنه سقط من يد عثمان في بئر ولم يعثر عليه ، فاغتم عثمان وتطير من ذلك وصنع آخر على مثاله .

وكان كل من ولي الخلافة بعده يصنع له خاتماً . ولم يكن الخلفاء ينقشون على خواتمهم اسماءهم بل عبارات فيها مواعظ وحكم مثل « على الله توكلت » و « اعتمادي على الله وهو حسبي » الخ ...

ولما نشأت السلطنات ، جعل السلاطين علامة السلطنة مثل علامة الخلافة وسموها الطغراء ، وهي نقشة فيها ألقاب الملك وسميت كذلك نسبة إلى الحسين ابي اسماعيل الطغرائي وزير السلطان مسعود السلجوقي وكان خطه جميلاً ويقال أنه أول من كتبها .

٣' ــ **القضيب** : هو ثالث علامات الخلافة . لم يشرح المؤرخون المقصود منه لعله قضيب النبي ﷺ توارثه الخلفاء أو قلدوه في حمله .

شارات الخلافة : وهو أيضاً : الخطبة والسكة والطراز .

١' ــ **الخطبة** : ويقصد بها الدعاء للخليفة على المنابر في جميع مساجد البلاد التابعة له . ولما ضعف شأن الخلفاء في بغداد كان المتغلبون من السلاطين أو الامراء يشاركون الخلفاء فيذكرون اسماءهم بعدهم . وكان أحياناً يستقلون في الدعاء لأنفسهم .

---

(١) يروي العباسيون قصة طويلة عن وصول البردة والخاتم والقضيب اليهم من الامويين ، لم تؤكد هذه الرواية من جمهرة المؤرخين .

٢ ـ **السكة** : وهي أن يضرب اسم الخليفة على النقود المتعامل بها بين الناس ، وكان العرب قبل الاسلام يتعاملون بالنقود الفارسية والرومية وغيرها من يمانية ونبطية وتدمرية الخ .. ثم لما جاء الاسلام ضرب الخلفاء والامراء النقود مشتركة بينهم وبين الروم والفرس . كما فعل خالد وعمر ومعاوية وعبد الله بن الزبير . ولما آلت الخلافة الى عبد الملك اراد تغيير الطراز الذي يستورد من بلاد الروم فهدده ملكها بان ينقش على دنانيره شتم النبي . فعظم هذا الأمر على عبد الملك فأمر بضرب النقود وهدد بالقتل من يتعامل بغيرها . وكانت الآلة التي تستعمل لضرب النقود تسمى السكة .

٢ ـ **الطراز** : وهو قديم في الدول في عصر الروم والفرس . وذلك ان يرسم الملوك اسماءهم او علامات تختص بهم في طراز اثوابهم المعدة للباسهم ، وكان ملوك العجم يجعلون ذلك الطراز بصورة الملوك واشكالهم او اشكال وصور معينة . وقد اعتاض الخلفاء عن ذلك بكتابة أسمائهم مع كلمات أخرى تجري مجرى الفأل أو الدعاء . وكان هناك طراز خاص وأشكال معينة لثياب الخليفة ولموظفي البلاط والأمراء والقواد .

تعدد الخلافة ـ ضعفها وزوالها : بقيت الخلافة محتفظة بسلطتها وقوتها في عهد الراشدين والامويين وأول عهد العباسيين . ثم بدأ ضعف الخلفاء لتسلط الاعاجم عليهم من ترك وسلاجقة وبويهيين وغيرهم يسومونهم سوء العذاب من خلع وقتل وتمثيل . واقتصرت سلطة الخليفة في عهود الضعف على الامور الدينية فقط .

كما أن العالم الاسلامي قد تجزأ وزالت وحدته . فالاندلس استقلت وتأسست خلافة أموية فيها . وكذلك نشأت خلافة فاطمية في المغرب ومصر . هذا الى جانب الخلافة العباسية في بغداد . وبذا اصبح هنالك ثلاثة خلفاء في وقت واحد .

يضاف الى ذلك انه في منتصف القرن الرابع الهجري اتخذ حاكم سجلماسة لقب أمير المؤمنين . كما ان عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين في بلاد المغرب اتخذ لقب خليفة وامير المؤمنين . واخيراً لما سقطت الدولة العباسية ٦٥٦ هـ استقدم الظاهر بيبرس أحد افراد الاسرة العباسية الذين نجوا من المغول وهو الامام احمد بن الخليفة الظاهر . وعقد بيبرس مجلساً من كبار رجال الدولة وبايعوه بالخلافة ولقبوه « المستنصر بالله » وذلك ليقوي بيبرس مركزه في العالم الاسلامي ضد منافسيه .

وجملة القول انه بزوال الخلافة العباسية في بغداد ، اختل نظام الخلافة واصبح في مقدرة كل امير قوي ان يتخذ لنفسه لقب خليفة ، كما حصل في فارس وما وراء النهر ومصر وتونس ومراكش . وبهذا التعدد في نظام الخلافة اصبحت كلمة خليفة لاتدل على الرجل الروحي المتسلط على العالم الاسلامي ، وانما اصبحت تدل على مجرد حاكم .

ثم لما فتح السلطان سليم الشام ومصر (١٥١٧ م) استولى على الخلافة كما يذكر بعض الكتاب من المتوكل على الله آخر خلفاء بني العباس الذي تنازل له عنها . الا ان معظم المؤرخين يميلون الى الشك بصحة هذا الخبر لاسباب عديدة لا مجال لذكرها الآن . وبعد ان اعلنت الجمهورية برئاسة مصطفى كمال فصلت السلطة السياسية عن الدينية ثم الغيت الخلافة رسمياً سنة ١٩٢٤ م .

الفصل الثالث

الوزارة

تعريف الوزارة : يقول الماوردي في « ادب الوزير » الوزارة اسمها مشتق من معناها ، واختلف فيه على ثلاثة أوجه :

١ — من الوِزْر وهو الثقل لأنه يحمل عن الملك أثقاله .

٢ — من الأزر وهو الظهر لأن الملك يقوى بوزيره كقوة البدن بظهره .

٣ — من الوَزَر وهو الملجأ ومنه قوله تعالى: « كلا لا وزر » أي لا ملجأ، لأن الملك يلجأ إلى رأيه ومعونته .

وقد عرف لنا هارون الرشيد الوزير لما عين يحيى بن خالد وزيراً له أنه « نائب مفوض يحكم البلاد كلها باسم الخليفة . وقد اطلقت يده في التولية والعزل والعطاء والحرمان لايشاركه في ذلك أحد » .

وقد وردت كلمة وزير في موضعين من القرآن . في سورة طه حيث يخاطب موسى ربه قائلاً : « ... رب اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري ، وأحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ، واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي، اشدد به أزري واشركه في أمري » وفي سورة الفرقان : « ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه اخاه هارون وزيراً » .

الوزارة قبل العصر العباسي : ليست الوزارة من مستحدثات الاسلام ، فقد عرفها بنو اسرائيل والساسانيون الفرس وربما غيرهم . وإذا أريد بالوزارة المساعدة والمعاونة والاستشارة فإنها عرفت لدى معظم الدول المنظمة ، فإن ملوك العرب قبل الاسلام في اليمن والحيرة والشام كانوا يسمون من يؤازرهم أعباء الملك (الراهن) لأنه مرتهن بالتدبير . (والزعيم) لأنه زعيم بصواب الرأي . و (الكافي) لأنه يكفي الملك مهات الأمور . و (الكامل) لأن المفروض فيه أنه كامل الفضائل .

وفي صدر الاسلام كان النبي ﷺ يشاور أصحابه ويفاوضهم في مهماته العامة والخاصة ، ويخص أبا بكر بخصوصيات أخرى ، حتى كان العرب الذين خالطوا الفرس والروم والأحباش يسمون أبا بكر وزيره . ويقول بعض المؤرخين أن الوزارة ظهرت مع الخلافة فكان عمر وزيراً لأبي بكر وكذلك علي وعثمان مع عمر ومروان بن الحكم مع عثمان .

ولما انتقلت الخلافة إلى الأمويين وجعلوها إرثية تعتمد على السياسة والدهاء احتاجوا إلى من يستشيرونهم ويستعينونهم في شؤون القبائل وتدبير أمور الدولة بعد أن تطورت بالنسبة لما كانت زمن الراشدين . فاستخدموا أناساً لذلك يقومون بعمل الوزراء ولكن لم يطلق عليهم هذا اللقب . إلا أن بعض المؤرخين يقولون عن زياد بن أبيه وعمرو بن العاص انهما وزيرا معاوية .

ويذكر المسعودي في كتابه التنبيه والاشراف : أن بني أمية كانت تنكر أن تخاطب كاتباً لها بالوزارة وتقول : الوزير مشتق من الوزراة . والخليفة أجل من أن يحتاج إلى المؤازرة .

الوزارة زمن العباسيين : قال ابن طباطبا أحد الذين ارخوا في الوزارة . « الوزارة لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس . فاما

قبل ذلك فقد كان الملوك يستشيرون ذوي الحجا والآراء الصائبة من اتباعهم وحاشيتهم فكان الواحد منهم يجري مجرى الوزير . فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسمي الوزير وزيراً وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً » .

ويميل كثير من المؤرخين إلى القول بأن العباسيين قلدوا الفرس واخذوا عنهم بعض نظم حكمهم ومنها الوزارة وما يترتب عنها ، وقد تناقل المؤرخون هذا القول حتى أصبح كأنه حقيقة ثابتة لاجدال فيها .

ولكن إذا نظرنا إلى سنة تطور الدول ونظام رقيها نرى أن العرب كان قد مضى على تأسيسهم دولتهم الكبرى مدة طويلة وانتشر نفوذهم وتنظمت حكوماتهم كما تنظمت غيرها من الدول بفعل الزمن وقوانين التطور . والدولة العربية كانت واسعة الارجاء بعيدة الحدود لا يستطيع الخليفة أن يقوم وحده بأمور السياسة والادارة كلها ، فلابد له من الاستعانة برجال آخرين يؤازرونه ويشاركونه ويتسمون باسماء مختلفة . وقد عرف العرب ذلك قبل الاسلام وبعده . وقديماً قالوا : لا يصلح السلطان إلا بالوزراء والأعيان . فمن مجرى الحوادث التاريخية نلاحظ أن العرب عرفوا منصب الوزير كما نلاحظ أيضاً أن علماء اللغة القدامى جعلوا كلمة الوزارة عربية كما مر معنا . نضيف إلى ذلك أن الكلمة وردت في القرآن . كما استعملها أبو بكر في اجتماع السقيفة لما خاطب الأنصار : نحن الأمراء وأنتم الوزراء .

كان أبو سلمة الخلال أول من دعي بالوزير في دولة بني العباس . وقد اغتاله السفاح ؛ ثم استوزر أبا الجهم ومن بعده خالد بن برمك جد البرامكة

الذين نبغوا وسما نفوذهم في الدولة حتى قضى عليهم الرشيد ، وجرى جميع الخلفاء العباسيين هذا المجرى من اتخاذ الوزراء والاعوان .

ووصف المأمون الوزير الذي يرغب أن يستوزره بقوله : « إني التمست لاموري رجلا جامعاً لخصال الخير ، ذا عفة في خلائقه ، واستقامة في طرائقه ، قد هذبته الآداب ، واحكمته التجارب ، إن اؤتمن على الاسرار قام بها ، وان قلد مهمات الامور نهض فيها ، يسكته الحلم وينطقه العلم ، وتكفيه اللحظة وتغنيه اللمحة ، له صولة الامراء ، وأناة الحكماء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء . ان حسن إليه شكر ، وان ابتلي بالاساءة صبر ، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده ، يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه ، وقد جمع أحد الشعراء الصفات التي يجب أن يتحلى بها الوزير بقوله :

بديهته وفكرته سواء	إذا اشتبهت على الحال الأمور
واحزم ما يكون الدهر يوماً	إذا أعيا المشاور والمشير
وصدر فيه للهم اتساع	إذا ضاقت من الهم الصدور

نوعا الوزارة : يقسم علماء التشريع الاسلامي كالماوردي وغيره الوزراة في العهد العباسي إلى نوعين :

١ً — وزارة التفويض ٢ً — وزارة التنفيذ .

١ً — **وزارة التفويض :** يرأسها شخص يفوض إليه الخليفة تدبير الأمور برأيه ، وامضائها على اجتهاده دون الرجوع إليه . ومن أشهر وزراء التفويض : جعفر البرمكي وزير الرشيد والفضل بن سهل وزير المأمون ، فسلطة التفويض إذاً مطلقة شبيهة بسلطة الخليفة إلا في ثلاثة أمور :

ا ــ ولاية العهد : فالخليفة يولي ولياً للعهد ولا يجوز ذلك للوزير .

ب ــ الاستعفاء : أي ان الخليفة يستعفي الأمة من الخلافة ولايجوز للوزير أن يستقيل .

حـ ــ العزل : أي للخليفة أن يعزل من عينه الوزير وليس للوزير أن يعزل من عينه الخليفة .

٢ً ــ **وزارة التنفيذ** : يرأسها شخص لا يحق له تدبير الأمور باجتهاده . وانما يكون عمله قاصراً على تنفيذ أوامر الخليفة . وهو واسطة بين الخليفة وبين الرعية . فيقوم بما يأمره الخليفة به من تعيين الولاة وتجهيز الجيوش وادارة شؤون الدولة .

الفرق بين الوزارتين : ذكر الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية الفرق بين الوزارتين وجملها باربع نقاط يجوز لوزير التفويض القيام بها وليس لوزير التنفيذ مثلها .

١ً ــ مباشرة الحرب والنظر في المظالم .

٢ً ــ الاستبداد في تقليد الولاة .

٣ً ــ الانفراد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب .

٤ً ــ التصرف في أموال بيت المال .

كما أنه يمكن إضافة فرق خامس وهو أنه يجب أن يكون وزير التفويض واحد ، بينما يجوز أن يكون وزيران للتنفيذ .

شروط وزير التفويض : يستوجب الماوردي من وزير التفويض أن يكون جامعاً للشروط المطلوبة في الخليفة ينقص عنه في واحدة وهي

النسب . ويزيد في واحدة وهي المعرفة بأمري الحرب والخراج ليباشرهما بنفسه أو يختار من يباشرونهما تحت إشرافه .

شروط وزير التنفيذ : لا يشترط فيه أن يكون حراً ولا عالماً لأنه ليس له أن ينفرد بعمل . ويراعى فيه ثمانية شروط وهي :

١ — الامانة . ٢ — صدق اللهجة . ٣ — قلة الطمع . ٤ — بعيداً عن عداوة الناس . ٥ — ذكوراً لما يؤديه إلى الخليفة . ٦ — الذكاء والفطنة . ٧ — ألا يكون من أهل الاهواء ٨ — الحنكة والتجربة إذا كان مما يحتاج الخليفة إلى رأيه ومشورته .

عدد الوزراء : يقول الماوردي : إنه يجب ألا يكون في الدولة الا وزير واحد للتفويض ويجوز أن يكون اثنان للتنفيذ كما مر معنا ، ولم يعرف تعدد الوزراء إلا في أواخر العهد العباسي زمن عضد الدولة . ويقول آدم متز « ... أحدث عضد الدولة في منصب الوزارة شيئين لم يكونا قبله . أولهما اتخذ وزيرين معاً ، والثاني أن أحد هذين الوزيرين وهو ابن منصور نصر بن هارون كان نصرانياً أبقاه الخليفة في بلاد فارس وطنه وأخذ الوزير الثاني معه إلى بغداد . » ولما جاء بهاء الدولة جرى على طريقة أبيه فعين وزيرين .

وإذا وجد وزيران في وقت واحد يجب حسب رأي الماوردي ألا ينفذ لهما أمر إلا حين يجتمعان على رأي واحد . إذا انفرد أحدهما برأي فلا يؤخذ به وإذا اختلفا في شيء رُدّ إلى الخليفة فنفذ فيه حكمه . ولاضرر من أن يختص كل وزير بعمل معين أو بلاد معينة . كأن يكون أحدهما

للحرب ، والآخر على الخراج ، او احدهما لبلاد المشرق ، والآخر لبلاد المغرب .

ولما جاء السلاجقة جعلوا لأنفسهم وزيراً وللخليفة وزيراً . وكان وزير الخليفة ضعيف الأمر .

بينما أوجد الترك الذين سيطروا على شرق الدولة العباسية أيام ضعفها وظيفة « الدويدار » وهي وظيفة محصورة في استتباع كاتب السر وصاحب البريد المتصرفين في حاجات السلطان بالقاصية وبالحاضرة كما يقول ابن خلدون في مقدمته . وكان من وظائفه أيضاً الوقوف في مجلس السلطان أو التقدم بين يديه بالوفود ، وتقديم التحية ...

سلطة الوزير : لقد ذكرنا بصورة مجملة سلطة وزيري التفويض والتنفيذ. ولكننا اذا أخذنا بعين الاعتبار حالة الدولة في أدوار قوتها وضعفها ومكانة الخلفاء ومدى نفوذهم نجد أن سلطة الوزير كانت تتأثر إلى حد بعيد بقوة الخلفاء وضعفهم .

ففي العصر العباسي الأول كانت سلطة الخلفاء قوية حتى أن الوزراء كانوا يخافون على أنفسهم من بطشهم . ويبدو هذا الخوف في أنهم كانوا يتجنبون أن يطلق عليهم اسم وزير بعد مقتل أبي سلمة الخلال وأبي الجهم الذي سمّه المنصور ، فلما أحس أبو الجهم بالسم قام لينصرف فقال له المنصور إلى أين ؟ قال : إلى حيث بعثتني يا أمير المؤمنين :

أسوأ العالمين حالاً لديهم   من تسمى بكاتب أو وزير[1]

---

(١) من قصيدة للشاعر ابن حبيبات الكوفي .

ثم استوزر المنصور عدداً من كبار الشخصيات كان نصيب البعض منهم القتل ونصيب الآخرين العزل . فالوزراء في عهده لم يكن لهم شأن كبير لاستبداده واستغنائه برأيه وكفاءته .

أما في عهد الرشيد فقد بلغ نفوذ الوزير منتهاه . وقد قال الرشيد ليحيى بن خالد البرمكي لما اتخذه وزيراً له « اني قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك فاحكم في ذلك ما ترى من الصواب واستعمل من رأيت وامض الأمور على ما ترى » ثم دفع إليه خاتمه الخاص وسلمه خاتم الخلافة ، حتى صار بيده الحل والعقد في كل شؤون الدولة . ولكن الرشيد ماعتم أن نكب البرامكة لما رأى ازدياد سلطانهم واتساع نفوذهم .

ثم في الأدوار التالية لما ضعف شأن الخلفاء ازداد نفوذ الوزراء وقويت المنافسة على الوزارة وتفشى الدس والرشوة . وإذا أظهر أحدهم استعداده لشراء هذا المنصب يدفع مبلغاً كبيراً من المال للخليفة . ثم يرجع ويسترده من أي وجه بعد توليته .

وبلغت الوزارة في مطلع القرن الرابع أي زمن المقتدر في عهد ابن الفرات شأواً بعيداً من حيث الابهة والنفوذ وكثرة المال . حتى قال أحد المؤرخين : ما سمعنا بوزير جلس في الوزارة وهو يملك من العين والورق والضياع والاثاث ما يحيط بعشرة آلاف الف غير ابن الفرات . وقد ظهر بمظهر الفخامة التامة فكان يجري على خمسة آلاف إنسان ما بين مائة دينار في الشهر إلى خمسة دراهم . وكان يطلق للشعراء في كل سنة من سني وزارته عشرين الف درهم رسماً لهم سوى ما يصلهم به متفرقاً وعند مديحهم إياه . وكان فيمن يدعى إلى طعامه كل يوم تسعة كتاب هم خاصة كتابه

وكان منهم اربعة نصارى . وكانت ألوان الطعام توضع وترفع على مائدته أكثر من ساعتين .

وفي أسباب تطور نفوذ الوزارة يقول ابن خلدون : « ولما جاءت دولة بني العباس واستفحل الملك ، وعظمت مراتبه وارتفعت ، عظم شأن الوزير ، وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعقد ، وتعينت مرتبته في الدولة ، وعنت لها الوجوه ، وخضعت لها الرقاب وجعل لها النظر في ديوان الحسبان ، لما تحتاج إليه خطته من قسم الاعطيات في الجند ، فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه ، واضيف إليه النظر فيه » ثم يشرح ابن خلدون كيف تطورت سلطة الوزير وجعل له النظر في المكاتبات لمعرفته بأسرار الخليفة . . فصار اسم الوزير جامعاً لخطتي السيف والقلم ، وسائر معاني الوزارة والمعاونة ، حتى لقد دعي جعفر بن يحيى البرمكي بالسلطان في أيام الرشيد ، وذلك اشارة إلى عموم نظره ، وقيامه بالدولة .

ضعف شان الوزارة : أخذت سلطة الوزير منذ القرن الرابع تتسع أو تتقلص حسب حالة الدولة وموقف الخليفة . إلا أنها كانت تضعف وتسوء مما دعا الخلفاء إلى تبديل الوزراء وتغييرهم إلى أن انتهى الأمر في عهد الراضي إلى سيطرة امراء الامراء على الحكم مباشرة كما سيمر معنا فكانوا يعزلون ويولون وينظرون في جميع الامور ، وليس للوزراء من سلطة سوى الاسم . ثم في عهد المستكفي دخل امراء بني بويه بغداد وحجروا على الخلفاء فلم يعد هؤلاء يستوزرون وإنما كانت تولية الوزراء لبني بويه .

القاب الوزراء ورواتبهم : لم يكن للوزراء في العهد العباسي الأول القاب يضيفونها إلى لقب الوزارة وينفردون بها . إنما نجد في المصادر أن جعفر

ابن يحيى البرمكي قد دعي بالسلطان اشارة إلى اتساع نفوذه واستلامه كل مقدرات الدولة .

ولعل المهدي هو أول من أطلق على وزيره لقباً ولكن دون أن يشتهر به . فقد لقب وزيره يعقوب بن داود الاخ في الله . وجاء المأمون فلقب وزيره الفضل بن سهل ذا الكفايتين ولقب الحسن بن سهل ذا الرياستين لأنه جمع له بين السيف والقلم .

وفي أواخر العهد العباسي وفي زمن الدولة الفاطمية ظهرت الألقاب الفخمة . وأول من لقب بالألقاب الكثيرة وزير جلال الدولة (٤١٦) هـ إذ لقبه سعد الدولة وأمين الملة وشرف الملك . كما لقب المسترشد (٥١٣) هـ أحد وزرائه بهذه الألقاب جلال الدين وسيد الوزراء وصدر الشرق والغرب وظهر امير المؤمنين . ولكن المسترشد قبض عليه وعزله لان وزير السلطان السلجوقي كان يحقد عليه .

ورغم ان وزراء الفاطميين لم تكن سلطتهم تتعدى سلطة وزير التنفيذ فان الخلفاء اطلقوا عليهم القابا فخمة مثل : ظهير الامة وخليل امير المؤمنين.

رواتب الوزراء : كانت الرواتب تختلف باختلاف العصور والاشخاص. ونحن نجهل قيمة رواتب الوزراء في أوائل الحكم العباسي . ويبدو أنها كانت غير محدودة وتتألف من الهبات الكبيرة والهدايا النفيسة والضياع والخلع .

ولا نعلم متى بدأ الخلفاء يخصصون رواتب لوزرائهم . انما تذكر المصادر ان المقتدر بالله العباسي فرض لوزيره علي بن عيسى (٥٠٠٠) دينار في الشهر . هذا الى ما كان يعطي من الرواتب لاهل الوزراء ولاخوتهم واولادهم وحواشيهم .

ولقد جاء وقت كان فيه الوزراء يضمنون واردات الدولة ضمانا ،

فيتصرفون بما يفيض عن مبلغ الضمان ويصيبون ثروة عظيمة من الرشوات والمصادرات والهدايا ونحوها . وقد ذكر المؤرخون ان ابن الفرات وزير المقتدر اكل من اموال المصادرات اكثر من مليون دينار في حادثة واحدة . ولما عزل صودر من امواله مليون وستمائة الف دينار سوى الاثاث والعقار والضياع وغير ذلك .

أما مخصصات الوزير الشهرية في العهد الفاطمي وما يلحقه من رواتب اهله واتباعه كانت على النحو التالي :

الوزير (٥٠٠٠) دينار . ولكل واحد من أبنائه واخوته (٢٠٠ — ٣٠٠) دينار . ولكل واحد من حواشيهم (٣٠٠ — ٥٠٠) دينار هذا عدا الاقطاعات والهدايا والخلع .

وقد بلغت رواتب بعض وزراء العباسيين والفاطميين مائة الف دينار في السنة

تعيين الوزراء وعزلهم : كان تعيين الوزراء في اول الامر يتم بأسهل طريقة وذلك بأن يدعو الخليفة اليه الرجل الذي وقع عليه اختياره للوزارة ويبلغه ارادته فينطلق هذا الى عمله .

أما فيما بعد فقد بلغت مراسيم التعيين حد الروعة والبهاء . فكان من يستوزره الخليفة يأتي الى القصر بعد ان يصله الكتاب الرسمي الذي كان يحمله اليه أميران من أمراء الدولة ، وعند وصوله الى باب الحجرة كان يقدمه الحاجب الى الخليفة ، وبعد أن يؤدي الطاعة كان يتحادث معه قليلا ، ثم يذهب إلى حجرة أخرى حيث يلبس ثياب التشريف . ثم يعود فيقبل يد الخليفة وينصرف إلى الديوان ممتطياً فرساً مطهماً ، وكان يسير بين

يديه كبار الموظفين والجيش والامراء وموظفي البلاط وخدام الخليفة والحجاب ، وعندما يصل إلى ديوانه كان يستقبل استقبالاً حافلا ويقرأ عليه مرسوم التعيين .

عزل الوزراء : كان اكثر الوزراء لايعزلون ، وانما يقتلون أو يسجنون وتصادر أموالهم ويعزل معهم كتابهم وأصحابهم . وربما قتلوا معهم أو حبسوا وصودروا . ولا يسلم أولاد الوزير وأقرباؤه أحياناً من أذى الخليفة . وقد ذكر احد المؤرخين حالة اعتبرها شاذة وهي : ان السلطان جلال الدولة ملكشاه طلب من الخليفة المقتدي عزل وزيره ابي شجاع ، فخرج توقيع المقتدي بعزله على حالة جميلة ، لم يصرف بمثلها وزير .

قيل ان ابا أيوب المورياني كان في مجلسه فأتاه رسول الخليفة المنصور فامتقع لونه وتغير . فسأله بعض أصحابه عن خوفه فذكر لهم قصة البازي والديك . وذلك أن البازي كان يعجب من الديك لا يدنو منه أحد حتى يطير يمنة ويسرة ويصيح ويصوت ، بينما يلزم البازي الهدوء . فقال له الديك لو رأيت في سفافيدهم التي يشوي فيها اللحم من البزاة مثل الذي رأيت أنا فيها من الديكة لكنت شراً مني .

واردف المورياني يقول : ولكنكم لو كنتم تعلمون ما اعلمه لم تتعجبوا من خوفي مع ما ترون من تمكني .

الوزراء في الاندلس : قلدت باقي الدول العربية والاسلامية العباسيين في اتخاذ الوزراء كما جرى في الاندلس ومصر .

اما في الاندلس فيقول ابن خلدون ما معناه : « ان مؤسسي دولة بني امية في الاندلس انفوا من اسم الوزير في مدلوله اول عهد الدولة . ثم قسموا عمله اصنافاً وأفردوا لكل صنف وزيراً . فجعلوا :

١ – لحسبان المال وزيراً (المالية) .
٢ – وللنظر في حوائج المتظلمين وزيراً (العدلية) .
٣ – وللترسيل وزيراً (الخارجية) .
٤ – وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيراً (الحربية) .

وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم ، وينفذون أوامر السلطان هناك كل فيما جعل له . وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب . ولم يزل الشأن هذا الى آخر دولتهم ، فارتفعت وظيفة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها.

الوزارة لدى الفاطميين والمماليك : عرف منصب الوزير زمن الاخشيديين قبل عهد الفاطميين . ولما اقبل المعز لدين الله الفاطمي الى مصر كان فيها الوزير ابو الفضل جعفر بن الفرات . وقد ابى جوهر في بادىء الامر أن يلقبه بالوزير إنما اقره في منصبه اذ ان سياسته كانت ترمي الى عدم احلال الشيعيين محل السنيين دفعة واحدة حتى لا يقف دولاب الاعمال الحكومية . ولم يبق لابن الفرات من منصبه الا الاسم فقط .

ثم عهد المعز بالوزارة الى يعقوب بن كلس اليهودي الاصل . الا أن هذا الاخير اولى ابن الفرات ثقته التامة واعتمد عليه وتوثقت أواصر الصداقة بينهما . ولا سيما عندما زوج ابن كلس ابنته إلى ابن صديقه ابن الفرات .

ومن استعراض اسماء وزراء الفاطميين نجد ان الخلفاء لم يتقيدوا في أن يكون الوزير شيعياً اسماعيلياً ، فاستوزروا ابن كلس وابا منصور صدقة بن يوسف الفلاحي وأبا الحسن بن أبي سعد التستري وكانوا يهوداً قبل اسلامهم ، واستوزروا عيسى بن نسطورس ، وأبا العلا فهد بن ابراهيم ، والشافي زرعة

ابن نسطورس وأبا سعد منصور بن أبي اليم سورس بن مكرواه وبقوا على دينهم المسيحي ، يقال ان الاخير أسلم ، وأنكرت النصارى إسلامه - كما استوزروا اليازوري السني الحنفي وكان وزير تنفيذ .

ويجب أن نلاحظ ان الفاطميين ، كما لم يتقيدوا بمذهب الوزير تقيداً تاماً ، لم يتقيدوا بجنسيته أو ببلد نشأته ، ان صح التعبير ، فجوهر الصقلي مغربي ، وقد جعل الى جانب كل موظف مصري ، موظفاً مغربياً ، وجاء من بعده ابن كاس وهو بغدادي الاصل ، والجرجاني ، عراقي من السواد ؛ واليازوري فلسطيني .

يضاف الى هذا أن اهم من لعب دوراً في تاريخ الفاطميين من وزراء التفويض كانوا من الارمن مثل بدر الجمالي وابنه وحفيده ، ويانس وزير الحافظ ، وبهرام والصالح طلائع بن زريك . ثم اصبحت الوزارات إرثاً في بعض الأسر ، كعائلة أمير الجيوش .

وكانت سلطة الوزير لدى الفاطميين كسلطة وزير التنفيذ في العصر العباسي .وصار يطلق على الوزارة في عهد الحاكم (٣٨٦ - ٤١١ هـ)اسم الوساطة .

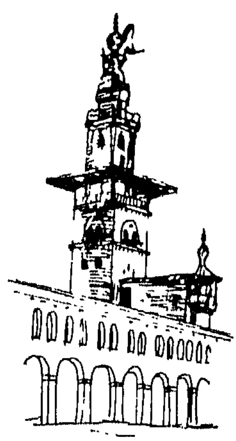
وضعف شأن الوزراء والخلفاء منذ عهد المستنصر (٤٢٧ — ٤٧٨) هـ حتى انه قد تعاقب اربعون وزيراً في تسع سنوات ، لذلك استدعى المستنصر بدر الجمالي والي عكا لاصلاح أمور مصر فتمتع بالسلطة المطلقة حتى وفاته ، ثم تولى الوزارة بعده ابنه الافضل بن بدر الجمالي الذي استبد بالحكم حتى اصبح المستنصر في عهده كالمحجور عليه . ودخلت الوزارة في عهده في طور جديد ، اذ أصبح الوزير رب السيف والقلم وفي قبضة يده خراج الدولة . وازدادت سلطة الوزراء وتضخمت ثروتهم واصبح الخلفاء العوبة في ايديهم .

الوزارة في عهد المماليك : استلم الوزارة في أواخر العصر الفاطمي في

عهد العاضد (٥٥٥ — ٥٦٧ هـ) أسد الدين شيركوه . وخلفه في هـذا المنصب ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن ايوب الذي لقب نفسه بالملك الناصر وقضى على الدولة الفاطمية وأسس دولة المماليك الايوبية .

وظلت الوزارة قائمة في مصر في عهد المماليك ، إلا أنه وضع إلى جانب الوزير الذي اصبح عمله تنفيذ رغبات سلطان المماليك واسداء النصح له : النائب ؛ وهو الذي يقوم مقام السلطان أثناء غيابه ، كما اوجد منصب وزير الصحبة ، وهو الذي يصحب السلطان في حروبه واسفاره ليتسنى للوزير الاصلي القيام بامور الدولة .

ثم بعد ذلك ، اضعف المماليك من نفوذ الوزارة واحدثوا وظيفة ناظر الدولة وناظر الخاصة وكان كل منهما يقوم بمهام الوزارة . ولعلهم ارادوا بذلك ألا يتعرضوا للخلع والاضطهاد كما كانت الحال في أواخر عهد الدولتين العباسية والفاطمية .



الفصل الرابع

امرة الامراء والسلاطين والملوك

أمير الأمراء : يقول ابن خلدون ما معناه : « لما ضعف شأن الخلافة واستبد الاعاجم بالحكم وكان من المتعذر عليهم انتحال لقب خليفة واستنكفوا مشاركة الوزراء في اللقب لانهم دونهم مرتبة ومقاما ، لهذا تسموا بالامارة والسلطان ، وكان المستبد على الدولة يسمى أمير الامراء أو السلطان او غير ذلك من الالقاب الخاصة بالخليفة التي يمنحهم إياها » .

وفي عهد الراضي (٣٢٢ – ٣٢٩ هـ) تعذر على الوزراء ادارة شؤون البلاد لازدياد نفوذ كبار القواد الاعاجم وتدخلهم في أمور الدولة . مما دعا الخليفة الى استمالة ابن رائق وكان والياً على واسط والبصرة وسلم إليه مقاليد الامور ولقبه امير الامراء . وأمر أن يخطب له على المنابر وخلع عليه وأعطاه اللواء وكانوا يسمونه أيضاً ملك بغداد أو سلطان بغداد .

ولم يكن ابن رائق أول من تلقب بأمير الامراء ، فقد ذكر مسكويه: (تجارب الامم) أن المقتدر قلد هرون بن غريب إمرة الامراء سنة (٣١٦) هـ . كما قال أيضاً : « انه منذ تولية ابن رائق منصب امارة الأمراء بطل امر الوزراء ولم يكن للوزير سوى اسم الوزارة فقط ، وان يحضر في ايام المواكب

دار السلطان بسواد وسيف ومنطقة ويقف ساكتاً . وصار ابن رائق وكاتبه ينظران في الامر كله . وكذلك كل من تقلد الامارة بعد ابن رائق وصارت أموال النواحي تحمل إلى خزائن الامراء فيأمرون وينهون فيها وينفقونها كما يرون ويطلقون لنفقات الخليفة ما يريدون وبطلت بيوت الاموال ،

وكانت حالة الخلفاء العباسيين في عهد امرة الامراء تشبه في كثير من الوجوه حالة ملوك الميروفنجيين المتأخرين مع نظار السراي : Mayors of Palace اذ لم يكن لهم من الأمر شيء الا ما كان من ظهورهم في الحفلات الرسمية .

وقد وصف المؤرخ اينهارت سكرتير شارلمان ومؤرخ حياته ضعف ملوك الميروفنجيين المتأخرين وصفاً دقيقاً قال : « ولقد ظل البيت الميروفنجي سنين طويلة خاوياً من كل قوة ولم يحط بالملك شيء من مظاهر العظمة سوى اللقب الملكي . لان حكام قصرهم قد آلت اليهم ثروة البلاد واصبحوا المتصرفين في مهام الدولة جميعها . ولم يبق للملك من سلطة سوى الرضا بلقبه الملكي وما كان من جلوسه على عرشه بشعره الطويل ولحيته المدلاة . فكنت تراه اذا ماسمع خطب سفراء الدول يرد عليها بكلمات قد لقنها من قبل .. وإذا أراد الملك السفر رحل في عربة مغطاة يجرها ثوران ويسوقها رجل من رجال الريف... ». وهكذا كان حال أواخر خلفاء بني العباس في بغداد.

السلطان : اما ظهور لقب سلطان فقد سبق لقب امير الامراء . وقد مر معنا في بحث القاب الوزراء كيف لقب جعفر يحيى البرمكي بالسلطان من قبل الرشيد اشارة الى اتساع نفوذه .

كما ان الواثق لقب قائده اشناس بلقب السلطان ووضع على مفرقه تاجاً مرصعاً وقلده قلادة وسوارين . وبقي هذا المنصب مهملاً حتى تأسست دولة آل بويه فأخذ الخلفاء يعينونهم ويحتفلون بتوليتهم احتفالاً رائعاً .

ولم يكن لقب سلطان مقصوراً على امراء آل بويه فحسب . بل كان

الخليفة يسند هذا اللقب ايضاً الى الغزاة الفاتحين امثال محمود الغزنوي والب ارسلان وملكشاه وصلاح الدين ومن اليهم . وعندما كان الخليفة يمنح هذا اللقب لأحد الامراء كان يغدو وراثياً على شرط أن يقدم اليه الامير عند التولية طلباً رسمياً . وكان الخليفة بطبيعة الحال يوافق على التعيين ويخلع عليه التشريف .

ونلاحظ ايضاً انه في العصر العباسي الثاني صار يطلق اسم السلطان على الخليفة نفسه . ولما كان عصر المماليك في مصر والشام سمي الامير بالسلطان . فقيل السلطان احمد بن قلاوون مثلاً ، والسلطان بيبرس ، لانهم لم يتجاسروا على اتخاذ لقب الخلافة احتراماً لهذا المنصب الديني الجليل . وقد لقب ايضاً ملوك آل عثمان وخلفاؤهم باسم السلاطين . كما أن حكام المغرب الاقصى اتخذوا نفس اللقب فكان يقال سلطان مراكش .

الملك : انشأ الخلفاء لقباً جديداً اطلق عليه اسم الملك وكان يمنح أحياناً لحامل لقب السلطان ويمنح أحياناً اخرى الى غيره . ولكنهم كانوا إذا ما انعموا به على احد قرنوه عادة بعبارة تتناسب وصفات الملك البارزة . واول من انعم عليه بهذا اللقب هو نور الدين محمود زنكي الذي لقب بالملك العادل .

الفصل الخامس

الحجابة

معنى الكلمة : يراد بها حجب الخليفة عن الناس . ويشرف عليها الحاجب الذي يغلق باب الخليفة دون الناس أو يفتحه لهم . ثم تطورت وظيفته وأصبح عمله تنظيم مقابلة المراجعين للخليفة وترتيبهم في الدخول عليه مراعياً في ذلك مركزهم الاجتماعي وأهمية أعمالهم .

الحجابة زمن الراشدين والامويين : لم يمنع الراشدون احداً من مقابلتهم . وقال ابن خلدون في ذلك : (اما مدافعة ذوي الحاجات عن أبوابهم فكان محظوراً بالشريعة فلم يفعلوه) .

وكان من الجائز ان يبقى الحال كذلك بعد أن انتقل الحكم إلى الامويين لان التأثر بالأعاجم كان بعد ضعيفاً ، ولا تزال روح البداوة مسيطرة على العرب. حتى قال الجاحظ : (ان دولة بني أمية عربية اعرابية) ، لولا مؤامرة الخوارج على : علي ومعاوية وعمرو بن العاص التي ذهب ضحيتها الامام علي وجرح معاوية . اذ بعد هذه الحادثة اتخذ معاوية ومن جاء بعده من الخلفاء الحجاب خوفاً على أنفسهم .

ونستدل من أخبار عبد الملك بن مروان عن حدوث امرين هامين يتعلقان بالحجابة وهما :

١ ــ اباحة الدخول لثلاثة في أي وقت شاؤوا . فقد قال عبد الملك لما ولى حاجبه « قد وليتك حجابة بابي الا عن ثلاثة : المؤذن للصلاة فانه داعي الله ، وصاحب البريد فأمر ما جاء به ، وصاحب الطعام لئلا يفسد » .

٢ ــ اتخاذ الحجاب من قبل الولاة . نستدل على ذلك من وصية عبد الملك لأخيه عبد العزيز والي مصر اذ قال له : « ابسط بشرك ، وألن كنفك ، وآثر الرفق في الامور ، فانه ابلغ بك ، وانظر حاجبك فليكن من خير أهلك فانه وجهك ولسانك، ولا يقفن احد ببابك الا أعلمك مكانه لتكون انت الذي تأذن له او ترده » .

الحجابة زمن العباسيين : كانت مرتبة الحاجب لدى العباسيين دون مرتبة الوزير (اي خلاف الحال في الاندلس) وزاد الحجاب في منع الناس عن مقابلة الخلفاء إلا في الامور الهامة . وقد احدثوا دارين بينهم وبين الناس ، دار للخاصة ودار للعامة . كما احدثوا حاجبين : حاجب لكل دار . وكان الخليفة يقابل كل طائفة من الناس في مكانها المعين لها .

وقد علت مرتبة الحاجب مع الزمن في ايام العباسيين . فأصبح يستشار في كثير من امور الدولة . ومن ابرز الحجاب الفضل بن الربيع الذي اوقع بالبرامكة في عهد الرشيد والذي كان له اثر بارز في احداث الخلاف بين الامين والمأمون حينما اغوى الأمين بتحويل ولاية العهد لابنه وخلع اخيه المأمون عن ولاية العهد .

وكان الحاجب في بعض الاحيان يستبد بالنفوذ دون الوزير ، وينظر في امور الدواوين ولا يفصل في اعمالها الا بعد موافقته . نستدل على ذلك من قول مسكويه (تجارب الامم) عن حوادث سنة (٣٢٣ هـ) «... غلب

محمد بن ياقوت على تدبير الامور ونظر في جباية الاموال وحضور اصحاب الدواوين مجلسه وتفرده بما يعمله الوزراء ».

الحجابة في مصر : عرفت الحجابة في مصر زمن الفاطميين والمماليك ، الا ان مرتبة الحاجب هي دون مرتبة النائب كما يذكر ابن خلدون :« وهذه الوظيفة عندهم هي الحكم فقط في طبقات العامة والجند عند الترافع اليه واجبار من ابى الانقياد للحكم . » اي شبيهة بوظيفة رئيس الشرطة .

الحجابة في الاندلس : لقد ذكرنا في بحث الوزارة في الاندلس أن الخليفة ميز احد الوزراء وجعله صلة الوصل بينه وبينهم يقابله متى شاء ودعي بالحاجب .وارتفعت مرتبة الحاجب على سائر الرتب وخاصة في اواخر عهد الدولة الاموية في الأندلس حتى صار ملوك الطوائف فيما بعد ينتحلون لقبها الى جانب لقب ملك كما يتخذون لقب ذي الوزارتين ويعنون به السيف والقلم .

الحجابة في المغرب : اتخذ بنو ابي حفص في افريقيا الحجاب ولكن مهمتهم كانت تختلف عن مهمة الحجاب في الشرق والاندلس . اذ كان عمل الحاجب عندهم هو الاشراف على قصر السلطان والنظر في امور الطعام والكساء والذخيرة والعطاء الخ . . بالاضافة الى عمله الاصلي وهو حجب السلطان عن الناس ؛ وكان يضاف اليه في بعض الاحوال ختم السجلات الرسمية ، ثم جمع له في آخر عهد الدولة السيف والحرب والرأي والمشورة . فصارت مرتبة الحاجب ارفع المراتب واهمها.

الفصل السادس

الولاة وادارة الولايات

معنى الكلمة : كانت البلاد الخاضعة للعرب تقسم الى ولايات أو امارات . وهي تقسيمات ادارية لا بد منها في كل حكومة منظمة . فكان الخليفة يدير الامور في عاصمة ملكه ويعين على كل ولاية عاملا أو واليا يقوم مقامه في ادارة شؤونها . ويدعى أيضاً بالامير وهي مأخوذة من الامارة الحربية ، لان الخليفة كان يعين الرجل على جيش الفتح فاذا انتصر ودخل البلاد فقد يستبقيه عاملاً عليها فيسميه الناس باسمه الذي عرفوه به من قبل .

الولايات وادارتها زمن النبي : كان النبي ينيب عمالاً على القبائل وعلى المدن . فكان على كل مدينة كبيرة بالحجاز واليمن وعلى كل قبيلة كبيرة عامل من قبله . وكانت وظيفة هؤلاء العمال هي الامامة في الصلاة وجمع الصدقات اذ لم يكن هناك خراج .

وجاء في طبقات ابن سعد « أن النبي كان يختار الولاة من المنظور اليهم في العرب ومن الذين يحسنون العمل . وكان يفتشهم ويسمع ما ينقل اليه من اخبارهم . ويدقق في محاسبتهم . ويطلع على وارداتهم ونفقاتهم . وقد استعمل مرة رجلاً على الصدقات فلما رجع حاسبه فقال الرجل : هذا

لكم وهذا أهدي إلي . فقال النبي ﷺ : «ما بالُ الرجل نستعمله على العمل بما ولانا الله ، فيقول : هذا لكم وهذا أهدي الي . فلو قعد في بيته أكان يُهدى اليه شي . »

الولايات وادارتها زمن الراشدين : لما تولى أبو بكر الخلافة أقر عمال الرسول ﷺ على أعمالهم . ولم تتجاوز رقعة الدولة العربية في أيامه أكثر من جزيرة العرب التي قسمت إلى اثنتي عشرة ولاية أهمها : مكة والمدينة والطائف وصنعاء وحضرموت ونجران والبحرين .

وجرى أبو بكر على معرفة أحوال العمال واستقصاء أخبارهم . وكان يختار أكثرهم علماً وعملاً .ومن وصايا ابي بكر ليزيدبن أبي سفيان لما أرسله إلى الشام : « إذا دخلت بلاد العدو فكن بعيداً عن الحملة فاني لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد وسر بالأدلاء ولا تقاتل بمجروح فان بعضه ليس منه . وإذا قدمت عليك وفود العجم فانزلهم معظم عسكرك وأسبغ عليهم النفقة وامنع الناس عن محادثتهم ليخرجوا جاهلين كما دخلوا جاهلين » .

ولما اتسعت رقعة الدولة العربية في خلافة عمر بن الخطاب قسمها إلى أقسام إدارية كبرى وهي : ولاية الاهواز والبحرين . وولاية سجستان ومكران وكرمان . وولاية طبرستان ، وولاية خراسان . وجعل العراق قسمين أحدهما حاضرته الكوفة ، والثاني البصرة . وقسم بلاد الشام إلى قسمين أحدهما قاعدته حمص والثاني دمشق . وجعل فلسطين قسماً قائماً بذاته . وقسم إفريقية إلى ثلاث ولايات : مصر العليا ، ومصر السفلى ، وغرب مصر وصحراء ليبيا .

كانت سياسته ترمي إلى تماسك بلاد العرب وادماج بعضها في بعض لتكون أمة واحدة . ويهدف إلى عدم اختلاط العرب بأهالي البلاد التي فتحوها حتى لا تضيع قوميتهم .

وكان عمر لا يفتأ يوصي ولاته ، فكان يريدهم أن يستعملوا اللين في غير ضعف والقوة في غير عنف ، وألا يأخذوا أنفسهم بأسباب النعيم وأن يكونوا مثله في إيثار الخشونة . وكانت له أساليب عديدة دقيقة في معرفة أحوال الولاة ، منها إرسال أحد الذين يعتمد عليهم فيجمع هذا الناس ويسألهم إن كانت لهم شكوى . فاذا فعل أحدهم اقتص من الوالي أو عزله .

وبقيت السلطة موزعة كما كانت زمن النبي ﷺ أي تعيين عامل خراج للشؤون المالية إلى جانب الوالي وكان بمثابة الرقيب على أعماله .

أما في عهد عثمان فقد ضعفت الادارة في النصف الاخير من حكمه لشيخوخته ، بما أدى إلى تذمر المسلمين بالولايات فشقوا عصا الطاعة وأضرموا نار الفتنة التي انتهت بقتله .

الولايات وادارتها زمن الامويين : بلغت الدولة العربية أقصى اتساعها زمن الامويين وكانت تقسم ادارياً إلى خمس ولايات كبرى هي :

١ — الحجاز واليمن وأواسط بلاد العرب .

٢ — مصر بقسميها السفلى والعليا .

٣ — العراقان العربي والعجمي . والعجمي يشمل كل المناطق الواقعة شرقي العراق وحاضرته في الكوفة . وكان يعين والياً من قبله على خراسان مركزه مدينة مرو .

٤ — بلاد الجزيرة ويتبعها ارمينية واذربيجان وبعض أراضي آسيا الصغرى .

٥ — افريقية الشمالية حتى غرب مصر وبلاد الاندلس وجزر صقلية وسردينية والبليار ومركزها القيروان .

وقد سار الامويون على سياسة الخلفاء الراشدين في اختيار الولاة من

العرب ، وبلغ من اهتمامهم باختيار الولاة أن كان بعضهم يسند هذا المنصب إلى أفراد البيت المالك .

الولايات وادارتها زمن العباسيين : في العصر العباسي الاول كان نظام الحكم مركزياً وبذلك تقلص نفوذ العمال . وكان يوجد إلى جانب الوالي موظفون كل حسب اختصاصه ، فهناك صاحب المال وصاحب البريد والقاضي . واقتصر عمل الوالي على الصلاة وقيادة الجند .

ولم تختلف التقسيمات الادارية اختلافا كبيراً عما كانت عليه زمن الامويين إلا من حيث تجزئة بعض الولايات الكبرى . فكانت المناطق الشرقية من العراق تتألف مثلاً من : اذربيجان ، عراق العجم ، خراسان ، ماوراء النهر ، السند ، البنجاب ، الاهواز ، جنوب فارس . بينما كانت زمن الامويين تشكل ولاية واحدة كبرى . ثم لما جاء الرشيد عدل التقسيمات الادارية وفصل تخوم الشام وكيليكيا عن أمارة الجزيرة وقنسرين وجعلها امارة واحدة واطلق عليها اسم العواصم حاضرتها طرسوس .

وكان الخليفة يختار عمال الاقاليم بنفسه . ولم يكن المنصور يحتفظ بخدمات أي أمير في ولاية واحدة لمدة طويلة . فكان دائب الاشراف على عماله يعزلهم إذا لاحظ منهم ضعفاً أو تهاوناً . كتب اليه عامله على ارمينية يخبره أن الجند شغبوا عليه ونهبوا ما في بيت المال . فكتب اليه « اعتزل عملنا مذموماً مدحوراً ، فلو عقلت لم يشغبوا ولو قويت لم ينهبوا » .

ثم دب الضعف في الدولة في العصر العباسي الثاني واستبد الولاة وابتكروا الاساليب لجمع المال والاسراف في انفاقه . وكان الوالي يقيم في ولايته كأنه ملك مستقل إلا فيما يتعلق بارسال فضلات الخراج إلى الخليفة والخطبة له وضرب النقود باسمه . فاذا كان الوالي ذا دهاء وآنس من الخليفة ضعفاً جمع أهل الاقليم على ولائه واستقل بعمله إما استقلالاً

تاماً واما على مال معين . وعلى نحو هذا النمط استقل الاغالبة في افريقية وابن طاهر في خراسان وابن طولون في مصر .

انواع الولايات : قال الماوردي : إذا قلد الخليفة أميراً على إقليم أو بلد كانت إمارته على ضربين :

١ — إمارة عامة أي تكون للوالي سلطة شاملة تامة وهي نوعان :

أ — إمارة استكفاء أو تفويض أو استيلاء بعقد عن اختيار . أي يوليه الخليفة باختياره .

ب — إمارة استيلاء بعقد عن اضطرار . أي يوليه الخليفة وهو مكره .

٢ — إمارة خاصة .

إمارة الاستكفاء او التفويض : هي التي كان يعقدها الخليفة لمن يختاره من رجاله الاكفاء ، فيفوض اليه امارة الاقليم على جميع أهله ويجعله عام النظر في كل أموره لا يراجعه إلا في الأمور الهامة جداً ويشتمل نظره على سبعة أمور :

١ — تدبير الجيوش وترتيبهم في النواحي وتقدير أرزاقهم (إلا إذا كان الخليفة قدرها) .

٢ — النظر في الاحكام وتقليد القضاة والحكام .

٣ — جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيها وتفريق ما استحق منها .

٤ — حماية الدين والدفاع عن الحريم .

٥ — إقامة حدود الشرع .

٦ — الامامة في الصلوات .

٧ — تسيير الحج .

وإذا كان الاقليم متاخماً لعدو ترتب على العامل واجب ثامن هو :

٨ — جهاد ذلك العدو وقسمة الغنائم بين المحاربين .

إمارة الاستكفاء زمن الامويين : وأشهر ولايات الاستكفاء العامة زمن الامويين كانت مصر والعراق وخراسان . وأشهر الولاة زياد بن أبيه ، والحجاج ، ومسلمة بن عبد الملك ، وخالد بن عبد الله القسري . فكان كل أمير من هؤلاء يتصرف في إمارته تصرف الملوك المستقلين . فيعين العمال على البلاد تحت امارته وسائر عمال حكومته . ويجبي الأموال فينفق منها على جنده وفي ما تقتضيه العمارة من اصلاح الجسور واحتفار الترع ونحو ذلك ، ويرسل ما يبقى عنده إلى بيت المال في الشام .

إمارات الاستكفاء زمن العباسيين : وفي عهد العباسيين لما تمكن البرامكة من الدولة وازداد نفوذهم ولى الرشيد أحدهم جعفر بن يحيى الغرب كله من الانبار إلى افريقية . وقلد أخاه الفضل بن يحيى الشرق كله حتى أقصى بلاد الترك . وقد جعل جعفر مقامه في مصر وأرسل العمال إلى الشام وافريقية . أما الفضل فانه سار الى عمله حتى وصل خراسان فأصلح وبدل واستخلف عمالاً وعاد الى العراق .

وكانت امارة الاستكفاء زمن العباسيين من جملة الاسباب التي ساعدت على تشعب المملكة العباسية الى دول مستقلة لاستبداد الولاة واحتكارهم كل السلطات في ولايتهم ، وكان أشهرهم الاغالبة في افريقية ، وابن طاهر في خراسان ، وابن طولون في مصر .

إمارة الاستيلاء : وهي كما يفهم من معنى الكلمة أن يستولي الوالي بالقوة على اقليم تابع للخليفة ، فيقر الخليفة الحالة الراهنة استصلاحاً للأمور ورغبة في حقن الدماء واستدعاء للطاعة ، ويقلد المتغلب الامارة ويفوض

اليه تدبير الاقاليم التي تغلب عليها ، كل ذلـك حفظاً لمنصب الامامة ولأحكام الدين .

ولأمير الاستيلاء أن يعين الوزراء ويحق له بصورة خاصة أن يستوزر وزير تفويض ولا يحق لأمير الاستكفاء .

ومن أشهر هذه الولايات في العصر العباسي : الدولة الحمدانية في الموصل وحلب ، والبويهية في فارس و كرمان ، والغزنوية في الافغان والهند ، والاخشيدية في مصر والشام . وكلها كانت امارات مستقلة تدعو للخليفة على المنابر وتضرب السكة باسمه وترسل اليه مالاً معيناً في السنة يتم الاتفاق عليه ، وهو الذي يثبت امراءها ويكون الحكم متسلسلا في اعقابهم .

الامارة الخاصة : هي التي تكون سلطة الأمير مقصورة فيها على تدبير الجيش وسياسة الرعية وحماية السكان والدفاع عن الحريم ضمن حدود معينة . وليس له أن يتعرض للقضاء أو الاحكام أو لجباية الخراج أو الصدقات . حتى الامامة في الصلاة فربما كان القاضي أولى بها منه .والخليفة يعين لهذه الامارة قضاة وجباة من عنده . فالجباة يجمعون الخراج لحساب بيت المال المركزي وهم يؤدون اعطيات الجند وغيرها مما يجمعونـه . والامارات الخاصة كانت قليلة في ابان الدولة العباسية كثيرة زمن الامويين.

تعيين الولاة وعزلهم : كان الخليفة اذا ولى أميراً على جهة ما كتب له بذلك كتاباً يسمى التقليد أو العهد يحدد له فيه مهمته ويوصيه بالآداب التي ينبغي له التجمل بها والسياسة التي يلزمه اتباعها .

كان الخلفاء الراشدون يذكرون في كتاب التعيين اسم الوالي والبلد الذي أرسل اليه وكلمات تلخص سلطته ثم يكثرون من الوصايا . وقد كتب علي بن أبي طالب الى الأشتر : « هذا ما أمر به علي أمير المؤمنين

مالك بن الحارث الاشتر في عهده اليه حين ولاه مصر : جباية خراجها ، وجهاد عدوها ، واستصلاح أهلها ، وعمارة بلادها . أمره بتقوى الله وايثار طاعته واتباع ما أمر به في كتابه من فرائضه وسننه التي لا يسعد أحد الا باتباعها . . . »

وفي العهدين الاموي والعباسي والعصور المتأخرة كانت التقاليد تصدر عن كتاب يتنافسون في عمل التقاليد ويشحنونها بضروب الصناعات البيانية والبديعية ويطولون فيها كثيراً . وكانت التقاليد اجمالاً غنية بالتفاصيل التي تظهر فيها سلطات الأمير وأعماله .

إن الوالي اذا قلده الوزير ينعزل بعزله او موته . اما الوالي الذي يقلده الخليفة فلا ينعزل بموته . وكان الخلفاء الجدد يميلون اجمالاً الى تولية بعض اصحابهم وانسبائهم الذين يثقون بهم . وربما كان الخليفة الجديد له رأي في الولاة غير رأي الخليفة الذي سبق فيبدأ عمله بصرف الولاة كلهم او بعضهم ، وقد فعل هذا عمر بن الخطاب على شدة حبه لأبي بكر وإعجابه به .

وكان العزل يتم احياناً بالكتابة الى الأمير وبلاغه صرفه عن الخدمة او نقله الى مكان آخر ، واحياناً بتولية الأمير الجديد فاذا وصل مركز الامارة أظهر كتاب توليته وتسلم الاعمال ، ويعتبر ذلك عزلاً ضمنياً للأمير السابق . وربما رافق العزل مصادرة اموال الامير وعماله .

راتب الولاة : كان عمال النبي ﷺ عمالاً على الصدقات ولهم نصيب مما يجمعون ، أما الأمراء والولاة الذين لا يأخذون من مال الصدقات فلا ندري اذا كان النبي قد فرض لهم رزقاً مخصوصاً ، ويذكر بعض المؤرخين ان النبي لما استعمل عتّاب بن أسيد والياً على مكة خصص له كل يوم

درهماً فقام يخطب ويقول : « ايها الناس أجاع الله كبد من جاع على درهم . فقد رزقني الله درهماً كل يوم فليست بي حاجة الى احد » . فكان هذا الراتب اول ما وُضع من الرواتب للولاة .

اما عمر بن الخطاب فانه قدر رواتب العمال بعد تدوين الدواوين وتعيين أرزاق الجند ، وأول ما فعل ذلك لما وجّه عمار بن ياسر الى الكوفة فجعل له (٦٠٠) درهم في الشهر ونصف شاة ونصف جريب كل يوم . وعين الرواتب لبقية الولاة والموظفين . ولما ولى معاوية بن ابي سفيان على الشام جعل له الف درهم كل سنة . وكان عمر يشدد في محاسبة العمال فاذا رآهم ربحوا مالاً من شيء قاسمهم وأخذ النصف لبيت المال.

واما بنو امية فقد نال عمال الأقاليم في ايامهم امتيازات كثيرة منحهم إياها معاوية ترغيباً لهم في البقاء على ولائهم له . فولى زياد بن أبيه البصرة وخراسان وسجستان ووسع له بما يريد . وفعل نحو ذلك مع عمرو بن العاص بمصر . كما اطلق عبد الملك يد الحجاج في العراق .

وجرى العباسيون على نحو ذلك . فلما ولى المأمون الفضل بن سهل على الشرق جعل له (٣) ملايين درهم في السنة . وكانت رواتب العمال تختلف باختلاف نوع العمل وسعته وأهميته.

الفصل السابع

الدواوين

مفهوم الكلمة : اختلف في أصل كلمة ديوان هل هي عربية أم فارسية . قال البعض ومنهم سيبويه انها عربية ومعناها : الأصل الذي يرجع اليه . وقال آخرون ومنهم الأصمعي : بل هي فارسية معربة ومعناها سجل او دفتر . واطلقت من باب المجاز على المكان الذي تحفظ فيه السجلات الرسمية .

ويقال عن أصل هذه التسمية أن كسرى نظر يوماً إلى كتّاب ديوانه وهم يرددون بصوت منخفض ما يدونونه كأنهم يتحادثون فقال : (ديوانه) أي مجانين . فسمى موضعهم بهذا الاسم وحذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفاً فقيل ديوان .

وقيل إن ديوان هو اسم للشياطين بالفارسية . سمي الكتّاب بذلك لسرعة تفهمهم للأمور ووقوفهم على الجلي منها والخفي ، وجمعهم لما شذّ وتفرق . ثم سمي مكان جلوسهم باسمهم .

ويقول الماوردي : « والديوان موضوع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الاعمال والاموال . ومن يقوم بها من الجيوش والعمال » .

نشاة الدواوين واقسامها زمن الراشدين : أول من أنشأ الديوان عند المسلمين عمر بن الخطاب . أما قبل ذلك فلم يحتج المسلمون إلى أي من التدوين الحكومي سوى كتاب الوحي للرسول عليه السلام والكتاب الذين كتبوا له رسائله إلى ملوك الأمم المجاورة يدعوهم فيها إلى الاسلام .

ولما كان عهد عمر اتسعت رقعة الدولة العربية الاسلامية وكثرت وارداتها فاحتاج إلى ضبط أحوالها فانشأ ديوان العطاء أو الخراج . كما ازداد عدد المحاربين وكثرت الجيوش واتسع نطاق الفتوحات فرأى من الضروري تقدير أعطيات الجند وتسجيل أسمائهم ، فأنشأ ديوان الجند .

وذكر المؤرخون رأيين في سبب وضع عمر الديوان وهما :

١ — أن أبا هريرة عامله على البحرين قدم ومعه مال كثير وتعب عمر في قسمه وضبط العطاء ، فأشار عليه خالد بن الوليد (وقيل بل هو هشام بن الوليد بن المغيرة) بتأسيس الديوان وقال : « رأيت ملوك الشام يدونون » فقبل عمر ووضع ديوان العطاء أو الخراج .

٢ — وقيل إن الذي اشار على الخليفة عمر بوضع الديوان هو أحد زعماء الفرس الذين أسلموا إذ كان حاضراً مجلس الخليفة وقد رآه يرسل بعثاً (جيشاً) فقال له : « هذا البعث قد أعطيت أهله الأموال فإن تخلف منهم رجل بمكانه فما يدري صاحبك (قائدك) به » وأشار عليه بوضع الديوان وفسره له وشرحه . فأمر عمر بانشاء ديوان الجند .

تطور الدواوين : أشهر الدواوين التي عرفت زمن الامويين هي : ديوان الجند — ديوان الخراج — ديوان الرسائل — ديوان الخاتم — ديوان الطراز — ديوان المصدقات .

١ — ديوان الجند : بقي هذا الديوان في أول العهد الاموي على ما أنشاه الخليفة عمر ، وهو أكبر ديوان في الدولة ، تحدد فيه مقدار اعطيات جميع العرب ، والجنود المقاتلة من عرب وغير عرب .

ولما خفت حركة الجيوش ، لهدأة الحروب الخارجية ، أبطل الخليفة هشام بن عبد الملك الاعطاءات لمن لا يقوم بالعمل العسكري بنفسه أو من يبعث مكانه نائباً عنه ، والغى اسماء جميع من يستنكفون عن المساهمة في الجندية ولو كان أميراً أموياً ، وبهذا الاصلاح ، تحدد الاشخاص الذين يتناولون اعطيات مقدرة ومقررة من ديوان الجند ، ولم يعد أموال هـذا الديوان حقاً لجميع العرب .. وقد أعجب المنصور العباسي باصلاح الخليفة هشام الاموي وأمر بتنفيذه .

٢ — ديوان الخراج : وواجباته جمع الخراج والانفاق من موارده على شؤون الدولة ، وكان في كل ولاية ديوان اشبه بالادارة المالية المحليـة ، يجمع الخراج ، ويحتفظ بما يحتاج اليه الولاة من مصروف ، ويرسل الفائض إلى العاصمة ، حيث يجمع دخل الاراضي الزراعية في ديوان مركزي ، لقاء إيصالات استلام وصرف وتجري عن طريقه محاسبة دواوين الولايات .

٣ — ديوان الرسائل : يقول القلقشندي : ان ديوان الرسائل ويسمى أيضاً ديوان الانشاء هو أول ديوان أنشىء في الاسلام وذلك أن النبي ﷺ استعمل كتاباً يكتبون عنه إلى امرائه وأصحاب سراياه ، وإلى من قرب من ملوك الارض يدعوهم إلى الاسلام ، كما كتبوا له العهود والاقطاعات والهدن والامانات إلى غير ذلك .

فهؤلاء الكتاب وإن لم يطلق عليهم اسم الديوان كانوا يقومون بشيء من متعلقات ديوان الرسائل . فلما جاء العهد الأموي كان كل خليفة يفوض أمر ديوان الرسائل إلى كاتب يختاره .

ثم جاء العهد العباسي فكان الذي يتولى ديوان الرسائل هو الوزير نفسه .

وفي كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري صور للنشرات والرسائل

التي كانت توجه للعمال والرعية .

وقد الف القلقشندي لمن يرشحون أنفسهم لمنصب ديوان الرسائل كتاباً قيماً ذكر فيه تاريخ هذا الديوان وتفاصيل العلوم والمعارف التي ينبغي لصاحبه أن يعلمها . قال : « ليس في منزلة خدم السلطان والمنصرفين في مهماته أخص من كاتب الرسائل ، فإنه أول داخل على الملك وآخر خارج عنه ، ولا غنى له عن مفاوضته في آرائه والافضاء إليه بمهماته واطلاعه على حوادث ديوانه ، فهو لذلك لا يثق بأحد من خاصته ثقته به ... »

ومن آداب صاحب الرسائل أن يكون صبيح الوجه ، فصيح الألفاظ ، طلق اللسان ، أصيلاً في قومه ، وقوراً حليماً مؤثراً للجد على الهزل ، ملازماً للديوان ليكون قدوة لسائر الموظفين فيه .

وكان هذا المنصب لا يتولاه في عهد الدولة الفاطمية إلا أجل كتاب البلاغة ، وله حاجب من الامراء والشيوخ . حتى شبه ديوان الرسائل ، في عهدهم ، بديوان رئاسة مجلس الوزراء في أيامنا هذه .

أما اختصاص صاحب ديوان الرسائل فهي :

١ — التوقيع على الرسائل الموجهة إلى جميع الولايات والموظفين في كل ما يتعلق بشؤون الدولة .

٢ — النظر في الكتب الواردة .

٣ — رد الاجوبة في يومها وعدم تأخيرها .

٤ — النظر في الألقاب التي تكتب على الرسائل حتى لايزاد فيها ولا ينقص .

٥ ـ الاطلاع على ما يكتب في ديوانه ويوقع عليها إشارة إلى موافقته على مضمونها .

٦ ـ النظر في أمر البريد ومتعلقاته .

٧ ـ النظر في أبراج الحمام المستعمل في المخابرات .

٨ ـ النظر في أمر السعاة الذين يسيرون بالرسائل عند تعذر إيصالها بطرق البريد .

٩ ـ النظر في أمر المناور والمحروقات وهي أمكنة في رؤوس الجبال توقد فيها النار وتستعمل للمخابرات .

١٠ ـ النظر في أمر العيون والجواسيس .

١١ ـ النظر في الأمور العامة أي كل ما يجلب الخير للدولة ويدفع عنها الأذى .

ب ـ ديوان الخاتم : لم يكن القصد من الختم أن يوضع الخاتم في أدنى الرسالة . وإنما كانت الرسالة تطوى ويلصق طرفها بالشمع أو الطين الأحمر الذي يطبع عليه ، وهو طري ، خاتم الخلافة . ويترك حتى يجف . فاذا فتحت الرسالة من قبل أن تصل إلى مرجعها عرف ذلك .

وأول من وضع هذا الديوان معاوية ؛ وقد ذكر الصولي في أدب الكاتب ان معاوية حين افرد ديوان الخاتم ولاه عبيد بن أوس النسائي وسلم الخاتم إليه ، وكان منقوشاً على فصه « لكل عمل ثواب » ، وسبب ذلك أنه كتب لعمرو بن الزبير بمائة الف درهم إلى زياد عامله في العراق . ففض عمرو الكتاب وجعلها مئتي الف درهم ، فلما رفع زياد حسابه ، قال معاوية ما كتبت له إلا بمئة الف درهم . وكتب إلى زياد بذلك وأمره أن يأخذ المئة الف

منه ، وان يعتقله بتهمة التزوير ، فدفع عبد الله بن الزبير المبلغ إلى معاوية وحصل على اطلاق سراح عمرو . وصارت العادة أن يحتفظ ديوان الخاتم بنسخة عن كل ما يوقع من رسائل وحسابات ، وكذلك فعل الولاة ، وذلك للرجوع اليها والمطابقة والمقارنة ، وخاصة في العصر العباسي حين نكب عدد كبير من الوزراء بدعوة الرشوة والتلاعب بالقيود والغنى غير المشروع .

وانشأ الأمويون في دمشق داراً خاصة للمحفوظات الرسمية ، وكذلك فعل العباسيون . . وقد ظل هذا الديوان قائماً حتى عهد الامين (٨٠٩ — ٨١٦م) على حد قول الجهشياري ، بينما يرى فون كريمر وسيد أمير علي ومتز أنه حل ديوان التوقيع محل ديوان الخاتم في أول العهد العباسي ، ويروون أن جعفر البرمكي تولى رئاسة ديوان التوقيع في عهد الرشيد (٧٧٦ — ٨٠٩م) وعرفت الأوامر الصادرة عن هذا الديوان باسم التوقيعات . . ولكن المصادر الأخرى تذكر ديوان الخاتم في عهد المأمون . . . مما قد يستنتج أن ديوان الخاتم بقي قائماً مع احداث ديوان التوقيع لمدة من الزمن ثم حل الثاني محل الأول .

ديوان الطراز : يقول ابن خلدون : « الطراز هو أن يرسم أسماء الملوك والسلاطين أو علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج » .

يضاف إلى هذه الدواوين ديوانا الجند والخراج وقد أحدثها الخليفة عمر كما مر معنا ، وديوان البريد وقد أفردنا له فصلاً خاصاً لاهميته . وعلى كل ليست هذه كل الدواوين التي عرفت في العهد الأموي بل هي أهمها ؛ إذ تفرعت عنها دواوين أخرى كثيرة . وقد ذكر المؤرخون أنه كان في عهد

عمر بن عبد العزيز ديوان يعنى بالمرضى والمقعدين وترتيب الخدمة لهم والانفاق عليهم . وكان في عهد هشام بن عبد الملك ديوان للصدقات . كما كان عندهم دواوين للنفقات والرقيق وغيرها .

تعريب الدواوين : كانت لغة الدواوين حتى زمن عبد الملك في العراق الفارسية وفي الشام الرومية وفي مصر القبطية واليونانية .

كان سرجون بن منصور يتقلد ديوان الشام فأمره عبد الملك يوماً بشيء فتثاقل عنه وتوانى فيه . فعاد لطلبه وحثه فيه ، فرأى منه تفريطاً وتقصيراً ، فقال عبد الملك لسليمان بن سعد وكان يتقلد له ديوان الرسائل : أما ترى إدلال سرجون علينا ، وأحسبه قد رأى ضرورتنا اليه وإلى صناعته ، أفما عندك حيلة ؟ قال : لو شئت لحولت الحساب إلى العربية . قال : فافعل ، فحوله ، فرد اليه عبد الملك جميع دواوين الشام .

كما حول الحجاج في العراق ديوان الخراج من الفارسية إلى العربية . وذلك أنه كان يتقلده زادان فروخ وكان يكتب معه صالح بن عبد الرحمن . وقال صالح مرة لزادان : إني قد خففت على قلب الحجاج ولست آمن أن أزيلك عن عملك . فأجاب زادان : لا تظن ذلك لأنه لا يمكن أن يجد من يكفيه حسابه غيري . فقال صالح : والله لو شئت أن احول الحساب إلى العربية لحولته . قال : فحول شطراً حتى أرى . ففعل صالح . وبذل له زادان مائة الف درهم كي يظهر العجز عن نقل الديوان إلى العربية فأبى . ولما قتل زادان خلال ثورة ابن الاشعث خلفه صالح وترجم الديوان إلى العربية . وفي رواية للبلاذري والجهشياري أن زادان خشي أن يلحظ الحجاج مهارة صالح فأمره أن يدعي المرض ، فأرسل الحجاج طبيبه الخاص لمعالجته ثم عينه بعد مقتل زادان ، وتقول هذه

الرواية أن الذي عرض على صالح المائة الف درهم ، هم اصحاب المصالح من الفرس بعد تعيينه في عمله الجديد وبعد وفاة زادان .

أما في مصر فقد ظلت الدواوين تدون باليونانية إلى أن انتقلت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك فسار على سياسة أبيه في تعريب الدواوين فحول ديوان خراجها إلى العربية ؛ وقام بتنفيذ هذه السياسة واليه على مصر عبد الله ابن عبد الملك بن مروان سنة (٨٧) هـ .

وكان لتعريب الدواوين أثر مزدوج من الناحيتين السياسية والأدبية . فقد أصبحت لغة الدواوين هي اللغة العربية مما ساعد على تقلص نفوذ غير العرب . أما من الناحية الادبية فقد أصبحت اللغة العربية لغة التدوين ، فنقل إليها كثير من الاصطلاحات الفارسية والرومية واليونانية ، وابتدأت تظهر طبقة الكتاب منذ ذلك الوقت . وكان عبد الحميد الكاتب يقول : « لله در صالح بن عبد الرحمن ما أعظم منته على الكتاب » . وكان حري به أن يقول لله در عبد الملك .

الدواوين في العهد العباسي : تأثر العباسيون بالنظم الادارية الفارسية كما أن الأمور تعقدت وتشعبت بعد العصر الأموي فأنشئت دواوين عديدة عدا التي عرفت زمن الراشدين والأمويين . وكان أهمها :

ديوان العزيز : كان مجلس الخليفة يسمى بديوان العزيز كما كانت الحكومة العثمانية تسمى بالباب العالي . وكان يرأس المجلس الوزير الأكبر ولهذا سمي مجلس العزيز (كان رؤساء الدواوين المختلفة يسمون بالوزراء أحياناً ولكنهم كانوا أقل درجة من الوزير الأكبر الذي كان رئيس الادارة) .

٢ ــ **ديوان الازمة :** يقول البلاذري بأن هذا الديوان أحدث زمن

الامويين ؛ بينما سيد أمير علي يقول : انه من ابتكار الخليفة المهدي (١٥٨ — ١٦٨ هـ) وقد سمي ديوان الأزمّة في العاصمة وديوان الزمام في الولايات كما يقول الجهشياري .

وصاحبه يشبه وزير المالية الذي يجمع أنواع الواردات كلها ، وأنواع النفقات كلها ويقيم الموازنة بينهما . وقد حوله العباسيون إلى ديوان حسابات عامة لبلاد الخلافة كلها ، وذلك بما يشبه ديوان المحاسبة اليوم أو الجهاز المركزي للرقابة المالية .

٣ — ديوان النظر في المظالم : كان الرسول عليه السلام والخلفاء الراشدون من بعده يستمعون إلى شكاوي الناس وينصفونهم في كل وقت تعرض عليهم هذه الشكاوي ، ولكن بعد مقتل الامام علي ، والاعتداء على معاوية ، احتجب الخلفاء ، وخصصوا أوقاتاً محدودة للنظر في المظالم ، كما فعل عبد الملك وعمر بن عبد العزيز . فلما جاء العباسيون وانشغل الخلفاء بأمور الدولة المتشابكة ، افردوا للمظالم ديواناً منظماً ، كان بمثابة المحكمة العليا الاستئنافية ، تعرض عليها الأمور التي لم يقبل اصحابها بحكم القضاة ، وذكر ان جعفر البرمكي قد تولى رئاسة هذا الديوان في عهد الرشيد ، وأن المأمون قد انفرد من بين سائر خلفاء بني العباس ، وترأس مجلس ديوان المظالم يوم الأحد من أكثر الأسابيع . ويذكر الماوردي أن امرأة تقدمت بشكوى ضد ابن الخليفة المأمون ، فحضر المأمون بنفسه جلسة النظر بالدعوى ، واستمع إلى أقوال الامرأة وابنه ، وأصدر القاضي الحكم ضد الامير ونفذ الحكم .

٤ — ديوان النفقات : واختص بمطالب البلاط ، من تأمين الرواتب وبناء واصلاح القصور وملحقاتها ، وشراء المواد الغذائية والخيول ، وما يطلبه

سكان القصور من ملابس وأدوات وأثاث ... وتكاليف الحفلات والمآدب . وما شابه ذلك .

٥ ـ **ديوان الصوافي** : تعني الصوافي أراضي الدولة ، وهـذا يعني أيضاً اهتمام هذا الديوان بجميع أملاك الدولة من تأجير واستئجار او شراء وبيع . وهو أشبه بدائرة الاملاك العامة اليوم .

٦ ـ **ديوان الضياع** : ويقصد بها ضياع وقرى وأراضي الخليفة الخاصة ، إذ انفرد لادارتها واستثمارها ديوان خاص ؛ لا علاقة له بالديوان السابق .

٧ ـ **ديوان الموالي والغلمان** : وتسجل فيه أسماء موالي الخليفة وعبيده .

٨ ـ **ديوان الجهبذة** : وهو خاص للمحافظة على مصالح غير المسلمين .

يضاف إلى هذه الدواوين دواوين أخرى كثيرة منها : ديوان البريد ، ديوان الشرطة ، ديوان العطاء ، ديوان الدية ، ديوان الري .

وكان يعهد بإدارة كل ديوان إلى مدير يسمى الرئيس أو الصدر . أما التفتيش فكان يقوم به مفتشون يسمون بالمشرفين أو النظار ، وكان مشرف الممتلكات يضطلع من حين لآخر بالتفتيش على دواوين الدولة ويرفع التقارير الوافية عنها إلى الخليفة .

* * *

الفصل الثامن

البريـــد

معنى الكلمة واصلها : البريد في اللغة مسافة معلومة مقدرة باثنى عشر ميلًا . وفي الاصطلاح : هو أن يجعل خيل مضمرات في عدة أماكن فاذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ، ركب غيره ، وكذلك يفعل في المكان الآخر حتى يصل بسرعة .

وقد اختلف في الكلمة فبعضهم يقول إنها عربية مشتقة من برد أو أبرد بمعنى أرسل فتقول بردت الحديد إذا أرسلت ما يخرج منه . وذهب آخرون إلى أنها فارسية الاصل (بريده دم) ومعناها مقصوص الذنب وذلك لان الفرس كانوا يقصون ذنب دواب البريد لتمتاز بذلك عن غيرها من الدواب الأخرى . وكان يطلق البريد على الرسول الذي يحمله .

مصلحة البريد وزمن انشائها عند العرب : مصلحة البريد قديمة عرفت عند الفرس والروم . وأول من اتخذه من المسلمين معاوية بن أبي سفيان اقتداء بما كان قبله في الشام أو بما أشار عليه به عماله في العراق .

ورغم أن المصادر لا تذكر شيئاً عن وجود البريد زمن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين ، إلا أننا لا نشك بأنه عرف شبيه به في ذلك الوقت . نستنتج ذلك من الاخبار التاريخية التي تذكر ارسال الكتب من قبل النبي عليه السلام إلى من جاوره من الملوك والامراء يدعوهم فيها إلى الاسلام . كما أنه لما اتسعت رقعة الدولة وكثرت الفتوحات زمن الراشدين لابد أن الخلفاء كانوا دائمي الاتصال بالقواد والأمراء والولاة .

وفي عهد عبد الملك ادخلت على البريد تحسينات كثيرة لأهمية في تأمين المواصلات والاخبار بين الخليفة والولاة .

قال عبد الملك مرة لأحد رجاله : « وليتك حجابة بابي إلا عن أربعة : المؤذن فانه داعي الله فلا حجاب عليه . وطارق الليل فشرٌ ما أتى به ولو وجد خيراً لنام . والبريد فمتى جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه فربما أفسد على القوم سنة إذا حبس البريد ساعة . والطعام إذا أدرك» .

وفي الازمات ، وخاصة اثناء الحروب ، نظمت بُرُدٌ حربية خاصة ، من ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب اثناء فتوح العراق ، من نقل الاخبار بينه وبين جند سعد بن ابي وقاص يوماً بعد يوم ، وتبادل الرسائل والتوجيهات والتعليمات والاخبار بين الطرفين ، وما رواه آدم متز في كتابه الحضارة الاسلامية عن أن علي بن عيسى قد رتب الجمازات (الجمل والجمّال) من مصر الى بغداد عام ٣٠٢هـ/ ٩١٤م لتبلغه اخبار محاربة صاحب القيروان .

كما جعل الخلفاء والامراء بينهم وبين صاحب بريدهم علامات سرية يتفقون عليها ، حتى لايزور عليهم شيء ، ولو كان مختوماً بخاتمهم ، من ذلك ما فعله ابو مسلم الخراساني حين دخل على المنصور وكان يخشى مغبة هذه المقابلة ، فقد استخلف ابو مسلم على عسكره ابا نصر بن الهيثم وقال له : ان جاءك كتابي وهو مختوم بنصف خاتمي فهو خاتمي ، وان كان مختوماً بكل الخاتم فاعلم انه ليس ختمي . ولما امر المنصور بقتل ابي مسلم ، اخذ

خاتمه وختم به رسالة الى ابن الهثيم ، فلما اطلع عليه هذا الاخير عرف انه كتب وختم رغم ارادة ابي مسلم ، أو دون علمه ..

البريد زمن العباسيين وانشاء ديوان له : ازداد اهتمام العباسيين بالبريد فأنشؤوا له ديواناً خاصاً . واعتمد الخلفاء عليه اعتماداً كبيراً في إدارة شؤون دولتهم . وكان أبو جعفر المنصور يقول : « ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر هم أركان الملك لا يصلح الملك إلا بهم. كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم إن نقصت واحدة وهَى . أما أحدهم فقاض لاتأخذه في الله لومة لائم . والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي . والثالث صاحب خراج لا يظلم الرعية . والرابع .. (ثم عض على اصبعه السبابة ثلاث مرات وقال:) صاحب بريد يكتب إلي بخبر هؤلاء على الصحة » .

وقد كتب اليه عامل البريد عن واليه في حضرموت أنه يكثر الخروج في طلب الصيد فكتب إلى هذا الوالي : « ثكلتك أمك وعدمتك عشيرتك ، ما هذه العدة التي أعددتها للنكاية في الوحش ؟ إنما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحش . سلم ما كنت تلي من عملنا إلى (فلان بن فلان) والحق بأهلك مذموماً مدحوراً ».

مهمة صاحب البريد : نلاحظ في الامثلة السابقة أن البريد كان واسطة العلاقة بين الولاة والخليفة ، ينقل أوامر الخلفاء إلى ولاتهم وأخبار الولاة إلى خلفائهم . إلا أن عمل صاحب البريد لم تقتصر على مراقبة توزيع المكاتبات الرسمية فحسب بل كان يتعداها إلى موافاة الخليفة بكافة الاخبار والحوادث التي يمده بها أعوانه المنتشرون في أنحاء الاقاليم ، أي أنه كان رقيباً ومفتشاً وعيناً للخليفة يرفع التقارير عن أحوال الجند والمال وأحكام القضاة واسعار الحاجيات من قمح وحبوب ومأكولات وغيرها ؛ فكان عمله يشبه نظام المخابرات والشعبة السياسية كما كان من جملة أعماله أيضاً حفظ الطرق وصيانتها من القطاع والاعداء والجواسيس .

ومن تقارير صاحب البريد نص مقدم الى الخليفة المتوكل ، وكان خارج بغداد ، فيه شكاية على حاكم بغداد ، لانغماسه في ملذاته واهماله امر المدينة يقول التقرير : بسم الله الرحمن الرحيم : يا أمير المؤمنين إن محمد بن عبد الله اشترى أمة بمقدار ١٠٠ الف درهم ، وهو يسري بها عن نفسه من الظهر الى المساء ويهمل شؤون الدولة . وان أمير المؤمنين لايحب ان يرى بغداد في سخط ، لان امير المؤمنين يجد صعوبة عندئذ في اقرار النظام . وان العبد الخاضع يرفع ذلك الى امير المؤمنين . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وقد بالغ العباسيون في استخدام البريد حتى قيل إن بعضهم كان يشرف بنفسه على فض البريد للاطلاع على أحوال الولاة والرعية .

ولقد بلغ من انتظام ادارة البريد في عهد المنصور أن عماله كانوا يوافونه بالأخبار مرتين في اليوم ، فكان يوقف القاضي عند حده اذا ظلم ، ويرجع السعر الى حالته الأولى اذا ارتفع ، وان رأى تقصيراً من أحدهم وبخه ولامه أو عزله عن عمله مهاناً .

وسائل نقل البريد :

١ ــ النقل البري :

كان قطار البريد يتألف من دابة فأكثر حتى تبلغ أربعين أو خمسين ، وكانوا يعلقون في أعناقها جلاجل أو سلاسل اذا تحركت سمعت لها قرقعة تعرف عندهم بقعقعة البريد .

وكان الذي ينقل البريد على الخيل في عهد المماليك يسمى بريدي ،ويحمله في خريطة (اي حقيبة) ، ويضع حول عنقه شرابة من حرير اصفر .. والذي ينقل البريد على الجمال يسمى النجاب .

وفي بعض الأحوال كان يعتمد على السعاة لنقل البريد وهم رجال

خفاف تعودوا الجري والصبر على السير ثلاث مراحل في مرحلة .وأول من أنشأ السعاة في الدولة العباسية معز الدولة . انشأهم في بغداد لاعلام أخيه ركن الدولة بالاحوال سريعاً .
ونبغ في أيامه ساعيان هما فضل ومرعوش فاقا سائر السعاة . وعم استخدام السعاة في سائر الدول الاسلامية .

٢ ـ **النقل الجوي** : كان يعتمد في النقل الجوي على الحمام الزاجل . فيكتب المطلوب بصيغة مقتضبة كالتي تستعمل في البرقيات في وقتنا هذا . وكانت الرسالة تشد تحت جناح الطائر أو في ذيله . وكانت الرسالة يكتب منها صورتان ترسلان مع طائرين يطلقان في أوقات متباعدة قليلاً حتى إذا ضل أحدهما أو قتل أو افترسته الجوارح أمكن الاعتماد على وصول الآخر . وقد جرت العادة الا يطلق الحمام في الجو الممطر ولا قبل تغذيته الغذاء الكافي .

يقال ان استخدام الحمام الزاجل كان معروفاً عند اليونان والرومان . ـ ولم يستعمل لدى العرب الا في عهد المعتصم عندما طيرت اليه أخبار أسر بابك الخرمي . ثم لم يلبث أن انتشر استعماله في الأمور البريدية العادية . وكان نور الدين محمود يستخدمه للاغراض العسكرية كما أنشأ له في كل محطة حظيرة خاصة .

وقد افردت بعض الدول الاسلامية للحمام ديواناً خاص ، وألف الكتاب في انساب الحمام المستخدم كتباً ، وميز حمام البريد بخلاخيل من الذهب في أرجله ، وألواح خفيفة في أعناقه .. وكان الذي يشرف على ابراج الحمام في القلعة بالقاهرة في عهد المماليك يسمى براج .

وكانت بين الاسكندرونة وبين بغداد مخابرات متواصلة بحمام يسمونه حمام حلب . على أن العرب لم يعتنوا به العناية الكافية وينشئوا له الادوات

الخاصة إلا منذ القرن الحادي عشر الميلادي ولا سيا في مصر حيث كانت له أبراج في قلعة القاهرة على عهد الايوبيين في القرن السابع للهجرة . وقد بلغ عدده « ١٩٠٠ » طائر لها عمال يناط بهم أمر العناية بها .

٣ ــ النقل المائي : وكان يرسل البريد أيضاً على السفن في البحار والانهار وكان الاعتماد على هذا النوع من النقل ضعيفاً إلا اذا كانت الطرق البرية صعبة الاجتياز أو خطرة أو طويلة .

٤ ــ المخابرات بالنار والدخان : أنشأ العرب المسلمون أبراجاً عالية بين بعض البلدان كما فعل الحجاج ، والمأمون ، فينشر الدخان نهاراً من أحد الابراج وتوقد فيه النار ليلاً فيراه موظفو البرج التالي فيخبرون بذلك البرج الذي يليهم ... وهكذا دواليك . وكانت هناك اصطلاحات بينهم تشبه اصطلاحات ملاحي السفن البحرية عندما يتخابرون بالمرايا والانوار والأعلام ، واصطلاحات الكشافين بمخابراتهم بالنور وباعلام « السيمافور » .

ماذا ينقل البريد : إلى جانب تأمين المراسلات والأخبار بين الخليفة وعماله ، كان يستخدم البريد لحمل الناس إلى الخليفة أو الأمير التماساً لسرعة قدومهم ، كما أن الجنود كانوا ينقلون من بلد إلى آخر بواسطة دواب البريد .

ومعظم المصادر تذكر أن البريد كان خاصاً بأعمال الدولة ولا ندري إذا كان يستخدم لنقل مراسلات الجمهور أو لنقل المسافرين كما يذكر سيد أمير علي ، إلا أنه مما لا شك فيه أن الطرق التي أقامتها الحكومة للبريد اعتمد عليها التجار في أسفارهم ونقل سلعهم بسبب الأمن الذي كان يسودها . كما أنها كانت نواة للرحلات الجغرافية والبحوث العلمية .

محطات البريد : انشئت في رأس كل مرحلة ، تستطيع وسائط النقل

الحيوانية أن تجتازها بيسر ، محطة للقوافل ، عبارة عن خان حصين ، فيه غرف لاقامة رجال البريد . وأماكن لدواب البريد ، واصطبلات لتبادل الخيول ، والعناية بها وبيطرتها ، ومطاعم تؤمن حاجة القوافل من الطعام الجاهز أو للمؤونة في الطريق . والتزويد بالمياه اللازمة ... وكان لدى ديوان البريد في كل ولاية تقاويم خاصة فيها ذكر للمسالك في الولاية وأسماء ومراكز محطات البريد ؛ وفي ديوان بريد العاصمة ، نسخة عن كل ما في الولايات ، مع ترتيب وتصنيف بشكل يغطي شبكة المواصلات ومراكز البريد في جميع الامبراطورية . واعتمد كثير من كتاب المسلمين الجغرافيين على هذه التقاويم في أبحاثهم الجغرافية .

الفصل التاسع

الشرطة

مفهوم الكلمة : جاء في القاموس المحيط : « الشرطة ... هم أول كتيبة تشهد الحرب وتتهيأ للموت ، وطائفة من أعوان الوالي ، سموا بذلك لأنهم أعلموا أنفسهم بعلامات يعرفون بها . »

وقال القلقشندي : « صاحب الشرطة بضم الشين وإسكان الراء هو المعبر عنه في زماننا بالوالي ... وفي اشتقاقه قولان : أحدهما أنه مشتق من الشرط بفتح الشين والراء وهي العلامة لأنهم يجعلون لأنفسهم علامات يعرفون بها . ومنه اشتراط الساعة يعني علاماتها . وقيل من الشرط بالفتح أيضاً وهو رذال المال لأنهم يتحدثون في ارذال الناس وسفلتهم ممن لا مال لهم من اللصوص ونحوهم . »

نشاة الشرطة : قال السيوطي : إن أول ، من شرط الشرطة في الاسلام عمرو بن العاص لما ولى أمارة مصر . ويميل أكثر المؤرخين إلى القول بأن معاوية هو أول من استعمل الشرطة .

ولكن إذا اعتبرنا العسس نواة للشرطة وهو الطواف ليلا لتتبع اللصوص وطلب أهل الفساد ومن يخشى شرهم ، فإن تأسيس الشرطة يرجع إلى ما قبل عمرو بن العاص ومعاوية ، إلى زمن أبي بكر وعمر . فقد

ذكر بعض المؤرخين أن عبد الله بن مسعود كان أميراً على العسس في عهد أبي بكر . وأن عمر بن الخطاب تولى هو نفسه العسس ، وكان يصطحب معه ، مولاه وربما استصحب معه عبد الرحمن بن عوف .

وكان الناس يتولون حراسة أنفسهم نهاراً . أما ليلا فكان رجال العسس يتولون أمر السهر عليهم . ثم لما تكاثر المفسدون وظهر أمرهم في وضح النهار أنشأ الخلفاء الشرطة لحفظ الأمن والسهر على النظام .

ويظهر ان الشرطة وجدت في الامصار الاسلامية منذ عهد الخلفاء الراشدين ، اذ يذكر الطبري انه وكل الى اربعمائة منهم حراسة بيت المال والسجن في البصرة منذ زمن ابي موسى الاشعري ، وقد برهنوا على تمسكهم بواجبهم فقاوموا الزبير عندما جاء مع عائشة يحرض البصريين على الخليفة علي بن ابي طالب ، فلم يسلموه المنشآت التي وكلوا بحراستها الا بعد ان اقنعهم بأحقية دعواه ؛ مما يدل على ارتباطهم بالمؤسسات دون الأمير شخصياً . وذكر المدائني ان زياد بن ابيه انشأ له حرساً خاصاً عدد افراده خمسمائة رجل واسند قيادتهم الى عبد الله بن حصن وشيبان بن عبد الله وهما من العرب البارزين في البصرة . وقد كلف زياد شرطته بوظيفة حفظ الامن ومطاردة اللصوص وقطاع الطرق والاشقياء والمتمردين والثوار .فكان عملهم محلياً ولا علاقة لهم في الفتوح او الحملات العسكرية .

وقد جعل لكل حي فرقة من الشرطة مسؤولة عن حفظ النظام وإقرار الأمن فيه ليلا ونهاراً . وكان عدد رجالها يتفاوت حسب الأحوال ؛ وقد بلغت في عهد زياد بن أبيه جيشاً كثيفاً ، يتسلحون بالعمد والحراب وعليهم رئيس يسمى صاحب الشرطة . وكانت تدفع له ولرجاله رواتب حسنة كي يقوموا بأعمالهم بأمانة وإخلاص .

والشرطة في الأصل تابعة للقضاء لأن المراد بها تنفيذ أحكام القضاة

أو فرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ، واقامة التعزيز والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة ، ومساعدة القاضي في اثبات الذنب على مرتكبه ، واقامة الحدود كحد الزنا وحد شرب الخمر . ثم تنزيهاً للقضاء ما لبثت أن استقلت وانفصلت عنه ، وأصبح لصاحب الشرطة حق النظر في الجرائم بعد أن كان عمله محصوراً في منع الفتن والجرائم والقبض على القائمين بها . كما كان يسمى صاحب الشرطة احياناً « صاحب الاحداث » ووظيفته حينئذ تصبح نصف حربية ونصف مدنية ، اذ عليه المحافظة على القانون والنظام ، وعليه أيضاً تأديب الثائرين واخماد الفتن بالقتال .

ويقول ابن خلدون في ذلك : « وكان أيضاً ، النظر في الجرائم واقامة الحدود في الدولة العباسية والاموية بالاندلس ، والعبيديين بمصر والمغرب راجعاً الى صاحب الشرطة ، وهي وظيفة اخرى دينية ، كانت من الوظائف الشرعية في تلك الدول ، توسع النظر فيها عن احكام القضاء قليلا ، فيجعل للتهمة في الحكم مجالا ويفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ؛ويقيم الحدود الثابتة في محالها ، ويحكم في القود والقصاص ، ويقيم التعزيز والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة ..

تطور الشرطة وسلطة صاحبها : كانت الشرطة في العهد الأموي آلة تنفيذ فقط . لا يقوم صاحبها بعمل إلا بأمر الخليفة أو الأمير ؛ ثم لما جاء العهد العباسي ازدادت سلطته وخاصة بعد انفصال الشرطة عن القضاء وأصبح له حق النظر في الجرائم وإيقاع العقوبات .

يقول ابن خلدون : « ولم تكن سلطة الشرطة عامة التنفيذ في طبقات الناس إنما كان حكمهم على الدهماء وأهل الريب ، والضرب على أيدي الرعاع والفجرة ، ثم عظمت نباهتها في دولة بني أمية بالأندلس ونوعت إلى

شرطة كبرى وشرطة صغرى ، وجعل حكم الكبرى على الخاصة وجعل له الحكم على أهل المراتب السلطانية والضرب على أيديهم في الظلامات وعلى أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه . وجعل صاحب الصغرى مخصوصاً بالعامة . ونصب لصاحب الكبرى كرسي بباب دار السلطان ورجال يتبوؤون المقاعد بين يديه فلا يبرحون عنها إلا في تصريفه . وكانت ولايتها للأكابر من رجالات الدولة حتى كانت ترشيحاً للوزارة والحجابة » .

وكان رئيس شرطة بغداد يعادل مرتبة الحاكم أو الوالي . وقد شغل هذه الوظيفة في عهد المأمون طاهر بن الحسين حيناً من الزمن ثم عين عاملاً على خراسان .

اعمال الشرطة : من واجبات الشرطة :

١ً ـ **حفظ النظام :** وذلك بمنع الفوضى والتجمعات في الطرق والسهر على المراكب . ومرافقة الخلفية أو الأمير في تنقلاته .

٢ً ـ **حفظ الامن :** وذلك بمراقبة الأشرار والدعار واللصوص .

٣ً ـ **مراقبة المقاهي والحانات وأماكن الشرب واللعب :** ومنع ما يقع فيها من المخالفات . وقد تشارك الشرطة موظفي الحسبة في أخذ الناس بالصلوات ونحوها من أمور الدين ونهيم عن المنكرات وتأديبهم عليها .

٤ً ـ **تنفيذ اوامر السلطات :** من تعزيز وتكريم إلى مقتل أو مصادرة أو حبس .

٥ً ـ **تنفيذ أوامر القضاة كلما احتاجوا اليهم**

٦ً ـ **مساعدة عمال الخراج :** باكراه المكلفين على دفع ما يستحق في ذمهم .

٧ – **ادارة السجون :** واتخاذ سجل يذكر فيه أمر كل واحد من المساجين وسبب سجنه .

والسجون ظهرت منذ عهد عمر بن الخطاب ، ولكنها نظمت في عهد عمر بن عبد العزيز الذي أوجد لها ديواناً يشرف عليها ، وأمر باعطاء المسجونين رزق الصيف والشتاء ، وكسوة الصيف والشتاء ، والعناية بمرضاهم ، وان لا يقيد أحد في المحابس بقيد يمنعه من اقامة الصلاة ، والفصل بين فئات المسجونين ، بين من يسجن في دين ومن يسجن في جريمة ، وجعل للنساء حبساً على حدة ... بينما تذكر سجون الحجاج في العراق بعدم ملاءمتها للصحة العامة ، والقسوة في معاملة المسجونين ؛ وهو أمر تكرر بعد الامويين . فقد ذكر المقريزي في الخطط : ان سجون الفاطميين في مصر كانت أشبه بجهنم الحمراء ، حيث كان السجناء يحشرون في مكان غير مسقف وهم في الحديد ، يؤذيهم حر الصيف وزمهرير الشتاء ، ويتركون هكذا من غير أن يطعموا شيئاً إلا بما يتصدق به الناس عليهم ، وكان منهم المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، الذين يستخدمون في الحفر والعمائر ونحو ذلك تحت اعين « الاعوان » فإذا انقضى عملهم ردوا إلى السجن في حديدهم .

نلاحظ أنهم كانوا في بعض الأحيان يجمعون بين الشرطة والحسبة . وكان لصاحب الشرطة نواب يشبهون المفوضين في هذه الأيام . وربما كان له أصحاب أخبار أو شرطة سرية . نستنتج ذلك بما ذكره القلقشندي قال : « لما عين احد الخلفاء صاحب الشرطة والحسبة» قال له موصياً : « ... وأوعز إلى رجالك باطلاعك على الخفايا وإبانة كل مستور من القضايا وأن يتيقظوا لسكنات الليل وغفلات النهار ... » .

ويذكر القلقشندي أن والي الشرطة في مصر يقدم صباح كل يوم تقريراً إلى السلطان يطلعه فيه على كل ما يحدث من قتل أو حريق كبير أو نحو ذلك .

تعيين صاحب الشرطة والشروط التي يجب ان تتوفر فيه : كان الخليفة يعين صاحب الشرطة في عاصمة الدولة . أما في الأقاليم فكان كل أمير يولي صاحب شرطته . وكانوا يتخيرون لهذا المنصب كبار القواد وعظماء الخاصة .

وقد ذكر ابن أبي الربيع في كتابه (سلوك المالك في تدبير الممالك) الذي ألفه للخليفة المعتصم بالله (٢١٧ – ٢٢٧) هـ ما ينبغي أن يكون عليه صاحب الشرطة من الخصال قال :

« أما صاحب الشرطة فينبغي أن يكون حليما مهيباً دائم الصمت طويل الفكر بعيد الغور ...

وأن يكون غليظاً على أهل الريب في تصاريف الحيل شديد الفطنة . وأن يكون طاهر النزاهة غير عجول . وأن يكون نظره شزراً قليل التبسم غير ملتفت إلى الشفاعات ، وأن يأمر أصحابه بملازمة المحابيس وتفتيش الأطعمة وما يدخل السجون .

ويجب عليه عمارة سور المدينة وأبوابها ولم شعثها ومعرفة من يدخلها . وإذا أفرج عن أحد من السجن ثم عاد بجرم فليجعل الحبس قبره .

ويأمر العامة ألا يجيروا أحداً ولا ينبهوه للهرب بل يدلوا عليه وينبغي أن تكون عقوبة الخاص والعام واحدة كما أمرت الشريعة .

ويذكر المقريزي في الخطط ان الشرطة كانت من أهم وظائف الدولة في مصر ، وكان صاحبها من عظماء الرجال ، وكان ينوب عن الوالي في الصلاة ، وفي توزيع الاعطيات ، وبعد بناء مدينة العسكر جعل فيها شرطة اخرى واصبحت الشرطة قسمين :

١ – الشرطة السفلى ومقرها مدينة الفسطاط .

٢ ــ الشرطة العليا ومقرها مدينة العسكر (قرب جامع ابن طولون وسميت بالعليا لوقوعها على الجبل في مكان عالٍ) .

ويذكر آدم متز في كتابه عن الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، أن الشرطة كانت تحمل سلاحاً يسمى « الطبرزين » عبارة عن سكين طويلة تحمل معلقة في أوساط رجال الشرطة .

ويمكن أن نلحق ببحث الشرطةوظيفة « العريف » إذ تروي كتب التاريخ، ان العرفاء كانوا أهم طبقة من الموظفين الذين اعتمد عليهم الأمراء في تثبيت سلطانهم في الامصار ، وفي توزيع العطاء والسيطرة على السكان ، والمساعدة في الأعمال الادارية ، وكانت وظيفة العريف معروفة منذ الجاهلية ، وكانت صفة الشخص الذي يقود عشرة مقاتلين (انظر بحث امرة الجيش في نفس هذا الكتاب) ، لكن عمر بن الخطاب كلف العرفاء بتسهيل عملية دفع العطاء . واصبح العريف في العهد الأموي مسؤولاً عن « عرافة » يوزع العطاء على أفرادها ، ويحق له زيادة العطاء لأي فرد يقوم بدور هـــام في المنطقة ، أويقترح على الأمير أن يزيدها ، وكان لدى العرفاء سجلات تحوي اسماء النساء والأطفال والمقاتلة وتجهيزاتهم ومقدار عطائهم ومواليهم في عرافتهم ، وهم مسؤولون عن جمع الجند عند النفير كما ذكر الطبري . ومسؤولون عن الأمن والنظام في عرافاتهم ، فكانوا بحق حلقة الوصل بين عامة الناس وبين الامارة ، يخدمونها بتوزيع العطاء وجمع الجند ومراقبة المشاغبين والمتمردين ، وبذلك حلوا محل شيوخ العشائر الذين أخذ سلطانهم يتناقص مع نمو الحياة في المدن . وقد جاء في رسالة لعمر بن عبد العزيز إلى أمير البصرة في عهده عدي بن أرطأة « ان العرفاء من عشائرهم بمكان ، فانظر عرفاء الجند ، فمن رضيت امانته لنا ولقومه فأثبته ، ومن لم ترضه فاستبدل به من هو خير منه وابلغ في الأمانة والورع » .

الفصل العاشر

القضاء

تعريف القضاء : قال ابن خلدون ما معناه : « القضاء هو الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي وقطعا للنزاع ، بالاحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة . وهو من الوظائف التابعة للخلافة . لهذا كان الخلفاء في صدر الاسلام يباشرونه بانفسهم . »

وهذا تعريف ناقص لانه يقصر القضاء على فصل الخصومات القائمة بين الناس . وهذا هو الاصل في القضاء . ولكن القضاء ينظر في غير الخصومات أيضاً كمسائل الاوقاف والايتام والحجر وغير ذلك كما سيرد معنا .

ويعبر ايضاً عن القضاء بالحكم بمعنى المنع ومنه سمي الحاكم حاكما لمنعه الظالم من ظلمه . ومعنى قولهم حكم الحاكم اي وضع الحق في أهله ومنع من ليس له باهل .

مصادر التشريع الاسلامي : ان مصادر التشريع الاسلامي هي : القرآن والسنة والاجماع (أو القياس والرأي والاجتهاد) .

١ — **القرآن :** هو عماد التشريع لأنه يعتبر أساس الأصول التي يرجع اليها فقهاء المسلمين في استنباط الأحكام الشرعية وقد ذكرنا أن آياته تقسم إلى مكية ومدنية .

وإن الآيات المكية قصيرة تدعو إلى توحيد الله وتقيم البراهين على وجوده وتذكر بيوم القيامة وما سيحدث فيه من بعث وحساب يتبعهما ثواب وعقاب . بينما الآيات المدنية طويلة تبحث في التشريع التفصيلي وقصص الغزوات وما كان فيها وأسبابها . وفي القرآن شرائع اجتماعية فيما يتعلق بالأسرة وتكوينها ونظامها وهو يسمى اليوم بالاحوال الشخصية كالزواج والطلاق والميراث أو النهي عن أكل أموال اليتامى والحض على المحافظة على أموالهم إلى غير ذلك . وشرائع مدنية أي ما يتعلق بمعاملات الناس بعضهم مع بعض كالنهي عن أكل أموال الناس بالباطل ، والحض على الوفاء بالعهود ، وإباحة الربح في التجارة ، وحظر التعامل بالربا ، والامر بكتابة الدين والاستشهاد عليه إلى غير ذلك . وما يتعلق بالقصاص أي الامور الجنائية . كما نجد فيه الشرائع الدينية من صلاة وصيام وحج وزكاة .

وقد قام التشريع في القرآن على أسس ثلاثة :

١ً — عدم الحرج أوالضيق : « وما جعل عليكم في الدين من حرج » . « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

٢ً — تقليل التكاليف : هو نتيجة لازمة للاساس الاول « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . »

٣ً — التدرج في التشريع : وعماد هذا المبدأ أخذ الناس بالرفق لاصلاح أمورهم وبالتدريج حتى يصل شيئاً فشيئاً إلى المستوى المراد رفعهم اليه دون أن يشعروا بانقلاب أو بالارهاق المعجز عن بلوغه . وفي القرآن آيات كثيرة تبحث في ذلك أهمها التي نزلت في الخمر والميسر .

٢ — **السنة :** هي أفعال وأقوال النبي ﷺ . وهي تستمد أحكامها من القرآن ومن اجتهاد النبي وفطنته واستشارته لأصحابه . وتعتبر السنة مفسرة للقرآن ومفصلة لما أجمل من أحكامه ، ومن الأحكام التي فصلتها

السنة وكانت مجملة في القرآن كما سبق أن ذكرنا أحكام الصلاة إذ فرضها القرآن دون ذكر أوقاتها أو طرق أدائها وعدد الركوع والسجود فيها . وقد قال عليه الصلاة والسلام « صلوا كما رأيتموني أصلي وخذوا عني مناسككم » . وقد أمر القرآن بالزكاة ، ولكنه لم يعين المقدار الواجب أداؤه ولا موعد الأداء وشرطه . كما أن السنة تبحث في قضايا لم يرد ذكرها في القرآن . وذلك أن السنة قد ورثت الجدّة على حين أن القرآن لم يجعل لها نصيباً في الميراث .

٣ ــ **الاجماع :** أوجد القرآن الكريم أحوالاً عامة في التشريع وترك لعلماء المسلمين باب الاجتهاد مفتوحاً لكل ما يعترض حياتهم الجديدة من أمور لم تكن في حياة الرسول ، فإذا أجمع علماء مصر من الأمصار على أمر من الأمور الدينية مستندين بذلك إلى روح الشريعة الاسلامية كان ذلك حجة . وقد كان النبي ﷺ يستشير أصحابه في بعض الامور . وكذلك فعل أبو بكر من بعده فانه إذا ورد عليه الخصوم ولم يجد في كتاب الله ولا في السنة نصاً يقضي به وأعياه الامر كان يجمع كبار الناس وخيارهم يستشيرهم فان أجمع رأيهم على أمر قضى به .

ويعتبر الاجماع مفتاح التطور في الشريعة الاسلامية لانه يكفل لها حياة متجددة تتمشى مع مقتضيات الاحوال المتغيرة .

٤ ــ **القياس :** وهو قياس حادثة طارئة على حادثة ثانية فيها نص أو اجماع لاتحاد العلة فيهما .

ولكن بعض المسلمين توسعوا في القياس حتى أطلقوه على النظر والبحث في مسائل لم يرد فيها نص . وكانوا يطلقونه أحياناً على الاجتهاد فيما لا نص فيه ، أي جعلوه مرادفاً للرأي . وخاصة أهل العراق الذين اعتمدوا كثيراً

على الرأي وزعيمهم في ذلك أبو حنيفة . وكان ذلك طبيعياً بسبب تعقد الحياة وتطور المدنية واختلاف نظام المعيشة بين الحجاز والعراق .

وفقهاء العراق لم يقتصروا في الاجتهاد أو الافتاء على ما يقع من أحداث بل تعدوا إلى فرض الفروض والاجتهاد في استخراج الحكم الصحيح في حوادث لم تقع أو يندر حدوثها ، وذلك بعكس علماء المدينة الذين وقفوا موقفاً معاكساً فقد كرهوا الرأي والقول به وامتنعوا عن الفتيا وقد ساعدهم على ذلك كثرة الحديث عندهم وعدم تطور الحياة تطوراً كبيراً عما كانت عليه زمن النبي .

التشريع الاسلامي والقانون الروماني :

يتهم بعض الباحثين كالاستاذ شيرمان Sherman والاستاذ آموس Amos والاستاذ غولد زيهر Goldziher وغيرهم الشريعة الاسلامية بانها استحدثت بعض احكامها من القانون الروماني . معززين اتهامهم :

١ً – بوجود تشابه في بعض المصطلحات العلمية بين الطرفين مثل Jurisprudentia (فقه) و Opinio (رأي) :

٢ً – بوجود تشابه في بعض النظم القانونية بين الشريعتين من حيث التقسيم الى : اشخاص والتزامات واموال .

٣ً – بوجود مبدأ : البينة على من ادعى واليمين على من انكر في كلا الشريعتين .

ان اقوال هؤلاء الباحثين لاتستند على اساس علمي ولا منطقي صحيح ، ووجود التشابه ، ليس من باب الاقتباس ، وإنما تشابه الأحكام في نفس الظروف ، والدين والمنطق السليم ، يتماشيان ولا يختلفان ، والتشريع الديني انزل لمصلحة بني البشر ، وحلّ مشاكلهم اليومية ، وكذلك

القوانين ، فلا حاجة للاقتباس مع وجود التشابه وجميع القوانين القديمة قالت بمبدأ العين بالعين دون ان تقتبس من بعضها . ويدحض الكتاب ادعاءات هؤلاء المتهمين ويرون ان زعمهم باطل لاسباب عديدة منها :

١ً — ان نظريتهم لاتؤيدها براهين قاطعة ولا تستند على حجج قوية كما يمكن ان نلاحظ من ارائهم السابقة .

٢ً — اذا وجد تشابه فلعل سببه تلك الظروف الاجتماعية الواحدة التي مرت بها كل منهما ·

٣ً — اننا لانجد مصدراً عربياً او غير عربي يشير الى ان العرب اخذوا شيئاً عن القانون الروماني .

٤ً — انه لايوجد سبب يدفع المؤرخين العرب وغيرهم فيما لو كان هناك اقتباس الى انكاره . فالمصادر التاريخية تنبئنا ان العرب نقلوا كثيراً من العلوم واقتبسوا وترجموا حتى انها تذكر اسماء المترجمين والكتب التي عربوها ولكنها لاتلمح قط انهم نقلوا شيئاً عن القانون الروماني .

تطور القضاء :

القضاء زمن النبي ﷺ : احتكم المسلمون الأوائل إلى الرسول عليه السلام واعتبر حكمه ملزماً حين نزلت الآية : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما » .

وبذلك يعتبر النبي أول قاض في الاسلام ، وكان يستمد أحكامه من الله سبحانه بقوله تعالى : « فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما

جاءك من الحق » كما أنه كان يستشير أصحابه ويجتهد في بعض الاحكام وكانت طرق الاثبات عنده : البينة واليمين وشهادة الشهود .

ولما فتح المسلمون بعض الامصار بعث النبي عليه السلام ولاة . فكان الوالي هو الحاكم وهو القاضي . ولم يعرف أنه عين في بلد من البلدان رجلا اختص بالقضاء . كما أنه أذن لبعض الصحابة بالقضاء بين الناس معتمدين على الكتاب والسنة والاجتهاد .

القضاء زمن الراشدين : سار أبو بكر بسيرة الرسول في الادارة الاسلامية ولما استلم الخلافة قال له أبو عبيدة : انا اكفيك المال . وقال عمر : وأنا أكفيك القضاء . فمكث عمر سنة ، وقيل سنتين ، لا يأتيه متخاصمان . ولكنه لم يتخذ لقب قاض ؛ إذ أن أبا بكر كان يباشر هذه المهمة بنفسه وقد فوض إلى عمر أحيانا النظر في الوقائع التي كان يدلي بها الخصوم اليه .

ثم لما جاء عمر فصل بين الولاية والقضاء بسبب كثرة الفتوحات واتساع رقعة البلاد الإسلامية ، وبعد أن تعذر على الخليفة أو الوالي أن يجمع مع النظر في الامور العامة الفصل في الخصومات .

وإلى جانب ذلك يمتاز عهد عمر في القضاء بذلك الكتاب المشهور الذي أرسله إلى أبي موسى الاشعري قاضي الكوفة والذي يعتبر بمثابة لائحة داخلية يعمل بها القضاة . وقد بين فيه كثيراً من نظام القضاء وأصوله والذي نعتبره بمثابة دستور القضاة الذي يسيرون على هديه في الاحكام وفيه يقول : « من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس : سلام عليك ؛ أما بعد : فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة . فافهم إذا أدلي اليك ، وانفذ إذ تبين لك فانه لا ينفع تكلم لا نفاذ له . آس

بين الناس في مجلسك وفي وجهك وقضائك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً . . . ولا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك ، وهديت لرشدك ، أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم لا يبطله شيء ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل . الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب الله ، ولا سنة النبي ﷺ ثم اعرف الأشباه والأمثال ، فقس الأمور عند ذلك بنظائرها ، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق . واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي إليه . فإن أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا استحللت عليه القضية ، فان ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ في العذر . المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حدّ أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيناً في ولاء أو نسب ، فان الله قد تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان . إياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم ، والتنكر عن الخصومات فان الحق في مواطن الحق يعظم الله به الاجر ويحسن به الذخر . فمن صحت نيته ، وأقبل على نفسه كفاه الله مابينه وبين الناس ، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس في نفسه شانه الله . فما ظنك بثواب عند الله عز وجل في عاجل رزقه وخزائن رحمته . والسلام » .

وكان عمر يستشير الصحابة وخاصة علي بن أبي طالب عملاً بقوله : (ما شقي امرؤٌ عن مشورة ولا سعد باستبداد برأي) : وكذلك فعل علي من حيث استشارة الصحابة . ومما يؤثر عنه أنه عرضت عليه قضية كثر فيها الشهود فدعاهم متفرقين وأخذ إفادتهم ، والكاتب يسجل أقوالهم فوجد تناقضاً في أقوالهم فهددهم وضيق عليهم فأقروا بالحقيقة فقال علي : (الله أكبر أنا أول من فرق بين الشاهدين) .

القضاء زمن الامويين : تميز القضاء في هذا العهد :

١ً — كان معاوية أول خليفة امتنع عن القضاء ودفعه إلى من يقوم به ، وانقطع هو عن النظر فيه لانشغاله في أمور الدولة .

٢ً — تقدم فكرة الرأي باعتبارها مصدراً من مصادر التشريع .

٣ً — ظهور أهل الحديث الذين قاوموا أهل الرأي ولم يأخذوا إلا بنصوص الكتاب والسنة .

٤ً — البدء بتسجيل الاحكام ، وسبب ذلك أن قاضي مصر في خلافة معاوية حكم في الميراث بين ورثة متخاصمين، ثم تناكروا الحكم فعادوا اليه فقضى بينهم وكتب كتاباً بقضائه وأشهد فيه الجند .

القضاء زمن العباسيين : حصلت تطورات هامة في القضاء زمن العباسيين.

١ً — اتساع سلطة القاضي وأعماله إذ عليه الفصل في الدعاوى والاوقاف والنفقات وتنصيب الاوصياء وأضيفت إليه أحياناً الشرطة والمظالم والحسبة ودار الضرب وبيت المال وغيرها .

٢ً — نشوء المذاهب الأربعة وهي :

آ — مذهب الامام أبي حنيفة إمام أهل الرأي والقياس .

ب — مذهب الامام مالك الذي يعتمد على الحديث .

ج — مذهب الامام الشافعي الذي جمع بين الحديث والرأي والقياس .

د — مذهب الامام ابن حنبل الذي يتفق مع مذهب الامام مالك من حيث اعتماده على الحديث .

وأصبح القاضي ملزماً بأن يصدر حكمه وفق هذه المذاهب أو أحدها .

٣ً — تدخل السياسة في القضاء اذ عمل الخلفاء على حمل القضاة على السير

وفق رغباتهم في الحكم . حتى امتنع كثير من الفقهاء من تولي القضاء كما فعل أبو حنيفة لما كلفه المنصور .

٤ً – وجود منصب قاضي القضاة وهو بمثابة وزير العدل اليوم . يولي القضاة من قبله على الأقاليم ويقيم هو في حاضرة الدولة . وأول من لقب بهذا اللقب القاضي أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم صاحب كتاب الخراج وذلك في عهد الرشيد .

٥ً – ظهور الاصطلاحات الفقهية ، كما وضعت الكتب في صفات القاضي وعمله ومجلسه .

ديوان المظالم : كان ديوان المظالم بمثابة محكمة استئناف عليا يلجأ اليه المتقاضون إذا اعتقدوا أن القاضي لم يحكم بينهم بالعدل . كما يلجأ اليه المتظلمون من تعدي ذوي الجاه والحسب أي من الولاة أو جباة الأموال أو كتاب الدواوين أو من أحد أبناء الخليفة أو الأمراء وغيرهم .

لم يفرد للمظالم أوقاتاً محدودة أحد من الخلفاء الراشدين لأن المتظلمين كانوا يستطيعون مراجعة الخليفة متى شاؤوا .

ثم أفرد الخلفاء يوماً خاصاً لرد المظالم ، وأول من فعل ذلك عبد الملك ابن مروان ، وكان يكلف أحياناً قاضيه ابن ادريس الأزدي القيام بهذه المهمة . وكان عمر بن عبد العزيز باشرها بنفسه ثم أهملت بعده إلى زمن العباسيين وكان أول من جلس منهم للمظالم المهدي ثم الهادي ثم الرشيد والمأمون . وآخر من تولاها منهم المهتدي . على أنهم كانوا كثيراً ما يعهدون بهذا المنصب إلى وزرائهم كما فعل المأمون ليحيى بن أكثم والمعتصم لأحمد بن أبي دؤاد . وثم لما غلب السلاطين على بني العباس صار النظر في المظالم إليهم .

كانت محكمة المظالم تنعقد في المسجد وتتألف من خمس جماعات لا يستغني عنهم ولا ينتظم نظره إلا بهم :

١' ـ **الحماة والاعوان** : للتغلب على كل من تحدثه نفسه بالالتجاء إلى القوة أو العنف أو الفرار أثناء القضاء .

٢' ـ **الحكام** : ليردوا الحقوق إلى أصحابها بعد الإحاطة بما يجري بين الخصوم وما يصدر من الأحكام .

٣' ـ **الفقهاء** : ليرجع إليهم عندما يشكل على صاحب المظالم مسألة من المسائل الشرعية .

٤' ـ **الكتاب** : لتدوين ما يحصل أثناء الجلسة من أقوال الخصوم .

٥' ـ **الشهود** : الذين يشهدون بأن ما أصدره القاضي لاينافي الحق والعدل والشريعة الاسلامية .

وكان اختصاص من ينظر في المظالم واسعاً يشمل كما يذكر صاحب كتاب الاحكام السلطانية :

١ ـ النظر في تعدي الولاة على الرعية ، وأخذهم بالعسف في السيرة .

٢ ـ جور العمال فيما يجبونه من الاموال .

٣ ـ كتاب الدواوين ، فيتصفح أحوال ما وكل إليهم .

٤ ـ تظلم المسترزقة من نقص أرزاقهم أو تأخرها عنهم . وإجحاف النظر بهم .

٥ ـ رد الغصوب ، سواء كانت سلطانية تغلب عليها ولاة الجور ، اوكانت مما تغلب عليها ذوو الايدي القوية .

٦ ـ مشارفة الوقوف (الاوقاف) فيتصفحها ليجريها على سبيلها ، ويمضيها على شروط واقفها إذا عرفها .

٧ ـ امضاء ما عجز القضاة أو غيرهم عن امضائه ، لعلو قدر المحكوم عليه وعظم خطره .

٨ — النظر فيما عجز عنه النـاظرون من الحسبة في المصالح العامة .

٩ — مراعاة العبادات الظاهرة كالجمع والاعياد والحج ، والجهاد ،من تقصير فيها واخلال بشروطها .

١٠ — النظر بين المتشاجرين والحكم بين المتنازعين .

وهذا يبين لنا الفرق بين نظر المظالم ونظر القضـــاة ومدى سلطة قاضي المظالم .

دار العدل ومجلس القاضي : كان القاضي يجلس في داره أو في المسجد أو في السوق ، وربما ركب وتجول في البلد ، ويقف حيث يُطلب للقضاء . وأول من بنى داراً خاصة للقضاء الملك العادل نور الدين زنـكي في دمشق وأسماها دار العدل . كما فعل ذلـــك من بعده الأيوبيون في مصر . ثم انتشرت بعد ذلك في سائر الأمصار .

وكان القاضي يبعث حاجبه إلى موضع جلوسه فيحفظ من جاء أولاً فأولاً ، فيقدمهم على هذا الترتيب حتى يأتي القاضي للفصل في الخصومات ولا يقدم أحداً على من جاء قبله لفضل منزلته أو سلطته ، ويقعد الرجال على حدة والنساء على حدة . وكان للغرباء ميزة في أن القاضي يقدمهم على غيرهم في معالجة الأمور .

مساعدو القاضي : كان يساعد القاضي في أعماله :

١ — الحاجب : الذي يرسله إلى موضع جلوسه ليحفظ ترتيب المتقدمين

٢ — الجلواز : أو الشرطي ، يتقدم على رأس القاضي لتهذيب المجلس، وبيده سوط يؤدب المنافق وينذر به من يخل بآداب المجالس.

٣ — الكاتب : لتدوين أقوال المتخاصمين وتسجيل الأحكام .

٤ — الخازن : لحفظ إضبارات الدعاوى .

٥ ــ الأعوان : يرسلهم القاضي لاحضار الخصوم .

٦ ــ الترجمان : لنقل أقوال الأعاجم إذا كان في بلد يكثر فيه من لايحسن العربية ويكفي واحد والاثنان أفضل .

٧ ــ العدول : أي الشهود الذين يعتمد القاضي عليهم وقد نشأت مهمتهم لما تكاثر شهود الزور . من شأن أصحابها :

آ ــ أن يكتبوا للمتعاقدين عقوداً صحيحة على وجه الشرع ويشهدوا عليها.
ب ــ أن يشهدوا أمام القضاء بما يقع من الأمور في حضرتهم .
حـ ــ أن يكشفوا للقاضي عن حقيقة الشهود الذين يسمعهم المتخاصمون فإما ان يزكوهم فتقبل شهاداتهم وإما أن يجرحوهم فترفض .

٨ ــ أهل الشورى : وهم من أهل الفقه والعلماء (وكانت لهم دار خاصة في قرطبة) يرجع اليهم القاضي في تقرير الاحكام ويستشيرهم إذا عصى عليه أمر كي لا يقع في خطأ . إلا أنه يستشيرهم أمام الخصوم .

القضاء واهل الذمة : يقضي الدين الاسلامي باحترام حريــة الأديان السماوية ، فأوامر القرآن والسنة صريحة في تقرير المساواة التامة بين المسلمين والذميين في جميع المعاملات وتحض على العمل في قضائهم بمقتضى أحوالهم الشخصية . فقد قال تعالى : « فإن جاؤوك فاحكم بينهم آوأعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين » . ومن هذه الآية الكريمة نعلم أن الذميين كانوا غير مجبرين على العمل باحكام الشريعة الاسلامية ، بل كانت لهم الحرية في اتباع أحكام دينهم في كل المسائل حتى في الجنائية منها . وهو ما يستفاد من قوله تعالى : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة » وقال تعالى : « وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ».

وتشير المصادر إلى حوادث كثيرة كان الذميون فيها يتقاضون لدى القاضي المسلم الذي يفصل في أمورهم سواء كان الخصم مسلماً أو غير مسلم.

ولما فتح عمرو بن العاص مصر قسمها إلى عدة مناطق وعين على كل منطقة قاضياً قبطياً يفصل في النزاع الديني والمدني لغير المسلمين ، وفق شرائعهم ، لانه أكثر فهماً لحالتهم ولاخلاقهم . واذا وقع نزاع بين عربي وقبطي عرض النزاع على مجلس مؤلف من قضاة الطرفين .

شروط القاضي وتعيين القضاة : كان يشترط في القاضي شروط كثيرة وهي :

١ ـ **الحرية** : لأن العبد لايملك الولاية على نفسه فمن باب أولى أن لا يملكها على غيره .

٢ ـ **العقل** : أي العقل الذي يجعل صاحبه صحيح التمييز ، جيد الفطنة ، بعيداً عن السهو والغفلة يتوصل بذكائه إلى إيضاح ما أشكل .

٣ ـ **البلوغ** : لأن الصبي ناقص التمييز وليس له ولاية على نفسه فلا يعقل أن تكون له ولاية على الناس .

٤ ـ **الاسلام** : ويجوز تقليد غير المسلم القضاء بين أهل دينه .

٥ ـ **العدالة** : يفسرها الماوردي بقوله : « أن يكون صادق اللهجة ، صادق الأمانة ، عفيفاً عن المحارم ، متوقياً المآثم ، بعيداً عن الريب ، مأموناً من الرضا والغضب .. »

٦ ـ **سلامة السمع والبصر والنطق**

٧ ـ **العلم** : أي أن يكون عارفاً بأسرار التشريع وأن يكون مجتهداً لا مقلداً غيره بتفسير أو تأويل . وبعضهم أجاز تولية الأمي القضاء إذا كان صحيح الفهم ولا يوجد في البلد أصلح منه .

٨ ـ **الذكورة** : أي ليس للمرأة أن تتولى القضاء في أي شيء . ولكن أبا حنيفة أجاز قضاءها فيما يصح فيه شهادتها .

هذه هي الشروط ، إنما يجب أن تتوفر في القاضي صفاة لا بد منها لينجح في عمله كالفهم في الوقائع والاستدلال بالامارات وشواهد الحال ومعرفة بالفراسة مع جودة القريحة وحدة النظر .

ويروى عن فطنة وذكاء القضاة قصص كثيرة منها : أن شريحاً بن الحارث (توفى سنة ٧٨ هـ) قاضي الكوفة جاءته امرأة تخاصم رجلاً فأرسلت عينيها وبكت فقال له أحدهم يا أبا أمية ما أظن هذه البائسة إلا مظلومة فقال ان إخوة يوسف جاؤوا أباهم عشاء يبكون .

ويروى عن نباهة القاضي إياس (توفى ١٠٤ هـ) قاضي الكوفة أن رجلاً أودع عند آخر مالاً فجحده ، فسأله فانكر ، فقال المدعي . أين دفعت إليه ؟ فقال : في مكان في البرية . فقال : وما كان هناك ؟ قال : شجرة . قال : اذهب إليها فلعلك دفنت المال عندها ونسيت فتتذكر اذا رأيت الشجرة ، فمضى وقال للخصم : اجلس حتى يرجع صاحبك . وإياس يقضي وينظر إليه ساعة بعد أخرى ثم قال له : يا هذا أترى صاحبك بلغ مكان الشجرة ؟ قال : لا . قال : يا عدو الله انك خائن : قال : اقلني أقالك الله . فأمر من يحتفظ به حتى جاء الرجل فقال له إياس : اذهب معه فخذ حقك منه .

ويروى عن نزاهة القضاة أن قاضي مصر ابن عبد السلام (المتوفي ٧٠٢ هـ) افتى بشيء ثم ظهر له أنه أخطأ فنادى في المدينة عن نفسه : من أفتى له ابن عبد السلام بكذا فلا يعمل به فانه أخطأ .

أما في تعيين القضاة فان عمر بن الخطاب قال ما من أمير عين والياً

أو استقضى قاضياً محاباة إلا كان عليه نصف ما اكتسب من الاثم . وان أمرّه أو استقضاه لمصلحة المسلمين كان شريكه فيما عمل من طاعة الله تعالى ولم يكن عليه شيء مما عمل من معصية .

كان الخليفة نفسه هو الذي يختار القاضي في العاصمة ؛ أما في الأقاليم فكان الوالي يفعل ذلك . وكانوا في المدن الكبرى يعينون عدة قضاة . كما كانوا يعينون قاضياً للعسكر في مصر للفصل في خصومات الجند .

وكانت عادة الخليفة إذا أراد أن يعين قاضياً أن يكتب له سجلاً (مرسوماً) وفيه يبين فضله واحتياج الناحية إلى قضائه . وكان هذا السجل يقرأه أحد اتباع القاضي على المحتشدين احتفالاً بالقاضي الجديد في المسجد ثم يسلمه سجل الخليفة .

ثم صار قاضي القضاة بعد احداث هذا المنصف زمن الرشيد هو المسؤول عن تعيين القضاة والمشرف على امورهم .

قال النبي ﷺ : « اذا حكم الحاكم فأصاب فله أجران وان اخطأ فله أجر ». ومع ذلك كان الفقهاء ينظرون إلى القضاء كواجب يصعب على الانسان القيام به بطريقة ترضي الله والعباد لكثرة اشغاله وخطورة مسؤوليته . وكانوا إذا عرض عليهم تخوفوا منه وتهربوا عنه . وكان من أسباب تخوفهم بعض الأحاديث مثل « قاض في الجنة وقاضيان في النار » « ومن استقضى فقد ذبح بغير سكين » إلا أن العلماء يقولون ان مثل هذه الأحاديث موجه للقضاة الظالمين الجائرين الجاهلين . ويراد بالحديث الأخير ان القاضي ذبيح الحق .

ومن مشاهير الفقهاء الذين رفضوا القضاء الامام أبو حنيفة ، فقد عرض عليه قضاء الكوفة في آخر زمن الامويين فأبى ، فكان الوالي ابن هبيرة

يضربه في كل يوم عشرة أسواط مدة عشرة أيام فلما رأى امتناعه تركه . وفي زمن العباسيين دعاه المنصور إلى القضاء فأبى ، فسجنه .

رواتب القضاة وملابسهم : عمر بن الخطاب هو أول من رتب ارزاق القضاة فجعل للقاضي سلمان بن ربيعة الباهلي (٥٠٠) درهم في الشهر ورتب لشريح قاضي الكوفة مائة درهم مع مؤونته من الحنطة . أما الإمام علي فقد قال لعامله على مصر : أفسح للقاضي في البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته إلى الناس . ورتب لشريح (٥٠٠) درهم في كل شهر .

وظلت رواتب القضاة على نحو ذلك زمن الراشدين . أما في عهد الامويين فقد تصاعدت رواتب جميع موظفي الدولة ومنهم القضاة . وكان راتب القاضي في عهد مروان بن محمد (١٠) دنانير في الشهر .

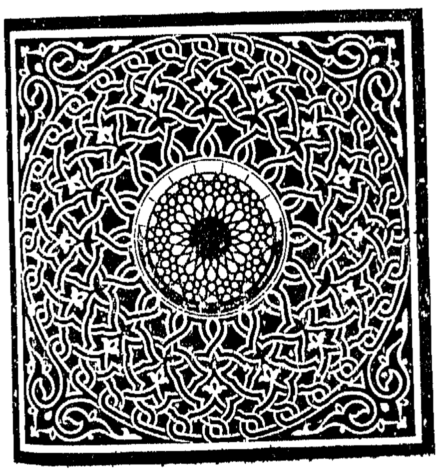
فلما كانت أيام العباسيين أصبح راتب قاضي مصر في الشهر مثلاً (٣٠) ديناراً . ثم تصاعد الراتب زمن المأمون وأصبح (٤٠٠٠) درهم أي نحو (٢٧٠) ديناراً شهرياً . وربما كان ذلك لسبب خاص اذ بعد ذلك عاد الراتب إلى (١٠٠٠) دينار في السنة ثم تدنى إلى (٥٠٠) زمن المعتضد .

ومن بعد ذلك دخل القضاة في الالتزام مثل الخراج . وأول ماجرى ذلك في أيام معز الدولة بن بويه سنة (٣٥٠ هـ) فقد التزمه ابن ابي الشوارب وسمي قاضي قضاة بغداد على أن يؤدي (٢٠٠٠٠٠) درهم كل سنة .

لم يكن للقضاة زي مخصوص قبل عهد قاضي القضاة أبي يوسف إذ أنه ميزهم بلباس خاص يعرفون به . ويقول القلقشندي : كان القضاة والعلماء يلبسون العمائم من شاشات كبار للغاية ، ثم منهم من يرسل بين كتفيه ذؤابة تلحق طرف سرجه إذا ركب ، ومنهم من يلبس فوق ثيابه دلقاً متسع الاكمام طويلها ، مفتوحاً فوق كتفيه سابلاً على قدميه . ويتميز قاضي

القضاة الشافعي والحنفي بلبس طرحة تستر عمامته وتنسدل على ظهره . وان كان شتاء كان الفوقاني من ملبوسهم الصوف الأبيض . ويلبسون الخفاف من الادم الطائفي .

وكان القضاة يركبون البغال النفيسة المساوية في الاثمان لمسومات الخيول بلجم ثقال وسروج مدهونة غير محلاة بشيء من الفضة ، ويجعلون حول السرج فرجية من جوخ . وكان قاضي القضاة في الدولة الفاطميـة يقـدم له من اصطبلات الخليفة بغلة شهباء يركبها دائماً وهو يختص بهذا اللون من البغال دون أرباب الدولة .



الفصل الحادي عشر

الحسبة

اصل الكلمة في اللغة ولدى الفقهاء : اختلف الكتاب في معنى كلمة المحتسب فبعضهم يقول انها مشتقة من قولهم حسبك بمعنى اكتف لأن المحتسب يمنع الناس من الغش وارتكاب المحظورات . وفي القاموس المحيط : « احتسب عليه ، أنكر ، ومنه المحتسب » ويقال فعلت هذا الأمر حسبة لله واحتسبته عند الله . أي جعلت حسابي عليه وأجرى منه . أما الفقهاء فيقولون : إنها أمر بالمعروف ونهي عن المنكر . وكذلك عرفها ابن خلدون بقوله « أما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين » .

وعرفها ابن تيمية بأنها « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما ليس من اختصاص الولاة والقضاة والديوان ونحوهم » فالمحتسب على رأي ابن تيمية « يأمر بالجمعة والجماعات ، وبصدق الحديث وأداء الأمانات ، وينهى عن المنكرات من الكذب والخيانة وما يدخل في ذلك من تطفيف المكيال والميزان والغش في الصناعات والبياعات والديانات ونحو ذلك والغش يدخل في البيوع بكتمان العيوب وتدليس السلع ، كما يدخل في الصناعات » .

منشأ الحسبة : تضاربت أقوال المؤرخين في منشأ الحسبة . فالبعض يقول : ان الرسول ﷺ كان أول محتسب إذ نهى عن الغش حين قال : من غشنا ليس منا . وورد في صحيح مسلم : أن الرسول عليه السلام مر على صبرة طعام فأدخل يده بها فنالت أصابعه بللا ، فقال : ماهذا يا صاحب الطعام ؟ فقال أصابته السماء يا رسول الله . قال أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس من غش فليس منا .. ويروى أن الرسول عليه السلام ولى سعيد بن سعيد بن العاص على السوق بعد فتح مكة . وولى عمر بعده أم الشفاء الانصارية على السوق، وربما كان لأمور تتعلق بالنساء ؛ ولذلك يقول آخرون بأن عمر بن الخطاب هو أول من وضع نظام الحسبة . وكان يطوف الشوارع والأسواق ودرته معه (هي من جلد البقر أو الجمل محشوة بنوى التمر) فمتى رأى غشاشاً خفقه بها مهما يكن شأنه وربما اتلف بضاعته .

لانشك بأن الخلفاء والأمراء كانوا يقومون بعمل المحتسب من مراقبة التجار وأرباب الحرف بمنع الغش واستعمال المكاييل والموازين الصحيحة الخ . ولكن القصد متى عيّن للحسبة موظف مخصوص ؟

اجمع المؤرخون على أن الحسبة نشأت في العهد العباسي . ولكنهم اختلفوا في تحديد تاريخ نشوئها . فبعضهم يجعلها في عهد الرشيد وآخرون يجعلونها في أيام المهدي أو الهادي أو المأمون

ولكن المرجح أنها كانت معروفة زمن المنصور إذ جاء في تاريخ الطبري عن اخبار سنة (١٤٦ هـ) .. أن رجلا يقال له أبو زكريا ولاه المنصور حسبة بغداد والأسواق ..

الحسبة والقضاء : يقول ابن خلدون : « ان الحسبة خادمة لمنصب القضاء » . وقد كانت في كثير من الدول الاسلامية « في مصر والمغرب والأندلس » داخلة في أعمال القاضي يولي بها باختياره من يقوم عليها .

وكانت الحسبة تجمع أحياناً إلى منصب آخر غير القضاء . فنجم الدين الانصاري مثلاً كان (٦٥٧ هـ) وكيل بيت المال في دمشق ومحتسباً .

كما كانت تجمع إلى الشرطة أيضاً . اذ يروى أن اتابك سلطان دمشق طلب محتسباً ، فذكر له رجل من أهل العلم فأمر باحضاره فلما نظره قال : إني وليتك أمر الحسبة على النـاس بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر . قال : ان كان الامر كما تقول فقم عن هذه الطراحة وارفع المسند فانهما حرير واخلع هذا الخاتم فانه ذهب وقد قال النبي ﷺ . هذان حرام على ذكور أمتي ، حلّ لاناثها . فنهض السلطان عن طراحته وأمر برفع المسند وخلع الخاتم من اصبعه وقال : ضممت إليك النظر في أمور الشرطة .

ثم تنزيهاً للقضاء وتخفيفاً من الأعمال الكثيرة أفرد موظف خاص للحسبة .

اعمال المحتسب : أعمال المحتسب كثيرة تشمل نواحي أدبية ودينيـة وعمرانية وأخلاقية ؛ ولا نجد في الوقت الحاضر موظفاً حكومياً أو دائرة رسمية لها سلطة شبيهة بسلطة المحتسب ، فانه يشبه رئيس البلدية ومدير الاعاشة ورئيس الشرطة الاخلاقية ومدير الشؤون الاجتماعية وغير ذلك من الوظائف .

ويمكن أن نجمل أعمال المحتسب بالنواحي التالية :

١ ــ مراقبـة التجـار وارباب الحرف : أي مراقبـة كل صاحب مهنة يتكسب منها . مهما يكن نوع هذه المهنة . حتى أنـه كان يراقب الأطباء ويأخذ عليهم عهد ابقراط . ويجبر الطبيب على دفـع دية المريض إذا مات بسبب سوء تصرفه . وكانت الشروط التي توضـع على الخبازين في النظافة لانجد لها مثيلاً في الوقت الحاضر .

جاء في كتاب معـالم القربة في احـكام الحسبة لابن الاخوة القرشي في فصل الحسبة على الفرانين والخبازين : « ينبغي ان يأمرهم المحتسب برفع سقائف افرانهم ، ويجعل في سقوفها منافس واسعة للدخان ، ويأمرهم

بكنس بيت النار كل تعميرة ، وغسل المعاجن وتنظيفها .. ولا يعجن العجان بقدمه ولا بركبته ولا بمرفقيه ، لان في ذلك مهانة للطعام وربما قطر في العجين شيء من عرق إبطيه او بدنه .

ويراقب المحتسب ما يغشون به الخبز من الكركم والزعفران ، فانها يوردان وجه الخبز . ومنهم من يغشه بالحمص والفول . . ويلزمهم الا يخبزوه حتى يختمر ، فان الفطير يثقل في الميزان والمعدة ، وكذلك اذا كان قليل الملح .. ولا يخرجون الخبز من بيت النار حتى ينضج نضجاً جيداً من غير احتراق ... » ويجب ان يكون العجان ملثماً لانه ربما عطس أو أو تكلم . . ويشد على جبينه عصابة بيضاء لئلا يعرق فيقطر منه شيء في العجين . وإذا عجن في النهار فليكن عنده انسان على يده مذبة يطرد عنه الذباب .

٢ ـ مراقبة الاسعار والموازين والمنكرات الاقتصادية :

يرى ابن تيمية ان من وظيفة المحتسب مراقبة المنكرات الاقتصادية ، مثل عقود الربا والميسر ، وبيع الغرر . .. والنجش وهو زيادة في ثمن السلعة لمن لا يريد شراءها كما يفعل الكثيرون في المزايدات .. وتحديد اسعار المواد الغذائية والضرورية فقال : « لولي الأمير ان يكره الناس على بيع ما عندهم بقيمة المثل عند ضرورة الناس اليه ، مثل من عنده طعام لايحتاج اليه والناس في مخمصة (مجاعة) فانه يجبر على بيعه للناس بقيمة المثل .. وما احتاج الى بيعه وشرائه عموم الناس فانه يجب ان لا يباع الا بثمن المثل اذا كان الحاجة إلى بيعه وشرائه عامة . . » وعلى المحتسب منع الاحتكار ، والمحتكر هو الذي يعمد الى شراء ما يحتاج اليه الناس من الطعام فيحبسه عنهم ويريد إغلاءه عليهم ، وهو ظلم للخلق

وابلـغ من هذا ان يكون الناس قد التزموا الا يبيع الطعام او غيره الا أناس معروفون . فهنا يجب التسعير عليهم بحيث لا يبيعون الا بقيمة المثل ، ولا يشترون الا بقيمة المثل . ومن المنكرات تلقى السلـع قبل ان تجيء الى السوق فان النبي عليه السلام نهى عن ذلك لما فيه من تغرير البائـع ، فانه لا يعرف السعر فيشتري منه المشتري بدون القيمة . .

كما ذكر البلاذري انه كان من عادة الامام علي بن ابي طالب ، ان يطوف بسوق الكوفة وبيده الدرة ، ويراقب الاوزان والمقاييس المستخدمة فيها ، حتى يمنـع التلاعب بها .. كما يروى ان الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك طاف بنفسه في اسواق دمشق وراقب الموازين والمكاييل ، وامر بتخفيض الاسعار ، رغم أن هذه المراقبة كانت من واجب « المحتسب » .

٣ ـ **مراقبة الاخلاق العامة** : كمنع شرب الخمور علنا ومنـع الناس من تطيير الحمام ومنع السحار والكهان عن منكراتهم ومنـع تعرض الرجال للنساء الـخ . . .

وقد جاء في كتاب معـالم القربة : وكذا طرح الكناسة على جوار الطريق ، وتبديد قشور البطيـخ ، او رش الماء بحيث يخشى منه التزحلق والسقوط ، وكذا إرسال الماء من المزاريب المخرجة من الحائط الى الطرق الضيقة ، فان ذلك ينجس الثياب ، ويضيق الطريق ، وكذا ترك مياه المطر والاوحال في الطريق من غير كسح ، فذلك كله منكر ، وليس يختص به شخص معين ، فعلى المحتسب ان يكلف الناس به .

٤ ـ **مراقبة العبادات** : اذ يأخذ المحتسب المسلمين بصلاة الجمعـة والجماعة والأعياد ويمنعهم من الافطار في رمضان . ويعنى بنظافة الجامـع وهيبته . حتى ان أحد المحتسبين في بغداد منـع القاضي من الجلوس في

الجامع حرصاً على نظافته من المتخاصمين « ... وانه لتدخل المرأة اليك ومعها الطفل فيبول على الحصير . أو يأتيك رجل غير منتعل يكون قد مشى في المواضع القذرة فيطأ الحصير ودارك أولى » .

٥ ـ **مراقبة الابنية والطرقات :** فيأمر بهدم الابنية البارزة . ويمنع فتح النوافذ في الابنية التي تشرف على غيرها . ويدعو أصحاب الدور المتداعية إلى هدمها ورفع انقاضها . ويراقب متقاعد الاسواق (البسطات) فيمنع ما يضر منها بحركة المرور .

٦ ـ **اعمال مختلفة :** اجبار السادة بمعاملة عبيدهم وامائهم معاملة حسنة وأخذ أرباب البهائم بعلوفتها وان لا يستعملوها في ما لا تطيق (يكون المسلمون قد سبقوا بمئات السنين جمعيات الرفق بالحيوان التي يدعي الغربيون أنهم أول من أنشأها) والسهر على الاطفال اللقطاء والتكفل بهم . وجمع وحفظ الأشياء الضائعة وإعادتها إلى اصحابها . . ومنع معلمي المكاتب من ضرب الصبيان ضربا مبرحا ، ومنع الحمالين واهل السفن من الاكثار في الحمل.

مجلس المحتسب وراتبه : كان للمحتسب دار خاصة به تسمى دار الحسبة يقيم فيها ويصرف منها جميع أعماله . فهو اما ان يطلب جميع الباعة إلى هذه الدار في أوقات معينة ومعهم موازينهم ومكاييلهم فيعايرها . أو يرسل نوابه في الشارع لتفقد الاحوال فيها . وكان أحياناً أخرى يخرج ويطوف بنفسه في الاسواق ويراقب نظامها ويعاقب المخالفين . ويمنع المنكرات ويزجر ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة ، ولايتوقف حكمه على تنازع أو استعداد بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك او يرفع إليه .

وتذكر المصادر ان مجلس المحتسب يكون احياناً في المسجد . ففي

مصر مثلا كان المحتسب يجلس للفصل بين الناس في جامعي عمرو والازهر وكان يتقاضى راتباً شهريا قدره ثلاثون ديناراً .

العقوبات : كانت عقوبات المحتسب : اتلاف البضائـع الفاسدة . اراقـة الخمور . منع التاجر الغشاش من العمل واعلان اسمه ليتجنبه الناس . وأما الضرب والحبس والتعنيف فكانت أموراً مألوفة . كذلك كان يستعمل عقوبة (التجريس) اي التشهير ببعض الصناع الذين يسيئون الائتمان ويغشون ، وذلك بان يركب المذنب على جمل أو حمار من الخلف ويطاف به في الاسواق ويجلل بلباس خاص يحوي الكثير مما يلفت أنظار الناس كالاجراس وأذناب الثعالب . وتتبعه افواج الصبيان ينعتونه باعنف الاوصاف وينالون من شرفه وكرامته بشكل لا يقوم له بعد ذلك كيان . فقد ذكر انه اذا كذب احد التجار في مصر على عهد الفاطميين ، على أحد المشترين أو باع باكثر من الثمن ، فانه يدفع بالتاجر على جمل ، ويعطى جرساً بيده ، ويطوّف به في المدينة وهو يدق الجرس ويقول : قد كذبت وها انا اعاقب ، وكل من يقول الكذب فجزاؤه العقاب .

وكان المحتسب يستعين بطائفة من الموظفين لتنفيـــذ العقوبات على المستحقين لها يسمون « الاعوان ».



الفصل الثاني عشر

النظام العسكري — الجيش

المقاتلون في صدر الاسلام : لم يعتد العرب في جزيرتهم ترتيب الجيوش المنظمة ، كما كان عند الأمم الاخرى كالفرس والرومان ، او عند العرب القدماء كالآشوريين والمصريين والفراعنة وغيرهم ، بل كان كل شاب قادر على حمل السلاح يفزع مع قبيلته ويسير للغزو ، حاملًا سلاحه التقليدي من سيف وترس ورمح وقوس ، ولم يعرف تنظيم الجيوش منهم إلا من كان باحتكاك دائم مع الدول المجاورة كالمناذرة والغساسنة الذين كانت لهم فرق خاصة للقتال . فقد ذكر أن المناذرة اتخذوا كتيبتين دعيت إحداهما الدوسر ، ودعيت الثانية الشهباء . ولما جاء الإسلام وأمر المسلمون بالقتال ، أرسل الرسول أصحابه للتعرض لقوافل قريش ثم قام بالحروب ضد الجاهليين ، فصار يقود بعض المواقع بنفسه ، ويرتب رجاله قبيل القتال ، ويضع الكمين ، ويأمر بعض الأفراد بالتريث في الهجوم ليفاجئوا العدو ... ونبغ في عهده كثير من القادة العرب الذين وقفوا أنفسهم وحياتهم على الدفاع عن الدين الجديد ونشره . وأهم القادة خالد بن الوليد المبتكر والمبدع في فنون القتال ، الذي

قسم جنده إلى فئات ، وكان يرسل الامداد تلو الامداد في بعض المواقع حتى يدخل في روع العدو كثرة عدده أو يبدل مواقع الميمنة والميسرة والقلب ، ليشعر عدوه بحلول فرق جديدة بدل القديمة ، حتى يمكن اعتباره بالنسبة لفنون القتال العربية في الصحراء مبدعاً في خططه وأعماله ، كما يعتبر الاسكندر المقدوني ، وفريدريك الأكبر ونابليون بونابرت مبدعين في الفنون العسكرية في أيامهم ...

الجهاد في الاسلام : كان القتال محرماً على النبي ﷺ قبل الهجرة لضعف المسلمين وقلة عددهم . وكان يدافع عن مبادئه بالحجة والبرهان والنصح والاقناع . هكذا أمره تعالى : « فلا تطع الكافرين وجاهدهم به » أي بالقرآن .

فلما اشتد اذى قريش هاجر النبي الى المدينة ، وكثر عدد المسلمين فيها ، وأصبحوا أهلاً للدفاع عن انفسهم بالحروب والنزال والله كفيل بنصرهم وتأييدهم (أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير) .

وكانت أهم الاسباب التي دفعت المسلمين الى الحروب هي :

١ ــ الدفاع عن النفس رد المغيرين . (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لايحب المعتدين)

٢ ــ تأمين الدعوة والدفاع عنها .

٣ ــ محاربة من ينقض العهد .

٤ ــ رد الامن الى نصابه اذا قامت الفتن والثورات

٥ ــ فتح الفتوح وتوسيع رقعة البلاد .

٦ ــ الدفاع عن الرأي الذي يراه المسلمون صالحاً لاستقامة الامور كما جرى في عهد عثمان لما حصلت الفتنة .

وكان النبي ﷺ يسمح باستخدام النساء في حروبه وغزواته يخدمن

الجرحى ويهيئن الطعام ويقدمن الماء ويخطن الثياب والقرب ويحمسن من يحتاج الى تحميس ؛واشتهر منهن : رفيدة الاسلمية وأختها كعبة ونسيبة بنت كعب المازنية التي ردت عن النبي ﷺ ضربة تلقتها بجسمها في معركة أحد فجرحت جرحاً أجوف له غور.

وصايا امراء الجيوش :

استن الرسول عليه السلام لمن بعده من حكام المسلمين ، أن ينصحوا الجيوش الغازية ، ويعظوا القادة ، فكان عليه السلام يوصي سراياه المقاتلة أحسن الوصايا من ذلك ما روي عنه قوله : « أغزوا باسم الله ، وفي سبيل الله ، تقاتلون من كفر بالله ، لا تغلوا ولا تغوروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا امرأة ولا وليداً » وكان عليه السلام ينهى في مغازيه عن النهبة فيقول : « من انتهب نهبة فليس منا » كما قال في صدد منع التفريق في السبي بين الولد ووالدته : « من فرّق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة » .

وقلّده أبو بكر ، فأوصى جميع الجيوش الإسلامية الغازية أو الذاهبة لإعادة الإسلام بين المرتدين ، ومن قوله إلى جيش أسامة بن زيد : « أيها الناس ! قفوا أوصيكم بعشر ، فاحفظوها عني : لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغرروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع دعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

وكتب أبو بكر إلى قواده في حرب الردة عهداً صورته واحدة قال فيه : « هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ (لفلان ....) حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام وعهد اليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره ، كله ، سره وعلانيته . وأمره بالجد في أمر الله ، ومجاهدة من تولي عنه

ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان ، بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام ، فإن أجابوه أمسك عنهم ، وإن لم يجيبوه شنّ غارته عليهم حتى يقروا له .... وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد ، وأن لا يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم ، لا يكونوا عيوناً ، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم . وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل . ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ، ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول » .

ومن وصية عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص حين أنفذه لفتح العراق :

« وترفق بالمسلمين في سيرهم ، ولا تجشمهم سيراً يتعبهم ، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم ، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم ، حامي الأنفس والكراع (الخيل) . وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم ، ويرمّون (يصلحون) ، أسلحتهم وأمتعتهم ، ونحّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلّا من تثق بدينه ، ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئاً ، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها ، كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فتولوهم خيراً ، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح ، وإذا وطئت أرض العدو ، فأذكِ العيون بينك وبينهم ، ولا يخفَ عليك من أمرهم شيء وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه ، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدق في بعضه ، والغاش عين عليك وليس عيناً لك . وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم ، فتقطع السرايا إمدادهم ومرافقهم ، وتتبع الطلائع عوراتهم . واختر للطلائع أهل البأس والرأي من أصحابك ، وتخير لهم سوابق الخيل ، فإن لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة . واجعل أهل السرايا من أهل الجهاد والصبر على الجلاد ، ولا تخص أحداً بهوى ،

فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك ، ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة ، أو نكاية ، فإذا عانيت العدو فاضمم إليك أقاصيك ، واجمع إليك مكيدتك وقوتك ، ثم لا تعاجلهم بالمناجزة ما لم يستكرهك قتال ، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله ، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها بها ، فتصنع بعدوك كصنعه بك . ثم أذكِ حراسك على عسكرك ، وتيقظ من البيات جهدك » .

الجندية الاجبارية : وإذا كان جمهرة المسلمين تطوعوا راغبين في الجهاد امتثالاً لأوامر الله ، وحباً في النصر في الدنيا أو جنات النعيم في الآخرة ، فإن فئة منهم تقاعست عن واجبها حتى في عهد الرسول ﷺ فدعيت بالمنافقين ، وفئة أخرى اندفعت للقتال بعدما رأت ما يفتح الله على يديها من بلاد ، وما تغنم من أموال ومتاع وزخرف الحياة ، ولما ندب الخليفة الثاني عمر بن الخطاب المسلمين لحرب الروم والفرس لاحظ تقاعس بعض الناس رهبة من هاتين الدولتين الكبيرتين ، فعمد إلى الحزم في التجنيد فأرسل كتبه إلى الأقاليم لتجنيد المقاتلة ذكر فيها « ولا تدعوا ... أحداً من أهل النجدة ، ولا فارساً إلا جلبتموه ، فإن جاء طائعاً ، وإلا حشرتموه » ولما وضع عمر الديوان سجل فيه أسماء المسلمين جميعاً ورتب لهم أرزاقهم السنوية ، وأفرد للجند منهم دفاتر خاصة هي « ديوان الجند » تدفع لهم فيها رواتب من بيت المال ، إضافة إلى ما يصيبهم من الغنائم من أسهم ، وكان على هؤلاء تلبية داعي الجهاد كلما دعا إلى ذلك ، مع بقاء باب التطوع لمن يريد ممن لم يذكر في الديوان من سكان البوادي والأمصار . ولما قامت الحروب الداخلية أيام الخلاف بين علي ومعاوية ثم من بعدهما ، انضم إلى كل فئة فريق من المحاربين ، ووقف فريق آخر موقف الحياد ، ولكن بعد استتباب الأمر للأمويين ، لم ير الخلفاء بداً من إجبار الناس على الجهاد حسب أوامر الخليفة ، وكان أول

من شعر بذلك هو الخليفة عبد الملك بن مروان عندما أراد أن يخمد الثورات التي قامت في عهده ، وقام الحجاج والي العراق بتطبيق مبدأ الجندية الاجبارية ، يدلنا على ذلك خطبته في أهل العراق عندما أمرهم بمحاربة الخوارج مع جيش المهلب بن أبي صفرة وقوله فيها : « وإني والله لا أجد رجلاً تأخر بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه » وقيل إن الرجل صار يسرع إلى معسكر الجيش قبل أن يستكمل معداته ويهيء طعامه - إذ كان الجندي يؤمن جميع معداته ووسائل حياته لا الحكومة - ويطلب إلى أهله أن يوافوه بها في المعسكر العام خارج المدينة خوفاً من انتقام الحجاج منه ، وهذا أول الجندية الاجبارية ، ثم صار من بعد ذلك لدى الدولة الاموية نوعان من الجيوش : الدائمة ودعيت بالمرتزقة ، والاحتياط أو المطوعة ، وهي التي تتطوع للقتال في الايام العصيبة .

واصبحت الجندية في العصر العباسي - كما يقول ابن الاثير في الكامل « مهنة مربحة ، وكان الجند يترقبون الموتبات فان سامت إليهم في إبانها ، والاشغبوا على من أخرها ، وربما قتلوه . كما كانوا لجشعهم ينتهزون ادنى المناسبات للمطالبة بالمال ، والشطط في ذلك إلى حد المطالبة بثلاث سنين مقدماً أو اكثر » ويصف في موضع آخر ، كيف اشترط احد قادة الأمين على على الخليفة حين امره بالخروج لملاقاة جيش الامين منها : « أن يأمر لاصحاب هذا القائد برزق سنة مقدماً ، وتحمل معهم ارزاق سنة أخرى ، ويزاد أهل البلاء ، وان لا يسأل الخليفة قائده عن حساب ما فتحه من المدن والاقاليم » وهل بعد هذا تعسف من قائد عسكري تجاه خليفة ؟

ادخال العناصر غير العربية في الجيش : وإذا كان اعتماد الجيوش العربية في عهد الراشدين والامويين على العصر العربي فقط ، فان العباسيين

اعتمدوا على العناصر غير العربية ، فألفوا منهم فرقاً خاصة كالفرق الفارسية والتركية ، وأبقوا لديهم المماليك ، وعرفت بعض الفرق الخراسانية بالاشروسية كما أطلق على سكان الجوف من مصر اسم المغاربة ، وقد أسقط الخليفة المعتصم العرب من ديوان العطاء . وشهد العصر العباسي نزاعاً بين العنصرين العربي والاعجمي رؤيت آثاره في كثير من حوادث ذلك العصر ، كمقتل أبي سلمة ، وأبي مسلم ، ونكبة البرامكة ، والنزاع بين الأمين والمأمون ، وقتل هرثمة بن أعين القائد العربي ، وقيام الدولة الحمدانية العربية ، وكانت نتيجة هذا النزاع أن اضمحل النفوذ العربي وتسلط الاعاجم على الدولة ، واحتفظ الخليفة بسلطته الدينية الرمزية فقط .

المعسكرات : كان المسلمون في بادىء الامر يجرون في نصب خيامهم وترتيبها على ما كانوا عليه في جاهليتهم . فيكون فسطاط الامير في الوسط وحوله فساطيط الأمراء والخاصة ؛ وإذا كانت النساء والاولاد معهم جعلوهم وراء المعسكر . وقد منع عمر بن الخطاب الجنود من الاختلاط بسكان البلاد المفتوحة وأمرهم أن يسكنوا في معسكرات خاصة تقام في ضاحية المدينة على ألا يكون بينهم وبين الخليفة بحر أو نهر . ولذلك لم يقم جند العراق في المدائن عاصمة كسرى بل أقاموا على ضفاف الفرات مما يلي بادية الشام في البصرة والكوفة . ولم يقم جند مصر في الاسكندرية عاصمة البلاد بل في بقعة عرفت بعد ذلك بالفسطاط على شاطىء النيل الشرقي قرب موقع القاهرة اليوم .

وبازدياد عدد الجنود والحاشية صار المعسكر أشبه ببلد فيه الكتاب والفقهاء والاطباء والكحالون وأرباب الحرف والأتباع وغيرهم .

وكان للعرب على حدود دولتهم من جهة البر والبحر ، وخاصة بينهم وبين البيزنطيين ، معسكرات دائمة ، بل مدن محصنة دعيت بالثغور والعواصم ،



شكل ــ ٥ ــ معسكر اسلامي في القرن الثامن الهجري

فيها الحاميات والاسلحة ، يكون فيها الجند على أهبة الحروب للدفاع عن حدود المملكة أو الهجوم على العدو وغزو بلاده . وأشهرها : طرسوس وبياس ومرعش وملطية ومنبج ورفح والعريش ودمياط والاسكندرية في مصر .

التدريب العسكري : كان اهتمام العرب في الجاهلية للتدريب على القتال اهتماماً كبيراً فحياتهم البدوية نفسها من تقشف وتنقل وغزو ودفاع عن النفس هي عبارة عن مران حربي دائم . وكان أفراد القبيلة يتمرنون منذ حداثتهم على لعب الرمح ورمي النشاب وركوب الخيل وأساليب الدفاع عن النفس .

ثم لما تنظموا في زمن النبي ﷺ وتوحدت صفوفهم أصبحت الضرورة تقضي بالاستعداد والتأهب لقتال الاعداء . وقد وردت أحاديث كثيرة تشير إلى ذلك منها :

« ... فارموا واركبوا وإن ترموا أحب إلي من أن تركبوا .... »

« ومن ترك الرمي بعد ما علمه فإنما هي نعمة كفرها » « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي » .

وكانت للعرب ألفاظ ومصطلحات خاصة لكل حركة من حركات الجيش منها : الميل . الانقلاب . الانفتال . استدارة صغرى وكبرى . رجوع إلى الاستقبال . استدارة مطلقة . اتباع الميمنة . اتباع الميسرة . جيش منحرف . جيش مستقيم . تقدم . الخ ..

فكانوا إذا أراد القائد أن يميل جنده إلى جهة أو يتخذ شكلاً خاصاً من هذه الأشكال أو حركة من هذه الحركات ناداه بكلمة من هذه الكلمات .

فرق الجيش : كان الجيش العربي في بادىء الأمر يتألف من المشاة

والفرسان يحملون الرماح والسيوف والأقواس والسهام ويلبسون الخوذ والدروع . كذلك وجد منذ عهد النبي فرقة المدرعات التي استعملت المنجنيق والدبابات والضّبور . وسنتكلم عنها في بحث الأسلحة .

ثم بتقدم ورقي الدولة العربية تنوعت أساليب القتال وتعددت الفرق حسب تنوع الأسلحة وتخصيص الأعمال . وكانت أشهر فرق الجيش التي عرفت زمن ازدهار الدولة العربية الاسلامية هي :

١ ـ **الفرسان** : وكان يتألف منهم معظم الجيوش العربية في العهود الاسلامية الأولى ، ويتسلحون بالرماح ، وتشكل منهم فصيلة من رماة السهام كان أكثر أفرادها في العهد العباسي من الخراسانيين أو من سكان شمال فارس المشهورين منذ القديم بتسديد السهام وإصابة المرمى على متن الخيل

٢ ـ **المشاة** : ويعملون عقب هجوم الفرسان .

٣ ـ **الطليعة** : هي سرية من الفرسان يلبسون الدروع والخوذ ، ويحملون الرماح المربوط بأسنتها باقات من ريش النعام ، يتقدمون الجيش عادة بعدة أميال .

٤ ـ **الكشافة** : يعتمد عليها للاستطلاع . وقيل أن قتيبة استخدمها أيضاً لاستحضار خرائط البلاد التي كان ينوي غزوها .

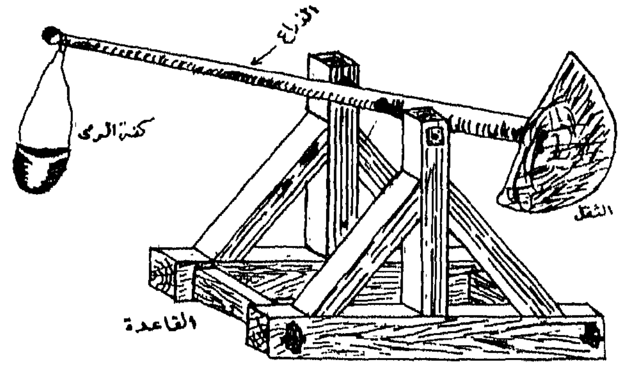
٥ ـ **الحرس الخاص** : لحراسة الخليفة أو أمير الجيش وكان أكثرها أيام الدويلات المنفصلة .

٦ ـ **الغلمان** : وهي فرقة يقوم أفرادها كخدام خصوصيين للخليفة ويتدربون على الفنون الحربية ويعيشون في ثكنات منفصلة عن ثكنات باقي الجيش بمقتضى نظام عسكري خاص ، وتشكلت هذه الفرقة بعد أن كثر اقتناء المماليك .

٧ـ النشابون او الرماة : وقد اشتهرت منهم فرقة تدعى رماة الحدق لمقدرتهم على رمي احدى عيني الغزال دون الأخرى . وجاء في العقد الفريد أن الواحد منهم كان يعلق ضباً بشجرة ثم يرميه بالنبال فيصيب أي عضو شاء من أعضائـه حتى يرمي فقراتـه فقرة فقرة فلا يخطىء واحدة منها ، وكانت هـذه المهارة في الرمي مشهورة منـذ الجاهليـة إلى مختلف العصور الاسلامية .

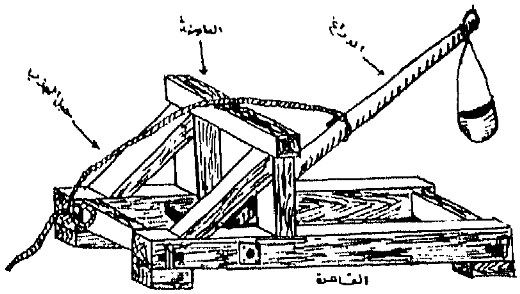
٨ ـ النفاطـون : الذين يرمون النفط لإحراق حصون الأعداء .

٩ ـ المنجنيقيون : رماة المنجنيق ويسمون أيضاً بالمهندسين وكان يطلق على رئيسهم اسم أمير المنجنيقيين . وكان من أشهرهم يعقوب بن جابر المنجنيقي الذي اشتهر في الدراسات العسكرية وألف كتاباً اسمه « عمـدة المسالك في سياسة الممالك » عالج فيه كل ناحية من نواحي الحرب كالتعبئة



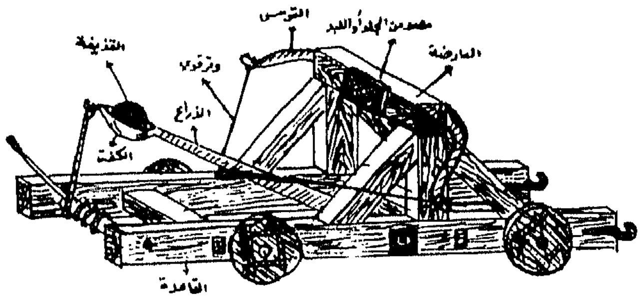
شكل ـ ٦ ـ

منجنيق ، قاعدته من الخشب السميك ، يرتفع في وسطه عمود خشبي متين ، يركب في أعلاه ذراع المنجنيق القابل للحركة ، يتدلى منه صندوق خشبي مملوء بالرصاص والحجارة والحديد . وتقذف هذه المواد بجذب اعلى الذراع نحو الارض بقوة ويؤمن قـوة الجـذب عـدة رجـال اشـداء



شكل ــ ٧ ــ

نموذج آخر من المنجنيق الذي استخدمه المسلمون
ويمتاز باستخــدام حبل يساعــد على شدة القــذف



شكل ــ ٨ ــ

منجنيق استعمل في عصر متأخر في البلاد الاسلامية

والاستيلاء على الحصون وتشييد القلاع والفروسية والهندسة والحصار وتركيب المكائن الحربية وصفات الخيول وأنواع الخيالة .

١٠ ــ **العيارون** : رماة الاحجار من المخالي .

١١ ــ **المعماريون** : يحملون المعاول مع السيوف والتروس .

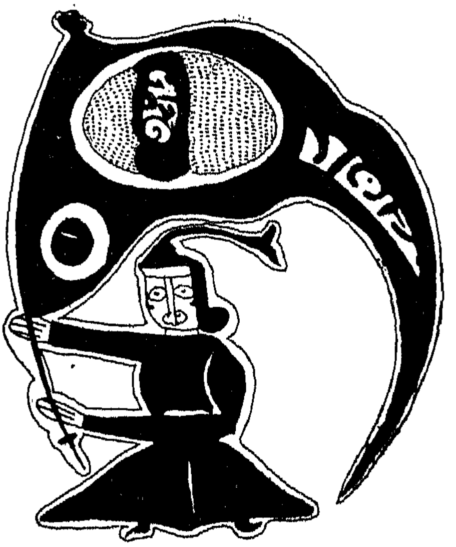
١٢ ــ **مستشفيات الميدان** : فيها الأطباء والصيادلة ونقالات هي عبارة عن محفات تحملها الابل .

١٣ – الجواسيس : وقد اعتمد عليهم العرب منذ أيام النبي ﷺ . إذ قبيل يوم حنين بعث الرسول عليه السلام عبد الله الأسلمي وأمره أن يدخل في صفوف عدوه فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم . فانطلق عبد الله حتى دخل فيهم وسمع منهم ما أجمعوا عليه من حرب المسلمين . ثم أتى النبي وأخبره الخبر . كما كان لقريش جواسيس على النبي أيضاً . ثم في عهد الأمويين والعباسيين كان يعتمد على رجال يتزيون بزي التجار والأطباء وغيرهم ويدخلون أراضي العدو ويتسقطون أخباره .

عدد الجند : كان عـدد الجند الاسلامي في أواخر أيام النبي ثلاثين الفاً من المشاة وستة آلاف فارس . أما في أيام أبي بكر وعمر فقد بلغ مئة وخمسين الفاً وتضاعف العـدد في أواخر أيام الراشدين . أما في زمن الأمويين فقـد بلغ عـدد جنود العراق (١٤٠٠٠٠) ومعهم من النساء والأولاد (٢٠٠،٠٠٠) . وكان في مصر أربعون ألفاً ما عدا النساء والأولاد وكان جند الشام نحو ذلك غير من في فارس وغيرها .

ونجهل عدد الجند في أيام العباسيين إلا أننا نستدل من بعض الروايات أنه كان كبيراً . قيل إن الرشيد حمل على هرقلية بجيش عدده (١٣٥) ألفاً من المرتزقة عدا الأتباع والمطوعة . وروى ابن خلدون أن المعتصم نازل عمورية بجند عدده (٩٠٠٠٠٠) . وكان جند محمد بن طغج مؤسس الدولة الإخشيدية بمصر (توفي سنة ٢٣٤ هـ) (٤٠٠٠٠٠) جندي وثمانية آلاف مملوك .

إمرة الجيش : كان النبي ﷺ نفسه هو قائد الجيش وكان يسند القيادة إلى غيره في بعض الأحيان . وفي زمن الراشدين أصبح من الصعب على الخليفة أن يقوم بهذه المهمة بنفسه فأخذ يختار القواد ممن عرف بالشجاعة والمقدرة والإقدام وحسن التدبير .



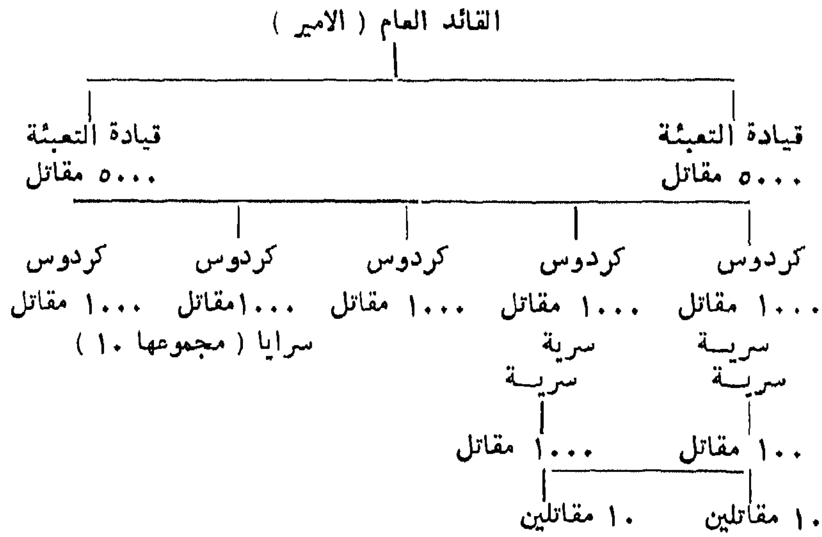
شكل ـ ٩ ـ
صورة حامل اللواء في الجيش ، موجودة على صحن اسلامي
عثر عليه في خرائب مدينة سامراء العباسية من صنع القرن الثالث الهجري

وجرى بعض التعديل في امرة الجيش في العهد الأموي عما كان عليه في صدر الاسلام . كما حدث تغيير في العصر العباسي أيضاً . وسنكتفي بذكر الوضع الأخير لرتب الجيش في العهد العباسي .

١ ـ العريف على عشرة رجال .
٢ ـ النقيب « « عرفاء أو (١٠٠) نفر
٣ ـ القائد « « نقباء أو (١٠٠٠) نفر
٤ ـ الأمير « « قواد أو (١٠٠٠٠) نفر

تنظيم القوات البرية لجيش المسلمين

في عهد نشر الدعوة خارج الجزيرة العربية
وتحرير عرب الاطراف
الجيش (١٠ آلاف مقاتل او اكثر)



جدول يبين قيادات المسلمين في عهد الراشدين والامويين
ومقارنته بقيادات الروم والقيادات العربية الحالية

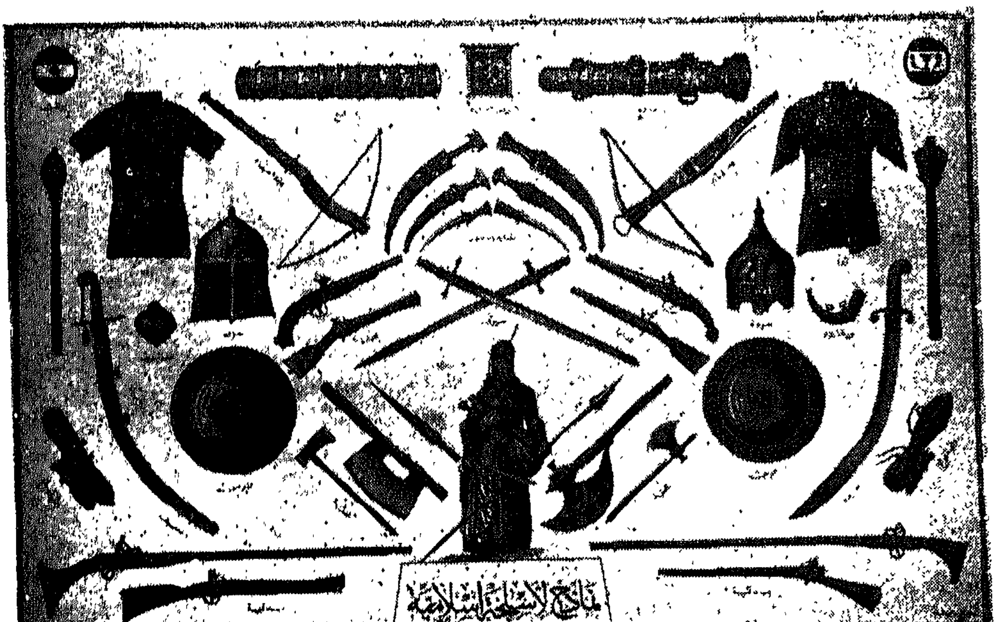
عدد المقاتلين	قيادة جيش المسلمين	قيادة جيش الروم	الرتب العربية الحالية
١٠ آلاف	أمير الجيش	بطريق	
٥ آلاف	أمير التعبئة	طومر خان	عميد
الف	أمير الكردوس	طرنجارية(درانجري)	مقدم
٢٠٠	قائد السرية	القومس	نقيب
١٠٠	النقيب	القومس	
٤٠	الخليفة	القمر طخ(القمطرخ)	ملازم
١٠	عريف	الدمرداخ	رقيب

شكل — ١٠ —

جدول لتشكيل الفرق العسكرية الاسلامية ولرتب الضباط
عن مقال في مجلة المجمع العلمي
العراقي مجلد ٢١

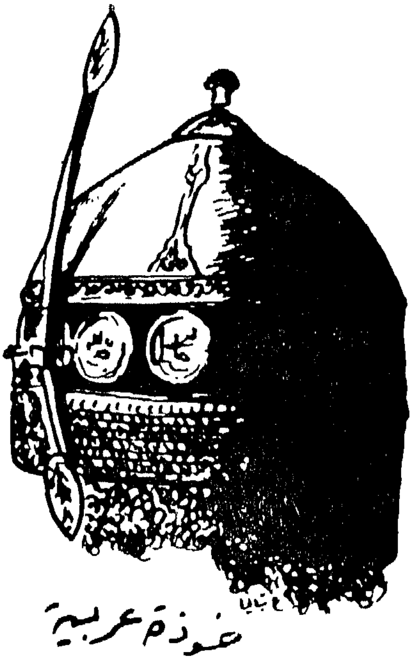
اسلحة الجند : كانت الأسلحة التي استعملها العرب في الجاهلية هي : السيوف والرمـــاح والحراب والأقواس والسهام والدروع والخوذ وقد استعملوهـا في صدر الاسلام أيضاً . وأدخل النبي ﷺ أسلحة جديدة . يقال انه أرسل إلى اليمن بعضاً من أصحابه لتعلم صناعة الدبابات والمجانيق والضبور . وتذكر بعض المصادر أن سلمان الفارسي هو الذي أرشـد المسلمين إلى المنجنيق ويقال إنه صنعه لهم بيده .

وقد اصطنع العرب لرمي السهام آلات لعلهم أخذوا بعضها عن الفرس **كالمجراة** التي استنبطها العجم لما حاربوا التتر وهي عبارة عن أنبوب من حديد أو خشب فيه شق يوضع السهم فيه ويقذف قذفاً شديداً . كما اصطنعوا ضروباً من المنجنيق لرمي عدة سهام .

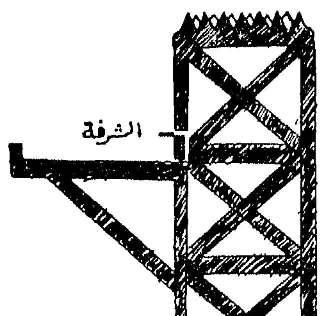


شكل – ١١ –

نماذج الاسلحة الاسلامية ، مما جمعه احد المتاحف

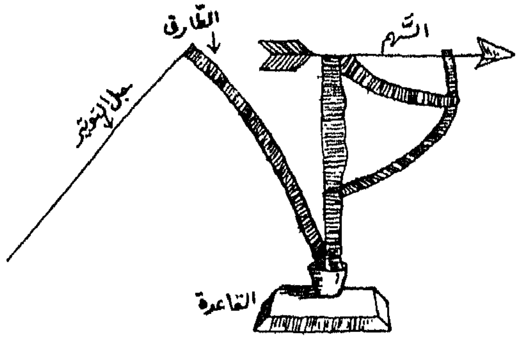


شكل ــ ١٢ ــ خوذة عربية عليها كتابات بالكوفية

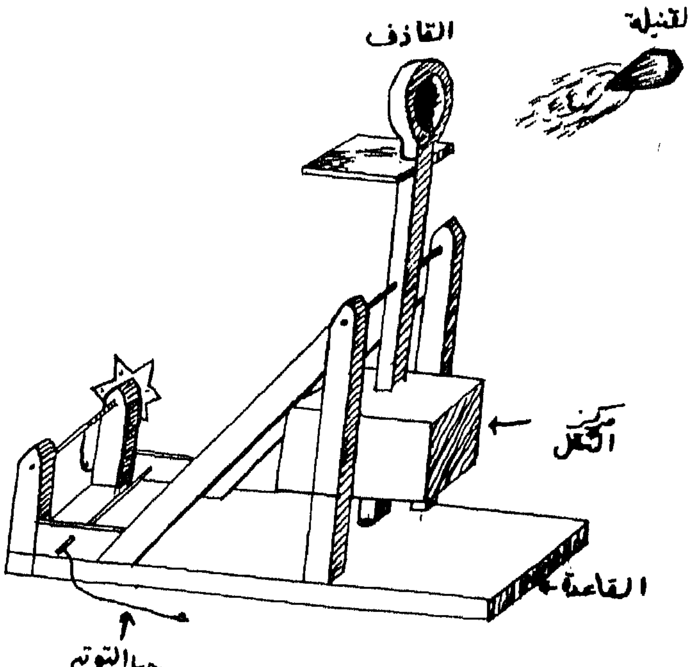


الدبابة

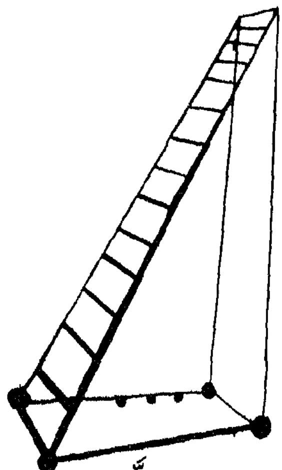
شكل ــ ١٣ ــ
شكل من أشكال الآلة الحربية التي سماها العرب الدبابة
وكانت معروفة في جزيرة العرب قبل الاسلام وخاصة عند أهل الطائف



شكل — ١٤ —
رمي السهام الى مسافات بعيدة لا يقدر عليها الرامي العـادي بواسـطة النشـاب



شكل — ١٥ —
يعتبر هذا المنجنيق ، احد الاسلحة المتطورة التي استخدمها المسلمون ، بعد العصر الاموي ، حيث ادخلوا الصنعة في انتاج حاجاتهم العسكرية ، والعلم التطبيقي فيما كانوا يستعملونه



شكل — ١٦ —

سلم من سلالم الحصار ، يصعد المحاربون بواسطته الى أعالي الاسوار ، ليقتحمونها من الاعلى . وقد استعمل العرب المسلمون الاوائل سلالم من الحبال والخشب ، كما فعل خالد بن الوليد في حصار دمشق

وكانت **السيوف** على أنواع منها اليمانية والهندية والسليمانية والخراسانية والدمشقية وكانت قليلة الصلابـــة وكانت أسياف البيزنطيين أمتن منها . لذلك كان العرب إذ صابوا سيفاً قاطعاً تناقلوا خبره وتوارثوه مثل سيف ذي الفقار لعلي بن أبي طالب توارثه أهله ثم أخــــذه المهدي ثم الهادي فالرشيد كما تقول الرواية . وسيف الصمصامة لعمرو بن معدي كرب .

وأشهر آلات الحصار التي عرفوها **المنجنيق** لرمي الحجـارة أو النار وأول من استعمله الفينيقيون وعنهم أخذه اليونان والفرس ومثله المقلاع ، وكان اول استعمال لهاتين الآلتين الحربيتين في حصار دمشق سنة ١٣ هـ ، وروي انه كان لمحمد بن القاسم الثقفي منجنيق يدعى « العروس » استعمله في حصار الديبل في بلاد السند ، وكان ضخماً لدرجة ان طاقمـــه من

الجند الذي يعمل على تحريكه والرمي به يبلغ خمسمائة جندي . وكان يرمي بها حجارة ثقيلة على اسوار العدو وما وراءها ، وذكرت كتب التاريخ ان الرشيد في حصار هيراقلية رمى على الروم حجارة مخلوطة بالكبريت والنفط ، ملفوفة بقطع من الكتان تشعل قبل ان تقذف . ومن ثم اصبحت مهمة القاء المواد المشتعلة بالنفاطين ... وتطورت صناعة الآلات القاذفة مع الزمن ، فاستعمل جيش صلاح الدين في حروبه ضد الصليبيين آلة جديدة اسمها الزيار ترمي اعداداً من السهام الثقيلة دفعة واحدة .

أما **الدبابات : فهي** آلات من الخشب المغلف باللبود والجلود المنقعة في الخل لدفع النار . وتركب على عجلات يصعد الجند إلى أعلاها للنزول فوق الأسوار . وتستخدم أيضاً لهدم الأسوار ويجتمعون بجدرانها . وهي أقدم من المنجنيق ، استعملها المصريون القدماء والآشوريون واليونان والرومان والفرس والعرب .

وكان سلاح المقاتلة الموجودين في اعلى الدبابة القسي والسهام ومهمتهم حماية المقاتلة الموجودين في اسفل الدبابة ليتمكنوا من فتح ثغرات في اسوار العدو باستخدام المعاول والمثاقب .

والضبور : (جمع ضبرة) هي كالدبابة تصنع من الخشب المغطى بالجلد لنقب الأسوار .

والكبش : كالدبابة لكن رأسه مثل الكبش متصل بعمود غليظ داخل الدبابة معلق بحبال تجري على بكر معلقة بسقف الدبابة يدفعه الجنود وهم داخلها لنقب الأسوار .

اما البارود : فرغم ما يدعيه بعض الغربيين من أنه اخترع في أوروبا

سنة (١٣٢٠ م) إلا أن مصادر كثيرة تشير إلى أن العرب عرفوه قبل ذلك بمدة طويلة وهو إما من اختراعهم أو نقلوه عن غيرهم (لعله من الصين) من ذلك أن المستشرق الاسباني كوندي (١٢٨٠ م) يقول إن أهل مراكش استخدموا الأسلحة النارية في محاربتهم سرقسطة سنة (١١١٨م) . ويذكر ابن خلدون أن أبا يوسف سلطان مراكش لما فتح سلجماسة (سنة ١٢٧٣م) استعمل أسلحة نارية « .. ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزنة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قدرة باريها ..»

وكان قادة المسلمين يبثون في نفوس جيوشهم الحماس بالتكبير أثناء القتال وتلاوة الآيات القرآنية ودق الطبول وقرع الصنوج . كما كان يرافق الجنود قصاصون يقصون عليهم أخبار الوقائع والفروسية أو ينشدونهم القصائد الحماسية المصحوبة بصوت الناي ليقووا قلوبهم ويثيروا هممهم .

ويقول غوستاف لوبون أن العرب أتموا استعدادهم الحربي في بضع سنين . وبُهت البيزنطيون حين حاصر العرب دمشق ورأوهم مجهزين بمثل ما كان عندهم من الآلات الحربية .

كما يمكن أن نعتبر أن من أسلحة العرب المعنوية تلك المعاملة الحسنة العادلة التي عاملوا بها الأمم المغلوبة ، التي كانت تتلقاهم بترحاب وحبور .

ويصف المسعودي في مروج الذهب في حديثه عن حصار جند المأمون لبغداد أنواعاً من الأسلحة حين يقول : « ونصب هرثمة بن أعين على بغداد (المنجنيقات) وقد اتخذ المدافعون لرؤوسهم دواخل من الخوص سموها الخوذ ودرقاً (ترس من الخوص) والبواري (حصير من قصب) وقد قيِّرت (طليت بالقار وهو الزفت) وحشيت بالحصا والرمل .. مع أصحاب الخيول الفره (النشيطة) والجواشن (ج جوشن وهو لباس من حديد يلبس على الظهر

مؤلف من حلقات متداخلة فيها صفائح من التنك) والدروع والتجافيف (ج تجفاف وهو ما يجلل به الفرس من سلاح وزرد بقيه الجراح) والرماح والدرق .. » واستعملت الدويلات المستقلة آلات خاصة لهدم الاسوار دعيت بالزحافات والقطاطيع .

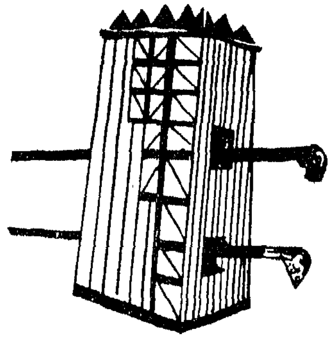
اساليب القتال : كان العرب في جاهليتهم وفي صدر الاسلام أحياناً يتبعون طريقة الكر والفر في حروبهم . ويجعلون نساءهم وأولادهم وأرزاقهم وراءهم وكان ذلك مما يثبت أقدامهم في الحروب .

فلما ظهر الاسلام أخذ العرب يقاتلون زحفا أي صفوفاً عملا بقوله تعالى « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » .

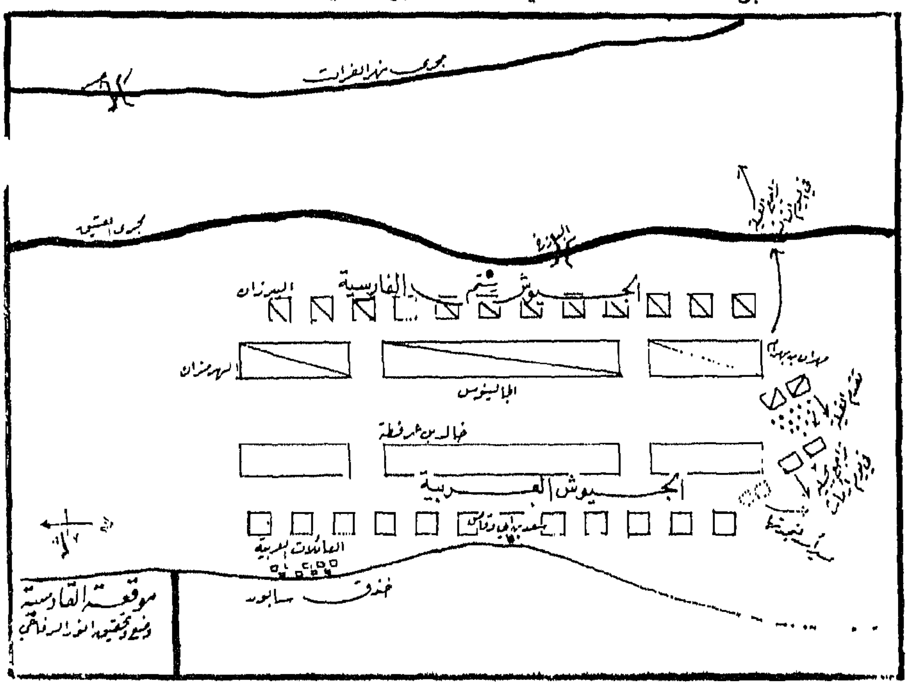
ثم بعد أن اختلط العرب بالأعاجم عمدوا إلى نظام جديد وهو نظام الكراديس . وهي كلمة يونانية ومعناها الكتلة أو الكتيبة . ويقسم الجيش بموجب ذلك إلى خمسة أجزاء رئيسية كبرى ومنها تسمية الجيش بالخميس : أي المقدمة والساقة والميمنة والميسرة والقلب .

ويقول ابن خلدون إن أول من استعمل الكراديس في الإسلام وأبطل نظام الصفوف هو مروان بن الحكم في قتال الضحاك الخارجي ولكن يجب ألا ننسى أن خالد بن الوليد استعمل في واقعة اليرموك (١٣ ﻫ) نظام الكراديس لمحاربة الروم بمثل نظامهم . كما اتبع ذلك سعد بن أبي وقاص في معركة القادسية (١٤ ﻫ) .

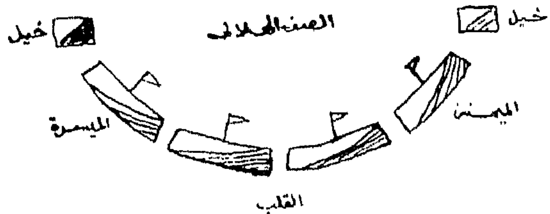
وبازدياد رقي الدولة العربية وبما اقتبسوه من فنون الحرب عند القدماء وترجمة كتبهم ودراسة نظمهم ازداد تفنن العرب في أساليب القتال وتعددت خططهم الحربية حتى صارت سبع خطط وهي :



شكل ـ ١٧ ـ
آلة من آلات الحصار الاسلامية ، يختبى داخلها الجنود ،
ويلاصقون بها جدران الحصون ، ثم يحاولون فتح ثغرات فيها
بواسطة اعمدة الحديد المنتهية براس يشبه رأس الكبش

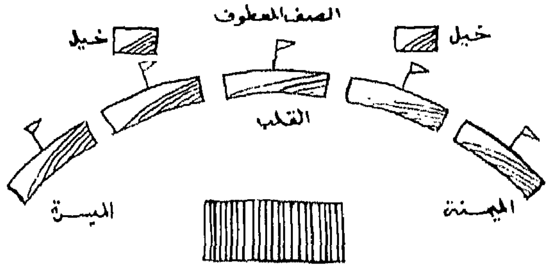


شكل ـ ١٨ ـ
مخطط موقعة القادسية ويظهر فيه بوضوح النظام التعبوي
للجيش العربي الاسلامي في هذه المعركة الفاصلة من المعارك الكبرى في التاريخ



شكل — ١٩ —

احد اساليب تعبئة الجيش الاسلامي (الصف الهلالي)



شكل — ٢٠ —

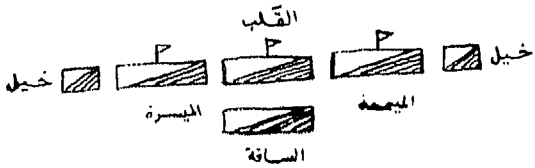
شكل من اشكال تعبئة الجيش الاسلامي (الصف المعطوف)



شكل — ٢١ —

صورة مرسومة في مخطوطة عربية بريشة « رشيد الدين » عام ١٣٠٦ م تمثل معركة حربية ، ويلاحظ من ملامح الوجوه ان جيشاً عربياً بملابسه واسلحته وهيأته يحاصر قلعة مغولية . والنص الاصلي ، التي كانت الصورة ايضاحا له ، يذكر ان عشرة آلاف فارس اجتمعوا تحت راية الامير نصر بن ناصر الدين وغيره وزعيم العرب وحاصروا المردة في قلعة ارك . سنة ٣٩٣ هـ

الصف المستوى



شكل – ٢٢ –

الصف المستوي ، وهو نظام التعبئة التقليدية في معارك العرب

١ – ان ترتب الجيوش بشكل هلال . وهو نوعان مرسل أو حاد بسيط مثل هلال السماء .

٢ – الهلال المركب أي يكون إلى جانب الهلال شبه هلالين كأنها جناحان .

٣ – المربع أو المستطيل (لقد اعتمد نابليون في ترتيب جيشه على شكل المربع وقد دوخ به المماليك وهو عمدة الجنود المنظمة اليوم) .

٤ – الهلال المقلوب .

٥ – المعين أو المربع المنحرف .

٦ – المثلث .

٧ – الدائرة المزدوجة وهي دائرتان أحداهما داخل الاخرى .

وتفوق الجيوش العربية لم يكن يرجع إلى تنظيم جيشهم فحسب، بل كان لسرعة الحركة ضلع كبير ، إذ بينما كان الروم ينقلون أمتعتهم وعتادهم على عربات تجرها البغال والحمير والخيول كان العرب على الأغلب يستخدمون الجمال في حمل الاثقال وهي أخف حركة وأكثر سرعة من العربات . حتى قال أحد المؤرخين : « لم يحتل العرب الشام بهذه السرعة المدهشة إلا بفضل الجمال . »

رواتب الجند : لم يكن للجند رواتب زمن النبي وابي بكر اذ كانوا يأخذون حصتهم من الغنائم والفيء . ولما أنشأ عمر ديوان الجند نظم أعطيات

المسلمين حسب نسبهم الى النبي وسابقيتهم في الاسلام او غير ذلك . وكانت رواتب الجنود بموجب ذلك تقدر بين(٣٠٠ —٥٠٠) درهم في العام ؛ وهذا التفاوت بسبب بعض الاعتبارات من حيث القبيلة وجهادها ومقدار فضلها في الاسلام . ورواتب ضباط الجند من (٤٠٠٠— ٥٠٠٠) درهم هذا غير ما كان يدفع لنساء وأولاد الجنود والضباط وما كان يفرض لهم من الحنطة.

ولما آل الحكم الى بني أمية زاد معاوية أعطيات الجند لاعتبارات سياسية وخصص للجندي الف درهم في السنة أي أكثر من ضعف ما فرضه عمر . كما خصص لليمنية عطاء مضاعفاً وجعلهم فرقة مستقلة . وبقي الامر كذلك مع شيء طفيف من الاختلاف حتى أواخر الدولة الاموية اذ قلت الرواتب ونقصت الى (٥٠٠) درهم ، وكان تأخر عطاء الجنود في عهد مروان بن محمد من الاسباب التي دفعت الجنود إلى عدم القتال باخلاص وحماس

وفي العصر العباسي جعل السفاح راتب الجندي (٩٦٠) درهماً في السنة وكان للفارس ضعف هذا المبلغ . ثم قلت الرواتب في عهد المأمون وأصبحت (٢٥٠) درهماً ، وسبب ذلك أن الاعاجم كانوا يرضون بالراتب القليل لأنهم لا يحسنون مهنة غير الجندية . وقد أوجد نظام الاقطاع إلا أنه ازداد في أيام السلاجقة بصورة واسعة فكان يعطى للامير مدينة او ولاية يحكمها حكما مطلقا ويمارس فيها سلطة الرئيس الاقطاعي . وكان عليه مقابل ذلك أن يدفع الى السلطان جزيـــة سنوية في أوقات السلم . أما في أوقات الحرب فكان عليه ان يلتحق مع عدد من جنوده في جيش السلطان كما عليه أن يجهز جنوده بالمؤونة والعتاد .

وفي أواخر الدولة العباسيـة كانت الرواتب تتأخر وتتراكم وكان يفوز بالخلافة من يتمكن من أرضاء الجند .

الفصل الثالث عشر

النظام البحري ــ الاسطول

العرب والملاحة : تحيط البحار بشبه جزيرة العرب من ثلاثة أطرافها ، وهي تقع في مركز القلب من العالم القديم ، لذا كانت ولاتزال صلة الوصل بين مختلف أجزائه ، واشتهر سكان السواحل بالملاحة منذ أقدم الأزمنة ، فقد احتكروا تجارة الهند والشرق الأقصى عدة قرون كما سيطر الفينيقيون على التجارة في المتوسط والاطلسي ، وكان على شواطىء الجزيرة الجنوبية مرافىء ترسو عندها السفن القادمة من الهند أو وادي الفرات أو وادي النيل ، وكان في اليمن مرفأ اسمه (موزا) يبنون فيه السفن الكبرى لقطع المحيط الهندي . ولهذا السبب عمرت جزيرة سوقطره يومئذ لتوسطها في طريق تلك التجارة كما عمرت مالطة في البحر المتوسط لمثل هذا السبب .

أما عرب الحجاز وسكان المناطق الداخلية من الجزيرة فانهم كانوا يخافون البحر ويهابون ركوبه ، نستدل على ذلك من أخبارهم ومن اهتمامهم بكل ما يتعلق بشؤون البادية والبعير والخيل حتى لنجد في لغتهم أسماء كثيرة ومصطلحات عديدة للشيء الواحد منها ، بينما هي نسبياً فقيرة في أسماء أجزاء السفن وما يتعلق بالبحر ، ففي كتاب « المخصص » لابن سيده « ١٧٦ » صفحة عن الابل و « ٧ » صفحات عن السفينة .

نشاة الاسطول وتطور الملاحة في العصور الاسلامية : سمى العرب مجموع السفن اسطولاً ، وهو لفظ يوناني « Stolos » عربوه ، كما كانوا

يطلقونه على المركب الحربي الواحد . ويقال اسطولي للعسكري الذي يعمل في البحر .

ولقد وردت آيات قرآنية تشير إلى فوائد ركوب البحر ومنافعه منها : « وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » ولكن العرب المسلمين لم يهتموا بركوب البحر إلا بعد أن احتلوا الشام ومصر ، إذ كانت سواحل هذه البلاد عرضة لهجوم سفن البيزنطيين بصورة مستمرة ، فكان عليهم أن يتحملوا وطأة العدوان دون مقابلته بالمثل .

لذلك رأى معاوية والي الشام ضرورة انشاء اسطول فكتب إلى الخليفة عمر يستأذنه في ذلك فأبى ، فألح عليه ، ورغبه في الكسب. فكتب الخليفة عمر إلى عمرو بن العاص والي مصر يطلب إليه فيه أن يصف له البحر وراكبه فأجابه : « يا أمير المؤمنين إني رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء ، إن ركد احزن القلوب ، وإن ثار أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة ، هم فيه دود على عود ، إن مال غرق وان نجا برق » فلما قرأه كتب إلى معاوية : « والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً » .

وكان العلاء بن الحضرمي عامل الخليفة عمر على البحرين يرغب في فتح سواحل فارس وأن تكون له من الشهرة ما لسعد بن أبي وقاص في بلاد فارس ، فجهز اسطولاً واستعان بسكان البحرين ونزل سواحل فارس (سنة ١٧ هـ) دون أن يستأذن الخليفة إلا أنه لم يفلح في غزوته ، ولما علم عمر بأمره قاصصه بأن جعله تحت إمرة سعد ، وبذلك يكون العلاء أول من غزا في البحر في الاسلام .

ولما آلت الخلافة إلى عثمان أعاد معاوية الكرة واستأذنه في غزو قبرص وهون الامر عليه فأبى ، ثم في سنة (٢٧ هـ) كتب إليه مرة ثانية ملحاً ومبيناً له فائدة ذلك . فأجابه عثمان إلى طلبه على أن يجعل ركوبه اختياريا « فإن ركبت البحر ومعك امرأتك فاركبه مأذوناً لك وإلا فلا. ولاتنتخب الناس ولا تقرع بينهم ، خيرهم ، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه » .

وفي سنة (٢٨ هـ) اقلع من عكا اسطول كما رافقه من مصر اسطول آخر . وانتصر معاوية وصالحه أهل قبرص على جزية قدرها (٧٠٠٠) دينار كل سنة يؤدون إلى الروم مثلها لا يمنعهم العرب عن ذلك . مما شجعهم على ركوب البحر وتقوية الاسطول حتى كانت لمعاوية في السنة غزوتان : في الصيف والشتاء عرفت باسم الشواتي والصوائف البحرية . وفي عهد عثمان نفسه هاجم قسطنطين بن هرقل بألف سفينة سواحل مصر يريد استردادها من أيدي العرب ، فوقفت مائتا سفينة للمسلمين أمامه وتغلبت عليه في موقعة ذات الصواري ، فرفعت هذه المعركة البحرية من معنويات البحارة المسلمين وشجعت العرب منهم على ركوب البحر .

وسار الأمويون على سنة معاوية من حيث الاهتمام ببناء الاساطيل وتجهيزها والقيام بالغزو والفتوحات حتى نافسوا البيزنطيين وسيطروا على البحر المتوسط وملكوا معظم جزره وهددوا القسطنطينية نفسها مرات عديدة وحاصروها .

وقد ازداد العرب قوة في البر والبحر في العصر العباسي . وبنوا السفن وغزوا جزر البحر المتوسط حتى صاروا أسياده وهاب الافرنج جانبهم كما غزوا بعض سواحل الهند سنة (١٥٩ هـ) ولم تكن غزواتهم وحروبهم البحرية لتنقطع أبداً . ولم تكن الاقطار العربية الاخرى أقل اهتماماً وقوة من الدولة العباسية كما في مصر والمغرب والاندلس .

فقد اهتم الطولونيون بانشاء المراكب النيلية التي تسير في النيل وتحمل حاصلات البلاد بيـــن الوجهين البحري والقبلي، واهتموا بانشاء المراكب الحربية وكانت تصنع في جزيرة الروضة والفسطاط . كما بذل الفاطميون عنايتهم نحو الاسطول لما رأوا تهديد البيزنطيين لبلاد الشام التـابعة لهم . وكانت تبنى سفنهم في القاهرة والاسكندرية ودمياط . وبلغ عدد السفن التي بناها المعز لدين الله الفاطمي في مدينة المقس (٦٠٠) مركب لم يعرف مثلها كبراً ووثاقة وحسناً كما قال أحد المؤرخين . ثم ضعف شأن الاسطول من بعده . ولما انتقلت السلطة إلى صلاح الدين الأيوبي اهتم بأمر الاسطول اهتماماً كبيراً لمحاربة الصليبيين وصدهم عن الموانىء العربية . وقد نسج على منواله سلطان المماليك الظاهر بيبرس .

وكان للأغالبة في افريقية غزوات كثيرة إلى سردينية وصقلية وقـد فتحوا الأخيرة واستولوا عليها سنة (٢١٢ هـ) وبقيت في حوزة الفاطميين بعد الاغالبة مدة قرن ونصف القرن . كما اشتهر المرابطون والموحدون في المغرب الاقصى بالاعمال البحرية فكانت سفنهم تصل حتى جزر الخالدات (قناريا) واستولوا على جزر ميورقة ومنورقة وكورسيكا ومدينة جنوة .

أما في الاندلس فقد بدأ الاهتمام بأمر البحرية منذ أيام عبـد الرحمن الثالث (المتوفى سنة ٣٥٠ هـ) وزاد عدد اسطوله عن مائتي سفينة تمكن بواسطته من الاستيلاء على كثير من ثغور وسواحل الفرنج .

ضعفت سلطة العرب البحرية بعد ذلك وازداد الفرنج قوة وقـاموا بفتوحاتهم واكتشافاتهم العظيمة ولم يسترد المسلمون والعرب شيئاً من نفوذهم في الأعمال البحرية إلا في عهد العثمانيين ومحمد علي باشا .

دور الصناعة : يراد بكلمة دار الصناعة تلك المعامل التي تقام على ساحل بحر أو شاطىء نهر لبناء السفن واعتمد معاوية حين بدأ بانشاء الأسطول

الإسلامي على الروم وسكان بلاد الشام الساحلية الذين حذقوا في صناعة السفن ومهروا فيها . وكانت أهم دور الصناعة في بلاد الشام : عكا وصور وطرابلس ، كما اشتهرت منذ منتصف القرن الثامن للهجرة : بيروت وحيفا .

وتذكر بعض المصادر التاريخية أن أول دار صناعة بنيت في الإسلام كانت في خلافة عبد الملك بن مروان ، إذ أمر عامله على أفريقية حسان بن النعمان باتخاذ دار صناعة في تونس لإنشاء الآلات البحرية . وإذا صح هذا القول فإن معاوية مؤسس الأسطول العربي لم ينشىء دوراً جديدة للصناعة بل اعتمد على القديمة منها الموجودة في بلاد الشام واكتفى فقط بتوسيعها وتحسينها .

وكانت في **مصر** دور قديمة للصناعة، إذ ذكر أن معاوية لما غزا أول مرة قبرص ساعده أسطول مصري . إلا أن أول صناعة انشئت في مصر كانت في جزيرة الروضة سنة (٥٤ هـ) وظلت الصناعة فيها حتى آخر عهد الطولونيين وأول حكم الأخشيديين الذين نقلوها إلى الفسطاط . وقد أنشأ المعز داراً للصناعة في المقس . كما اشتهرت بهذه الصناعة قبل القرن السادس للهجرة : القاهرة والاسكندرية ودمياط، وعيذاب على ساحل البحر الأحمر . وفي المغرب : طرابلس وتونس وسوسه ووهران وسلا وطنجة والصويره (موغادور) والرباط . وفي الاندلس : اشتهرت بها دانية والمرية وشلطيش (غرب اشبيلية) ومالقة . وفي خليج البصرة : البصرة وهرمز وسيراف وعمان .

وقد اعتمد العرب لما أنشؤوا اسطولهم في البحر المتوسط على سكان البلاد المحتلة في صناعة السفن أو في الملاحة . ثم ظهر منهم صناع تفننوا في عمل السفن البحرية واشتهر أشخاص برعوا في الثقافة البحرية . وكانوا يصنعون السفن على أشكال وأنواع متعددة وأحجام مختلفة ، ومنها ما جعل جزؤها السابح في الماء يشبه الحوت في عومه ، كما أشار ابن خلدون إلى

ذلك بقوله « . . . وهي أجرام هندسية صنعت على قالب الحوت واعتبار سبحه في الماء بقوادمه وكلكله ليكون ذلك الشكل أعون لها في مصادمة الماء ، وجعل لها عوض الحركة الحيوانيـة التي للسمك تحريك الرياح وربما أعينت بحركة المقاذيف كما الاسطول » ..

هذا من حيث شكلها العام ، أما طريقة بنائها فكانت تختلف حسب المناطق والبحار والعادات ، فسفن **البحر المتوسط** كانت ذات دفتين وهي لا تصنع إلا في هذا البحر وتستعمل فيها المسامير كما يقول ابن جبير . وهي أكبر من مراكب المحيط تحمل بضعة آلاف من الرجال وتقطع البحر من غربه إلى شرقه في ستة وثلاثين يوماً .

وكانت **سفن البحر الاحمر** (اسمها جِلَبات جمع جلبة) تصنع في عيذاب على الساحل المصري وتخاط الاخشاب بحبال الليف لانهم لا يستعملون فيها المسامير ويضعون خلالها دسراً من عيدان النخل ثم يطلون الاخشاب بالشحوم . ويعلل القزويني عدم استعمال المراكب ذات المسامير في هذا البحر إلى خوف الملاحين من جذب جبال المغناطيس للمراكب وهي جبال كثيرة قد علا الماء عليها . وقيعان سفن هذا البحر عراض دون تعميق حتى لا تصطدم بصخوره الكبيرة . ولتفادي خطر تحطمها لا يسافر فيها إلا نهاراً ، كما أن الربان يبقى دائماً في مقدم المركب ينتبه إلى الاحجار . أما **سفن المحيط الهندي** والخليج العربي فان ماركو بولو يصفها بانها من أسوأ صنف ، وذلك لأنه لا يستعمل المسامير في بنائها وإنما تثقب الالواح بعناية قرب أطرافها ثم توضع في الثقوب مسامير من خشب تصل بعضها ببعض بنوع من الليف ولا يطلى بعد ذلك بالقار بل بزيت يتخذ من دهن الحوت . وهذه السفن ذات طبقة واحدة وشراع واحد في معظم الاحيان .

السفن الحربية واشهر انواعها : إن المراكب التي استعملها العرب في حروبهم كثيرة تتفاوت حجماً وشكلاً وقوة ، منها ما هو من أصل عربي ومنها ما هو أعجمي .

١ ـ **السفينة** : وهو اسم عام للمراكب وردت في الشعر الجاهلي والقرآن قال تعالى : « فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين . »

٢ ـ **الشونة** : جمعها شواني (وذكر باسم شيني وشينية) **وهي** أكبر أنواع السفن وأكثرها استعمالاً . تقام فيها الابراج والقلاع للدفاع والهجوم. وكانت أهم القطع في الاسطول العربي ، متوسط حمولتها (١٥٠) رجلاً وتجذف باكثر من مائة مجذاف . وصفها ابي حمديس في قصيدة خاطب بها احد امراء بني زيرى بالمغرب الادنى فقال :

انشأت شواني طائرة | وبنيت على ماء مدنا
ببروج قتال تحسبها | في شُمّ شواهقها قننا
ترمي ببروج ان ظهرت | لعدو محرقة بطنا
وبنفط ابيض تحسبه | ماء ، وبه تذكى السكنا

٣ ـ **البارجة** : سفينة حربية كبيرة هندية الاصل (بيرة).

٤ ـ **القرقور** : جمعها قراقير وهي من السفن العظيمة التي تحمل الزاد والكراع للاسطول . أصل اسمها بالاسبانية (كاراكا) .

٥ ـ **الصندل** : وهي مراكب حربية كبيرة مسطحة لحمل المقاتلة والسلاح والمؤن وهي لاتينية الاصل يسميها العرب أيضاً الشلندي (جمعها شلنديات) . وكانت تسمى في الاندلس باسم الاجفان الغزوية او الغزوانية.

المسطح : جمعها مسطحات وهي من سفن الاسطول العربي الكبيرة

الحجم ، وتحمل الاسلحة للاسطول ، وسميت بالاندلس باسم الحمالة .

٧ ــ **الطراد** : أو الطريدة (جمعها طرائد) سفينة صغيرة سريعة السير والجري تستعمل لحمل الفرسان والخيول وتتسع لاربعين فارساً . وكانت تفتح عادة من الخلف حتى يسهل على الخيل الصعود اليها والنزول منها .

٨ ــ **الحراقــة** :(جمعها حراريق) فيها منجنيقات تلقى منها النيران على العدو . وكان للخليفة الامين خمس حراقات في نهر دجلة على صورة الاسد والفيل والعقاب والحية والفرس .وعرفت ايضاً في الاندلس وعنـد الاغالبة والفاطميين . وصفها الشاعر الاندلسي ابو عبد الله بن الحداد بقوله :

ذات هدب من المجاديف حالك   هدب باكٍ لدمعه إسعاد

حمم فوقها من البيض نار   كل من ارسلت عليه رماد

٩ ــ **العشاري** : جمعها عشاريات (أعجمية) أكثر ماكانت تعرف هذه المراكب في النيل وسميت في العصر المملوكي الحراقات وسمي بعضها باسم الالطاف ، وبعضها باسم السماويات ، لانها مكشوفة للسماء . واطلق عليها اسماء ألوانها فعرفت بالذهبي والفضي والاحمر والاصفر واللازوردي وأكثرها كان خصوصياً .. يمكن الاغنياء والحكام للنزهة في النيل .

١٠ ــ **السميريات** : جمع سميرية من سفن البحر والنهر وهي معـدة لحمل آلات الحرب والسلاح والمقاتلة والرماة والملاحين : فيها أربعون مجذافاً كما يذكر الطبري .

١١ـ**الغراب** : جمعها أغربة مقدمتها على شكل رأس الغراب .

١٢ـ**الحربية** (جمعها حرابي وحربيات) : نوع من الشواني ، لكنها

اصغر حجما ، وتمتاز بسرعتها وخفة حركتها . واستخدمت في الاندلس والمغرب ومصر الفاطمية . وصفها ابن حمديس بقوله :

يخوضون بحراً كل حين اليهم ببحر يكون الموج فيه فوارساً
وحربيـة ترمي بمحرق نفط فيغش سعوط الموت فيها المعاطس

رأوا حربيـة ترمي بنفـط لاخمـاد النفوس له استعار
كأن المهل في الانبوب منـه الى شيّ الوجوه له ابتـدار
كأن منافس البركان فيها لأهوال الجحيم بهـا اعتبار
نحاس ينـبري منه شواظ لارواح العلوج بـه بوار

١٣ ـ **البطسة** (جمعها بطس) : مراكب كبيرة الحجم مكونة من عدة طوابق ، ومزودة بعدد كبير من القلوع يصل احيانا الى اربعين قلوعاً تستخدم لنقل الميرة والاسلحة والمقاتلة وقد تصل سعتها الى ٧٠٠ راكب عدا الحمولة .

١٤ ـ **الغيطاني** : مركب عرف في مصر الفاطمية ، لحمل الوكاب والبضائع ومثله العجزي .

١٥ـ **الجلبـة** (جمعها جلاب وجلبات) : وقد سبق ان ذكرنا انها من سفن البحر الاحمر ، ويذكر ابن جبير انه لم يكن يستعمل فيها مسمار البتة ، انما هي مخيطة بأمراس من القنبار (قشر جوز النارجيل) مسقي بالسمن او بدهن الخروع او بدهن سمك القرش وهو احسنها .

اسلحة الاسطول : إن أشهر معدات السفن الحربية عند العرب هي الأسلحة البرية ويضاف إليها :

١ ـ **الكلاليب** تلقى على مركب العدو عند الاقتراب منه فيوقفونه ثم يشدونه إليهم ويرمون عليه الألواح كالجسر ويدخلون إليه ويقاتلون . ويمكن ابطـــال فعل الكلاليب بفأس ثقيلة من فولاذ تضرب بها تلك الكلاليب فتنقطع .

٢ ـ **الباسليقات** : هي سلاسل في رؤوسها رمانة حديد ، تكسر كل ما تقع عليه لشدة دفعها.

٣ ـ **التوابيت** : هي صناديق مفتوحة من أعلاها توضـــع في أعلى السواري يصعد إليها الرجال قبل استقبال العدو فيقيمون فيها ومعهم حجارة صغيرة في مخلاة معلقة بجانب الصندوق . فيرمون العدو بالحجارة وهم مستورون بالصناديق . وقد يكون مع بعضهم بدل الحجارة قوارير النفط أو جرار النورة (وهو مسحوق ناعم من مزيج الكلس والزرنيخ) يرمون بها مراكب الاعداء فتعمي الرجال بغبارها ، وقد تلتهب عليهم إذا تبددت . أو يرمون عليهم قدور الحيات والعقارب أو قدور الصابون اللين فإنه يزلق أقدامهم .

٤ ـ **اللجام** : أداة كالفأس طويلة محددة الرأس جداً وأسفلها مجوف كسنان الرمح تدخل من أسفلها في خشبة كالقناة بارزة في مقدم المركب يقال لها السطام فيصير اللجام كأنه سنان رمح بارز فيحتالون لطعن المراكب فيخرقها وتنصب المياه فيها .

٥ ـ **النار اليونانية** : هي مزيج من كبريت وبعض الراتنجات والأدهان في شكل سائل يطلقونه من اسطوانة نحاسية مستطيلة يشدونها في مقدم السفينة ، فيقذفون منها السائل مشتعلاً أو يطلقونه بشكل كرات مشتعلة أو

قطع من الكتان الملوث بالنفط وهذه النار تشتعل في المـاء والهواء . وهي في الأصل من اختراع السوريين ، تعلمه البيزنطيون بواسطة رجل من بعلبك اسمه كالينكوس في القرن السابع للميلاد أثناء محاولات العرب المسلمين فتح القسطنطينية ثم استخدمه المسلمون وأساطيلهم .

واستعمـل المسلمون (النفط البحري) ويجهز من القطران والكبريت ومواد أخرى ملتهبة ، تزداد اشتعالاً عند ملامستها الماء بدل أن تنطفيء . ويقذف بآلة تسمى النفاطة ، كما كانوا يلقمونهـا أحيانـاً بالسهام والنشاب والمنجنيق . قال في وصفها ابن حمديس :

وما للماء بالاطفاء حكم عليه لدى الوقود ولا اقتدار

٦ ـ **وسائل الدفاع** : ومن وسائل الدفاع عندهم أنهم كانوا يعلقون حول المراكب من الخارج الجلود أو اللبود المبلولة بالخل أو الماء والشب والنطرون لدفع أذى النفط .

وكانوا في الليل لا يشعلون ناراً ولا يتركون فيها ديكاً . أما في النهار فكانوا يسدلون قلوعاً زرقاء كيلا تظهر عن بعد

امرة الاسطول : كان لكل سفينة قائد ورئيس . فالقائد يدير أمر سلاحه وحربه وجنوده ، والرئيس يشرف على الملاحين ويدير أمر جري السفينة بالريح أو بالمجاذيف . وكان يدعى الربان في البحر الأحمر والمعلم في المحيط الهندي . وفي السفينة أيضاً المنادي ومهمتـه تبليغ أوامر الربان إلى الملاحين بصوته .

وكان يعين على جميع قطع الاسطول أمير يدعى أمير البحر أو أمير الماء . وكان يعلق فانوس على مركب أمير البحر فتهتدي به بقية السفن وتقلع باقلاعه وترسو بارسائه .

اشهر المعارك العربية : كانت الحروب والغزوات البحرية بين العرب والافرنج لا تنقطع أبداً في أدوار القوة والضعف لكلا الطرفين . وذكرنا سابقاً كيف أنها بدأت منذ عهد معاوية الذي نظم الشواتي والصوائف براً وبحراً لغزو بلاد الروم . إلا انـه كان لبعض المعارك التي حصلت بين الطرفين من الأهمية الكبرى والنتائج الخطيرة ما يدفعنا إلى ذكرها :(١)

١- فتح قبرص : سنة (٢٨ هـ / ٦٤٩ م) من قبل معاوية . لهذه الغزوة اهميتها لانها اول محاولة انتصر فيهـا العرب . وازدادوا بعدها رغبـة في ركوب البحر واندفاعاً لتقوية اسطولهم .

٢ – فتح أرواد وصقلية وردوس وجزر بحر ايجه وكريت : وقـــد تم ذلك كله بفضل اسطول الشام الذي نظمه معاوية .

٣ – معركة ذات الصواري : في سنـة (٣٤ هـ) جهز قسطنطين ابن هرقل اسطولاً يعد خمسمائة مركب وقيل ستمائة . وقصد مصر . فخرج إليه عبد الله بن سعد بن أبي سرح أمير مصر باسطوله المؤلف من (٢٠٠) سفينة كما اقبل معاوية بنفسه باسطوله لمساعدته . وتلاقيا مـــع قسطنطين واشتبكا في معركة هائلة دون خوف أو وجل رغم قلة عددهم . وكانت السفن تقاتل بصورة افرادية ، الا ان العرب أدركوا بعد ذلك أن هذه الخطة قد تؤدي إلى تحطيم أسطولهم برمتـــه فأجمعوا أمرهم على التكتل وتطويق أسطول الاعداء ، ثم انقضوا عليهم بالسيف والنـار حتى انتصروا عليهم انتصاراً باهراً وحطموا أسطولهم شر تحطيم وانهزم قسطنطين جريحاً .

---

(١) راجع : انور الرفاعي : الانسـان العربي والتاريخ ص ٢٠٧ ومـا بعدها بحث : اعمال الجند العربي البحرية في عهد بني امية . ففيه وصف لهذه المعارك البحرية .

وسميت هذه المعركة بذات السواري لكثرة المراكب التي اشتركت فيها . ومن نتائج هذه الموقعة الكبرى ان ازدادت قوة العرب المعنوية وادركوا ان العبرة ليست بالعدد انما بالتكتل والاستبسال وتنظيم الخطط .

٤ ـ **حصار القسطنطينية** : براً وبحراً عدة مرات مما يدل على تفوق الاسطول الاسلامي بقدرته على اجتياز البحار الرومية دون خشية من أساطيل الروم .

٥ـ**غزو الاندلس** : غزا طارق بن زياد الأندلس سنة (٩٢ هـ) في أربع سفن ، ورغم أن الفتح كان براً أكثر منه بحراً ، الا ان إنزال القوى العربية بعد اجتيازها المضيق ووصولها سالمة الى البر الاوروبي كان له أعمق الأثر في تأمين الفتح ومتابعة ارسال الامدادات .

٦ ـ **غزو جزر البحر المتوسط والاستيلاء عليها** : غزا العرب معظم جزر البحر المتوسط واستولوا عليها في فترات متقطعة واشتبكوا للحصول عليها في مواقع عديدة تذكرها المصادر التاريخية انما بدون تفصيل . وكانت أعظمها تلك التي حصلت في سبيل الاستيلاء على جزيرة صقلية التي لم يستطع العرب احتلالها إلا بعد غزوات عديدة ومعارك شديدة سنة (٢١٢ هـ) وأهم الجزر التي استولى عليها العرب هي : ميورقة ومنورقة وسردينية وصقلية ومالطة واقريطش وقبرص وكورسيكا . وترددوا على الجزر الخالدات (قناريا) كما استولوا على مدينة جنوة وغزوا سواحل فرنسا وايطاليا . وقد تم معظم ذلك بواسطة اسطولي الشام ومصر واسطول الاغالبة الذي يعد من أعظم الأساطيل العربية .

٧ ـ **غزو الساحل الهندي** : في سنة (١٥٩ هـ) وجه المهدي حملة في البحر إلى بلاد الهند تعد (٩٢٠٠) رجلاً منهم (٧٠٠) من أهل الشام

مع قائدهم ، مضوا حتى أتوا مدينة باربد من بلاد الهند فتغلبوا على حاميتها وأسطولها واشعلوا فيها النيران والنفط .

تراث العرب في الملاحة : اعتمد العرب المسلمون على سكان البلاد التي فتحوها وعلى البيزنطيين في تعلم أصول الملاحة . ولكنهم ما لبثوا أن انتقلوا إلى حيز الابتكار والاختراع وأصبحوا أساتذة أوربا في الملاحة ، يدلنا على ذلك كثرة المصطلحات العربية البحرية التي اقتبسها الأوربيون ، الأمر الذي دفع المؤرخ فون كريمر إلى القول : « ومما يوضح أن الأسطول العربي كان نموذجاً لأساطيل الأقطار الأوربيـة أن كثيراً من الاصطلاحات العربيـة البحرية لا تزال شائعة على ألسنة البحـارة في جنوب أوروبا . نذكر من بين تلك الاصطلاحات كلمة Cable المأخوذه عن لفظ حبل العربي . وكلمة Arsenal أو Darsenal المأخوذة عن لفظ دار الصناعة . وكذا كلمة Corvette المأخوذة عن لفظ غراب العربية و Admiral المأخوذة عن أمير البحر .

وأهم شيء أخذه الأوربيون عن العرب (الحُك) أي الابرة المغناطيسية . وهي ذات فائدة كبرى في الملاحة . وإذا اختلفت الروايات وتضاربت الآراء عمن أوجد أو اكتشف المادة المغناطيسية . فكانت كل من إيطاليا وفرنسا وانكلترا واسكنديناقيا تدعي أنها نفسها صاحبة الفضل الأول بايجادها . فان مما لا شك فيه أنها من مكتشفات الصين وأخذها عنهم العرب . ويذكر أحمد بن ماجد (القرن ١٥ الميلادي) في كتابه « الفوائد في أصول البحر والقواعد » « ... ومن اختراعنا في علم البحر تركيب المغناطيس على الحُك بنفسه ولنا فيه حكمة كبيرة لم تودع في كتاب .. » وابن ماجد هو الذي قاد الملاح البرتغالي (فاسكو دوغاما) في بحار الهند وأطلعه على كثير من الآلات البحرية العربية التي كان يستعملها كالاسطرلاب والمغناطيس وغيرهما .

الفصل الرابع عشر

مالية الدولة

بيت المال : إن المال هو العصب الحساس في كل دولة قائمة ، ولا يمكن لدولة أن تقوم وليس لها مال تصرفه على شؤونها ولا موارد تجمع منها حاجاتها المالية ، وقد حدد الاسلام بعض موارد الدولة المالية ، وكانت تجمع في مكان يقال له بيت المال وهو أشبه بخزينة الدولة العامة أو بوزارة المالية في العصر الحاضر ، وأول من أنشأ بيت المال هو الخليفة عمر ، إذ كان الرسول عليه السلام وأبو بكر من بعده ، يوزعان الموارد في حينها ، فلما تدفقت الاموال أيام عمر وكثر المستحقون منها ، وزاد عدد المجاهدين ، وتنوعت الموارد العينية ، أمر عمر ، عملا باقتراح الوليد بن هشام باتخاذ بيت للمال . رغم معارضة الامام علي ، وعين عبد الله بن الارقم أميناً له ، كما عين عبد الرحمن بن عبيد القارى ومعيقيب مساعدين له ... وجعل لكل ولاية أميناً لبيت المال ، له اختصاص مستقل عن عمل الوالي والقاضي ، ورتب لكل بيت حرساً لحراسته ... ويروى أن مشادة وقعت في عهد عثمان بين سعد بن أبي وقاص والي الكوفة وقد عرف باسرافه ، وبين عبد الله بن مسعود صاحب بيت المال ، ورفع الامر إلى الخليفة الذي أيد أمين بيت المال ضد الوالي .

وكان بيت المال يعتبر في عصر الراشدين ملكاً للمسلمين عامة ، لكل منهم نصيب فيه ، وينال كل محارب أو موظف مقداراً معيناً في كل شهر . ولكن الامويين اعتبروه ملكاً لهم يتصرفون به كيف يشاؤون ، فنرى معاوية يهب بخراج مصر إلى عمرو بن العاص طيلة حياتـه ، أو يفرق الاموال بلا حساب لاكتساب الأنصار ، وتبعه الأمويون والعباسيون الذين صاروا ينفقون ، اموال بيت المال حسب أهوائهم ، ثم حددت رواتب الخلفاء وسائر الموظفين فيما بعد ، وأصبح الخليفة أو الوالي لا يستطيع أن يتصرف بأكثر مما حدد له ، وتصرف بقية الأموال على شؤون الولاية أو مركز الخلافة .

ومنذ العهد الأموي طرأ تغيير واضح على النظام المالي في الامبراطورية الاسلامية ، ففصل معاوية « الصوافي » عن بيت المال وجعلها للخليفة ، واصل الصوافي في فارس : « كل أرض لكسرى أو لأهله ، وكل من فرّ عن أرضه ، وقتل في المعركة ، وكل مغيض ماء أو أجمة ... » وهي تختلف عن الفيء . وعمم معاوية الصوافي على جميع أنحاء الامبراطورية ، فأمن لنفسه ولاسرته ولخزانة الخليفة مورداً ضخماً من المال . فقد ذكر أبو يوسف في كتاب « الخراج » ان صوافي العراق وحدهـا بلغت سبعة ملايين درهم سنوياً .

وزاد الامويون في الضرائب نوعاً وكماً .

موارد بيت المـال : إن موارد بيت المال الأساسية في صدر الاسلام وعصر الفتوح هي :

الخراج . العشر . الزكاة . الجزية . الغنيمة . الفيء . وموارد ثانوية أخرى .

١ ــ الخراج : هو أقدم انواع الضرائب ، عرف منذ أيام الفراعنة وربما قبل ذلك وسبب وضعه ان الناس كانوا يعتبرون الأرض ملكاً للسلطان ، والأهالي يتمتعون بريعها على أن يدفعوا للحكومة حصة من ذلك الريع وهو الخراج . وكان للرومان ضريبة الارض TRIBUTUM Soil وللفرس ضريبة مشابهة تسمى الخراج ، كما كان لهاتين الدولتين ضرائب معينة على أراضي ممالكهم التي حررها المسلمون مثل مصر والشام والعراق وفارس وغيرها . وترك المسلمون دواوين الخراج من حيث ادارتها على ما كانت عليه زمن الروم والفرس .

والخراج عند المسلمين هو مقدار من المال أو الحاصلات يفرض على الاراضي التي صولح الاعاجم عليها وصاروا ذمة . ويؤخذ الخراج :

أ ــ عن الأراضي التي فتحها المسلمون عنوة إذا عدل الخليفة عن تقسيمها على المحاربين بعد أن عوضهم عن نصيبهم فيها .

وقد استن عمر بن الخطاب هذه السنة ، وبقيت عليها الدولة الاسلامية حتى عهودها الأخيرة ، وهي الملكية العامة للأرض المفتوحة ، فقد أعلن بعد جدل ونقاش مع الصحابة أن الأرض المفتوحة هي ملك لجميع المسلمين وليست ملكاً للمقاتلين منهم فقط ، ولذا ابقى عليها أهلها مقابل « خراج » يدفعونه للدولة . فالأرض إذن وهي وسيلة الانتاج الاساسية آنذاك غدت « ملكاً للأمة » .

ب ــ عن الاراضي التي افاء الله بها المسلمين أي استحوذوا عليها دون قتال .

حـ ــ عن الاراضي الموات التي أحياها المسلمون وكانت في أرض خراج ولم يحتفر لها بئر أو يستنبط لها قناة .

د ــ عن اراضي شبه الجزيرة لان العرب من عبدة الاوثان فيها ، حكمهم القتل أو الاسلام ، ولاتقبل منهم الجزية (كتاب الخراج لأبي يوسف) .

ويستوفى الخراج على نوعين : اما مبلغاً مقدراً من المال ، او حصة معينة مما تنتجه الارض . وبعض الأراضي يؤخذ منها مـــال في وقت ويؤخذ منها غلة في وقت آخر . أما مقداره فكان غير ثابت يرتفع حيناً ويقل حيناً آخر بحسب الاسعار والازمنة وحاجة الدولة . فرض النبي ﷺ على يهود خيبر نصف محصولهم ، فكان يبعث اليهم عبد الله بن رواحـــة فيقسم المحصول ويخيرهم أي النصفين شاؤوا . وكذلك فعل الهادي في منطقة السواد ، فكان يأخذ منها ستة أعشار منتوجها (وهذا اقصى مبلغ فرض) ثم جعلها الرشيد النصف فقط وخفضها المأمون إلى أربعة أعشار .

وكان الخراج يجبى بعد المحصول ، وكانت السنة المالية للخراج هي السنة الشمسية وليست السنة القمرية ، ، لارتباط الزراعة بالنظام الشمسي والفصول . واعتبر بدء هذه السنة في العراق وما وراءه من أرضين كفارس وغيرها ، هو أول يوم من السنة عند الساسانيين وهو يوم نيروز ، لكن هذا لا ينطبق مع السنة الشمسية ، فأجريت عليه عدة تعديلات كان أتمها ما جرى في عهد الخليفة المقتدر (٢٩٥ – ٣١٠ هـ) .

وكان الخراج يقوم على أساس مساحة القرية كلها ، أو على أساس المساحة المزروعة ، أو على أساس تقويم الانتاج . وقد عرف نظام تقويم الخراج على أساس مبلغ اجمالي للقرية أو الولاية باسم « التكملة » ، وقد أبطلها المقتدر لما في ذلك من اجحاف بحق الفلاحين في السنين العجاف حين يجبرون على تأدية نفس المبالغ التي دفعوها في السنين الخصبة ، على اختلاف القحط والخصب في المنطقة نفسها .

ويظهر أن جمع هذه الضريبة استمرت حتى العصر العباسي الأول في ايدي الملتزمين ، الذين كانوا يعمدون إلى جمع ما دفعوه والأرباح بشتى الطرق . فلما كان عصر الرشيد ووضع قاضيه أبو يوسف كتاب الخراج ، حرّم أبو يوسف تحريماً تاماً عملية بيع وشراء الضريبة المفروضة على الارض ، واباح أبو يوسف هذا النظام بشروط اوردها في كتابه منها إذا اقترح اهل القرية ، قيام نفر من أهل الثقة من بينهم بجمع الضرائب ودفعها للدولة باسمهم .. وعرف نظام الالتزام بالتقبيل ، واسم الملتزم « المقبل » ثم استعملت كلمة الملتزم في العصور المتأخرة .

٢ ـ **العشر** : وهو ضريبة على الاراضي مقداره عشر غلتها مالاً أو عيناً . والاراضي التي تدفع العشر هي :

أ ـ الارض التي أسلم أهلها وهم عليها بدون حرب .

ب ـ الارض التي ملكها المسلمون عنوة وقسمها الخليفة عليهم .

حـ ـ الارض الموات التي احياها المسلمون وكانت في ارض عشر او استنبط لها قناة أو احتفر لها بئر .

ويقول القاضي أبو يوسف ان الاراضي التي يقطعها الخليفة لاحد ، فان كانت في ارض خراج دفعت خراجاً ، وان كانت في ارض عشر دفعت عشراً . ولا يمكن للخليفة تحويل الخراج إلى عشر او ان يفرض عليها عشراً ونصفاً او عشرين او اكثر .

٣ ـ **الزكاة** : الزكاة ضريبة فرضها الله على المسلمين وهي أحد أركان الاسلام التعبدية الخمسة ، فاذا امتنع المسلم عن ادائها فقد هدم ركناً اساسياً من اركان الاسلام ، وقد ذكر الفقهاء ان من منع الزكاة معتقداً وجوبها اخذت منه قهراً .

ومن انكر وجوبها فهو مرتد تجرى عليه احكام المرتدين . وقد اتفق الصحابة على قتال مانعي الزكاة كما فعل ابو بكر يوم قال : « والله لاقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة . وكانت الدولة تتولى جمعها وانفاقها ، فاخرجها عثمان بن عفان من اطار بيت المال ليتصرف بها المسلم حراً وفريضة عليه ، شأنها في ذلك شأن الصلاة والحج .

وذكر الفقهاء اقوالاً شتى في اصل الكلمة فهي اما :

آ - من زكا الشيء اذا نما وزاد . يقال زكا الزرع إذا كثر وزاد . ورجل زكي اي زائد الخير . والزكاة التي تؤخذ عن المال لا تنقصه انما تنميه بالبركة او بالاجر الذي يثاب به صاحبه .

ب - او من الثناء الجميل ويقال زكي القاضي الشاهد . فكأن من يعطي الزكاة يحصل على الثناء الجميل .

حـ - او من التطهير فكأن الخارج من المال يطهره من تبعة الحق الذي جعل الله فيها للمساكين ، ويبعد عن صاحبه نظرة الحقد والحسد من الفقراء . قال الله تعالى : « خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » . ومصادر الزكاة خمسة :

ا - زكاة السوائم او المواشي : أي الإبل والغنم والبقر . ولا زكاة في الخيل والبغال والحمير الا إذا كانت للتجارة ففيها زكاة التجارة . ولا تؤخذ الزكاة عن المواشي إلا اذا حال عليها الحول ، كما لا تؤخذ إذا علفها صاحبها . وتختلف نسبتها باختلاف نوع الماشية وعددها فالابل بين (٥ - ٢٥) يؤخذ شاة عن كل خمسة منها . وبين (٢٦ - ٧٥) يؤخذ ناقة واحدة تختلف سنها باختلاف عدد الإبل ، اي تكون سنها اكبر كلما زاد

العدد . **اما الغنم** (ضأناً ومعزاً) فيؤخذ منها شاة اذا كان عددها بين (٤٠ – ١٢٠) ثم يكون في كل مئة شاة واحدة . **اما البقر** فلا يؤخذ منها الا اذا بلغ عددها (٣٠) فيؤخذ منها تبيع او تبيعة (الذي يتبع أمه وهو ما أوفى سنة) ، واذا كانت (٤٠) يؤخذ مسنّ (ما اوفى سنتين) ثم اذا كانت (٦٠) فضعف مايؤخذ عن الثلاثين .

ب – زكاة النقد (الذهب والفضة) : لايدفع زكاة عنها الا اذا حال عليها حول وبلغا النصاب أي ٢٠٠ درهم للفضة و ٢٠ مثقالاً للذهب (اي ما يقرب من ١٣ ليرة عثمانية ذهب) ويكون مقدار الزكاة واحداً من أربعين ، اي ٢،٥ بالمائة .

ح – زكاة التجارة : يؤخذ عنها ٢،٥ بالمائة بشرط ان تبلغ قيمتها نصابا من الذهب أو الفضة وان يحول عليها الحول .

د – زكاة المعادن والركاز : (اي المعادن الغفل والكنز) فاذا وجد في ارض الحرب ففيها الخمس (اي مثل الغنائم) واذا كانا في ارض السلم ففيها الزكاة اي ٢،٥ بالمائة .

هـ – زكاة الزرع والثمار : لا يدفع عنها زكاة الا اذا بلغا حداً معيناً . وحكم زكاتها العشر اذا كانت الارض تسقى بالمطر او المياه الجارية . ونصف العشر اذ كانت تسقى بالدلاء او بواسطة اخرى تكلف نفقات .

مصرف الزكاة : تصرف الزكاة حسب قوله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » . **الفقراء** هم الذين لا شيء لهم . **والمساكين** هم الذين لهم مالا يكفيهم وهم افضل

حالاً من الفقراء . ويقول القاضي ابو يوسف عن عمر بن الخطاب ان المساكين هم فقراء اهل الذمـــة . **والعاملون عليها** هم القائمون بجبايتها وتفريقها . **والمؤلفة قلوبهم** هم الذين كان النبي وخلفاؤه يتألفونهم لكف اذاهم عن المسلمين او لترغيبهم في الاسلام . **والرقاب** اي شراء العبيد وعتقهم. **والغارمون** هم المدينون فيعطى لهم ما يقضون به ديونهم **في سبيل الله** ، اي يعطى للغزاة واهل الجهاد نفقة ما يحتاجون اليه في حروبهم. **وابناء السبيل** هم المسافرون الذين لا يجدون نفقة سفرهم .

ومن هـذه الآية نستدل أن الزكاة خصصت لما يسمى بلغـة العصر « الشؤون الاجتماعية » لانها تنفق على الطبقات الاجتماعية التي تستحق العطف والمساعدة . فالفقير هو من لا يملك نصاب الزكاة ، والمسكين هو الفقير المحتاج المتعفف والسائل . والمسكين في رأي ابي حنيفة اشد حاجـة من الفقير . ويشمل هذا الباب المسلمين والمعوزين من اهل الكتاب ، ويستدل الفقهاء على ذلك من عمل عمر بن الخطاب حين رأى ذمياً مكفوفاً مطروحاً على باب المدينة فأجرى عليه رزقاً مستمراً وقال لخازن بيت المال : ابحث عن هذا من الذين قال الله سبحانه وتعالى فيهم: « انما الصدقات للفقراء والمساكين » وقصد بذلك اهل الكتاب ذوي الامراض المزمنـة والعاهات المانعة من الكسب .. والعاملون عليها الذين يتولون جمعهـا ويوزعونها على مستحقيها ، والمصرف الرابـــع اعطي لجماعة من الناس تأليفاً لقلوبهم او تأليفاً لقلوب ذويهم من قبيل الدعوة الى الاسلام او الدفاع عنه .. في عهد الرسول عليه السلام . وتوقف العمل بـه في عهد عمر لان زوال السبب اقتضى زوال المسبَّب ، وهكذا رأى الفقهاء ان الحكم فيه بات ينفذ ان وجدت الحاجة اليه فيجب تنفيذه في عصرنا هذا في الدعاية للاسلام وبيان حقائقه لمن يجهلونه.

اما فك الرقاب فيقصد به تحرير الارقاء ، فكان من اول واثبت الدعوات لتحرير الرقيق . والصنف السادس هم الغارمون اي الذين ركبهم دين ولا فاء عندهم . والمصرف السابع : في سبيل الله وقد فسرها المسلمون بما يعم كل مصالح المسلمين . والمصرف الاخير : ابن السبيل وهو من انقطعت به الاسباب وكان في سفر .

والزكاة لها في العربية مدلول مزدوج : الاول انها تزكية وتطهير للروح والثاني انها تزكية وتنمية للمال . فلها هدف روحي تعبدي ، ولها هدف اقتصادي فقهي .

٤ ـ **الجزية** : ليست من محدثات الاسلام . لقد وضعها اليونان على سكان سواحل آسيا الصغرى حوالي القرن الخامس ق . م مقابل حمايتهم من هجمات الفينيقيين . ووضعها الرومان على الامم التي اخضعوها وعرفت عندهم باسم ضريبة الرأس Tributum Capitis وكانت اكثر كثيراً مما وضعه المسلمون بعدئذ . كما كان الفرس ايضا يأخذون الجزية من رعاياهم وعرفت عندهم باسم الجزية Gezit .

والجزية مبلغ من المال يدفعه اهل الذمة مقابل حماية المسلمين لهم . وهي مقابل الزكاة عند المسلمين حتى يتساوى الفريقان في دفع الضرائب . وتسقط عنهم الجزية اذا اسلموا . وهي مفروضة على جميع الذكور الذميين القادرين على دفعها فلا تؤخذ من النساء والصبيان والشيوخ الطاعنين بالسن الذين لا يستطيعون العمل ولا من العميان والمقعدين والمجانين ،ولا من رجال الدين الا اذا كانوا اغنياء . اي انها فرضت على كل الاشخاص الذين لو كانوا مسلمين لوجب عليهم الجهاد .

اما مقدار الجزية فلم يكن ثابتاً زمن النبي وابي بكر . ثم عينها عمر

ولكنها عدلت بعد ذلك وتعينت باعتبار درجات الناس ومقدرتهم فكانت (٤٨) درهما على الاغنياء تدفع شهرياً و (٢٤) على متوسطي الحال و (١٢) على الفقراء .

٥ ـ **الغنيمة** : هي ما يكسبه المسلمون في الحرب من الاعداء وهي على اربعة اقسام : اسرى وسبي وارضين واموال . فالاسرى هم الرجال المقاتلون الذين يقعون في الاسر . واختلف في حكمهم منها قبول الفدية عنهم او قتلهم أو أن يمن الخليفة عليهم بالاطلاق . اما السبي فهم النساء والاطفال الذين يقعون في الاسر فلا يجوز قتلهم . اما الارض فقد تقدم ذكرها في بحث الخراج والعشر . اما الاموال فاربعة اخماسها المقاتلين وخمس للرسول ولذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . وذلك حسبما جاء في كتابه العزيز : « واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » . وقد فاضل النبي ﷺ بين الفارس والراجل انما اختلف فيما بعد في قدر تفضيله . قال ابو حنيفة : يعطان للفارس سهمان والراجل سهم . ورأى الشافعي ان يكون ثلاثة اسهم للفارس .

٦ ـ **الفيء** : هو كل مال سهم وصل من المشركين المسلمين عفواً من غير قتال .. ويدخل فيه الخراج والعشر والجزية وغيرها من واردات بيت المال . ويصرف خمسه حسب الآية الكريمة : « ما افاء الله على رسوله من اهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » « سورة الحشر » اما اربعة اخماس الفيء الباقية كانت تقسم في صدر الاسلام على الجند والاعمال الحربية لشراء الاسلحة وغيرها حتى دون عمر الدواوين وعين ارزاق الجند فاصبح الفيء يوضع في بيت المال .

فمن أراضي الفيء مثلاً في الشام والعراق ومصر الضياع الخاصة التي هجرها ملاكها الهاربون ، او الاراضي التي كانت ملكاً للحكومات السابقة . أو الضياع التي صودرت بسبب اثارة الفتن ضد المسلمين ، أو الاراضي العامة التي لا صاحب لها كالغابات والمروج .. واضيف إلى مثل هذه الاحوال ، في فارس ، الاراضي التي كانت وقفاً على معابد النار .

ومع الزمن ، صرف الدخل من الفيء على الاعمال والاشغال العامة ، كحفر القنوات ، وإقامة السدود على الانهار ، وتشييد الخزانات وتعبيد وترميم الطرق ...

ولادراك الفرق بين أراضي الفيء واراضي الخراج ، يكفي أن نعتبر ان أراضي الفيء ملك للدولة ، وأن أراضي الخراج من القطاع الخاص ، ملك لاصحابها من الشعب . وتأخذ الدولة من أملاكها مجموع حصة المالك وضريبة الانتاج ، بينما تأخذ الدولة من املاك الشعب فقط ضريبة الانتاج .

٧ ـ **الواردات الاخرى :** ويدخل ضمن واردات بيت المال سوى ما ذكرنا :

أ ـ **المكوس (العشور او ضرائب الجمرك) :** وهي ضريبة عن كل تجارة واردة في البحر أو البر مهما يكن نوعها . ولانعلم مقدار ما كان يجمع منها إذ أنها كانت تختلف باختلاف الزمان والمكان . وهذه الضريبة لا تؤخذ إلا إذا انتقل التاجر من بلاده إلى بلاد أخرى . أي إذا انتقل الشامي إلى العراق أو مصر وهكذا ...

ب ـ **اعشار السفن :** هي ضريبة على السفن التي تمر ببعض الثغور فيؤخذ منها العشر عيناً . وكانت تبلغ أموالاً كثيرة في بعض الاحيان . وقد بلغ ضمان اعشار السفن في عدن في القرن الرابع هـ (٢٠٠٠٠٠٠) دينار وفي القرن السادس هـ (١١٤٠٠٠٠) دينار . وكان الاندلسيون يأخذون ضريبة

من السفن في ذهابها وإيابها عبر بوغاز جبل طارق عند مدينة طريف . ومنها اشتقت كلمة Tariff التي تدل عند الافرنج على الرسوم التي تؤخذ على البضائع أو تدل على الكتاب المتضمن بيان لائحة الاثمان .

ح ــ العشور : وهي عشر بضائع التجار غير المسلمين حين ينقلون بضائعهم من بلاد خارجة عن سلطات المسلمين إلى بلادهم أشبه بالمكوس أو الضرائب الجمركية في الوقت الحاضر ، وكانت أحياناً تقل عن العشر أو تزيد حسب الظروف ، كما أن مما يجدر ذكره أن العشر يؤخذ على التاجر وتجارته مرة في العام ، لا في كل مرة يدخل فيها البلاد ويخرج منها كما تدفع المكوس في الوقت الحاضر ، إلا إذا اتفق على ذلك واشترط على التجار .

وكان مما نبه المسلمين إلى فرضها ، وقد كان اهل مكة في الجاهلية يجبون العشور على المتاجر التي تمر بمدينتهم ، ان والي الكوفة أبا موسى الأشعري ، كتب إلى الخليفة عمر يخبره ان تجار المسلمين الذين يتاجرون خارج المناطق الاسلامية يدفعون ضريبة مقدارها ١٠٪ على سلع متاجرهم فأجابه عمر ، بالمعاملة بالمثل ، والقيام بجباية ضريبة مماثلة على الاجانب الذين يتاجرون في البلاد الاسلامية . ويروي أبو يوسف في كتابه الخراج ، ان المسلمين لم يأخذوا ضريبة العشر على البضائع التي تقل قيمتها عن مائتي درهم ، وهذا يذكرنا بانظمة الجمارك الحالية ، وما يتعلق بمـا يحمله المسافرون معهم حين يفتشون عند اجتيازهم الحدود ، ولم يجبوا منهم أي ضريبة على ما يحملون من متاع ، وان كانت العشور على سلع التجارة التي تنقلها قوافل التجار ... كما كان المسلمون أيضاً يتناولون العشر من السفن التجارية التي تمر بموانئهم الكبرى على سبيل المرور والراحة والتموين فيها كموانىء اليمن ومضيق جبل طارق ، وهو أشبه بما تدفعه السفن حالياً من ضرائب ، عند مرورها من ترعة السويس أو امتيازها من مرفأ كبير .

وأول ما بدأ فرض العشور أي الجمارك في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ويروي قصة ذلك القاضي أبو يوسف : بان جماعة من أهل الحرب من وراء البحر كتبوا إلى عمر بن الخطاب : دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا (أي تأخذ العشور) . فشاور عمر أصحاب رسول الله ﷺ فاشاروا عليه به ، فكان أول من عشر أهل الحرب ، وبعث زياد بن حدير على عشور اهل العراق والشام .

وحدث في زمن عمر بن الخطاب كما يروي أبو يوسف : أن رجلاً من نصارى تغلب مرّ على زياد بن حدير بفرس قومت بعشرين الفاً ، فأخذ منه زياد ألفاً ، ثم مرّ راجعاً في سنته فقال زياد : اعطني ألفاً أخرى . فقال التغلبي : كلما مررت بك تأخذ مني ألفاً ؟ قال زياد : نعم . فسار التغلبي إلى الخليفة عمر ، فوافاه بمكة وهو في بيته فاستأذن عليه . فقال : من انت : قال : رجل من نصارى العرب ، وقص عليه قصته . فقال عمر : كفيت . ولم يزد على ذلك . فرجع التغلبي إلى زياد بن حدير وقد وطن نفسه على ان يعطيه الفاً اخرى . فوجد كتاب عمر قد سبقه اليه وفيه : من مرّ عليك فأخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئاً إلى مثل ذلك اليوم من قابل إلا أن تجد فضلاً . فقال التغلبي : قد والله كانت نفسي طيبة ان اعطيك الفاً . وإني أشهد الله اني على دين الرجل الذي بعث اليك الكتاب . واصبح كتاب عمر هذا قاعدة تحصيل العشور ، وقد اختلفت قيمتها باختلاف مذهب صاحب البضاعة ، نستدل على ذلك من قول انس ابن سيرين حيث قال : « أرادوا أن يستعملوني على عشور الابلّة (مرفأ على شط العرب) فأبيت ، فلقيني أنس بن مالــــك فقال : ما يمنعك ؟ فقلت : العشور اخبث ما عمل عليه الناس . فقال لي : لا تفعل . عمر صنعه فجعل على أهل الاسلام ربــع العشر ، وعلى اهل الذمة نصف العشر ،

وعلى المشركين ممن ليس لهم ذمــة العشر . وهكذا نلاحظ ان عمر لم يأخذ من أموال المسلمين التجارية أكثر مما يجب عليها من الزكاة ... كما يروى أن نسبة العشور تعدلت مع الزمن ، وبالنسبة لأهل الحرب أي للبلاد غير الاسلامية المجاورة لها ، قاعدة المعاملة بالمثل ، فيدفـع التجار من هذه البلاد نفس النسبة التي يدفعها التجار المسلمون حين يدخلون ديارهم للتجارة .

د ــ اخماس المعادن : والمعادن على نوعين الظاهرة والباطنة . فالظاهرة التي تبدو على وجه الارض كالكحل والملح والقار والنفط لايؤخذ عنهـا شيء . اما الباطنة فكانت الحكومة تقطعها لمن يستخرجها ولها الخمس .

هـ ــ غلة المستغلات : وهو ما يجبى لبيت المال من أسواق ومنازل وطواحين ابتناها الناس في ارض السلطان فيؤدون عنها أجرة . وبلغت في سامراء (١٠) ملايين درهم في السنة .

و ــ غلة دار الضرب : هو ما يخصص لبيت المال من دار الضرب بنسبة واحد من مئة على ما يضرب من نقود للشعب . وقد بلغت في الاندلس في عهد الامويين (٢٠٠٠٠٠) دينار في السنة .

ز ــ الاموال التي ليس لها مستحق : كاللقطة ومال من يموت وليس له وارث

ح ــ فيما يخرج من البحر : كالحليـة والعنبر . ويرى ابو حنيفة أنهـا تكون بمنزلة السمك أي لا يؤخذ منها شيء . أما القاضي أبو يوسف فيرى أن يؤخذ منها الخمس كما أفتى بذلك عمر بن الخطاب .

الواردات غير المشروعة : أورد ابو يوسف في كتاب الخراج عدداً من من الضرائب التي طلب إلى الشعب الامتناع عن تأديتها مما يدل على ان

بعض جباة الضرائب والملتزمين كنوا يفرضونها على الناس . فقد ذكر ابو يوسف بانه لايطلب من دافعي الخراج إطعام جامعي الضرائب او دفع اجور الكيل ، ولا اضافات في كمية الضريبة في السنين الخصبة ذات المحصول الممتاز ، ولا أجور الحمل ، او اثمان القراطيس التي تسجل فيها الواردات وتعليمات الحكومة ، ولا اجور المراسلات ، ولا أجور الاشخاص الذين يتنقلون بين مركز الولاية والقرى النائية .

وحض ابو يوسف الناس على عدم السكوت امام ظلم جامعي الضرائب وسوء معاملتهم ، وذكر أمثلة جباة اوقفوا الفلاحين أياماً في الشمس على أبوابهم بانتظار دورهم في الدفع ، أو ضربوا الفلاحين بقسوة ... واقترح بعد هذا كله قيام بنظام للمراقبة ، وتعيين « عيون » للولاة والخليفة يقدمون التقارير عن كل مخالفة من هذا النوع ليمنع عن الفلاحين ، الجهلاء ، والذين يخافون سطو رجال الحكم ، ان يتقدموا مباشرة بالشكوى عن كل سوء يحل بهم .

طرق الجباية : (جباية الخراج والعشر والجزية). كانت على ثلاثة أنواع:

١ ـ **الطريقة المباشرة :** وذلك ان الخليفة كان يعين إلى جانب الوالي صاحب الخراج لجمع خراج وعشر الارض والجزية . ولا يكون للوالي عليه أي سلطة . الا أن الولاة كانوا أحياناً يضمنون الخراج كما فعل يحيى ابن برمك وغيره .

٢ ـ **طريقة التضمين او التلزيم :** وذلك ان الدولة تعلن عن رغبتها في تضمين الخراج لمناطق مختلفة فيجتمع الناس من الاغنياء والمتنفذين ويلتزم كل منهم منطقة من مناطق الخراج بمال معين يقع عليه بالمزايدة . أما إذا كانت الأرض من أملاك الدولة فان الملتزم يضمن بلدة أو قرية فيزرعها ويستغلها ويدفع ما عليها من الخراج ويستولي على الباقي .

٣ ـ **طريقة المقاسمة :** وهو نظام وضعه عمر بن الخطاب وذلك أنه كان يحصى أموال الولاة قبل توليتهم ثم يلزمهم عند اعتزالهم بدفع نصف الاموال التي جمعوها أثناء ولا يتهم والتي لا تسمح بها رواتبهم . وقد فعل ذلك مع معاوية وعمرو بن العاص . كما لجأ الأمويون إلى طريقة **الاستخراج أو التكشيف** وذلك باجراء تحقيق دقيق مع الجباة وموظفي الخراج عند اعتزالهم أعمالهم الادارية، وكانوا يعذبون ليقروا بالأموال التي جمعوها واودعوها عند أهلهم وأصدقائهم . وكان مثل هذا التحقيق يتجاوز أحياناً الحدود المشروعة ويصبح وسيلة الانتقام والأخذ بالثأر وجمع المال .

وقد بلغت واردات الدولة العباسية في عصر المأمون حوالي « ٤٠٠ » مليون درهم . إلا أنها أخذت تتناقص مع الزمن حتى أصبحت نصف هذا المبلغ تقريباً .

نفقات الدولة : لقد نص القرآن الكريم على أوجه صرف بعض موارد بيت المال كالغنيمة والفيء والزكاة مما ذكرناه في حينه . أما بقية واردات الدولة فكانت تنفق في سبيل تأمين مصالح الحكومة من نفقات للخليفة ورواتب للقضاة والولاة والعمال وغيرهم من الموظفين ، واعطيات الجند وتأمين المعدات الحربية وكري الانهار واصلاح مجاريها وحفر الترع واقامة الجسور وإطعام المسجونين والاسرى ودفن من يموت منهم واقامة المستشفيات وغير ذلك . ويعود تنظيم العطاء ، وهو احد اوجه نفقات الدولة الرئيسية الى عمر بن الخطاب الذي استهدف به مصلحة المجتمع الاسلامي العامة الدائمة ، دون مصلحة مجرد المقاتلين الذين حصلوا على الغنائم او ساهموا بالجهاد ، فأمر بتوزيع واردات المقاطعات التي تم ضمها للامبراطورية الاسلامية الغنية في عهده على كافة المقاتلة سواء من ساهم بالقتال او من كان مستعداً للمشاركة في المعارك المقبلة . وفي المصادر العربية

تفاصيل وافية عن الاسس التي اتبعها عمر في توزيع العطاء في المدينة المنورة ، وفي بقية المدن والامصار . ففي عاصمة المسلمين جعل عطاء الناس بحسب اسبقيتهم للاسلام ، فمن اسلم قبل بدر كان عطاؤه اكبر ممن اسلم بعد بدر ، وهذا عطاؤه اكثر من عطاء من اسلم بعد الحديبية . . . (وفي الطبري وابي يوسف شرح وافٍ لذلك) امـا في العراق والشام ومصر فجعل لمقاتلة المعارك الكبرى النصيب الاوفى ، ثم يتدنى النصيب كلما قلت المساهمة في القتال ، ولم يهمل سكان البلاد الاصليين من نصيبهم في العطاء اي من حقهم في اموال الدولة . . . ويروى ان احد المسلمين انتقد يوماً ما عمر ، حين وزع جميع ما ورد على بيت المال فقال له : يا أمير المؤمنين ! لو تركت في بيوت الاموال عدة فقال عمر : كلمة القاها الشيطان على فيك . وقاني الله شرها . وهي فتنة لمن بعدي . وبالفعل فان من جاء بعد عمر من خلفاء امويين وعباسيين لم يتصرفوا بموارد بيت المال ، بل احتفظوا دائماً بمبالغ ضخمة للنوائب وما تخبئه الايام .

والغريب ان بعض الخلفاء ، كانوا يزيدون عطاء الناس يوم توليهم الحكم ، او عند استنفارهم لامر جلل ، ولمرة واحدة ، فكان ذلك بمثابة مكافآت تشجيعية او تقديرية او كسباً لعطف العامة وولائها ، وقد فعل ذلك عثمان وعلي ومعاوية ويزيد وقلدهم من اتى بعدهم من خلفاء . وكان على اهل العطاء مقابل ذلك ان يجهزوا انفسهم بالسلاح ويذهبوا للقتال.

وقد بلغت نفقات الدولة العباسية في السنة زمن المأمون (٥٠) مليون درهم . وبذلك يتبقى (٣٥٠) مليون درهم وفراً في بيت المال . والدولة التي يتبقى لديها كل سنة مثل هذا المبلغ العظيم تعد في غاية الثروة.

ولكن ذلك الوضع تبدل كثيراً فيما بعد اذ زادت النفقات كثيراً

في أدوار الانحطـــاط بسبب إسراف الخلفاء وزيادة الرواتب وتخفيف الضرائب المختلفة ، هذا من جهـة ومن جهـة أخرى تقهقرت الواردات بتقهقر الدولة وانحطت بانحطاطها فلم يبق في بيت المال الا مبالـغ بسيطة ثم صار الامر في أيام المطيـع بالله سنة (٣٦١ هـ) الى ان يبيـع ثيابـه وأنقاض داره ليدفـع (٤٠٠٠٠٠) درهم طلبت منه للجند في أثناء الفتنة ببغداد.

النقـد : كنا تكلمنا في بحث الخلافة أنه كان من شارات الخلافـة ضرب النقود وأول من سك النقود العربية وجعل استعمالها اجبارياً هو عبد الملك بن مروان . اما قبل ذلك فكانوا يتعاملون بالنقود الفارسية والبيزنطية والعربية .

وكانت النقود من الذهب والفضة والنحاس . فالدنانير كانت من الذهب (الدينار لفظ لاتيني الاصل مشتق من Deni اي عشرة) . وكان يساوي وزن درهم وثلاثه اسباع ، أما قيمته فتتراوح بين (١٣) و (١٥) درهم فضة أو أكثر ، وكانت الدراهم من الفضة ووزن الدرهم من الفضة (٥٠) حبة . ويساوي الدرهم ستة دوانق ويصنـع الدونق من النحـاس ومرجـع قيمة هذه النقود كلها الى الوزن كما لاحظت .

وكان يكتب على هذه النقود اسم الله والنبي ﷺ على احد الوجهـين وعلى الوجه الثاني التاريـخ واسم الخليفة .

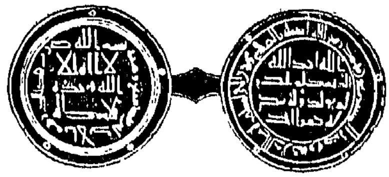
وتذكر المصادر وجود نقود عربية قبل عهد عبد الملك . يقول المؤرخ الالماني مولر أن خالد بن الوليد ضرب في طبرية دنانير على رسم وشكل الدنانير الرومية تماماً وعلى أحد وجهيها اسم خالد باليونانية وذلك سنة (١٥هـ) كما يقول أيضاً أن معاوية ضرب نقوداً ذهبيـة على مثال الدينار الفارسي وعليها اسمه . وتوجد نماذج لكلا النوعين .

ويذكر المقريزي أن أول من ضرب النقود في الاسلام عمر بن الخطاب سنة (١٨ هـ) على مثـال النقود الفارسية ، وجعل عمر وزن الدرهم ١٤ قيراطاً او سبعة اعشار المثقال ، وهو الحد الوسطي لوزن الدواهم التي كانت سائدة الاستعمال في انحاء البلاد اذ وجد ان بعضها يزن ٢٠ قيراطـاً ، وبعضها ١٢ ، وبعضها ١٠ قراريط واكـثرها مزور ، فاخذ رقما وسطاً ليجعله اساس عملته الجديدة . وكان ذلك سنة ١٨ هـ كما وجد عمر النسبة بين الدرهم والدينار لجعلها $\frac{١}{١٠}$ واصدر عثمان بعده دراهم منقوشاً عليها « الله اكبر »

كما أن الولاة كانوا يضربون النقود وخاصة في بلاد فارس . ويوجـد نماذج منها يرجـع تاريخها الى سنتي (٢٨) و (٣٨) .

دار الضرب : ولقد أوجدت دور لضرب النقود في العواصم الاسلامية وفي مراكز الولايات ، وكانت دور الضرب تتناول واحداً في المئة عن كمية الأموال التي تضربها للشعب كأجر للعمل ، وثمن للوقود ، ولو علمنا أن غلة دار الضرب بلغت في عهد أحد الخلفاء في القرن الرابـع الهجري ٢٠٠ الف دينار في العام لادركنا كمية السبائك التي يقدمها الناس لسكها نقوداً ، وكمية النقود المتداولة بين أيدي الناس وغناهم ..

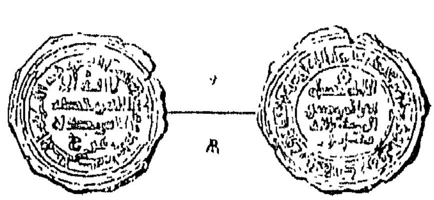
وكثيراً ما كان التزييف يتطرق الى النقود المتداولة رغم وجود قوانين من عهد عبد الملك تعاقب المزيفين بأشد العقوبات ، فيضطر أولو الامر عند ظهور أموال مزيفة إلى جمعها وضرب نقود جديدة ، من ذلك ما يذكر ابن الاثير في عهد إمرة الامراء ببغداد ، أن ناصر الدولة الحمداني « نظر في العيار فرآه ناقصاً فأمر باصـلاح الدنانير فضرب دنانير سماها الابريزية



(أ)

شكل — ٢٢ —

آ — درهم ضرب في الاندلس في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٠٧ هـ وعليه : (في المركز) « الله احد ، الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد » (في الطوق) :« محمد رسول الله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » .

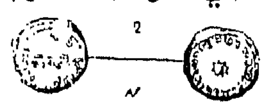


(ب)

شكل — ٢٣ —

ب — درهم آخر ضرب في الاندلس سنة ١٧٠ هـ كتب عليه : (في المركز) : « الامام هشام امير المؤمنين المؤيد بالله » . (في الطوق) : « محمد رسول الله ارسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » وعلى الوجه الآخر (في المركز) : « لا اله الا الله وحده لا شريك له » (في الطوق) ضرب هذا الدرهم بالاندلس سنة ١٧٠ هـ وعلى الوجه الآخر (في المركز) : « بسم الله ، لا اله الا الله وحده لا شريك له » (في الطوق) :« ضرب هذا الدرهم بالاندلس سنة سبعين ومية »

شكل — ٢٤ —



نقود عربية ضربت في شمالي افريقيا والاندلس كتبت بلغتين عربية ولاتينية ، يعتقد المستشرق آجيو المشرف على ديوان الاوسمة في باريز انها ضربت من قبل القواد المسلمين في أول عهدهم بهذهالبلاد . والكتابة اللاتينية تشمل نصوصا دينية اسلامية .





خير من غيرها ، فكان الدينار بعشرة دراهم فبيع هذا الدينار بثلاثة عشر درهماً » .

وكانت صناعة ضرب النقود بسيطة . يؤخذ طابع من حديد تنقش عليه الكلمات التي يراد ضربها على النقود مقلوبة ثم توزن المعادن ويوضع الطابع فوق كل قطعة ويضرب عليها بمطرقة ثقيلة حتى تظهر الكتابة عليها . ويقول ابن خلدون ان كلمة السكة كانت تطلق على طابع الحديد ثم نقل هذا المعنى الى النقوش التي على النقود ثم أصبح يطلق على وظيفة وعمل ضرب النقود والنظر على استيفاء حاجاته وشروطه .



شكل — ٢٥ —

وجه دينار اموي ضرب سنة ٨٠ هـ منقوش بكتابة كوفية نصها في الوسط : « الله احد ، الله الصمد ، لم يلدولم يولد ... وفي الطوق « ضرب هذا الدينر سنة ثمنين » والدينار محفوظ في المتحف العراقي ببغداد .

الفصل الخامس عشر

المجتمع العربي الاسلامي

تشكل المجتمع الاسلامي : لم يكن قد مضى على العرب المسلمين أكثر من سنين معدودة بعد الهجرة حين خرجوا من الجزيرة وحرروا مجتمعات الشام ومصر وليبيا من الحكم البيزنطي ، والعراق من الحكم الساساني ، ونشروا نفوذهم على ايران الفارسية . ولم يمض بعد ذلك كبير وقت حتى امتد نفوذ الدولة الاسلامية على مملكة تمتد في آسيا من تركستان واطراف الهند إلى ايران ثم العراق والشام وأواسط آسيا الصغرى ثم الجزيرة العربية ، كما تشمل من افريقيا : مصر وشمالي السودان وبرقة وطرابلس والمغرب العربي كله ، ومن اوربا : شبه جزيرة ايبريا وصقلية وقسم من جنوبي ايطاليا . وقد كانت عناصر السكان في هذه البلاد مختلفة متباينة لا في الاصل فحسب ولكن في الحياة الاجتماعية وفي الثقافة الفكرية والاتجاهات الاقتصادية عدا تباين التاريخ واللغات والميول : **فالجزيرة العربية** كانت مهد العرب ومركز فرعيهم من قحطانيين (في الجنوب غالباً) وعدنانيين (في الشمال) مع عناصر محدودة جداً من الفرس والحبش في الجنوب . وفي **الشام :** كان السكان خليطاً من بقايا العرب القدماء كالآراميين في الداخل[1] والفينيقيين

(١) تسمى الآراميون بعد النصرانية باسم السريان نسبة الى سوريا .

في الساحل كما تتوضع بينهم في نقاط معينة من البلاد (كقيسارية وانطاكية مثلاً) عناصر هلينية ورومانية غريبة ، وتمتزج بهم فيما بين جنوب فلسطين إلى الجزيرة العليا حيث منابع نهر دجلة عناصر عربية بدوية وحضرية اهمها الغساسنة الذين **ورثوا الانباط والتدمريين** ، وكانت تنتشر في بعض المدن مجموعات يهودية صغيرة مغلقة .

وفي **العراق** كانت كتلة السكان الاساسية مكونة ، خلال العصور ، من العرب القدماء وهم ورثة الآشوريين في الشمال والكلدانيين في الجنوب مع عناصر فارسية أهم مركز لها المدائن (عاصمة الساسانيين)، وعناصر سريانية بين الحيرة وحران ، وعناصر عربية اخرى بدوية وحضرية تملأ مابين الأبلة والجزيرية العليا واهمها بنو لخم في الجنوب وبنو تغلب في الشمال .

أما **فارس** فيختلف التركيب الجنسي فيها اختلافاً اساسياً ولكن العناصر المسيطرة هي العناصر التي ندعوها لغوياً باسم الآريين وأهمها الفرس . واما في **التركستان** فالعناصر التركية من الجنس المغولي الاصفر هي السائدة .

فاذا انتقلنا الى **مصر** وجدنا ذلك المزيج المصري القديم الذي يدعونه بالقبط (والمؤلف من عناصر عربية قديمة وحامية معاً) مع مجموعات محدودة من الرومان ــ اليونان في الاسكندرية خاصة وتظهر العناصر الزنجية في **السودان** .

وفي **المغرب** تظهر العناصر التي يدعونها لغوياً بالحامية : وهي البربر . وبينها بعض المجموعات الاجنبية من بقايا الفاندال (الجرمن) والرومان وبقايا القارطاجيين الذين يعودون في أصولهم الجنسية الى العرب القدماء . كما نرى في **اسبانيا** خليطاً من العناصر التي يتكون منها السكان الاصليون من الاسبان ، محكومين من قبل مجموعة القوط الغربيين (الويز يقوط) .

ويتوزع بعد هذا كله مجموعات معينة ، مغلقة وصغيرة ، من اليهود في الشام واليمن ومصر والمغرب واسبانيا .

وقد خروج العرب من جزيرتهم فانساخوا في هذه الرقعة الواسعة من البلاد على شكل موجة أولية جرت أيام الفتح الاول في عهد عمر وعثمان وقد توضع معظمها في الشام والعراق ومصر . ثم استمر خروج العرب من الجزيرة واستمر توضعهم في انحاء العالم الذي فتحوه حتى نهاية العهد الاموي . ولئن قلت هذه الهجرة بعد ذلك فانها لم تنقطع لاسيا نحو المغرب (كتغريبة بني هلال) .

وهكذا نجد عدداً كبيراً من القبائل العربية يستقر في أبعد أنحاء المملكة العربية أي في خراسان وفي الأندلس والمغرب كما يستقر في فارس وفي العراق والشام ومصر .

وتنتقل هذه القبائل العربية من حياة البداوة إلى الحياة الحضرية المستقرة .

وبالرغم من ان المجتمع العربي الاسلامي فوجىء منذ أوائل القرن الثالث للهجرة بهجرة بدوية اخرى من أتراك تركستان تركت أثراً واضحاً في آسيا الصغرى فقط ، إلا أنها لم تؤثر غير تأثير محدود جداً في ايران والهلال الخصيب ومصر ، ولم تستطع الوصول إلى الجزيرة العربية ولا إلى شمالي افريقيا والاندلس . وهكذا بقيت الصبغة التي حملها العرب المسلمون إلى هذا العالم الواسع هي الغالبة في معظم المناطق .

فالعرب الذين توطنوا في الهلال الخصيب ومصر والمغرب لم يجدوا أي صعوبة في التوضع وفي الاندماج بعناصر السكان الموجودة في هذه المناطق ومعظمها تتفق معهم في الاصل أو في اصول اللغة وتضافرت عوامل عدة لجعل هذه العناصر تستعرب نهائياً :

اولها : انتشار اللغة العربية بجانب الدين الاسلامي انتشاراً تدريجياً مستمراً خلال القرنين الاولين للهجرة خاصة .

ثانيها : اختلاط العرب جنسياً بالزواج والمصاهرة والتسري ؛ واجتماعياً بالمساكنة والمعاملة مع العناصر الاخرى فتغلبوا عليها .

ثالثها : الحكم العربي واستئثار العناصر العربية بقوة الحكم وشرف حمل الديانة الاسلامية للناس . مما اخضع لها العناصر الاخرى وجعلها تقر لها بالفضل وتحاول ادعاء النسب العربي بأي شكل .

على ان العناصر العربية التي توضعت في خراسان وفارس وتركستان لم تستطع ان تتغلب على المجموعتين الآرية والمغولية فذابت فيها منذ القرن الرابع الهجري كما أنها اخرجت من الاندلس بعد انهيار الحكم العربي هناك في القرن الثامن الهجري (الخامس عشر م) واستؤصلت بمختلف الوسائل ، فلم يبق سوى الآثار الرائعة والتأثيرات العميقة التي لخصها الشاعر الاسباني المعاصر (فيلاسباسا) في قوله : لو حكّ أحدنا جلده لظهر تحته الجلد العربي .

وعلى اي حال فقد خرج من مجموع تلك العناصر المشتبكة التي ذكرناها : مجتمع اسلامي – عربي تماماً في بعض المواضع ومستعرب ثقافياً أي دينياً ولغوياً في بعض المواضع الاخرى .

٢ ـ طبقات المجتمع الاسلامي وتطورها :

قبل البدء في دراسة المجتمع الاسلامي وتطوره يحسن ان ننتبه إلى ملاحظات ثلاث :

أولهما : ان طبقات المجتمع الاسلامي لم تكن طبقات مغلقة أي

ماوصلت مرة الى درجة اقامة الحدود التي لاتخرق بين الناس . ولكنها تكونت تبعاً لبعض الاعتبارات المتحولة من اجتماعية وسياسية واقتصادية ودينية.

الثانية : ان هذه الطبقات كانت تنشأ في عصر وتموت في آخر ، ولم تحافظ واحدة منها لاعلى بقائها ولا على مرتبتها الاجتماعية خلال التطور .

الثالثة : انا سنوجه اهتمامنا لدراسة المجتمع الاسلامي الحضري وخاصة كما ظهر في العراق والشام ومصر والاندلس ؛ على انه يجب الا ننسى ان مجموعات بدوية كثيرة بقيت تعيش حياتها ، على طريقتها الاجتماعية الخاصة في قلب الجزيرة العربية وايران وتركستان. وفي صحاري مصر وليبيا وبلاد المغرب .

ـ المجتمع الاسلامي في عهد الرسول ومطلع العهد الراشدي :

اعلن الاسلام منذ أيامه الاولى تحطيم النظام الاجتماعي بين العرب ، وقرر للعرب نظاماً آخر يقوم على اسس اخرى ، وقد رمز الدين الجديد لهذا الانقلاب بكلمتي : الجاهلية والاسلام ، وما يختفي وراء الكلمتين من معان ومثل .

حطم الاسلام اولاً رابطة المجتمع القبلي القائمة على الدم والنسب ، واحل محلها رابطة الايمان والاشتراك في الدين الواحد . وهي رابطة واسعة مفتوحة الاطراف لكل من يؤمن بالاسلام . وتواترت الآيات والاحاديث التي تؤكد اخوة المؤمنين وتساويهم وتفاضلهم بالتقوى : « انما المؤمنون اخوة » .

« يا أيها الذين آمنوا إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » « المؤمنون سواسية كأسنان المشط » « لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والدين » .

وقد نظم الاسلام المجتمع الاسلامي فدعا إلى مكارم الأخلاق ،

رائدة لجميع المسلمين ، وجعل الخوف من الله في السر والعلانية اصلاً للمعاملة ، وأحل الوحدة الدينية محل الوحدة القبلية ، كما جعل المسلمين سواسية ، أكرمهم عند الله أتقاهم ، لافرق بين عربي مسلم وأعجمي مسلم ، كما جاء في الآيات والاحاديث المذكورة ، ورفع شأن المرأة فنظم أمر زواجها وطلاقها وميراثها وحقوقها ، وإن أبقى الاسلام على نظم الرق ، فقد حسن معاملة الرقيق وفتح الطريق لتحريره بأبواب عدة شجع فيها المؤمنين على الاستغناء عنه . . ووضع أصول المعاملات ، وبين علاقات الأفراد بعضهم مع بعض ومع اولي الأمر ، وأوجب الزكاة وحدد أوجه صرفها في أمور تساعد فيها الفقير والمحتاج والمسكين وابن السبيل ، وأطلق يد ذوي اليسار بالصدقات يتقربون بها إلى الله ، وأوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وكان المجتمع الاسلامي في عهد الرسول عليه السلام ، من العرب ، الذين عاصروا الثورة الاجتماعية الاسلامية ، فلما خرج العرب في عصر الراشدين من حدود الجزيرة الى الهلال الخصيب ووادي النيل ، ثم انساحوا إلى ما بعد ذلك كثرت العناصر التي صارت تؤلف المجتمع الاسلامي ، ولكن العربية بقيت غالبة ، في الدم واللغة على الأقل ، إذ كان في الشام والعراق ومصر عرب قبل الاسلام ، يتكلمون العربية ويرتبطون بابناء الجزيرة بصلة الرحم ويتصلون بهم عن طريق التجارة المستمرة ، والوفود القادمة من الجزيرة إلى الاطراف وعن طريق الشعراء . ولم يكن ابناء هذه البلاد من غير العرب غرباء عن العرب وعن لغتهم ، فقد كانوا على اتصال دائم بهم ، حين يقدمون مع قوافل التجارة ، وكان لعرب الحجاز مراكز خاصة بهم ، فغزّة كانت مقراً لبعض تجار قريش ، وبصرى الشام تحتفظ لهم في سوقها بامكنة خاصة ؛ والحيرة عربية بدمها ولحمها ،

وصحراء مصر الشرقية ومدنها الرئيسية غاصة بالعرب . وما قصة عمرو بن العاص ، حين كان شابا في مصر ، قبل الاسلام ، الا دليل على ارتياد العرب هذه الديار وصلتهم الوثيقة باهلها ..

واللغة العربية نفسها ، لم تكن غريبة على الجمهرة الغالبة في هذه المناطق الجديدة ولم يكن تعلمها صعباً على الناس الذين انضمت بلادهم الى الدولة العربية الناشئة ، لان اللغة العربية احدى اللغات السامية ، وأكثر اللغات المحلية كانت وريثة اللغات السامية القديمة التي كان يتكلم بها ابناء الدول العربية القديمة ، عدا مراكز في المدن غلبت عليها اليونانية في الشام ومصر ، والفارسية في العراق ، وكان أبناء هذه المراكز أسرع العناصر اقبالاً على تعلم العربية للاحتفاظ بمركزهم الاجتماعي والمالي والادبي والسياسي الذي كان لهم ، وكان الذين دخلوا في الاسلام من جميع الطوائف والأجناس مالوا إلى تعلم العربية لعامل آخر ، هو حفظ القرآن واداء الصلاة ، فسرعان ، لعوامل متعددة ، ان سيطرت العربية في انحاء الامبراطورية الجديدة ، ونتج عن التزاوج الخصب بين العرب القادمين من الجزيرة ، وسكان البلاد الجديدة ، جيل جديد ، ينتمي من حيث الدم إلى الجنس العربي ، وهكذا تعربت الدولة ، كما غلب عليها ، الاسلام ، وإن بقيت اقليات من أهل الكتاب حافظت على عقائدها أو مذاهبها الدينية السابقة . وحتى العادات والتقاليد وأنظمة الحكم ، التي أقبل عليها عرب الجزيرة يقتبسونها ويمارسونها فانها تقاربت لاجتماع عدد من مختلف الأجناس في بيت واحد ، فقد عمل التزاوج بغير العربيات والتسري بالرقيق عمله في التقريب الاجتماعي والفكري ، كما عمل انتقال القبائل العربية الى مختلف المناطق على مثل ذلك من تقارب وتفاعل ..

لم تكن حركة التحرير والفتوح العربية قد انتهت حين بدأ دخول

جماعات مختلفة من الاعاجم في الاسلام فتغير بذلك وصف المجتمع العربي المسلم ، وظهر فيه التميز بين المسلم العربي والمسلم الاعجمي الذي اضحى يـــدعى بالمولى . بمعنى الذين أسلموا على يـد العرب واتبعوهم وأصبحوا حلفـاء لهم . وسرعان ما عادت بهذا الشكل إلى الوجود ، منـذ مطالع العصر الاموي ، فكرة العصبية والنسب ، وعاد معها النزاع القبلي الجاهلي ما بين يمن (قحطانيين) وقيس (عدنانيين) وما بين امويين (بني أمية) وهاشميين (آل علي) ...

على ان هذه الرجعة الى الجـاهلية لم تلغ الاساس الديني في المجتمـع ولكنها تواءمت معه ، وهكذا اضحينا نرى في المجتمع الاموي خاصة ظهور عدد من الطبقات ذات فروع مختلفة ، تنقسم على مستويات مختلفة أيضاً : فهناك اولاً **العرب** وفيهم الحـكم والقيادة والاولية الاجتماعية : ومنهم طبقة آل البيت وطبقة الصحابة وطبقة الفاتحين (ممن حضر القادسية او اليرموك) وطبقة الحـكام الامويين وطبقة التابعين وتابعي التابعين .. الخ كما تميزت فيهم مجموعتان متناحرتان : القيسيون واليمانيون .

وهناك ثانياً **الموالي** : وهم الاعاجم المسلمون وجلهم من الفرس وقـد نبـغ منهم العديد من علماء الدين ، وأسندت اليهم مناصب القضاء وغيرها ، بينما انصرف كثير منهم إلى الأعمال الحرة كالزراعة والصناعة .

ثالثاً **طبقة العبيد** : التي كثرت كثرة كبيرة جداً بنتيجة الفتوح . وكلهم غير مسلمين ، في الاصل ومن كان منهم مسلماً فاسلامه كان بعد الرق .

أما غير المسلمين فكانوا طبقة واحدة : تدعى **اهل الذمة** .وتشمل المسيحيين واليهود كما توسع مفهومها فشمل اصحاب الديانات غير السماوية أحياناً .وقد تمتع النصارى العرب خاصة بالمكانة نفسها التي كانت لباقي العرب يدلنا على ذلك مكانة الاخطل الشاعر مثلاً .

المجتمع في العصر العباسي :

تعدلت طبقات المجتمع في مطالع العصر العباسي لصالح الفرس خاصة بسبب اعتماد الخلافة العباسية عليهم في البدء ، وتوازت طبقتا العرب والفرس في السلم الاجتماعي ؛ على ان العصر العباسي سرعان ما أتى بطبقة حاكمة ثالثة هي المماليك الاتراك الذين تسربوا من التركستان الى الجيش ثم الى البلاط حتى سيطروا على مصائر الخلافة . واضمحلت في غمرة النزاع العام والاختلاط المستمر العصبية القومية ، بينما كان التطور الاقتصادي يصهر الفروق الاجتماعية لاسيما في العراق ليخلق مجتمعاً مدنياً جديداً يقوم التمايز الاجتماعي فيه على اساس المال من جهة وسلطة الحكم من جهة اخرى . وهكذا ظهرت بصورة خاصة في الشرق طبقتان اساسيتان :

الخاصة : وهم عدا الخليفة افراد البيت المالك وكبار القواد ورجال الدولة وكبار التجار والقضاة ، والاقطاعيون والموسرون واتباع هذه الطبقة من جند وخدم وعبيد وخصيان وشعراء .

العامة : وهم بقية أفراد المجتمع وطبقاته من التجار الصغار والصناع والمزارعين والباعة والفنانين والاحداث (المليشيا البلدية) .

وقد وجدت نتيجة فساد التنظيم الاجتماعي طبقة خارج الطبقات الاجتماعية من الفقراء منها **الشطار والعيارون** ونجد صدى هؤلاء واضحاً في التاريخ العباسي وفي قصص الف ليلة وليلة . ويضاف بالطبع الى هذه الطبقات طبقة **الذميين** وقد كانت ذات حرية وتقدم في شؤون العلم والاقتصاد وقد اتسع مفهومها في هذا العصر فشملت بجانب النصارى واليهود والمجوس : الصابئة .

ولئن تطور المجتمع الاسلامي في العصور العباسية المتأخرة وفي العصر

المملوكي تطوراً واسعاً وعميقاً فقد بقي محافظاً على طبقاته الاساسية وان برز في الطبقة الاولى المماليك اصحاب القوة العسكرية .

المجتمع الاسلامي في الاندلس : وقد اتبع تطوره نهجاً مختلفاً بعض الاختلاف عن المجتمع في الشرق ، فقد برزت فيه اول الامر طبقة الحكام ، ثم ظهرت بجانبها طبقة المولدين من الاسبان المسلمين وطبقة المستعربين وهم من لم يسلم من الاسبان ، وقد كانت لهم حكومتهم وادارتهم وممثلهم لدى دار الخليفة .

* * *

من طبقات
المجتمع العربي الاسلامي
١ — الموالي

الموالي : لكلمة « مولى » في اللغة معان عديدة : فهي تعني الرب والمالك ، وتعني ابن العم والعصبة كلها ، وتطلق على الناصر والحليف والصاحب والجار والشريك وعلى السيد وعلى من يعتق من العبيد . على ان الشرع الاسلامي اختص الكلمة بمعنيين فقط هما مولى العتاقة ومولى الموالاة، على ما كان معروفاً في العهد الجاهلي ثم أضحت الكلمة ، بعد الفتوح الاسلامية ، ذات معنى اصطلاحي خاص يعني : كل من اسلم من غير العرب . وقد سمي العرب هؤلاء باسماء أخرى منها : حمراء ، اعاجم ، علوج .

آ) **الموالي في عهد الراشدين والامويين :** لقد سوى الاسلام بين الناس فلم يفرق الرسول ﷺ في سياسته بين العرب والموالي ، واتبع أبو بكر نهجه نفسه ولم يرض حتى بتفضيل ذوي السابقة في الاسلام في العطاء قائلاً : « إنما ذلك شيء ثوابه على الله . وهذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة » وجاء عمر بن الخطاب فاقر تمايز الناس بعضهم على بعض بسابقتهم في الاسلام وبلائهم فيه ، ولقد أذن مرة للموالي كصهيب وبلال « من موالي الرسول » قبل أن يأذن لبعض سادات قريش « كأبي سفيان » فلما غضب هذا وقال : يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه . أسكته أصحابه .

على أن عهد التسوية هذا انتهى فجأة بصرع « عمر » على يد أحد الموالي . فبدأ استيقاظ العصبية العربية في النفوس ، وجاء عهد عثمان فزاد في قوتها بما ثار بين الامويين والهاشميين أو بين قريش والعرب أو بين العرب والعجم

من نزاع وخصومة ، فلما ولي الخلافة « علي » لم يستطع أن ينهنه من هذه العصبية بل كان عمله على مكافحتها سبباً من أسباب انصراف بعض العرب عنه . ولما جاء العهد الاموي توطـدت في نفوس العرب فكرة أفضليتهم على الناس جميعاً لاسباب عدة : لأنهم أولاً مادة الاسلام : فيهم ظهر الدين ومنهم كان رسول الله وهم السابقون إلى الاسلام والمتفضلون على غيرهم بنشره ونقلهم من الكفر إلى الايمان . ولغتهم هي لغة القرآن .

ولان العرب ثانياً فتحوا بـلاد الموالي بالسيف وهزموا دولتي الفرس والروم عنوة ومنوا عليهم بعـدم الأسر والرق . وهدوهم الى الايمان والاسلام وأخيراً لان حكم الدولة كان في العرب فالخليفة والولاة والقواد وحملة الدين كانوا منهم . ويمكن أن نضيف إلى هذا أيضاً أن الموالي أنفسهم أقروا للعرب بالفضل وتركوا لهم المكان الأول في المجتمع . وزادت العصبية القبلية التي ثارت خلال العهد الاموي بين القيسيين واليمانيين في ايضـاح الفرق بين العرب والموالي ؛ كما أن سياسة الامويين العربية أغضبت الفئة المؤمنة من عرب وموالي ، لأنهم رأوا في هذه السياسة بعداً عن الهدف الديني للفتح العربي ، وتمييزاً بين رعية يساوي بينها الإسلام .

ب) رد فعل الموالي : وقد ارتضى الموالي أول الأمر مكانهم هذا من العرب بفعل العاطفة الدينية من جهة ، ولأن معظمهم لم يكن أحسن حالاً تحت الحكم الساساني والبيزنطي من جهة اخرى ، بالاضافة إلى أن أشراف الفرس (الدهاقين) في ايران نالوا امتيازات اقتصـادية أنستهم ما خسروه سياسياً . على أن أسبابـاً عدة كانت تعمل على إثارة نقمة الموالي على الحـكم الأموي حتى اضحوا عدة جاهزة لكل حركة من الحركات السياسية والدينية المعارضة ولكل فتنة ضد الحـكم الاموي .

لم يكن الاحتقـار الاجتماعي الذي أظهره بعض الأمويـين نحوهم

هو السبب الوحيد في تلك النقمة ، فان أكثر الامويين أساؤوا إلى الموالي أيضاً في سياستهم المالية التي تقوم على الابتزاز بصورة عامة ، فقد فرضوا الضرائب الاضافية واتخذ عمالهم من الولايات وسيلة للاثراء واخذوا الجزية ممن لاتجب عليهم ، وتلاعبوا بالعطاء نقصاً وحرماناً . وقد حاول عمر بن عبد العزيز الاصلاح ففرغت خزانة الدولة من جهة ومات سريعاً فنقضت اصلاحاته من جهة اخرى ، وشعر الناس ، فيما بين الاصلاح ونقضه بأن لهم حقوقاً مهضومة .

ثم ان انتشار الاسلام وفهم الناس لمبادئه في اخوة الايمان والتفاضل بالتقوى يصطدم عمليا بالسياسة الاموية العربية . ولئن انتحل بعض الموالي النسب العربي تقرباً للعرب فان الكثرة الغالبة منهم كانت تفضل على ذلك تطبيق السياسة الاسلامية الحقة .

ولا شك أن الروح القومية قد لعبت دورها أيضاً لدى الموالي لاسيما لدى الفرس في إيران،وقد استيقظت هذه الروح باشكال دينية أحيت بعض الافكار والعقائد الفارسية القديمة والبستها أحياناً الثوب الاسلامي . وهكذا فان المؤمن من الموالي وضعيف الايمان وغير المؤمن كانوا سواء في كره الحكم الأموي .

وأخيراً فان الأحزاب السياسية المناوئة للأمويين من خوارج وشيعة عملت بصورة مباشرة على إيضاح الظلم الاجتماعي والمالي والسياسي الذي يحيق بالموالي وقد استجاب هؤلاء خاصة للدعوة الشيعية العلنية والسرية (العباسية) على السواء أملاً في الخلاص من ذلك الظلم .

لهذه الاسباب جميعاً اتجه الموالي لمقاومة الحكم القائم فقاوموه كحكم أموي وكحكم عربي وكحكم إسلامي أيضاً وسلكوا في ذلك مسالك شتى :

١) دفع إيمان الكثير منهم بالإسلام ، وذوبانه في الدعوة إلى دراسته والتعمق في تعاليمه ، فبرز في الناحية العلمية — الدينية وسرعان ما بلغ بعض

الموالي في ذلك شأوا بعيداً إذ أضحى معظم الفقهاء والعلماء في كل الامصار منهم كربيعة الرأي شيخ الامام مالك وفقيه المدينة ، ومجاهد عالم مكة وزميله عطاء بن رباح ثم سعيد بن جبير عالم الكوفة . والحسن البصري عالم البصرة ، ويزيد بن حبيب مفتي مصر ومكحول بن عبد الله في الشام . ثم حماد الراوية وسيبويه والسائب بن فروخ الشاعر. وقد أفاد الموالي من ذلك فائدتين . إحداهما السمو الاجتماعي عن طريق العلم والثانية أن بعضاً منهم قد دس على الاسلام مبادىء غريبة عنه من الديانات القديمة .

٢) ثم اتجه بعض الموالي إلى مناوأة العصبية العربية بعصبية اخرى عرفت باسم الشعوبية وهي نضال اجتماعي وفكري دافع به الموالي عن أنفسهم فبعضهم أخذ يناقش تساوي العرب مع جميع الأمم ويعرف هؤلاء بأهل « التسويه » وأكثر المتدينين والعلماء من العرب والعجم على السواء كانوا يرون التسوية تنسجم مع مبادىء الاسلام ، وربما جاء اسم الشعوبية من حجتهم بالآية الكريمة : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . كما كانت الاحاديث النبوية ترفدهم بمادة غزيرة في الدفاع عن رأيهم هذا .

وبعض الموالي ، ممن لم يدخل الايمان في قلوبهم ، أو ممن غلبت عليهم النزعة القومية اخذوا يفضلون جميع الامم على العرب ويفخرون بأصلهم الاعجمي بينما يرمون العرب بمختلف المثالب . وقد ظهرت هذه النزعة في السنوات الثلاثين الاخيرة من العهد الاموي حتى ان شاعراً من الموالي تجرأ على انشاد هشام بن عبد الملك شعراً في ذلك (جازاه عليه بان غطه في الماء ونفاه إلى الحجاز) .

وقد حاربت الشعوبية العرب باشكال مختلفة ، فهاجمت مزاياهم من شعر وبلاغة ، وعابتهم في حزبهم واستندت إلى عالمية الاسلام فسلبتهم الفخر به ، ثم

اكثر الشعوبيون من التأليف في مثالب العرب ومناقب العجم وصنفوا في ذلك تصانيف شتى منهـا الكثير من المختلق الموضوع ولئن رد العرب والمتعصبون لهم على ذلك بمثله فان هذه المعركة التي امتدت قرابة قرن (القرن الثاني الهجري) والتي ظهرت سافرة في العصر العباسي الأول تركت في الادب العربي وفي التاريخ الاسلامي وفي الدين ومختلف العلوم العربية بقايا كثيرة من التشويه والافساد .

٣) واتجه الموالي بالاضافة إلى هذين الاتجاهين الفكريين إلى السيف والثورة ايضاً . فقد كان جل أصحاب المختـار الثقفي منهم . كما كانوا مادة جيش ابن الاشعث في ثورته على الحجاج وبني امية . وثاروا مع الحارث ابن سريج في خراسان ثم اجتمعوا حول الدعوة العباسيـة السرية مع من اجتمع حولها .

وبرز منهم أبو سلمة الخلال وأبو مسلم الخراساني اللذان ساهما مساهمة اساسية مع جموع كثيرة من الموالي الفرس في نقض الحكم الاموي واقامة الحكم العباسي .

ويعد بعض المؤرخين قيام الدولة العباسية ، نصراً للفرس على العرب ، والواقع لا يؤيد ذلك . فقد ظلت الخلافة عربية . وامتدت مكافحـة المتنفذين من الفرس عهـداً طويلا في العصر العباسي الأول وصرع كبارهم على ايدي العباسيين كابي سلمة وابي مسلم والبرامكة ولكن جماهير الموالي من الفرس نقمت على العباسيين لاسيما في ايران وقامت بحركات ثورية عديدة منذ زمن المنصور . على ان الموالي كسبوا بصورة عامة ، الخلاص من السياسة العربية الاموية ، والجهر بمقاومـة العرب والفخر عليهم ، كما اعترف لهم

بالحقوق السياسية فصاروا يولون الوظائف الكبرى ، من ولاية وقيـــادة ووزارة ؛ مما جعل مكانتهم ، بالنسبة للعصر الاموي تعتبر نصراً كبيراً . ولهذا استمر الصراع بينهم وبين العرب قائماً أيام العباسيين وتجاذب البلاط العباسي حزبان : فارسي خراساني وعربي ، مالبثا أن برزا للعداء السافر العلني في الفتنـة الاخوية بين الأمين والمأمون . ومع هذا فقد انصرف المأمون عن الاتجاه للفرس منذ استقر في العاصمة بغداد . فلما ولى الخلافة أخوه المعتصم وبدأ يعتمد هو والخلفاء من بعده على عصبية جديدة من الترك كان ذلك ايـذانا بظهور النزعة العالميـة في الامبراطورية الاسلامية التي لم تعد مملكة عباسية ، ولكنها أضحت دولاً عدة يربطها الولاء الاسمي للخليفة العباسي واضحى المؤرخون يسمونها باسم : مملكة الاسلام .

من طبقات
المجتمع العربي الاسلامي
اهل الذمة

في الاسلام عدة اسماء تطلق على الجماعات غير المسلمة : فالكافرون اسم عام يطلق على كل منكر للرسالة الاسلامية ، والمشركون هم من لا يؤمنون بوحدانية الله ، واهل الكتاب هم أصحاب الكتب المقدسة من النصارى واليهود ، وقد الحق بهم في زمن عمر المجوس (الزراد شتيون) وفي زمن المأمون الصابئة (عبدة النجوم) . أمـــا الاسم الذي عم استعماله للدلالة على غير المسلمين وبصورة خاصة على النصارى واليهود ، فهو أهل الذمـة أي الذين يعيشون في ذمة المسلمين وحمايتهم .

ا) **توزع اهل الذمة في العالم الاسلامي :** ظهر الدين الاسلامي في الجزيرة العربيـة ، ومعظم من فيهـا على الشرك وبعضهم يهـود ، وقليـل منهم على النصرانية ، فلما توفي الرسول كان الشرك قـــد انتهى رسمياً بين العرب . ولكن اليهود رغم اضمحلال امورهم والنصارى معهم كانوا لا يزالون موجودين . وبالرغم من أن عمر بن الخطاب حاول بعد الفتح الاسلامي ان يجليهم عن الجزيرة كلها فلا يدع فيها الا العربي المسلم الا أن جماعة كبيرة من اليهود بقيت بصورة خاصة في اليمن .

وأما البـلاد التي فتحت ، فكانت المسيحية هي الدين السائد في العراق والشام ومصر منها وفي بعض الشمال الافريقي واسبانيا بينما ايران تدين بالديانات الفارسية من زرادشتية ومانوية ومزدكية ، وكانت مجموعات اليهود موزعة توزيعاً مختلفاً في انحاء عديدة من البلاد . وقد استطاع الاسلام ان

يكسب اليه تدريجياً معظم عناصر السكان خلال القرون الثلاثة الاولى للدولة الاسلامية ، غير أن مجموعات كثيرة اخرى بقيت على دينها الاصلي : لاسيما اقباط مصر ، والمارونيون في لبنان ، والتغالبة في الجزيرة ، والسريان في العراق وكلهم بقي على النصرانية وقسم من سكان الجبال في شمال غربي ايران الذين احتفظوا بعقائدهم المجوسية الأولى ولم يدخلوا الاسلام الا متأخرين (حوالي القرن الخامس) .

أما اليهود فقد وجدت جاليات منهم في الأندلس ومراكش وفي تونس ووجد في القاهرة (في القرن الرابع) سبعة آلاف وفي الاسكندرية ثلاثة آلاف وفي دمشق أكثر من ذلك وفي حلب خمسة آلاف ، وفي الموصل عشرة آلاف وفي بغداد الف وفي القدس أربعة فقط . كما وجد في اليمن وفارس وتركستان ويقدر السائح اليهودي (بنيامين تودلا) عددهم في القرن السادس بحوالي / ٣٠٠ / ألف عدا من في المغرب .

ب) موقف الرسول والشرع الاسلامي من الذميين : كان على الرسول ﷺ منذ بدأ الدعوة للاسلام ان يحدد موقفه من الاديان الأخرى القائمة فاما الوثنيات والأديان المشركة فقد حاربها جهاراً وكسب الرسول ﷺ في السنوات الأخيرة من حياته كل أصحابها في انحاء الجزيرة العربية . وأما أهل الكتاب من نصارى ويهود فقد كانت علائقه معهم مختلفة رغم قيامها على أساس وطيد ثابت من المحبة والتسامح ، فالنصارى ظلوا ذوي المقام الأول عند المسلمين .

أمر الرسول أصحابه بالهجرة إلى ملك الحبشة المسيحي لاجئين إليه فأحسن وفادتهم ورفض تسليمهم إلى القرشيين حين طلبوهم . وكبار النصارى الذين دعاهم الرسول للاسلام ردوا عليه رداً حسناً ، وأهداه المقوقس صاحب مصر

جارية وبغلة . وانا لنجد صدى هذه العلائق الطيبة في القرآن الكريم إذا جاء فيه :

« ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا أنا نصارى ذلك بان منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون » كما أيد القرآن المبادىء الكبرى في المسيحية .

وأما اليهود فقد كان لهم وضع آخر ، ذلك أنهم كرهوا هجرة الرسول إلى يثرب التي ينزلون فيها ، فبدأوا يجادلون المسلمين الجدل العنيف ؛ ولما بدأ ظهور الدولة الاسلامية أخذوا يكيدون لها ويتآمرون مع أعدائها : فكان موقفهم عدائياً من المسلمين عقب هزيمة أحد وقد خانوهم في اللحظات الحرجة من غزوة الخندق وثاروا على الرسول في حصونهم بمنطقة خيبر ، ثم حاولوا إضافة الى ذلك قتله وتسميمه ولهذا أخرجهم من يثرب مرة بعد مرة وحاربهم حتى أخضعهم . وانعكس ذلك العداء واضحاً في آيات القرآن الكريم « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا »

ومع هذا فقد أمر المسلمون بحسن ومجادلة الكتابيين من يهود ونصارى على السواء : فقد جاء في القرآن الكريم :

«ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » . وقد رويت عن النبي ﷺ أحاديث بحسن معاملة الكتابيين منها « احفظوني في ذمتي » ومنها « من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة ومن قتل قتيلا من أهل الذمة لم يرح رائحة الجنة » .

وما جاء في القرآن الكريم سوى آية وحيدة بتكليف أهل الذمة « أن يعطوا الجزية عن يد » لأسباب أوضحها الفقهاء فيما بعد.

وتبعاً لهذه الروح كانت معاملة الراشدين لأهل الذمة معاملة في منتهى الود. فقد أمر أبو بكر جيوشه الذاهبة لفتح الشام بحسن معاملة الرهبان واحترام البيع (الاديرة والكنائس) كما قاد عمر بن الخطاب يهودياً شيخاً بنفسه فأعطاه من بيت المال لئلا يطلب صدقة الناس، واشترى من الذميين أرضهم حين رأى اجلاءهم عن الجزيرة وأوصى أهل الشام والعراق بهم خيراً.

غير أن الذي يهمنا في عهد الراشدين ليست هذه المعاملات الفردية ولكن موقف الدولة الاسلامية جميعاً من تلك الكتل الكبيرة من الذميين الذين دخلوا في حوزتها بعد الفتح العربي الكبير. فقد اضطر عمر بن الخطاب أن يحدد علائقه معها تحديداً واضحاً وهذا ما أوجد « سياسة العهود » في الاسلام.

وقد وردت نصوص عديدة لعهود مختلفة منحها الرسول ﷺ أو الخليفة الثاني أو غيرهما لأهل أيلة أو أهل إيلياء (القدس) أو دمشق أو لأقباط مصر.. الخ وهي تحدد حقوق الذميين وواجباتهم في الدولة الاسلامية. وقد تعهدها الفقهاء بالكثير من الشرح والذكر والتفصيل. وسواء صحت هذه العهود في خطوطها الكبرى أو في تفاصيلها أو لم تصح، فانها خلاصة تاريخ طويل من العلاقات بين الدول الاسلامية وبين مجموعة كبيرة من رعاياها غير المسلمين وهي تعين لنا مكان أهل الذمة الشرعي في الاسلام.

ويتلخص ما جاء في تلك العهود بأن للذميين حق الامان في الدولة الاسلامية (وله شروطه وقيوده) على نفوسهم وأموالهم وحق الحماية الدينية

في الاعتقاد وممارسة الشعائر . وحق السكن ومزاولة الاعمال المختلفة إلا انهم مقيدون في تغيير الدين فلا تغيير الا للدخول في الاسلام ، ولا يسمح بزواج المسلمة من غير المسلم ، وهناك خلاف كبير بين الفقهاء حول قتل المسلم بالذمي وحول الديات .

أما واجبات الذمي فهي دفع الجزية وعدم الاجتماع على قتال المسلمين وعدم فتن المسلم عن دينه وعدم قطع الطريق عليه او قتله أو معونة المشركين عليه في قتال أو تجسس أو إيواء اعداء الدولة وعدم التعرض لكتاب الله أو نبيه أو للاسلام بما لا ينبغي

ح) **اهل الذمة والدولة الاسلامية :** برغم الصفة الدينية التي حملتها الدولة الاسلامية فانها في موقفها من الذميين لم تكن دولة دينية بمعنى الكلمة: وندر أن نظرت اليهم الا كمواطنين ورعاياها :

فأما عن **موقف الدولة من الكنيسة** فانها لم تعترف بها على ما يظهر الا في أواخر القرن الاول للهجرة ، ولكن منذ ذلك الوقت عادت للبطاركة مكانتهم الرسمية ولرؤساء اليهود كذلك . فصار الذميون ينتخبون رؤساءهم بانفسهم وكان الخلفاء أحيانا يصدرون المراسيم باقرار انتخابهم كأنهم موظفون حكوميون

كما كانوا يعتبرونهم الممثلين الرسميين لطوائفهم . وجاء وقت كان فيه الناس يقفون في دار الخلافة ببغداد لحاخام اليهود الاكبر الملقب « بسيدنا » كما كان يلقب الحاخام في القاهرة الفاطمية بسيد السادات « سارها تساريم » وتركت الدولة لهؤلاء الرؤساء الدينيين حق القضاء بين رعاياهم كما كانت هي بدورها تفصل في خصوماتهم .

وقد استخدمت الدولة في وظائفها أهل الذمة على نطاق واسع احيانا : ولئن كان عمر بن الخطاب قد كره استخدام اليهود فان الخلفاء من بعده قد

استعملوا الذميين في مختلف وظائف الدولة حتى الوزارة . وقد اشتهر من موظفي الذمة في العهد الاموي سرجون الرومي ، كاتب معاوية ، واثناسيوس الرهاوي رئيس الدواوين في مصر أيام عبد الملك والذي كان ينعت بالكاتب الافخم ، وأما في العهد العباسي فنجد يهودياً اسمه موسى يكون أحد اثنين يوليها المنصور الخراج ، ونجد عدداً كبيراً من الكتاب النصارى في بلاط الخليفة ، كما نجد منهم بعض الوزراء كعبدون بن صاعد ، ونصر بن هارون (القرن الرابع) وفعل مثل ذلك الفاطميون فمن وزرائهم عيسى بن نسطورس النصراني مثلاً ومن كتابهم منشا اليهودي . وظل العرف بذلك جارياً في العهد الايوبي ثم المملوكي . على ان هذا لم يمنع رفض بعض الخلفاء كعمر بن عبد العزيز ، والمتوكل استخدام أهل الذمة كما أنه من المؤكد تماماً أنه لم يتول أحد منهم وظيفة الجباية والكتابة في المغرب والاندلس .

وأما في **الضرائب** فقد كانت الجزية أهم ما يجبى من الذميين ، وقد اختلفت مقاديرها اختلافاً كبيراً حسب العصور والاماكن ، واختلفت القواعد في فرضها والاعفاء منها ، كما اختلف نوعها ، فكانت تدفع نقداً أو غلالاً . وقد كان الذميون يحتملون مع المسلمين أعباء ضرائب أخرى متعددة : على الارض والحوانيت وغير ذلك . على ان المضايقات المالية كانت تستعمل كنوع من العقاب لبعض الذميين . وقد أبقى بعض الامويين الجزية على الذمة كتدبير مالي للحفاظ على موارد الخزينة .

د) أهل الذمة في المجتمع الاسلامي : برغم الموقف الشرعي السمح الواضح فان علاقات الذميين بالمجتمع الاسلامي لم تمض على نسق واحد خلال العهد الاسلامي الطويل وفي بقاع الاسلام المختلفة لانها كانت

تتأثر أحياناً بالاوضاع الداخلية او بأهواء الحكام أو بالاحداث الخارجية . وكثير من القيود أو الاضطهادات انما كانت تظهر بفترة وجيزة ثم تلغى كما حدث في عهد الرشيد والمتوكل والحاكم بأمر الله ولم يكثر ذلك الا في عصور الانحطاط بعد الحروب الصليبية ، على ان حسن المعاملة كانت هي الصفة الدائمة . وقد تمتع بها بصورة خاصة منذ الايام الاولى للحكم الاسلامي ، النصارى من العرب كبني تغلب فكان الاخطل الشاعر يدخل على عبد الملك بن مروان وفي عنقه صليب ذهبي ولحيته تقطر خمراً فلا يمنع من ذلك !

وبالرغم مما تذكره العهود المنقولة من عـــدم السماح للذميين ببناء الكنائس الجديدة في الاسلام ، فالذي يظهر من استقراء الحوادث التاريخية ان الكنائس ظلت تبنى وظل للذمة بصورة خاصة حق الاحتفاظ بما كان منها قائماً زمن الفتح وحق ترميمها . وقد يبنيها بعض المسلمين كالذي كان من خالد القسري سنة ١٠٥ هـ في إقامة كنيسة لأمه في الكوفة . وليس ثمة من اشارة او قرار لمنع استحداث الكنائس في العهد الاسلامي حتى أواسط القرن الثاني للهجرة ، وأول من تشدد في ذلك المتوكل (أواسط القرن الثالث هـ) ولم ينتقل الأمر إلى العامة وتبدأ بعض الاعتداءات إلا بعد ذلك وفي فترات الهياج الشعبي فقط .

وقد ذكروا أن عهود الفتح تمنع الذميين من إظهار الشعائر الدينية عامة في أمصار المسلمين ، إلا أنه حتى بعض أئمة الفقهاء لم يتشددوا في ذلك لاسيما في البلاد التي يكثر فيها الذمة . وكانت النواقيس تقرع والمواكب الدينية تسير بالرايات والصلبان والمجامر دون اعتراض إلى أن يبدو للخليفة أو الأمير أو الحاكم المحلي أن يمنع ذلك . بل أن تكرر أعمال المنع

من وقت لآخر دليل على أن العادة جرت بالتسامح في ذلك . ولدينا أوصاف كثيرة لاحتفالات الاعياد النصرانية خاصة في مصر وفي العراق وفارس . وكانت هذه الاعياد أحياناً فرصة لهو لجميع الناس .

على أن الذميين تميزوا في معظم العهود بنوع معين من اللباس وبوضع منطقة أو نحوها ، وقد كانوا يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم في العهد الاسلامي الاول ، ولعل أول من بدأ الأمر به عمر بن عبد العزيز ثم سمع الناس عن ملابس الذميين زمن الرشيد ثم المتوكل بغية عدم التشبه بالمسلمين في اللباس والركوب . ثم سمع الناس بذلك في أوامر الحاكم بامر الله الفاطمي وفي عهد السلاجقة وآل زنكي .

وقد تخصص الذميون ببعض الأعمال في المجتمع الإسلامي ، فاذا استثنينا جمهرتهم التي كانت تعمل في جميع الأعمال العادية من زراعة وصناعة وتجارة فان معظم الصيارفة والجهابذة في الشام والعراق كانوا من اليهود . كما احتكر اليهود تجارة الرقيق والخصيان بين أوروبا والحبشة وتجارة اللؤلؤ في الخليج العربي . أما الطب فكان مهنة نصرانية . والكثرة العظمى من أطباء الخلفاء كانوا من النصارى وكذلك معظم التراجمة في العصر العباسي الأول كما كان منهم الأدباء والشعراء والعلماء .

****
****
****

من طبقات
المجتمع العربي الاسلامي
٣ - الرقيق

الرق في اللغة الضعف، وفي اصطلاح الفقهاء « عجز حكمي شرع في الأصل جزاء عن الكفر » والرقيق كلمة عامة تطلق على من فقد حريته من الناس وأصبح ملك غيره . ولكنهم كانوا يدعون المسترق الأبيض مملوكاً والأسود عبداً، والنساء البيض جواري، والسود إماء، وهناك كذلك طائفة الخصيان .

ا) **الرق في الاسلام :** لم يلغ الاسلام نظام الرق الذي عرفته جميع الأمم قبل الاسلام وبعده وظل قائماً في كل مكان حتى ما قبل قرن من الزمن . إلا أنه لم يهمل الارقاء، فاعتبر حرية الانسان هي الاصل، والرق أمراً عارضاً، ولهذا حرم استرقاق المسلم المولود من أبوين حرين، واشترط في استرقاق غير المسلم أن يؤسر في حرب شرعية بعد الانذار والاشهار. وعمل على مساعدة الارقاء في التحرر بأوجه كثيرة: ففك الرقاب يأتي كفارة عن اليمين الحانث أو عن الافطار في رمضان أو وفاء بنذر أو تقرباً إلى الله أو تكفيراً عن ذنب أو التماساً للمثوبة .

كما خصص الاسلام ثمن $\frac{١}{٨}$ أموال الزكاة لفك الرقاب .

وقد سهل الاسلام سبيل التحرر فمكن للعبد أن يشتري نفسه من سيده على مبلغ من المال يؤديه في أجل محدود (وهذه هي المكاتبة) وقد أجمع الفقهاء على أنها مستحبة ويراها بعضهم واجبة متى دعا العبد سيده اليها . ويمكن تحرير العبد (بالتدبير) وهي أن يوصي السيد بأن يكون عبده حراً بعد موته .

وأوصى الاسلام أخيراً بحسن معاملة الرقيق وقد جاء في القرآن الكريم : « وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى ... وما ملكت أيمانكم ، إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً » . وجاء في الحديث الشريف : «اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم » « إخوانكم خولكم (أي خدمكم) جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يديه فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فان كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم » . وكانت آخر وصاياه ﷺ « الصلاة وما ملكت أيمانكم » وقد روي عن علي بن أبي طالب قوله : « اني لأستحي أن أستعبد إنساناً يقول ربي الله » . وقد كان من اختصاص القضاة الحكم بتحرير العبد متى ثبت أن سيده يعامله معاملة قاسية بالاضافة الى أن السيد لا يملك بيع جاريته ولا هبتها متى صارت « أم ولد » منه يعترف به . ومتى توفي أضحت حرة . وتتبين قيمة هذه الاحكام اذا قورنت بما كانت عليه أحوال الرقيق لدى جميع الامم في مختلف العصور لاسيما لدى اليونان والرومان ولدى الغرب في القرون الوسطى .

ويقول الدكتور امين الخولي :

ــ مثالية القرآن تحرم الرق وتعده سوءة من سوءات المجتمع .

ــ المدنية الحديثة تحرم الرق قولاً وتمارسه فعلاً .

ــ الاسلام سبق هيئة الامم في تنظيم حقوق الانسان

ــ لقد كان الرق واقعاً قديماً متأصلاً ، رأى العرب من حولهم ماراأوا ، وعرف العرب منه في جزيرتهم ما عرفوا . . وسلك القرآن نحوه مسلكه الثابت الواضح من التدبير الواقعي : يعترف بالواقع المشهود الى حد ما . ثم يمضي يلطف قسوته ، ويصلح بالتدريج اخطاءه . . ثم ينبه الى المثال

الراقي ويغري الانسانيـة منه بكل ما تمكنهـا به ظروفهـا ويعينها عليـه تقدمها ورقيها . . .

وفي اطار من نفحات مثالية القرآن ، تتدرج الواقعية في مقاومة الرق ، والضجر به ، والعمل للقضاء عليه ، فبعد الحث الديني على فك الرقاب ، ووعد الثواب الاخروي الكبير عليه ، في معنى يجسم المماثلة البشرية بين السادة والمسودين اذ تقول التوصية الدينية ان من يفك رقبة بالعتق يخلص من العذاب .. ويوجب الدين تحرير الرقاب في اعمال كثيرة يعرض لها الناس في معاملاتهم الحيوية ، وعباداتهم الدينية ، فهو يوجب تحرير الرقبة على انه جزاء متعين ، عنـد الافطار عمداً في رمضان ما دام عنـد المفطر رقاب محكومة .. وهو كذلك جزاء متعين في احوال من عقوبة القتل ، وفي ضرب من الاختلاف بين الزوجين بما يسمى الظهار . . كما ان تحرير الرقبة جزاء تخييري عند الحنث باليمين .. الـخ ثم يمتد التدبير العملي لتحرير الرقاب الى نظام عام يلزم الدولة برصد اعتماد في ميزانيتها من مورد ثابت هو الزكاة ، يصرف منها ١٢،٥ ٪ لتحرير الرقاب كما هو نص القرآن ..

وهكذا تدرجت الواقعية المعترفة بالرق الى بث الكراهية لهذا الرق بقوة وعنف .. ثم الى الترغيب في التحرير .. ثم الى الزام الافراد به .. ثم الى الزام الدولة ، في نظام مالي ثابت .. فهيأت بذلك كله الى مثالية تنكر الرق وتحرمه وتبتر جذوره .

ب) احوال الرقيق في العصور الاسلامية :

كان الاسر والشراء ووفاء الدين هي مصادر الرق في العهد الجاهلي ، ثم أصبـح الاسر خلال الفتوح الاسلامية هو المصدر الرئيسي وان ظل الشراء مصدراً آخر ، وأضيف اليه أن بعض خراج الولايات كان يرسل عبيـداً !

ولم يكن الرقيق كثير العدد عند العرب الجاهليين ولا في صدر الاسلام ، ولكنه كثر كثرة هائلة أثناء الفتوح الكبرى والفتوح التي تلتها ، فأي أسير وقع في يد المسلمين من الكفار المحاربين صار غنيمة ، واعتبر مالاً يوزع على المحاربين بالتخميس . وقد غالى بعض القواد فكان يستعبد كل من تقع يده عليه من الاعداء محارباً أو غير محارب حتى النساء . وهكذا : عاد موسى بن نصير من الاندلس بثلاثمائة الف رأس من السبي بعث خمسها الى الوليد بن عبد الملك ولم يسمع بسبي كهذا السبي ، وبيع الاسير بدرهم في واقعة بالاندلس سنة ٩١ هـ بينما بيع البعير بخمسة دراهم . وكان ينادى على الاسرى عشرة عشرة بعد معركة عمورية زمن المعتصم وربما بلغ ثمن الانسان بضعة دراهم . وبلغت غنائم صاحب غزنة (في القرن الخامس هـ) مائة الف نفس من الهند ! وكثر الرقيق بهذا الشكل فدخل كل بيت من بلاطات الخلفاء الى بيوت كبراء الدولة وتجارها والى أوساط الناس والجند . وبينما كان لدى الرشيد الف جارية عدا الخدم ومن اليهم جعل المعتصم من مماليكه الاتراك جيشاً يستند اليه . وكذلك فعل الايوبيون . وكان من الامور العادية أن يوجد لدى عامة الجند عبد أو أكثر ولا يعد الرجل غنياً ما لم يقتن بعض العبيد في داره وخدمته .

وكان للنخاسة أسواق خاصة في كل بلد من البلاد الاسلامية تدعى أحياناً دار الرقيق كما في بغداد . وعليها مشرف حكومي هو « قيم الرقيق » واشتهر من اسواق الرقيق الابيض سمرقند . وكان للنخاسين عملاؤهم وشهرتهم وقوافلهم ، كما كانت النخاسة صنعة قائمة بذاتها . وأهم من كان يعمل بها في البحر الابيض المتوسط : اليهود ويدعون الرهدانية . اما اثمان الرقيق فكانت تختلف باختلاف جنسه وعمره ونوعه من ذكر او انثى وقابلياته للعمل وكثرته او قلته .

وقد تنوعت اجناس الرقيق في الاسلام بتنوع البلاد التي كان يؤتي به منها . فهناك الزنوج السودان والحبش ومعظمهم من شرقي افريقيا، واوسطها وهناك الترك من مناطق تركستان، والصقالبة من روسيا وقد بلغ من شهرتهم في الاندلس ان اضحت كلمة صقلبي تعني العبد ومن هنا دخلت اللغات الاجنبية كلمة Slave و Esclave. هذا عدا الفرس من الارقاء والبربر والروم والهند والشراكسة والارمن وعدا المولدين .

وقد اخذ المسلمون عن البيزنطيين عادة استخدام الخصيان من الرقيق مع ان الشرع الاسلامي في جانب تحريمهم . والخصاء ليست عادة عربية بل هي شرقية . وكانت شائعة في العراق كذلك زمن الآشوريين والبابليين . وقد نهى الرسول عليه السلام عن الخصاء فقال : « خصاء أمتي الصوم . والصوم وجاء . وللخصاء اغراض (البيهقي في المحاسن والمساوىء) ابرزها استخدام الخصيان في دور النساء غيرة عليهن . فلما ظهر الاسلام وغلب الحجاب على اهله استخدموا الخصيان في دورهم، وكان معاوية بن ابي سفيان اول من اتخذ الخصيان لخدمته (السيوطي : تاريخ الخلفاء) ويذكر الجاحظ ان الخصي كان منتشراً بين العبيد والاحرار وبين العرب والعجم واغلب الخصيان كانوا من الصقالبة وعمليات الجب كانت تجري لهم في فرنسا غالبا يقوم بها اليهود ليربحوا اثمانهم الغالية .

واشتهر كل نوع من الرقيق بعمل، فالزنوج كانوا يعملون في اقسى الاعمال وفي الزراعة حتى لقد تجمعت منهم جموع كبرى في السواد ثارت فيما بين سنتي ٢٥٥ — ٢٧٠ ﻫ ثورة الزنج المعروفة وخربت البصرة . واستعمل الترك والصقالبة للخدمة من البيوت لحسن قوامهم وهيئتهم ومن هنا تسرب الترك من بلاطات الخلفاء، الى الجيش والقيادة واستولوا على

الدولة ، وعرف الهنود بالصناعات ، على ان اهم عمل قام بـه الرقيق وكان له اثره العميق في التاريخ الاسلامي ، هو دخول الارقاء في العمل العسكري واذا كان اول من استعملهم في ذلك هو المعتصم فأول من افسح لهم المجال للجمع بين القيادة والادارة هو الخليفة الواثق فتسلطوا على الكرسي الخلافي واقتتلوا معه ومن اجله ، ولم يقتصر ذلك على الخلافة العباسية بل حدث مثل ذلك في الخلافة الفاطمية ولحد ما في الاندلس . واستطاع المماليك عن طريق شجرة الدر المملوكة ، وزوجة آخر سلاطين الأيوبيين ، أن يستأثروا دون بني أيوب بحكم الدولة الاسلامية فيما بين مصر والشام والعراق والحجاز وبقي الأمر في أيديهم ، يتداولونه بنوع غريب من الوراثة ما يزيد عن ثلاثة قرون . حتى انهى السلطان سليم العثماني حكمهم في سنة ١٥١٧ .

ج) الجواري : (الاماء ، السراري ، السبايا ، القيان) : هن الاناث من الرقيق وإنما نفرد لهن بعض البحث لما كان لهن من شأن في التاريخ الاسلامي وأثر في الحضارة الاسلامية .

وقد كثرت الجواري في العالم الاسلامي منذ أيام الفتوح الأولى لأن الفاتحين اعتبروا السبايا من النساء غنيمة أيضاً فتقاسموهن ثم شاع شراء الجواري وتهادين وكثر فيهن امهات الاولاد حتى دخلن كل بيت وقال عربي مرة :

إن أولاد السراري　　　كثرت يارب فينا
رب أدخلني بلاداً　　　لا أرى فيها هجينا

غير أن الهجناء كثروا في العصر العباسي حتى إنا لا نجد بين خلفاء بني العباس جميعاً من ولد من أبوين عربيين سوى ثلاثة : السفاح والمهدي والأمين ، وأمهات باقي الخلفاء من الجواري : فأم المنصور سلامة البربرية ، وأم الرشيد الخيزران من خرشنه وأم المأمون فارسية تدعى مراجل ، وأم المعتصم تركية اسمها

ماردة ، وأم المستعين مخارق وأم المستضيء أرمنية . وبهذا نستطيع أن نقيس مقدار تغلغل ... ري في البيت الاسلامي . على أنهن كن يتمتعن بحريتهن المطلقة في عقيدتهن وتقاليدهن الاجتماعية . وكثير منهن كن يحتفظن برموزهن الدينية على صدورهن ويعيدن في أعيادهن .

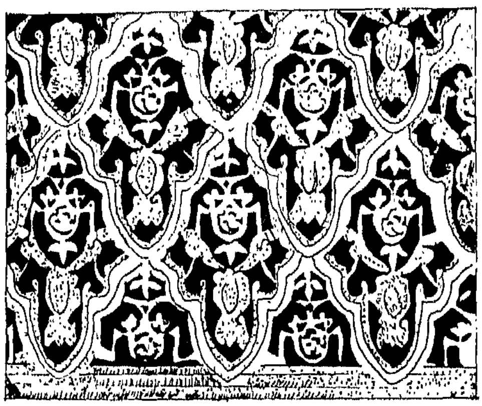
وقد اختلفت أجناس الجواري وتفرد كل جنس بمزايا وألفت في ذلك الكتب فالهنديات عرفن بالوداعة ، ومولدات المدينة بالميل للسرور والغناء ، والبربريات بكثرة النسل ، والسودانيات بالرقص ، والشركسيات والروميات بالجمال ... الخ .

واستغل النخاسون ميل الناس لاقتناء الجواري فاخذوا يعنون بهن العناية التي تزيد في قيمتهن أضعافاً مضاعفة : كانوا يعلمونهن فنون الأدب والحديث ورواية الشعر أو تلاوة القرآن وقوله . فان كانت الجارية على شيء من حسن الصوت تعلمت الغناء والضرب على بعض الآلات الموسيقية . فكان هذا باباً من أبواب الكسب الواسعة إذ ذاك ، وممن اشتهر بتعليم الجواري ابراهيم الموصلي المغني الذي ألف شركة لهذا العمل ، فربما ابتاع الجارية بمائة دينار فاذا علمها باعها بألف ، وقد عرضت جارية بثلاثمائة دينار فلما علمها ابراهيم المهدي الغناء باعها بثلاثة آلاف دينار . واشترى الرشيد جارية بتسعة وثلاثين الف دينار . واشهر هؤلاء القيان عريب المغنية وسلامة ودنانير في الشرق وولادة في الاندلس .

وقد كان للجواري أثرهن الكبير في الحياة الاسلامية : فقد كن ذوات أثر أحياناً في سياسة الدولة فالخيزران أم الهادي غضبت عليه حين أراد الحد من نفوذها وعملت على التخلص منه ؛ وشغب التركية أم المقتدر كانت المتصرفة بالدولة تصدر المراسيم وتجلس للمظالم حتى عرفت بالسيدة . وأم

المستعين الصقلبية كانت تتصرف مع اثنين من الخدم الاتراك بكل ما يرد لبيت المال !

وقد برز أثر الجواري في مزج الدماء والخلط بين الاجناس المختلفه وبين التقاليد والعادات الاجتماعية المختلفة أيضاً . هذا إلى أنهن نشرن الشعور البديعي في المجتمع الاسلامي وتذوق الجمال والظرف وأنواع البدع (المودة) كالعصائب والزنانير وتجميع الشعر . كما عملن على تقدم فن الغناء ونشره وكان لهن أثرهن في الايحاء للادباء وفن الانتاج الادبي .



من طبقات

المجتمع العربي الاسلامي

٤ ـ المرأة في الاسلام

آ) **المراة العربية في الجاهلية :** من الخطأ إعطاء حكم مطلق عن المرأة العربية في الجاهلية لأن مكانتها الاجتماعية كانت تختلف باختلاف الزمن ونوع الحياة ، والنسب والمواهب . الخ على انا نستطيع القول ان المرأة كانت تعطى بصورة عامة المكان الثاني في المجتمع البدوي لان القيم الاجتماعية عند الاعراب مبنية على أسس لا يمكن للمرأة بحكم عوامل كثيرة فيزيولوجية واجتماعية أن تحوزها . فكان عمل النساء دوماً الاحتطاب وجمع المال وحوك الثياب والخباء . فاذا كانت الحرب خرجن يشجعن الرجال وينقرن على الدف ويضمدن الجراح . ومتى امتازت امرأة بشيء مما يميز الرجال ارتفعت مكانتها كالرجل وهكذا وجدت بين نساء العرب شاعرات وتاجرات وكاهنات ذوات شرف وسيادة وشهرة كزرقاء اليامة ... وقد ارتقى مقام المرأة في المجتمع العربي الحضري حتى الى الوصول الى الحكم في الناس كبلقيس ملكة سبأ .

وقد اشتركت عوامل دينية من جهة واقتصادية من جهة أخرى للحط من قيمة المرأة في بعض المجتمعات الجاهلية حتى كان الناس يكرهون ولادة البنات قال تعالى : « واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء مابشربه . أيمسكه على هون أم يدسه في التراب . ألا ساء ما يحكمون » . ووصل الامر بهذا الكره الى ظهور « الوأد » عند العرب : وهو ظاهرة لم تكن عامة في القبائل ولكن في

بعضها فقط ولدى فقراء القبيلة وحدهم وفي سني القحط والاملاق فحسب . ويمكن ان نفهم هذا الانحطاط في قيمة المرأة اذا تذكرنا أن بين عقائد الجاهلية ما كان يجعل الانثى من خلق الشيطان — كما يلاحظ ذلك من آيات القرآن الكريم — ولعل سبب اللجوء احياناً نادرة الى الوأد هو تعرض المجتمع الجاهلي تعرضا شديداً للقحط والفقر وضرورة تحديد النسل مع فقر البيئة . وما كان الوأد خوفاً من العار كما يقولون ، ولكن « ... خشية املاق » كما جاء في القرآن الكريم .

وكانت المرأة الجاهلية في بعض القبائل تحرم الارث والمهر وقد قالوا : « لا يرث الا من يحمل السيف » بل قد يرثها الوارث كما يرث المتاع . ولم يكونوا الى هذا كله يسوون بين الرجل والمرأة في الدية والدماء .

ب) الاسلام والمرأة: أول ما أعطاه الاسلام للمرأةهو المساواة مع الرجل : قال تعالى « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » وقال « هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها » وقد تكررت معاني هذه الآيات في عدة سور .

وحمل الاسلام على من يحزن لولادة الانثى كما حرم الوأد نهائياً « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطئاً كبيراً » .

واعطى الاسلام المرأة حصة من الميراث ففرض لها نصيباً فيه هو نصف نصيب الرجل . « وللذكر مثل حظ الانثيين » وجعل المهر حقاً خالصاً لها « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة » أمر بحسن معاملة المرأة « وعاشروهن بالمعروف » .

ولعل أهم ما منحه الاسلام المرأة وسبق به أي تشريع عالمي الى اليوم أنه أعطاها الشخصية الحقوقية الكاملة : أي حق التصرف بما تملك

سواء كانت زوجاً أو أماً أوبنتاً : وسوى الشرع بينها وبين الرجل في الولاية على المال والعقود حتى لقد أجاز لها بعض الفقهاء ولاية القضاء أيضاً . وجعل الشرع لها حق قبول الزواج ورفضه كما أعطاها حق الطلاق اذا اشترطته . وأوصى بها وبحسن معاملتها كأم « وبالوالدين احساناً » وكزوج لأنها سكن الرجل ، وكابنة اذ جعل البّر بها من البر بالله . وأما اباحة الطلاق للمسلم فبالرغم من الضروريات الاجتماعية التي تبرره فمن المعروف شرعاً أنه « أبغض الحلال الى الله الطلاق . » كما وقيده الاسلام بشروط وقيود كثيرة تجعل منه الحل الاخير حين لايكون من الفراق بد . وأما قضية تعدد الزوجات الى أربعة فواضح من منطوق الآية الكريمة التي سمحت بذلك أن المقصود بها المساواة الاجتماعية للايامى ، كما أن هذا التعدد مقيد من جهة أخرى بضرورة « العدل » بين الزوجات ، هذا « العدل » الذي نص القرآن الكريم نفسه على عدم إمكانه . فكأنه جعل ذلك ممنوعاً إلا في حالات وظروف معينة .

جـ) المرأة في صدر الاسلام : بين الأوضاع الجاهلية التي جاهد الرسول ﷺ جهاداً كبيراً لقلبها : وضع المرأة . ومـــا أوضح الشرع لها من مكانة وحقوق ، بين الرسول ذلك بالمثل الطيب والسنة الملزمة ، فقد عرف عنه بين الصحابة أنه كان لين الجانب مع زوجاته ، سهل المقادة . حتى كن يراجعنه في كثير من أمره وصرن في ذلك قدوة لباقي النساء فاذا انكر زوج حق زوجته في مراجعة — كما فعل مرة عمر بن الخطاب — احتجت عليه بعمل الرسول فانكسر وسكت !

وأثر عن الرسول وصايا كثيرة بالمرأة أماً كانت أم زوجاً أم بنتاً كما أوصى بها جنساً : جاءه رجل يسأله عن أحق الناس بحسن معاملته فقال أمك وكرر ذلك ثلاث مرات . وكان يقول الجنة تحت أقدام الامهات . خيركم

خيركم لأهله . وقال أيضاً : « ساووا بين أولادكم في العطية فلو كنت مفضلًا أحداً لفضلت النساء » كما قال : « ألا فاستوصوا بالنساء خيراً » .

ولقد كان لهذا كله أثره العميق في حسن موقف المرأة في صدر الاسلام مما شجعهن على المطالبة بأجر كأجر الرجل في الجهـــاد لقاء قيامهن بالبيت . ولقد اجتمعت النساء وانتدبن عنهن إحداهن اسماء بنت يزيد الانصارية فأتت الرسول تسأله عن ذلك فأقر لهن بذلك الاجر ! وأثمر ذلك ثمرته في التسوية بين الرجل والمرأة حتى قالت عائشة ام المؤمنين « إنما النساء شقائق الرجال » فلم ينكر عليها ذلك أحد .

وكانت أمهات المؤمنين زعيمات النساء في المكانة بعد وفاة النبي ، وكانت رعاية الخلفاء الراشدين لهن تعزز من مكانة المرأة في الاسلام كما كانت معرفتهن بالرسول وبالدين تزيد في تلك المكانة . ولقد روت عائشة حديث رسول الله في حياته حتى قال : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » وكانت مرجع الناس بعد وفاته ، رجع اليها أبو بكر وعمر وعثمان في دقائق المسائل. كما هرع الناس الى أمهات المؤمنين أيام الفتنة على عثمان يسألونهن التدخل في السياسة ، وحمل الخليفة على تغيير خطته .

واذا نحن عددنا شهيرات النساء في صدر الاسلام فلا شك أنا نعد في في مقدمتهن أمهات المؤمنين : خديجة الكبرى بنت خويلد الاسدي التي يدين لها الاسلام بالشيء الكثير ، وعائشة الصديقة بنت أبي بكر التي كانت الى علمها وفضلها تتزعم حزباً كبيراً من الصحابة أيام عثمان وعلي . وهناك حفصة بنت عمر الفاروق وزينب بنت خزيمة التي كانت تكنى في الجاهلية بأم المساكين . أما باقي النساء فقد برز منهن أسماء بنت أبي بكر ، ذات النطاقين وأم عبد الله بن الزبير ، وليلى الاخيلية ، فارسة المعارك،

والخنساء الشاعرة التي تنشد النبي شعرها والتي قالت حين بلغها مصرع أولادها الاربعة في الجهاد : « الحمد لله الذي شرفني بشهادتهم » .

د) المرأة في العصر الاموي : احتفظت المرأة العربية أيام الامويين بمكانتها الاجتماعية الفضلى الا في الاماكن التي كثر فيها الجواري وهان السبي ، واختلطت تقاليد العرب فيها بتقاليد الاعاجم كالعراق مثلاً فقد ظهر بعض الهوان في امرها . ولهذا فاننا نظل نعثر في العصر الاموي على نماذج المرأة التي وجدناها في صدر الاسلام وما تتميز به من استقلال في الرأي واختلاط بالناس وعلم وأدب ومجالس حافلة . فميسون زوجة معاوية فضلت على قصر الخضراء في الشام خيمتها في البادية وسكينة بنت الحسين ، كانت دارها (صالوناً) للادباء والشعر . . الخ على أن الغزل الذي انقطع زمن الراشدين وعاقب عليه عمر الفاروق انتشر انتشاراً واسعاً حتى لم يكن كبار العلماء في مدينة الرسول ليجدوا حرجاً في سماعه وروايته. وظهر في الناس ذلك الحب البريء الذي اشتهر في بني عذرة ونسب اليهم .

ومن مشاهير النساء في العصر الاموي (عقيلتا قريش) سكينة بنت الحسين حفيدة النبي وعائشة بنت طلحة ، الصحابي المعروف ، وكلتاهما كانتا على جمال رائع وأدب غزير ورواية للشعر ودار كل منهما ندوة تجالسان فيها الاجلة من قريش والمبرزين من الشعراء . وهناك أم البنين ، زوجة عبد الملك بن مروان وقد أنبت الحجاج على قسوته ، وأم الخير رابعة العدوية البصرية من أوائل المتصوفات والمتصوفين في الاسلام . هذا عدا عزة وبثينة وليلى ، ممن شبب بهن شعراء الغزل المشهورون في العهد الاموي .

هـ) المرأة في العصر العباسي (الحجاب) : أدى تفشي الترف والمفاسد

في العصور العباسية وكثرة اختلاط الامم وعاداتها وكثرة الجواري والسراري ، الى تدني مكانة المرأة تدنياً مستمراً . ففي مطلع أيام العباسيين لم يكن هناك من فرق بين المرأة الأموية والعباسية فقد استمرت النساء ، من الطبقات العليا أو العامة على ما كان لهن من حرية وقيمة ونفوذ فيناظرون الرجال في الادب والشعر ويرافقنهم الى الحرب ويبارينهم في الموسيقى والغناء والنظم . على أن نظرة الناس الى المرأة كانت تتغير تغيراً مستمراً حتى إذا كانت أيام البويهيين والسلاجقة أضحت نظارة مهينة رافقت أفكار الناس حتى نهاية عصور الانحطاط ومطلع العصر الحديث ، وتعكس لنا قصص الف ليلة وليلة تلك النظرة السيئة إذ تجعل من المرأة مثال المكر والدسائس ومستودع الفساد والافكار السافلة . وقد جاء في رسالة بعث بها صديق (من القرن الرابع الهجري) لصديقه يعزيه بابنته : « انت الى التهنئة أقرب من التعزية . فان ستر العورات من الحسنات ودفن البنات من المكروهات . ونحن في زمن إذا قدم أحدنا فيه على الحرمة فقد استكمل النعمة وإذا زف كريمته الى القبر فقد بلغ أمنيته من الصهر » ! وتمثلت هذه النظرة لدى أبي العلاء المعري مثلاً من المفكرين وفي الامثال والحكم والقصص التي أخذ يتناقلها الناس في التحذير من المرأة وسوء سريرتها في تلك العصور . وكان من لوازم هذه النظرة المنحطة أن عزلت المرأة شيئاً فشيئاً عن المجتمع ونشأ بذلك الحجاب .

والحجاب بمعنى ستر الوجه عادة قديمة في الناس ، عرفها الرومان واليونان وعرفها الغرب في العصور الوسطى . كما عرفها العرب في الجاهلية فكان لديهم النصيف ، الذي يستر نصف الوجه ، والخمار الذي يغطي الوجه ، الا أنه كان من علامات الشرف والنبل ولم يكن عاماً في النساء ، وقد نزل الوحي بحجاب امهات المؤمنين لأنهن لسن « كأحد من النساء » أما المؤمنات فقد أمرن بأن يضربن بخمرهن ولا يبدين زينتهن ، إلا للرجال الذين حددهم

الشرع، وهكذا رسم الدين آداب الظهور في المجتمع . واستمر الامر على ذلك في صدر الاسلام وفي العهد الاموي ، وتحجبت الحرائر من النساء في العهد العباسي تمييزاً لهن عن الجواري ولأنهن أرفع من ان تقتحمهن الاعين ، وتطور هذا الحجاب الى الشكل الذي سارت عليه كثير من المجتمعات الاسلامية إلى عصر متأخر . ولا يزال في بعضها .

أما الحجاب بمعنى عزل النساء عن المجتمع ومنعهن من مخالطة الرجل فانه لم يكن موجوداً في الجاهلية ولا عرفه العرب خلال عهد الراشدين . وأول ظاهرة من هذا النوع ظهرت على يد امير مكة (خالد القسري) في خلافة سليمان بن عبد الملك فقد فرق بين الرجال والنساء في الطواف حول الكعبة . وقد اقتبس العرب هذه العادة عن الفرس وتفشت بين المسلمين في أو اخر العهد الاموي ، فلما كانت العصور العباسية وشاعت المفاسد الخلقية وكثرت الأفكار السيئة عن المرأة جعل الناس من الحجاب ضماناً للفتنة وغالوا فيه مع تقدم عصور الانحطاط فمنعت المرأة من العمل حتى كان من الفخر أنها لا تخرج من بيتها إلا إلى القبر وحرمت من العلم للدرجة التي آمنت بها أن حبسها من تعاليم الدين وحتى أضحى الحجاب سجناً حبس نصف المجتمع الاسلامي بطوعه وراء الجدران وحصر عملهن بأمور البيت وتربية الاولاد والعناية بالزوج .

ومن شهيرات النساء في العهد العباسي : الخيزران زوج المهدي وكانت أول امرأة تدخلت في سياسة الدولة . وزبيدة زوج الرشيد وكانت الى علمها وأدبها تتزعم الحزب العربي في البلاط وتبتكر مع علية بنت المهدي البدع (المودة) للنساء . وهناك كذلك (بوران) زوجة المأمون . والسيدة (شغب) أم المقتدر التي جلست للمظالم ، (وقطر الندى) بنت خمارويه التي أفقر جهازها الرائع الدولة الطولونيه . هذا إلى (شهدة) الكاتبة التي برزت في القرن السادس وكانت تحاضر في بغداد بالتاريخ والشعر ومعاصرتها أم المؤيد زينب وهي من أشهر الفقهاء ، وتقية بنت أبي الفرج الشاعرة المحدثة في عصر صلاح الدين الأيوبي .

لبـاس المرأة : تطور لباس المرأة وتنوع وتعددت أشكاله ، واختلفت أثمانه باختلاف العصور الإسلامية ، والبلدان ؛ ووضع النساء الاجتماعي والغنى المادي . وهو أمر طبيعي ، فلا يمكن أن يصلح لباس معين ، لجميع المناطق المناخية ولا لجميع الفصول ، كما لا يمكن توحيد الزي . ونوع القماش والوصف الذي نعطيه هو وصف عام ، يشذ في كثير من الحالات التي لا يمكن أن تحصى . وكانت نساء الجاهلية بشكل عام تلبس قميصاً أو سترة مفتوحة من الصدر . وفي الإسلام ، أوصى الرسول عليه السلام باستعمال العباءة الطويلة عند خروج النساء من بيوتهن ، وصرن يلبسن فوق القميص سترة ضيقة في الشتاء لتساعدهن على مقاومة البرد ، وقد تطورت العباءة الخارجية في العصر العباسي وصارت بأشكال مختلفة ، ووصلت الينا على الشكل الذي نراه عند العراقيات أو عند الشاميات ، أو عند المصريات أو عند المغربيات. والنساء منذ خلقن يملن إلى الزينة ، وقد أعطاهن الاسلام كل الحرية في اتخاذ الزينة وكن يتباهين بأفخر اللباس وأجمل الزينة وأطيب العطر ، فلقد روي أن أخت الرشيد ابتكرت « موضة » هي اتخاذ غطاء للرأس مرصعاً بالجواهر ومحـلى بسلسلة ذهبيـة مطعمة بالأحجار الكريمة ، وان زبيدة زوجته ، اتخذت المناطق (الزنانير) والنعال المرصعة بالجواهر ، واشترت ثوباً من الحرير الرفيـع الموشى بخيوط الذهب ، يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار ، وإن جهاز قطر الندى ابنة خمارويه حوى « ما لم ير مثله ولا سمع به إلا في وقته » وأفقر هذا الجهاز والحفلات التي أقيمت لها ، خزانة مصر العامة ، وقد وصف لنا أحد الكتاب حفلة من حفلات الوداع قبل سفرها إلى بغداد ، وذكر أنها ارتدت ثوباً من الحرير الابيض ووضعت على رأسها اكليل من الذهب وطرحة مرصعة بالجواهر ، وعلى أذنيهـا قرط ثقيل الوزن على شكل حلقة من الذهب ، وفي أصابعها الخواتم وفي معصمهـا سوار من الذهب المرصع بالجواهر ، وزينت وجهها بالاصباغ المختلفة فبدت في أحسن زينة . .

الفصل السادس عشر

النظام الاقتصادي

١ - الزراعة

ان عمل الخلفاء في ري الفرات يشبه اعمال الري في مصر والولايات المتحدة الامريكية واستراليا في هذا العصر .

وليم ويلكوكس (مهندس معاصر)

ان المسلمين استعملوا جميع أنواع الزراعة ، وحملوا كثيراً من النباتات الى صقلية واسبانيا ، وربوها في اوروبا ، فاحسنوا تربيتها حتى تظنها متوطنة ... ومثل ذلك الارز ، والزعفران ، والعنب والمشمش والبرتقال والنخل والهليون والبطيخ الأصفر والعطر والورد الأزرق والاصفر والياسمين والقطن والقصب .

سينيوبوس

يهتم المسلمون عند فتح اي بلد بشيئين في وقت معاً هما : بناء المسجد وتنظيم الحقل ..

قول مأثور عند الكتاب

طبيعة الجزيرة والزراعة في العصر الجاهلي : تدل البحوث والدراسات التي قام بها السياح والعلماء في بلاد العرب على أن تغييراً كبيراً طرأ على جوها ، وان هذا الجفاف الذي يكتنفها في أزماننا لم يكن على النحو الذي نعرفه في العصور التي سبقت الاسلام ، وان ذلك الجفاف كان له تأثير كبير في طبيعة شبه الجزيرة وفي حالة سكانها ، وقسا عليها فقاوم نشوء المجتمعات الكبرى وجعل أكثر بقاعها صحاري وأثر تأثيراً خطيراً في تاريخ الامة العربية وفي حدوث الهجرات .

ويذكر بعض العلماء ان هذه البقاع الصحراوية كانت في شطو من العصر الجليدي خضراء عامرة آهلة بالسكان . ويقول آخرون ومنهم تويتشل Twitchell ان مستوى سطح الماء قد هبط في شبه جزيرة العرب زهاء (٢٧) قدماً في خلال الفي عام . ويرى برترام طوماس الرحالة الشهير ان آثار السكنى على اطراف الاودية والترسبات التي تمثل قيعان الانهار تدفع إلى الاعتقاد أن هذه الاودية كانت في الحقيقة أنهاراً في يوم من الايام ينبض فيها عرق الحياة وانها كانت تغذي عدداً كبيراً من الاحياء . ويؤيد هذا الاستنتاج ماورد في كتب اليونان والرومان من وجود أنهار طويلة في بلاد العرب كالذي ذكره هيرودوت ودعاه (كورس) قال عنه انه من الأنهر العظيمة وانه يصب في البحر الأحمر . كما ذكربطليموس عن وجود نهر عظيم اسمه (لار) كان ينبع من نجران ويتجه شمالاً حتى يصب في الخليج العربي .

وتدل آثار السدود والنواظم التي ترجع إلى ماقبل الاسلام كسد مأرب العظيم والسدود التي قال عنها الشاعر الهمداني :

وبالبقعة الخضراء من أرض يحصب ثمانون سداً تقذف الماء سائلا

على أن العرب وخاصة في اليمن كان لهم علم بتنظيم أمور الارواء والاستفادة من مياه الأمطار والسيول والأنهار . ويقول الرحالة (دوتي) ان كثرة المصطلحات في اللهجات العربية الشمالية والجنوبية تدل على معرفة القوم بأنواع الآبار والسدود وغير ذلك من الوسائل التي استخدمت للحصول على الماء .

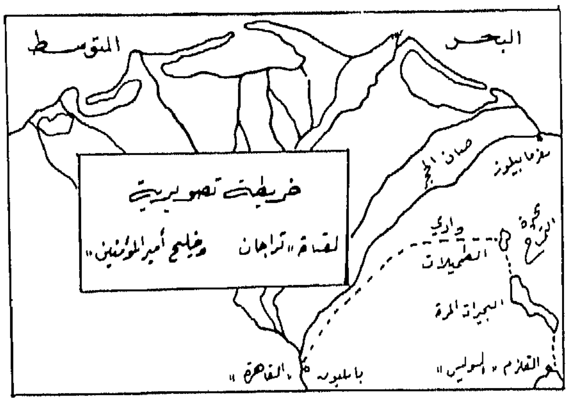
واذا أضفنا إلى ذلك ماوردته التوراة عن جنة عدن وماورد في النصوص القديمة عن وجود الاخشاب الضخمة في شبه جزيرة العرب وأنواع العطريات وأصناف الأثمار الكثيرة . ومن أن اليمانيين استثمروا جبالهم وأوديتهم وكانوا أول من زرع في العالم سفوح الجبال على شكل مدرجات . وما عثرت عليه شركة النفط العربية السعودية الأمريكية حديثاً من صهاريج أرضية متصلة بعضها ببعض لاستسقاء الماء منها في القطيف والاحساء وأواسط نجد وغيرها ، نستنتج من هذا كله أن الجزيرة العربية كانت آهلة بالسكان وان العوامل الطبيعية كانت ملائمة لحياة الانسان وان الزراعة كانت راقية مزدهرة غنية والحاصلات متنوعة متوفرة قبل ان تنتشر فيها الصحارى الحالية .

الزراعة في العصر الاسلامي : أما في العصر الاسلامي فقد بقيت الزراعة مزدهرة في اليمن وبعض المناطق الأخرى ، اما في الحجاز فلم تكن منتشرة لقلة المياه وفقر التربة . إلا أنها ازدهرت حيثما توفر الماء كما هو الحال في الطائف التي شبهت بغوطة دمشق لكثرة اشجارها المثمرة .

وكانت غالبية السكان تعتمد في حياتها على تربية المواشي والتجارة . وفي عهد النبي (ﷺ) رغم أن المسلمين كانوا منهمكين في تعلم مبادىء الدين وفي توطيد الاسلام في نواحي الجزيرة وفي الدفاع عن حياتهم

وعقيدتهم ، فانهم لم يهملوا زراعتهم وكان الرسول عليه السلام يشجع الزراعة ويقطع الأراضي غير المزروعة لمن يتعهدها بالري والاستثمار ودعا ذلك « إحياء الموات » .

هذا في الحجاز وقبل التوسع والفتوحات ، ولكن بعد ان انتشر العرب في الشام والعراق وفارس ومصر خاف عمر بن الخطاب عليهم الميل إلى الرخاء والتقاعد عن الحرب والرغبة في الزراعة والاستقرار بعد أن رأوا خصب الأرض واعتدال المناخ فأمر مناديه أن يذيع على الجنود ان عطاءهم قائم وان رزق عيالهم سائر فلا يزرعوا . ويقول ابن خلدون انه اعتمد في ذلك على الحديث القائل : « السكة (أي المحراث) ما دخلت دار قوم إلا دخله الذل » إلا أننا نشك في صحة هذا الحديث لانه يتنافى مع المبدأ الذي سار عليه النبي ﷺ في تشجيع الزراعة واحياء الموات .



شكل ـ ٢٦ ـ
مخطط يبين القناة التي كانت تصل بين النيل والبحر الاحمر وعفا عليها الزمن قبل الفتح الاسلامي لمصر ، فلما دخل المسلمون مصر ، كان من اعمالهم العمرانية أن اعادوا حفر القناة واعادوا وصل النيل بالبحر ، وعن طريق هذه القناة نقلت الميرة والمؤن لمساعدة الحجاز في عام الرمادة ــ عام المجاعة ــ في عهد الخليفة عمر بن الخطاب

والعرب الفاتحون وان لم يتعاطوا الزراعة والصناعة ولكن هذا لايعني انهم اهملوهما . لأن الحياة الاقتصادية ما لبثت ان عادت إلى أفضل مما كانت عليه سابقاً بفضل رعايتهم واهتمامهم وانتشار الامن وتنظيم الري وحماية التجارة . نضرب مثالاً على ذلك ما قام به معاوية في الشام وعمرو بن العاص في مصر من اصلاح الترع والأقنية وتأمين تصدير الفائض من المحصولات .

ولما أفضت الخلافة إلى الامويين واستقروا في الشام وطاب لهم المقام فيها وفي سائر الامصار وفضلوها عن الحجاز أغفل العرب وصية عمر فاقتنوا الاراضي والضياع . ويروى ان بعضهم ذكر في احد المجالس جود وكرم طلحة بن عبيد الله احد كبار الصحابة وكان في المجلس سعيد بن العاص . فاجاب هذا : « ان من له مثل النشاستج (وهي ضيعة في الكوفة لطلحة عظيمة كثيرة الدخل) لحقيق ان يكون جواداً ولو كان لي مثله لاعاشكم الله به عيشاً رغداً » واهتم الامويون باصلاح وترميم شبكات الري التي وجدوها في البلاد المفتوحة وخاصة في الشام ويؤثر عن الخليفة يزيد أنه أمر بحفر مجرى نهر يزيد في دمشق لارواء الاراضي المرتفعة التي لم تصلها مياه بردى .

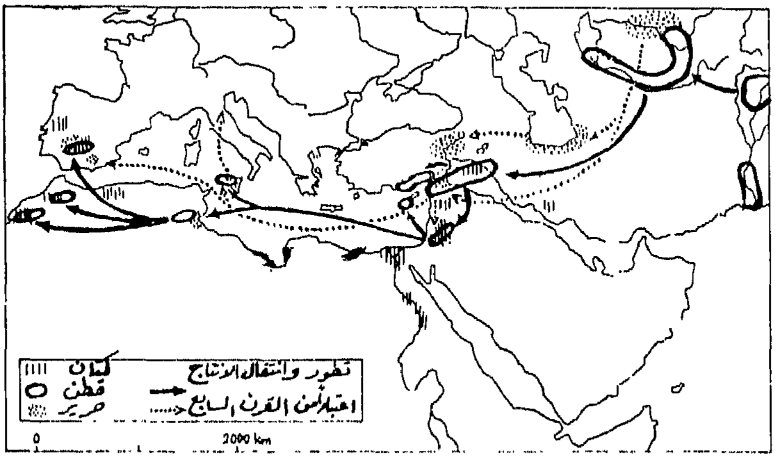
كما انهم اهتموا بتجفيف المستنقعات ، وقد فعلوا ذلك في البطائح وهي مستنقعات في أسفل العراق بين البصرة والكوفة . وقد روى قدامة بن جعفر (توفي سنة ٣٣٧ ﻫ) الكاتب البغدادي في كتابه المسمى (كتاب الخراج) : « ان مساحة المستنقعات قد اتسعت في زمن الحجاج فكتب إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يخبر ذلك وانه قدر على اصلاحها مبلغ (٣٠٠٠٠٠٠) درهم فاستكثرها الوليد فقال له اخوه مسلمة : « انا انفق على سدها من مالي على ان تعطيني خراج الأرضين المنخفضة التي يبقى فيها الماء بعد انفاق المال على ايدي ثقاتك » فرضي الوليد بذلك فحصلت لمسلمة بذلك ارضون وضياع ، وحفر نهرين سماهما السيبين وتألف الاكرة والمزارعين وعمر

تلك الأرضين واستخرج للوليد أيضاً من البطائح ثم لهشام بعده مال كثير ثم جرى الناس على ذلك إلى أواخر بني امية » .

إلا أن العمال في أواخر عهد الأمويين أخذوا يسيئون إلى أصحاب الخراج من الرعايا بما يستعملونه من العنف والعسف في تحصيلها فتشاغل الناس عن الزرع فأهملت الأرض وزادها اهمالاً نشوب الفتن والحروب في العراق وفارس وسائر انحاء المملكة الاسلامية ونقم الناس على الحكومة وابطلوا الزراعة نكاية فيها ولقلة انتفاعهم بها فأصبح معظم البلاد خراباً من الاهمال .

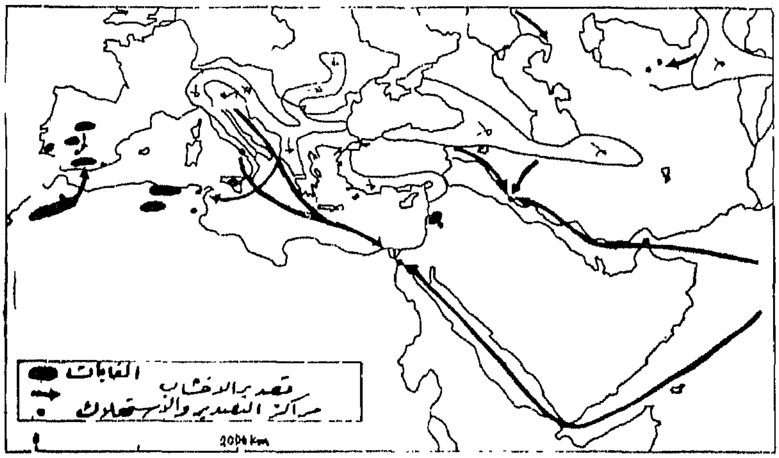
وفي العهد العباسي لما هدأت حمأة الحروب والفتن وانتشر لواء العدل بين الناس واحسنت معاملة اهل الذمة والموالي وامنوا على حقوقهم وأموالهم وأرواحهم عاد الناس إلى الاشتغال بالزراعة . وبذل العباسيون اقصى عنايتهم في كل ما يتعلق بشؤون الزراعة وراقبوا امورها مراقبة دقيقة واشرفوا على تشييد الجداول وترميمها وعلى جميع أعمال الري التي تتوقف عليها الحاصلات الزراعية . وقد كتب أبو يوسف قاضي القضاة في عهد الرشيد كتاباً عنونه إلى الخليفة يبين فيه ان من واجب الحكومة تشييد الجداول الجديدة على نفقتها الخاصة لتحسين الزراعة وتنظيف الجداول الحالية وترميمها والاشتراك في التعاون مع الشعب في تحمل نفقات صيانتها وتوزيع المياه . كما يوصي بتشكيل شرطة نهرية ذات كفاءة ممتازة .

وبلغ اهتمامهم بالري ان اوجدوا له ديواناً خاصاً عرف بديوان الماء بلغ عدد المشتغلين فيه عدة آلاف . وقد امتازت منطقة العراق بخصبها وكثرة جداولها واتقان الري فيها وقد نالت حظاً وافراً من العناية لوجود



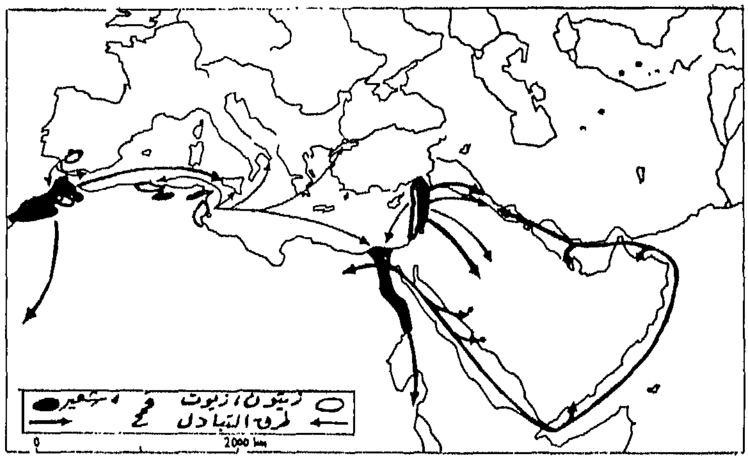
شكل — ٢٧ —

مناطق زراعة النباتات النسيجية (القطن والكتان) ومناطق تربية دود القز وانتاج الحرير في الدولة العربية الاسلامية

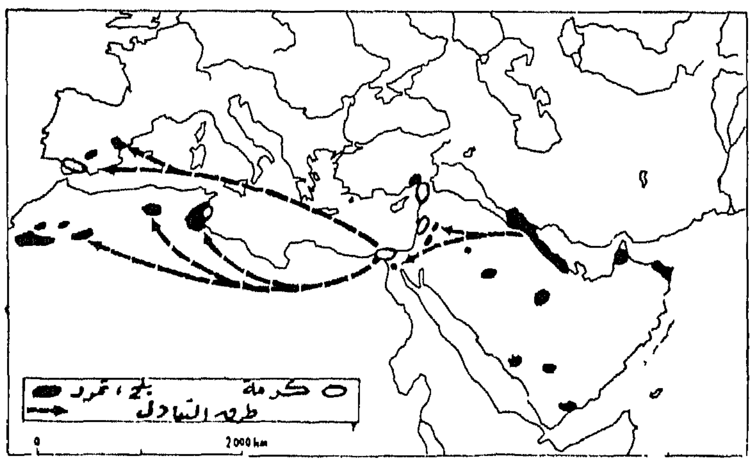


شكل — ٢٨ —

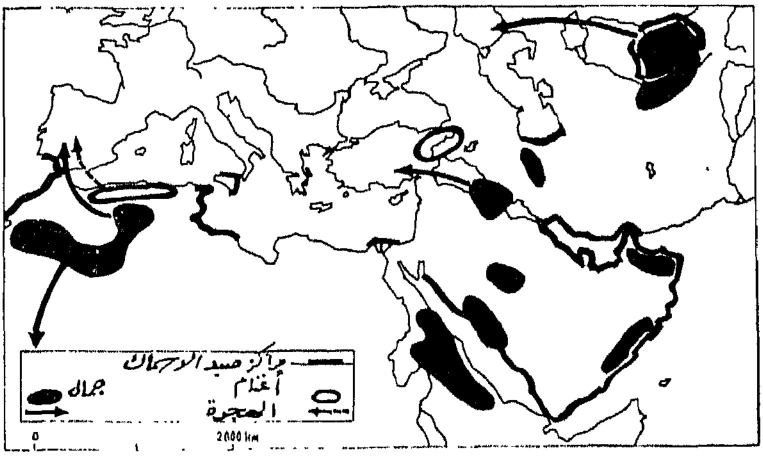
مناطق الغابات وانتاج الاخشاب في الدولة العربية الاسلامية



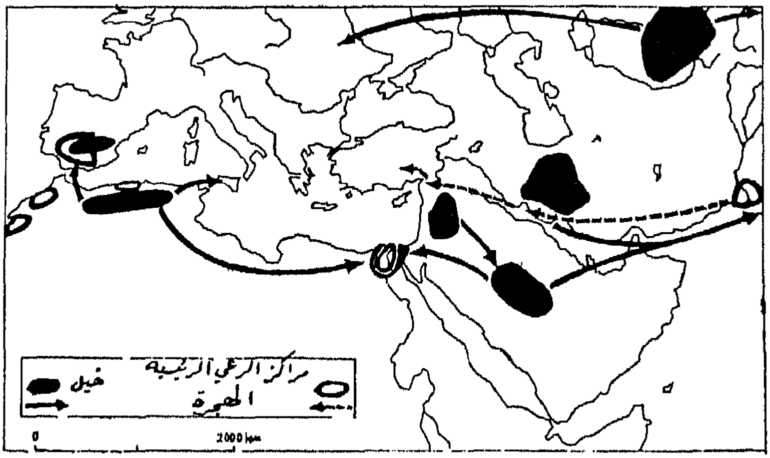
شكل – ٢٩ –
المناطق الرئيسية لزراعة الحبوب والزيتون في
الدولـــة العربيـــة – الاسلاميـــة



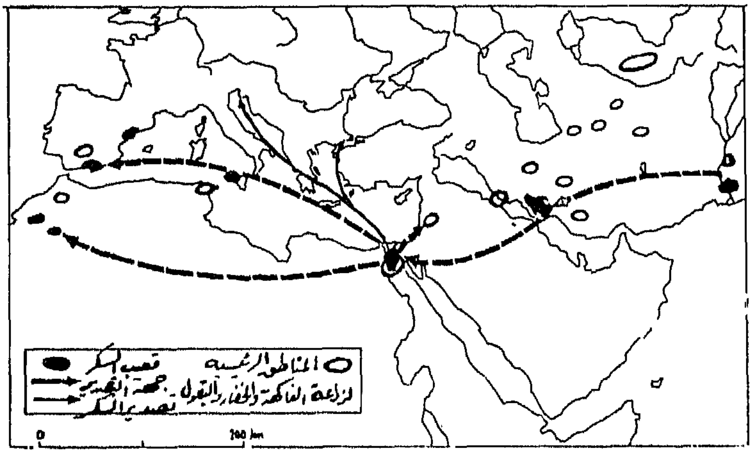
شكل – ٣٠ –
مناطق زراعة الكروم والتمور في الدولة العربية الاسلامية



شكل ـ ٣١ ـ
مراكز الرعي وتنقل الرعاة مع مراكز صيد السمك
في الــدولــة العربية الاسلامية

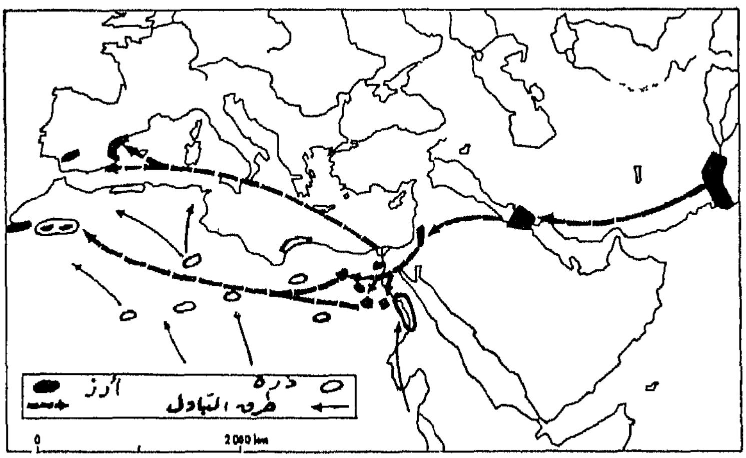


شكل ـ ٣٢ ـ
مراكز تربية الخيول والبقر الرئيسية في الدولة العربية في العهد العباسي



شكل ـ ٣٣ ـ

مناطق زراعة الخضار والفواكه والبقول مع مناطق زراعة قصب السكر واستخراجه في الدولة العربية الاسلاميــة



شكل ـ ٣٤ ـ

المناطق الرئيسية لزراعة الذرة والارز في الدولة العربية الاسلامية

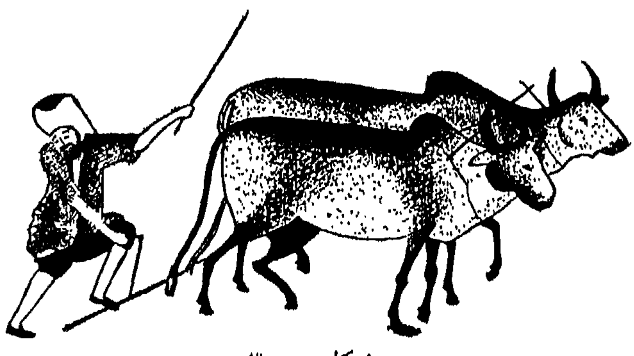
العاصمة فيها . كما أن الخلفاء عمدوا إلى تجفيف المستنقعات في البطائح حيث رشحت بنظام توشيح دقيق . واستثمرت في الزراعة وكثرت حاصلاتها . وقد قال الاصطخري : « اصبح مابين دجلة والفرات سواداً مشتبكاً غير مميز » . وقال غيره : « كان العراق وجنوب فارس يبدوان في ذلك العهد روضة غناء » . ومما يؤكد ذلك ان جباية السواد ، وهو جزء من العراق ، بلغت زمن المعتصم (١١٤ ٥٠٠ ٠٠٠) درهم حسب رواية قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي ، أي ما يعادل ثلث خراج الدولة بكاملها . ونستطيع ان نقدر قيمة هذا المبلغ إذا علمنا ان خراج مصر والاسكندرية حسب رواية قدامة ابن جعفر بلغ (٢٥٠٠ ٠٠٠) دينار أي (٣٧ ٥٠٠ ٠٠٠) درهم .

ومن أشهر المناطق الزراعية عدا سهول المغرب ومصر والشام والرافدين ، منطقة خراسان وبلاد ماوراء النهر . وهي كثيرة الخصب جداً قال عنها ابن حوقل : « لم أر ولم أسمع في الاسلام بظاهر بلد أحسن من ظاهر بلد بخارى لانك إذا علوت مرتفعاتها لم يقع بصرك من جميع النواحي إلا على مغارس تتصل خضرتها بلون السماء ، وكأن السماء ، مكبة زرقاء على بساط أخضر تلوح القصور ما بين ذلك كالتراس اللمطية أو كالكواكب العلوية بياضاً ونوراً من أراضي ضياع مقومة بالاستواء كوجه المرآة » كما قال أيضاً : « والمشار اليه من منتزهـــات الأرض سغد سمرقند ونهر الابلة وغوطة دمشق » .

استثمار الارض : ومن أساليبهم في استثمار الارض الايجار . او أن تبذر الأرض من قبل صاحبها ثم تعهد إلى فلاح بالمزارعة . أو تبذر ويشرف عليها صاحبها وتحصد من قبل الفلاح وهذا ما يدعي بالمخابرة . والفلاح يحتفظ لنفسه في الحالين بجزء معين من المحصول . وهناك أيضاً المغارسة وهي أن

يعطي صاحب الارض أرضه إلى فلاح يغرسها بالاشجار ويستفيد منها خلال سنوات معدودة وينال نصف الأرض المغروسة عند انتهاء مدة العقد . أما المساقاة فهي أن يعطي المالك بستاناً للنخيل ليروى ويسمد ويصان ويحمى من الطيور أو اللصوص مقابل حصة من الثمار بعد جنيها وتجفيفها . ويطبق نفس النظام على الكروم . وفي رأي أغلب الفقهاء أنه لا يمكن أن يطبق النظام على البساتين المكونة من أشجار أخرى . والمالك يقدم الآلات ودواب الحمل وغير ذلك . .

أما عن أدواتهم الزراعية فلا يوجد عنها شيء يذكر في المصادر التاريخية . ويوجد كتاب نادر غير مطبوع بعد وهو « كتاب الفلاحة النبطية » لابن وحشية لعل فيه ما يزيد معلوماتنا عن الزراعة وأصولها وأدواتها . وربما تكون أدواتهم شبيهة بالأدوات البسيطة المعروفة الآن في البلاد العربية . نستنتج ذلك من بعض النقوش التي وجدت في اليمن ويبدو في احدها صورة رجل من أهل اليمن يحرث الارض بالثيران وفوق الصورة كتابة بالمسند . ويلاحظ فيها أن المحراث لا يختلف كثيراً عن المحراث البسيط المستعمل في وقتنا الحاضر .



شكل — ٣٥ —
صورة اسلامية مرسومة في القرن العاشر الميلادي
تمثل فلاحاً يحرث الارض

الحاصلات الزراعية : اشتهرت بلاد الامبراطورية العربيـــة بكثرة حاصلاتها وتنوع منتجاتها وجودة أصنافها ويرجع ذلك إلى تعدد أقاليمها واختلاف جوها .

ومن أشهر حاصلات الحبوب فيها : القمح والشعير والأرز والحبوب العلفية ومن **الاشجار المثمرة والفواكه :** النخيل والبن والكرمة والتين والزيتون والخوخ والكمثرى والمشمش والجوز والسفرجل والرمان والكرز والبطيخ ومن **المزروعات الصناعية :** القطن وقصب السكر والكتان والنباتات التي يستخرج منهـــا مواد الصباغ كالنيلة والقرمز والزعفران والعصفر . كما يزرع أيضاً في فارس والشام الورد لاستخراج ماء الورد .

وبلاد الامبراطورية العربية الاسلامية على العموم فقيرة باحراجها واخشابها إلا أن بعض المناطق اشتهرت باحراجها كالشام وصعيد مصر والمغرب وخراسان .

تربية المواشي : كان يعنى بتربية المواشي عناية كبرى لانها مصدر رئيسي من مصادر ثروة سكان الامبراطورية . ويعتمدون عليها في غذائهم وتنقلهم وصناعاتهم النسيجية . وكان أهمها : الإبل وهي أكثر المواشي نفعاً لسكان الجزيرة والمغرب وفارس إذ لا يقوم مقامها حيوان في الركوب وحمل الاثقال في مناطق قليلة العشب نادرة الماء واسعة الارجاء . وأنواعها كثيرة يشتهر منها نوع سريع الجري لا يقل عن الخيل خفة وسرعة . أما **الخيول العربية** فهي ذات شهرة عالمية وصفها أحد الرحالة المستشرقين (بلغراف) بقوله : « هي عصبية رشيقة مثال الاناقة في شكلها وهي برؤوسها الصغيرة وأحداقها الوهاجة وجوانبها الممتلئة القصيرة وذيولها المتموجة وقوائمها الدقيقة المتينة عنوان الجمال ... » . واكثر ما تربى في سهول العراق والشام ونجد . وفي نجد أعزّ الخيول العربية وارشقها . **الحمير** وهي من الدواب

الشائعة للركوب بين الحضر وأهل المدن. **البغال** وهي كثيرة في اسبانية والمغرب والمناطق الجبلية . **الغنم** (ضأن وماعز) تربى بكثرة في جميع المناطق وتعتبر مصدراً رئيسياً من مصادر ثروة البلاد . **البقر** ويربى في المناطق الغزيرة المياه الكثيرة الأعشاب كما في الشام والعراق . **الجاموس** جيء به من الهند ويربى في الأماكن التي تكثر فيها المياه والمستنقعات كما في مصر والشام والعراق .

الزراعة في الاندلس : اشتهرت بلاد الأندلس بخصب تربتها وجود اقليمها وقابليتها العظيمة للزراعة . إلا أن اضطراب الأمن قبل الفتح العربي وانتشار الفوضى وضعف الحكومة واستبداد رجال الاقطاع وتطاحنهم وتأخر حالة الفلاحين الاقنان اي عبيد الارض ، أدى كل ذلك الى تقهقر البلاد وانحطاطها اداريا واقتصاديا . بما سهل مهمة العرب الذين حملوا اليها الحضارة الفكرية والمادية .

التحسينات التي أدخلها العرب على الزراعة في الاندلس : ادخل العرب والبربر الى الأندلس كل خبرتهم الزراعية ومهارتهم الفنية التي جلبوها معهم من الشام وشمال افريقيا . ولم يكتفوا بذلك بل درسوا امكانية الارض وملاءمة التربة والطقس لزرع النباتات المختلفة . كما ادخلوا نظام زراعة المدرجات في الجبال . وحسنوا وسائل الري اذ وجدوا المياه تزخر وتفيض في بعض الاوقات وتقل حتى تجف في أوقات اخرى . فحفروا الترع والمصارف العديدة لاستجلاب الماء وتوزيعه بالطرق الفنية . ولا نزال حتى الآن نجد في أسبانيا آثار الاقنية والقناطر والجسور الاسلامية . كما نجد مفردات ومصطلحات عربية كثيرة في لغة الاسبان تتعلق بالري مثل: الناعورة والساقية والسد والبركة والجب والوادي . عدا اسماء النباتات الكثيرة التي ادخلها العرب الى الاندلس ولا يزال بعضها

يعرف باسمائه العربية مثل الارز والقطن وقصب السكر والزعفران والارضي شوكي وكثير من الاشجار المثمرة كالمشمش والرمان . وعنها اخذت بقية بلاد اوروبا هذه المزروعات .

الحاصلات الزراعية : كانت اهم حاصلات الاندلس :

الحبوب : القمح والشعير والارز .

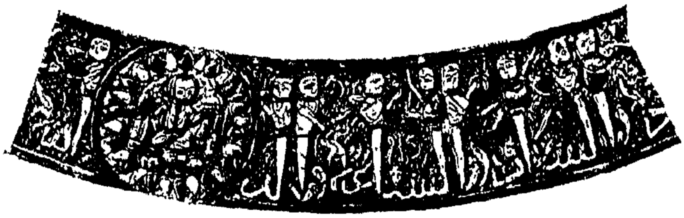
الاشجار المثمرة : الكرمة والنخيل والزيتون والرمان والبرتقال والليمون والآس واللوز والتوت .

المزروعات الصناعية :قصب السكر والكتان والقطن والقنب والزعفران وكانت **احراجها** كثيرة تشبه احراج بـــلاد الشام الساحلية وخاصة في منطقة غرناطة .

تربية المواشي : كانت تربى في الاندلس جميع أنواع المواشي المعروفة في المشرق عدا الابل . ولكثرة المراعي في وديان الانهار الكثيرة مثل نهر وادي الكبير ونهر شينيل (شنجيل والدورو) (الحدارة) ربيت الابقار والخيول والاغنام . أما في المناطق الجبلية فقد اعتنوا بتربية الماعز والبغال .



شكل — ٣٦ —



٢ – المعادن والصناعة

تمهيد – ثروة شبه جزيرة العرب قبل الاسلام : اشتهرت شبه جزيرة العرب عند القدماء بكثرة معادنها . وقد جاء خبر ذلك في التوراة في قصص داوود وسليمان وبلقيس وفي مواضع متعددة من الحكايات الواردة في اسفار التوراة . وأهم معدن يرد ذكره هو الذهب وتشير الروايات الى أماكنه في الحجاز واليمن وغيرهما . وورد في التوراة أن الاسماعيليين كانوا يستعملون اقراص الذهب . كما ورد ذكر الفضة ومعادن أخرى .

ويظهر من المؤلفات اليونانية ومن الكتب العربية ان منطقة قنفذة كانت تشتهر بوجود التبر فيها . كما ان الهمداني خصص ابحاثاً كاملة لمعادن الجزيرة وخاصة اليمن . فقد ذكر وجود الذهب والفضة والعقيق والحديد فيها . ويكثر وجود الصخور الملحية في الحجاز وعسير وجيزان وفي اليمن التي كانت تصدر كميات كثيرة منه الى الهند . وتستخرج صخوره من بعض المناجم صافية كانها بلور . والى جودة هذه الصخور الملحية في كثير من انحاء الجزيرة يجب ان يعزى ظهور قصص بناء القصور من الملح المنتشرة في كتب التاريخ والادب .

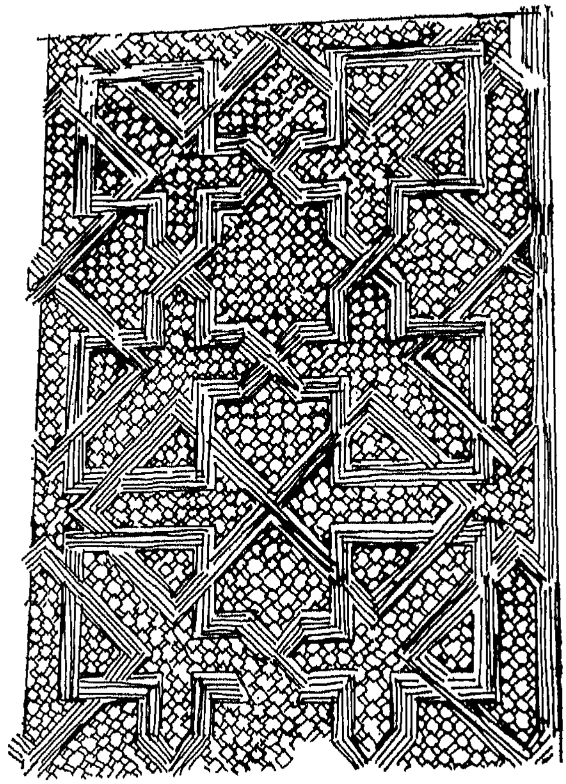
ويوجد في اليمن صخور متبلورة استعملها الجاهليون ولا تزال تستعمل

في النوافذ لتقوم مقام الزجاج . كما أن المناطق المطلة على خليج البصرة كانت تشتهر بمغاص اللؤلؤ .

المعادن واشهر اماكنها في العصر العباسي : هذا قبل الاسلام وفي شبه الجزيرة اما بعد الاسلام وخاصة في العصر العباسي فان سكان الدولة أخذوا يستثمرون المعادن من شبه الجزيرة ومن بقية انحاء الامبراطورية في الاندلس والمغرب والشام والعراق وفارس .

وسنعدد الآن أشهر المناطق التي اشتهرت بثروتها المعدنية مع ذكر أنواعها متجهين من الغرب الى الشرق :

١ـ المغرب العربي	:	الذهب والفضة ومغاص المرجان .
٢ـ مصر والسودان	:	الذهب والفضة والزبرجد والشب والنطرون
٣ـ الشام	:	الحديد (حلب ولبنان) الحمّر . الرخام (فلسطين) الكبريت (الغور) .
٤ـ الكويت والبحرين وعُمان	:	اللؤلؤ .
٥ـ الحجاز	:	الذهب
٦ـ اليمن	:	العقيق والعنبر
٧ـ كرمان	:	الذهب والفضة والحديد والنحاس والنشادر
٨ـ فارس	:	الفضة والحديد والرصاص والكبريت والنفط والقير والزئبق والكحل والملح .
٩ـ بلاد ما وراء النهر	:	الذهب والفضة والزئبق والفحم الحجري .
١٠ ـ خراسان	:	الذهب والفضة والفيروز والرخام وطين الختم والنشادر والزئبق .



شكل ــ ٣٧ ــ
نموذج من صناعة الابواب الخشبية بحشوات من الخشب
ترتب بأشكال هندسية بديعة . وهذه القطعة من أحد
أبواب مدرسة العطارين من فاس ــ المغرب



اناء من الخزف من صناعة دمشق محفوظة فيمتحف برلين ـ دالم ومصنوع في القرن الرابع عشر الميلادي وهو اناء خاص بالصيدليات . وقد برغ هـذا الاطار الفني للمرة الاولى في الاندلس ثم انتشر في بقية البـلاد الاسلاميـة ومن بعد ذلك انتقلت صناعته الى الغرب

شكل ـ ٣٨ ـ



شكل ـ ٣٩ ـ

تزيينات ذات بريق معدني ، على كأس من الخزف مصنوعة في الاندلس في عهد بني نصر (القرن الرابع عشر الميلادي) وكانت الاندلس والجزر البحرية التابعة لها ، مـركز فن البريق المعدني في العصور الوسطى ، انتقل منها الى بلدان اوروبا الغربية وخاصـة المانيـا وايطاليـا . وهـــذه الكأس محفوظـــة بمدينـــة بايـون

هذه أشهر المعادن المعروفة ذكرتها المصادر العربية باعتبار انه كان يجبي خمسها لبيت المال . وكانت الحكومة تقطع هذه المعادن اقطاعاً او تضمنها تضميناً بمال معين وقد يكون ذلك المبلغ كثيراً . اذ يذكر المقدسي ان ضمان معادن الفيروز في نيسابور (خراسان) بلغ في اواسط القرن الرابع للهجرة (٧٦٠٠٠٠) درهم تقريباً .

وكانت جباية الدولة تتألف معظم الاحيان من الاموال ومن المنتوجات التي تشتهر بها كل منطقة . يذكر ابن خلدون مثلاً انه كان يؤخذ من السودان في عصر المأمون عدا الاموال (٢٠٠)حلة من الثياب و (٢٤٠) رطلاً من طين الختم . ومن خراسان الفضة والثياب والرقيق .

اهم الصناعات ومراكزها : لم يهتم سكان شبه جزيرة العرب قبل الاسلام بالصناعة فقد اعتمدوا في حياتهم بالدرجة الاولى على التجارة وتربية المواشي ومن بعدهما على الزراعة ومن ثم على الصناعة . ولا تزال صناعتها حتى الآن ضعيفة بسيطة . واسباب ذلك : فقر بيئتهم من المواد الضرورية للصناعات ، وبساطة معيشتهم ، ونظام حياتهم القبلي . وكانوا ينتجون ما يحتاجون اليه من مواد نسيجية (ثياب وخيام) واسلحة وغيرها من الصناعات المعدنية البسيطة . وقد اشتهروا ببعض الصناعات كما هو الحال في اليمن التي عرفت بسيوفها في الجاهلية والاسلام .

أما في صدر الاسلام فقد شغل العرب بالفتوحات . ولما هدأت حمأة الحروب تملكوا الضياع واعتنوا بشؤون الزراعة واهملوا الصناعة لأن العربي كان يأنف أول عهده من العمل الصناعي ويميل الى الاشتغال بوظائف الدولة أو التجارة أو تملك الضياع والأراضي وترك المهن لأبناء البلاد الأصليين . من الامثال المتداولة « ان الحمق في أصحاب المهن والصناعات » .



شكل — ٤٠ —
صورة تزين نسخة من مخطوطة كتاب « مقامات الحريري » محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس ويشاهد فيها بائع وشاري في الاعلى ورجال ونساء في الاسفل ، وتظهر ملابس الرجال والنساء بوضوح

ولكن العرب لما أبعدوا عن الجيش والأعمال الادارية في العهد العباسي اضطروا إلى تعلم مختلف الصناعات والارتزاق منها . وقد نشطت الصناعة وازدهرت وكان من أسباب ذلك ارتفاع مستوى المعيشة،وحياةالترف والبذخ ، وكثرة الأموال ، ونشاط التجارة ، واكتمال رقي الدولة العربية بعد أن بلغت دور القوة والنضوج . وبذلك يقول ابن خلدون : « وبقدر ما تزيد عوائد الحضارة وتستدعي أحوال الترف تحدث صنائع .... ان رسوخ الصنائع في الامصار انما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها ... والصنائع منها البسيط ومنها المركب والبسيط هو الذي يكون للكماليات . »

وارتقت الصناعة بتوالي الأجيال ، وامتـــازت كل منطقة اسلامية بصناعات خاصة بها . واهم الصناعات التي اشتهرت بهـا البلاد الاسلامية :

١ ـ **الصناعات النسيجية :** على اختلاف أنواعهـــا الحريرية والصوفية والقطنية والكتانية . وامتازت كل منطقة بنوع خاص . ففارس والعراق والشـام اشتهرت **بالانسجة الحريرية المشجرة** . وكان العرب ينشؤون المصانع الجديدة اينما ذهبوا حتى أصبحوا زعماء تجارة الحرير في العالم خلال القرون الوسطى . وقد نسب بعض المنسوجات الى المدن التي تصنع فيها وعرفت بها كذلك لدى الشرقيين والغربيين فالفستان Fustian للفسطاط والداماسك لدمشق والموصلين للموصل والكوفيات للكوفة . وامتازت بلاد فارس بنوع يدعى السحل (التفتة) Taftah . واشتهرت بغداد بنوع من النسيج الحريري يدعى بالعتابي نسبة الى حي العتابية الذي كانت تقطنه سلالة عتاب حفيد أحد الصحابة . وانتقل الى اسبانيا وعرفه الفرنسيون والايطاليون باسم Tapis .

واشتهرت مصر بالانسجة الكتانية كما اشتهرت به بلاد فارس . وامتازت خراسان والعراق بالاقمشة القطنية . اما النسيج الصـوفي فكان يصنع في كل مكان ويعتمد عليه بصورة خاصة في بلاد فـارس لصنع السجاد الـتي اشتهرت بانواع عديدة منه شهرة عالمية . يضاف الى كل ذلك صناعة البسط (أرمينيا وبخارى) والستور والاغطية . وجاء في الاغاني : « انهـم كانوا يزركشون البسط والطنافس ويرسمون في اواسطها اشكالاً ورسوماً بما في البر والبحر ويطرزون حواشيها بالذهب او القصب ابياتاً من الشعر وربما طرزوا دور البساط بقصيدة ... وكان لأم المستعـين بساط عليه صورة كل حيوان من جميع الاجناس وصورة كل طائر من ذهب وأعينها يواقيت

وجواهر انفقت في صنعه (١٣٠٠٠٠٠٠٠٠) درهم .

ومن أهم المنسوجات الثمينة الخز وهو نسيج ناعم يصنع من الحرير ومن وبر ذكر الارانب . والابريسم وهو حرير خالص . والديباج وهو نسيج حريري موشى بالقصب باشكال الحيوانات ونحوها . والبز وهو نسيج قطني ثمين . وكانوا يصنعون من هذه المنسوجات الثمينة : الاقبية والدرايع والطيالسة والجبب والعمائم والابراد والغلائل والملاحف والمآزر والسراويلات والشاشيات وغيرها .

٢ً ـ **الصناعات المعدنية :** برع سكان الامبراطورية العربية بالصياغة وتكفيت المعادن (التطعيم) كتكفيت البرونز والنحاس بالذهب والفضة لخلق رسوم عليها موضوعات زخرفية مختلفة . وعرفت هذه الصناعة الدمشقية (Damascening) . كما عرفت دمشق بصناعة الاسلحة من الحديد والصلب . كما اشتهرت به اليمن ايضاً . وامتازت الموصل بصنع الادوات النحاسية التي تختص بالمائدة .

٣ً ـ **الصناعات الغذائية :** اشهرها صناعة **السكر** نقلوه من مواطنه في الهند الى بلاد فارس ومصر وانشأوا له المعامل واستخرجوا منه اصنافاً لم يكن لها مثيل . وكانت منطقة الاهواز تدفع في عهد المأمون مع الجباية (٣٠٠٠٠) رطل سكر . وامتازت الشام بزيتها كما كان يصنع بها ماء الورد الذي اشتهرت به ايضاً بلاد فارس التي كانت تقدم مع جبايتها (٣٠٠٠٠) قارورة من ماء الورد . كما كانت انواع الشراب من الفواكه والخمور تصنع في كل مكان . واشتهرت بصنع العطور مثل الشام وفارس لكثرة انواع الزهور فيها .

٤ً ـ **الصناعات المختلفة :** وهنالك صناعات كثيرة كانت موضع

اعجاب الاوربيين قرونا عديدة مثل صناعة الورق الذي اشتهرت به الشام . وازدهرت صناعته في عهد المعتصم اذ أسس المصانع وجلب لها العمال من مصر . واشتهرت البصرة في عهده بصناعة الزجاج والصابون وقد عرفت بها بلاد الشام التي كانت تصدر في مطلع القرن الثاني الهجري الزجاج الملون المطلي بالميناء الى كافة انحاء العالم . وكان يضرب بزجاج الشام المثل بالرقة والصفاء فيقال ارق من زجاج الشام . ومن الصناعات الراقية في فارس ومصر صناعة الفخار والخزف . وقد اقتبس الصناع المسلمون صناعة الخزف من الصين ثم تميزوا بأنواع خاصة بهم وهو الخزف ذو اللون الازرق الممتاز . وعرفت الشام والعراق ومصر والمغرب خاصة بصناعة الجلود وصناعة الاحذية والوسائد والسروج وجلود الكتب المزخرفة وغيرها. كما كان لصناعة المجوهرات اهمية كبرى لما تتطلبه حياة الترف والبذخ من كثرة استعماله واقتنائه . ومن الصناعات ايضاً صناعة القوارب والمراكب التي كانت تستعمل للنقل ولصيد الاسماك . وقد اشتهرت البلاد البحرية والنهرية بصيد الاسماك . وكان يجبى من ارمينيا عدا الاموال (١٠٠,٠٠٠) رطل من السونج وهو نوع من الاسماك البحرية .

معادن الاندلس وصناعاتها

المعادن : كانت الاندلس من أغنى بلاد الدولة العربية في المعادن من حيث وفرتها وكثرة انواعها وسهولة استخراجها . وقد استثمرت منذ أقدم العصور الا انها اهملت في فترة الفوضى والاضطرابات في عهد القوط. وبعد ان استتب الامر للعرب واستقروا نشطوا في استثمار معادنها المختلفة.

ولا تزال تعتبر اسبانيا في عصرنا الحاضر من البلاد الاوروبية الغنية بمناجمها تستهلك ما تحتاجه وتصدر الباقي وخاصة الحديد .

وأهم المعادن التي كانت معروفة زمن العرب هي :

الحديد والذهب والفضة والرصاص والنحاس والكبريت والياقوت والبلور والاثمد أو الكحل .

اشهر صناعات الاندلس : يقول المستشرق الاستاذ J . R . Trend « لما كانت أوربا ترزح تحت نير الجهل والفساد كان المسلمون الاسبان قد أقاموا حضارة زاهرة وحياة اقتصادية منظمة » .

كانت صناعة الأندلس لا تقل عن صناعة المناطق الشرقية للامبراطورية العربية ، في اتقانها وتنوعها وجودتها . فقد أقيم في غرناطة وطليطلة **معامل الصب والحديد** الكبيرة . وكان صنع الفولاذ الاندلسي مشهوراً في كافة انحاء العالم . وسيوف غرناطة كانت تفضل على غيرها لحسن صنعها واتقانها . وكان يصنع في مرسية **وشياً مذهباً** في غاية الاتقان وفيها أيضاً معمل **للبسط** لم يكن له نظير وآخر **للأسرّة** المرصعة . وكان **للحرير** الاسباني شهرة عظيمة ولم يكن له مثيل في تعقيده ودقة صنعه . ويقال إن العرب هم الذين ادخلوا الى اسبانيا صناعة الحرير والقطن والمصنوعات الصوفية .

وتتجلى صناعة العرب في اسمى مراتبها **في الفخار** الاسباني العربي ذي البريق المعدني الذي يعتبر بعد الخزف الصيني مباشرة في الجمال والقيمة . وهذا البريق المعدني متألق كالذهب يتراوح لونه بين الياقوتي وبين عرق اللؤلؤ والاصفر المخضر ، مع نقوش وزخرفة باللغة العربية وكان يكثر استعمال كلمة (العافية) على الأواني وبقيت تعرف بالاسبانية Alafia .

ولا يجب أن ننسى صناعة **النجارة وخاصة** الدقيقة الفنية وقد لاحظ بعض المستشرقين أنه لا يزال كثير من المصلحات الفنية للتجارة في اسبانيا عربية .

وكان في مالقة معامل **للزجاج** ونوع من **الفسيفساء** المفضضة على شكل خاص ولهم اختراع في صناعة الزجاج يؤثرونه لهم فذكروا أن أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة هو عباس بن فرناس حكيم الأندلس .

كذلك كانوا مشهورين على الأخص **بدباغة الجلود والصياغة** وتزيين الجلود بالنقوش البارزة . وقد قضي على هذه الصناعة في اسبانيا منذ خروج العرب ، ونقلت منها إلى فاس ثم إلى انكلترا حيث اطلق عليها الموروكو كما ادخلوا في اسبانيا **صناعة البارود والسكر والورق** .

ويقول ابن خلدون عن صناعة الاندلس : « ... فانا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد امصارها كالمباني والطبخ وأصناف الغناء واللهو من الآلات والأوتار والرقص وتنضيد الفرش في القصور وحسن الترتيب والأوضاع في البناء وصوغ الآنية من المعادن والخزف وجميع المواعين واقامة الولائم والأعراس وسائر الصنائع التي يدعو إليها الترف وعوائده فنجدهم اقوم عليها وابصر بها ونجد صنائعها مستحكمة لديهم فهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع الامصار ... » .

* * *

٣ ــ التجارة وطرق المواصلات

تجارة العرب قبل الاسلام : كنا ذكرنا أن سكان الجزيرة العربية كانوا يعتمدون في حياتهم الاقتصادية على التجارة بالدرجة الأولى لأن العوامل الطبيعية والاجتماعية كانت غير ملائمة للزراعة والصناعة . لذلك ركز السكان جهودهم في استثمار موقع بلادهم التجاري الممتاز . فالجزيرة تحتل مركز القلب من العالم القديم ولا يمكن أن يتم اتصال في البر والبحر إلا عن طريقها وبواسطة سكانها .

والمصادر القديمة كالمصرية والعربية واليونانية والرومانية والتوراة وغيرها تبين أهمية العرب في التجارة في تلك العصور وتعدد المواد الضرورية التي كانوا ينقلونها على قوافلهم وفي سفنهم . وهي تشير إلى أن تجارة اليمن بقيت مزدهرة طيلة قرون عديدة . وكان أكثر اشتغال ملوك اليمن بالتجارة لتوسط بلادهم بين الهند والحبشة والصومال ومصر والشام والعراق فكانوا ينقلون التجارة بين هذه البلاد بعد دخولها إلى جزيرة العرب في طرق خاصة . ولم يكن عالم التجارة يستغني عنهم فزهت بلادهم واتسعت ثروتهم وامتدت سيادتهم إلى أطراف الجزيرة شمالاً وشرقاً . وبذلك لم يكن تمدنهم حربياً كتمدن الاشوريين والفرس والمصريين بل كان تجارياً كتمدن الفينيقيين فكانوا واسطة التجارة بين الشرق والغرب والشمال والجنوب . وتوالت أجيال منهم كانوا هم وحدهم تجار العالم كما كان اخوانهم الفينيقيون في

أجيال أخرى . بقيت الحال كذلك إلى أن سيطرت الامبراطورية الرومانية الشرقية على تدمر وبلاد الانباط وذهب تجار الروم وتدمر من الخليج العربي والبحر الأحمر فحملوا بضاعة الهند إلى الحبشة ثم إلى مصر وغيرهما .

وكان لعرب الحجاز ، وخاصة بعد سيطرة قريش على مكة ، نصيب وافر من تلك التجارة التي حمل اليمانيون لواءها . ونظموا رحلتين رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام عدا الرحلات إلى الحيرة وعقدوا اتفاقات تجارية مع الحبشة واليمن والفرس والمناذرة والغساسنة والرومان .

تطور التجارة بعد الاسلام : لم تنقطع تجارة قريش ولم تتوقف قوافلها إلا بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة حيث قوي أمره فيها وأخذ يضعف من شأن أعدائه بتهديد تجارتهم ومورد رزقهم وثرائهم وقوتهم . ثم ضعفت حركة التجارة وتوقف نشاطها في دور التوسع والفتوحات ولكنها لم تتعطل تماماً ولم ينقطع سير القوافل من وقت إلى آخر في فترات متباعدة . استمرت الحال كذلك حتى استتب الأمر للعرب المسلمين في كافة انحاء الجزيرة ودانت لهم الشام والعراق وفارس ومصر . وبخضوع هذه البلاد جميعها لسلطة واحدة وهي غنية ذات موارد كثيرة منوعة ، عادت التجارة شيئاً فشيئاً إلى سابق عهدها ثم نمت واتسعت باتساع الفتوحات وازدياد رقعة الامبراطورية حتى بلغت أوجها في العصر العباسي .

وكانت أهم أسباب ازدهار التجارة في العالم الاسلامي هي :

١ ـ اتساع مساحة البلاد الخاضعة لسلطة العرب وكانت تقدر مساحتها بثلاثة ملايين ونصف المليون ميل مربع أي نحو مساحة أوروبا كلها .

٢ ـ وحدة النقد مما سهل التعامل التجاري بين مختلف أنحاء الامبراطورية .

٣ — رقي الصناعة وتقدمها وكثرة انتاجها مما دفع التجار إلى تصريف الفائض .

٤ — ارتفاع مستوى المعيشة وحياة الرخاء والبذخ والترف .

٥ — كثرة الأموال واتساع الثروات .

٦ — نشوء الدويلات المستقلة وسعي كل منها إلى التشبه بالدولة الأم من حيث البلاط والحاشية والابهة والبذخ والعطاء .

إلى هذه الاسباب الظاهرة وغيرها من العوامل الخفيـة الثانوية يرجع السبب في ازدهار التجارة العربية واتساع محيطها . وقد اتقن التجار العرب التجارة علماً وعملاً حتى الفوا الكتب فيها وفي الاقتصاد السياسي . فقـــد وضع أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي من أهل القرن الخامس للهجرة كتاباً عنوانـــه « الاشارة إلى محاسن التجارة » فيه شرح لبعض الفوائد الاقتصادية لم يسبقه أحد إليها . كما يحوي أبحاثـاً في معنى النقود والسلع والعروض وتحقيق أثمان الأشياء ، وهي أبحاث قيمة لا تقل عما بلغ إليـه علماء الاقتصاد في هذا العصر .

وقد دفعت كثرة الأرباح التجار العرب إلى أن يطوفوا في الدنيا بشجاعة ويغامروا بقوة فكانوا رواد العالم الأول في البر القديم فقد عرفوا سواحل افريقيا الشرقية ومناطقها الوسطى النائيـة والهنـد والملايو والصين وجزر سرنديب وسومطرا وجاوا وبورنيو . وجابت قوافلهم قارة أوربا ووصلوا إلى البلطيق وروسيا وألمانيا وانكلترا وتشيكوسلوفاكيا والبلقان . فلم تردهم عقبة ولم يمنعهم خطر .

وكانت لرحلاتهم وأسفارهم التجارية الفضل الكبير على تقدم علم الجغرافية

وذلك لاتساع مداها وبعد آفاقها . اذ أن غاية الرحلات الأولى كانت تجارية بحتة كما كانت من بعد رحلات فاسكو دوغاما وكريستوف كولومبوس . واثرت قصص التجار عن عجائب وغرائب المناطق التي شاهدوها في نفوس بعض العلماء فنشطوا للقيام برحلات غايتها علمية ولكنها لم تتم الا بواسطة سفن تجارية .

التبادل التجاري والمنتجات المتبادلة : التجارة نوعان داخلية وخارجية . فالداخلية هي التي تكون فيها المبادلات بين مختلف أجزاء الدولة الواحدة . أما الخارجية فهي التي تجري فيها المبادلات بين دولة وأخرى . الا ان اتساع البلاد الخاضعة للنفوذ العربي وامتدادها على ثلاث قارات من الاطلسي حتى مشارف الهند والصين ومن المتوسط وقزوين حتى الهندي ، يجعل امكانيات التجارة الداخلية فيها جد واسعة ويمكن أن تشبه في الوقت الحاضر بتجارة الاتحاد السوفيتي أو تجارة الولايات المتحدة الاميركية .

أما التجارة الخارجية فكانت بين بلاد الدولة الاسلامية من جهة وبين أوروبا والهند والصين وجزر جاوا وما يجاورها وسواحل افريقيا الشرقية وأواسطها والحبشة من جهة ثانية . ونلاحظ من ذلك أن ميدان التجارة الداخلية والخارجية كان واسعاً جداً يكاد يصعب تصديقه بالنسبة لذلك العصر لضعف النقل البري والبحري وبساطة وسائله .

وسنعدد الآن أهم السلع والمنتجات التي كان يُتاجر بها مع ذكر مراكزها :

من الهند : الذهب والقصدير والحجارة الكريمة والعاج وخشب الصندل والتوابل والافاوية كالبهار والفلفل ونحوهما والقطن .

من الصين : المسك والكافور والعود والحجارة الكريمة والخزف .



الشكل ـ ٤١

طبق من الخزف من صناعة الفسطاط من صنع الخزاف المصري علي البيطار محفوظ في متحف برلين ـ دالم . وهو نموذج من الفن الفاطمي في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي وتلاحظ فيه صورة ارنب في الوسط يحيط به اربع جامات متقابلة ، فيها زخارف نباتية تتألف من درتين متقابلتين ، ويخرج منهما نصف مروحة نخيلية . وللزخارف بريق معدني في لون الذهب



الشكل ـ ٤٢

كأس محفوظة في متحف برلين ـ دالم . يغطيها طلاء معدني وهي مزينة بزخارف على صورة انصاف مراوح نخيلية ، وزخارف خطية تشبه الكتابة الكوفية . وهنا الزخارف ، قد رسمت فوق الطلاء بألوان ذات بريق معدني لا تكتسب هذه الخاصية الا بعد عملية تحريقها للمرة الثانية حيث يتحول اوكسيد المعدن الى معدن خالص . وهذا يعطينا فكرة عن ابتداء الاسلوب الاسلامي الذي تطور في العراق اثناء القرن التاسع الميلادي .

من روسيا : السمور الاسود وجلود الخز والثعالب السود والرقيق .

من بلاد ما وراء النهر : الورق والنوشادر والاوبار والسمور والسنجاب والثعالب والمسك .

من بلاد فارس : الادهان . الزيوت العطرية . نسيج الكتان والقطن والصوف والحرير . سبائك الفضة . الخفاف . السمور . الامشاط . البسط .

من الحبشة : العقيق والعاج والجلود المدبوغة .

من سواحل افريقيا الشرقية : العطور. الأطياب . خشب الابنوس . ريش النعام . الذهب والعاج والرقيق .

من ارمينيا : أحسن أصناف البسط والوسائد والمقاعد .

هذا عدا ما تنتجه بلاد الرافدين والشام ومصر والمغرب العربي والاندلس .

وكانت تجارة الرقيق جد رائجة في البلاد الاسلامية . وله في كل مدينة كبيرة سوق خاصة تعرض فيها مختلف أنواعه . فالرقيق الأسود كان يجلب من السودان ، والابيض كان يحمل من بلاد ما وراء النهر وأصله من الصقالبة أو من الخزر الاتراك ، كما يجلب أيضاً من الأندلس . ومنهم صنف كان يرد من خراسان غال جداً ربما بيع الغلام منه بخمسة آلاف دينار .

وأفضل الأنواع وأكثرها رواجا هم الصقالبة يحملهم النخاسون الافرنج من شمالي اوروبا باعداد كبيرة . وسبب ذلك ان قبائل السلاف (روس صرب بوهيم دلمات وغيرهم) نزحوا من المناطق الشرقية في اوروبا نحو أواسطها فاضطروا وهم نازحون أن يحاربوا الشعوب التي في طريقهم كالسكسون والهون وغيرهم فتكاثر الاسرى على الجانبين . وكانت العادة أن يباع الاسرى بيع الرقيق فأخذ التجار الافرنج يبتاعون الاسرى من السلاف والجرمان ويحملونهم إلى الأندلس حيث يشتريهم التجار العرب

ويبيعونهم في مختلف أنحاء البلاد العربية . وبما أن معظم اولئك الارقاء هم من السلاف وكانت تلفظ عندهم سكلاف صار العرب يطلقون هذه الكلمة على الرقيق الأبيض اجمالاً . ولكنهم عربوها إلى صقلب ومنها صقلبي وصقالبة . وقد انتقل المعنى إلى اللغات الأجنبية فصار يعرف الرقيق عندهم باسم Slave او Esclave

الموازين والمكاييل : تعددت الوحدات القياسية للوزن والمكيال في الدولة الاسلامية ، واختلفت اعيرتها ، رغم وحدتها بالاسم ، بين مختلف مناطق الدولة ، والعهود المتعاقبة .. واشهر الموازين التي استعملت في العصور الاسلامية هي :

الاوزان :

١ — الحبة : تساوي وزن حبتين من الشعير

٢ — القيراط : يساوي اربع حبات . (اي ثماني حبات شعير) والكلمة من اصل يوناني .

٣ — الدانق : يزن قيراطين ونصف . والكلمة من اصل فارسي

٤ — المثقال : يعادل ٨٦ حبة (١٧٢ حبة شعير) . وهو وزن الدينار الذهبي . والدينار يزن $\frac{٧}{٣}$ ١ درهماً . وكل درهم يزن ستة دوانيق (وكل مثقالين يعادلان وزن الليرة (الجنيه) الانكليزية الذهب المستعملةاليوم)

٥ — الاوقية : كلمة يونانية الاصل . واختلفت زنتها باختلاف الاقطار

٦ — الرطل : ويعادل عدة اوقيات تختلف باختلاف الأقطار

٧ — المن ، يساوي رطلين

٨ ـ النواة : تزن ٢٠ اوقية ، (تستخدم في وزن عروض الذهب والفضة والمعادن الثمينة)

٩ ـ القنطار : اصل الكلمة يونانية وتدل على المائة . ويزن ١٠٠ رطل

١٠ ـ البهار : فارسية معربة . تزن ٣٠٠ رطل أي ثلاثة قناطير (في المخصص لابن سيده ذكر للبهار بأنه ٤٠٠ أو ٦٠٠ رطل) .

ب ـ المكاييل :

١ ـ المدّ : يونانية الاصل ، واختلفت كميته .

٢ ـ الصاع : أربعة امداد

٣ ـ القفيز : ١٢ صاعاً

٤ ـ الوسق : خمسة اقفزة (جمع قفيز) ويعادل ٦٠ صاعاً وهو في الاصل ما يعادل حمل حمار .

٥ ـ الكرّ : ستة اوساق

٦ ـ الجريب ٤٠ قفيزاً

حـ ـ المقاييس

١ ـ الاصبع : تعادل البوصة الانكليزية وتساوي ٦ حبات شعير مرصوصة الواحدة وراء الأخرى بعرضها .

٢ ـ الشبر : يعادل الفرجة بين طرفي الابهام والخنصر بمتدين ليد رجل متوسط

٣ ـ الذراع : ٢٤ اصبعاً

٤ ـ الباع : قامة رجل متوسط

٥ ـ الميل : ٤٠٠ ذراع

٦ ــ الفرسخ نفس طول الفرسخ الفارسي (حوالي ٣ أميال)
٧ ــ الجريب : وحدة لقياس المساحات

اشهر المراكز التجارية : ادى ازدهار التجارة الى نمو بعض المدن نمواً كبيراً وخاصة تلك التي كانت ذات موقع هام وعلى مفترق طرق رئيسية تضطر القوافل ان تمر بها وتستريح فيها . وقد اشتهرت قبل الاسلام بعض المراكز في شبه الجزيرة وهي أسواق حولية لم تكن للتجارة فحسب بل كان يقضى فيها كثير من الشئون الاجتماعية والسياسية كما كان يعرض فيها نتائج القرائح من شعر وخطب . أشهرها :

دومة الجندل وعمان وعدن وحضرموت، وعكاظ وخيبر وبصرى ودرعا وغيرها ، هذا اذا استثنينا كبريات المدن كصنعاء والطائف ومكة والمدينة والبتراء وتدمر التي كانت ذات أهمية تجارية كبرى .

اما بعد الاسلام وخاصة بعد انتهاء الفتوحات فقد ازدهرت مدن اعتبرت مراكز عظيمة للتجار العرب الذين حملوا لواء التجارة العالمية في القرون الوسطى . منها **دمشق** عاصمة الامويين ومركز التقاء القوافل بين آسيا الصغرى وما بين النهرين ومصر وبلاد العرب . وكانت سوقاً تجارية هامة وخاصة زمن الامويين تتجمع فيها مختلف انواع السلع والبضائع وتوزع على مدن الساحل لتصدر عبر البحار او تنقل الى سائر انحاء البلاد العربية . وكانت **حلب** مركزاً هاماً بين خليج البصرة والبحر المتوسط ، وبين سوريا والعراق وآسيا الصغرى . وبقيت محافظة على مركزها حتى نهاية الحرب العالمية الاولى لما جزأ الاجنبي البلاد العربية وفصلها عن بعضها بحواجز اقتصادية وسياسية منيعة لا يزال اثرها باقيا حتى الآن اما **بغداد** فكانت اشهر مدينة عالمية وقلب الامبراطورية الاسلامية والسوق

التجارية فيها ونقطة مواصلات رئيسية للقوافل بين الاقسام الشرقية والغربية للعالم الاسلامي . اما **البصرة** فكانت اكبر ميناء عربي تتفرع منها طرق بحرية ونهرية وبرية الى مختلف انحاء العالم وخاصة الى الهند والصين وسواحل افريقيا الشرقية .

وفي مصر والاندلس والمغرب العربي وفارس مدن كثيرة كانت اسواقاً كبرى للتجارة مثل : القاهرة والاسكندرية وطرابلس والقيروان وسلجماسة وطليطلة وقرطبة وغرناطة وسيراف وبخارى وسمرقند .

اساليب التعامل التجاري : كانت العادة في تلك العصور ان يتجمع أصحاب الحرفة الواحدة وتجار الصنف الواحد في حي أو عدد من الاحياء الخاصة مؤلفين بذلك سوقاً ولا تزال بقايا هذه العادة موجودة حتى الآن في كثير من المدن الشرقية والغربية .

وكانت تقام للتجار الاغراب خانات او فنادق . وهي ابنية واسعة لها صحن واسع اقيمت حوله اصطبلات ومخازن يعلوها طابق ثان يحوي غرفاً تتفتح على الفناء فقط وتتصل ببعضها عن طريق ممر دائري . وقد انشأ التجار في كل مركز تجاري هام نقابة مسؤولة عن مراقبة المعاملات التجارية ومنع الغش والتدليس . وكان رئيسها ينتخب من بين الاعضاء الممتازين ويسمى برئيس التجار كما كان يسمى اعضاء النقابة بالامناء .

اهتم الدين بالشروط التي تتحكم بالمبيعات معتبراً عقد البيع هو النموذج . ويجب أن يتوفر شرطان حتى يتم عقد البيع بصورة قانونية . اولها موافقة الطرفين والجهر بذلك (اما تدوينه كتابة فهو اختياري) . وتنتهي عملية البيع حين يتصافح المشتري والبائع باليد اليمنى متبادلين الايجاب والقبول (هل تشتري هذا مني ؟ اجل اشتريه) . اما الشرط الثاني

للعقد فهو ان يكون موضوعه شيئاً نافعاً . فالقانون يحرم بيع شي لا يستطيع الشخص تسليمه كطير طائر او اشياء غير نافعة أو غير طاهرة كالخنزير او النبيذ . ويتم البيع بتسليم البضاعة ودفع السعر وللمشتري حق الخيار.

وقد عرف نظام الرهون والودائع . وهما ضروريان في مجتمع يتغيب فيه التجار طويلا عن وطنهم . فالرهن يكفل للدائن دينه على تاجر سافر لايعرف عن اخباره شيئاً . اما نظام الودائع فهو تأمين للبضائع التي التي لا يستطيع التاجر أن يحملها معه أو لا يكون اميناً عليها في مخزنه الخاص. والشخص الذي يحافظ عليها يقوم بعمل من اعمال التقوى سيثاب عليه في الحياة الاخرى . ويفضل ان يوجد شهود في كلتا الحالتين .

سادت بين قريش قبل الاسلام عادة التسليف بفائدة وقد اعتادوا في حالة عدم دفع الدين وفائدته منح المدين مهلة ومضاعفة المبلغ وهو شرط قاس من شأنه ان يقضي على المدين من صغار التجار وعلى ذوي الاموال المحدودة . فلما جاء الاسلام حرم الربا ومنع الدائن ان يجني اي ربح من دينه ، ويكون عمله عمل خير سيثاب عليه في الحياة المقبلة .

وكان استعمال الكمبيالة والسند (اي الحوالات او السفاتج) منتشرين في العالم الاسلامي من اقصاه الى اقصاه . ونستنتج من كثرة استعمال السفاتج (جمع سفتجة . وهي ان تعطي مالاً لرجل فيعطيك خطاً يمكنك من استرداد ذلك المال من عميل له في مكان آخر) على اتساع اعمال التجار .

اغتناء التجار : كانت التجارة مورد رزق واسع منذ القرن الثاني للهجرة وخاصة لاصحاب المواهب التجارية ولمن يخدمهم التوفيق ويتقربون من اهل البلاط . وتجاوزت ثروة بعض التجار الملايين من الدنانير . نضرب مثلًا

على ذلك اثراء الحسن بن عبد الله الجصاص . وسببه أن قهرمانة مغفلة في قصر أحمد بن طولون اعطته عقد جوهر فيه مائة حبة كل حبة تساوي مائة الف دينار وطلبت منه أن يخرطها حتى تصغر لتجعل في آذان اللعب وفي قلائدها . فاستبدلها بأخرى صغيرة واحتفظ بالعقد الذي كان سبب اغتناء آل الجصاص . وكان لابن الجصاص بيت كبير في بغداد لبيع المجوهرات صودر في عهد المقتدر بالله العباسي في أوائل القرن الرابع للهجرة لأنه أخفى عنده عبد الله بن المعتز الذي كان يطلبه الخليفة . وقد صودر منه (١٦) مليون دينار وبقي له رغم ذلك شيء كثير من الدور والقماش والاموال والضياع .

واستفاد تجار البصرة من موقع مدينتهم التجاري العظيم التي يقول فيها الجاحظ : « هي باب بغداد ومدخل دجلتها المتدفق بضروب والمتاع الأنواع السلع المجلوبة من أطراف الدنيا . اذ كانت مقصد القوافل الواردة من كل حدب وصوب ومحط رجال الشرق والغرب من مجاهل الصين الى مفاوز الصحراء الكبرى ... » وتضخمت ثروة تجارها . ويذكر ابن الاثير أن شخصاً اسمه الشريف عمر كان دخله (٢٥٠٠ ٠٠٠) درهم في السنة . كما بلغت ثروة أحد أصحاب السفن (٢٠) مليون دينار . وكان آخر يخرج من الصدقة كل يوم مائة دينار فاذا اعتبرناها ربع عشر ماله كان دخله اربعة آلاف دينار في اليوم . وقد ذكر ابن حوقل خبر تاجر من البصرة اسمه حسن بن العباس له مراكب تسافر الى أقصى بـــلاد الهند والصين بلغ مايتحصل من ضرائبها (١٠٠٠٠٠) دينار في العام .

العلاقات مع الصين والهند :

جاء في كتب الرحالة والجغرافيين أمثال البلخي والاصطخري والمسعودي

وابن حوقل والمقدسي وابن بطوطـة قصص وحوادث كثيرة عن مغامرات التجار وتكبدهم المشاق والاخطار . وقد ظن الناس طويلاً أن أخبـارهم هي وليدة الخيال الى ان جاءتنا مصادر صينية تشير الى كثير من الحوادث التي ذكرها الرحالة العرب . ومما جاء فيها خبر وفد أرسله المنصور الى امبراطور الصين سنة (٧٥٦ م) كما جاء ذكر سفن تجارية عربية كانت ترسو على شواطىء الصين يحملون فيها الزجاج والسكر وغير ذلك . وان تجار العرب وربان سفنهم كثيراً ما كانوا يفدون على البلاط ويدخلون على الامبراطور فيخاطبهم ويسألهم عن بلادهم وملكهم وسائر أحوالهم .

كما أن العلائق التجارية كانت متينة مع الهند . وكانت المهاداة بين العباسيين وملوك الهند متواصلة . وكانت الوفود تؤم بغداد وتقوي أواصر الصداقة بين الطرفين .

تجارة الاندلس وطرق ومواصلاتها

كانت تجارة الاندلس أكثر ماتكون وثوقاً مع أوروبا والمغرب العربي بسبب موقعها وكونها صلة الوصل بين أوروبا وافريقيا العربية . كما أن الصلاة كانت قوية مع بلاد الامبراطورية الرومانية الشرقية لمتانة العلاقات بين قياصرة القسطنطينية والخلفـاء الامويـين في الاندلس للعداء المشترك بينهما ضد العباسيين .

ومما ساعد أيضاً على تقوية المبادلات التجارية ضعف الصناعة في اوروبا ورقيها في الاندلس . وخاصة في النسيج والوشي والخزف وتكفيت المعادن والجلود . وكانت دول اوروبا تستوردها بكثرة من الاندلس . وقد سيطرت هذه اقتصادياً على كل شبه جزيرة اسبانيا . وظلت الممالك المسيحية الاسبانية

تستعمل النقود العربية طوال أربعة قرون تقريباً . ولبث ملوك قشتالة قرنين آخرين دون أن يسكوا عملة ذهبية باسمهم .

ظلت كثير من الاصطلاحات العربية التجارية في لغة الاسبان وبعض اللغات الاوربية . منها : فندق Fonda . تعريف Tariffa . الديوان (الجمرك) Aduana البرهان (مذكرة أو اشعار) Alboran . مخزن Almacên . عوار (خسارة) Averia . طاقة (محل صرف التذاكر) Toquilla . الرطل Arratel .

ولتنظيم شئون التجارة كان يتألف في كل مدينة كما هو الحال في سائر البلاد الاسلامية نقابة مسؤولة عن مراقبة المعاملات التجارية كما كانت الدولة تعين مراقباً للاشراف على التجار والصناع .

وكان مثلها مثل المناطق الشرقية أيضاً فيما يتعلق بالفنادق أو الخانات وتجمع كل فئة من التجار بسوق خاصة بها .

ومن أهم صادرات الاندلس إلى البلاد المجاورة المنتجات التالية : الذهب والفضة والنحاس والحرير الخام المصنوع والزئبق والحديد والزيتون والمصنوعات الصوفية والعنبر وحجر المغناطيس والاثمد والبلور والزيت والسكر والكبريت والزعفران والجلود والياقوت والجمشت (حجر كريم أزرق) المستخرج من مناجم مالقة وبيجا . وغير ذلك من الصناعات الفرعية الدقيقة التي تكلمنا عنها في الفصل السابق .

وكانت أهم وارداتها الرقيق الذي كان يأتي به تجار من الافرنج وقد فصلنا ذلك في بحث تجارة الصقالبة . وبقيت سجلات سوق الرقيق محفوظة في قرطبة وقد درسها احد العلماء فاستبان منها ان شراء العبد أو الجارية

لم يكن بالعملية البسيطة التي نتصورها بل كان من الواجبات أن تتم بحضور كاتب عقود . وكانت الأسباب التي يطلب من أجلها الرقيق تبين وتسجل في العقد .

وأعظم المراكز التجارية في الاندلس كانت **قرطبة** التي كانت في القرن العاشر الميلادي أكثر المدن الاوربية حضارة ومثار اعجاب العالم . وكان الرحالة القادمون من الشمال يتسامعون بين الخشوع والرهبة بأخبار المدينة التي كان فيها سبعون داراً للكتب وتسعمائة حمام للجمهور . ثم يأتي بعدها **اشبيلية** كمركز هام وخاصة بعد أن أفل نجم قرطبة في عهد ملوك الطوائف . ومن المرافىء الهامة المرية ودانية وطريفة .

طرق المواصلات في الاندلس : كانت قرطبة عقدة مواصلات برية هامة تتجه منها شبكة طرق واسعة بلغ عددها أربعة عشر طريقاً نحو مختلف أنحاء الأندلس : إلى سواحل المتوسط والاطلسي وجبال البرانس ومنها إلى فرنسا .

أما المواصلات البحرية فكانت تؤمن من مرافىء عديدة أهمها : ملقة وطريفة مع شمالي مراكش . ودانية والمرية مع السواحل الشرقية والشمالية وكانت المرية مركزاً رئيسياً لبناء السفن في الأندلس .

وكانت المواصلات النهرية ضعيفة لقلة الأنهار الصالحة للملاحة بسبب انحدارها وقلة مياهها صيفاً . هذا عدا نهر الوادي الكبير الذي كانت الملاحة فيه دائمة . وكانت اشبيلية أكبر ثغر عليه تؤمن المواصلات بين المناطق الداخلية والمحيط الاطلسي .

طرق المواصلات البرية والمائية

اشهر طرق الجزيرة قبل الاسلام :

١ ــ **البرية** : لا بد لتلك التجارة الراقية المزدهرة التي تكلمنا عنها من شبكة كاملة للمواصلات البرية والمائية . إذ لا تجارة بدون مواصلات فهذه شرط ضروري أساسي لتلك . وكانت أشهر الطرق البرية المعروفة قبل الاسلام في شبه الجزيرة والهلال الخصيب هي : الطريق بين عدن وساحل الشام وكانت قوافل قريش تؤمن غالباً نقل البضائع ذهاباً واياباً برحلتيها في الصيف والشتاء . ويتفرع من هذا الطريق طريق آخر إلى مصر عبر سيناء . ثم ضعف شأن هذا الخط لما تحولت التجارة إلى الخليج العربي حيث كانت القوافل تمر بتدمر إلى ساحل الشام ثم حولها الفرس بعد ذلك إلى شمالي الجزيرة متجنبة البادية وبماشية الرافدين إلى سورية الشمالية ومنها إلى الساحل .

وثم طريق بري آخر هو الذي يتجه من حضرموت أو عمان شمالاً إلى الدهناء فيقطعها ثم ينعطف غرباً إلى نجد ومنها إلى الحجاز فيسير شمالاً ماراً بمكة والمدينة ومدائن صالح إلى بطرا . ومنها يسير إلى الشام أو إلى مصر .

٢ ــ **المائية** : أما الطرق المائية فكانت عبر الخليج العربي والبحر ومنها إلى سواحل أفريقيا الشرقية والهند وبالعكس . وقد ازدهرت المواصلات المائية بسبب الاخطار التي تتعرض لها القوافل عبر بوادي جزيرة العرب . وقد شعر المصريون القدماء بأهمية الطرق المائية ورخص تكاليفها

منذ عهد رعمسيس الثالث فصارت السفن ترسو في القصير على البحر الأحمر وتنقل البضائع منها براً إلى قفط على النيل . ثم لما تولى سيتي الأول العرش احتفر القناة الموصلة بين النيل والبحر الأحمر أي بين قفط والقصير . إلا أن القناة اهملت بعده وبطلت الملاحة المصرية وصارت سفن سليمان وحيرام ملك صور ترسو في ايلة (العقبة) ومنها تسير القوافل إلى الشام ومصر .

طرق المواصلات بعد الاسلام :

١ ــ البريــة : إلى جانب تلك الطرق البرية التي ذكرناها آنفاً والتي كانت مطروقة أيضاً بعد الاسلام ، احدثت طرق أخرى أوجبهـا اتساع رقعة الدولة العربيـة وازدياد المبادلات التجـارية زيادة كبرى . وكانت أهم الطرق تلك التي تتجه من دمشق زمن الامويين ومن بغـــداد أيام العباسيين ، وهما عقدتا مواصلات هامة في تلك العصور .

كانت بغداد مرتبطة بالشام عن طريقين أحدهما يتجـــه نحو الفرات فحلب إلى انطاكية أو إلى الجنوب ماراً بدمشق وفلسطين فمصر . والثاني يصل بغداد بدمشق رأساً ثم يسير جنوباً إلى مصر . ومنهـــا يتجه إلى طرابلس فالقيروان مماشياً الساحل ثم إلى بقية أنحاء المغرب العربي . وكان يتفرع من هـذا الطريق طرق أخرى عديـدة تسير نحو الداخل وبعضها يستمر حتى أفريقيا الاستوائية .

هذا نحو الغرب ، أما نحو الشرق فكان يمتد طريق يصل بغداد بالهند والصين عبر خراسان ماراً بكرمنشاه والري ونيسابور وطوس ومرو . ومن مرو يتفرع الطريق إلى فرعين رئيسيين أحدهما إلى بخارى وسمرقند فالصين وثانيهما إلى بلخ وكابل فالهند .

واقيمت على طول الطرق في العالم الاسلامي خانات للمسافرين ودوابهم

وبضائعهم . يرتاح فيها التجار ، ويتبادلون البضائع ، ويعقدون الصفقات ، فقد كان في كل خان رئيسي ، عند ملتقى الطرق ، مكان يسكن فيه « الكاتب بالعدل » لتحرير عقود البيع والايجار والقيام بتسجيل مايحتاجه التجار لضمان حقوقهم وواجباتهم ، كما فيه سماسرة يقومون بالوساطات بين البائع والشاري ، ومنادون يعلنون عن البضائع بأصوات مرتفعة لجلب نظر زوار الخان ، كما هو الحال في الاسواق التجارية تماماً ، يضاف إلى ذلك وجود مختصين بتسعير وتقييم البضائع المعروضة ، والتأكد من سلامتها منعاً للغش . وفي الخانات الواقعة على الثغور وأطراف البلاد ، او الموانىء البحرية وجد مترجمون ليسهلوا عملية التبادل التجاري بين العرب والوافدين من التجار الاجانب براً او بحراً او عن طريق الانهار الكبرى .

هذا إلى جانب وجود محلات لتأمين حاجات المسافرين ، وتأمين عربات النقل وخيول ودواب النقل (كالبرادعي والبيطار) ومطاعم وغرف المنامة لجميع هؤلاء .

٢ ـــ **المائية :** وهي تنقسم الى قسمين بحرية ونهرية وكل منها متمم للآخر . وكانت البحار التي تمخر فيها مراكب العرب هي الاطلسي والمتوسط والاحمر وخليج البصرة والهندي وبحر العرب . أما الانهار فكان النيل ودجلة والفرات وهي قليلة كما يلاحظ بالنسبة الى اتساع الامبراطورية العربية وطول المواصلات البرية والبحرية .

فالمواصلات البحرية في الاطلسي كانت أهمها بين سواحل مراكش والبرتغال والاندلس وجزر الخالدات (قناريا) . أما البحر المتوسط فكانت أغلب المواصلات فيه هي بين شرقه وغربه وبالعكس . وكانت تقطعه السفن بمدة (٣٦) يوما بين المرية وسواحل الشام . وقيل إن الرشيد فكر

في قناة تصل بين المتوسط والاحمر (قناة السويس) إلا أنه عدل عن ذلك لخوفه أن يستفيد منها أعداؤه البيزنطيون فيهددوا الاراضي المقدسة .

أما في البحار الجنوبية والشرقية فكانت السفن تقطع البحر الاحمر من العقبة أو من سواحل مصر الى اليمن ثم تجتاز مضيق باب المندب الى المحيط الهندي . كما تتجه المراكب موازية لها في الخليج العربي منطلقة من البصرة وسيراف وعمان وهرمز الى المحيط الهندي . ومن ثم تتابع السفن مسيرها من هذين الطريقين اما الى سواحل افريقيا الشرقية أو الى الهند فشبه جزيرة ملقا (الملايو) مارة من سرنديب ومنها الى الصين .

أما الملاحة النهرية فقد كان للنيل أهمية كبرى إذ انه يصل المتوسط بالاحمر وقد مر معنا كيف أن سيتي الاول احتفر قناة بين قفط والقصير إلا أنها أهملت من بعده . ولكن المواصلات بقيت مستمرة في العهد الاسلامي وكانت القوافل تؤمن نقل البضائع بين النيل والبحر . أما دجلة والفرات فالمواصلات فيهما كانت قوية والمراكب لاينقطع سيرها فيهما وخاصة بين بغداد والبحر . وقد حفر العباسيون قناة وصلت دجلة بالفرات عند بغداد . وكما كان النيل يؤمن المواصلات المائية بين البحرين الاحمر والمتوسط كذلك كان الفرات يؤمن المواصلات بين خليج البصرة والمتوسط . وذلك أن السفن الآتية الى البصرة تنقل بضائعها عبر الفرات شمالاً حتى الرقة أو قرب بلدة مسكنة الحالية ومنها تنقل البضائع براً الى ساحل البحر المتوسط.

وفي كتب الرحالة والجغرافيين العرب يوجد أمتع القصص وأغرب الابحاث وأدقها عن الرحلات البحرية مع وصف مسهب للمناطق التي زاروها والاخطار التي تعرضوا لها وأنواع السلع التي كانت تنقل من منطقة الى أخرى .

الفصل السابع عشر

الفنون

١ - ميزات الفن العربي الاسلامي

الفن الاسلامي : هل للاسلام فن ؟ اوليس الاسلام ديناً ؟ والفن فناً ؟ فما علاقة هذا بذاك ؟ ...

ان الدين يلتقي في حقيقة النفس بالفن . فكلاهما انطلاق من عالم الضرورة ، وكلاهما شوق مجنح لعالم الكمال ... وكلاهما ثورة على آلية الحياة .

والفن الاسلامي ليس بالضرورة هو الفن الذي يتحدث عن الاسلام . فليس هو الوعظ والارشاد ، وانما هو الفن الذي يرسم صورة الوجود من زاوية التصور الاسلامي لهذا الوجود ... هو التعبير الجميل عن الكون والحياة والانسان من خلال تصور الاسلام للكون والحياة والانسان . هو الفن الذي يهيء اللقاء الكامل بين « الجمال » و « الحق » ، فالجمال حقيقة في هذا الكون ، والحق هو ذروة الجمال ، ومن هنا يلتقيان في القمة التي تلتقي عندها كل حقائق الوجود [1] اذن ماذا نعني بالفن الاسلامي ؟ هل هو فن عربي ؟ أم فن اسلامي ؟ الم يكن في الوطن العربي في عصوره القديمة فنون مميزة ؟ اليست فنون ما بين النهرين ووادي النيل وبلاد الشام

(١) من مقدمة كتاب منهج الفن الاسلامي لمحمد قطب .

واليمن من ارقى انواع الفنون القديمة وأكثرها ديمومة وحيوية ؟ وعدّلها الاسلام وادخل عليها تطورات جديدة ؟ اليس من المنطق ان تكون فنوناً عربية اسلامية ، فيها اصالة الفن العربي وذوق وروح الاسلام ؟ ولكن ، هل اكتفى الاسلام في الانتشار فوق ربوع الوطن العربي الكبير ؟ ام رفرف بجناحيه بعيداً ، في شرق وغرب ، وشمال وجنوب ، فدخل في حوزته فرس وهنود وصينيون وترك وصفد ، ومغاربة وزنوج ، وقوط وفاندال وغيرهم ؟ او لم ينضو تحت لواء « حكومة الاسلام » مسلمون وغير مسلمين ، عاشوا في ظل دولة واحدة ؟ ألم يكن لهؤلاء جميعاً في امصارهم المتباعدة تقاليد فنية وتأثرت بالعرب والمسلمين واستمرت هذه التقاليد خلال العهود الاسلامية المختلفة ؟

الواقع ، ان الفن الاسلامي يعني جميع الجهود التي بذلها العالم الاسلامي خلال عشرة قرون على الاقل في التعبير عن الجمال وصنع الاشياء الفنية . والفن الاسلامي أوسع الفنون العالمية انتشاراً على الاطلاق إذ تمتد آثاره من خليج البنغال في الهند حتى ايبريا . كما أنه أطول فنون العالم عمراً باستثناء الفن الصيني فقد ولد في القرن السابع الميلادي (الاول الهجري) وبلغ عنفوانه الفني في القرنين الثالث عشر والرابع عشر (٧ — ٨ هجري) ثم هرم منذ القرن الثامن عشر (١٢ هـ) وهو الى جانب هذا وذاك ، آخر فنون العالم ظهوراً قبل ظهور الفنون الغربية الحديثة منذ عصر النهضة الاوربية ؛ وأخيراً فالفن الاسلامي ذو شخصية قائمة بذاتها ، ذات تاريخ خاص ومميزات معينة واضحة . وقد اعطاه الاسلام طابعه الخاص ، اعطاه — كما يقول جورج مارسه — :

« وجهاً جديداً لا يمكن به التعرف على اصولها . وقد كفى هذا الفن أن يمر عليه مائة عام من الزمان لكي يترسخ في أعمال لم يعد بالامكان نسبتها

للفنون القديمة التي أغنته . وعبر القرون كان يبتعـــد أكثر فأكثر عن المؤثرات التي أحاطت بتقدمه إلى العالم . ففي القرن التاسع الميلادي كان يمكن بسهولة اعتبار تاج عمود في مسجد دمشق أو القـاهرة بلطف سلته وأوراق الاكانتوس التي تغلفه مستوحى من الطراز الكلاسيكي الكورنثي . وفي القرن الحادي عشر الميلادي يصبح تحديـد هوية الأصل نوعاً ما أكثر صعوبة ».

كما يمتاز هذا الفن الاسلامي بتنوعـه العظيم ، تنـوع أصاب نواحيـه وأشكاله وجماعاته وزخرفته وأقاليمه ورجاله . تنوع بلغ من الشدة حـداً يصعب فيه كثيراً أن نجد فيه تحفتين متماثلتين . ومع ذلك فانه يمتـــاز بوحدته . فلو أنك عرضت على أي شخص — كما يقول ديماندر — تقتصر معرفته بالفنون على المبـادىء العامة والبسيطـة ، صوراً متنوعـة ، لتحف مصنوعة في العصور الاسلامية ، منها مثلاً صورة لقطعة من العاج الاندلسي واخرى لقطعة من النسيج المصري وثالثة من الزجاج الدمشقي ، فلا شك أنه يشعر بوحدة أساليبها ، ولا يتردد في الحكم بانتمائهـا جميعاً الى الفـن الاسلامي .

تطور الفن العربي — الاسلامي : بدأ الفن الاسلامي ، مـع بـدء الدعوة ، فقد لفت القرآن الكريم الانظـار إلى ناحيتي الجمال والزينة في المخلوقات إلى جانب مالها من النفع فقال تعالى : « والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ... والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ... » (سورة النحل) وأشار القرآن الكريم إلى الوسيلة التي توصل الانسان المؤمن إلى تهذيب الخلق حتى يصل إلى حب الخير ، وتهذيب الذوق حتى يصل إلى حب الجمال ، فاقسم ببعض المظاهر

الطبيعية لندرك ما فيها من أسرار الجمال الفني ، من تكوين محكم وتنسيق بديع وألوان رائعة ، وتناسب ، وتقابل ، وتكرار ، وظلال وأضواء – كما يقول د . محمد عبد العزيز رزوق – دون أن يحرم القرآن على اتباعه متع الحياة المشروعة : « يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد . وكلوا واشربوا ، ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده . والطيبات من الرزق . قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » (سورة الاعراف) .

وبنى النبي عليه السلام مسجد المدينة ، واتخذ المسلمون المساجد في كل بلد انتشر فيه الاسلام . ولئن نشأ فن عمارة المساجد تلبية لحاجة دينية فارتبط المسجد بالدين ، كما ارتبطت المعابد في دنيا العالم بالعقائد الدينية، فان الفن الاسلامي مالبث أن ارتبط كثيراً أو قليلاً بالحاكم أو حاشيته المباشرة وبالطبقة الغنية . فالعمار شيد المساجد والقصور ، من أجل الخليفة أو الأمير ، وكذلك فعل عند بناء المدارس والأضرحة ، ونقش النقاشون الرخام وصور الرسامون المخطوطات المستمدة من النباتات أو الأشكال الهندسية ، وحاك العمال البسط والسجاد ، وصنع الفنانون مختلف الأثاث وأدوات الاستعمال الفنية ، فكانت المنشآت المعمارية وصناعة الرياش والحلي وأدوات الزينة تزدهر تبعاً لحالة السلم الذي تتمتع به البلاد وتبعاً لغزارة الموارد التي تغذي بيت المال يتداولها التجار والحكام وذوي الثروة والجاه. وقد امتد مجال الفن الاسلامي حيث انتشر الاسلام ، على شريط عريض يمتد من شرق الارض الى مغربها ، من خليج البنغال وتخوم الصين الى اقصى المغرب وعبر الى اوربا الى الاندلس وجنوب غرب فرنسا ، وتوغل في القارة الافريقية وماوراء النهر وبخارى وتركستان، فجمع العالم المتمدن في العصور

الوسطى ، ومزج بين تقاليد شعوب العالم القديم والوسيط ـ عدا اوربا ـ .. ولكي نفهم تطور الفن الاسلامي لابد أن نربطه بالخطوط العريضة لتاريخ العرب المسلمين .

ففي زمن بني أمية بدأ ظهور الفن الذي يمكن ان نسميه الفن العربي ـ الاسلامي . ولم يكن في مطلع أمره بسيطاً ، كما قد يخيل إلينا . لأن العرب بدأوا باقتباس الفنون التي سبقتهم لانعدام التقاليد الفنية لديهم ، كما هو الحال لدى جميع الأمم . فاقتبس الأمويون الفنون البيزنطية التي وجدوها في سورية والشرق الادنى وأوجدوا منها طرازاً فنياً خاصاً ، هو مرحلة انتقال بين الفنون البيزنطية والطراز العباسي . وقد نقل ولاتهم وقوادهم أساليب ذلك الطراز إلى سائر الأقاليم الاسلامية على يد الصناع الذين كانوا يستقدمونهم من الشام ومصر ، وقد حدث أن بقي ملك بني أمية في المغرب بعد زواله في المشرق ، فبقي الطراز الأموي قائماً وتطور ليظهر منه طراز أموي غربي يشمل أجمل آثار الأندلس .

ولما آل الحكم للعباسيين (منذ سنة ١٣٢ هـ ـ ٧٥٠ م) وانتقل مركز الخلافة الى العراق تأثرت جميع نواحي الحياة والدولة بالتقاليد الساسانية ومن ذلك الفن أيضاً الذي اتخذ اتجاهاً جديداً واضح التأثر بالأساليب الفنية الفارسية ، فلم يعد فناً عربياً اسلامياً بل غلبت عليه صفة الفن الاسلامي وبلغ هذا الفن أوج عظمته في سامراء (القرن الثالث هـ) . ونجح العباسيون كالأمويين في فرض اساليبه على الامبراطورية الاسلامية كلها وأصابوا في ذلك توفيقاً لا يعدله إلا توفيق الاسكندر وخلفائه في نشر الأساليب الهيلينية في الشرق الأدنى والاوسط .

وما انحطت السلطة المركزية العباسية (أول القرن الثالث هـ) حتى

انحط معها الفن الاسلامي الموحد . ومع نشوء السلطات المحلية المستقلة في الأقاليم الاسلامية ، بدأ نشوء أساليب محلية مستقلة في الفن : وهكذا حاول الطولونيون بعث طراز إسلامي خاص بهم في مصر ، فنقلوا من العراق كثيراً من التحف الفنية التي مهدت لانتاج محلي مقتبس مما وجد في بغداد مع تعديل مازال ينمو ويظهر حتى جاء الفاطميون ، فبعث خلفاؤهم وامراؤهم واغنياء الشعب في مصر روح فن جديد فيه ترف عظيم ،ووصل الفنانون المصريون الى طراز فني مستقل ، غني بالرونق والجمال ، وفق رجاله في صدق التعبير عن الحالة النفسية ، وفي دقة تصوير الحركة بدرجة لم يبلغها الفنانون في مصر قبلهم ، فكان عصر ثورة ملموسة في الفن ، تتمثل فيما خلفه هذا العصر من تحف خزفية مزينة بزخارف مرسومة بالبريق المعدني او محفورة تحت الطلاء الزجاجي ، او تحف زجاجية ومعدنية جميلة الصنع دقيقة الزخرفة ، وما خلفه هذا العصر ايضاً من اخشاب مزخرفة محفورة زينت القصور والمساجد ، واقمشة من الكتان والحرير والصوف موشاة بكتابات تاريخية هامة وزخارف عربية نباتية وهندسية .

فلما كان عصر الايوبيين والمماليك الذي ظهر في مصر والشام ، وازدادت ثروة البلاد ، ومال امراء المماليك الى حياة الترف ، وملء القصور بالاثاث النفيس واسباب الراحة والتنعيم والتسابق ببناء القصور والمساجد والمدارس والاضرحة ، واقتناء كل ما هو جميل ونادر فتحسنت صناعة التحف النحاسية المكفتة بالذهب والفضة ، والمشاكاوات من الزجاج المموه بالمينا ، وانواع الخزف والفخار المطلي بالمينا ايضاً والاخشاب المطعمة بالعاج والابنوس ، والمشربيات وغيرهما من الصناعات الفنية التي تشهد بطابع فني محلي يمثل هذا العصر ، ويدل على ذوق رفيع ، ومهارة يد ظاهرة .

أما في العراق والشرق الايراني فقد قام على انقاض الطراز العباسي طراز جديد هو الطراز السلجوقي الذي اتيح له السيطرة في عهد السلاجقة بالقرن الخامس على القسم الشرقي من العالم الاسلامي . ثم قامت في ايران ، من بعده ، وبعد تمزق الامبراطورية السلجوقية الى دويلات ، اساليب قومية ايرانية اولها الطراز المغولي الذي ازدهر منذ وطد المغول حكمهم هناك في القرن السابع الهجري حتى سقط خلفاء تيمور وقامت الدولة الصفوية (في مطلع القرن التاسع) فازدهر الطراز الصفوي وسيطر حتى بداية القرن الثاني عشر الهجري . ثم فقد تألقه مع سيطرة الفنون الاوروبية .

ويمكن اخيراً ان نضيف ان الفن الاسلامي غزا الهند منذ القرن العاشر الهجري ؛ ولكنه كان متأثراً بالطراز الايراني . كما ان العثمانيين اوجدوا منذ القرنين التاسع والعاشر طرازاً تركياً تأثر بالاسلوب البيزنطي أولاً وبالاساليب العربية كما تأثر في القرون الاخيرة بالطرز الفنية الاوروبية .

عصور الفن الاسلامي :

قلنا إن لازدهار الفن العربي الاسلامي علاقة واضحة بالاستقرار السياسي وبميول الحكام الشخصية ، وإن بامكاننا أن ننسب الطرز الفنية إلى الدول الحاكمة ، ولهذا رأينا أن نعتمد لحد كبير على التقسيمات السياسية في التاريخ الاسلامي ، في تحديد عصور الحياة الفنية على أن نتذكر أنه إذا كان من الممكن معرفة التاريخ الذي بدأ فيه حكم الأسرة الحاكمة أو زوالها فاننا لا نستطيع أن نعرف بالدقة أو بالتحديد نفسه تاريخ قيام أي طراز فني أو زواله . لأن الطرز تتطور تدريجياً ويأخذ بعضها من بعض وتستمر بعد زوال أصحابها . وعلى هذا الاساس يمكن تقسيم الحياة الفنية في الاسلام إلى العصور التالية :

١ً – عصر العالم الاسلامي الموحد : ويمتد من اواسط القرن السابع الميلادي حتى نهاية القرن التاسع الميلادي ، أي فترة الفتح وانتشار الاسلام في العالم القديم . ومن العاصمتين دمشق ثم بغداد وأخيراً سامراء تألق الفن العربي الاسلامي الوليد ، ولم يكن هذا الفن جديداً جدة واضحة لأنه لم يكن قد تكشف بعد عن شخصيته المستقلة ، حتى لقد يعده بعض الكتاب ازدهاراً متأخراً لعبقرية شعوب الشرق العربي القديمة وأطراف الجزيرة وشعوب البلاد التي ضمت إلى الدولة العربية .

في هذا العصر ، استطاع الاسلام وهو خاو من أي تقليد فني ، أن يتوضع في بقعة من اقدم البقاع المتحضرة ويستفيد في وقت واحد من عالم البحر المتوسط والعالم الآسيوي ، فمنحه عالم البحر الأبيض المتوسط الفن الهلينستي ، والعالم الآسيوي الفن الايراني ، فتأثر بهذين الطرازين اللذين تعاقبا أو تزاحما أو اشتركا في طابعهما على آثار العصر الأموي والعصر العباسي الأول . ولكن التأثير الايراني لا يظهر إلا حين ينتقل مركز الحكم إلى العراق ويحل خلفاء بني العباس في بغداد وسامراء محل ملوك الساسانيين في المدائن ، إذا ذاك يظهر استعمال الآجر في تركيب الجدران والكوى ، ويظهر استعمال الجص وغيره في نقشها وزخرفتها ويظهر « الايوان » هذا في نفس الوقت الذي تحتفظ فيه سامراء مثلاً بزخارف هيلينية !

ومعظم الذين قاموا بهذه الأعمال الفنية الأولى في الاسلام كانوا بالطبع من سكان البلاد الأصليين : من السوريين والعراقيين والقبط والبربر ، وهم من العرب وغير العرب وقد وضعوا الأسس الأولى للفن العربي – الإسلامي وحددوا أهم ميزاته الباقية .

٢ً – عصر الخلافات الثلاث : وتمتد بين القرن العاشر حتى أواسط القرن الثاني عشر الميلادي : وفي هذه الفترة التي امتدت كالسابقة ، قرنين ونصف

القرن تفككت الامبراطورية العربية بوضوح وظهر فيها ثلاثة مراكز كبرى : الخلافة العباسية في بغداد والشرق . والخلافة الفاطمية في الوسط ، وتحكم من القاهرة ما بين ليبيا إلى الشام . والخلافة الأموية في الغرب (الأندلس) . وقد خرج الفن الاسلامي برعاية هـذه الخلافات الثلاث من عصر التقليد والتلمس وبدأ يتميز بشخصية متشابهة الملامح في مراكزه المختلفة ؛ بغداد والقاهرة وقرطبة ، في الوقت الذي كانت فيه التأثيرات المحلية تظهر أيضاً وتفرض نفسها وتميز بين الأساليب في الشرق والغرب . وهكذا استطاعت وحدة العقيدة ، والحاجات الدينية والأسس الفكرية والمصالح الاقتصادية الواسعة وحرية الانتقال والتبادل التي وحدت العالم الاسلامي أن تؤثر بدورها على الحياة الفنيـة وتحفظ لها الطابع الاسلامي الخاص ، سواء كان الاثر العربي هو الغالب ، أم الأثر الأعجمي الاسلامي . ولكنها سمحت مع ذلك للمراكز المختلفة من الشرق والوسط والغرب أن تحتفظ بإبداعها الخاص . ومقارنة سريعة بين المسجد الأكبر السلجوقي في أصفهان ، ومسجد الحاكم الفاطمي في القاهرة ومسجد قرطبة في الأندلس ، ترينا بوضوح الطوابع المحلية الخاصة . وهكذا ظهر الفن السلجوقي في الشرق ، والفن الفاطمي في مصر والشام ، والفن الأندلسي — المغربي في أقصى المغرب .

وفي هذه الفترة ظهرت بعض العناصر الزخرفية في الفن الاسلامي كالمقرنصات ، والنقش البارز بالعناصر النباتيـة المحورة وغيرها . ومن المدهش أنها انتشرت بسرعة وظهرت في أوقات متقاربة في مراكز جد متباعدة من العالم الاسلامي ، بل إنا لنرى فوق هذا أن فنون المسلمين في هذه الفترة قد تجاوزت المملكة الاسلامية إلى الغرب على أيدي الصليبيين ونجد آثارها في ما بقي من فنون العصور الوسطى الغربية ، كما أن الاماكن

التي جلا عنها الاسلام إذ ذاك ظلت في عهد حكامها الجدد تشع بالفن الاسلامي ، كصقلية مثلاً في عهد النورمانديين .

٣ – عصر ما بعد الخلافات : ويمتد ثلاثة قرون أيضاً (منذ نهاية القرن الثاني عشر حتى نهاية القرن الخامس عشر-م) انهارت منذ مطلعها الخلافات الثلاث وحل محلها حكومات الأتابكة والمماليك المغتصبين الذي تعرض العالم الاسلامي في عهدهم إلى أخطار خارجية هائلة : ففي الشرق غزوات المغول (جنكيز خان) ثم التتر (تيمور) عدا الخطر الصليبي الفرنجي ، وفي الغرب كان الحكم العربي يخسر الاندلس قطعة قطعة . ومع هذا فإن تقسيم العالم الاسلامي إلى دول صغرى وتعدد مراكز الحكم فيه شجع الفنون على نطاق ضيق . والاخطار الخارجية زادت في الحماس الديني وخلقت فيه التصوف وانعكس ذلك بشكل مساجد ومدارس وأربطة وأوقاف كثيرة ملأت البلاد الاسلامية ، ولكن مجال الابداع في ذلك كله كان محدوداً . بمعنى أن العصر الذهبي قد انتهى وانطوى العالم الاسلامي على نفسه يتغذى من ذاته فلم يتصل بفنون الغرب التي كانت بدأت عصر النهضة إذ ذاك ، ودفع ذلك انحطاطاً وجموداً متصلاً في كل تقاليده الفنية .

في هذه الفترة ازدادت المدارس الفنية الاسلامية تميزاً رغم تشابهها ، وبدأ كل قطر يخلق أشكاله الفنية الخاصة ، ومعظمها من الأبنية ، واضعاً في مخططها وألوانها وهندستها وزخرفتها شخصيته المحلية المستقلة ، فبنى الفرس الجوامع ذات الباحات الواسعة والأواوين المزينة بالمقرنصات ، والمآذن المتعددة . والقباب البصلية الشكل المزينة الظاهر . وأما في الشام ومصر فكانت أحجام الأبنية أقل ضخامة ، والالوان أقل وضوحاً والقباب أكثر

استدارة والمآذن ذات شرفات . وأما في الاندلس والمغرب فكانت مخططات الأبنية بسيطة والأبراج مربعة والسقوف محدبة والزخرفة واضحة تغشى كل شيء .

على أنا مع هذا نجد كثيراً من الملامح المتشابهة في فنون البلاد المختلفة بسبب هجرة الفنانين وتنقل الناس ونقل فكرة المؤسسات المختلفة من قطر إلى قطر : كالمدارس مثلاً التي انتشر بناؤها من بغداد وسمرقند إلى غرناطة وفاس على نمط واحد من الهندسة .

٤ً ـ **الفن المغربي ـ الاندلسي :** ولعل من المفيد ان نفرد لهاتين المنطقتين الاسلاميتين فقرة تشرح اساليبها الفنية المتشابهة والتي يتم بعضها بعضاً ... واذا كان الفن الاسلامي بمجموعه يتميز بانه فن يجمع بين الفن العربي الاصيل وبين فن كل قطر انتشر فيه الاسلام او ضمّه الحكم العربي ، فإن هذه الميزة ايضاً تظهر في المغرب والاندلس بتمازج الفنين الشرقي والبربري .

والبربر قبل الإسلام اتبعوا اساليب معمارية تتلاءم مع طبيعة بلادهم الجبلية ، فاتخذوا « التغرمت » اي الدار المحصنة وتتألف من بناء مربع تقوم في أركانه الأربعة أبراج ولسورها مدخل واحد . كما اتخذوا « الايغرم » أي المخازن المحصنة وهي عبارة عن أجنحة منفصلة تنفتح على ساحة داخلية ، وتقع في أعالي الجبال ، في نقط استراتيجية ، تتخذ مستودعاً للخزن وقلعة يلجأ إليها سكان المناطق المجاورة عند الخطر . واتخذوا أيضاً « الاجدير » وهي دار مربعة لها باب خارجية واحدة تؤدي إلى ساحة مركزية فيها عدة طبقات من الغرف ، وصاروا بعد الاسلام يضيفون إليها مسجداً ، وتتخذ لحفظ المؤن كما تحوي صهاريج خاصة لحفظ المياه ..

والأبواب البربرية تصنـــع عادة من أخشاب مسمرة في إطار فوق عوارض عمودية ، تنقش عليها رسوم بدائية وتتوسطها مطرقة من حديد على أنماط شتى .

وأول من ادخل الفن الاسلامي إلى أفريقيا هم الأغالبة ، ووضعوا اسس الفن الجديد في القيروان حين جددوا مسجد عقبة بن نافع على نمط مساجد دمشق والقاهرة ثم بدأ الاقتباس في مدينة فاس ... ولما جاء المرابطون والموحدون ، ومن بعدهم بنو مرين وبنو زيان (في تلمسان) والحفصيون (في تونس) زادوا في اغناء الفن المغربي الاندلسي ، وتميزه بالنقش على الخشب والجبس والادهان البديعة والشماسيات الملونة والنحاس المموه والمرمر المفصص وترصيع المنارات بالزليج[١] .

٥ً ـ **العصر العثماني الايراني** : ويبدأ منذ القرن السادس عشر ونستطيع أن نسجل انتهاءه مع نهاية القرن الثامن عشر وقد عاد إلى العالم الاسلامي الشرقي والأوسط خلال هذه القرون نوع من الوحدة بظهور الامبراطورية العثمانية على البحر الأبيض المتوسط وشاهات الصفويين في إيران .

وقد نشر العثمانيون في البلاد التي حكموها نوعاً خاصاً من الأبنية الدينية ذات قباب كبيرة مفلطحة ومآذن رشيقة نرى أجمل آثارها في عاصمتهم (اسلام بول) ونرى منها في البلقان والشام أيضاً .

---

(١) الزليج نوع من الترصيع الخزفي ، اصله من الاندلس ، يشبهـه الفسيفساء ويعرف بالمفضض . والترصيع هو التكفيت وتعرف في بعض البلدان باسم التلبيس والترسيب والتنزيل واطلق عليها في مشرق العالم الاسلامي في العصر العباسي : التطبيق . وقد دخل الترصيع بلاد المغرب عن طريق سورية ، ولا يزال يسمى هذا الفن في اسبانيا واوربا باسم الفن الدمشقي ولا يزال يقلد في صنع الاواني والحلي .

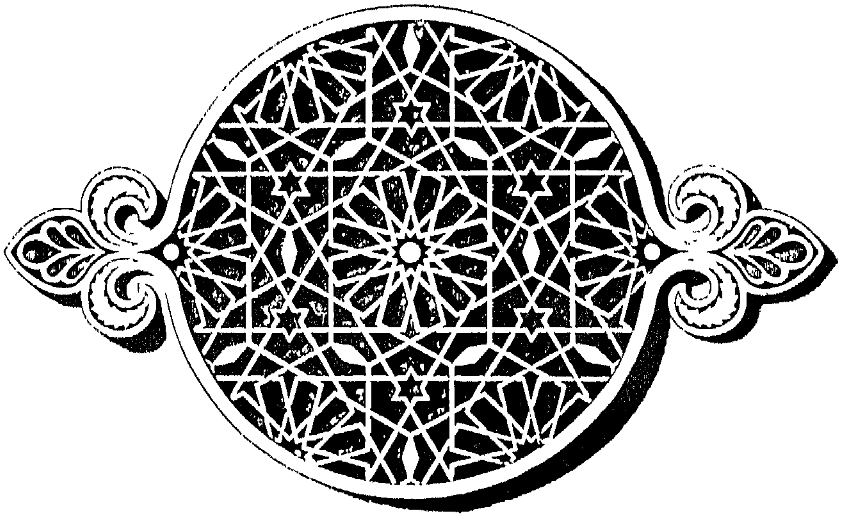
أما ايران فقد حافظت على كثير من تقاليدها الفنية : وترينا أصفهان في عهد الشاه عباس الكبير في مخططها العام وابنيتها الدينية نموذجاً فريداً من مدن الاسلام . وقد استطاع الطراز الايراني أن يغزو الهند ويخرج فيها التحفة الفنية المشهورة : تاج محل في آكرا . ويضاف إلى هذا أن ايران عرفت رسم الكائنات الحية وسجلت فيها وفي الزخرفة تقدماً هو الوحيد من نوعه في الاسلام .

ميزات الفن العربي الاسلامي :

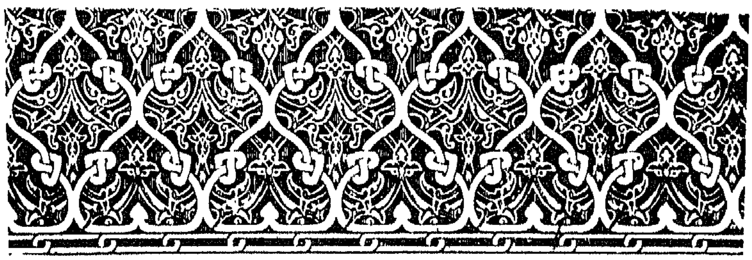
تختلف ميزات الفن العربي الاسلامي باختلاف نوع الفن والعصر والمكان . ومع ذلك فيمكن أن نرى فيها صفات مشتركة عامة :

١ — إنه ذو شخصية واحدة رغم تعدد مراكزه وتباعد أقطاره وظهور التأثيرات المحلية فيه . وقد حاول الباحثون تعليل هذه الوحدة في الفن العربي الاسلامي بأنها ترجع أولاً لتأثير العامل الجغرافي المتشابهة في مختلف الاقطار الاسلامية منذ إيران إلى مراكش ، فهناك دوماً مناطق جبلية من حولها سهول وصحارى ، ومناخها جميعاً معتدل وأكثر ميلاً للجفاف ، كما أن نوع الحياة الحضرية والزراعية واحد . وترجع الوحدة ثانياً لتأثير العامل التاريخي فمجموع العناصر التي كانت تشكل القاعدة البشرية في الشام ومصر والعراق هي من بقايا العرب القدماء وكانت على صلة بشعوب آسيا وأفريقيا التي انطوت تحت لواء الدولة الجديدة التي جاءها الاسلام ، فوحّد الناس فيها في لغة واحدة ودين واحد وحكم متشابه الأسس . ومن هذا وذلك مشت الأساليب الفنية متشابهة في كل مكان .

٢ — إنه فن ديني بمعنى أنه تأثر بروح الاسلام وانصبت أنواعه المختلفة على المواضيع الدينية في الدرجة الأولى : من بناء للمساجد والمدارس



شكل — ٤٣ —
زخرفة موجودة في واجهة مسجد شمس الدين صنقر في القاهرة صنعت عام ٧١٥ هـ . وتعد نموذجا من الزخرفة الاسلامية في مصر في أوائل القرن الثاني الهجري

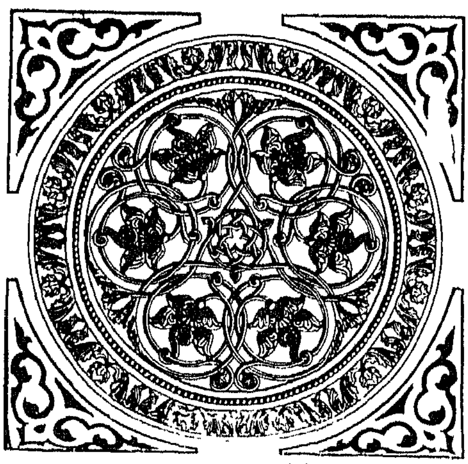


شكل — ٤٤ —
زخرفة موجودة الان في المسجد الذي بناه خاير بك أحد امراء المماليك في عهد السلطان الفوري أول حاكم من المماليك عينه العثمانيون بعد فتح مصر، والمسجد في القاهرة، بني عام ٩٠٨ هـ وفي الزخرفة اسلوب التوشيح العربي . ويعني التوشيح تكرار عنصرين زخرفيين أو أكثر متشابكين تشابكا هندسيا ، متماثلا أو منتظما ، تتباين فيهما الحركة تباينا توقيعيا (انظر دائرة المعارف الاسلامية . مقال آرابسك)



شكل ــ ٤٥ ــ

جزء من كتابة كوفية مزخرفة معقودة على هيئة قنديل ، من الطراز الايوبي . موجودة على ضريح في القاهرة اقيم في القرن السابع الهجري وينص هذا الجزء على كلمة : خالـدين



شكل ــ ٤٦ ــ

نموذج لزخارف اسلامية نباتية موجودة في مسجد الامير سيف الدين صفرتمش المملوكي في القاهرة صنعت عام ٧٥٧ هـ

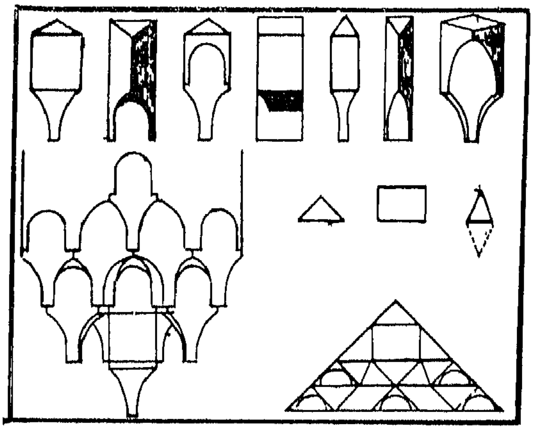
والتكايا ومن زخرفة بالآيات القرآنية ، وكثيراً ما كان الباعث على الأعمال الفنية باعثاً دينياً . ويكفي أن نستعرض الآثار الاسلامية من الكؤوس والمصابيح والأباريق في المتاحف إلى الأبنية الضخمة لنرى الدور الكبير الذي قام به الدين في الانتاج الفني .

٣ ـ إنه فن كثير الزخرفة : وملء القطعة الفنية بالزخارف عنصر رئيسي في الفن الاسلامي . نجد ذلك على الجدران والمنابر والسقوف كما نجده في المنسوجات والبسط والزجاجيات ، وفي التوابيت والشواهد وجلود الكتب . وقد اعتمد العرب على عنصرين اثنين في الزخرفة : الأشكال الهندسية التي برعوا فيها براعة مدهشة اقتبسها عنهم الغربيون من مضلعات مختلفة وأشكال نجمية متداخلة ودوائر مزجت خطوطها بالكتابة .. الخ . والأشكال النباتية التي تفننوا في تصويرها ولكن على طريقة التكرار كما في القاشاني والسجاد . ولم ترسم الأزهار مع ذلك بشكلها الطبيعي إلا في فارس وسورية . أما في غيرها ، ولا سيما في العصر الفاطمي فقد كان النبات والحيوان معه يحوّر إلى شكل زخرفي خالص .

واستخدم العرب الخط العربي ، بأنواعه المختلفة في التزيين ، وتفننوا في اختيار الآيات والحكم والاشعار للزخرفة بها ، ومن العبارات التي اشتهرت بها الزخرفة الاندلسية : « ولاغالب إلا الله » .

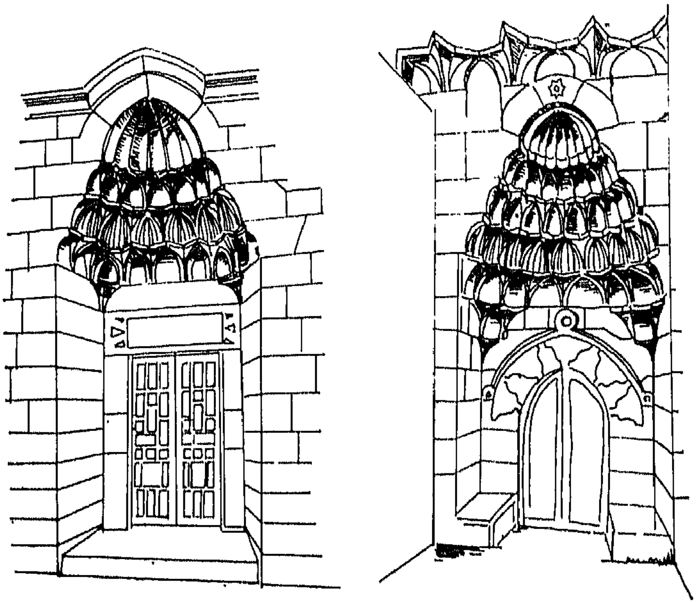
وبلغ الشغف بالتزيين في البلاد العربية والاسلامية أن غشيت أعالي المداخل والابواب والاواوين في الابنية بأشكال هندسية صغيرة متدلية عرفت بالمقرنصات .

٤ ـ إن الفن الاسلامي أهمل رسم الأشكال الانسانية والحيوانية وخاصة في أماكن العبادة . وليس معنى ذلك أن المسلمين لم يعرفوها



شكل — ٤٧ —
يرى الفنيون المعماريون ان المقرنصات الاسلامية تتالف من سبعة عناصر تشاهد في أعلى الشكل ومن اضافات تشاهد في الوسط ومن تنسيقها مع بعضها يحصل المعماري الفنان على المقرنصات البديعة الصنع التي تاثرت بها العمائر الاسلامية

إطلاقاً فقد أثبتت رسوم « قصر الحير » وتماثيله (وهي في متحف دمشق) وأشعار بعض الشعراء أن رسم الانسان والحيوان كان معروفاً ، ولكن أتقياء المسلمين كرهوا ما حاربه الرسول وكرهه أيام حارب الأصنام والشرك ، فبقي هذا العنصر الفني ضعيفاً مهملاً . واحتال بعض الفنانين على الأشكال الحيوانية فحوّرها حتى صارت أشبه بالزخرفة كما في صحن وجد في سامراء وعليه رسم نسر يظهر وكأنه ورقة مسننة مغطاة بالزخارف حتى ما يكاد يبين . وأهم مظاهر الفن العربي الاسلامي يتمثل في المدن والعمران والفنون الجميلة .



شكل ـ ٤٨ ـ
نماذج من المقرنصات الاسلامية
الشكل الاول على يمين الناظر ، يمثل المقرنصات من الطراز الايوبي
ولا تزال موجودة عند مدخل المدرسة الاتابكية في الصالحية
بدمشق . والشكل الثاني على يسار الناظر هي مقرنصات
مدخل مدرسة الصاحبة بدمشق

* * *

٢ ـ المدن الاسلامية

بناء المدن في الاسلام :

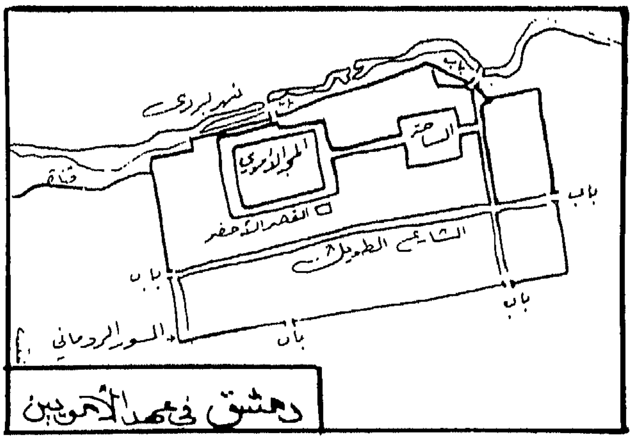
بدىء ببناء المدن في الاسلام في زمن مبكر جداً اذ ما كاد العرب يفتحون العراق ومصر حتى تونس في زمن عمر بن الخطاب حتى كانوا وضعوا اسس أربع مدن . وهذا مالم ينتبه إليه المؤرخ (ابن خلدون) حين كتب ان العرب ما دخلوا بلاداً الا أسرع إليها الخراب ! واستغل بعض الشعوبيين ذلك التشنيع ، وقد استمر بناء المدن قائماً حتى العهود الاسلامية المتأخرة .

وقد اختلفت الغاية والطريقة في بناء المدن الاسلامية الكبرى بعض الاختلاف عنها في المدن الاخرى . فبعض المدن القديمة كان ينشأ محطة للقوافل التجارية ثم ينمو بالتدريج وبعضها قرى تجارية أو مرفأ بحري ذو موقع هام ، كروما ومدن سوريا الساحلية ، وبعضها مما في واحة كدمشق ، أو على نهر أو منبع غزير كمدن مصر . أما المدن الاسلامية فكان الدافع الأول لبنائها هو الغاية الحربية في الدرجة الأولى لإقامة الجند ولإنزال الجاليات العربية الفاتحة ، كمدن الهلينيين في الشرق الأدنى بعد فتح الاسكندر . ولما استقر الحكم الاسلامي أصبح ينظر في بناء المدن إلى صلاحها لتكون حاضرة أو مركز تجارة .

وقد احتفظ العرب ، حتى فيما بعد نزولهم في المدن وعيشهم الحياة المدنية بالتنظيم القبلي وظلوا ينتسبون إلى القبيلة لا المدينة . ولهذا كانت

المدن تقسم منذ تأسيسها إلى احياء خاصة تدعى الخطط أو « القطائع » ينزل في كل خطة أو « قطيعة » قبيلة من القبائل . ولكل حي منازله ومسجده وسوقه حتى ومقبرته الخاصة . وكان لهذه السياسة اسوأ الأثر عليهم من الناحية السياسية اذ ابقت على الخلافات القبلية وزادت احياناً في احتدامها .

وكان يتوسط المدينة في الغالب قصر الحاكم والمسجد والجامع ودور القواد والحكومة وتحاط المدينة باسوار منيعة للدفاع كما كان للاحياء غالباً أبواب ضخمة يمكن اغلاقها عند الخطر .



شكل ــ ٤٩ ــ
اتسعت مدينة دمشق بعد أن أصبحت عاصمة الدولة الاموية وكثرت القصور واصبح المسجد الاموي آية في الفن والسعة واتخذ الناس الدور خارج سورها وشق فيها نهر يزيد

وقد انشأ المسلمون عدداً كبيراً من المدن بقي معظمها قائماً إلى اليوم كالبصرة وبغداد وسامراء ومرو والقاهرة والقيروان وفاس . كما وسعوا وزادوا من مساحة وابنية عدد آخر من المدن أهمها : اصفهان والموصل وحلب ودمشق والقدس والاسكندرية وقرطبة وغرناطة .

مـدن العراق :

كانت « المدائن » عاصمة الساسانيين وأهم مدن العراق قبل الاسلام كما كانت الحيرة أهم مراكز العرب في العراق . فلما كان العهد العربي حظي العراق باهم الامصار التي انشأها المسلمون سواء في صدر الاسلام أو في العهد العباسي اذ قام فيه في الأيام الأولى للفتح ، البصرة والكوفة ثم انشئت واسط ثم كانت بغداد فسامراء .

١ ـ **البصرة :** هي أول مدينـة بنيت في الاسلام وكانت من قبـل قرية صغيرة فأمر عمر بن الخطاب قواده إثر معركة القادسية بتخطيط بعض المعسكرات على اطراف العراق مما يلي البادية العربية لينزلها الجند العربي وعياله . فاختط عتبة بن غزوان في ربيـع سنة ١٦ هـ . مدينة البصرة وبنى المسجد ودار الامارة بجانبه ثم أمر ببناء خطط المدينة لكـل قبيلة خطة خاصة ، أي حي فيه مسجده واسواقه ومقبرته . ثم أخذ الناس يشيدون الأبنية من اللبن والآجر حتى اتسعت المدينة وجرت إليها الترع والمياه من شط العرب . ولم يمض نصف قرن على تأسيسها حتى غدا اهلها من العرب مائتي الف ومن الأعاجم حوالي مائـة الف وحتى اضحت مصراً من أهم الأمصار الاسلامية : فمن الناحية التجارية اضحت حاضرة العـالم الاسلامي وورثت الابلة كمرفأ بحري يصل الصين والهند عن طريق الخليـج العربي بالعراقين والشام والجزيرة وما وراءها . ومن النـــاحية السياسية كانت أحد مصري الاسلام في الشرق ، وكان سكانها من العرب يحسب حسابهم في كل أمر بجانب أهل الكوفة . ومن الناحية العلمية ظهرت فيها حيـاة أدبية راقية كان ميدانها سوق المربد المشهورة ، وقد درس علمـاء البصرة الدين واللغة واشتهر فيهم كثير من النحاة كانت لهم مدرسة خاصة في النحو تنافس مدرسة الكوفة .

وقد بدأ انحطاط البصرة منـــذ أواسط القرن الثالث الهجري وأهم النكبات التي أصابتها إذ ذاك تخريبها على يد الزنج في ثورتهم المعروفة .

٢) **الكوفــة :** بدىء بتأسيسها في الشهر الأول من سنة ١٧هـ (كانون الثاني سنة ٦٣٨ م) وذلك أن الجيش الفاتح لم يطب له المقام في المدائن عاصمة بلاد الفرس وظهر على جنده السقم لاعتيادهم جو الصحراء فأمر عمر بن الخطاب قائده سعد بن أبي وقاص ان يرسل رائدين يرتادان نزلاً للجند فوقع اختيارهما على مكان غربي الفرات انتقل المحاربون وعيالهم إليه وعسكروا فيه ثم بنوا بيوتاً من القصب مالبثت ان التهمتها النيران فأمر الخليفة باتخاذ دور دائمة من اللبن وبأن يؤسس في المدينة مسجد جامع ودار للأمارة فبني المسجد وسط المدينة حيث تتفرع الطرق والحارات وكان أول شيء خط بالكوفة كما يذكر الطبري ، وبنى سعد منزله قريباً من المسجد وفيه اتخذ بيت المال . وتحول إلى قصر الامارة . وقد دلت الحفريات الجديدة في الكوفـة ان قصر الامارة كما يقول بشير يوسف فرنسيس : شيد بالآجر المحكم التشكيل والجص ، وكان مربع الشكل تقريباً وكانت تدعم ثلاثـــة من أركانه أبراج مستديرة .

وما لبثت الكوفة ان عمرت بالمباني التي قام على انشائها بناؤون من الفرس ووفد إليها كثير من الناس حتى اتخذهـا علي بن أبي طالب مقراً لملكه بعد ان غادر المدينة ، لكثرة اشياعه فيها وتوسطها في الأراضي الاسلامية وحفظها لطابعي الحياة البدوية والحضرية معـــاً . ولكن نجاح معاوية بتأسيس الدولة الاموية حرمها هذا المكان السياسي الممتاز وأخذت دمشق مكانها .

ومع هذا فقد حافظت الكوفة على مكانة سياسيـة مرموقـة . خلال

العهد الأموي اذ غدت قصبة العراق ، وكان يعهد إلى واليها بتعيين ولاة أذربيجان وهمذان وأصبهان والموصل . ويضاف إلى هذا في شأنها السياسي أنها غالباً ما كانت مقر المعارضة والنقمة على الحكم الاموي وفيها قيادة الحركة الشيعية ومنها أديرت الحركة العباسية السرية حتى كانت أولى عواصم العباسيين . وقد شهدت في العهد العباسي عدداً من التيارات السياسية الدينية أهمها الحركة الاسماعيلية والقرمطية . واذا امتازت البصرة بالتجارة فقد امتازت الكوفة بالسياسة .

أما في الناحية العلمية فالكوفة ثاني المصرين في العراق ، ولم يكن علماؤها في الفقه والدين والشعر واللغة والنحو ليقلوا شهرة عن علماء البصرة . ولم يبدأ انحطاط المدينة الا منذ القرن الرابع وقد ورثتها اليوم النجف .

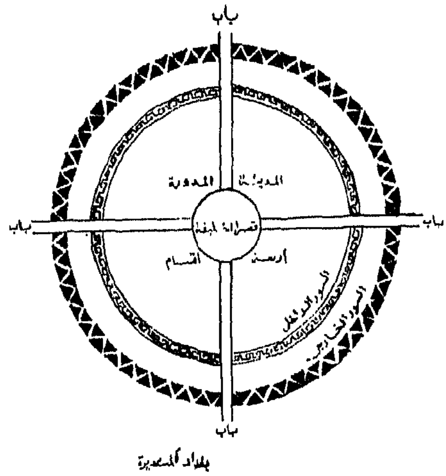
٣) **واسط** : بعد أن وطد الحجاج أمر الحكم والامن في العراق رأى أن يتخذ له مركزاً لادارته ومقراً لجنده قريباً من البصرة والكوفة معاً ، مهد الحركات الثورية المناوئة يجعل فيه الجنود الشاميين الذين يرسلهم عبد الملك لشد أزره وليكونوا عدته يوم النوائب ولا يختلطوا بالعراق والجند العراقي لئلا تسري فيهم روح الثورة . فاتخذ مدينة واسط في مكان قريب من بلدة الحي اليوم ، واسط بين البصرة والكوفة معاً . ومنع الموالي من دخولها ولكن سكانها تنوعوا فيا بعد ، وجاء أحد ولاة البصرة بجماعة من اتراك ماوراء النهر فأنزلهم بها ولم تعد مدينة عسكرية خاصة .

وقد كان قد تم بناء واسط عام ٨٣ هـ (٧٠٣ — ٧٠٤ م) كما يؤكد البلاذري والطبري والسمعاني وياقوت والقزويني وكانت واسط على جانبي دجلة ، وكانت قبل البناء الاسلامي مدينة ساسانية اسمها كسكر . وقد دفن فيها الحجاج (٩٥ هـ) كما يقول ابن خلكان .

وظلت واسط عاصمة العراق طوال العهد الاموي ، ثم بـدأ عزهـا بالافول مع انتقال الحكم إلى العباسيين . وما جاء القرن الثاني للهجرة حتى هجرها الناس هجرانا تاماً لتحول مجرى دجلة إلى مجراه الحـالي ، فصارت خراباً وتعرف خرائب واسط اليوم باسم المنارة . وقد كشفت اليوم مديرية الآثار العامة العراقيـة عن المدينـة منـذ ١٩٣٦ ، واظهرت جامع الحجاج وقصره ذا القبة الخضراء واستخرجت الكثير من زخارفـه وقوام اكثرها غصن كرمة متموج يتشابك ورقها مع غصونها ، وكذلك ازهار وعناقيد وغيرها او زخارف نباتية اخرى ونجوم وازهار ...

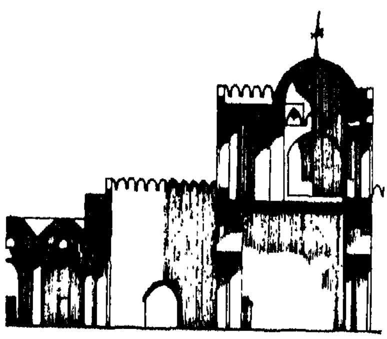
٤) **بغـداد :** كان لابد مع انتقال الحكم للعباسيين من البحث عن عاصمة جديدة ، غير دمشق الاموية ، وقد بويـع السفاح في الكوفة ولكنه استبدل بها الحيرة ، عاصمة له ثم انتقل إلى الانبار وبنى بها « الهاشميـة » ولكنها لم ترق للمنصور من بعده ، ففتش عن مكان جديد يبنى به عاصمة جديدة للملك الجديد فوقع على : قرية بغداد . على الضفة الغربية من دجلة. وقد كان اختياره للمكان موفقاً جداً وتوضحت له فيما بعد ميزات هامة هي التي أبقت على بغداد إلى اليوم فهي تقع في منطقة زراعية تتوسط العراق وتمر منها الطرق التجارية العالمية كما أنها سهلة التموين والري حصينة الموقع بين الأنهار ، جيدة المناخ .

وقد سمى المنصور مدينته دار السلام وسماها بعضهم بالروحاء والزوراء والمدورة ، لاستـدارة مخططها ، ولكن الاسم الذي بقي لهـا هو الاسم القديم للموقع وقد اختلف المؤرخون في تفسيره على أساس فارسي معنـاه بستان الله او عطية الله ، والمدينة التي بناها الله وهو على الارجح آرامي معناه سوق الغنم (ب ــ مختصر بيت ثم كدادو ــ غنم) .



شكل ـ ٥٠ ـ

مخطط مدينة بغداد الذي نفذ في عهد الخليفة العباسي المنصور وهو نواة العاصمة العباسية التي اتسعت فيما بعد .



شكل ـ ٥١ ـ

مقطع لإحدى بوابات بغداد التي بناها المنصور عام ٧٦٢ م وكانت تعلو كل بوابة من بواباتها الاربع قاعة ويعلو القبة القائمة فوق القاعدة ، رامح يتحرك بحركة الريح .

وضع مخطط المدينة على نهج مستحدث في بناء المدن الاسلامية : دائرة يتوسطها قصر الخليفة ومسجده ويحيط بها قصور القواد ورجال الدولة ثم تقوم الاسوار : سوران يسكن بينهما الرعية لها أربعة أبواب مزدوجة. ولعل الذين خططوا المدينة تأثروا بالهندسة الفارسية .

وأمر المنصور قبل مباشرة البناء بجلب المهندسين والبنائين والعمال من جميع أطراف مملكته حتى ناف عددهم على المائة الف عامل ، وأمر بصب اللبن والآجر ، ثم قام المهندسون برسم شكل المدينة على الأرض وتخطيطه بالرماد ، ثم أمر بأن يوضع على المخطط قطن مغموس بالنفط ويشعل . وبذلك ظهر له في الليل شكل مدينته الجديدة ، فأعجبته ، وأمر بمباشرة البناء في سنة ١٤٥ هـ . وكانت المدينة مستديرة يبلغ قطرها نحواً من ثلاثة آلاف متر فيما إذا اعتبرنا السور الخارجي حداً لها ، لأنه كان لها سوران ، ومقسمة إلى أربعة أقسام متساوية ، ولها أربعة أبواب هي : باب الكوفة ، وباب البصرة ، وباب خراسان ، وباب الشام . وقيل ان المنصور أمر بنقل أبواب واسط اليها ، وفي وسط المدينة بني قصر المنصور الذي سمي قصر الذهب ، وقبالته مسجد المنصور ، وكلف المنصور أبا حنيفة النعمان بمراقبة البناء ، والعمال ، كما اهتم بنفسه بكل ناحية من نواحي البناء ، وكان يحاسب المتعهدين حساباً عسيراً ، حتى لقبوه بالدوانيقي نسبة إلى أصغر قطعة نقدية كانت متداولة ، تلويحاً إلى أنه كان يحاسبهم عليها ... وبعد اتمام البناء ، وازدحام المدينة بالسكان اقتطع عماله وقواده قطائع وأرباضاً خارج الاسواق فعمروها وبنوا فيها القصور، ثم أمر ببناء الرصافة لابنه المهدي وجعل فيها ثكنات الجيش ، ثم بنى الكرخ جنوبي المدينة في سنة ١٥٧ هـ ، واتخذ جميع الخلفاء العباسيين بغداد عاصمة

لهم إلى أن قضى عليهم التتر سنة ٦٥٦ ﻫ وأصبحت بغداد أعظم مدن العصور الوسطى في الكرة الأرضية ، اجتمع لها ما لم يجتمع لغيرها من أعاظم الخلفاء كالرشيد والمأمون ، ومن أشهر العلماء والأدباء والفنانين ، والتجار والصناع فكانت مركزاً جامعاً لكل ما في الأملاك الاسلامية من ثقافة وحضارة وفن وغنى .

٥ ــ سامراء : قصة سامراء من أغرب وأمتع قصص المدن : قصة ارض قفر تصبح في سنوات معدودة عاصمة الدنيا الاسلامية وأكبر مدينة في العالم ثم تنطفيء فجأة بعد نصف قرن فيعود الهدوء والخراب الى المكان.

بعد قرن واحد من بناء بغداد خطرت المعتصم فكرة بناء عاصمة جديدة لا عن حاجة لعاصمة ولكن لأن عصبية جديدة كانت تظهر في الدولة هي : الأتراك الذين أدخلهم المعتصم الجيش . فبغداد قد ضاقت بهم كثرة وكانت فيهم خشونة وأذى ضاق بها البغداديون ودبت المنافسة بين الترك والفرس والعرب من الجند مما أنذر بالخطر ، ففتش المعتصم عن مكان جديد له ولأصحابه وتنقل في عدد من الأماكن قبل أن يستقر بسامراء على بعد ١٣٠ كم من شمالي بغداد ، على دجلة .

والاسم قديم دون شك . وقد زعم الناس فيما بعد أيام عزها ، أنه محرف عن : سر من رأى لجمال المدينة ، وأيام خرابها عن « ساء من رأى » لسوء منقلبها . وكان المكان المختار جيداً ، جودة مكان بغداد . فهو خصب حصين ، تجاري ويتوسط المملكة كما يتوسط العراق .

شرع المعتصم بتخطيط حاضرته سنة ٢٢١ ﻫ . ٨٣٦ م فطلب الفعلة والبنائين وأهل المهن من الحدادين والنجارين وسائر الصناعات ، من كل مكان . وبدأ فوضع أساس قصره العظيم ، ووزع القطائع على جنده وعين

أماكن الاسواق والبساتين ولكنه لم يؤكد على بناء الأسوار لاطمئنان الدولة وثبوت أركانها ، وانما عني بفصل الجيش ودواوين الدولة عن السكان كما عني بفصل فرق الجيش بعضها عن بعض ، وجعل قائد كل فرقة يبني قصره في قطيعة فرقته . ووجه الخليفة همه بعد ذلك الى عمران البلد الاقتصادي : فنشر الزراعة في غربها وجلب لها الاشجار وحفر الترع وحرص على جمع أرباب الصناعات فيها ووسع صفوف الاسواق الخ ...

ويلاحظ في مخطط المدينـــة ، ومن آثارها الباقية ، أن المعتصم عني بتقسيمها تقسيما اجتماعياً عسكرياً يتناسب مع كونها معسكراً اولا ومركزاً حضريا ثانيا . فجاء مخططها ممتداً على ضفة دجلة الشرقية زهاء (٢٠) كم ، وجعلت الشوارع متوازية تتقاطع بزوايا قائمة ويتوسطها على طول المدينة الشارع الاعظم الذي يزيد عرضه على ٢٠٠ ذراع ، وهـــذا ما يذكر بالتخطيط اليوناني للمدن . وقد سمى لنا ياقوت في معجمه (١٧) قصراً بناها المعتصم والمتوكل في سامراء من أهمها : دار العامة وبيت الخلافة وقصر الجوسق على دجلة وقصر لؤلؤة وهو السجن السياسي . هذا الى ماأقيم في سامراء من حلبات السباق الثلاث وحديقة للحيوان .



شكل — ٥٢ —
نقش على الرخام في مدينة المهدية
في تونس (محفوظ في متحف باردو)

ولاشك أن فترة العمران الكبرى في حياة سامراء هي فترة المتوكل الذي انفق في بناء القصور بالمدينة مايزيد عن (١٤٠) مليون درهم وبما بناه البركة المشهورة والمسجد الجامع ، ومساحة صحنه الداخلي ٤٤ ألف م٢ بينما لاتزيد مساحة كنيسة الفاتيكان عن ١٥ الف م٢ مثلاً وأهم ظاهرة فيه هي المئذنة الملوية التي بنيت على طراز (الزقورات) القديمة ولا تزال قائمة بجانب آثار الجامع الى اليوم

ولقد ضاق المتوكل ذرعا بالاتراك في السنوات الأخيرة من عهده فحاول الهرب منهم الى دمشق ثم عاد فبنى في شمال سامراء مدينة لصيقة بها عرفت بالمتوكلية فامتدت سامراء ١٥ كم أخرى على ضفة دجلة وامتد شارعها كذلك وبنيت فيها قصور رائعة منها الجعفري ، كما ابتكر نموذج جديد في بناء القصور يدعى الحيرى قلده الناس فيما بعد . وانفق المتوكل في المدينة الجديدة (٢٠٠) مليون درهم وانتقل اليها ونقل معه دواوين الدولة سنة ٢٤٧هـ ولكنه قتل بعد ذلك بتسعة اشهر فقط وعاد الناس فأهملوا المتوكلية الى سامراء ولكن هذه المدينة أهملت بدورها سنة ٢٨٩هـ في نهاية خلافة المعتضد العباسي الذي انتقل الى بغداد ... فاندثرت شيئاً فشيئاً .

وقد عنيت دائرة الآثار العراقية بالكشف عن آثار المدينة وترميم المئذنتين الباقيتين لجامع الجمعة وجامع ابي دلف ورغم انهما معاً على شكل ملوية ، فانه حين يقال « الملوية » يقصد بها مئذنة جامع الجمعة . وتقع خارج ضلع الجامع الشمالية على ٢٥ متراً منها ، وفي محور الباب الوسطي ، وهي مئذنة مخروطية الشكل بوجه عام تستند الى قاعدة مربعة ، يصعد الى قمتها من سطح مائل عريض يدور حول بدنها من الخارج دوران الحلزون ، ويبلغ طول ضلع القاعدة ٣٢ متراً وقطر قبة الملوية ٦ أمتار ، ويبلغ

علو المئذنة عن سطح الارض ٥٢ متراً

ويبدأ الدرج الحلزوني الذي يوصل الى القمة ، من وسط الضلع الجنوبية ، اي التي قبالة الباب الشمالي للجامع ، ويدور حول بدن المئذنة باتجاه دوران الساعة ، خمس مرات ، الى ان يصل الى باب في القمة ينفتح هو ايضاً في وسط الجبهة الجنوبية .

وينتهي اعلى المئذنة بغرفة صغيرة مدورة الشكل يبلغ علوها نحو ٦ امتار في فوجة جدارها ثماني مشكيات صغيرة مذببة العقد ومقعرة السطح ، وتقوم احدى هذه المشكيات مقام باب يفضي الى داخل الغرفة ، ويوصل الى ذروتها مدرج حلزوني يدور داخلها حول محورها .

مدن الشام :

لم يحظ الشام ، من بناء المدن الاسلامية بمثل ماحظي به العراق اومصر ايضاً ، لكثرة مدنه من جهة ، وقصر عهد الخلافة الاموية من جهة اخرى ، وعدم استقرار أسرة حاكمة كبرى أو عهد من العهود بالشام بعد الامويين.

وقد أسس العرب الفاتحون مدناً ـ معسكرات في الشام كما في العراق: فأقاموا الجابية قرب دمشق و (دابق) شمالي حلب ولكن هذه المدن الجديدة لم تستطع أن تنافس المدن القديمة العريقة قربها . فان معاوية استقر في دمشق كما ان الخطر الدائم على الحدود البيزنطية لم يجرىء الناس على سكنى دابق ... وهكذا انقضى القرن السابع الميلادي (قرن الفتح) دون أن ينشىء الامويون مدينة جديدة في سوريا . وأنشئت في القرن الثامن وفي زمن الخليفة سليمان (٧١٥ – ٧١٧ م ٩٦ – ٩٩ ﻫ) مدينة :

الرملة : على الطريق الممتد بين القدس والبحر ، وقد نقل سليمان اليها سكان مدينة (اللد) المجاورة فعمرت المدينة الجديدة بهم واتسعت وبالرغم من شأن (اللد) من قبل ، ومن مكانة القدس الدينية ، فقد ظلت الرملة عدة قرون مدينة فلسطين الاولى ومركز الولاة ؛ على ان بناء الرملة لم يكن لغرض سياسي او عسكري ولهذا لم تتسع كثيراً وظلت مكانتها محلية .

الرصافة : برزت هذه زمن هشام بن عبد الملك (٧٢٤ – ٧٤٣ م ١٠٥ – ١٢٥ هـ) وعهده العمراني . فقد ظهر أنه كان مولعاً بالمواقع الصحراوية والعناية بها . وموقع هذه المدينة في البادية على ٤٢ كم إلى جنوب الرقة والفرات . وقد جدد سورها ومبانيها وكان يتردد اليها . ولم تندثر المدينة الا زمن الملك الظاهر بيبرس الذي نقل سكانها الى حماه وسلمية . أما آثارها اليوم فمن أجمل آثار البادية السورية .

الرقة والرافقة : ترجع الرقة في بنائها الى عهد الاسكندر المقدوني غير أنها لم تبرز في العهد الاسلامي الا زمن المنصور الذي بنى بجوارها مدينة عسكرية مستديرة ، على مثال بغداد ، هي الرافقة .

وكان غرض المنصور من بناء المدينة ان تكون معسكراً اماميا تتجمع فيه الجيوش لحرب البيزنطيين ولهذا الغرض نفسه استخدمها الرشيد ايضاً ، وكثرة حروبه هي التي جعلت مقامه فيها كثيراً وجعلته يبني فيها عدداً من القصور . قال بسببها المؤرخون أن الرافقة كانت مصيفه . وتردد الخلفاء والقواد والجند على الرافقة جعلها تتسع حتى تتصل بالرقة في جوارها وتأخذ اسمها ، لاسيما بعد تخريب المغول لها في القرن الثالث عشر .

وبقايا قصور الرشيد في الرافقة وبقايا سورها الآجري ، وأحد ابوابه

مازال موجودة قرب الرقة الحالية . غير ان المئذنة الآجرية القائمة هي من عهد نور الدين بن زنكي .

على ان اهم ما بناه المسلمون في الشام انما كان في مدنها القديمة نفسها : كدمشق وحلب والقدس .

مدن مصر :

الفسطاط : في مصر ايضاً بدأ بناء المدن مبكراً على شكل معسكر للفاتحين الجدد : فان فاتح مصر عمرو بن العاص لم يشأ أن يتخذ الاسكندرية ، وهي مرفأ بحري ؛ من جهة وبلد مملوء بغير العرب من جهة أخرى ، عاصمة له . ففعل كغيره من الفاتحين إذ استشار الخليفة عمر بن الخطاب فكتب إليه عمر : « اني لاأحب أن تنزل المسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف ، فلا تجعلوا بيني وبينكم ماء ، متى أردت أن أركب اليكم راحلتي حتى أقدم عليكم قدمت » لأن عمر سمع بفيضان النيل وبامكان انقطاع الاتصال بينه وبين جنده فتخير عمرو مكاناً هو اليوم القسم الجنوبي من القاهرة على ضفة النيل الشرقية ليقيم فيه معسكر جنده ودعى المعسكر الجديد بالفسطاط (ولعلها من فساتون Fossaton باللاتينية واليونانية ومعناها ما هو محاط بخندق) وكان ذلك ٢١ هـ

والمكان من أقدم النقاط المدنية في وادي النيل وكانت فيه ممفيس ، كما أن عمراً أدرك فيه حصناً للرومان يدعى حصن بابليون . وهذا مايفسر سرعة اتساع الفسطاط وتحولها بسرعة إلى مركز مدني هام امتد على ساحل النيل الشرقي خمسة كيلومترات تقريباً بعرض كيلو متر واحد . وقد أقام عمرو بن العاص في المدينة شارعاً يتوسطه ميدان بنى به مسجداً مايزال يحمل اسمه إلى اليوم . (جامع عمرو) .

وبقيت الفسطاط قاعدة القطر المصري للولاة العرب نحو قرن من الزمان ثم بنى بجوارها ، في مطلع العهد العباسي وعلى يـد صالح بن علي (عم السفاح) مدينة للجند سنة ١٣٢ هـ دعيت بالعسكر . ولما آل حكم مصر لأحمد بن طولون بنى بجانبها بلدته المعروفة بالقطائع وبنى جامعه المشهور ذا المئذنة الملوية وقصره المدعو بالميدان . وبعد ذلك بحوالي نصف قرن بنيت مدينة :

القاهرة : ما كاد يتم على يد جوهر الصقلي فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ ، باسم الخلافة الفاطمية وصاحبها المعز لدين الله الفاطمي ، والمقيم في تونس ، حتى فكر الفاتح بنقل مركز هذه الخلافة إلى مصر ، وبناء مدينة جديدة تكون مقراً لأسياده ، ومركزاً قريباً من الشرق لنشر الدعوة الفاطمية وتخير لذلك مكاناً في جنوب القطائع ، وسميت « القاهرة » وقيل في سبب اختيار هذا الاسم عدة اقوال لعل اقربها انها « قاهرة » للحدثان ، باقية على كر الزمان .

وقد بدىء ببناء القاهرة في يوم مشهود (شعبان سنة ٣٥٨) فوضعت أسس أسوارها لتكون معسكراً حصيناً ، كما وضـع جوهر أساس قصر فخم لمولاه المعز الفاطمي . وأخذت كل قبيلة من قبائل البربر المحاربة معه تخط لنفسها خططاً خاصة تبنيها باسمها ، واطلق على المدينة اسم المنصورية نسبة للمنصور والد الخليفة فلما قدم المعز سماها باسمه القاهرة المعزية .

وكانت المدينة على شكل مربع ، بعيدة عن ساحل النيـل . ولكن سرعان ما كثرت الأبنية في ظاهرها خارج الأسوار فامتلأت المنطقة بين جبل المقطم والنيل بالسكان بينما كانت القصور الفاطمية كالقصر الكبير الشرقي مثلاً ودواوين الدولة ، كلها داخل الاسوار . وأهم ما بناه جوهر في المدينة هو المسجد : « الجامع الأزهر » الذي بني للصلاة اولاً ولكنه سرعان

ما تحول في زمن المعز إلى جامعة علمية لنشر الدعوة الفاطمية .

وقد استطاعت القاهرة أن تكون ثانية حواضر الاسلام بما أسبغ عليها الفاطميون من عز وبذخ في عهودهم الزاهرة ثم قيض لها ان تصبح حاضرة الايوبيين ثم المماليك من بعد ، مما جعلها تغنى عصراً بعد عصر بالابنيـــة المختلفة . ولم يبدأ همودها الا بدخول السلطان سليم مصر سنة ١٥١٧ م . وقد استمر ذلك الى عهد محمد علي وأولاده في العصر الحديث ، فاستعادت عظمتها كمدينة حضارية وسياحية وسياسية في دنيا العالم عموماً والعرب خصوصاً وكمركز ثقافي اسلامي وعلمي حديث . خاصة انها توسعت جـداً حتى ضمت حواضر مصر السابقة ؛ وكثيراً من آثار مصر الفرعونية ، فجمعت في رقعتها تاريخ آلاف السنين من حضارة مستمرة راقية

مدن المغرب :

القيروان : في سنة خمسين هـ . غزا عقبة بن نافع في عهد معـاوية ، بلاد المغرب وانتصر على البربر وعينه معاوية والياً على افريقيا ففكر باتخاذ مدينة محصنة تكون مركزاً لعملياته الحربية وداراً للتموين والسلاح لمتابعة الفتح وملجأ اميناً للجند العربي من تألب البربر عليها ، واختار لذلك مكاناً قريباً من تونس الحالية ، مملوء بالغابات ، وأمر ببناء مدينة القيروان .

وقد اختط عقبة المدينة على نهج المدن ــ المعسكرات ، فاختط في وسطها المسجد الجامع ثم دار الامارة ثم بيوت الجند وبنى حولهـا سوراً متيناً . واستمر العمل في بنائها طيلة اربع سنوات (٥٠ ــ ٥٤ هـ / ٦٧٠ ٦٧٤ م) وكان اهتمام عقبة ببناء الجامع اكثر من بقية احياء المدينة حتى قيل : « لم يبن عقبة مدينة لها جـامع ، بل بنى جامعاً له مدينة » . وقصد عقبة ان يكون الجامع قيرواناً أي معسكراً وحصنـاً ، واختار مكان قيروانه بعيـــداً عن شاطىء البحر ليكون المسلمون في مأمن من

اسطول الروم وغارات الفرنج التي كانت لا تزال تنقض على تونس من صقلية وإيطاليا واليونان ، فتحتل وتخرب مدن الساحل مثل سوسة وجوبا . وقد قال له أصحابه حين فتش على مكان المدينة الجديدة : « نحن اصحاب إبل ، ولا حاجة لنا بمجاورة البحر » وكانت الصحراء التي اقيمت فيها المدينة تشبه صحراء الحجاز وعسير ، فوجد عقبة ان الجندي العربي المسلم فيها لن يشعر بالغربة او التغرب عن بـــلاده ويعيش في بيئة جغرافية ملائمة . وسرعان ما اصبحت القيروان قاعدة مملكة افريقيا .

وبذلك ، كما يقول أحد الكتاب ، اصبحت الغابة الكثيفة التي كانت مرتعاً للوحوش والزواحف أرضاً مستوية تقوم فوقها تلك المدينة الزاهرة التي لا تزال آثارها قائمة إلى اليوم . وقد اتخذها الفاطميون في أول تأسيس دولتهم عاصمــة لهم ، ثم انتقلوا منها إلى المهدية فالقاهرة بعد ان أسسها لهم قائـدهم جوهر الصقلي . ومن بعدهم اتخذها ملوك الصنهاجيين مقراً لهم ، كما كانت منزلاً لأهل قريش من بني فهد وبني تميم وبني هاشم . وفيهـــا مدافن عدد من الصحابة

المهــدية : وقد اتخذ الفاطميون من القيروان عاصمة لهم في مطلع عهدهم حتى وضع عبيد الله بن المهدي سنة٣٠٣ هـ أساس مدينـــة جديدة في جنوبها على الساحل هي « المهدية »خوفاً على نفسه . ولم تلبث هذه المدينة ان اصبحت مرفأ هاماً بين الشام ومصر من جهـــة ، وصقلية والمغرب والاندلس من جهة اخرى . وبنى المهدي فيها داراً للصناعة تتسع لأكثر من مائتي مركب . وامر في الوقت نفسه ببناء مدينة أخرى بجوار « المهدية » سماها زويلة ذات سور وابواب وحراس ايضـــاً ، وجعلها للأسواق ، وربط بين البلدين بميدان فسيح .

وقد ظلت المهدية حاضرة الفاطميين حتى انتقلوا إلى مصر والقاهرة سنة

٣٦٢ هـ . وظلت آهلة بالسكان حتى افتتحها روجر النورمندي صاحب صقلية سنة ٥٤٣ هـ .

فاس : هي احدى المدن الاسلامية القليلة التي لم تبن كمعسكر ، فقد وصل ، ادريس بن عبد الله هارباً إلى المغرب الاقصى بعد موقعة فخ (أيام الهادي سنة ١٦٥ هـ) واستقر في بعض القبائل البربرية ثم قام ابنه الشاب ادريس (الثاني) بعد أن بايعه الناس فبنى مدينة فاس لأنصاره وشيعته سنة ١٩٢هـ (٨٠٧ م) فتم بناؤها في سنة . وقد قدم عليه فيها جماعات كثيرة من العرب : من ضواحي قرطبة ، ومن القيروان ، وألف هؤلاء النواة الأولى للحيين الأساسيين في المدينة .

وأهم مابني في فاس أول بنائها : السور الحجري ، والمسجد الجامع ومنارته التي تشبه منائر القيروان بالقبة التي تعلو رأسها . وقد استمر العمران في المدينة في عهد يحيى بن محمد الادريسي خاصة إذ بنيت فيها « الحمامات والفنادق للتجار واقيمت خارجها الارباض ورحل إليها الناس من الثغور القاصية » وقد امتلأت فاس بالآثار الاسلامية الرائعة فيما بعد انقراض أصحابها لاسيما في عهد الدولة المرينية (القرن ١٣ — ١٦) التي حولت فاس إلى مدينة جديدة مزدهرة بالأعمال العمرانية التي تمثل تراث فاس الثمين : وتقدر بثمانمائة وخمسين بناء بين جوامع ومدارس وتكايا عدا ٦٠٠ سبيل ومائة حمام ومائتي مدرسة ومائتي فندق . ومن أشهر الأبنية جامع الأندلس وجامع القرويين أكبر جوامع المغرب وزاوية مولانا ادريس . وشبّه الكتاب فاس بمدينة دمشق في روائها الفني وطبيعتها الخلابة . كما شبهوا مدينة مراكش ببغداد بأبنيتها وقصورها وحدائقها ، ولم يبدأ انحطاط فاس إلا زمن الشرفاء السعديين منذ القرن ١٦ .

مدن الاندلس :

قرطبة : ليست قرطبة في الاصل من بناء العرب وإنما كانت عاصمة الأندلس زمن القوط ، ويقال أن قرطبة أقدم مدينة في شبه جزيرة ايبريا . انشأها مهاجرون وتجار من فينيقيا وسواحل الشام في نفس الوقت الذي انشؤوا فيه قادس وقرطاجنة ومالقة وغيرها من جنوب شبه الجزيرة فهي مدينة تدين للعرب القدماء بنشأتها ، وقد اتخذها فاتح اسبانيا ، موسى بن نصير قاعدة له ، ودعا فيها للخليفة الوليد بن عبد الملك . وكان اتخاذ المسلمين لقرطبة مقراً لهم مما يؤذي سكان البلاد الأصليين فثاروا مراراً وحاولوا استرجاعها دون جدوى . ولما فر عبد الرحمن الداخل إلى الاندلس اتخذ قرطبة مقراً للدولة الأموية الأندلسية . واقيم فيها الكثير من الأبنية والقصور وخاصة المساجد وتبلغ ثلاثة آلاف . ويعد المسجد الجامع الذي بناه عبد الرحمن الداخل فيها من النماذج البديعة لما وصل اليه الفن العربي . وبالرغم من أنه حول إلى كنيسة منذ حوالي خمسائة سنة إلا أن الطابع الاسلامي واضح فيه إلى اليوم . وقد كان له واحد وعشرون بابا وفيه ١٢٦٣ سارية ومنبر ركب من ست وثلاثين ألف قطعة من العاج مرصع أكثرها بالمسامير الذهبية والحجارة الكريمة ، وتسمى الكنيسة الجديدة التي أقيمت داخل جامع قرطبة باسم الجامع الكاتدرائية (لا ميثكيتا كاتيدرال) وهي اغرب تسمية في الدنيا . والجامع يقع على ضفة الوادي الكبير وأمامه القصر الاسقفي وكان قصر الخلفاء ، وبينها يجري شارع كان يسمى المحجة العظمى .

ويمتاز هذا البناء الاسلامي باقواسه المزدوجة التي تعطيه شخصية يتميز بها عن جوامع العالم ، وقد لجأ إلى هذه الطريقة المهندس المعماري الذي بناه ليزيد في ارتفاع السقف حتى يصبح متناسباً مع مساحته ولم يقلد في

مكان آخر معروف ... وكان هذا الجامع أيام الحكم العربي مدرسة كبرى ومحكمة ، فقد كانت حلقات الدروس تقام عند كثير من اعمدته ، كما كان قاضي قرطبة يعقد فيه مجلس الحكم كل يوم ... ويعقد جلسة خاصة صباح كل خميس على باب المسجد لا داخله للحكم في مايعرض عليه من قضايا النصارى واليهود في قرطبة .

وقد وصف الشاعر أبو محمد بن عطية قرطبة وما تفخر به على سائر المدن بقوله :

باربع فاقت الامصار قرطبة	وهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان ، والزهراء ثالثة	والعلم ، أكبرشيء ، وهو رابعها

كما وصفها شاعر آخر بقوله :

دع عنك حضرة بغداد وبهجتها	ولا تعظم بلاد الفرس والصين
فما على الأرض قط مثل قرطبة	وما مشى فوقها مثل ابن حمدين

وقد ذكر المؤرخون ان سكان قرطبة زمن عبد الرحمن الناصر بلغوا نيفاً وخمسمائة ألف وأن دورها زادت عن الثلاثة عشر ألف دار وحماماتها العامة بلغت ثلاثمائة حمام ومساجدها ثلاثة آلاف وكان لها ثمانية وعشرون ضاحية . وقد أطلق عليها الاوروبيون في القرن العاشر الميلادي اسم « جوهرة العالم » .

الزهراء : وإلى الشمال الغربي من قرطبة بنى الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٥ هـ مدينة الزهراء ، على اسم جارية له ، لحاجته بعد أن وطد حكمه إلى مدينة عاصمة . وقد تأنق الناصر في البناء فجلب للمدينة الرخام بمختلف ألوانه من كل مكان ، وعمل في البناء عشرة آلاف عامل

يومياً واستمر العمل في عهد ابنه المستنصر من بعده حتى سنة ٣٦٥هـ، أي حوالي أربعين سنة !

وكانت الزهراء ضاحية ملكية تشبه قصر فرساي وقصر الاسكوريال اللذين بنيا بعدها بعد قرون . وكانت تشتمل على ثلاث مدن متدرجة في البناء على سفح الجبل ولكل منها سورها : أعلاها فيها القصور وفي الثانية الجنات والبساتين وفي الثالثة الديار والجوامع . وبنى الناصر لنفسه قصره العظيم « دار الروضة » . فغشى الجدران بالذهب والرخام السميك الصافي واتخذ قرميد السقوف من الذهب والفضة ، وفي وسط القصر صهريج عظيم مملوء من الزئبق تنعكس أشعة الشمس منه على القصر فيصير من ذلك نور يأخذ الأبصار . هذا إلى مافي القصر من تماثيل ذهبية لبعض الوحوش : أسد بجانب غزال بجانب تمساح ... الخ . ينصب الماء من أفواهها في الأحواض !

يصف ستانلي لين بول المؤرخ الانكليزي مسجد قرطبة بأنه كان فيه « واحد وعشرون باباً طليت بالنحاس الأصفر اللماع وثلاث وستون ومائتان وألف سارية وقد أجريت الفضة في حيطان محرابه المزين بالفسيفساء وصب من سواريه الذهب والابريز واللازورد . أما المنبر فقد صنع من العاج ونفيس الخشب وهو مؤلف من ست وثلاثين ألف قطعة منفصلة . مرصع أكثرها بالأحجار الكريمة وسمر بمسامير من الذهب » .

ويذكر المقري في كتابه نفح الطيب عند كلامه عن الزهراء : إن حيطان قصر الناصر كانت من الذهب والرخام السميك الصافي ، وإن قراميده من الذهب والفضة . وفي وسط القصر صهريج عظيم مملوء بالزئبق وفي كل جانب من جوانب القصر ثمانية أبواب انعقدت في حنايا من العاج

والابنوس المرصع بالذهب والجواهر القائمة على ساريات من الرخام الملون والبلور الصافي ، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب ، فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار ... ثم يصف حوضاً صغيراً أخضراً منقوشاً بتماثيل الانسان فيقول بأن الخليفة جعل عليه اثني عشر تمثالاً من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس الغـالي مما عمل بـدار الصناعة بقرطبة : صورة أسد إلى جانبه صورة غزال ، إلى جانبه صورة تمساح ، وفيما يقابله ثعبان وعقاب ، وفي المجنبتين حمـــامة وشاهين وطاووس ، ودجاجة وديك . . وكل هذا من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ، ويخرج الماء من أفواهها .

الزاهرة : وقد أقامها الحاجب بضواحي قرطبة على نهرها الأعظم وشيد فيها قصراً فخماً وانتقل إليها سنة ٣٧٠هـ ونزل معه فيها خاصته والعامة . كما أقيمت بها الدواوين والأعمال وأهراء المؤن والارصاد . ثم أقطع المنصور ماحولها لوزرائه وكتابه وقواده فابتنوا فيها من الدور ماجعلها تتصل بقرطبة نفسها ، ولكن هـذه الضاحية الملكية ذابت بدورها في قرطبة بعد موت صاحبها .

غرناطة والحمراء : ويطلق اسم غرناطة على دولة غرناطة الواقعة في الجنوب الشرقي من شبه جزيرة إيبريا والتي كان يحكمهـا بنو الاحمر ، كما يطلق على مدينة غرناطة قاعدتها في عهد تلك الدولة ، والمدينة تقع في الشمال الغربي من إحدى حلقات جبال سيّرا نافادا ويرويها نهر دارو ويحيط بها غوطة غناء ويتدرج قسم من بنائها على سفح التلال المجاورة ، ولقد أطلق عليها عرب الأندلس ، اسم دمشق لشبهها في الوضع وكثرةمافيهامن الماء والمزارع والبساتين ، وكان أكثر قصور المدينة كما يقول سيد أمير علي مزيناً بالحدائق المسوجة بالعرائش وزاخرة بأشجار الفاكهة كالبرتقال والليمون ، والخمائل

الناضرة ذات الشذى العطري ، وفوق ذلك ينساب في المنازل غدران صافية ويتوسط الشوارع النوافير الجميلة التي ينبثق منها الماء ، فتبعث في النفس غبطة وفرحاً عظيمين . أمـــا المنازل فكانت بالغة حد الروعة والابداع الهندسي وكان يحيط بها سور فيه الف وثلاثون برجاً للمقاتلة ، واثنا عشر باباً ، وفي داخله مائة وثلاثون طاحونة لطحن الغلال بقوة التيارات المائية ، وكان يوجد مقابل غرناطة على إحدى تلالها قلعة بني الأحمر وقصورهم الحصينة التي شكلت بمجموعها مدينة « الحمراء » بدأ بناءها مؤسس الأندلس : محمد ابن يوسف بن الأحمر الذي لقب نفسه « الغالب بالله » ثم عمل أخلافه على توسيعها وتجميلها . وأشهر آثارها قصر الحمراء وهي الآثار الباقية حتى اليوم من اطلال غرناطة ، وأشهر ما فيها قاعة الأسود التي تتوسطها بركة من الرخام الأزرق ، صحنها مسدس الشكل ، ويحمله اثنا عشر سبع من الرخام الأزرق .

ويصف سيد أمير علي المؤرخ الهندي الحمراء بقوله : « ومن الصعوبة بمكان أن نوفي الآن هذا العمل الذي سمي بعمل الجن حقه من الوصف والابداع . إذ أن القلاع والحصون والقصور بفنها المعماري الدقيق وأروقتها وأعمدتها الفخمة وقببها وسقوفها ذات الزخرفة والنقوش البديعة التي لم تفقد شيئاً من رونقها الأصلي إلى الآن . وابهائها الهوائية المشيدة ليمر منها النسيم المعطر بشذى الورد . والبرك التي أحكم المهندسون تشييدها فأصبح انبثاق الماء فيها تابعاً لإرادة الإنسان إن أراد رفعه وإن أراد أنزله من علو شاهق في أشكال هندسية بديعة . كذلك كانت الأبنية المنقوشة بالأصباغ والمزدانة بالفسيفساء على أجمل صنع وأتم إتقان . فتعكس عليها الأضواء والألوان منها الذهبي والقرمزي والأزرق والأرجواني ومختلف التماثيل ، وبهو السباع المشتمل على ١٢٨ عموداً فخماً ، وأرصفتها البيضاء والزرقاء وتناسق الألوان القرمزية الذهبية . وتماثيل السباع التي يجري الماء من أفواهها والبركة المرمرية ... كل ذلك يحتاج إلى قلم فنان ليوفيه حقه من التصوير والابداع » .

العمارة الاسلامية

الريازة والعمران في الاسلام

كان لخروج عرب الجزيرة إلى الأطراف العربية في صدر الإسلام وللغنى الذي رافقته الانتصارات على البيزنطيين والفرس وإطلاعهم على الفنون المعمارية التي كانت في البلاد التي قدموا اليها أن أخذوا في تقليدها فشيد كثير من الصحابة دوراً جديدة في مكة والمدينة من الحجارة والرخام ، وكانت دار عثمان بن عفان والزبير بن العوام من أعظمها وأجملها . كما كان لتعاليم الاسلام ، أثر عظيم في الفن الجديد ، الذي اقتبسه العرب ، وقلدوه تقليداً ماهراً ، وأدخلوا عليه كثيراً من التطور الذي يلائم تعاليمهم الجديدة، **حتى غدا فناً اسلامياً خالصاً ياخذ بنصيب من هـذا ومن ذاك** ولكنه يشكل نموذجاً قائماً بذاته ، فكان لا بد للمسلمين من مساجد لصلاتهم الجامعة ، ولعقد اجتماعاتهم السياسية ، ولا يمكن أن يبنوها على طراز كنائس المسيحيين ، أو بيوت العبادة عند الموسويين أو الوثنيين إذ حرمت عليهم الأصنام ، والتماثيل والصور التي ترمز إلى الكائنات الحية ذات الروح ، فكان لا بد لهذه المظاهر الفنية من أن تمحى فلا يظهر أثرها في المساجد الجديدة ، ولا في قصور الأمراء والخلفاء . ولا نلبث أن نرى كثيراً من المسلمين ، في العصر الأموي ثم في العصر العباسي والدويلات المنفصلة والأندلس ينحون في طرازهم المعماري والفني منحى جديداً ،

فهم يحرمون الصور والتماثيل في المسجد ويزينونها بالأعمدة والفسيفساء والقاشاني والزخارف الهندسية والنباتية والثريات والمقرنصات والتيجان والقناديل الذهبية أو الفضية ، ولكنهم يبيحون لانفسهم في قصورهم ومدنهم استعمال الصور ذات الروح ، والتماثيل العربية ، واستعمال الأواني الذهبية ذات الصور المختلفة ، ويلبسون الأقمشة الحريرية المذهبة والمنقوشة بالصور ، ويرعون الفنون بشتى أنواعها من موسيقى وتصوير ونحت وعمران ، فهم بذلك يفصلون بين فن ديني قوامه المساجد وما يتصل بعبادة الله تعالى ، وفن مدني خالص يتصل بحياة المرء في الدنيا وتمتعه بجمالها وفنونها .

كان المسجد أهم مباني المسلمين ولم يكن في أول الأمر أكثر من بناء مربع يقوم سقفه على عمد من جذوع النخل أو مما يؤخذ من الأبنية القديمة . ثم تطورت عمارة المسجد على يد البنائين من غير العرب وزادت فيه أجزاء يظن بعض الباحثين أنها اقتبست عن بعض اجزاء العمارة المسيحية ولم تلبث المساجد أن أصبح لها نظام لا تكاد تخرج عنه ، فكان معظمها يتكون من ساحة كبيرة مكشوفة في الغالب يتوسطها بوكة ماء ويحيط بها أربعة أروقة تسندها الأعمدة ، وأحد هذه الاروقة وهو الرواق المتجه نحو الكعبة واسع جداً ويدعى الحرم ، وفيه المحراب والمنبر .

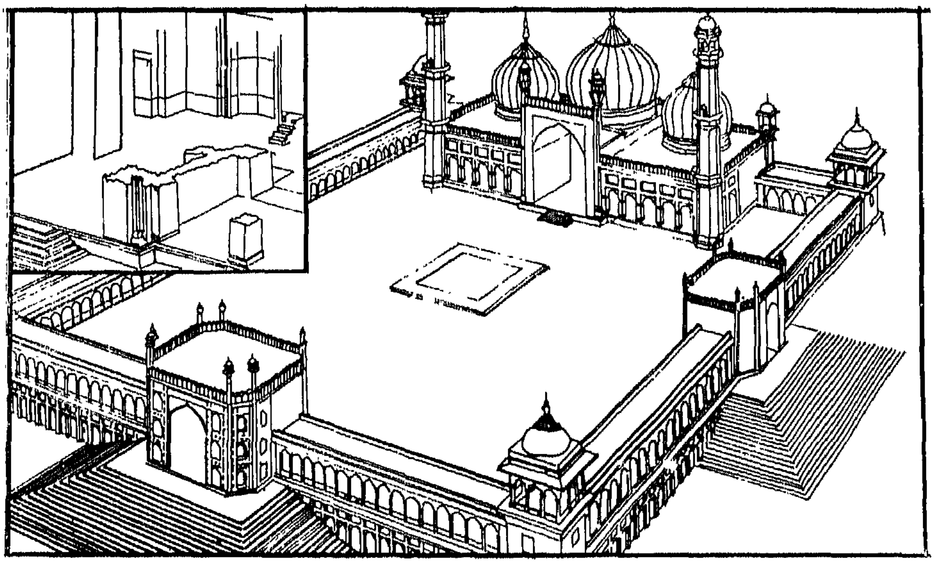
ويلي المسجد في الشأن المدرسة وقد استقلت ببناء خاص منذ القرن الخامس الهجري وكان المسجد من قبل مركز التدريس . وتصميم المدارس كان يشمل في الغالب صحناً مكشوفاً تحيط به أربعة إيوانات في شكل متعامد وأحد هذه الايوانات هو المدخل وفيه السلم الذي يؤدي للطابق العلوي.

ثم يأتي الضريح أو المشهد ويسمى أحياناً تربة أو قبة ويختلف تصميم الضريح باختلاف الأقطار الاسلامية لكنها في معظمها لم تكن أكثر من

غرفة يعلوها قبة . وهناك « الرباط » وهو نوع من الأبنية العسكرية كان يسكنه المجاهدون انتشر في صدر الاسلام وهي في معظمها أبنية مستطيلة تعلوها أبراج للمراقبة وتحيط غرفها بالصحن الداخلي ولا نوافذ لها . وقد زالت الصفة الحربية عنها مع الايام وأصبحت بيوتاً للتقشف والصوفية . وهناك الخوانك (جمع خانكاه أو خانقاه) أو التكايا وهي بيوت للمتصوفة .

وعني المسلمون ببناء الأسبلة في أركان المساجد وبتشييد البيمارستانات (المستشفيات) وبناء الخانات . والاسواق في المدن . وكان للحمامات شأن خطير في الاقطار الاسلامية ولها نظام في بنائها يراعى انتقال المتحمم من الحر إلى الهواء الطلق فكان في كل حمام ثلاثة أقسام كل منها أسخن مما سبقه.

أما القصور الاسلامية فكان يعنى بها العناية الكبيرة ولكنا لانعرف



شكل — ٥٣ —
نموذج لفن بناء المساجد في الهند الاسلامية يلاحظ الجدار الخارجي الذي يشبه أسوار القصور وسعة الفناء ، وفي وسطه البحرة للوضوء ، ثم الحرم وقبابه متأثرة بالطراز الهندي وكذلك مناراته

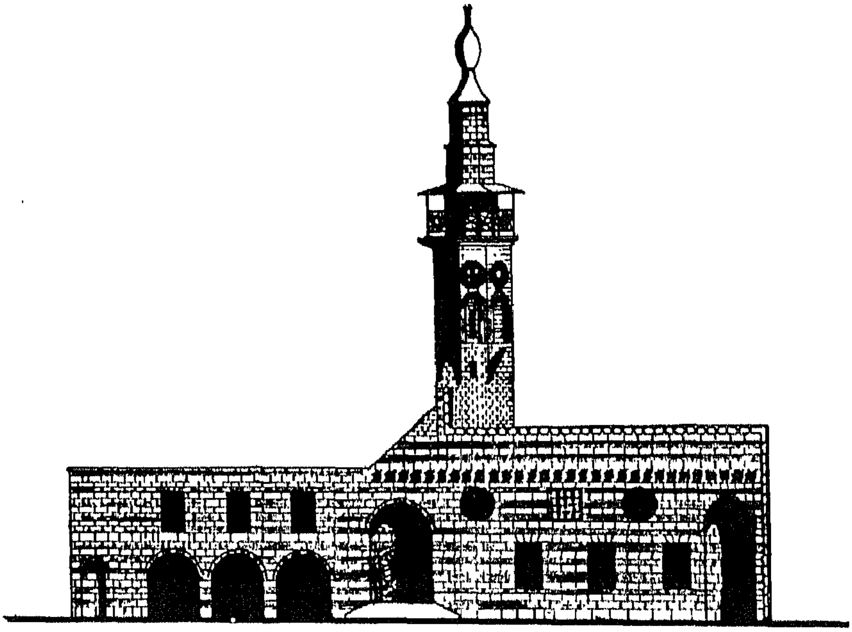
عن نظامها وتصميمها ما يستحق الذكر الا في العصور المتأخرة (منذ نهاية القرن الثامن الهجري) لان معظمها لا سيما قصور العباسيين في العراق قد اندثر . ومعظم ما بقي فانما هو في الاندلس .

وقد وجد في هذه القصور ملاعب وساحات ، ومخازن واسعة تلحق بها ، عرفت باسم خزائن ، - مفردها خزانة - او خانات ، - مفردها خانة - وقد تعددت ، فمنها خزانة الكتب ، وقد بلغت في قصور الفاطميين اربعين حجرة ، وخزانة الكسوات ، وخزائن الجوهر والطيب والطرائف ، وخزائن الفرش والامتعة ، وخزانة الشراب - اي الدواء - وخزانة التوابل ، وخزانة النبوذ ، وخزائن الازهار . اضف الى هذه المباني ما كان يعرف بالحواصل (جمع حاصل) وهي اصطبلات الخيل ومناخات الجمال والفيلة واهراء لخزن الغلال ، وشون للاتبان ، ومخازن للبضائع ، والطواحين والمطابخ .. هذا بجانب الحدائق الملحقة بالقصر .

وقد ذكر انه بلغ عدد المرافق التي كانت لسكن قصر المأمون ما بين حجر وغيرها ثلاثمائة وستين مرفقاً .

وأخيراً فان البناء الحربي كان ذا شأن واضح في تاريخ الاسلام وما من مدينة هامة إلا وقد بني لها السور أو جدد مرة بعد مرة ، وما من مكان هام الا وبنيت فيه قلعة حصينة تتسع وتصغر حسب قيمته .

ويمكن أن نلاحظ في العمارة الإسلامية أنها كانت في الغالب دينية وأنها اقتبست الاساليب التي وجدتها ريثما وجدت أسلوبها الاسلامي الخاص وقد تبعت في معظم الاحوال استبحار الرفاه في الدولة والميل الشخصي من الحكام . وأخيراً فقد تميز كل قطر من الاقطار الاسلامية بعدد من الميزات المعمارية تسمح لنا بأن نقسم مدارس العمارة الاسلامية الى ست مدارس :



شكل ــ ٥٤ ــ
واجهة جامع المعلق في دمشق . نموذج من فن البناء المملوكي في سورية .

١) **المدرسة السورية ــ المصرية :** كان لاشتراك الشام ومصر في تاريخ واحد تقريباً منذ ما قبل الميلاد بحوالي الف وخمسمائه سنة ، أثره في توحيد تراثهما الفني ، وقد وقع البناء الاسلامي في القطرين ، منذ العهد الاموي ، تحت تأثيرات محلية متشابهة تتصل بالفن الهلينستي الشرقي والبيزنطي واستمر تاريخهما متصلاً في العهد الطولوني ثم الاخشيدي ثم الفاطمي ثم الايوبي والمملوكي والعثماني وهذا ما يوضح ، مع اتصال القطرين الجغرافي ، تشابه الاساليب الفنية فيهما :

ومساجد هذه المدرسة حتى القرن العاشر مستطيلة الشكل وسقوفها عامة مسطحة . ولا تظهر السقوف ذات القباب إلا في العهد الفاطمي

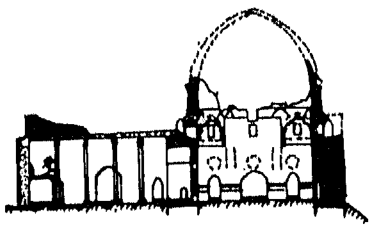
« القرن العاشر » كما تظهر المقرنصات أما الأقواس فهي نصف دائرية أو مدبية أو بشكل قطع ناقص « حدوة الفرس » ومآذنها أحياناً مربعة ولكنها في غالبها مضلعة . وقد ظهر في العصور الاخيرة منها زخرفة البناء بتنويع ألوان حجارته وعمل الاشكال التزيينية منها .

وأزهى عصور هذه المدرسة العصر الاموي في الشام والفاطمي والايوبي في مصر والمملوكي في القطرين معاً . ومن أهم أبنيتها مسجد عمرو بمصر والجامع الاموي بدمشق وقبة الصخرة في القدس والجامع الازهر في مصر والمدرسة الظاهرية والعادلية الكبرى في دمشق وقلعة حلب .

٢) **المدرسة العراقية – الفارسية** : والأسس الاولى لأساليب هذه المدرسة فارسية . وقد سيطرت في العهد العباسي ولكنها لم تنفذ بتأثيرها الا في غرب العراق . وبلغت أوجها في مدينة سامراء في القرن الثالث . ولا نستطيع أن نوضح الكثير من أسلوب هذه المدرسة إلا في العصور المتأخرة ، وفي زمن الصفويين خاصة القرن « ١٦ – ١٧ » وهو من أزهى عصور الفن الاسلامي الايراني . اذ استعمل القوس الفارسي « المدبب القليل الارتفاع » كما جعلت الابواب الكبرى المساجد ضمن اطار مستطيل مزخرف تقوم على جانبه مئذنتان رشيقتان ، والمآذن اسطوانية عامة ، وأما القبة فمتطاولة بصلية الشكل مزخرفة الظاهر والباطن . واشتهرت هذه المدرسة باستعمال القاشاني بزخارفه النباتية وندر استعمال الزخارف الهندسية .

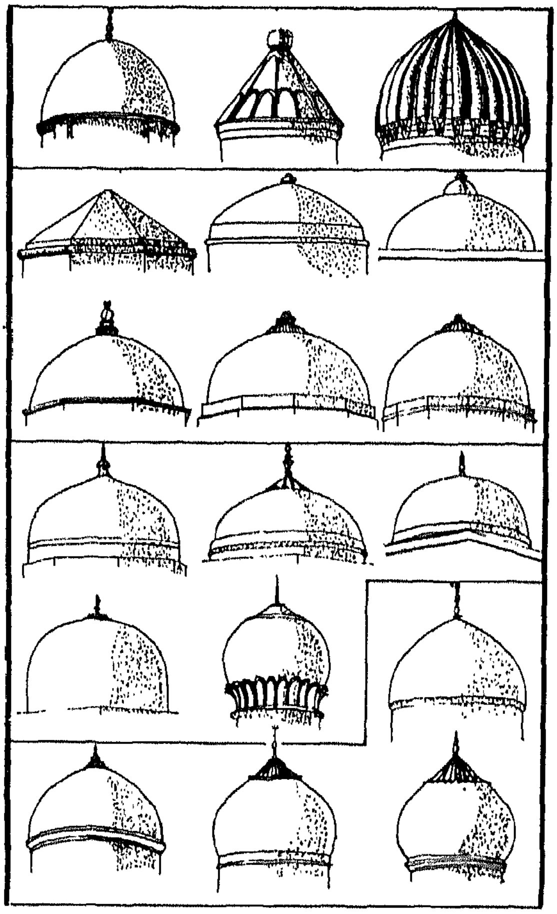
وأهم آثار هذه المدرسة كانت في بغداد وسامراء ولكن معظمها اليوم أطلال وبقي في ايران أبنية اصفهان الرائعة وأخصها بالذكر « ميدان شاه » قلب المدينة الفني ومسجدي شاه : الجامع الذي بناه الشاه عباس ويعتبره بعضهم من أجمل مباني العالم . وتعود شهرته الى الغنى الفائق في

الزخارف الداخلية ، رغم ان الوحدة المعمارية فيه غير متكاملة ، كما يعود الى هذه المدرسة بنـــاء مشهد الكاظمين في بغداد الذي أتمه الشاه اسماعيل الصفوي في القرن السادس عشر الميلادي . وقد انتشر في عهد الصفويين بناء الاضرحة على نوعين : في غرب ايران حيث كان الضريح عبارة عن ردهة يليها بناء تعلوه قبة ، وفي شرق ايران اتخذ الضريح شكل جوسق مثمن الاضلاع ، ومن اجمل الامثلة على ذلك الجامع الضريحي للشيخ صفي الدين باردبيل الذي انشىء في القرن السادس عشر واكمل في اواسط القرن التالي .



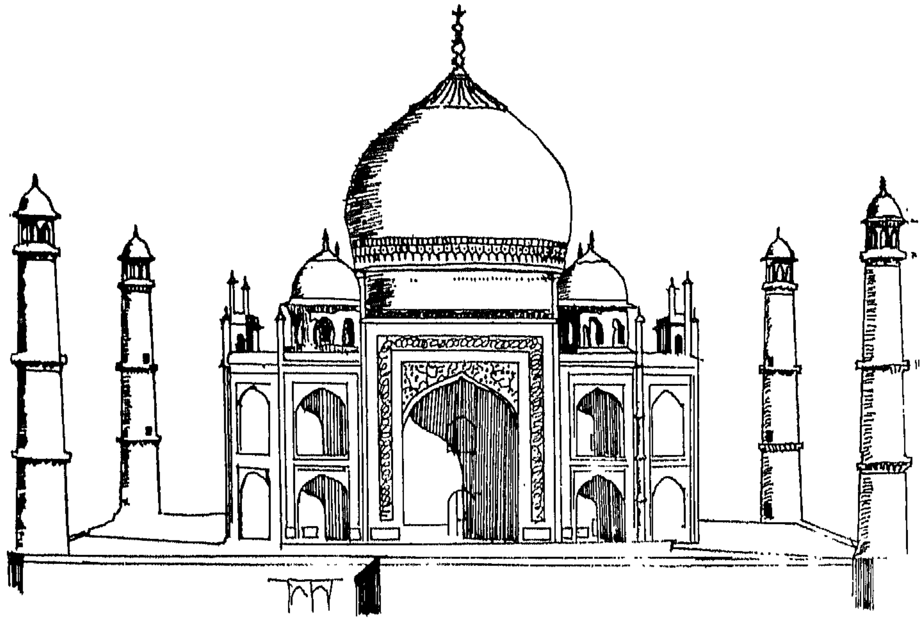
شكل ــ ٥٥ ــ
مقطع بناء مسجد الجمعة في أردبيل

٣ ــ **المدرسة الهندية** : وقد ظهرت في شمال الهند منذ القرن الثاني عشر حتى السادس عشر ابنية اسلامية هندية الطابع ثم جاء سلاطين المغول المسلمين « القرون ١٦ ــ ١٨ » فاقتبسوا في أبنيتهم القوس والقبة البصلية عن المدرسة الفارسية . وزادوا على ذلك استعمال الرخام المخرم والدعائم الضخمة . ومن اشهر مراكز الفن الهندي الاسلامي مدينة دلهي وفيها قصر أباطرة المغول والجامع الاكبر . وهناك خاصة مدينة « أغرة » التي اشتهرت بأثرها الفني الخارق « تاج محل » وهو ضريح تذكاري لزوجة الشاه جهان المتوفية سنة ١٦٣١ م ظل يبنى خلال ٢٢ سنة عمل أثناءها فيه ٢٠ الف عامل .

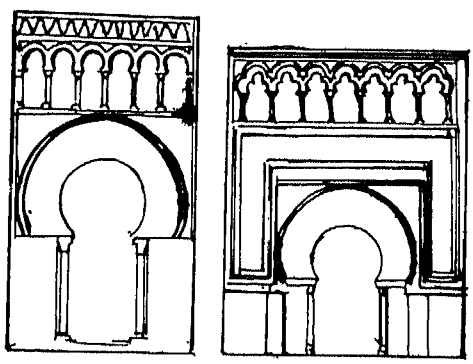


شكل ــ ٥٦ ــ
نماذج القباب في العالم الاسلامي مشرقية ومغربية

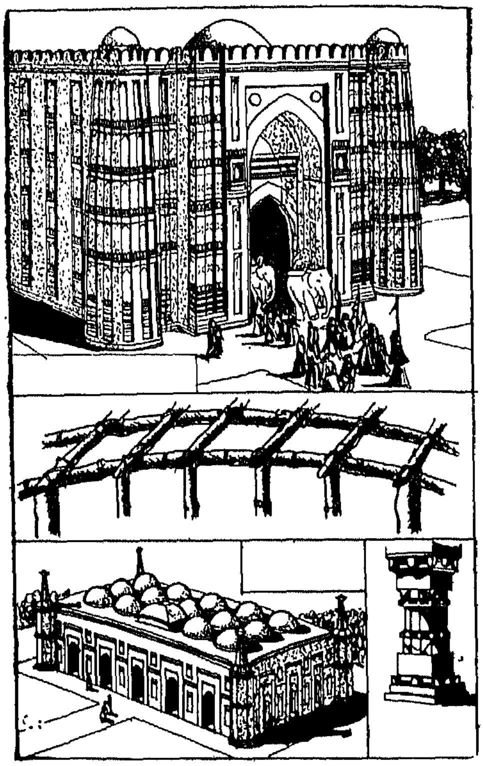
٤ ــ **مدرسة المغرب والاندلس** : ظل الطراز الاموي سائداً في الاندلس حتى القرن الخامس الهجري « ١١ م » وقد برز خاصة في جامع قرطبة غير أن الطراز المغربي ــ الاندلسي بدأ بالظهور بعد ذلك في عهد المرابطين والموحدين وازدهر وبلغ أوجه في القرن التاسع هـ « الخامس عشر م » في



شكل ـ ٥٧ ـ
من روائع الفن الاسلامي في الهند بناء تاج محل في أغرا (١٦٣٥ م)



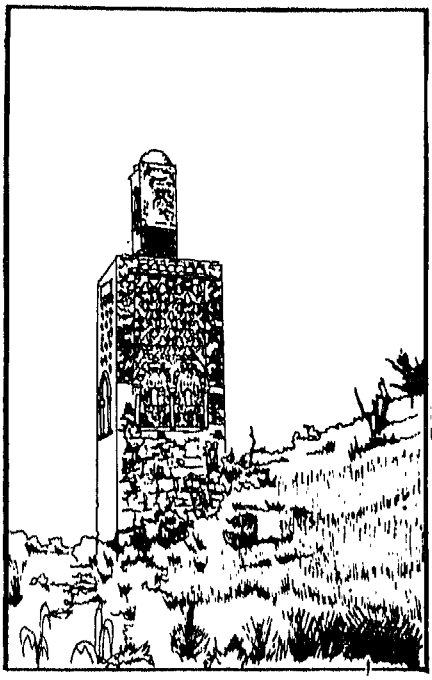
شكل ـ ٥٨ ـ
استخدمت نفس الاساليب المعمارية في الاندلس وفي شمال افريقيا الشكل
الى يمين القارىء لمحراب الجامع الكبير في قرطبة
والشكل الاخر لباب مكتبة الجامع الكبير في القيروان



شكل — ٥٩ —
نماذج من فن البناء الاسلامي في الهند . في الاعلى دقهيل
أو سوق مغطاة ضخمة ، وبوابة ، وطريق عبرها
وفي الوسط طريقة رفع السقف وفي الاسفل
مسجد في مدينة غور بني عام ١٤٩٣ — ١٥١٩ م

قصر الحمراء خاصة واتصال القطرين في الحكم سمح بتشابه الاساليب الفنية بينها . أما في مراكش فقد استمر الاسلوب الاندلسي المغربي حتى عهد السعديين « القرن ١٦ — ١٧ » ثم بدأ ينحط بعد ذلك .

وأبرز خصائص هذه المدرسة وجود الشرفة المسننة من الخشب فوق الابواب الكبرى ، واستعمال القوس المتطاولة ، المليئة بالمقرنصات ، وأما المآذن فهي عموماً مربعة الشكل مكسوة بالقاشاني والاعمدة وقد كثر في



شكل — ٦٠ —
بقايا منارة مسجد في الرباط — المغرب — من عهد سلاطين بني
مرين تمتاز بتزييناتها من الفخار المطلي ، أو القاشاني
المغربي الجميل ، الغائر والبارز

هذه المدرسة استعمال الجص المحفور والفسقيات واستعمال اللون الذهبي في التزيين .

وأهم أبنية هذه المدرسة : جامع قرطبة ومئذنته المربعة البالغة في الارتفاع ٧٣ ذراعاً . ومدرسة العطارين وجامع القرويين في فاس وجامع الكتبية في مراكش عدا قصور الزهراء والحمراء في الاندلس .

٥ — مدرسة الاندلس بعد زوال الحكم العربي « الفن المدجن » : لم ينته الفن الاسلامي في اسبانيا عام ١٤٩٢ م بسقوط غرناطة بل استمر تأثيره في اسبانيا والجزر القريبة زهاء قرن كامل تحت اسم الفن المدجن

على يد المدجنين وهم المسلمون الاندلسيون الذين بقوا تحت الحكم الاسباني ويظهر اثرهم واثر العناصر الاسلامية في زخرفة الكنائس الروسية والقوطية ثم اختلطت في ابنية عصر النهضة مع العناصر الواردة من ايطاليا .

واول فن مدجن ظهر في قشتاله ، في الكنائس التي أنشئت بعد عام ١٠٨٥ م « عام سقوط طليطلة » مثل كنيسة سان رومان باقواسها الحدوية وزخرفتها العربية الملونة ، وكنيسة سانت ماري لابلانش في طليطلة « ١٢٠٠م » والكنيسة الملكية او كنيسة سان فرناندو التي بناها الفونسو الحكيم « ١٢٥٢ – ١٢٨٦ م » في المسجد الاموي الكبير في قرطبة ، وجعل المعماريون مقرنصاتها وزخارفها النباتية شبيهة بفن غرناطة الاسلامي . وكذلك « القصر » في « اشبيليه » «١٣٥٤» الذي ذكر عنه المعلقون الفنيون ان بصالاته الفاخرة الزينة وبحدائقه الغناء .. يؤكد بصورة قاطعة استمرار تذوق الفن الاسلامي من قبل الملوك المسيحيين .

٦ ــ **المدرسة العثمانية :** تأثر العثمانيون أولاً بالطراز العراقي الفارسي ثم بالطراز البيزنطي فأخذوا عن الأول الزخرفة واستعمال القاشاني وعن الثاني طريقة البناء . وهكذا ظهر مثلاً الجامع العثماني المكون من قاعة مربعة لا صحن خارجياً لها ، تعلوها قبة منخفضة وعلى طرفي القاعة غرف نصف دائرية تعلوها قباب نصفية . أما المآذن فهي لكثرة اضلاعها مستديرة ولكنها رشيقة جداً تستدق في اعلاها ولها شرفتان أو ثلاث شرفات . وتزين هذه المدرسة البناء بالقاشاني الأزرق وبألوان الحجارة احياناً .

وأهم مراكز هذه المدرسة استانبول أما أبرز ابنيتها فجامع السلطان بايزيد وجامع السليمانية . ولها في دمشق التكية السليمانية وجامع السنانية عدا قصري العظم في دمشق وحماة .

المساجد

المساجد وظواهرها المعمارية :

إذا كانت المساجد أهم ما بناه المسلمون من الابنية فان الفن الاسلامي إنما نشأ فيها في الواقع . والمسجد اهم مكان تتمثل فيه العمارة الاسلامية والفن الاسلامي معاً . ولقد ظهر على المساجد الاولى البساطة في البناء والاثاث ، ثم أخذ المسلمون يعتنون بها فيوسعون مساحتها ، ويبنونها بالحجارة والاعمدة ويزينونها لتلائم ما وصلوا اليه من غنى وقوة وسعة ، فكان مسجد قباء الذي بناه الرسول عليه الصلاة والسلام عام الهجرة في المدينة لا يتجاوز باحة مربعة صغيرة تحيط به جدران مبنية من الآجر والحجارة ، يرتكز سقفه المصنوع من الجريد والاغصان على جذوع النخل، وهو اول نموذج للمساجد الاسلامية ، ثم بني المسجد الثاني في الكوفة بعد سبعة عشر عاماً ، ورفع سقفه على اعمدة من الرخام اخذت من انقاض بعض القصور القديمة ، ثم بنيت المساجد في الجزيرة وفي الممالك المفتوحة . وكانت مساجد الحجاز النموذج الذي تحاكيه مساجد البلدان الاخرى ، وساعد على ذلك مجيء الحجاج في كل عام إلى مكة والمدينة ، وقد أدخل على بناء المسجد في عهد الرسول **المنبر** ليقف عليه أثناء الخطابة ، ومنع عمر أن يتخذ المنبر في مساجد العالم الاسلامي غير مسجد المدينة ، ولكن المسلمين بعد عمر اتخذوا المنابر للخطابة ، واتخذ معاوية **مقصورة** في المسجد ليحتجب عن المصلين ، لأنه خشي أن يحل به ما حلّ بعُمر وعلي من اغتيال واقتدى به الخلفاء ، وأدخل على المساجد زيادات أخرى مع الزمن فاتخذت المآذن لأول مرة في دمشق حين أذن المسلمون فيها للصلاة من أبراج المعبد الوثني القديم الذي قام على أنقاضه المسجد الاموي — كما يقول زكي محمد حسن — وأقيمت مآذن في مسجد عمرو في الفسطاط بأمر من معاوية — كما جاء في خطط المقريزي — واتخذ **المحراب** المجوف للامام

في الصلاة والدلالة على جهة القبلة ، وأول محراب كان في مسجد المدينة ، ثم في الفسطاط ثم في دمشق ، وتعمم بعد ذلك ثم أدخلت **الايوانات** وهي الاروقة التي تحيط بصحن المسجد ولها أقواس مرفوعة على أعمدة أو دعائم ، وألحق بكثير من المساجد غرف خاصة للمؤذن والامام ، أو لايواء طلبة العلم الاغراب ، أو لحفظ مكتبة المسجد ، وفي العالم الاسلامي اليوم آلاف مؤلفة من المساجد ، بعضها قديم وبعضها حديث العهد ، وهي جميعها تحتوي تقريباً ما ذكرنا من حرم وقباء ، ومنبر ومحراب وأماكن للوضوء ومآذن للأذان ، ولكنها تختلف بطراز بنائها ، وتزييناتها ومحرابها ، وشكل مآذنها ، ويغلب على كل اقليم نظام معماري خاص متأثر بالفنون المعمارية السائدة فيه ... ومن أهم المساجد التي بنيت في العصور الاسلامية وكانت ذات ظواهر معمارية أثرت في فن العمارة للمساجد هي :

١ ـ الحرم الشريف في القدس : يضم الحرم الشريف في القدس ثلاثة مساجد : مسجد الصخرة ، ومسجد عمر ، والمسجد الأقصى .

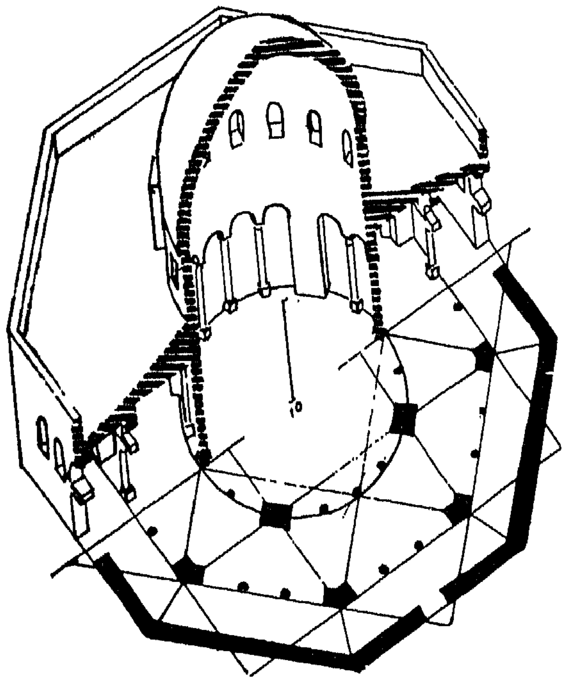
اما مسجد عمر فهو مسجد بسيط يقوم عند الطرف الشرقي من الحرم في المكان الذي صلى فيه عمر بن الخطاب لما ذهب إلى القدس ليتسلمها من البطريرك صفرونيوس .

وأما المسجد الاقصى فهو المسجد الرئيسي في الحرم وقد بني غرب مسجد عمر ومحاذياً له وهو يشبه في تنظيمه الداخلي الجامع الاموي في دمشق والجامع العمري الكبير في بيروت .

وأما مسجد الصخرة فهو بناء صغير نسبياً مثمن ، تعلوه قبة كبيرة وكانت أول المساجد التي طلعت على العالم الاسلامي بنموذج جديد من

البناء يختلف عن بساطة المساجد الأولى وزهدها. وقد تم بناء قبة الصخرة في القدس في عهد عبد الملك بن مروان ، فلقد رأى عبد الملك ، أن ينشىء حول الصخرة المقدسة التي وقف عليها إبراهيم عليه السلام ليضحي ابنه « وفديناه بذبح عظيم » ، وهي التي وضع الرسول عليه السلام قدمه عليها في ليلة الاسراء لما عرج إلى السماء ، بناء يتفق ومركز الصخرة الديني عند المسلمين ، وعظمة الدولة العربية القوية والغنية ، بحيث لا يقل رونقها وبناؤها وزخرفها عن أعظم الكنائس أو المعابد عند الطوائف الاخرى ، فأحيطت الصخرة ببناء مستدير وحوله راوق دائروي ، وجعلت فوق الرواق قبة محمولة على ستة عشر قوساً ترتكز على أربع دعائم واثنتي عشر سارية ، واقيم وراء الرواق عمدان ودعائم أخرى نظمت على شكل مثمن منتظم ، وخلفها شيدت ثمانية جدران بارتفاع تسعة أمتار فكان مجموع البنــاء من الخارج يؤلف مثمناً بديعاً تختلف كل الاختلاف عن بقية المساجد ، وبقي هذا الشكل فريداً في نوعه في البلاد الاسلامية . وقد زينت القبة من الداخل بالفسيفساء ، وقد استبدلها سليمان القانوني سنة ١٥٤٨ م بلوحات من القاشاني المدهون بالميناء ، وكان استعمال القبة في المسجد — وهي التي كانت مستعملة في الكنائس المسيحية ، وفي أبنية الرومان والبيزنطيين — وفي استعمال الأعمدة ذات التيجان ، والأقواس نصف الدائروية . كل هذا كان فتحاً جديداً في بناء المساجد ، بدأه عبد الملك في القدس ، وتبعه الوليد في دمشق ونما وكمل في المساجد الأخرى المتعددة التي أنشئت في أملاك الدولة العباسية أو في شمالي أفريقيا أو في الأندلس .

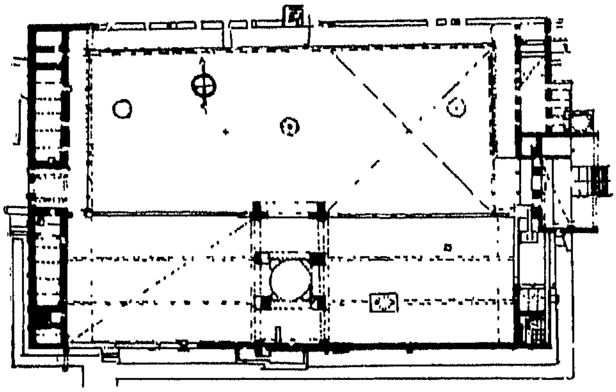
وعلى نفس الهضبة التي بنيت عليها قبة الصخرة يقوم المسجد الأقصى وهو بناء أموي تعرض لكثير من عاديات الزمن وهو مؤلف من جناح



شكل ــ ٦١ ــ
مقطع ومسقط قبة الصخرة في القدس

مركزي عريض تحده أقواس ترتكز على أعمدة وعلى جانبيه جناحان أضيق أضيفت إليه عدة أجنحة على طرفيه .

٢ ــ المسجد الاموي بدمشق : ويقوم المسجد الأموي بدمشق في منطقة مقدسة من معبد وثني قديم للاله جوبيتر الدمشقي ، وفي عهد الامبراطور تيودور سنة ٣٧٩ م حول الى كنيسة أطلق عليها اسم كنيسة القديس يوحنا ، وكان في كل ركن من أركان المعبد الوثني برج مربع ، وقد اختط أبو عبيدة بن الجراح على المعبد جامعاً ، كما استعمل المسلمون الأبراج للأذان ، ثم جاء الوليد بن عبد الملك وكان كلفا بالعمارة ، فاشترى



شكل ــ ٦٢ ــ
مسقط الجامع الاموي في دمشق

الكنيسة من النصارى وعوضهم بدلها ، وأمر باقامة مسجد فخم مكانها ، وتم تشييده بين سنتي ٨٨ و ٩٦ هـ « ٧٠٧ – ٧١٤ م » واستقدم لبنائه العمال من جميع الاطراف ، وقيل ان امبراطور الروم وجه إلى دمشق مائتي صانع من أمهر الصناع البيزنطيين لينضموا إلى عمال المسجد بناء على طلب الوليد ... والمسجد يتألف من صحن كبير مستطيل الشكل وايوان أو بيت للصلاة وطوله ١٣٦ متراً بعرض ٣٧ متراً وفي هذا الايوان ثلاثة صفوف من الطارات موازية للقبلة ومحمولة على أعمدة رخامية ذات تيجان كورنثية ، وفوقها أقواس أصغر منها ، وفي الوسط ترى اليوم قبة حجريه أضيفت اليها في عصر متأخر عندما شيدت بشكل بيضوي .... وقد كان المسجد مفروشاً بالمرمر ، وكانت جدرانه مغطاة بلوحات من الرخام إلى ارتفاع قامة الانسان ، وفوق اللوحات زخارف من الفسيفساء الملونة والمذهبة ، ولم يبق منها إلا جزء في الرواق الغربي ، وقد احترق المسجد عدة مرات ، وأدخل على زخرفته وبنائه بعض التعديل فيما بعد ...

وقد أزيلت الكسوة من بعض الجدران فظهرت ألواح الفسيفساء التي

تزين أروقة الصحن وتمثل مجموعة من الاشجار العالية يتخللها قصور وبيوت يعتقد أنها تمثل غوطة دمشق وبردى الذي يرويها .

ويؤكد علماء الآثار أن الأموي بني جميعه دفعة واحدة بعد أن دكت جميع الأبنية السابقة ، ولم يكن بناؤه ترميما أو إتماماً لبناء سابق . ويقول في ذلك الدكتور سليم عادل : « ونحن لا نقبل نظريات ولزنجر وواتزنجر وديسو ولامانس ومن لف لفهم في أن الوليد لم يبن من المسجد غير القبة والمئذنة الشمالية وانه لم يجر في بناء الكنيسة إلا بعض الاصلاحات الجزئية وذلك لأسباب كثيرة . أهمها : أنه لا يوجد ولا كنيسة يشبه مخططها مخطط الجامع الأموي ، وإن شكل البناء بصورة عامة يخالف تقاليد سورية النصرانية في فن العمارة . ونعتقد مع تيرش وستوزيكورسكي وسوفاجيه آخر مؤرخي المساجد أنه يقدم لنا نموذجاً متجانساً يصعب القول فيه أنه بني على دفعات في عصور مختلفة ، ثم ان زخارفه الاسلامية تنسجم مع بنائه انسجاماً تاماً يمنع عن التفكير أنها صنعت مستقلة عنه » .

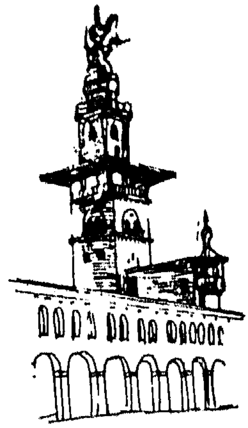
ويقول الدكتور زكي محمد حسن : « ... وكان المسيحيون قيد شيدوا في هذه المنطقة (أي المعبد الوثني) كنيسة قبل الفتح الاسلامي وقد هدم الوليد هذه الكنيسة وشيد الجامع . فلا صحة لما يزعمه بعض مؤرخي الفنون من أن بيت الصلاة في المسجد الحالي هو كنيسة القديس يوحنا التي قسمها المسلمون بينهم وبين المسيحيين بعد فتح دمشق (أي يقصد أن البناء جميعه من عمل الوليد لا أنه قلب الكنيسة إلى جامع بتغيير مظهرها)

ويقول أيضاً : « ومن المحتمل أن يكون تصميم الجامع الأموي متأثراً بنظام الكنائس السورية وأن تكون واجهة رواق القبلة تشبه واجهة القصور البيزنطية ، وأن يكون الباعث على إدخال البلاطة المعترضة

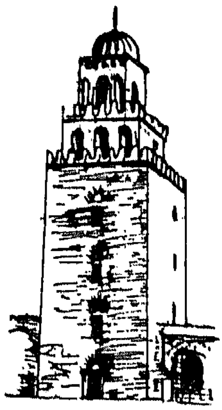
(الرواق النصفي في داخل المسجد) في هذا الرواق الرغبة في إظهار أهمية المحراب الذي تنتهي به هذه البلاطة . وفي هذا الجامع بضع نوافذ من الرخام ، فيها أقدم نماذج من الزخارف الهندسية في الاسلام . والحق أن هذا الجامع درة في تاج العمارة الاسلامية . » ويعتبر سوفاجيه أن هذا المسجد كان « أول نجـــاح معماري في الاسلام » ويؤكـــد جورج مارسيه أن « البناء المسيحي هدم » قبل إشادة المسجد إذ أن الصفة العامة للبناء كما يقول مارسيه « بأقواسه وسقوفه وسطوحه ذات المنحدرين (جمالونين) لا تسمح باعتباره كنيسة محولة إلى مسجد » .

ويؤكد الأمير جعفر الحسني ، ان الوليد ، استصفى كنيسة القديس يوحنا كلها ، فهدمها وشيد مكانها جامعه الخالد . الذي أصبح من أكبر مساجد العالم الاسلامي ، بني على غير مثال معروف ؛ استوحى ووضع تصميمه من الأبنية السورية قبل الإسلام ، وطرازها المألوف إذ ذاك ، فصاغ منها نوع بناء جديد له طابعه الخاص ، وشخصيته المستقلة ، وقد وفق المهندس والصانع الى حدّ بعيـــد في الجمع بين أسلوب البنـــاء القديم وزخارفه وما تستلزمه شروط الحياة الإسلامية وتعاليمها الدينية ، حتى كاد يلتبس على الباحث أصول هذا المزج ويعتبره ابتكاراً لا مزج فيه ولا استعارة ، وهكذا وضعت معه اسس الهندسة العربية التي استراح اليهـــا العرب المسلمون واتخذوها مثالاً احتذوه . . وللأسف اصيب هذا الجامع غير مرة بزلازل صدعت أركانه ومناراته ، وخرق ست مرات في عصور مختلفة أولها حريق سنة ١٠٦٩ م والأخير سنة ١٨٩٣ م ذهبت بمحاسنه ولم يبق منها إلا النزر اليسير ، وكان يعاد بناؤه في كل مرة إلى ما كان عليه قبل الكارثة مع تحرير بسيط .

وسرعان ما شيدت كثير من المساجد التي تشبه في تخطيطها المسجد



شكل — ٦٣ —
مئذنة من مآذن المسجد الاموي
بدمشق (القرن السابع الميلادي)



شكل — ٦٤ —
منارة جامع القيروان
(القرن الثامن الميلادي)

الأموي بدمشق ، كالمسجد الذي بدىء ببنائه في عهد الوليد وانتهى في عهد أخيه سليمان وهو المسجد الأموي في حلب . وقد شيد في وسط المدينة مابين باب انطاكية والقلعة ، وقد تطور مع الزمن بناء هذا الجامع واصابه تحوير وتعديل أضاعا علينا شكله الأصلي ، ولكن هنالك دلائل وقرائن تحملنا على الاعتقاد بانه بني على غرار الجامع الأموي بدمشق ، ولكن دونه كافة ونفقة . وأقل منه اسرافاً بالتنميق والزخارف . وكذلك يشبه في تخطيطه جامع الزيتونة في تونس ومسجد سيدي عقبة في القيروان ، وجامع قرطبة في الأندلس .

٣ — **جامع القيروان :** ويدعى بجامع سيدي عقبة ، بناه عقبة بن نافع عندما خط مدينة القيروان سنة ٥٠ هـ « ٦٧٠ م » ثم هدم وأعيد بناؤه سنة ٧٦ هـ وزيد في مساحته بأمر هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥ هـ ، والقسم الأكبر من بنائه الحالي يرجع إلى عصر هشام ، ويمتاز هذا المسجد بأعمدته وتيجانه التي نقلها العرب من انقاض أبنية قديمة واستعملوها في رفع سقوفه ، وأبعاده الآن تقرب من أبعاد مسجد دمشق إذ يبلغ طوله ١٣٥ متراً وعرضه ٨٠ متراً ، وفي المصلى منه سبعة عشر بهواً توازي محوره الاساسي ، وعلى طرفي البهو الأوسط قبتان رشيقتان . وتتألف مئذنته من ثلاثة أبراج

مربعة متعاقبة ، ويرجع بناء الطابق الأول والثاني منها لعهد هشام ، أما الطابق العلوي فمن المرجح أنه أضيف بعد القرن الخامس الهجري ، وتعد هذه المئذنة من أجمل المآذن الإسلامية وتعلوها قبة صغيرة .

٤ ـ **جامع الزيتونة** : هو رابع جوامع القارة الأفريقية في الزمان، فجامع الفسطاس انشىء سنة ١٣ هـ وجامع الناقة بطرابلس (جامع عمرو بن العاص) سنة ٢٣ هـ . وجامع عقبة بن نافع بالقيروان سنة ٥١ هـ وجامع الزيتونة سنة ١١٤ هـ/٧٣٢ م .

وجامع الزيتونة رباط وجامع ، بل رباط فيه جامع . والرباط هو ثكنة (حصن) للمتطوعين لحراسة الثغور . فكان المغرب « دار حرب » يحتاج إلى الدفاع عن المكاسب الإسلامية العربية ... فأسس المغاربة ألف رباط على الساحل من طنجة إلى الاسكندرية لحماية الثغور وحراستها ووقايتها من « الكومندوس » والقرصنة . وجامع الزيتونة رباط لحماية الثغور ، فهو يتركب من أربع قلاع . في كل ركن قلعة مبنية بصناديق الحجر الكبرى ، وفيها صومعة ، مستديرة للاستكشاف والاستطلاع ومراقبة حركة العدو في البحر .

وهو جامعة علمية إسلامية ، تدرس فيه ، علاوة على العلوم اللسانية والدينية ، العلوم الرياضية والطبيعية والطبية ، وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته برنامج التعليم وعائلة العلوم التي كانت تدرس وأساليب تدريسها وأسماء الكتب التي تدرس فيها . وحول الجامع كانت أسواق تتعلق بمهمة التعليم وهي سوق الكتبيين « الوراقين » وسوق السفارين « المجلدين » ، ومجموعة مدارس لمبيت الطلبة . وفي الجامع مكتبة أسسها أبو زكريا مؤسس الدولة الحفصية وأضاف اليها من جاء بعده من الخلفاء الموحدين أو من الأمراء

المراديين او الحسينيين فتجمع فيها نحو ٢٥ الف مخطوط منها المنفرد ومنها النادر ومنها النفيس .

يتكون الجامع اليوم من بيت الصلاة والصحن والمئذنة التي تسمى بتونس صومعة وميضأة .

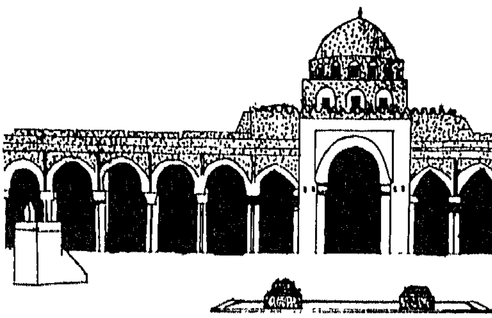
يكاد جامع يكون متحفاً شاملا للانماط والمدارس المعمارية الاسلامية فيه الفن المغربي من أفريقي وأندلسي ومراكشي ، وفيه الفن الفاطمي والعربي والتركي .

أما عن الفن المغربي فنناؤه الأول تجميع من الفنون البيزنطية الايرانية والعربية ، تولد منها الفن الإفريقي البحت ، فالقلعة بيزنطية والصومعة المستديدة ايرانية والتأليف العام عربي يحاكي جامع الكوفة . ثم جاء الاغالبة وبنوا المحراب الثاني والقبة ومقصورة الامير وبيت الصلاة ومجنبات الصحن بمعمار أغلبي مغربي فيه الكوفي الأغلبي البارز البسيط والقبة المحكمة والزليج (القاشاني) الذي جلبه من بغداد اسماعيل الطلاء القيرواني ، ورؤوس الأعمدة المزخرفة بعرائش الكروم المفرعة والكتابة بالطومار على طول أعالي جدار الصحن .

ونجد الفن الفاطمي في المجنبة الجنوبية وقبتها التي تحاكي قبة المدخل من جامع عبد الله المهدي بالمهدية . وكذلك تيجان الأعمدة الفاطمية التي زخرفت بصور مجسمة في كل ركن من أركان تاج العمود الأربعة . ونجد الفن الصنهاجي في زخرفة الأعمدة والتيجان التي نقشت أبدع نقش وزخرفت بالكوفي المزهر أبدع زخرفة . ونجد الفن الموحد في الكوفي المربع وأبواب المدخل الشمالي لبيت الصلاة وصحن الجنائز والمكتبة العبدلية القديمة وخزانات الماء ، ثم نجد الفن الأندلسي في زخرف المحراب والأقسام السفلى

من القبة بالخط الكوفي الأندلسي الرائع ... أما الفن التركي فنجده في أبواب دار الإمـام وأقواس صحن الجنائز والخطوط المحشورة بالرصاص الأسود .

وبالجملة ، الزيتونة مركب إسلامي جامع[1].



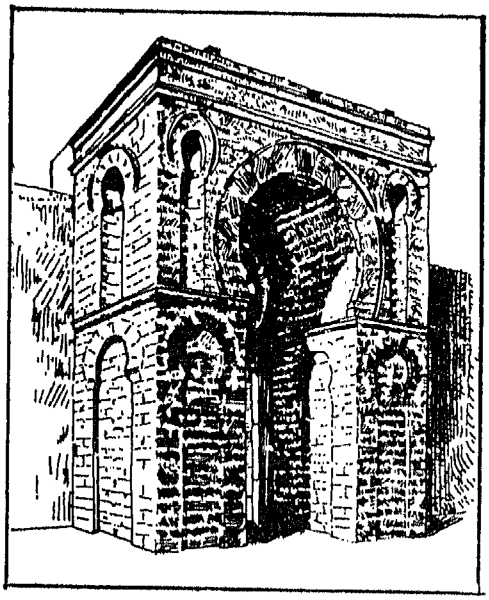
شكل — ٦٥ —
المسجد الجامع في القيروان

٥ — **مسجد قرطبة** : وقد بناه عبد الرحمن الداخل قبل وفاته بعامين في سنة ٧٨٦ هـ وأراد أن يضاهي مساجد الشرق سعة وعمراناً وعظمة ، وبني على مثـال المسجد النبوي الذي بناه الوليد بن عبد الملك في المدينة المنورة ، ويمتاز بكثير أعمدته الرومانية وأقواسه على شكل نعل الفرس ، وكثير منها مزدوج ، يعلو بعضها فوق بعض . وواجهة القبلة من الداخل مزينة بالفسيفساء الدقيقـــة ، يخالطهـا قطع صغيرة صدفية وذهبية ، وصورت بشكل أن الناظر اليها من ناحية اليمين يرى مناظر غير المناظر التي يراها من ناحية اليسار وذلك بانعكاس الضوء فيهـا . وفي دائرة القبلة والمحراب آيات قرآنية بالكتابة الكوفية ، وعن يمين القبلة ويسارها بابان لغرفتين صغيرتين إحداهما لتعبد الإمام والثانية لوضع لوازم المنبر ، أمـا

(١) عثمان الكعاك . العربي ١١٨

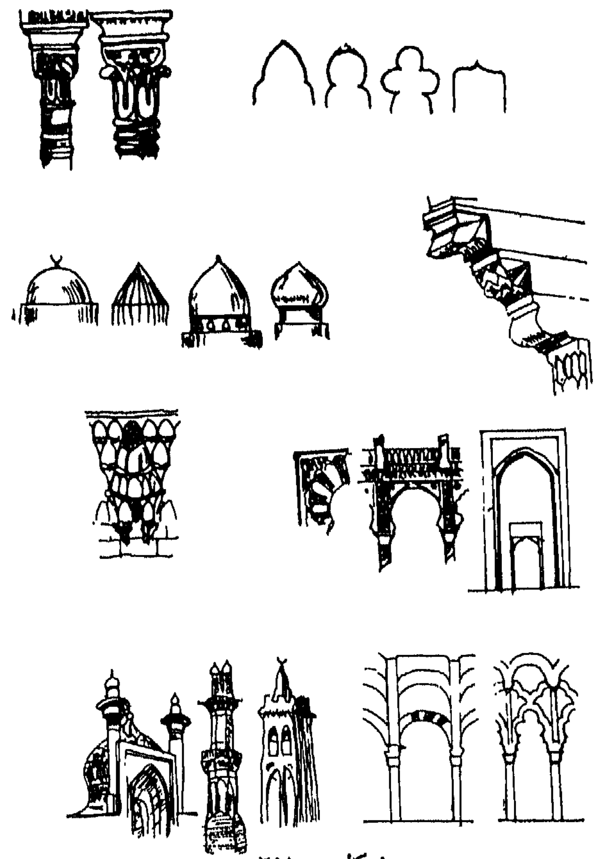
المحراب فواسع من داخله وتعلوه قطعة واحدة من الرخام تكوّن سقفه ، كل ذلك باق إلى اليوم ، إذ تحول الجامع في سنة ١٢٣٦ م إلى كاتدرائية مسيحية باسم « لاموثكيتا » تحريفاً للفظة المسجد .

٦ ــ **مسجد سامراء :** وقد بني من الآجر ، واستخدمت فيه دعائم من الآجر لحمل القناطر عوضاً عن الأعمدة الرخامية ، كما يمتاز بالمئذنة الباقية حتى اليوم ، وهي مئذنة مرتفعة ، مبنية من الآجر ، ويصعد اليها بدرج حلزوني .



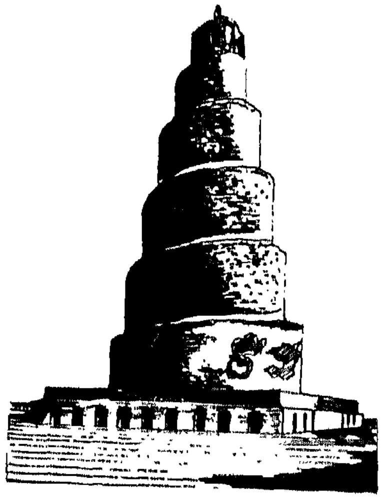
شكل ــ ٦٦ ــ
مدخل الجامع الكبير في المهدية

٧ ــ **جامع ابن طولون :** وبناه احمد بن طولون على مثال مسجد سامراء سنة (٢٦٣ ــ ٢٦٥) فبنى فيه مئذنة ملوية ، وكسا الآجر بطبقة من الجص وزينه بكثير من الكتابات إما بالجص والآجر او حفرها في الخشب



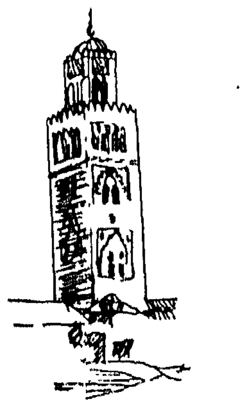
شكل — ٦٧ —
مجموعة أقواس وقباب ومآذن ومقرنصات ، تمثل الطرز
الاسلامية من فن الريازة والعمران الديني

وعني بأن يكون بنيانه قوياً — وقد بقي حتى اليوم — ليتخذه إلى جانب الصلاة ، معقلاً له إذا تهدده خطر خارجي أو داخلي ، وليكون مدرسة دينية ، وداراً للحكومة ، إذ كان يصدر منه اوامر الدولة ، كما كانت تعقد فيه المحاكم ، ووضع في الجامع خزانة ملآى بالأدوية والاشربة التي يحتاج اليها المصلون والمرضى ، وعين له طبيباً يقوم بالاشراف على الحالة الصحية ويداوي خاصة ما قد يطرأ على المصلين يوم الجمعة ، فكان بمثابة

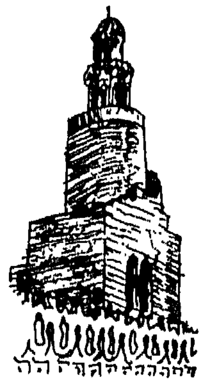


شكل — ٦٨ —

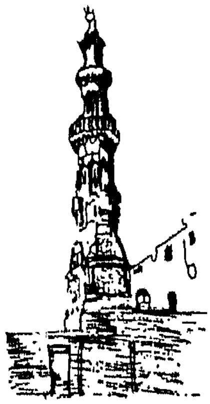
الملوية في سامراء نموذج فريد من المآذن الاسلاميـة قلد في مئذنة جامع ابن طولـون في القاهرة .. والاسلوب المعماري مقتبس من بناء الزقورات او برج بابل (القرن التاسع)



شكل — ٦٩ —
نموذج من مآذن المغرب الاقصى في مدينة مراكش (القرن الثاني عشر)

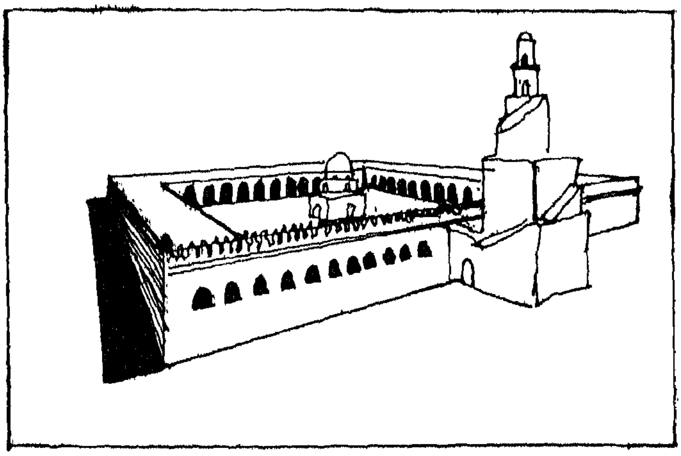


شكل — ٧٠ —
نموذج من مآذن القاهرة في (القرن التاسع)



شكل — ٧١ —
مئذنة احد مساجد القاهرة (القرن الخامس عشر)

طبيب الاسعاف ، وصيدلية الاسعاف ، وهكذا نرى ان مسجد ابن طولون بني ليكون جامعاً للصلاة ، وقلعة محصنة ، ومحكمة ، ومستشفى ، فلا عجب ان بذل ابن طولون كثيراً من العناية به .



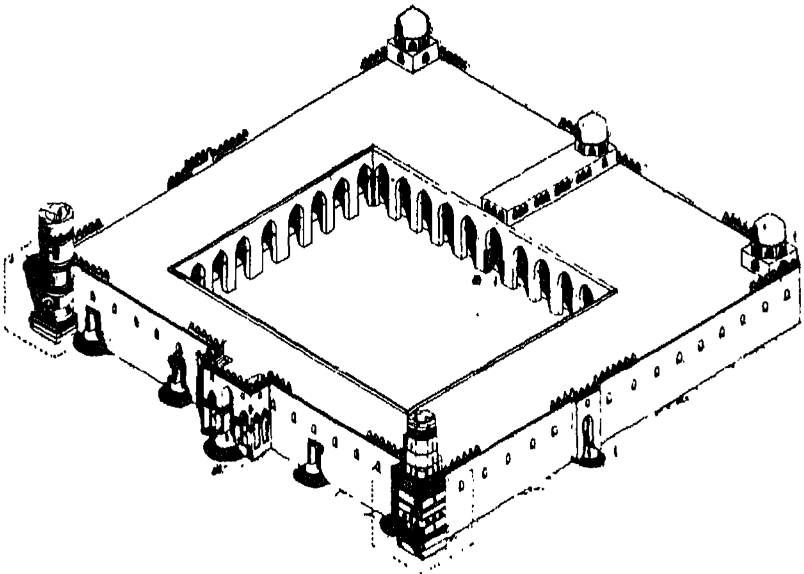
شكل ـ ٧٢ ـ

جامع ابن طولون كما كان في عهد بنائه الاول ، وتشاهد المأذنة المصرية الشبيهة بمئذنة سامراء وهي اقتباس من نظام بناء الابراج (الزقورات) البابلية في العصور القديمة



شكل ـ ٧٣ ـ

من بقايا مسجد ابن طولون في القاهرة



شكل ـ ٧٤ ـ
جامع الحاكم في القاهرة وهو نموذج لتطور فن بناء المساجد
في العهـد الفاطمي

ومنارة هذا المسجد تمتاز بسلم من الخارج بأربع جوانب ، يصعد منها إلى سطح ، فسلم حلزوني نصف دائري يوصل إلى سطح آخر يرتكز عليه الجزء العلوي وهو على هيئة مبخرة وهي المنارة الوحيـدة في مصر ذات السلم الخارجي وهي تشبه منارة سامراء .

٨ ـ مساجد الفاطميين :

الجامع الازهر : نموذج من فن بناء المساجد في عصر الفاطميين ، بناه القائد جوهر الصقلي باسم الخليفة الفاطمي المعز لدين الله ، وتمت عمارته سنة (٣٦١هـ ـ ٩٧٢م) . وقد ادخلت عليه عدة زيادات حتى تضاعفت مساحته واصبح اليوم بشكله الحالي . معرضاً لفن العمارة الاسلامية الدينية في مصر منذ العصر الفاطمي حتى حكم اسرة محمد علي . إذ لم تمض اربع

سنوات على انشائه حتى امر الخليفة الفاطمي العزيز بالله باصلاح ما كان من عمارته يتطلب الاصلاح والتجديد ، ثم جدد الحاكم بامر الله مئذنته سنة (٤٠٠ هـ — ١٠٠٩ م) وكذلك ادخل المستنصر عليه بعض الاصلاحات . وفي عهد المماليك ، جدد عمارته الظاهر بيبرس ، فعمر الواهي من اركانه وبيضه واصلح سقوفه وبلطه وفرشه وكساه ، واستجد به مقصورة ، واعاد اليه خطبة الجمعة ، وصلاة الجمعة ، بعد ان كان صلاح الدين الايوبي قد امر بأن تبطلا فيه والاكتفاء بصلاة الجمعة في الجامع الحاكمي ..

ثم اضيف إلى الازهر مدرستان في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر ميلادي . ثم مدرسة ثالثة في القرن التالي ... وفي العهد العثماني اضاف الامير عبد الرحمن كتخدا (سنة ١١٦٧ هـ — ١٧٥٣ م) اقساماً هامة إلى بنيانه وتخطيطه وكذلك فعل ولاة مصر من اسرة محمد علي .

ومع كل هذه التعديلات ، فان الازهر لا يزال يحتفظ بأجزاء هامة من عناصره المعمارية الاصلية ، وقد بنيت جدرانه من الآجر ، وكذلك عقوده وقبابه ودعامته . وجميع أعمدته وتيجانها جلبت من آثار قديمة سابقة ، وليس لبناته الاوائل فضل في صياغتها ، وإنما اقتصر فضلهم على تنسيق هذه الاعمدة القصيرة فوق الاسس واعدادها لحمل العقود ، ورفعها إلى اقصى علو استطاعت ان تتحمله .

ومن الزخارف المتبقية من البناء الاصلي اللوحات التي تحف بالنوافذ اذ كانت النوافذ محشوة بستائر جصية مخرمة قوام بعضها حلقات هندسية متشابكة ، وقوام بعضها الآخر أوراق نباتية متجانسة شبيهة بأنصاف المراوح النخيلية .

وكان يدور حول اللوحات والنوافذ اطار متصل يربط بينها جميعاً نقشت عليها كتابة كوفية من آيات الكتاب المبين .

وإذا كان الأزهر نموذجاً لفن بناء الجوامع في العصر الفاطمي بمصر ، فان مساجد الفاطميين عامة احتفظت بنظم المساجد الجامعة الأولى وكان لها ، مثلها ، بيوت مسقوفة للصلاة ، تمتـــد موازية لجدار القبلة ، وتنقسم إلى بلاطات ، ومنها ابهاء مكشوفة ، وتحيط بها مجنبات من رواق أو أكثر ، ومساحاتهـــا أصغر من مساحات المساجد السابقة ، فمساحة الأزهر نصف مساحة مسجد عمرو ، وكذلك مساحات الجوامع الفاطمية الأولى كمسجد الجيوشي والأقمر والسيدة رقية في القاهرة . كما اضيفت لهذه المساجد قاعات فيها أضرحة .

٩ – مساجد العصر المملوكي في الشام ومصر : لم يعتـبر المهندسون والفنانون العصر المملوكي في الشام ومصر ، عصراً ذهبيـاً لتـاريخ العمارة الاسلامية ، عـــن عبث ، وانمـا لكثرة وتنـوع العمائر التي ظهرت في هذه الفترة ، من مساجد ومدارس وأضرحة وحمامات وأسبلة وخانات ، لم يحتفظ فيها بالأساليب المعمارية المتوارثـة ، بـل أضيف عليها كثير من التحسين والتوسيع والاتقان والاناقة وخاصة في الواجهات والمنارات والقباب وفي الزخارف الجصية والرخامية . فمن ذلك مثلاً العناية بواجهات المساجد ، وتحويل صناعة المحراب من الجص أو الخشب في العهد الفاطمي إلى الرخام الذي أصبح الخامة الأساسية في البناء والزخرفة ، وأخذ الرخام الملون يلعب دوره في تغشية الجدران كما اخذت أشغال النجارة الدقيقة ، وعمل الخراطة والتطعيم بالصدف والعاج والابنوس تغشى المنابر والأبواب والشبابيك ،

وظهرت السقوف مموهة بالذهب بدرجة رفيعة من الاتقاق والتناسق والجمال. ومن مساجد هذه الفترة :

مسجد الظاهر بيبرس في القاهرة : شيد بين عامي ٦٦٥ هـ - ٦٦٧ سنة ١٢٦٦ و ١٢٦٩ م . وشكله مربع تقريباً ، وقوام تصميمه صحن يحيط به أربعة ايوانات أكبرها ايوان القبلة الذي يتكون من ستة أروقة ، وواجهته بنيت بالحجر . أماالداخل فبناؤه جميعه من الآجر . وفيه ٢٧ نافذة بعقد مدببة كانت مزخرفة بزخارف جصية .

مسجد المنصور قلاوون : : شيد عام ٧٣٥ هـ / ١٣٣٤ م وقوام تصميمه صحن تحيط به أربعة ايوانات كمسجد بيبرس أكبرها ايوان القبلة أيضاً وأمام المحراب قبة كبيرة محمولة على عمد من الغرانيت الاحمر .

مسجد السلطان حسن : ويعد أجمل العمائر المملوكية في مصر والشام ويقوم في سفح قلعة الجبل بمدينة القاهرة ، تم تشييده خلال سبعة أعوام ٧٥٧ — ٧٦٤ هـ / ١٣٥٦ — ١٣٦٣ م . واجمل ما في هذا المسجد قبو ايوانه الشرقي الذي يعد من معجزات البناء في الفن الاسلامي ، اذ تبلغ فتحته ١٩،٢٠ متراً يحيط به من الداخل افريز جصي مكتوب فيه بالخط الكوفي آيات من سورة الفتح ، وهو طراز من الكتابة لانظير له ، وجدران هذا الايوان مستورة بالرخام وعقد الايوان بني بالآجر ماعدا بدايته فانها بالحجر . وفي هذا الايوان دكة من الرخام الدقيق الصنع . وارتفاع قبته الكلي نحو ٥٠ متراً وهي مؤزرة بالرخام الفاخر ، وبها طراز خشبي منقوش ومذهب ، وكانت القبة من الخشب ومغلفة بالرصاص وغطاؤها الحالي جديد الصنع .

ويمتاز هذا الجامع بنسبه الضخمة وايواناته العالية ومدخله الضخم الغني بالزخارف ومئذنتيه العاليتين وجدرانه الضخمة لما فيها من تجاويف عمودية تزيد من ارتفاع البناء ، والكورنيش الفاخر الذي يعلو الجدران فيتوجها ويزيد من وحدة البناء كله .

وشيدت في زوايا الجامع مدارس يوصل إليها باب في كل زاوية من زوايا الصحن ، الحقت بها مساكن للطلبة ، وقد أراد السلطان حسن أن تدرس فيها المذاهب الاربعة .

١٠ ـ مساجد العصر السلجوقي : ظهر أثر السلاجقة في العراق وايران وآسيا الصغرى والشام ، وهم رغم انتمائهم إلى قبائل تركية واعتمادهم على ابناء المناطق التي سيطروا عليها سياسياً ، رعوا الفنون المعمارية ، وظهرت في عهدهم مساجد وعمائر ذات طراز خاص متميز بالضخامة والمظهر القوي ، وقد تأثروا في بنائها بما ظهر من أساليب معمارية في الهند على يد محمود الغزنوي والدولة الغزنوية . . . وأكثر الابنية السلجوقية مجموعات تضم : المسجد ، المدرسة ، الضريح ، ولقد طغى اسم المدرسة أحياناً على اسم المسجد كالمدرسة المستنصرية في بغداد مثلاً المنسوبة إلى الخليفة المستنصر ، والتي خصصت لتدريس المذاهب الأربعة . فكان لكل مذهب ايوان خاص فيه المسجد وموضع التدريس . وفي داخل المدرسة حمام للطلبة ودار للوضوء . وهكذا اختلط بناء المدرسة مع بناء المسجد . وجمعت ايران بشكل خاص بين تصميم المدرسة ذات الصحن المستطيل وبين استخدام القباب في المساجد ، وصار الصحن في المساجد الجديدة يختلف كثيراً عن فناء المدرسة . ومن أشهر مساجد ايران في هذه الحقبة ، مسجد الجمعة في مدينة اصفهان

الذي بني في عهد السلطان السلجوقي الكبير أبو الفتح مكلشاه . اما عمائر الجزيرة الفراتية والعراق فتميزت بايوانات واعمدة واكتاف ، منها الجامع النوري في الموصل الذي أمر بتشييده نور الدين محمود زنكي ، اتابك الموصل ، وكان قوام هذا الجامع صحناً تحيط به ايوانات ولا يزال أحدها قائماً مع المنارة المعروفة باسم الحدباء ويزيد ارتفاعها على ٥٠ متراً . وهي غنية جداً بالزخارف الهندسية المؤلفة من اختلاف وضع الآجر وأكثر مساجد السلاجقة في بلاد الشام امتازت بتزيين جدار القبلة منها بزخارف من الحجر جميلة ودقيقة الصنع ...

وقد اتسع في هذا العصر نطاق استعمال الفسيفساء الخزفية والقاشاني في تزيين الجدران ، وعملت محاريب خزفيـــة مسطحة ذات رسوم تمثل محراباً يحف به عمودان بارزان . واستعملت الكتابة الكوفية المزهرة ، وتطور الخط النسخي تطوراً كبيراً وبخاصة في القرن الثاني عشر الميلادي .

١١ ـ مساجد العصر المغولي في ايران : بعد أن قضى هولاكو زعيم التتر على بغداد ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م وقتل الخليفة المستعصم ، اعتنق اتباعه الاسلام واسسوا الاسرة الايلياخية في ايران حكمت قرابة قرن من الزمان ، وقد تأثروا بالثقافة الصينية والايرانية القديمة فتطورت ابنيتهم نحو الرشاقة ، وهم وان احتفظوا بطابع الفن المعماري السلجوقي المتمثل في مسجد الجمعة في اصفهان ، إلا أنهم أشبعوها بالأساليب الفنية الصينية ، من ذلك مسجد فرامين وجامع جوهر شاد بمدينة مشهد والمسجد الجامع بمدينة يزد .

وجامع فرامين بني عام ٧٢٢ هـ / ١٣٢٢ م وهو مرحلة جديدة للوصول إلى التصميم الايراني البحت في تصميم المساجد ، ويقوم تخطيطه المستطيل على

صحن حوله أربعة ايوانات متعامدة ، ويغطي الايوان الرئيسي قبة ، ويحف بالايوانات اروقة محمولة على اكتاف ومغطاة بطريقة الاقباء .

وفي عصر تيمورلنك وما بعده شاع بناء المساجد التي تعلوها قبة ضخمة ويؤدي إليها مدخل عال يلفت النظر بعظمته وفخامته ، مثل مسجد كليان في بخارى بما فيه من ايوان ضخم في الجبهة ومئذنة اسطوانية تبعث الرهبة في النفوس .

وابدع مساجد هذه الفترة الجامع الازرق في تبريز الذي شيد في منتصف القرن التاسع الهجري (ق ١٥) ، وكان في وسطه قاعة كبرى عليها قبة وحولها قاعات اصغر حجماً وعلى كل منها قبة اقل ارتفاعاً . وفي أحد الجوانب ضريح ذو قبة عالية .

وفسيفساء هذا المسجد الخزفية غاية في الابداع والجمال . وتمتاز بلونها الازرق الناصع والازرق الادكن ، والاسمر والاخضر الادكن .

وزخارف العصر المغولي الايراني وصلت إلى حد الابداع بقوالب الآجر وفسيفساء القرميد ، كما في الجامع الازرق المذكور ، واصبحت الزخرفة بالآجر غير المطلي بالدهان المتقنة من خصائص هذا العصر . كذلك استعمال الجص في صنع النقوش في محاريب المساجد (واستعمل الجص في نقوش آدمية وحيوانية بارزة في زخرفة القصور) والاكثار من المقرنصات مما يذكرنا بمقرنصات الطراز الاندلسي والمغربي كما في قصر الحمراء . وانشأ التيموريون عدداً من المدارس ، مع المساجد ، ومنفصلة عنها ، منها مدرسة سمرقند التي شيدها تيمورلنك ٨٠٣ هـ / ١٣٩٩ م .

١٢ ـ مساجد العصر الصفوي : اتخذ الصفويون الذين تأسست دولتهم عام ٩٠٧ هـ/ ١٥٠٢ م مدينة تبريز الايرانية عاصمة لهم ، ثم نقلت العاصمة بعد ذلك إلى مدينة اصفهان . وقد حاول الصفويون بعث الحضارة الايرانية القديمة ، ومحاكاة الأساليب الفنية الايرانية في منشآتهم العمرانيــة ومنها المساجد وما يلحق بها من أضرحة أو مدارس . وأشهر المساجد الصفوية ، جامع وضريح الشيخ صفي الدين في مدينة اربيل ، وهذا الشيخ هو الولي الذي ينتسب إليه الصفويون لذلك عمدوا إلى جعله من الضخامة والجمال والغنى ما ينافس به بقية المساجد والأضرحة في المناطق الأخرى ، حتى انهم اضطروا بعد وقت من اقامة بناء خاص ملحق يعرف بقصر البورسلين أو الصيني « شيني خانة » لحفظ مجموعة الخزف الخاصة بالضريح .

ويعتبر مسجد الشاه في اصفهان التحفة المعمارية الثانية للصفويين .

وجميع المساجد والاضرحة الصفوية محلاة بالفسيفساء الخزفيــة ذات الألوان الجميلة ورسوم الزهور والفروع النباتية البديعة ومنقوشة بالزخارف الجصية الملونة مما اكسبها طابعها الخاص ، تجلى فيه ذوق الايرانيين الفني ، ومهارتهم في منح ألوانهم الهادئة سحراً وجاذبية ...

وانتشر الطراز الصفوي ، خارج ايران ، فيما انشأ الصفويون أو ما انشيء من مساجد شيعية في المناطق التي وصل إليها نفوذهم ، وخاصة في العراق كمساجد واضرحة النجف وكربلاء وسامراء ومثالها البارز في بناء « مشهد الكاظمين » في بغداد .

١٣ ـ مساجد العصر الهندي المغولي : بعد أن نشر الغزنويون الطراز المعماري السلجوقي فيما فتحوه من الهند ، مرّ على المناطق الاسلامية عهد من الجمود ، إلى أن أقام الامبراطور بابر حفيد تيمورلنك في دلهي امبراطورية

اسلامية مغولية ٩٣٣ – ١٢٧٥ هـ/ ١٥٢٦ – ١٨٥٧ م وشيدت في هذا العهد كثير من المساجد ، جمعت بين الأساليب الهندية القديمة وطبيعة العبادة في المساجد الاسلامية ، واقتبست بعض الطرز الايرانية المعمارية ، فجاءت نسجاً جديداً نسجه بحق طراز البناء الهندي الاسلامي .

ومن أشهر مساجد الهند في هذا العصر الجامع الكبير في بيجابور الذي شيد في منتصف القرن العاشر الهجري /١٦ م ، ومسجد الجمعة في دلهي الذي شيده شاه جيهان ...

ومساجد الهند تمتاز بمداخل كبيرة تبدو كأنها أبنية قائمة بذاتها ومنارات عالية وقباب بصلية .

وتلحق الأضرحة بالمساجد ، ولعل ضريح « تاج محل » أشهر ضريح ، لا في الاسلام ، بل في جميع العصور ، وهو الذي أقامه الامبراطور شاه جيهان لزوجته ممتاز محل بين عامي ١٠٣٩ – ١٠٥٨ هـ/ ١٦٣٠ – ١٦٤٨ م في مدينة أجرا العاصمة آنذاك على ضفة نهر جمنا . وهو عبارة عن مبنى مغطى بقبة بصلية عالية حولها أربع قباب أصغر منها ويحيط بالمبنى أربع منارات رشيقة كالحراس الامناء ، وتتقدمه حديقة كبيرة ، والمبنى مغشى بالمرمر الناصع البياض وسط الحدائق والمباني المجاورة المشيدة من الحجر الرملي الأحمر ، ونسب هذا البناء تتكامل مع فتحاته ، وبما تحدثه من ظلال وأضواء تكاملاً عجباً ، تجعله درة في جبين العمارة الاسلامية في الهند .

١٤ – مساجد العثمانيين: قبل انتقال العثمانيين إلى استانبول واتخاذها عاصمة ، اعتمدوا الطراز السلجوقي ، لا في المساجد فحسب بل في جميع عمائرهم ، وبعد فتح القسطنطينية ، تأثروا بالبناء البيزنطي المتمثل في آياصوفيا التي حولوها إلى مسجد .

وأول مسجد تأثرت هندسته بها ، مسجد المحمدية أو مسجد محمد الفاتح (٨٦٧ — ٨٧٣ هـ / ١٤٦٣ — ١٤٦٩ م) الذي نقل عن آياصوفيا نظام القبة وانصاف القبة .

ويعد العصر الذهبي لبناء المساجد العثمانية ، ما بني من تصميم واشراف المهندس التركي المسلم سنان الذي صمم خريطة ١٣٥ حماماً تركياً وأشرف على بنائها وأكثر من هذا العدد لخرائط المساجد . وأبدع منشآته جامع السليمانية في استانبول الذي دفن بجواره ويتكون من صحن سماوي تحيط به بوائك تغطيها قباب صغيرة . وتغطي الحرم قبة كبيرة تحيط بها أربعة انصاف قباب . وتقوم في جوانب المسجد مآذن طويلة ذات قمم مخروطية .

وقد نسج المهندسون العثمانيون على منوال سنان بعد وفاته لذلك عدّ إمام المدرسة العثمانية المعمارية في المساجد سواء في آسيا الصغرى أم في مصر والشام في العهد العثماني .

وأشهر المساجد العثمانية :

مسجد السليمية في أدرنة : بناه سنان ، وأظهر أقصى عبقريته في اقامة القبة الضخمة على ثمانية اكتاف كبيرة ، وفي الاكثار من النوافذ والفتحات تخفف من ضغط البناء .

جامع السلطان أحمد في استانبول (١٠١٨ — ١٠٢٥ هـ/١٦٠٩—١٦١٦ م) : بناه محمد آغا ثاني مهندس العصر العثماني بعد سنان ويقع جنوبي آياصوفيا . وجعلت قبتـه أعظم من قبـة آيا صوفيا .

جامع سنان باشا المعروف بالسنانية في دمشق : ويتميز بمئذنته المكسوة

بالزخرف الزنجاري ، وبحرمه الجميـل الغني بألواح الرخام المجزع والألواح القاشانية .

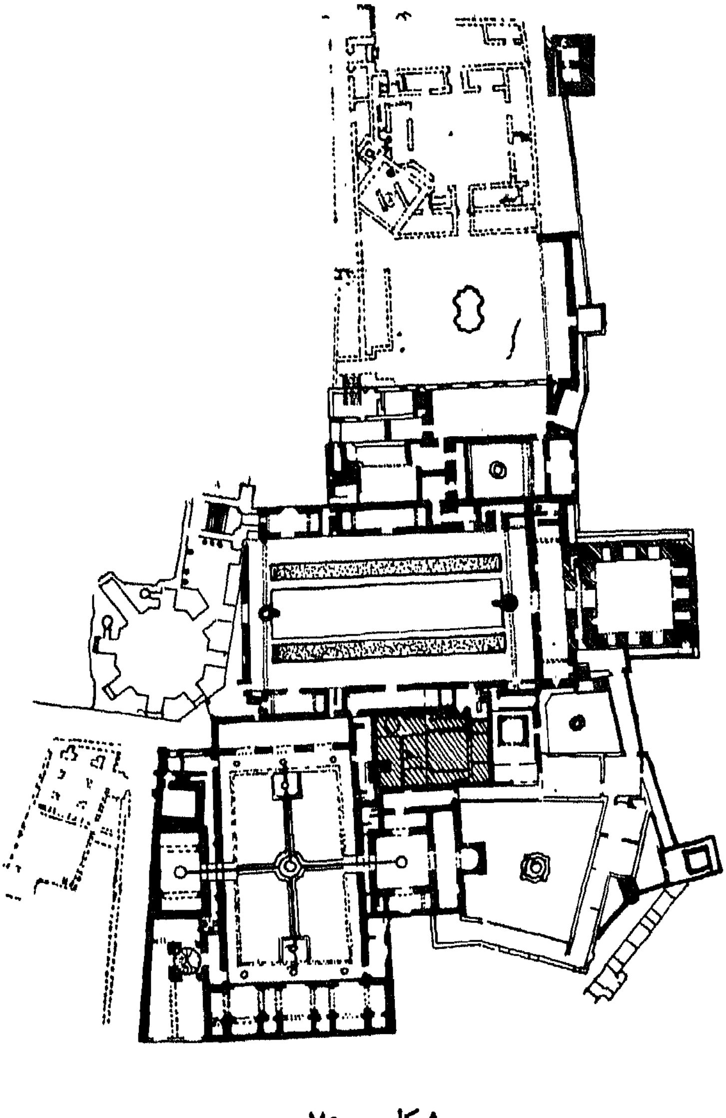
جامع درويش باشا (الدرويشية) : وهو أغنى مساجد العثمانيين في سورية بالواحة القاشانية التي تعتبر أجمل وأروع وأرشق ما صنعه الفنانون الشاميون .

جامع العادلية وجامع الخسروية في حلب : وفيهما كثير من ألواح القاشاني الجميلة .

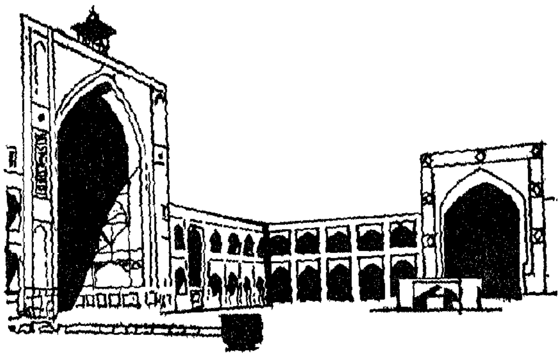
مساجد : سليمان باشا بالقلعة ، مسجد الملكة صفية ، مسجد محمد أبو الذهب ، ومسجد محمد علي بالقلعة وكلها في القاهرة .

ويمكن أن نلحق بالحديث عن المساجد العثمانية ، بمجموعـة العمارات التي ظهرت ، وتشبه من حيث تنوعها ، وتنوع الافادة عنها : **الزوايا** المقامة في شمال أفريقيا ، وتضم مسجـداً ، وحجرات للدراويش وغرف للطلاب ، ومطاعم للحجاج والطلاب والمحتاجين ، وقاعات للدراسة ، تلحق بها مساحات من الحدائق والبساتين ، وتسقى بعدد من البحرات والنافورات ... الخ . وخير مثال على ذلك التكية السليمانية في دمشق ، وفيها جامع قبته ومئذنتاه من الطراز العثماني الاستانبولي ، وبابه ومحرابه واروقته من الاسلوب العربي ... وتلحق بهـا غرف مسقوفـة بقباب صغيرة تتناسب وحجمها . . .

المآذن : ذكرنا ان المآذن اتخذت لاول مرة في دمشق عقب دخول المسلمين اليها ، حين اذن المسلمون للصلاة على ابراج المعبد الوثني القديم ، ثم صنعوا مثلها في بناء مساجدهم . واطلق على المئذنة اسم « منارة » تشبيهاً لها ببناء المنائر على سواحل البحر ، وسميت بالمغرب الصومعة وتنطق « الصمعة » جمعهـا « صمـع » وكانت المآذن الاموية مربعة ، كمآذن المسجد الاموي بدمشق ، واستمر هذا الطراز المعماري خلال العصر الاموي في شرق او

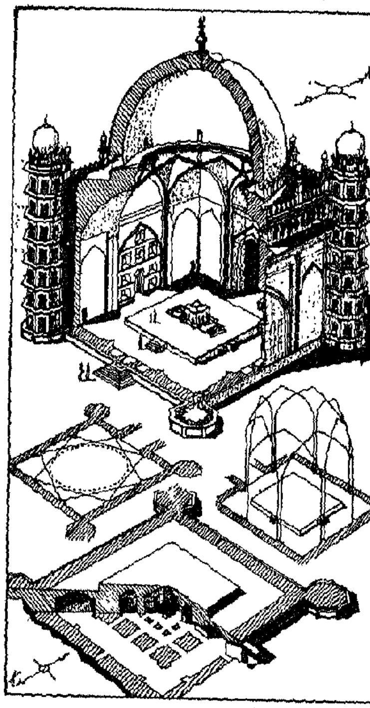


شكل – ٧٥ –
مسقط جامع غرناطة والابنية الملحقة به



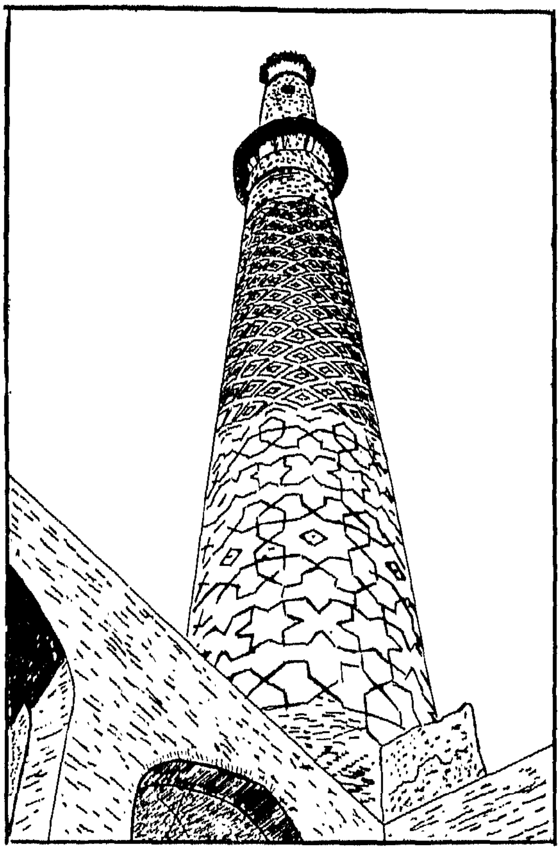
شكل – ٧٦ –

فناء المسجد الجامع في اصفهان بني عام ١٠٨٨ م ويلاحظ انه يرتفع
فيه الايوان من كل جهة من جهات الفناء



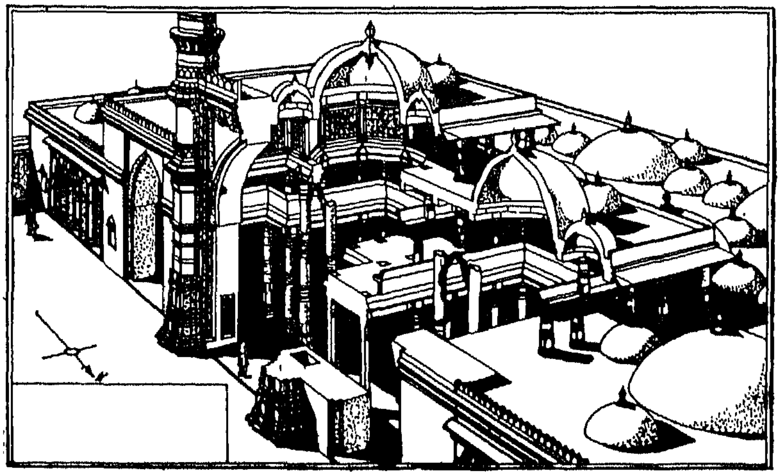
شكل – ٧٧ –

مدفن السلطان محمد عادل شاه في بيجابور (١٦٢٦ – ١٦٦٠ م)



شكل — ٧٨ —
منارة جامع الامام علي في اصفهان (القرن ١١و١٢) ارتفاعها ١٥٦-١٦٠ قدما كل زخارفها من الآجـر . المئذنة من من العصر الصفوي ٩٢٨ هـ / ١٥٢١ م

غرب « كمئذنة جامع القيروان » ثم تطور هذا النظام المعماري ، فظهرت المآذن المدورة ، /كمئذنة الاربطة على سواحل شمال افريقيا لحراسة الثغور. واقدم نموذج لها في منارة الرباط الذي بناه هرثمة بن أعين والي الرشيد على منطقة تونس « ١٧٩ هـ » في مدينة « منستير » الحالية ، ومنارة رباط سوسة الذي بناه زيادة الله بن الاغلب « ٢٠٦ هـ » ومنارة رباط جامع الزيتونة



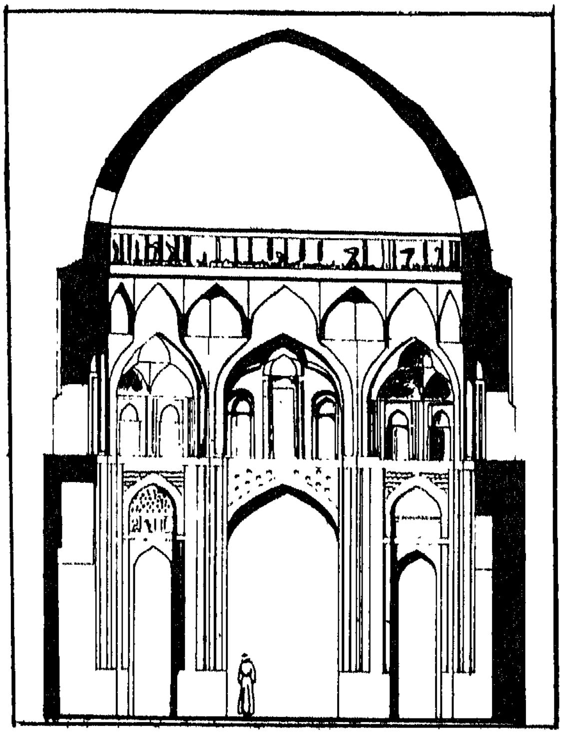
شكل — ٧٩ —

مقطع للجامع المسجد في مقاطعة كوجورات الهندية تم بناؤه عام ١٥٢٣ م



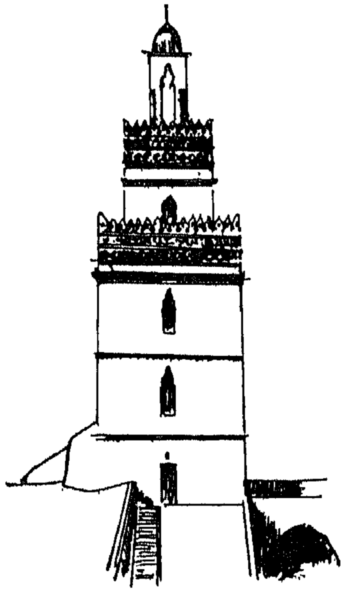
شكل — ٨٠ —

باب الفتوح في القاهرة وقد ادخلت عليه عدة تحصينات
خلال الربع الاخير من القرن الحادي عشر الميلادي ، ويظهر فيه
اثر الاقتباس من فنون الحروب الصليبية المعمارية



شكل — ٨١ —
قطاع من قاعة القبة الصغرى في المسجد الجامع باصفهان
ويلاحظ فيها تطور البناء الاسلامي وتأثره بالطراز المغربي
كلما اتجهنا الى الشرق

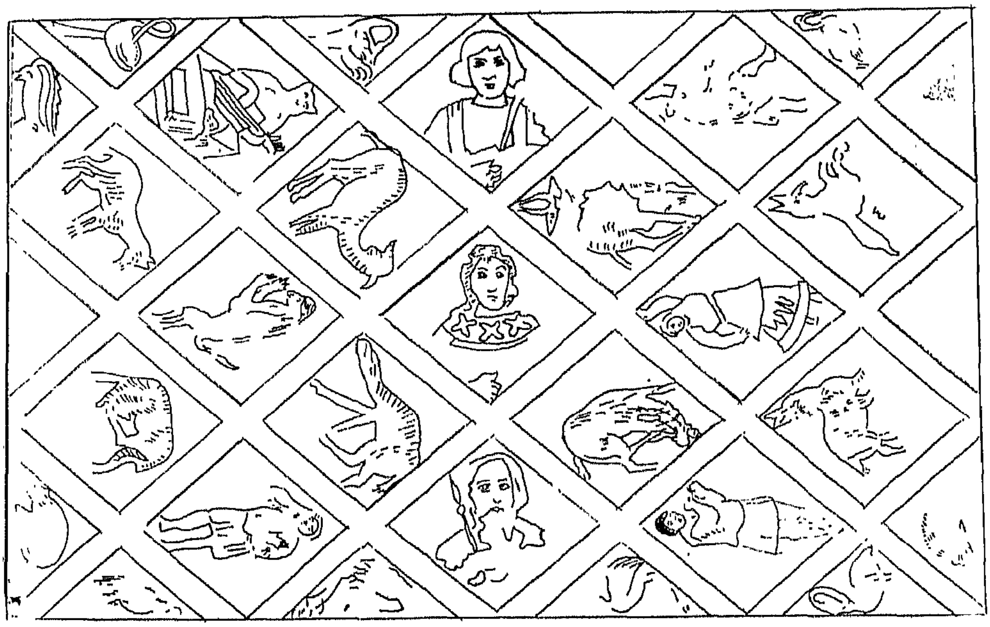
« ٢٥٠ هـ » . وتطور هذا الفن المعماري الاندلسي فشيدت المآذن المسدسة ، والمثمنة ، وزينت بزخارف الآجر الغائر والبارز ، وكسي قسم منها بالزليج « القاشاني » الذي يلمع تحت اشعة الشمس ، وسيطرت هذه النماذج على جميع ابنية المنائر في عهد المرابطين والموحدين .. ولكن المآذن المربعة لم تلغ تماماً في المغرب ، فمنارة الكتبية بمراكش ، ومنارة « صومعة » حسن بالرباط والمنصورة بتلمسان بقيت مربعة ، ثم انتشرت في شمال افريقيا



شكل — ٨٢ —
منارة (مئذنة) الجامع الكبير في صفاقس

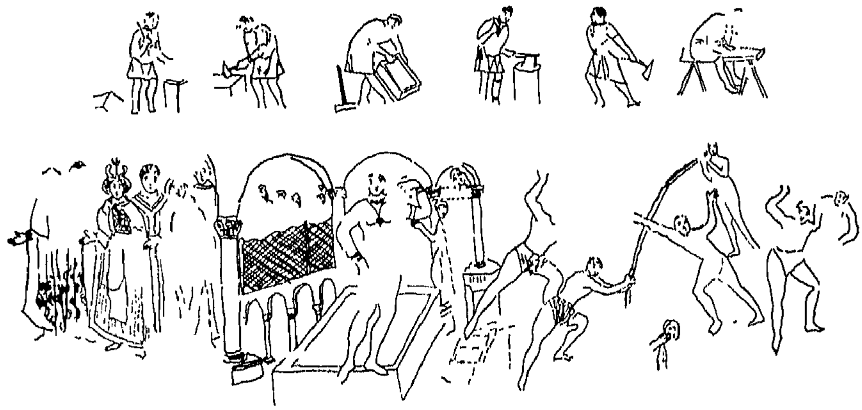
طريقة بناء المآذن الاندلسية مع وفود المهاجرين من الاندلس الى المغرب على اثر الضعف وخروج العرب من هذه المنطقة « سنة ١٠١٧ هـ — ١٦١٣م».

القصور : أخذ العرب بعد الفتح يميلون إلى حياة الترف والنعيم ، وتقليد غيرهم باتخاذ القصور المنيفة ، واقتناء الجواري والاثاث الفاخر ، ولقد ظهر في الحجاز في عصر الراشدين قصور شيدت من طبقتين أو ثلاث ، وفي العهد الأموي استعمل الخلفاء والأمراء بعض القصور الرومانية الموجودة في دمشق وغيرها ، كما بنوا قصوراً كثيرة ، اندثرت جميعها ، وذلك لأن بناءها كان غالباً من الطين أو التراب المشوي ، لم يستطع أن يقاوم عوامل الطبيعة ، وبيئة دمشق الرطبة ، وكل ما نعرفه عن هذه القصور من الكتب التي تذكرها ، فقد ذكروا أن معاوية اتخذ قصر الخضراء ومن اسمه نستدل على لون زخرفته ونقوشه ، ولما كان الامويون حديثي



شكل — ٨٣ —

رسوم تخطيطية لنقوش في قصير عمرة ترجع الى نهاية القرن الاول الهجري وبداية القرن الثامن الميلادي موجودة على جدار القاعة الجانبيـة الاولى ، قوامها اشرطة تتقاطع فتؤلف سبعة عشر معينا واربعة عشر مثلثا . والمثلثات فيها رسوم حيوانات أو رسوم طيور ذات رقبة طويلة . أمـا المعينات فان أعظمها شأنا ثلاثة : الواحد منها فوق الاخر وفيها سماوة (رسم نصفي) غلام وشاب ورجل ولعلها ترمز الى مراحل العمر المختلفة : الفتوة والرجولة والكهولة . وفي سائر المعينات رسوم حمار وحش وغزال وقرد يعزف على آلة موسيقية وقرد آخر وقف على قدميه الخلفيتين ، واخذ يصفق بقدميه الاماميتين ، وشاب بجلباب قصير وآخر ينفخ في مزمار ، وراقصة ذات جلباب طويل وذراعين عاريتين .

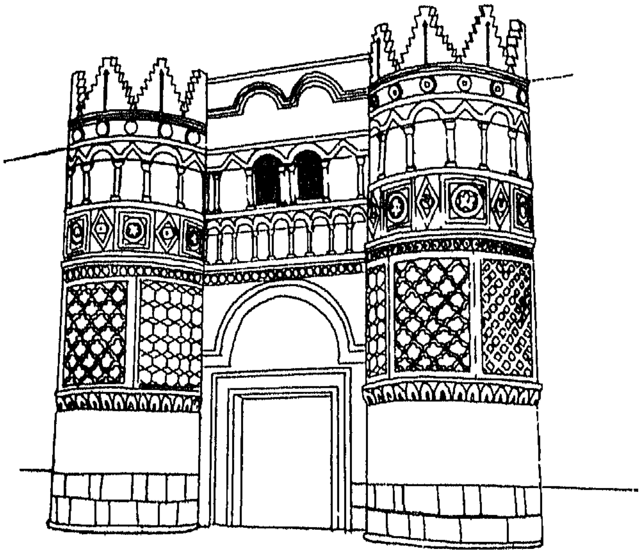


شكل ـ ٨٤ ـ
رسوم تخطيطية لنقوش في قصير عمرة ترجع الى نهاية القرن الاول الهجري وبداية القرن الثامن الميلادي

١ ـ الرسم العلوي يمثل نقوشا لعمال البناء هي من اليمين الى اليسار : نجار يعمل بالمسحج (الفارة) ـ عامل في يده مطرقة ـ عامل في يده معول ـ عامل في يده صندوق رمل أو بلاط (مونة) ـ صانع يحمل قلعا (قدوم) ، عامل يحمل مخلا .

٢ ـ الرسم السفلي يمثل نقشا في الحائط الغربي من القاعة الرئيسية . الى اليسار الصورة التي تعرف باسم اعداء الاسلام وقوامها ستة اشخاص ذوي ملابس فاخرة مرسومين في صفين : ثلاثة في الصف الاول ، وثلاثة في الصف الثاني ، وفوق أربعة منهم كتابة بالعربية والاغريقية لا تزال باقية ، فالأول من اليسار في الصف الامامي فوقه كلمة قيصر بالعربية واليونانية لا تزال باقية ، فهو امبراطور بيزنطة ، والثاني في الصف الخلفي فوقه كلمة يظن انها لوذريق آخر ملوك القوط في اسبانيا ، والثالث في الصف الامامي فوقه كلمة كسرى فهو ملك الفرس ، والرابع في الصف الخلفي فوقه كلمة النجاشي فهو ملك الحبشة . والملاحظ ان تصميم هذه الصورة ساساني .

والى يمين هذا المشهد رسم نساء عاريات في حمام ثم رسم رجال شبه عارين يقومون ببعض العاب رياضية .



شكل — ٨٥ —
واجهة قصر الحير الغربي المعاد انشاؤه في متحف دمشق

عهد بالصحراء ، فقد كانوا يحنون اليها فاستخدموا كثيراً من القصور القديمة التي كان الرومان قد بنوها لتكون قلاعاً يتخذونها لصد غارات البدو قبل الاسلام ، وما لبث الامويون أن أمروا بانشاء قصور وحمامات في البادية سواء في بادية الشام ، أو في اقليم شرق الاردن . وكانوا يخرجون اليها لتمضية بعض أيام راحة وهدوء في كل عام ، بعيدين عن العاصمة ومشاغلها وضوضائها ، وأسوارها التي تجعلهم كأنهم في حصار ، وتمنع عنهم أفق الطبيعة اللانهائي الذي اعتادوا عليه ، ومن أشهر هذه القصور القصر الذي عثر عليه قريباً من تدمر ونقل إلى متحف دمشق ويدعى قصر الحير وقد تم ترميم جانب كبير منه ، ويلاحظ عليه أنواع منوعة من الزخرفة ، إذ لا نجد من بين الاربعين من نوافذه التي رممت منه إلا نافذتين متشابهتين في زخارفها ، كما نجد أعمدته باشكال متعددة ، فبعضها مستقيم اسطواني ، وبعضها ذو أضلاع معوجة ، وبعضها يشبه جذوع النخل ، وأخرى

تنتهي بتيجـان على شكل سعف النخل . وهنـاك في شرق الاردن بقايا قصير عمرة وهو عبارة عن حمام وقصر صغير للصيد يقع على بعد خمسين ميلا شرقي عمان ، اكتشف آثاره سنة ١٨٩٨ م ويرجـع عهده إلى الوليـد ابن عبد الملك ويتألف من قاعة استقبال مستطيلة لها ثلاثة أروقة مسقوفة بسقف اسطواني الشكل ، وعلى جانبي منحنى صغير يتصل بالرواق الأوسط تقوم غرفتان صغيرتان وبجانبها حمام مؤلف من ثلاث غرف صغيرة . وقد دب التلف في نقوش الجدران والسقف ، وتـدل بقاياها على أنها كانت تمثل رسوم صيد واستحمام ورسوم راقصات ورسوماً رمزية لآلهـة الشعر والفلسفة والنصر والتاريخ عند اليونان وأخرى تمثل مراحل الحياة من شباب وكهولة ، وقبة السماء وأبراج النجوم ، وهنـاك رسم يجلب الانتباه يبين الخليفة الوليد بن عبد الملك على عرشه وحول رأسه هالة وفوقه مظلة ويحف به شخصان ، وعلى عقد المظلة كتابة بالخط الكوفي ، ورسم آخر يمثل آخر الملوك الذين حاربهـــم المسلمون وانتصروا عليهم ، كقيصر ولوذريق آخر ملوك القوط ، وكسرى الفرس والنجاشي وغيرهم . .ويظهر على هذه الصورة آثار الفن الساساني الفارسي بينما يظهر على طراز الصور الأخرى آثار الفن الهيليني ، مما دعا المؤرخين إلى الاعتقاد بأن الفنيين الذين رسموا الصور هم من السوريين والآراميين ، وأنهم يعرفون العربية واليونانية ...

وكذلك يعد القصر الذي كشفت آثاره في قرية المفجر شمالي أريحا والذي يعود تشييده إلى هشام بن عبد الملك نموذجاً لبنـاء القصور الأموية وفيه لوحة تعتبر ابدع زخارف الفسيفساء الأموية. يحتوي قصر المفجر على ثلاثة أبنية ضخمة منها قصر السكن ومسجد للصلاة وحمام للاستحمام .

ومدخل القصر يقوم على برج مستطيل هائل ، على جانبه مقاعد مزودة

بالمتكآت الحجرية وداخله مزخرف بالمحاريب الصغيرة المنقوشة بالأشكال النباتية ، يعلو المدخل عقد مصلب الشكل ويكون من عدة أقواس صغيرة داخل قوس كبير كالعقود العربية في الأندلس . . . أما داخل القصر ، فيتبع بتصميمه ورسمه سائر قصور الأمويين ، فهو عبارة عن صحن مربع مكشوف تقوم على جوانبه أربعة أبنية على طابقين مستقلة الواحدة منها عن الأخرى ، ويفصلها عن الصحن الداخلي رواق مظلل بالعقود والأقواس المرتكزة على الأعمدة ... وغرف الطابق الأعلى كانت مرصوفة بالفسيفساء .

والمسجد مزود بمحراب في طرفه القبلي ، وعلى جانبيه غرف مستطيلة للوضوء ولخدم المسجد والمشرفين على نظافته .

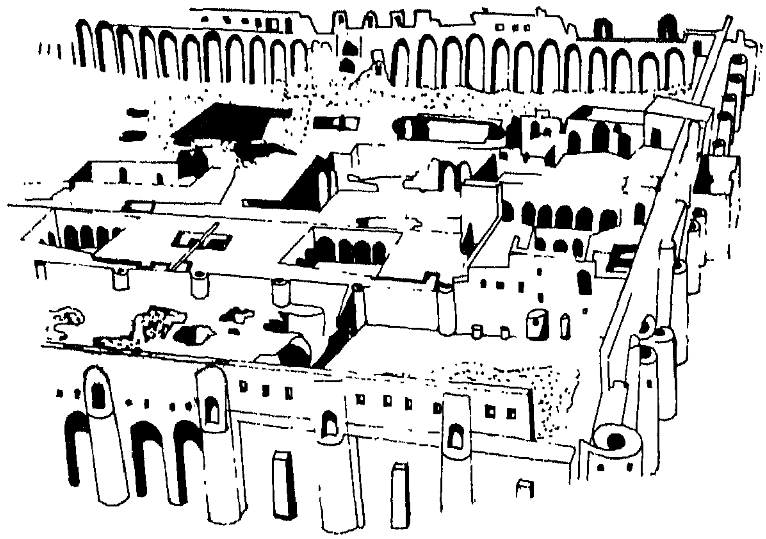
والحمام عبارة عن غرفة مستطيلة ، مرصوفة بالفسيفساء المتعددة الألوان .

والشيء الذي ينفرد به قصر المفجر عن قصور الأمويين التقليدية وجود مسجد كبير خارج القصر ، وحمام كبير أيضاً . وهذا الحمام الخارجي يشبه الحمامات الرومية من حيث غرف للاستحمام بالماء الدافىء ، وأخرى للاستحمام بالهواء الحار ، وأخرى لمسح الجسم وفركه بالزيت . . كلها مجهزة بما يلزمها من أتون لتدفئة الماء والهواء ، وأقنية للماء الدافىء ، وأخرى للهواء الحار ، ومقاعد ومغاطس للاستحمام وهلم جرا .

ومن زخارف القصر ما وجد في غرفة صغيرة في زاوية من زوايا الديوان الكبير للقصر . رصف قسم من الغرفة بالفسيفساء برسم شجرة رمان تقف على جانب منها ظبيتان ترعيان العشب الأخضر ، وعلى الجانب الآخر ظبية ثالثة يفترسها أسد كاسر ، وجدران هذه الغرفة ونوافذها مزدانة بالجبس المنقوش بأشكال نباتية وهندسية أخرى تمثل طيوراً وحيوانات حقيقية أو خرافية وراقصات نصف عاريات[1] .

---

(1) من مقال ديمتري برامكي الذي شارك باعمال التنقيب عن القصر



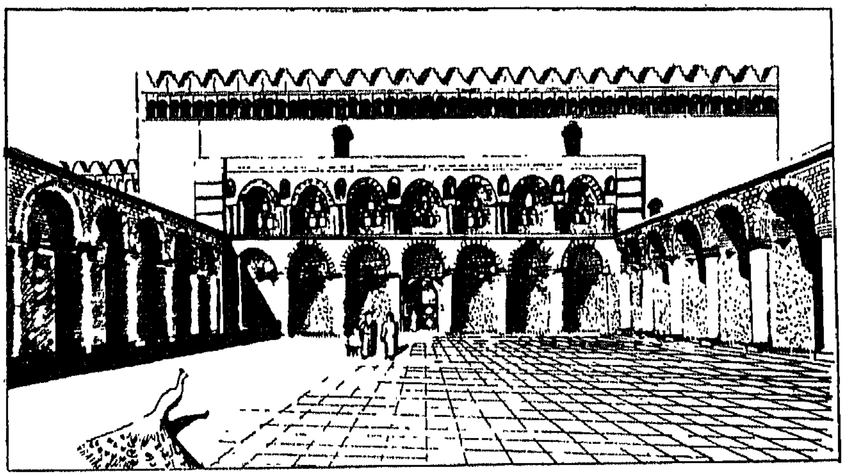
شكل — ٨٦ —
بقاية قصر الاخيضر كما هي عليه اليوم

وقد تسابق خلفاء بني العباس في إشادة القصور من المرمر في بغداد حتى دعيت بمدينة القصور، وكانت قصورهم تتألق بالجواهر البراقة، وتزدان بشتى أنواع الرياش الفاخر المجلوب من أطراف الدنيا. ومن أشهرها قصر الأخيضر الذي تقع بقاياه على بعد ١٢٠ كم إلى الجنوب الغربي من بغداد ويشكل بمخططه حلقة الاتصال بين طراز قصر المشتى من منشآت الأمويين وبين سامراء. وشكل البناء رباعي يشبه قصر المشتى ويضم مجموعة من البيوت وأبنية جانبية وأفناء واسعة، وفيه جامع أثبتت التحريات أنه من أصل البناء؛ وهذا القصر في الواقع كان حصناً أمامياً في منطقة مقفرة بعيدة عن العمران، مشيد بالحجر والجص والآجر ويحيط به سور محصن على غرار القلاع الحربية.

ومنها أيضاً قصور سامراء التي هدمت وبدد آثارها المنقبون خلال عدة قرون يبحثون عن الآجر لاعادة استعماله، وأهمها الجوسق الخاقاني بناه عام ٨٣٦ م المعتصم بن هارون الرشيد ويشرف على نهر دجلة وله جناح

مرتفع ، سمي بقصر الخلفاء أو طيسفون العرب تشبيهاً له بإيوان كسرى في طيسفون .

كما شيد الفاطميون في مصر قصوراً أنيقة وفخمة ، ومن أشهرها **القصر الغربي** الذي بناه الخليفة العزيز وفيه قاعة **الذهب** حيث يجتمع مجلس الملك ، وكانت مزينة بالستور والطنافس الحريرية المزركشة بالذهب . ومن قصور الفاطميين : **قصر العرافة ، وقصر البحر** الذي وصفه ابن خلكان بأن لا يوجد له شبيه في الشرق ولا في الغرب **وقصر اللؤلؤ**



شكل — ٨٧ —
شكل مرمم لباحة قصر الاخيضر

وغيرها . وقد بزّت قصور الأندلس القصور الشرقية بعظمتها وحسن هندستها ، فكان قصر الزهراء عبارة عن عشر قصور تشبه كما ذكرنا فرساي بجوار باريز ، أو قصر يلدز في عهد السلطان عبد الحميد . وقصر الحمراء الذي يشتهر بقاعاته العظيمة كقاعة الاسود وقاعة السفراء وقاعة بني سراج ، وقاعة العدل .

ويمثل « قصر البديع » في مدينة مراكش ، نموذجاً للفن المراكشي ، وقد

استغرق بناؤه ١٥ عاماً ، وقد تحول اليوم الى انقاض ، وكان مؤلفاً من صحن مستطيل الشكل واسع جداً يشغل مركزه بركة ماء ، يشبه الى حد بعيد قاعة الاسود في الاندلس .

ولعل الفن المدجن ، اي فن المسلمين الاسبان الذين بقوا في اسبانيا بعد خروج العرب منها يتمثل هذا في « القصر » في اشبيلة الذي بناه بطرس القاسي على نفس موقع القصر القديم الذي كان المسلمون قد اشادوه وقد اقيم « ١٣٥٠ — ١٣٦٩ » وجدد بناؤه في القرون ١٦ و ١٧ و ١٩ ويمتاز بقرنصاته الجميلة ونقوشه الجصية البديعة واعمدته الرخامية ، مما يؤكد بصورة قاطعة استمرار تذوق الفن الاسلامي من قبل ملوك اسبانيا المسيحيين.

واذا انتقلنا الى المشرق وجدنا تطوراً في بناء القصور ، فظهرت في العهد السلجوقي اساليب فنية تسربت اليها من تركستان ، وخاصة موضوعات الكائنات الحية والتماثيل الآدمية من الجص او الحجر تمثل جنوداً او حراساً او امراء تزين القصور . ومن ذلك قصر « قره سراي » الذي اقامه الاتابك لؤلؤ في الموصل ولا تزال بعض اجزاء القاعة الكبرى فيه قائمة وفيها تزيينات من صفوف من التماثيل النصفية في جنبات الجدران .. وقصر السلطان في قونية يحتوي على تماثيل سباع متقنة ، وسور قونية غني بالرسوم الحيوانية البارزة . .

أما قصور الصفويين في ايران فكانت صغيرة الحجم نسبياً قوام معظمها قاعة كبيرة عظيمة الارتفاع تحف بها قاعات صغيرة للسكن في طابقين اشهرها قصر شهل ستون وقصر هشت بهشت وقصر آينه خانه ، وزينت جدران جميعها باللوحات المصورة . . وبالمرايا والمنسوجات النفيسة ، واستعملت فيها اللوحات الزيتية الكبيرة التي تكثر في مواضيعها رسوم الزهور

والفاكهة والفسيفساء والمناظر الطبيعية الجميلة ، وفيها يظهر الفن الايراني الدقيق والجميل ... وتطنب الكتب في وصف ماحوت هذه القصور من اثاث فاخر ، وادوات تزينية دقيقة الصنع غالية الثمن .

ومن القصور العثمانية الباقية في الشام : قصر العظم بدمشق وقصر العظم بحماة ويعتبران نموذجاً للقصور العثمانية عامة ويتألف كل منهما من جناحين رئيسيين : جناح الاسرة صاحبة القصر « الحرملك » ، وجناح الضيوف والاستقبالات « السلملك » ، يلحق بهما جناح ثالث اصغر مخصص للخدم والمطبخ.

ويمكن أن نلحق بالقصور الخانات التي أقامها العرب والمسلمون على طول الطرق ، تقف عندها القوافل ، وكثيراً ما كانت تزود بدواب الصدقة حيث تعطى لكل من نفقت راحلته أثناء السفر راحلة غيرها من أموال الزكاة ، كما كانت مكاناً لتبادل التجارة .

****

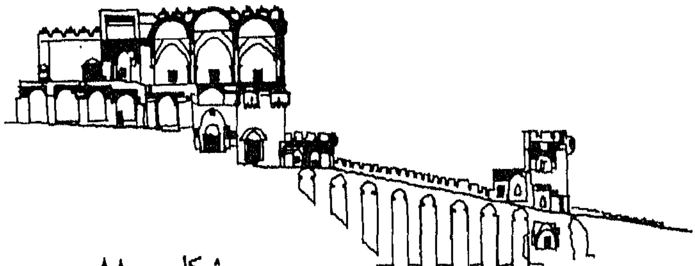
٢ ــ الابنية الحربية

بالرغم من أن العرب إنما فتحوا امبراطوريتهم الكبرى فتحاً ، فانهم لم يكثروا من الأبنية الحربية فيها إلا حين تهددت أخطـار العالم الاسلامي ، أي منذ القرنين التاسع والعاشر أيام الحروب المتقابلة مع البيزنطيين . ثم كانت الحملات الصليبية وما اقتضتها من حروب . ثم موجة المغول «جنكيز» والتتر « تيمور » ، فصارت تقام في سوريا خاصة وفي مصر أبنية حربية كثيرة حتى نهاية القرن الخامس عشر التي اقتبس الصليبيون الكثير من أساليبها : كبناء المشربيات وهي البروز المغطى في جسور القلعة لرمي المهاجمين بالمؤذيات . وكجعل مدخل القلعة إلى الداخل على شكل ممر ذي زوايا قائمة أو ملتوية لمقاومة العدو .

ولا شك أن أكثر الأمراء عناية ببناء القلاع هم سلاطين المماليك « القرن ١٣ ــ ١٦ » . أما أهم وأجمل قلاع سوريا فاثنتان :

١ ــ **قلعـة حلب** : وتقوم على هضبة صخرية وجدت فيها آثار بيزنطية ومعظم أبنيتها الحالية تعود الى زمن الملك الظاهر غازي الذي جدد حصونها وبنى منحدراتها من أسفل الخندق إلى الاسوار ليتعذر التسلق إليها . وقد رممت أسوارها مراراً خلال القرون « ١٤ ــ ١٥ ــ ١٦ » . أما مدخلها القائم إلى اليوم فيعد من أجمل التحصينات العسكرية الباقية من القرون

الوسطى ، ويتألف من برج ضخم فيه الباب الخارجي الذي ينفذ منه إلى درج معلق فوق الخندق على عـدد من الركائز والاقواس حتى يصل الى باب القلعة الرئيسي ، وهو ذو واجهة جميلة البناء والتزيين وتقوم من فوقه قاعة العرش . وفي داخل القلعة مسجدان يرجع الكبير منهما الى سنة ١٢١٣م



شكل — ٨٨ —

مقطع مدخل قلعة حلب وبناء القلعة كما كان ، كما رسمها سوفاجيه وقد ميز اليها بالخطوط (هاشور)الاضافات المملوكية بالاشارة عن البناء الايوبي الاصلي ، كما يلاحظ أهمية التحصينات التي ادخلت على القلعة في أيام الحروب الصليبية لتقويتها وزيادة مناعتها .

٢ — **قلعة الحصن :** (حصن الاكراد krak des Chevaliers)وتشرف على ممر حمص — طرابلس ، قرب تل كلخ . وأصل بنائها غامض ، وقد احتلها الصليبيون سنة ١١١٠ ثم صارت بيد « الاسبتارية » وهم فرقة دينية عسكرية من الصليبين وبقيت لهم حتى سنة ١٢٧١ م إذ استسلموا للظاهر بيبرس.

وتعد قلعة الحصن من أكمل الأبنية الحربيـــة الباقية في سوريا : بأسوارها وأبراجها ومخازنها العميقة وخنادقها .

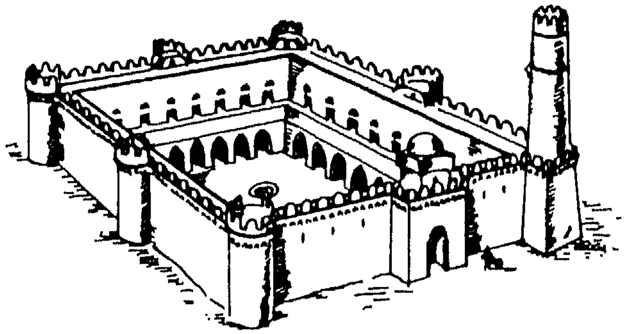
وفي انحاء العالم الاسلامي بنيت كثير من القلاع ، **كقلعة الموت** في ايران ، **وقلعة الجبل** التي بناها صلاح الدين في القاهرة . وعرفت بلاد المغرب والاندلس الكثير من العمارات العسكرية فاقدم القلاع المعروفة في الاندلس **قلعة مريدا** التي بناها عبد الرحمن الثاني عام ٨٣٥ م ، وقد اقتبس مهندسوها عناصر القلعة البيزنطية فكان لها : جسر يتقدمها على نهر غواديانا

وسور مربع مبني من الحجر المنحوت ، وابراج مستطيلة ، وابراج مربعة في زوايا السور وباب وحيد غير بارز ..

الا ان نشاط البناء العسكري بدا واضحاً في القرن الحادي عشر الميلادي ، في عهد المرابطين ، وتعد مدينة مراكش التي انشئت في هذه الفترة ، مدينة محصنة ، واقدم قلعة بناها المرابطون **قلعة سور الحجر** « ١٠٦٢ م » اكتشفت حديثاً ، وكانت على الارض التي اقيم عليها فيما بعد مسجد الكتبية : يليها **قلعة بني حماد واشير وبجاية وتاسفيمرت** الواقعة في جنوب شرقي مدينة مراكش ، وثم **قلعة الغديرة** الواقعة قريباً من اشبيلية .

وشهد القرنان الثالث عشر والرابع عشر في المغرب استمرار النشاط المعماري للقلاع والحصون . فبنيت حصون فاس « ١٢٧٦ م » كما بنيت مدينة المعسكر التي انشأها المغاربة خلال حصار العاصمة تلمسان ١٣٣٢ م ، وحصن شيله ، وحصن جبل طارق وقصبته مع البرج المستطيل في القلعة الحرة . .. اما في مدينتي تونس وموناستير فبقيت لنا من عمارات هذين القرنين بعض الاسوار الدفاعية .

٣ ــ **الرباط** : كما نلحق بها « الرباطات» وهي نوع من العمارات العسكرية والدينية معاً ، لذلك شبهها بعض الغربيين بالأديرة المحصنة ، وأكثر ما نشأت في شمالي افريقيا لصد محاولات الغزو البحري الاوربي ، واعداد حملات المجاهدين ، ويجتمع في الرباط اتباع طريقة دينية ، يعبدون الله ، ويستعدون للجهاد ، وأكثر الرباطات كان في تونس ، ومنها رباط مدينة سوسة الذي تم انشاؤه عام ٨٢١ م من قبل الاغالبة . ومخططه بسيط جداً ، يحيطه سور مربع الشكل مدعم من زواياه ، حسب المحاور ، بابراج ، يرتفع أحدها أكثر من غيره ، لمراقبة العدو ، وباب الرباط



شكل — ٨٩ —
رباط سوسة يعود بناء هذا الرباط الى عهد الاغالبة
وتم تشييده عام ٢٠٦ هـ

الوحيد في وسط أحد الأضلاع . وفي داخل الفناء يوجد مصلى وحجرات للسكن والعمل . ويعتقد أن مخطط هذا الرباط مقتبس من القصور السورية التي أنشئت في العصر الأموي .

ويشتغل المرابطون بحراسة الثغور ، فيكلفون منهم حرساً دائماً في المنارة تراقب قدوم اسطول العدو ، وحرساً مستعداً للعمل على اسطحة الرباط . اما بقية سكان الرباط فيلتفتون الى الاعمال اليومية ، فيؤمنون الطعام والشراب والسلاح للمقاتلة ، وكل الاعمال فيه مجانية : الطبيب ، المعلم ، النساخ ، الكفاؤون « صانعة الورق » المشرفون على الحمام الزاجل لتأمين البريد الجوي ، موقدو النار للتخاطب ليلاً بين الرباطات باشارات واصطلاحات فيما بينهم ... الخ كلهم يعملون ويعيشون في الرباط ويقدمون خدماتهم مجانا وتنفق الدولة عليهم كمجمـــوع ، ويتبرع المحسنون لهم بالاراضي والاقطاعات ويحبسون لهم الاحباس والاوقاف .

الفنون الجميلة

النقش والتصوير وصنع التماثيل : حارب الاسلام عبادة الأوثان ، وحطم الرسول عليه السلام أصنام الكعبة يوم فتح مكة ، وتشدد الدين بخلو أماكن العبادة من صورة كل ذي روح ، وروي عن الرسول أحاديث كثيرة ، تحرم التصوير ، أو تجعله مكروها ، مما جعل المصور مغضوباً عليه من رجال الدين ، وعرضة لسخطهم وسخط المجتمع الذي يقوم على أساس الدين ، ولذلك لم يبلغ المصور في صدر الاسلام المرتبة الرفيعة التي بلغها غيره من المفكرين والأدباء ، فلم يعن المؤرخون بتدوين أخبارهم عنايتهم بغيرهم من الشعراء والادباء والعلماء والمفكرين ، واذن فليس غريباً ألا يصلنا سوى اسم كتاب واحد عن المصورين ، على كثرة ما وصلنا من كتب الطبقات . وهو « ضوء النبراس وأنس الجلاس في أخبار المزوقين من الناس » ذكره المقريزي في خططه ... ويظهر أن المصورين أنفسهم تأثروا بموقف المجتمع منهم ، فلم يبذلوا كثيراً من الجهد في تمييز أساليبهم أو في طبع انتاجهم بطابع ذاتي ، ولم يضعوا أسماءهم على الصور التي رسموها ، ولذلك أصبحت دراسة التصوير العربي الاسلامي قاصرة على الرسوم لا على المصورين ... وكانت النتيجة الطبيعية لهذه الأمور أن التصوير لم يستعمل لخدمة الدين فلم يدخل المساجد ، ولم يسهم في تجميل المصاحف ، ولم يستعمل في توضيح كتب الفقه أو الحديث أو المؤلفات الدينية ، وما وصلنا من صور تمثل الموضوعات الدينية كصور الأنبياء ،



شكل — ٩٠ —

صفحة من صفحات احدى مخطوطات كتاب كليلة ودمنة من عهد المماليك رسمت واستنسخت عام ١٢٢٢م في شمالي العراق . وهكذا يلاحظ ان المخطوطات العربية كانت تزدان بالصور والرسوم ، لا في الابحاث العلميــة والطبية فحسب ، بــل في الادب والقصص وغيرها ايضا .

وبعض الأحداث الدينية كالمعراج ، انما كانت من رسم فنانين مسلمين غير عرب ... وهذه النظرة العامة إلى التصوير جعلته فناً مدنياً في طابعه ينظر اليه كفن من فنون الدنيا لا كعمل من أعمال الآخرة ، اللهم سوى تلك الزخارف الهندسية والنباتية ومناظر الطبيعة العامـــة والتفنن بزخرفة الخط العربي وتنويعه وتحويله الى موضوعات زخرفية جميلة ، تسر العين بمرآها ، ويصعب أحيانا على الانسان العادي قراءتها لكثرة ماأصاب أحرفها من تحوير اقتضته التعبيرات الفنية .

على أن هذا الموقف الديني المناوىء للتصوير والنحت لم يقض عليه قضاء تاماً . وقد كشفت الآثار عن تماثيــل وصور إسلاميــة ترجــع إلى العصر

الأموي ، أي الى أواخر القرن الأول الهجري ومطلع القرن الثاني؛وأقدم الأمثلة على ذلك التصاوير الطينية التي نجدهـا في قصـير عمرة (شرقي الاردن) وهو ملهى وحمام أموي على جدرانه صور مائية مرسومة على الجص لست شخصيات ملكية يلبسون ثياباً حسنة ، يصطف ثلاثة منهم في الأمام وقد مدوا أيدهم . ويقف الثلاثة الباقون خلفهم ، منها صورة الخليفة نفسه وأخرى لعدوه لذريق (آخر ملوك في اسبانيا) وتمثل البقية صور قيصر و كسرى والنجاشي وامبراطور الصين ، كما ذكرنا في بحث القصور . وهناك صورة رمزية تمثل الظفـر والفلسفة والتاريـخ والشعر كما توجد صورة نسـاء عاريات في حمام ، ومجموعة رجال تقوم بتدريبات رياضية . وفي صورة لمشهد صيد نرى أسداً واثباً على حمار وحشي . وفي مشهد آخر صور تمثل الراقصات والموسيقيين وأهل الطرب . ونجد مثل ذلك في قصر الحير الغربي الذي نقلت بقاياه إلى دمشق ، فعلى واجهته الخارجية عدد من التماثيل من بينها تمثال للخليفة حفظ لنا معظمه ، وفي داخل القصر تمثال للخليفة يركب الحصان عدا عدد من الصور تملأ الجدران وتمثل تارة فارساً في الصيد ، وتارة جوقة موسيقية ، ولعل أجملها صورة نصفية لامرأة تحمل سلة وقد التف حول عنقها ثعبان وفوقها مخلوقان خرافيان ، ويحد هذه الصورة شريط تزخرفه أفرع نباتية تؤلف دوائر ويتفرع منهـا عناقيد وأوراق نباتية ، وفي وسط هذه الصورة ميدالية يحف بها شريط من حبات اللؤلؤ . ويزين عنق الامرأة عقد من اللؤلؤ .

ولم تحو المساجد الأموية ، ولا غيرها ، أي رسم للبشر أو الحيوان . ولكن الأمويين رسموا على جدران الجامع الأموي بدمشق وقبة الصخرة بالقدس والمسجد النبوي بالمدينة ، زخارف بالفسيفساء وهي فصوص صغيرة أو مكعبات دقيقة من الزجاج ومن الحجر ومن صفائح من الصدف تلصق

بنظام على طبقة من الجص . ويراعى حين لصقها أن تكون مسطحة وفي وضع أفقي .

وقد صممت رسوم الفسيفساء بحيث تؤلف وحدة مع البناء وتنسجم مع التصميم المعماري ... وأكثرها زخارف نباتية تقرب هيئاتها في بعض الاجزاء من الطبيعة بحيث تصبح أقرب إلى صورة طبيعية منها إلى وحدة زخرفية ، ومن هنا اعتبرت هذه الرسوم من باب التصوير .



شكل — ٩١ —
فسيفساء من قصر هشام بن عبد الملك
في خربة المفجر قرب اريحا بالاردن . بني حوالي سنة ٧٣٠ م

وتتألف رسوم فسيفساء الجامع الأموي من موضوعات مختلفة : بعضها يمثل زخارف نباتية وبعضها يمثل أشجاراً ومياهاً وقصوراً وعمائر ذات طوابق عدة ، ومن طراز معمارية مختلفة وحدائق مزدهرة مثمرة وجبالاً

وتلالأ ، وقد صورت مياه النهر باللون الأزرق النقي يتخلله قليل من اللون الفيروزي واللازوردي والسمائي ... وتتناثر على سطح النهر حبات الزبد التي تتألق على حافة أمواجه بلونها الفضي . أما الأشجار فيميز منها أشجار غوطة دمشق كالسرو والحور والمشمش والجوز والتين والتفاح وقد لونت بالاخضر بدرجات مختلفة ، ترصعه بقع مدورة وبيضاوية ذات لون وردي أو أصفر تمثل الفاكهة والأزهار . وتمثل صور فسيفساء قبة الصخرة نخيلًا وأشجاراً تتدلى منها فاكهة على شكل عناقيد العنب أو عراجين التمر ، يشوبها زخارف ، اذ يلاحظ على سوق الشجر أو جذوع النخل زخارف مؤلفة من فصوص من الجواهر ، أو من حبات اللؤلؤ ، وتشبه بشكل عام مناظر المسجد الأموي ، مما يدل على أن المدرسة الفنية واحدة في المسجدين .

ولم تحل عداوة الفقهاء المتزايدة للفن التصويري دون ارتقائه بعد ذلك على أساليب إسلامية صرفة أو مقتبسة ، وقد أثر عن العهد العباسي أخبار كثيرة تدل على انتشار الصور وقبول التماثيل لدى الناس ، فقد أقام المنصور فوق قبة قصره ببغداد تمثال فارس بيده رمح ، وأنشأ الأمين حراقات على دجلة في أشكال الأسود والنسور والحيتان ، وجعل المقتدر في قصره تماثيل فرسان وطيور .

ومن آثار سامراء مناظر لراقصات ومغنيات يعزفن على الآلات الموسيقية ، ونساء شبه عاريات ، وأخريات يصطدن الوحوش ، أو كنيسة فيها رهبان ، ويظهر فيها جميعاً أثر الأسلوب الفني الساساني أو البيزنطي.

وقد وصف لنا الشعراء العباسيون بعض القصور وما كان عليها من رسوم حيوانية أو آدمية . من ذلك :

صور ترى ليث العرين تجاهه فيها ولا يخشى سطاه صُوارُ (قطيع البقر)

وفوارساً شبت لظى حرب وما دعيت نزالِ ، ولم يُشن مغار

وموسدين على أسرة ملكهم سكراً ولا خمر ولا خمار

ويصف الشاعر عمر بن مسعود الحلبي حماماً بدمشق فيه صور ومما قاله :

وخط فيهـــا كل شخص إذا لاحظتـــه تحسبه ينطق

ومثل الأشجار في لونها ولينها لو أنها تورق

أخيارها من فوق اغصانها بودهـا تنطق أو تزعق

وهيئـة الملك وسلطانه وجيشه من حوله يزعق

هذا بسيف وله عبسة وذا بقوس وبه يعلق



شكل ــ ٩٢ ــ

صحن من الخزف ، مزخرف بزخارف متعددة الالوان ، يمثل فارسا على فرسه ، وقد كثر هذا النوع من الزخارف في مختلف بـلاد العـالم الاسلامي . وهذا الصحن مصنوع في الريّ بايران في القرن الثالث عشر الميـلادي .



شكل ـ ٩٣ ـ

نموذج بديع ونادر ، من الرسوم البارزة في العصر الامــوي . وهو سقف قصر خربة المفجر الاموي الباقية آثاره حتى الان في الاردن ، يلاحظ فيه نقش بارز لرؤوس ست نساء بشكل زهرة . وقد وجد هذا الاثر الفني بحالة جيدة في غرفــة الاستقبــال الصغيرة بجوار الحمام وكانت خلفية النقوش البارزة ملونــة بشكل تبرز النقش وتكسبه جمالا ، ويرى الفنانون أثر الاسلوب الساساني في النقش وفي التزيينات من ورق العنب والاقنثا (نبات شوكي) والزهور المختلفة .

كما وصف الشعراء والكتاب الكؤوس المصورة والستائر والاواني الخزفية والنقود والاسلحة والمصابيح والخيام المملوءة بالصور .

وإذا انتقلنا إلى العهد الفاطمي والايوبي وجدنا في دور الآثار عدداً كبيراً من آثار هذين العهدين من صور إنسانية وحيوانية ، كما نقع على أخبار بعض المصورين ومنهم (الكتامي) صاحب صورة (يوسف في الجب) الذي صوره وهو عريان ومثله (القصير) الذي كان يباري الآخرين بالصور النافرة والغائرة . أما في الاندلس فأخبار التماثيل في القصور متوفرة ولعل أهمها أسود قصر الحمراء وتماثيل الزهراء .

وأهم ما وقع عليه الباحثون من آثار التصوير في العصور المتأخرة ، عدد كبير من المخطوطات العربية المزينة بالصور وأقدمها لا يرجع إلى ما قبل القرن الثالث عشر . مثل (كليلة ودمنة) و (مقامات الحريري) و (الاغاني) . وفي المكتبة الاهلية بباريس نسخة من المقامات ترجع إلى منتصف القرن السابع الهجري (١٣ م) فيها زهاء مائة صورة . وقد ظهر هذا الولع بتصوير الكتب في العراق خاصة وفي الشام ومصر أيضاً ، ثم تجلي هذا الفن وازدهر في فارس . ولعل ابرز اسماء الرسامين الذين زينوا الكتب هو محمود الواسطي .

هذا ويجمل الفنانون خصائص التصوير في العصور الاسلامية بعد بلوغ المسلمين درجة القمة الحضارية الفكرية والادارية في العصر العباسي ، بالمدارس التصويرية الآتية :

آ ـ مدرسة بغداد او مدرسة التصوير السلجوقية : القرن (٧ هـ/١٣م) وتتمثل فيما خلفه لنا رسامو هذه الفترة من صور داخل المخطوطات واكثرها ترجمات للقصص مثل كليلة ودمنة ، أو ترجمات لمؤلفات يونانية في علوم الطب والنبات والحيوان والطبيعة ، أو كتب أدبية كمقامات الحريري ، او مؤلفات اسلامية كعجائب المخلوقات للقزويني .

واقدم المخطوطات التي ترجع إلى هذه المدرسة كتاب في البيطرة كتب في بغداد سنة ٦٠٥ ﻫ / ١٢٠٩م محفوظ اليوم بدار الكتب المصرية بالقاهرة وهو ترجمة لكتاب خواص العقاقير لديوسكوريدس . وتوجـــد مخطوطة اخرى لنفس الكتاب محفوظة في متحف طوب كوبو سراي في استانبول كتب سنة ٦٢١ ﻫ / ١٢٢٤ م . وفي النسختين صور اطباء يحضرون دواء او جراحين يقومون بعمليات جراحية .

واقدم نسخة لمقامات الحريري ، التي تذكر مغامرات الحارث بن همام وابي زيد السروجي محفوظة في المكتبة الوطنيـة بباريس وقـد كتبت سنة ٦١٩ ﻫ / ١٢٢٢ م ويظهر فيها التأثير السوري . وفي نفس هذه المكتبة نسخة اخرى كتبت ورسمت صورها سنة ٦٣٤ﻫ/١٢٣٧ م بريشة محمود الواسطي اشهر فناني هذه الفترة ، وفي صور هذه النسخة نشاهد مسلمي القرن الثامن عشر الميلادي في العراق وبقيـة الاقطار الاسلامية في مختلف نشاطات



شكل ـ ٩٤ ـ
صفحة من صفحات نسخة من مقامات الحريري تمثل رجلين جلسا للشراب ، وهي من رسم فنان سوري ١٢٣٧ م ويلاحظ فيها أثر المدرسة العراقية . وقد ظهرت في سوريـة ومصـر عـدة نسـخ مصـورة للمقامات في عهد المماليك

الحياة : في المسجد ، في الحقل ، في الصحراء ، في الحانة ، في المكتبة في الافراح والاعياد والاحزان ...

وتمتاز هذه المدرسة بأنها عربية اكثر منها ايرانية ، وتلوح على الاشخاص مسحة رقيقة ، وتغطي وجوههم لحى سود فوقها انوف قني . مع مهارة في التعبير عن حالة الجماعات والافراد . ودقة في رسم دقائق زركشة الملابس وانواع الازهار والرياحين التي كان يكثر منها الناس في حدائقهم ومنازلهم .

واشهر رسامي هذه الفترة الواسطي الذي ذكرناه ، والذي تعتبر رسومه في مقامات الحريري صورة صادقة للحياة الاجتماعية في عصره وعبد الله بن الفضل ، واشهر ما عثرنا عليه من رسومه ، نسخة من كتاب



شكل — ٩٥ —

من اكثر رسوم الرسام رشيد الدين تعبيرا ، هذه اللوحة التي تمثل سفيرا مسلما مع مرافقيه في بلاط ملك الحبشة ويلاحظ في هذه اللوحة ، التي تزين احدى صفحات كتاب « التاريخ العام » المنسوخ في تبريز عام ١٣٠٦ م ، اثر الفن الصيني،وبروز ميزات مدرسةمابين النهرينالفنيةمعا.

خواص العقاقير رسمه سنة ٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م محفوظة في المكتبة الوطنية في باريس كانت تحوي ثلاثين صورة ، ولكن اكثرها اليوم موزع في عدد من متاحف العالم كاللوفر في باريس والمتروبوليتان في نيويورك .

ب ـ المدرسة الايرانية المغولية (القرن ٨ هـ/١٣-١٤ م) : ويظهر في هذه المدرسة اثر الواقعية في المناظر الطبيعية الصينية . واقدم مخطوطة من هذا العصر نسخة ايرانية من كتاب منافع الحيوان لابن بختيشوع محفوظة في مكتبة مورجان بنيويورك . واشهر الرسوم ما وجد في كتاب « جوامع التاريخ » للوزير المؤرخ رشيد الدين . وبين ايدينا اربع مخطوطات منه : إحداها كتبت ورسمت سنة ٧٠٧ هـ/١٣٠٧ م ومحفوظة في مكتبة جامعة ادنبرة وثانيتها مؤرخة سنة ٧١٤ هـ/١٣١٤ م ومحفوظة في مكتبة الجمعية الملكية الآسيوية بلندن . والنسختان الاخريتان محفوظتان في مكتبة طوب كوبو سراي في استانبول . وتمتـــاز جميع الصور باستطالة رسم اجسام الرجال الذين تبدو على سحنهم مسحة انسان .

ويلاحظ على صور هذه المدرسة اضافة إلى الاثر الصيني في الرسم والتكوين وتضمينها صور الحيوانات الخرافية الصينية ، مزيج في غطاء الرأس ، فللمحاربين انواع كثيرة من الخوذات ، وللنساء قلنسوات مختلفة بعضها مزين بريش طويل ، وللرجال ضروب شتى من القلنسوات والعمائم ؛ تساعد هذه الرسوم على معرفة انواع الملابس والمودات في القرن الذي رسمت فيه .

ح ـ مدرسة التصوير التيمورية في إيران (هراة) القرن ٩ هـ/١٥ م كان تيمورلنك قد اتخذ سمرقند عاصمة له وجمع فيها اشهر الفنانين واصحاب الصناعات الدقيقة ، ولكن عمله لم يقض على تبريز وبغداد كمركزين فنيين في العالم الاسلامي ... ولم يصلنا شيء يذكر من انتاج سمرقند في الرسم ، وإنما الذي وصلنا من انتاج مدينة « هراة » بخراسان التي جمع فيها ابن تيمور وخليفته ويدعى شاه رخ الفنانين وخاصة النساخ والرسامين لتزويد مكتبته بالمستنسخات ، وكان ممن رسم له الكتب المصورة « خليـــل »

الذي اعتبر واحداً من عجائب عصره . وقد اسس ابن شاه رخ ويدعى ميرزا مكتبة ومعهداً لفنون الكتابة ، عمل فيه اربعون فناناً بين مصور ومذهب وخطاط ومجلد ، ومن المصورين : امير شاهي وغياث الدين . وأكثر انتاجهم كان في تصوير الشاهنامة وكتب الشعر العاطفي والتصوفي لمشاهير الشعراء الايرانيين أمثال نظامي وسعدي .

وصور هذه المدرسة مليئة بمناظر الزهور والحدائق ، وجمال فصل الربيع ، والأشجار الطبيعية ، وأشكال الطبيعة من جبال وتلال . . . كلها بألوان ساطعة لا يكسر من حدتها تدرج ما .

يضاف إلى هذا بعض الصور العلمية لمخطوطة كتاب بمجموعات النجوم لعبد الرحمن الصوفي المحفوظة في المكتبة الوطنية في باريس رسمت عام ٨٤١ هـ / ١٤٣٧ م . وفيها كثير من الصور الآدمية والطيور والحيوانات التي توضح أسماء النجوم والمجموعات الفلكية .

د ـ مدرسة بهزاد : وتنتسب إلى كمال الدين بهزاد الذي لقب بمعجزة العصر والذي نشأ في هراة ، ولكنه أدخل على الرسم والتصوير كثيراً من التطوير . ويعتبر بهزاد من أوائل المصورين المسلمين الذين وضعوا تواقيعهم على آثارهم الفنية ، وقد تبين لنا أن كثيراً مما وصلتنا من صوره ، لم يكن النسخة الأصلية ، وإنما صور منقولة عنها ، احتفظ النساخون بالتوقيع الأصلي .

وامتاز بهزاد بقدرته على مزج الألوان والتعبير عن الحالات النفسية المختلفة ، ويقول أحد الكتاب في وصف رسم هذا الفنان : « انك لتحس أمام آثاره الفنية أن بين يديك صوراً ارستقراطية بهدوئها وبحسن الذوق وإبداع التركيب فيها ، وبدقة الزخرفة وانسجامها ، مما يشهد ان بهزاد كان

المصور الكامل الذي انتهى على يديه تطور التصوير الايراني في عهد المدرستين : الايرانية المغولية ، ثم التيمورية فبلغ التقدم منتهاه » .

هـ — مدرسة بخارى : ازدهرت في بخارى (القرن ١٠ هـ / ١٦ م) مدرسة فنية متأثرة بالمدرسة التيمورية وبهزاد وتلاميذه . وكثرت فيها المناظر الغرامية . ويتميز غطاء الرأس في هذه المدرسة بأنه يكون من قلنسوة مرتفعة ومضلعة ، وتحيط العمامة بجزئها الأسفل . ومن الصور الشهيرة لهذه المدرسة منظر سلطان سوري يناقش درويشاً في حديقته ، استخدمت فيها ألوان زاهية تشبه ألوان المينا ، وفيها لون أحمر قرمزي ساطع يعد من مميزات مدرسة بخارى .

و — المدرسة الصفوية : رعت الدولة الصفوية الفنون ، كما رعت العلوم والآداب ، وتبارى الرسامون في تصوير نسخ شاهنامة الفردوسي التي عني بها جميع فناني المدارس التي ذكرناها ، ولكن ظهر الميل في هذه الفترة إلى تصوير الدراويش والأمراء في ثيابهم الأنيقة واصبح ذلك من الموضوعات المفضلة ، وظهر نوع جديد من العمائم الكبيرة ذات الريش والأزهار .

ز — المدرسة التركية : أكثر رسامي هذا العهد ، غير أتراك ، فكانوا أخلاطاً من أمم شتى ، فصورة السلطان محمد الفاتح المعروضة في المتحف الوطني بلندن ، من رسم المصور الايطالي جنتلي بلليني عام ١٤٨٠ م ورسامو مخطوطة تاريخ سلاطين آل عثمان ومخطوطة سليمان نامة إيرانيون ، وأن ظهر التأثير التركي بشكل الملابس التركية المختلفة في العصور الأولى ،وامتازت رسوم هذه المدرسة باللون الأخضر الزاهي المائل إلى الاصفرار .

ح — المدرسة المغولية الهندية : يعد تصوير المتصوفين والنساك والهنود وهم يحادثون الأمراء والأشراف من أكثر الموضوعات التي طرقها رجال الفن في الهند في العصر المغولي ، كما بلغ تصوير الأشخاص القمة في هذه المنطقة .

الكتابة والخط

يجمع الباحثون أن الكتابة نشأت وتطورت في أرض الوطن العربي القديم ، وأن مراحل إيجاد الأبجدية تم على الأرض العربية القديمة ، سواء ابجدية سيناء ، او أبجدية جبيل أو أبجدية راس شمرا ، وهي أتمها وتعتبر ام الأبجديات العالمية . وإذا ما تجاوزنا الكتابات القديمة كالهيروغليفية وتطورها والمسمارية ، فاننا عثرنا على عدد من الكتابات العربية القديمة ، وإذا كان الخط الآرامي يعد جدّ الخطوط العربية ، إذ تفرع عنه الخط النبطي الذي يعد أقرب ما يكون للخط العربي عند أول عهد اتصال حروفه العربية بعضها ببعض ، فان عدداً من الخطوط الأخرى استعملت في جزيرة العرب مثله وهي :

الخط المسند الصفوي نسبة إلى جبل الصفا(في جبل الدروز السوري حالياً) .

الخط الثمودي نسبة إلى ثمود (مدائن صالح) .

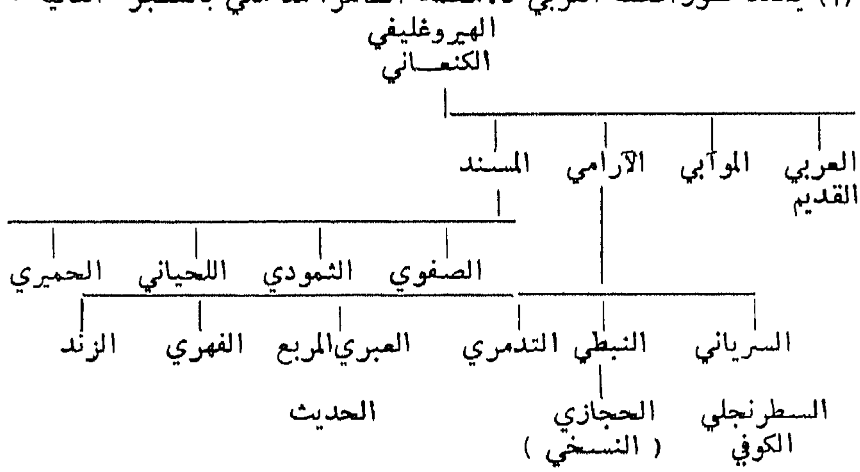
الخط اللحياني نسبة إلى بني لحيان .

الخط الحميري والخط السبئي نسبة إلى حمير وسبأ .

الخط الحيري نسبة إلى الحيرة والانبار ، وهو الخط الذي انتقل إلى عرب الحجاز في الجاهلية ، وكان بغير نقط(١) .

---

(١) يحدد تطور الخط العربي د.محمد الطاهر احمد مكي بالشجرة التالية :



يذكر القلقشندي « إن أول من وضع الخط والحروف الهجائية العربية ستة نفر من طسم من العرب البائدة كانوا نزولاً عند عدنان بن أدد فكانت أسماؤهم : أبجد ، هوز ، حطي ، كلمن ، سعفص ، قرشت ، فوضعوا الخط على أسمائهم ، فلما وجدوا في الالفاظ حروفاً ليست في أسمائهم الحقوها بها وسموهـــا الروادف وهي ثخذ ، ضظغ . والواقع أن هذه الروادف ليس لها نظائر في أبجدية اللغات التي تطورت عنها الكتابة العربية وأخذت عنها

وتروي كتب الادب أن ترتيب الابجدية العربية الهجائي حدث في عهد عبد الملك بن مروان ، على يد نصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر ، وهو ترتيب مبني على تقارب أشكال الحروف ، بينما اعتمد مؤلفو المعاجم الأوائل على ترتيب بالنسبة لمخارج الحروف من الحلق أو الفم وكانت على هذا النحو : حروف المدّ (الألف والواو والياء) ثم الهمزة فالعين فالغين فالحاء ثم ت ، ك ، ج ، ش . ي ، ض ، ل ، ن ، ط د ت ، س ، ز ، ظ ، ذ ، ث ، ف ، ب ، م .

وقد تطور الخط العربي بعد الاسلام فصار إلى ما صار اليه من إتقان، وزخرفة فبعد أن كان الخط الحيري الانباري قسمين : الخط المقور ويسمى النسخي والخط المبسوط ويسمى باليابس وقد كتب كتاب الوحي للنبي عليه السلام بالخط المقور النسخي ، وبه كتب زيد بن ثابت صحف القرآن الكريم ، وكان تجويد هذا الخط يقسم إلى مكي ومدني ، ثم بدأ الخط في الكوفة فظهر الخط الكوفي ، وما زال المسلمون يجودون الخط ويعنون به ، ويرقون به حتى أصبح له سبعة أنواع رئيسية هي : الثلث ، النسخ ،

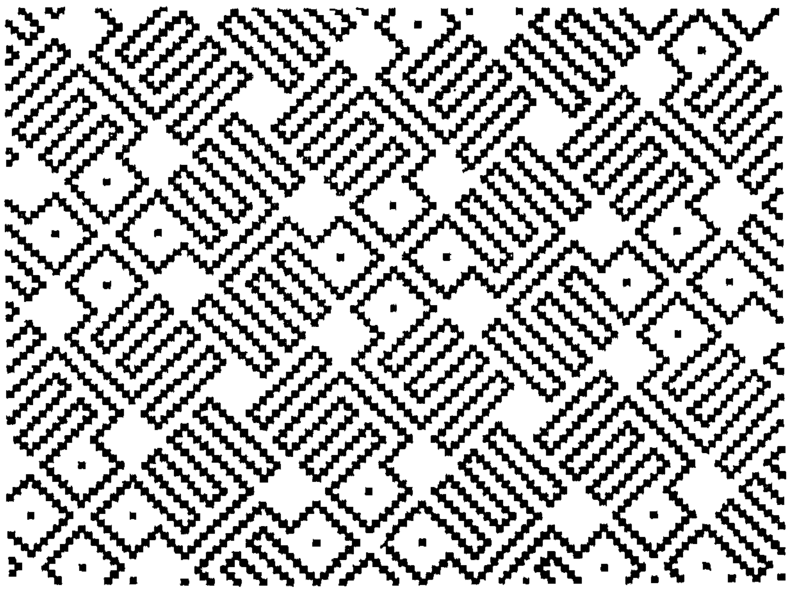
الرقعة ، الديواني أو الهمايوني ، الفارسي ، الأجازة او التوقيع ، والكوفي ، ويتفرع كل خط منها إلى فروع متعددة ونحن لا يعنينا هنا الخط ككتابة لها معاني بقدر ما يعنينا تجويد رسم الحروف بأشكالها المختلفة .

ونحن لا نقصد بالخط الكتابة بقدرمانقصد تجويد رسم الحروف بأشكال مختلفة وهو فن إسلامي خالص ، وجد به المسلمون منفذاً للتعبير عن رغبتهم في إبداع الجمال وتذوقه حين كان التعبير عن ذلك بالتصوير وتمثيل الكائنات الحية أمراً مكروهاً من المتدينين .

وبدأ تجويد الخط في الكوفة ثم في الشام ولكن فن الخط إنما ازدهر في القرن الثاني الهجري فلم يأت القرن الثالث حتى أصبح أشرف فن يرغب فيه ، إذ كان من أغراضه أن يخلد كلام الله في الصحف . وقد جاء في القرآن الكريم تأييد لتلك المكانة قوله تعالى : « ن . والقلم وما يسطرون » وفي أول آية أنزلت « إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » . ولهذا السبب احتل الخطاطون مكانة أعلى بكثير مما كان للمصورين ، حتى كان الأمراء والكبار في الدولة يسعون لنيل الحظوة الدينية بكتابة القرآن .

وقد ظهرت مع تفنن الكتاب ، وضرورات الحاجة وتغير الزمن أنواع مختلفة من الخط بقي لنا منها : الثلث والكوفي بأنواعه والنسخي (كأحرف الطباعة) والرقعي (كخط الكتابة) والديواني بأنواعه (وقد كانت تكتب به المراسيم السلطانية) والفارسي أو التعليق . ولكل نوع من هذه الأنواع قواعده واسلوبه ونسبه وآدابه وقد بلغت الغاية في الدقة والإحكام .

وتحفظ لنا كتب الأدب والتاريخ أسماء عدد من الخطاطين ممن أغدقت عليهم النعوت الطيبة بخلاف أصحاب هندسة البناء والمصورين وصناع الأواني المعدنية الذين أسدل التاريخ حجابه على ذكرهم .

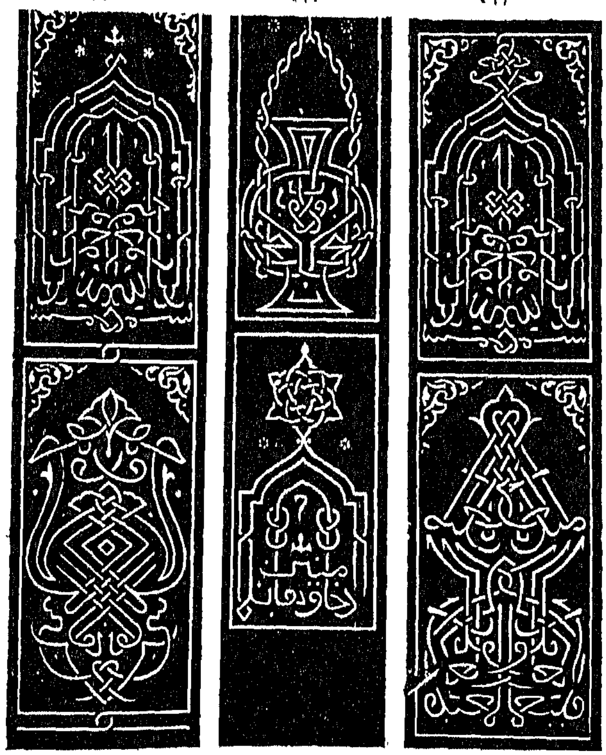


التوحيدة الرباعية الواردة على الاسطوانة العليا لجامع عادلة خاتون الكبير.

شكل — ٩٦ —

من دراسة زخارف المآذن (المنارات) في العراق وايران وتركستان المبنية من الآجر ، يتبين انها كانت تخضع لقواعد فنية ممتازة ، وكانت تعتمد الكتابات بشكل تجميع ثلاثي حيث تتكرر الكلمة ثلاثا ، أو تجميع رباعي وهو الاكثر شيوعا حيث تتكرر الكلمة أربع مرات بأربع اتجاهات ، ومنارة جامع عادلة خاتون الكبير في بغداد ، نموذج للتجمع الرباعي ، حيث يشاهد بالشكل لفظ الجلالة يتكرر بالآجر الملون البارز ويعطي شكل المنارة الزخرفة الخاصة بها

(١) (٢) (٣)



(٤) (٥) (٦)

شكل — ٩٧ —

كتابات مزدوجة متعاكسة على هيئة زخارف عربية اسلامية من القرن العاشر الهجري. نصوصها هي : ١ـ بسملة ، ٢ـ يا مفتح الابواب ، ٣ـ بسملة ، ٤ـ لمثل هذا فليعمل العاملون ، ٥ـ ادخلوها بسلام آمنين ، ٦ـ كل شيء هالك الا وجهه

ومن الخطاطين القدامى قطبة المحرر ، من أواخر العهد الأموي وتلاه رجلان من أهل الشام تنسب إليهما هندسة الحروف العربية : أحدهما الضحاك الذي عاش حتى عهد السفاح ، والثاني إسحق بن حماد وقد أدرك خلافة المهدي . وتفنن الاثنان فيما ابتكر قطبة من أقلام . ويقال إن جهدهما قد انتهى بالأقلام العربية إلى أن صارت اثني عشر قلماً منوعاً .

ومن واضعي أسس فن الخط : « الأحول المحرر » من صنائع البرامكة الذي ابتكر عدداً من الخطوط ؛ و « الريحاني » الذي زها في عصر المأمون وتوفي سنة ٨٣٤م بعد أن ابتكر اسلوب الخط المعروف باسمه . والشائع أن جودة الخط قد انتهت على رأس المائة الثالثة إلى الوزير أبي علي محمد بن مقلة ، الوزير العباسي المشهور الذي ضبط هندسة الخطوط ونسبها ، وابتكر أخوه عبد الله « الخط النسخي » . وقد أمر الخليفة بقطع يد ابن مقلة عقاباً له ذات يوم فلم يمنعه عن تجويد الخط بيسراه بل كان يشد القلم على ساعده الأيمن ويكتب به أيضاً .

ومن الخطاطين في العراق أبو الحسن علي بن البواب (المتوفى سنة ١٠٢٢ أو سنة ١٠٣٢ م) نسبة لأبيه الذي كان يلازم باب الخليفة في بغداد وهو واضع أسلوب الخط المعروف بالمحقق . وآخر برع من أصحاب القلم لدى العباسيين ياقوت المستعصمي خطاط آخر خلفاء بني العباس واليه ينسب الخط الياقوتي . وقد وصلنا عدة آثار منه .

وقد ظهرت عناية الشام بالخط منذ أواخر القرن الخامس الهجري فظهرت فيها أشكال جديدة من الخطوط أهمها خط النسخ ، وهو ابتكار سوري ، وخط (الطومار) ومشتقاته . وهجرت خطوط الكوفة في كتابة المصاحف وحلت محلها الخطوط اللينة كالخط النسخي الأتابكي الذي ساد في العصر الأيوبي والمملوكي .



شكل – ٩٨ –

نموذج من الخط الكوفي النيسابوري ، وهو من الخطوط النادرة . وتنص هذه الصفحة قوله تعالى : « والله يعلم ماتسرون وماتعلنون ، والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون » .

أما في مصر ، فقد برز منذ العصر الطولوني الخطاط (طبطب) الذي جاء على رأس المدرسة المجودة للخط حتى نافست مصر دولة العباسيين في ذلك ، وفتحت مدارس لتعليم الخط ظلت عامرة حتى العهد المملوكي ، ومن أشهر رجالها ابن أبي رقيبة وشمس الدين الزفتاوي .

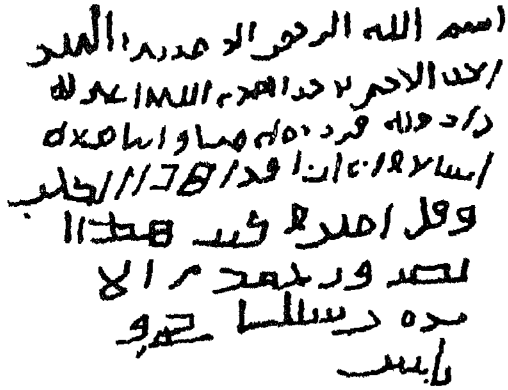
وأما تطور الخط في المغرب والأندلس فقد اتبع طريقاً خاصاً يظهر في الكتابات الأثرية وفي أسلوب الخط الباقي هناك كما تطور هذا الفن في إيران إلى أن وصل إلى خط (التعليق) الفارسي المعروف بأنواعه .

الزخرفة والنقش التزييني

لا يكاد يخلو أثر من الآثار الاسلامية من زخرفة أو نقش تزييني . فقد كانت من لوازم العمل الفني الاسلامي . لأن الفنانين المسلمين كانوا يكرهون الفراغ ويرغبون في تغطية السطوح والمساحات بالزخارف .

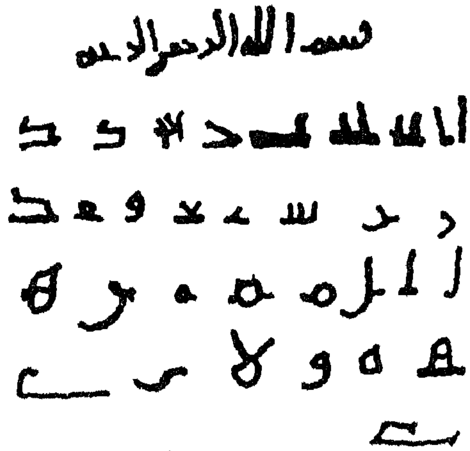
وقد اقتبس المسلمون عناصر زخرفتهم من الكتابة العربية أو من الخطوط الهندسية أو من عناصر نباتية وحيوانية .

فأما الكتابة فلم يكن المسلمون أول من زخرف بها على المباني والتحف الفنية ، ولكن ليس ثمة من فن استخدم الخط في الزخرفة بقدر ما استخدمه الفن الاسلامي بسبب اهتمام الناس به من جهة وقابليته للتطور الزخرفي من جهة أخرى . ولعل البدء في زخرفة الخط بدأت في مصر في نهاية القرن الثاني الهجري ولكنها ازدادت شيوعاً منذ القرن الرابع وبلغت ذروة الروعة في القرنين الخامس والسادس . واعتمدت الزخرفة خاصة على الخط الكوفي بسبب خطوطه المستقيمة ؛ فكان لزخرفته أشكال منها : « المورق » و « المشجر » وهناك « المضفور » الذي يربط الفنان ما بين كلماته لتأليف إطار أو شكل هندسي معقد . « والكوفي المربع » وهو هندسي الشكل قائم الزوايا .



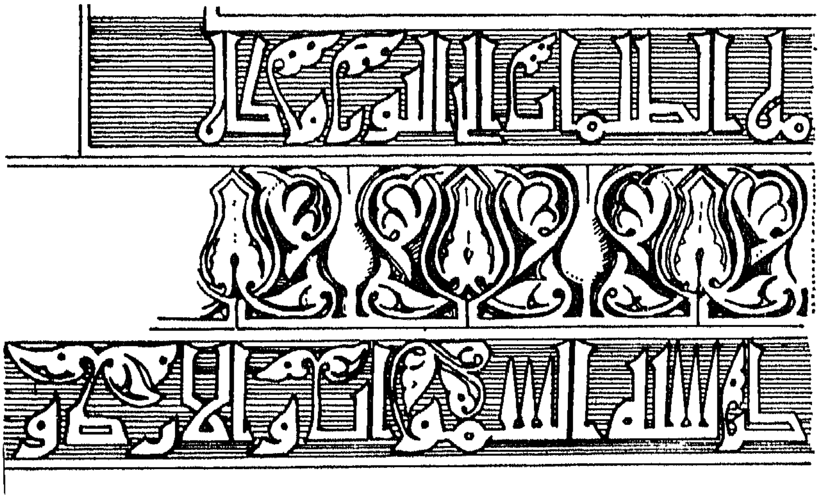
شكل — ٩٩ —

اقدم اثر اسلامي يمثل نقشاً على قبر عبد الرحمن ابن خير الهجري (٦٥٢ م) موجود في متحف الفن العربي في القــاهرة



شكل — ١٠٠ —

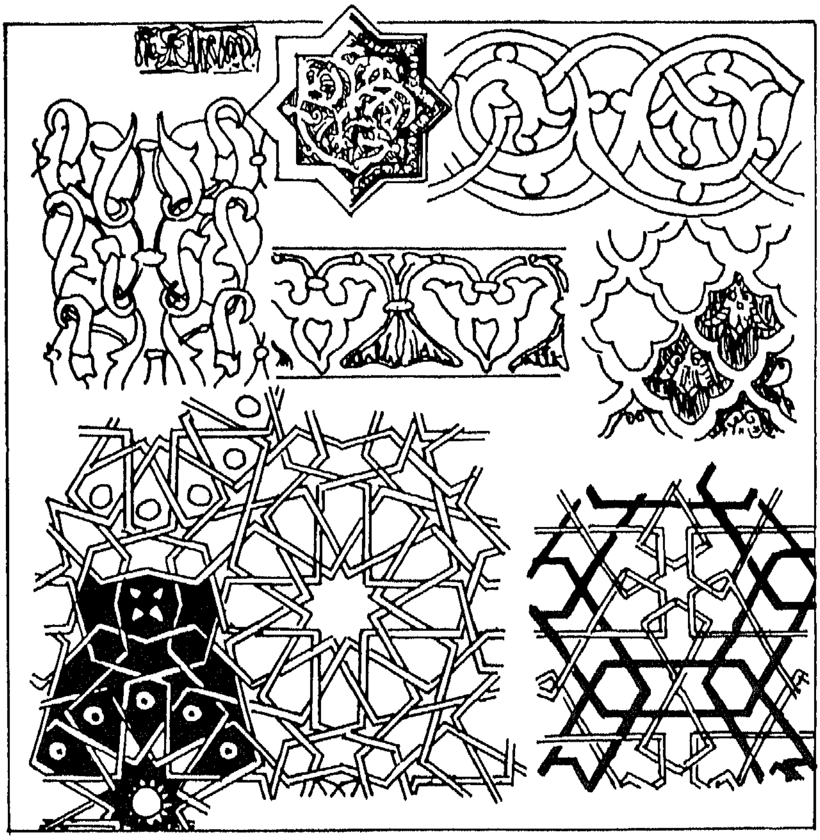
اقدم ابجدية عربية مقتبســة من نقش قبر عبد الرحمن المرسوم أعلاه



شكل — ١٠١ —
زخارف عربية وكتابة دينية على جدران الازهر

وأما الزخارف الهندسية : فقد أضحت في الفن الاسلامي ، دون باقي الفنون العالمية ، عنصراً رئيسياً فيه . ويهمنا منها بصورة خاصة تلك التراكيب الهندسية ذات الاشكال النجمية المتعددة الأضلاع التي ذاعت في المباني وفي التحف الخشبية والنحاسية وزخارف السقوف . وقد دلت الدراسات المختلفة لهذه الزخارف الهندسية المعقدة التي خلفتها العصور الاسلامية أن براعة المسلمين فيها لم يكن أساسها الشعور الفني والموهبة الطبيعية فحسب ولكنها تدل على علم وافر بالهندسة العملية . وقد ظهر الاهتمام بالزخرفة الهندسية في فنون الشام ومصر خاصة ولا تزال لها سيطرتها في المباني الحديثة التي تبنى في الشام .

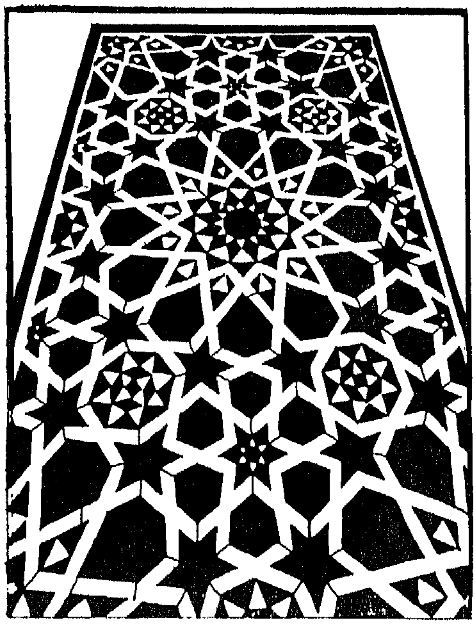
أما العنصر النباتي في الزخرفة الاسلامية فقد تأثر كثيراً بانصراف المسلمين عن استيحاء الطبيعة وتقلدها فاستخدم الجذع والورقة لصنع زخارف



شكل — ١٠٢ —

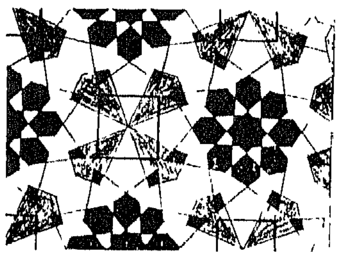
نماذج من الزخارف العربية التي تعرف بالأرابسك او الأرقشة

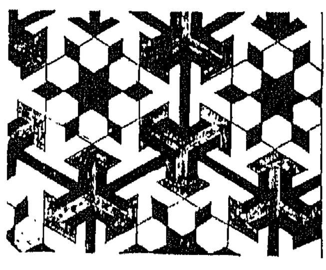
تمتاز بما فيها من تكرار وتقابل وتناظر . وتبدو عليها مسحة هندسية تميت العنصر الحي فيها . وتدل على سيادة مبدأ التجريد والرمز في الفنون الاسلامية وأكثر الزخارف النباتية الشائعة هي المعروفة باسم : الرقش العربي «الآرابسك» وهي تتكون من فروع نباتية وجذوع منحنية ومتشابكة ومتتابعة وفيها رسوم محورة عن الطبيعة ترمز إلى الوريقات والزهور . وقد بدأ ظهورها في القرن الثالث الهجري ونراها في الزخارف الجصية التي كانت تغطي الجدران في سامراء وفي آثار العهد الطولوني بمصر . وقد تطورت هذه



شكل — ١٠٣ —

نقش وتزيينات من الرخام الملون . هذه القطعة في المهدية — تونس — .

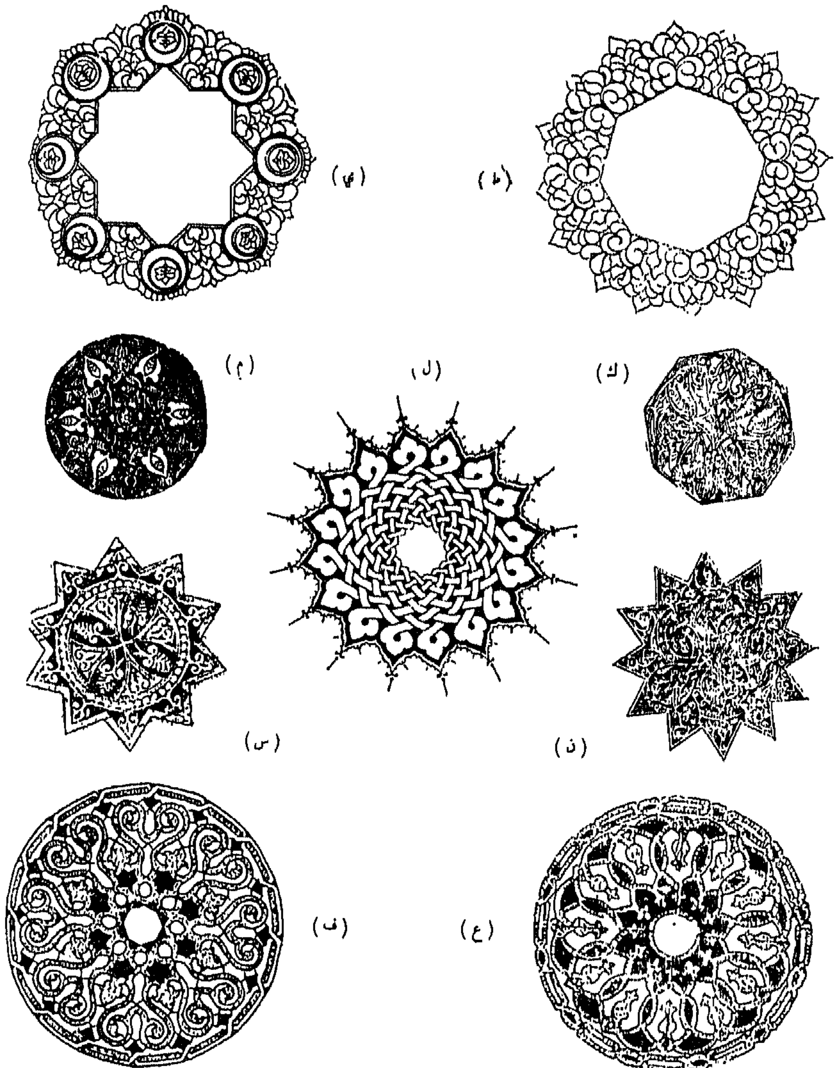




شكل — ١٠٤ —

هذه التزيينات الرخامية موجودة في قصر الحمراء بغرناطة من صنع عرب الاندلس ، وهي نموذج من فن الارقشة العربية الذي كثر انتشاره في العالم الاسلامي في المساجد والقصور والاضرحة والحمامات .

لكن هاتين القطعتين استرعتا نظر احد العلماء الفنانين الالمان في الوقت الحاضر ، اذ قارنهما بما حصل عليه من مراقبة ودراسة «بلورات» الزجاج الصخري (الكريستال) وبلورات الالماس ، فوجد تشابها كبيرا بينهما . فتساءل : هل كانت بلورات الالماس هي التي أوحت للفنان العربي بهذه الاشكال الجميلة المتناسقة ؟



شكل ــ ١٠٥ ــ

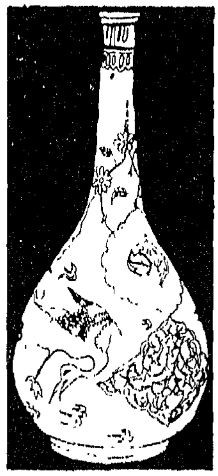
مجموعة زخارف عربية ــ اسلامية ، على هيئة أوسمة ونجوم ودوائـر ذات مراكز متعددة ، ومتناظرات ، ومتماثلات من أشكال مختلفة تمـلأ مساحاتها توريقات نباتية واشكال هندسية ، كثيرة الانتشار من مخلفات المسلمين الفنية في الابنية والمخطوطات والمصاحف

الزخارف في العصر الفاطمي حتى نسبت اليه وبلغت بعد ذلك غاية تقدمها منذ القرن السابع الهجري « ١٣ » م

على أن الزخرفة النباتية اتجهت في إيران بالعكس إلى صدق تقليد الطبيعة منذ القرن السابع وذلك بتأثير الفن الصيني كما يظهر على القاشاني خاصة . .

وانتقلت صنعة الارقشة الى المغرب والاندلس ، وكانت في النقش والتخريم في الجص المبسوط الطري ، تصنع منه اشكال هندسية ، ونباتية وحيوانية بارزة وغائرة ، ملونة وغير ملونة ، وادخل عليه في هذه المنطقة من العالم الاسلامي صور عش نحل او صور قلبين متآلفين ويسمى قلوب العشاق ، وزخرف خطي كوفي او نسخي يكون في الغالب بردة المديح للبوصيري او لفظة « العافية » في شمال افريقيا بمعنى السلامة والهناء والأمن او «ولا غالب الا الله » في الاندلس . وآثار الاندلس الباقية وخاصة في قصر الحمراء بغرناطة وقصر بني عباد باشبيلية ، هي اروع أمثلة لجمال ورقي هذا الفن العربي الاصيل .

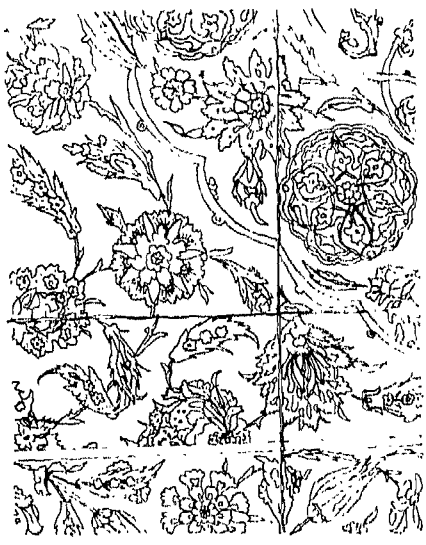
وأما الرسم الحيواني أخيراً فالشرق الأدنى يعرف الزخرفة به منذ العصور القديمة . ولم يشذ المسلمون عن ذلك فاستخدموا رسوم الأسد والفهد والفيل والغزال والأرنب والطيور الصغيرة وغير ذلك من حيوانات الصيد خاصة . وقد اقتبسوا بعضها عن الصين . لكننا يمكن ان نرجع معظم رسوم الحيوان في الزخارف الاسلامية إلى الفن الساساني بما كان فيه من اتباع التماثيل والتوازن والتقابل وفي رسم الحيوانات متقابلة أو متدابرة او بينها شجرة الحياة، وفي رسمها متتابعة على شكل شريط زخرفي



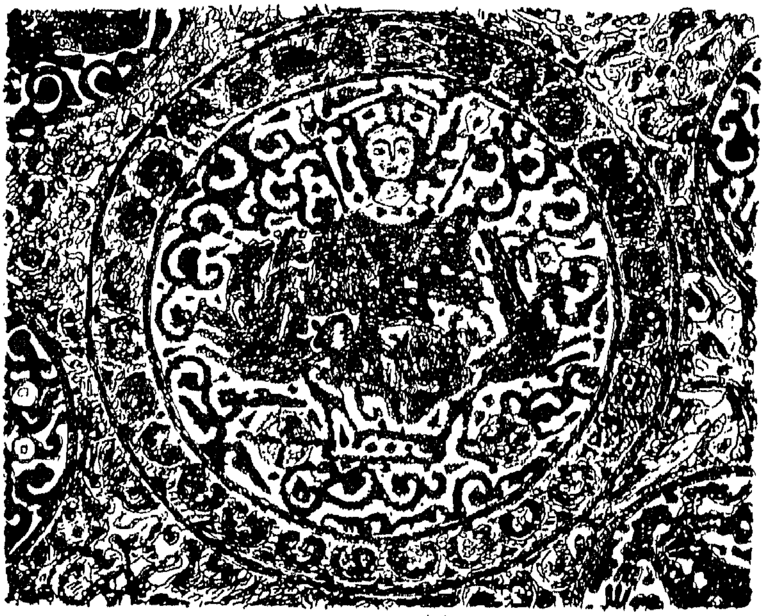
شكل ــ ١٠٦ ــ
اناء من العصر الصفوي
(القرن ١٦ ــ ١٧)



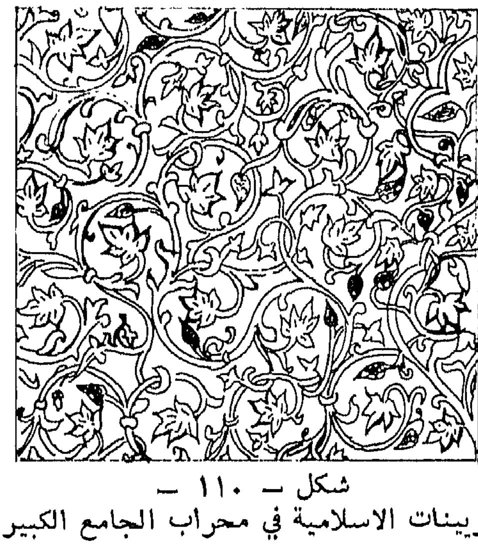
شكل ــ ١٠٧ ــ
قدر من صنع مدينة الرصافة
في سورية من القرن الثالث عشر الميلاد



شكل ــ ١٠٨ ــ
قطعة من قاشاني في مسجد رستم باشا في استانبول ١٥٥٠ م
من هندسة سنان باشا

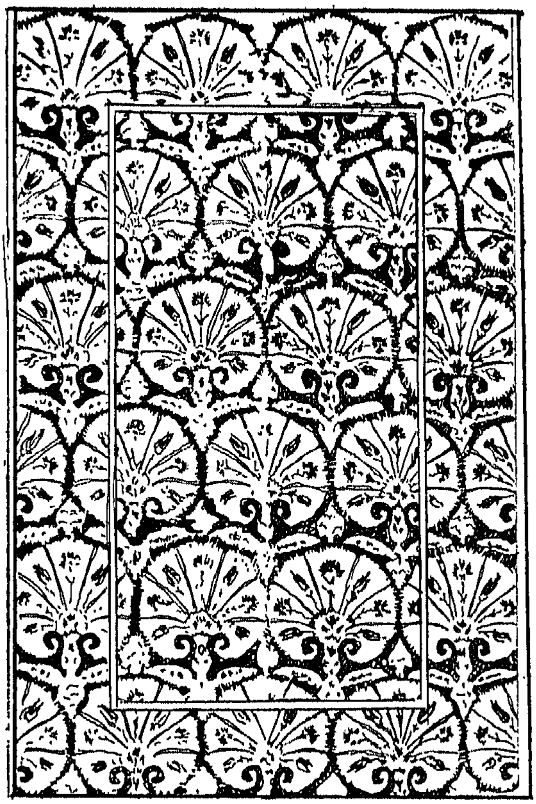


شكل — ١٠٩ —
نقوش بارزة وغائرة في طبق برونزي عليه ميناء وعليه اسم أمير الموصل سليمان بن داود ١١١٤ — ١١٤٤ م ، والطبق من صناعة الموصل ويلاحظ عليه أثر الفن البيزنطي



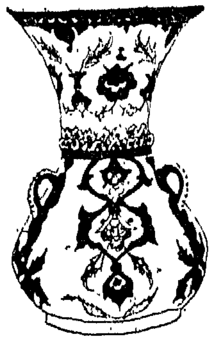
شكل — ١١٠ —
نموذج من التزيينات الاسلامية في محراب الجامع الكبير في القيروان

ولم تكن رسوم الحيوانات بالطبع مقصودة لذاتها ولهذا لم يهتم الفنانون المسلمون لمطابقتها للواقع . وقد صنعوا على مثال الطير أواني متعددة حوروا فيها . كما حوروا في النبات ، الشكل الطبيعي إلى شكل زخرفي رمزي .



شكل — ١١١ —

قطعة من قماش حريري « البروكار » المصنوعة في مدينة بورصة في آسيا الصغرى في القرن السادس عشر الميلادي يلاحظ بها نعومة الحياكة وطابعها المميز . وكان اكثر انتاج هذه الصناعة ، والرفيع منها خاصة ، يستعمل في ملابس سلاطين آل عثمان وكبار الامراء والحاشية



شكل – ١١٢ –
مشكاة تركية من صنع آسيا الصغرى في النصف الثاني من القرن السادس عشر



شكل – ١١٣ –
مجموعة من رسوم الحيوانات التي كثر استعمالها كزخارف على الخزف الاسلامي ، وهي مقتبسة مما في ايدينا من خزف اسلامي

الفنون الصناعية :

الخزف : مجموعة الخزف هي أكبر ما وصلنا من تحف الفن الاسلامي فهي كثيرة العدد جداً ، متنوعة المواضيع . نجدها في كل بلد إسلامي . كما تتشابه أساليبها الفنية بكل مكان . ويبدو من تطور الفنون الخزفية أن منبع الابتكار فيها كان في فارس والعراق وهي استمرار وتطوير لصناعة الآجر المزجج الذي استخدمه بكثرة العرب القدماء في بلاد ما بين النهرين ومنها كانت تنتقل الأساليب بسرعة غريبة إلى غرب « مملكة الاسلام » .

وقد استعمل المسلمون الخزف في صناعـــة البلاطات الزخرفية الجميلة



شكل — ١١٤ —

يقول الخبراء ان في خزف شمالي افريقيا المسلمة ، البهجة والتلوين الجميل ، ويختلف طراز الخزف المغربي عن الطراز الفني الذي كان سائدا في مصر وسورية والعراق وفارس . ويتجه في اكثريته لابراز الفولكلور المحلي اكثر من العناية بالفن الجمالي .. وهذا الطبق المصنوع في مدينة الرباط ، أحد الامثلة الواقعية عن هذا الراي من صناعة الخزف المغربي وتزيينه .



شكل – ١١٥ –

رسوم اسلامية على طبق من الفخار من صنع مدينة نيسابور من القرن العاشر الميلادي ، والطبق محفوظ في متحف المتروبوليتان في نيويورك ، ويمثل الرسم فارسا خارجا الى الصيد ومعه البازي ، وكلب الصيد وبعض الحيوانات التي قد يصطادها ، وقد اشهر سيفه علامة على الفروسية والاستعداد للنزال اذا داهمه خطب ما .

لكسوة الجدران في البيوت والمساجد والمدارس وغيرها من المباني . كما استعملوه في عمل الأواني من أكواب وصحون وسلطانيات وأباريق ودوارق وقدور وأزيار وشماعد ومسارج ومباخر وزهريات وتماثيل صغيرة ولعب ، وأنواع اخرى من التحف الفنية .

وقد بدأ صنع الخزف الاسلامي أول الأمر كتتمة لصناعة الخزف الساساني والبيزنطي ، ثم استقل باسلوب اسلامي خالص وتنوعت أساليب الزخرفة بالرسم تحت الطلاء الزجاجي الشفاف بالألوان ، أو بالبريق المعدني ، أو بالتذهيب فوق طلاء زجاجي شفاف أو غير شفاف ،

وبالنحت والحز والتخريم ، وبالصب فوق القالب ، والمينا ، كما تعددت أنواع العناصر الزخرفية ، من زخارف عربية ، وهندسية ونباتية ، سواء الطبيعي منها كالأشجار والثمار والزهور أو المقتبس والمعدل بشكل فني زخرفي تزييني ، ورسوم مبان ومراكب تمخر مياه البحر ، وصور حيوانات وطيور وأسماك ، وأشخاص في مناظر الحياة اليومية من رقص وموسيقى ومجالس شراب ، أو مناظر صيد ، أو مبارزة ، أو حفلات سمر .. وكان رسم المخلوقات ذات الروح من انسان وحيوان كثير الانتشار منذ بدء صناعة الخزف الاسلامي ، لأنه للمتعة والزينة والاستعمال وليس للعبادة ...

واختص الفن الاسلامي ، سواء في الخزف ، أو في غيره ، دون سائر الفنون العالمية بالكتابة العربية الزخرفية ، وهنا في الخزف استخدم الخزافون المسلمون الكتابة بالخط الكوفي بمختلف أشكاله أو النسخي كوسيلة للربط بين العناصر الزخرفية الأخرى ، أو لملء شريط زخرفي بكلمات ذات صيغة دعائية لصاحب التحفة ، أو حكمة عربية ، أو آية من القرآن الكريم أو حديث من أحاديث الرسول عليه السلام .

وجميع مخلفات العصور الاسلامية من الخزف تدل على أنها تنتمي إلى وحدة فنية تجمع بينها ، رغم ما فيها من تنوع في الأساليب الزخرفية التي ازدهرت في شتى بلاد العالم الاسلامي ، فلكل بلد اسلوب زخرفي خاص به ، يميزه عن غيره ، ولكن ضمن وحدة الزخرفة الاسلامية كاطار عام يختلف عن الاساليب الاخرى الصينية أو الهندية أو الاوروبية مثلاً .

ومما يثير اعجاب ودهشة الناقدين الفنيين لصناعة الخزف الاسلامي ، الاتقان الزائد في استغلال تأثير النور والظل ، ونجاح الخزافين المسلمين

في ذلك نجاحاً بزّ جميع زملائهم من خارج العالم الاسلامي .

— وكما يقول د . محمد مصطفى مدير متحف الفن الاسلامي بالقاهرة — نجد في الخزف الاسلامي الألوان دافئة ، مريحة للنظر ، ونجد الزخارف البارزة المنحوتة أو المصبوبة في القالب ، يختلف عليها النور والظل ، ويكسبانها رونقاً ، ويعطيانها نوعاً من الحياة . ويتخلل النور الزخارف المخرمة في جدران الأواني ، والمكسوة بطلاء زجاجي شفاف ، يبعث الحياة فيما يوجد داخل الاناء ، كما تلمع الزخارف المدهونة بالبريق المعدني وتبهر الأبصار ، بينما تظهر الصور المرسومة باللون الأسود تحت طلاء زجاجي شفاف فيروزي اللون وكأنها أشباح في ليلة مقمرة ..

وكان الخزافون المسلمون هم أول من اخترع البريق المعدني في زخرفة الخزف . ويعتقد أن ابتكاره تم في العراق ، ولكنه نضج واصبح لونه ذهبياً منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وانتشر استعماله في مصر والعراق وايران ثم في الشام والأندلس . وكانت الزخارف ترسم فوق الطلاء الزجاجي بأكاسيد بعض المعادن ، أو تحجز على أرضية مدهونة بهذه الاكاسيد ، تثبت في أفران خاصة ، فيظهر لها لمعان معدني واضح ، يختلف بين اللون الذهبي والأحمر النحاسي والبني والزيتوني .

وكان الفنانون من الخزافين ينتقلون في البلدان الاسلامية ويصنعون بنفس أساليبهم ، عدداً من التحف ، في البلدان التي يحلوا فيها ، لذلك نجد اوان خزفية متشابهة في أشكالها وفي أساليبها الزخرفية ، مصنوعة في مصر او العراق أو ايران في نفس العصر ، مع اختلاف متقارب بتاريخ الصناعة .

ومن المراكز التي اشتهرت بصنع الخزف « قاشان » واليها تنسب صناعة تربيعات (بلاط) القاشاني ذي البريق الملون ويسمى بالمغرب الزليج

ومنه اقتبس نموذج اسمه AZULEJOS واشتهرت في سوريا (الرقة) في العهد السلجوقي كما عرفت مصر بالصناعة الخزفية الراقية زمن الفاطميين والايوبيين والمماليك . وأما في المغرب والاندلس فـــذاعت شهرة مالقة



شكل — ١١٦ —
اناء زجاجي مموّه بالميناء من صناعة سورية في عصر المماليك
(النصف الاول من القرن ١٤ م)

وغرناطة ومنطقة بلنسية[1] . وأما في العهد العثماني فاشتهرت (بروسة) في آسيا الصغرى ودمشق بالبلاط القاشاني .

وفي كتاب الفه عام ١٣٠١ م أبو القاسم القاشاني أحد افراد اسرة عريقة في صناعة الخزف ، وصف لصناعة الخزف الاسلامي ، فيقول :

يتكون الخزف الابيض الرقيق الصلب ، من عجينة من الطفل الأبيض ، يضاف إليها مسحوق حبيبات الكوارتز والبوتاس ثم تحرق الآنيـــة بعد تغطيتها بطلاء قلوي مصنوع بحبيبات الكوارتز والبوتاس أيضاً . ويكون الرسم تحت الطلاء القلوي . وهذا يدل على أن صناعة الخزف الاسلامي تأثر بصناعة « الصيني » ولكن ادخل عليها الذوق العربي والتأثيرات الاسلامية فغدت زخارفها كتابات كوفية أو تفريعات نباتية أو رسوم حيوانات وطيور تمرح بين أوراق النبات وفروعها . فكان اللون الغالب في الخزف الاسلامي ، والمصنوع في فارس خاصة ، الأزرق الزهري أو الأزرق الفيروزي أو البني أو الأخضر أو الأصفر أو الارجواني .

وهناك نوع من الخزف ظهر منذ القرن الثاني عشر الميلادي سمي بخزف « لقبي » عبارة عن أواني حددت رسومها بالحزوز حتى لا يسيح طلاؤها . .

---

(١) ويروى أن صناعة الزليج قـــد انتقلت الى شـــمالي افريقيـا والمغرب على يد اسماعيل الطلاء من القيروان الذي ذهب الى بغداد في أوائل القرن الثالث الهجري ليتعلم النحو ، ولكنه عمل في دكـان غضـار (صانع الغضار والخزف المطلي) وتعلم صناعة القاشاني واشترى ١٢٠ بلاطة نموذجية الزخرف ورجع الى القيروان فكسا حلق المحراب الجامع الكبير بها عام ٢٥٠ هـ ، وصنع بنفسه الكمية اللازمة لاتمام واجهة المحراب فكان ذلك نقطة الانطلاق لصناعة الزليج في مغرب العالم الاسلامي وجنوبي أوربا .

الزجاجيات : يعرف الشرق العربي صناعة الزجاج منذ أيام العرب القدماء وقد استمرت أساليب هذه الصناعة سائدة ، كما كانت في القرن الأول للهجرة ، واشتهرت دمشق وحلب وانطاكية وصور وعكا والخليل بانواع الزجاج الشامي الذي كان يضرب المثل برقته ونقائه وزخارفه . وارتقت المصنوعات الزجاجيـــة في العصر الفاطمي رقياً كبيراً ترك بين أيدينا تحفاً فنية لا تعد ، منهـا كؤوس وقماقم وصحون وأباريق ، ولعل أشهر المنتجات الفاطمية وأعظمها قيمة من الناحيـة الفنية الزجاج المذهب والمزين بزخارف تبدو كالبريق المعدني . هذا عدا البلور الذي أقبل عليه كبار القوم لصلابته بالنسبة للزجاج العـادي ولطف منظره ، ومعظم الآثار البلورية الاسلامية موجود الآن في الكنائس الغربية .

وبلغت صناعة التحف الزجاجية أوج عزها أخيراً في الشام ومصر فيما بين القرنين السادس والتاسع الهجريين (١٢ — ١٥ م) برعاية سلاطين العهد



شكل — ١١٧ —
نماذج من القاشاني الملونة بالابيض والازرق من صناعة دمشق
(أوائل القرن ١٥ م)

الأيوبي والمملوكي . وكان فخر هذه الصناعة تزيين التحف بالزخارف الذهبية المموهة بالمينا . وبرزت في هذا مدينة (الرقة) . وأبدع ما وصلت اليه صنع المشكايات ومنها أمثلة كثيرة موزعة بين المتاحف والمساجد الكبرى .

أما إيران فقد سايرت صناعة الزجاج فيه التطور الذي جرى في الشام ومصر حتى كان عهد تيمورلنك الذي جمع في سمرقند نخبـــة من أمهر رجال هذه الصناعة السوريين برز بهم اسم المدينة ثم تلتها شيراز في القرن (١٧ – ١٨ م) .

ومن المؤسف أن التحف الزجاجية الاندلسية نادرة جـداً رغم ازدهار صناعتها في المرية وغرناطة بسبب ما أصابهـا من الاتلاف في عصور محاكم التفتيش .

المنسوجات : كان انتـاج الأقمشـة الجميلة من أهم ميزات الفنون الاسلامية . اشتهرت بذلك الشام ومصر وإيران . وبالرغم من أن بعض المنسوجات ما يزال يحتفظ باسم (دمشق) (كالدامسكو) والموصـــل (الموصلين) فان دور الطراز الهامة والمنسوجات الأثرية الباقية تنسب خاصة لمصر ولايران :

فالنسيج القديم في مصر تابع في القرون الاسلامية الأولى تطوره من أساليبه القبطية القديمة في الزخرفة بالرسوم الآدمية والحيوانيـة والطيور . وقد عظم اهتمام الخلفاء الفاطميين بصناعة النسيج ، وكانت وظيفة صاحب الطراز لا يتولاها إلا أحد كبار المقربين . واشتهرت مدينة تنيس بأنواع من النسيج المقصب الملون وبنوع من القماش يعرف (بالبوقلمون) . وقد عرف الصنـاع طبـع الرسوم على القماش بالقوالب الخشبيـة ، وقد اضمحل نسيج الكتان بمصر في عهد الأيوبيين والماليك وزادت العناية بنسيج الحرير وتطويره وزخرفته



شكل — ١١٨ —

جزء من لوحة فنية للرسام الايطالي اليفريتو نوتسي تصور تتويج مريم البتول (النصف الثاني من القرن الرابع عشر المبلادي) ويظهر فيها اثر فن الارقشة العربية (الآرابيسكا)

أما إيران فشهرتها بالنسيج جعلتها تدفع بعض جزيتها من المنسوجات النفيسة ، وكان من أهم مراكز النسيج نيسابور وأصفهان والري ومرو حتى قاشان ، على أن زخارفها وأساليبها بقيت أول الأمر ساسانية حتى كان العهد السلجوقي الذي جاء إيران بنهضة عامة في النسيج تأثرت بالأساليب الصينية من جهة ، وبالتقدم الزخرفي الذي ظهر في الجزيرة إذ ذاك بشمال العراق (كالموصل) . واستمرت شهرة إيران بالنسيج الرائع قائمة في العصر المغولي والتيموري وأخيراً في العهد الصفوي الذي بلغ القمة .

السجاد : بالرغم مما ثبت في بعض الآثار والأخبار من وجود صناعة السجاد في الأقاليم الاسلامية كمصر وأرمينيا منذ القرن الثاني الهجري فإن إيران تذهب لوحدها بكل اهتمام الباحثين في هذه الصناعة الفنية الرائعة .

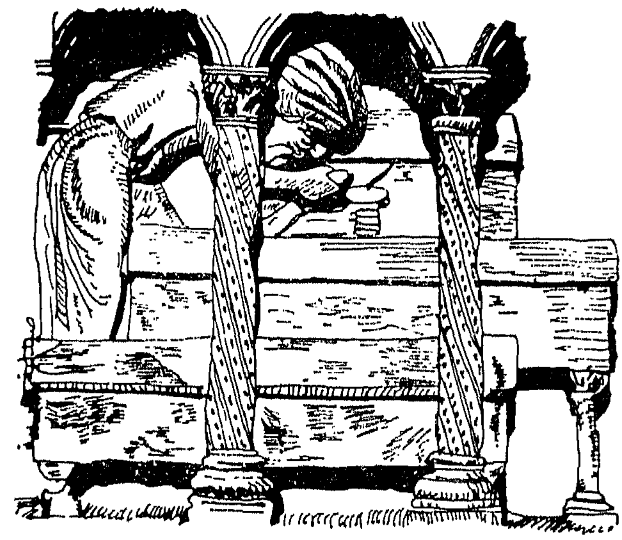
وترجع أقدم السجاجيد الايرانية المعروفة إلى العصر السلجوقي لكن صناعتها لم تبلغ الأوج إلا فيما بين القرنين (١٠ – ١٢) الهجريين (١٦ – ١٨ م) وكانت أهم مراكز السجاد ولا تزال أصفهان وقاشان وتبريز وشيراز وهمدان . وبالرغم من صعوبة دراسة كل مدينة منها على حدة ، فيمكن أن نلاحظ بشكل عام أن السجاجيد ذات الصرة الزخرفية في الوسط هي من صنع شمالي إيران (تبريز . قاشان) . أما ذات الرسوم الحيوانية والعناصر الآدمية فلم تشتهر هناك حتى القرن العاشر الهجري . أما الزهور والأشجار وأغصان النبات ، والزخارف من نوع الآرابسك فقد أصبحت تسيطر على جميع أنواع السجاد في بقية البلاد الفارسية . وكان يدخل في بعضها أحياناً كتابات مختلفة . وقد انحطت هذه الصناعة في إيران بعد القرن الثاني عشر .

وبقي السجاد في المغرب والأندلس محلياً حتى القرن الثاني الهجري حين وصلته جيوش خراسانية حاملة منها السجاد العجمي فانتشر استعماله فيها . والسجاد المغربي قبل ذلك كان صنعة البربر ، قصير الشعر ، ليس به إلا الزخرف الهندسي ذو الخط المستقيم . كما كان معروفاً السجاد البيزنطي عالي الوبر كثير الزخرف .. وتولد من السجاد المحلي لشمال أفريقيا والسجاد العجمي الجديد ، سجاد قيرواني نسبة إلى مدينة قيروان ، حيث دخله عنصر الحرير واسلاك الذهب والفضة (الزركشة) والتزيين بالجواهر ولا يزال بقايا هذه الصنعة في تونس . ومن أشهر السجاد القيرواني ،

سجادة حملها معه أحد أمراء الفاطميين حين انتقل من المهدية إلى القاهرة ، وعليها خريطة تونس مصورة .

الحفر : حفر المسلمون الأشكال الفنية في الخشب والعظم والعاج ، كما حفروها في المعدن والحجر والجص .

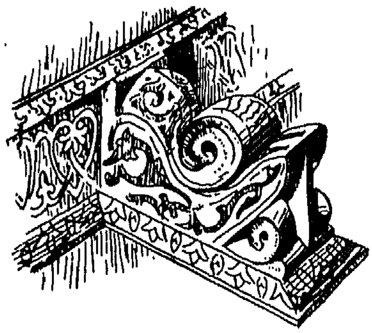
فأما في الخشب فقد وصلنا من العصرين الأموي والعباسي عدة أمثلة منها حشوات في المسجد الأقصى بالقدس . وباب أموي ، في الغالب ، مملوء بالزخارف الهندسية والنباتية ، ومنبر جامع عقبة في القيروان ، المتميز بالاتقان . ويبدو أن الحفر الخشبي تقدم في مصر في العهد الطولوني ولكنه بلغ أوجه في العصر الفاطمي إذ دقت الزخرفة وظهر التفريغ الدقيق .



شكل – ١١٩ –

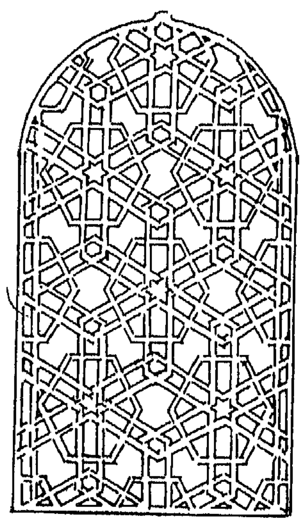
صورة عربية اندلسية تمثل نجارا عربيا يقوم بحفر ونقش الخشب

(القرن ١٢ م)



شكل — ١٢٠ —

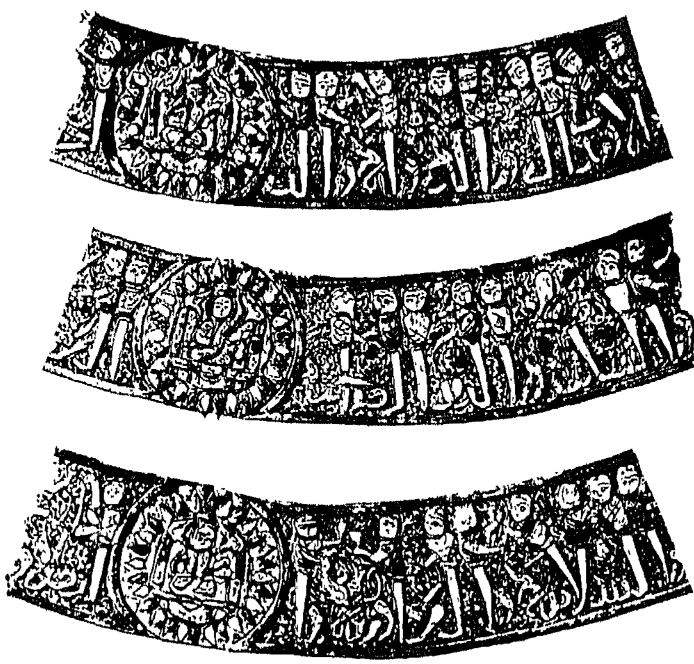
نموذج من الحفر على الخشب في الجامع الكبير في قرطبة



شكل — ١٢١ —

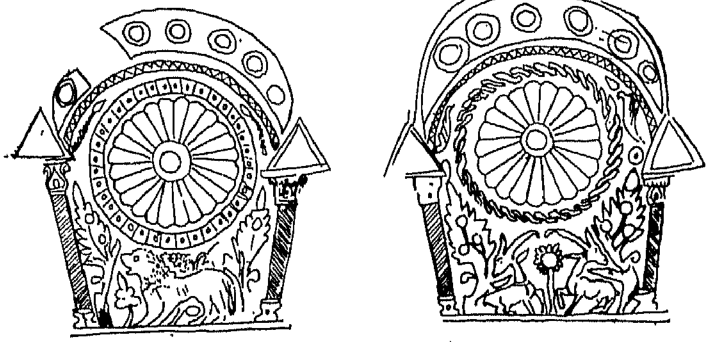
تزيينات هندسية لنافذة احد مساجد القاهرة — ١٣٤٠م — وهي مثال للزخرفة العربية الاسلامية الهندسية التي كثرت في النوافذ والابواب ، من الخشب ، وفي الجدران من الرخام

ومن أمثلة ذلك تابوت قبر سكينة (في دمشق) . وظلت هذه الصناعة محتفظة بأساليبها وانتشارها في العهد الأيوبي والمملوكي وقد تركت لنا عدداً كبيراً من المحاريب والنوافذ والحواجز والمنابر والتوابيت . (كتابوت صلاح الدين بدمشق) وقد تأثر الحفر في العهد السلجوقي في إيران وآسيا الصغرى بأساليب الشام ومصر وترك لنا تحفاً محدودة كما تأثرها حفارو الأندلس . غير أن العصر المغولي والتيموري أدخل على الزخارف الخشبية عناصر جديدة أكثر حياة وشبهاً بالطبيعة من الزخرفة الفاطمية .



شكل – ١٢٢ –

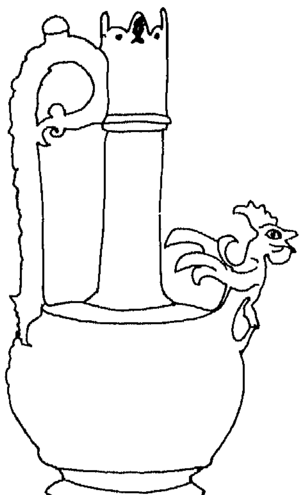
نقوش بارزة لاناء نحاسي ضخم مرصع بالفضة ، من صنع مدينة هراة في القرن الحادي عشر الميلادي . وهو نموذج لفن التكفيت والنقش والزخرفة على المعدن في العصور الاسلامية ويمتاز هذا النقش بالطراز الزخرفي الذي يحول رؤوس الاحرف الهجائية الى رؤوس بشرية وحيوانية . وهي طريقة استعملها المزخرفون الغربيون في كتبهم وفي الاحرف الهجائية الاجنبية .



رسم جزئين من الزخارف المحفورة على الابريق المنسوب الى مروان الثاني في دار الآثار العربية بالقاهرة

شكل – ١٢٣ –

بعض الزخارف المحفورة على ابريق معدني يعتقد انه كان للخليفة الاموي مروان الثاني . والابريق محفوظ في دار الآثار العربية بالقاهـرة .



شكل – ١٢٤ –

ابريق مصنوع من البرونز ، في العصر الاموي القرن الثامن الميلادي من عمل فنانين فرس

واما حفر العظم والعاج : فمعظمها كان على شكل علب أو حشوات لبعض الاعمال الفنية الأخرى . وقد بقي هذا الفن في أسر الذين كانوا يعملون به قبل الاسلام . وأمثلة التحف العاجيـة التي وصلتنـا من صدر الاسلام لا تدل على أيد مبتدئه بالحفر. وقد وصلتنا تحف عاجية كثيرة من العصر الفاطمي ، لكن لم يصلنا من العصر الأيوبي والمملوكي إلا القليل ، ومعظم أعمال العاج في هذين العصرين كان في التطعيم .ولكن الأندلس هي التي تركت لنا أكبر عدد من التحف العاجية الموزعة بين المتاحف .

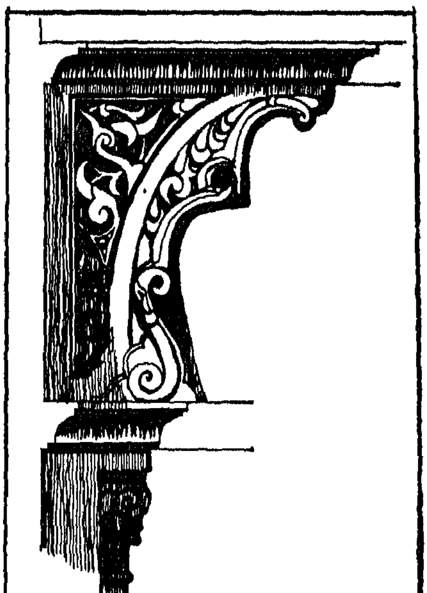
وأما في المعدن : فقد كانت التحف الاسلامية الأولى منـــه استمراراً لتقاليد الفن الساساني وأساليبه لحد كبير . وقد استعمل الفنانون المسلمون في أعمالهم البرونز خاصة وصنعوا منه الاباريق والمباخر وآنيـة الماء على أشكال الحيوان خاصة . أما الأواني الفضية من صدر الاسلام فمعظمهـا صحون عليها مناظر صيد ورسوم مألوفـــة في الفن الساساني وأباريق من نفس النوع .

وقد ازدهرت صناعة التحف المعدنية في العهد الفاطمي وامتلأت بها قصور الخلفاء ومعظمها تماثيل للحيوانات : كالطير والأسد والظبي والأرنب ، عدا الشماعد والصواني والثريات . وكان بعضها يطعم بالمينا مع الزخارف ، وعدا قطع الحلي التي تفنن الفاطميون في صياغتها ما بين أساور وخواتم وأقراط وأطواق .

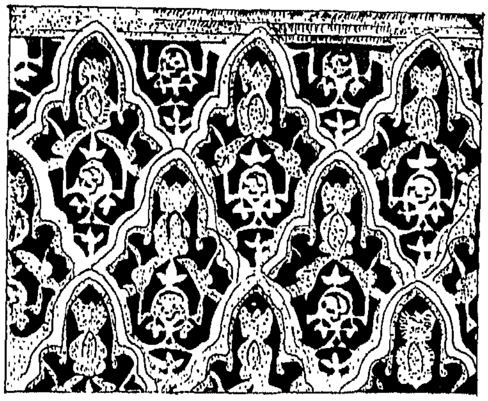
وكان العهد السلجوقي في إيران مجال نهضة في صياغة الفنون المعدنية من البرونز والفضة والذهب . وبعضهـا كان يملأ بالزخارف البارزة ، كما نرى في المرايا السلجوقية وفي الصواني والشماعد الباقية والأباريق . على أن أهم الأساليب الفنية التي ازدهرت على يد الصناع السلجوقيين بايران والجزيرة هو نقش البرونز والنحاس الأصفر بزخارف عميقة تملأ بالفضة والذهب والنحاس



شكل — ١٢٥ —
تزيينات في منارة (مئذنة) الكتبية في مراكش



الشكل — ١٢٦ —
تزيينات من باب قصبة ودايا في الرباط



الشكل – ١٢٧ –

من زخارف قاعة الاسود في قصر الحمراء ويعد هذا القصر العربي الاسلامي اجمل قصور العالم من حيث سعته وجماله وتنوع ودقة ورشاقة وغنى زخارفه الجصية .



الشكل – ١٢٨ –

طبق منقوش بنقوش نافرة وغائرة ومكفت بالذهب مصنوع في فالنسيا في الاندلس يعد نموذجا في فن التكفيت والحفرالاسلامي الراقي (القرن الخامس عشر الميلادي) في المغرب ، أو الفن الاسباني – المغربي

الأحمر وهو ما يعرف بالتكفيت . وقد عرفت بهذه الصناعة الدقيقة مدينة « الموصل » خاصة خلال القرن السابع الهجري (١٣ م) وقد هاجر بعض صناع الموصل في هذا العصر إلى دمشق وحلب والقاهرة واشتغلوا للأمراء الايوبيين فازدهرت صناعتهم في هذه المدن ولم يزدهـا العصر المملوكي إلا ازدهاراً بسبب إقبال سلاطين المماليك على هذا الفن واستخدامه في الابواب والنوافذ ومختلف الأدوات والأواني والاسرّة وأدوات الكتابة .

وقد تطور حفر المعادن في إيران على نفس الاساليب في العهد المغولي والتيموري . فلما كان العهـد الصفوي مال الناس إلى الزخارف الهندسية والنباتية الدقيقة فملؤوا بها أدوات الحرب والأواني وما اليها .

ولا نكاد نجد في أعمال الاندلس المعدنية من اختلاف عن أعمال الشام ومصر منذ العهد الفاطمي حتى المملوكي .

واما الحفر في الحجر والجص : فقـد ملأ به المسلمون معظم آثارهم المعمارية ، ولعل أبدع ما وصلنا من عصر صدر الاسلام الزخارف الحجرية في قصر (المشتى) وزخـارف قصر (الحير) الغربي . وفي قبة الصخرة والمسجد الأموي بعض نمـاذج من الحفر الأموي على الرخام تعتمـد على الزخرفة الهندسية والنباتية .

وقد استمرت أساليب الحفر والزخرفة هذه في العصر العباسي مـدة حتى تم تكون الاسلوب العباسي الخالص في القرن الخامس الهجري الذي اعتمد على الفروع النباتية المنطلقة في انثناءات وتعاريج متكورة كما نرى في تيجان الأعمدة في الرصافة والرقة ، على الفرات ، وفي الزخارف الجصية الهامة في سامراء .

ويتمثل النحت الحجري والجصي في العهـــد الفاطمي ببعض التماثيل والصفائح والمحاريب التي تستخدم العناصر النباتيـة المحورة . أما في العهد

السلجوقي فقد كثر استعمال الرسوم الآدمية والحيوانية في الزخرفة ولاسيما في آسيا الصغرى . لكن الأيوبيين والمماليك اتبعوا الأساليب الفاطمية وتوسعوا في الزخرفة النباتية وانتشرت المقرنصات في اسلوب البناء سواء في المساجد أو القصور أو المدارس .

والزخارف الفنية النافرة في جدران وسقوف قصر الأندلس كافية للدلالة على مبلغ التقدم الفني في هذا المجال في غرب المملكة الاسلامية .

الفسيفساء : (كلمة يونانية الأصل) وقد برع بهذا الفن صناع الشام البزنطيون الذين صنعوا للوليد بن عبد الملك فسيفساء الجامع الأموي وقبة الصخرة وهما أروع النماذج في العصر الإسلامي . وموضوعات الزخرفة فيها : كتابات ومناظر طبيعية وزخارف نباتية . ولم تزدهر هذه الصناعة بعد العهد الأموي ، والنماذج القليلة التي وصلتنا من العصر العباسي ومن عصور الدويلات المنفصلة كالتي نراها في قبة الملك الظاهر بيبرس بدمشق تدل على الانحطاط والتراجع .

الغناء والموسيقى

للنغم الحلو قوة ساحرة تأخذ بالألباب ، سواء كان ذلك في بداوة أو حضارة . وسواء أكان المغني من الإناث والذكور . ولكل جيل ألحانه ، ولكل صقع أنفاسه وطرائق إيقاعه على آلات اللهو والطرب ، من ضرب على الأوتار ، أو نقر بالدفوف ، أو نفخ في المزامير ، بين خفوت وارتفاع وامتداد وانقطاع ، وهمس وجهر ، وحدة ولين ، وآهات وأنين .

وقد وضعت لمجرى الأصابع على ثقوب الآلات وأوتارها قواعد يعرفها أهل الفن ، سموها لحناً . . . وسموها صوتاً وسموها نغماً ، وسجلناها على الورق في عهدنا الحاضر وسميناها باسمها الافرنجي « نوتة موسيقية » .

والغناء يكون في الشعر ، لأن الشعر له أوزان منغمة ، وقد يكون في الموشحات والزجل ، ففيها ايقاع موسيقي ووزن وقافية ...

تطور الغناء منذ الجاهلية حتى العصر الاموي : اختلفت ضروب الغناء عند عرب الجاهلية ، فمنه الحداء للابل في مسيرها ، والهزج وقت الغارة ، والانشاد في الصلاة والأفراح والمآتم ، ولا تزال آثار الترانيم الدينية الساذجة محفوظة في التلبية من مراسيم الحج . أما طريقة إنشادهم الشعر فلا يزال أثرها في تجويد القرآن . وكان للحداء مقام رفيع عند العرب فقد استعذبته نفوسهم وهم يعدونه أقدم أنواع الغناء . وقد نشأ الغناء ، كما جاء في أسطورة ذكرها المسعودي كما يلي : قيل سقط مضر بن نزار بن معد عن جمل في بعض أسفاره فانكسرت يداه فجعل يقول « يا يداه ! يا يداه ! » وكان من أحسن الناس صوتاً

فاستوسقت الإبل وطاب لها المسير ، فاتخذه العرب حداء .

ولا ريب في أن عرب الجنوب كانت لهم أنواع خاصة من الغناء وآلات الموسيقى التي لم يصلنا عنها إلا القليل ، ومهما يكن من أمر هذا الفن في الجنوب فإنه لا يعد قسماً من تراث العرب الشماليين ومن تلاهم من أهل الحضارة الاسلامية ، وقد استعمل أهل الحجاز الدف قبل الاسلام وهو آلة موسيقية مربعة الشكل كما استعملوا كذلك القصبة أو القصابة أو الزمر أو المزمار ، وكذلك كان المزهر معروفاً لديهم ، وما كاد يبدأ عهد النبي عليه السلام ، حتى كانت المؤثرات الموسيقية الأجنبية قد بدأت تظهر في بعض الأوساط العربية ، فقد اقتنى أمراء غسان أجواقاً من القيان اليونانيات ، وكان اللخميون من أهل الحيرة يعرفون العود الذي استعاره منهم أهل الحجاز . وفي بعض الأخبار أن النضر بن الحارث بن كلدة الطبيب الشاعر هو الذي أدخل العود إلى مكة من الحيرة ، وكان ينظم الشعر محاولاً أن يستميل نفوس القوم ويصرفهم عن الاستماع إلى القرآن . وهناك أخبار أخرى تجعل ابن سريج (المتوفى حوالي ٧٢٦ م) أول من أدخل العود الفارسي إلى الحجاز . وقد ذكروا أنه رأى العود لأول مرة في أيدي الفعلة الفرس الذين أقدمهم إلى الجزيرة سنة (٦٨٤ م) عبد الله بن الزبير لبناء الكعبة . وقد استعير الناي بعد ذلك وهو اسم فارسي لآلة صوتية تصنع من الخشب أيضاً حسبما أظهرت دراسات البحاثة فارمر . والظاهر أن أكثر من عني بالغناء في الجاهلية كانوا نساء ، وقد حفظ لنا صاحب الأغاني أسماء نفرٍ منهن . ومن المراثي التي قالتها الخنساء الشاعرة المشهورة في رثاء أخيها صخر وضع دون شك ليغنى به في المآتم . ولا بدع ، فان أكثر شعراء الجاهلية كانوا ينشدون أشعارهم انشاداً أشبه بالغناء .

ولم تكن حملة القرآن على الشعر باعتبار أنهم شعراء، بل بصفتهم ممثلي الشرك والوثنية . ولعل الرسول لم يرض كثيراً عن الموسيقى لارتباطها بالطقوس الوثنية . وفي بعض الحديث ما يفيد ان الآلة الموسيقية كمؤذن الشيطان يستفز من استطاع إلى عبادته . والواقع أن السواد من متشرعي الاسلام والفقهاء كانوا يعرضون عن الموسيقى حتى ذمها بعضهم في جميع الأحوال ومنهم من عدها مكروهة في الدين وإن لم تكن حراماً . إلا أن نظرة جمهرة الناس إلى الأمر يعبر عنها القول المأثور : « الخمر كالجسد والسماع كالروح والسرور ولدهما » .

وبعد أن زالت الروعة الأولى التي أوحاها ظهور الإسلام اتجه التطور الاجتماعي في الحجاز إلى ناحية تذوق الجمال وبالأخص في عهد عثمان أول خليفة عاش في بحبوحة من المال والرفاه . ثم أتقن القوم فن الطباق بين الصوت والآلة الموسيقية وأخذوا فيما يسميه العرب موطداً في الحجاز ، ظهر لأول مرة طبقة من الرجال ممن احترفوا الموسيقى وكانوا يحنون أيديهم ويتقصفون تقصف النساء فعرفوا بالمخنثين . منهم طويس (أي الطاووس الصغير ٦٣٢ – ٧١٥ واسمه الأصلي : عيسى بن عبد الله الذائب) أول من غنى بالمدينة فبدأ الغناء في الإسلام ويظن ، أن طويساً أدخل الايقاع إلى الغناء العربي . وأنه أول من غنى بالعربية مصحوباً بالآلة الموسيقية المعروفة بالدف . وكان جيل المغنين الأول في الاسلام نفراً من الحلفاء الأجانب وعلى رأسهم طويس . ولطويس عدد من التلامذة أشهرهم ابن سريج أحد المغنين الأربعة العظام في الاسلام ، وقد عزا الرواة إليه إدخال العود الفارسي إلى الحجاز والتوقيع بالقضيب إرشاداً للضاربين بين آلات الموسيقى في الحفلات الموسيقية العامة التي كان يديرها . ثم ابن سريج وهو تركي الأب وكان مولى لسكينة بنت الحسين ، وقد درس ابن سريج أيضاً على سعيد

ابن مسجح (المتوفى حوالي ٧١٤ م) المكي الأسود وهو مولى أيضاً . وكان سعيد أول موسيقي ظهر في مكة ولعله أعظم من ظهر في العهد الأموي ، فقد قيل إنه رحل إلى الشام وفارس وأخذ ألحان الروم والفرس فنقلها إلى غناء العرب ، والظاهر أنه نظم الموسيقى العربية في ناحيتيها النظرية والعملية في العهد الأول من تاريخ المسلمين ، ومن الذين أخذوا عنه الغريض وهو من مولدي البربر علمه ابن سريج أيضاً وأصبح بعد معلمه الثاني من المغنين الأربعة المشهورين في الاسلام في ذلك العهد. أما المغنيان الآخران فهما ابن محرز (المتوفى حوالي ٧١٥ م) وهو فارسي الأصل وكان يقال له « صناج العرب » ومعبد (المتوفى ٧٤٣ م) وكان خلاسياً من المدينة ، ونال حظوة في بلاط الوليد الأول ويزيد الثاني والوليد الثاني وكان قبل انتقاله إلى العاصمة دمشق يجول مغنياً في أنحاء الجزيرة . ومن المغنين الأوائل سائب بن خاثر واسمه أبو جعفر سائب بن يسار (توفي ٦٣ ﻫ) من أهل المدينة ، ولم يكن يضرب بالعود ، وإنما كان يقرع بالقضيب ويغني مرتجلا . ولما قدم نشيط الفارسي على المدينة وغنى بالفارسية صنع سائب خاثر مثل ذلك الغناء الفارسي بالعربية في أبيات مطلعها : « لمن الديار رسومها قفر » فكان ذلك أول صوت غني في الاسلام من الغناء المتقن الصنعة الممزوج بالألحان الفارسية . ثم أن نشيطاً تعلم الغناء العربي من سائب خاثر وعلم فيما بعد عدداً من المغنين بالعربية منهم عزة الميلاء ، وجميلة ، ومعبد ، وابن سريج .

وأحمد بن أسامة الهمزاني (توفي ٨٢ ﻫ / ٧٠١ م) أول من توسع في النصب (ضرب من الغناء أرق من الحداء) أي أول من نقل الغناء من الحداء (التنغيم البسيط وراء الابل) إلى شيء من العمل الفني وكان يغني بالطنبور .

وكان من القيان عزة الميلاء، وكانت تضرب بالمزهر والمعزفة (تشبه العود أو الطنبور) وهما من آلات الجاهلية . وجميلة (المتوفاة نحو ٣٧ ﻫ) وهي مولاة مدنية ترجمت الفن في الجيل الأول وكانت دارهـا موئلا لأرباب الموسيقى والغناء بمكة وتتلمذ عليها كثيرون منهم . ومن أبرز الذين كانوا يحضرون حفلاتها شاعر الحب المشهور عمر بن أبي ربيعة . ومن تلميذاتها حبابة وسلامة محظيتا يزيد الثـاني . ولعل أروع حـادثة ذكرها الرواة عن حياتها المترعة بالبدائع تلك الزيارة التي قامت بها إلى مكة فخرج منها حذاق المغنين والمغنيات وجماعة من الشعراء والأشراف وغيرهم من الرجال والنساء المعجبين بها يشيعونها أو يحجون معها، وقد ركبوا على الابل في الهوادج والقباب وتخايروا في اتخاذ أنواع اللباس العجيب الظريف ، فما أن أشرفت الإبل على مكة حتى خرج الرجال والنساء ينظرون إلى جمعها وحسن هيئتهم حتى قضت حجها فعادت وعـاد معها جمع أكثر من جمعها فتلقاها أهل المدينة ودخلت بموكب أحسن مما خرجت به وتوافـد عليها الناس مسلمين لا يستنكف من ذلـك كبير ولا صغير ...

وجمعت جميلة عدداً من الميزات ، احلتها هذه المـكانة في نفوس مواطنيها فقد كانت تجمـع من حسن الخلقة ورقة الخُلق والطبع ما يزيد انوثتها قوة ، ولحنها تأثيراً ، وكانت الى ذلك مرحة شديدة المرح ، يسود مجالسها النكتة ويغلب عليها التواضـع ، مع ما كانت عليه من ثقافة فنية وادبية ، ومقدرة على النقد الفني ، وحكم على الاذواق ، ولطالما اجتمع عندها كبار المغنين والمغنيات فاسمعتهم واسمعوها ، وحكموا لها وحكمت لهم . وقد اجتمـع عندها ذات مرة شلة من المغنيين فقالت لهم جميلة : كلكم محسن

وكلكم مجيد في معناه ومذهبه . قال احدهم : ليس هذا بمقنع دون التفضيل فقالت : اما انت ياابا يحيى فتضحك الثكلى بحسن صوتك ومشاكاته للنفوس واما انت يا اباعباد ، فنسيج وحدك بجودة تأليفك ، وحسن نظمك مع عذوبة غنائك .. واما انت يا ابا عثمان فلك اولية هذا الامر فضيلة . واما انت يا ابا جعفر فمع الخلفاء تصلح . واما انت يا ابا الخطاب فلو قدمت احداً على نفسي لقدمتك . وقد قال فيها معبد : اصل الغناء جميلة ، وفرعه نحن .. ولولا جميلة لم نكن نحن مغنين . .

ويظهر ان جميلة عمدت احياناً إلى الغناء الجوقي فذكرت كتب الادب انها أمرت جواريها فضربن على خمسين وتراً فتزلزلت الدار ، ثم غنت هي على عودها فجرت من العيون الدموع . وكانت تجمع جواريها ليعزفن لحناً واحداً ويغنين صوتاً واحداً .

وكانت للموسيقى حفلات ومجالس زاهرة في منازل سيدات الطبقة الارستقراطية يؤمها جماهير من غواة الفن ومريديه ، وكان العود الفارسي المصنوع من الخشب قد أخذ يحتل مكان العود المصنوع سابقاً في الجزيرة من الجلد ، وكان من الآلات الموسيقية الوترية المستحبة عندهم المعروفة آلة تشبه القانون ومنها أيضاً القصبة والمزمار والبوق . أما الآلات التي تقوم على مبدأ النقر فهي الدف وهو مربع الشكل وكانت النساء أسبق إلى الالتفات اليه واستعماله ، والطبل والصنج ، وأما أنغام تقطيع الأصوات « النوتات » الموسيقية فقد كانوا يتناقلونها شفهياً من جيل إلى جيل ولهذا ضاعت كلها . فكتاب الأغاني مثلاً طافح بالأبيات التي كان المغنون يغنونها أيام الامويين ، إلا أنه لايثبت لنا « نوتا » واحداً نستدل منه على نغم صوت الغناء الذي كان رائجاً ، وكان عميد المغنين في العراق في ذلك العهد حنين الحيرى النصراني وقد روي أنه شخص إلى الحجاز زائراً فاستقبلته سكينة بنت الحسين وأذنت للناس إذناً عاماً فغصت ٣٢

دارها ، ولم ير يوم كان أكثر حشراً ولا جمعاً من يومئذ ، وصعدوا فوق السطح يسمعون صوته ، وازدحموا عليه فسقط الرواق على من تحته ومات حنين تحت الردم . وتوفرت في مواسم الحج الفرص لمن في الحجاز من أهل الموسيقى والغناء لاظهار مواهبهم أمام وفود الحجاج . ولقد كان من المألوف في بعض الأحيان أن يتوجه المغنون كي يلاقوا موكب الحجيج ويطربوهم أثناء السير . وفي الأغاني وصف مشهد هذه المواكب التي شهدها موسم الحج كان بطله زعيم شعراء الحجاز في ذلك العصر عمر بن ابي ربيعة . فقد خرج في أحسن هيئة ، عليه حلة موشاة ومعه مغنيه ابن سريج وجعل يتعرض لمن يرى من الحسان حتى أمسوا فرفع ابن سريج صوته يغني في شعر عمر فسمعه الركبان وجعلوا يصيحون به ياصاحب الصوت أما تتقي الله قد حبست الناس عن مناسكهم .

وهكذا أصبحت مكة وبنوع أخص المدينة موئلًا للموسيقى في العصر الأموي ومربعاً لهواتها ، وأم بلاط دمشق نفر ممن تخرجوا في فنون الموسيقى من هاتين المدينتين . ولم يكن ليجدي نفعاً تشدد المتزمتين والمحافظين من العلماء الذين كانوا يكرهون السماع ويقرنون الموسيقى بالشرب والقمار ويستشهدون بالأحاديث النبوية التي تذهب إلى أن هذه الملاهي هي نشر الوسائل التي يستدرج الشيطان بها أبناء آدم . إنما كانت مكانة الموسيقى في القلوب أعظم من أن تقاوم بشيء من هذه الذرائع ، لا سيما وأن أرباب الموسيقى أنفسهم كانوا يستندون بدورهم إلى أحاديث نبوية تدعمهم ، بل إنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك فزعموا أن الشعر والموسيقى والغناء ليس من الضروري أن تحط من قدر الانسان بل إن لها قسطاً من التأثير في التهذيب النفسي إذ تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف وصلة الرحم والذب عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب . وكان يزيد بن معاوية أول من سن الملاهي واستجلب المغنين إلى الشام وكان

شاعراً فجعل يقيم الحفلات الكبرى في بلاطه، ومن ثم أصبح الغناء والشرب صنوين متآلفين في تاريخ الدول العربية . وشمل عبد الملك برعايته ابن مسجح من مغني الحجاز ، واستقدم ابنه الوليد ، وهو من رعاة الفن، ابن سريج ومعبداً إلى العاصمة واحتفى بهما ، ثم أعاد يزيد الثاني الشعر والموسيقى إلى سابق مركزهما بعد أن كان عمر بن عبد العزيز الخليفة الورع المحافظ قد حال دونهما . وقد عول يزيد على مواهب حبابة وسلامة، واصطفى هشام حنيناً الحيري وأنعم عليه . كذلك كان الوليد الثاني صاحب شراب ولهو وطرب وسماع للغناء ، فاستقدم المغنين من البلدان المختلفة وأظهر العزف على العود واستقبل في بلاطه عدداً من أرباب الموسيقى والغناء منهم معبد المشهور ، ووافقت ولايته زمن ازدهار الموسيقى في عاصمتي الحجاز فلم يجيء آخر العصر الأموي حتى كان حب الغناء قد سرى في نفوس الناس خاصتها وعامتها ، فاتخذ العباسيون ذلك الأمر سلاحاً على الفت من ساعد خصومهم الأمويين وقاموا ينشرون دعوتهم ويتوعدون « أعداء الله » .

الغناء في العصر العباسي : ازداد إقبال الناس على اختلاف طبقاتهم على الغناء في العصر العباسي . وقد أخذ المهدي الخليفة العباسي نفسه بدعاية هذا الفن فبدأ حيث انتهى الخلفاء الأمويون المتأخرون ، وأحضر إليه سياطاً المكي (٧٣٩ — ٨٥٠ م) صاحب الصوت الشجي الذي قالوا في صوته « أدفا للمقرور من حمام محمى » ثم أحضر أيضاً ابراهيم الموصلي تلميذ سياط (٧٤٢ — ٨٠٤ م) الذي غدا بعد استاذه إمام الأصول الموسيقية الكلاسيكية عند العرب . وكان إبراهيم هذا من أسرة فارسية شريفة وقد خطفته خارج الموصل في حداثته عصابة من الأشقياء فتعلم بعض أغانيهم ، وهو أول من

وقع الايقاع بالقضيب ، وبلغت براعته بالموسيقى أنه كان يستطيع إذا أخرجت اليه ثلاثون جارية فضربن جميعاً طريقة واحدة وغنين في الأوتار وتراً غير مستوٍ أن يشير إلى إحداهن قائلًا يافلانة شدي مثناك فتشده وتستوي الأوتار . ثم جاء الرشيد بعد المهدي فاستلحق ابراهيم به واتخذه نديماً ومنحه (١٥٠) ألف درهم دفعة واحدة ، وصار يصله بعشرة آلاف درهم كل شهر ، وقد أعطاه يوماً مئة ألف درهم من صوت واحد غناه فأعجبه . وكان لابراهيم منافس دونه مرتبة هو ابن جامع القرشي ، وهو ابن سياط بالتبني ، وذكر أن إبراهيم أشد المغنين تصرفاً في الغناء وابن جامع أحلاهم نغمة . وقد سأل الرشيد أحد المقربين اليه من المغنين : « مايقول في ابن جامع ؟ » فأجاب : « وما أقول في العسل الذي حيثما ذقته فهو طيب » .

وكان بلاط الرشيد بأبهته وأناقته قد أخذ يرعى الموسيقى والغناء كما رعى العلم والفن فأصبح موئل الغناء ومقصد أرباب الموسيقى . وقد زها في ظله نفر من أقطاب الموسيقى أجريت عليهم الأرزاق يرافقهم طائفة من عبيد وإماء . وقد تركت هذه العصبة من أهل الفن آثاراً أدبية من قصص الغناء في الكتب كما نرى في « الاغاني » و « العقد الفريد » و « الفهرست » و « نهاية الأرب » و « ألف ليلة وليلة » وقد روي أنه اشترك في مهرجان موسيقي كبير الفان من هؤلاء المغنين والمغنيات تحت رعاية الخليفة الرشيد أما ابنه الامين فقد أحيا مرة ليلة لهو ، رقص فيها أهل البلاط ذكوراً وإناثاً حتى مطلع الفجر ، وبينما كان جند المأمون محيطاً ببغداد كان الأمين جالساً على ضفة دجلة وحوله خواص جواريه يطربنه . ومن المغنين الذين رعاهم الرشيد مخارق (المتوفى ٨٥٤ م) وهو تلميذ ابراهيم الموصلي وكانت قد اشترته إحدى المغنيات وقد حدث أن سمعته ينادي على اللحم الذي

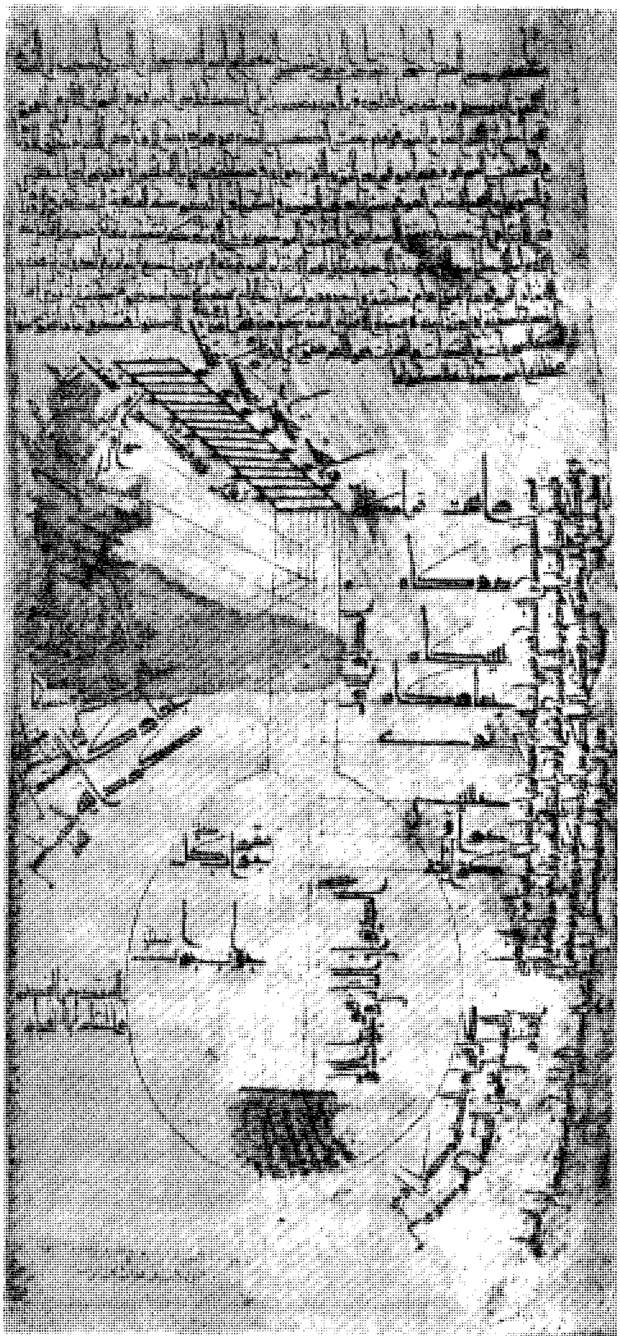
يبيعه أبوه فأعجبت بصوته ثم باعته من آل الزبير وانتهى أمره أن أصبح من عبيد الرشيد فأعتقه ووصله بمئة الف دينار وأدناه من مجلسه . وقد روي عن مخارق أنه توسط دجلة في إحدى الليالي واندفع يغني بأعلى صوته فما بقي أحد من ملاح ولا غلام ولا خادم إلا بكى وظهرت الشموع والسرج من جانبي دجلة في صحون القصور الدور يتساعى بين يدي أهلها يستمعون غناءه وخرج مرة إلى باب الكناسة ببغداد ، والناس يرتحلون للخروج إلى مكة للحج ، فنظر إلى كثرتهم وازدحامهم فقال لبعض صحبه : قد جاء في الخبر أن ابن سريج كان يتغنى في أيام الحج ، والناس بمنى ، فيستوقفهم بغنائه ، وسأستوقف لكم هؤلاء الناس جميعاً ، لتعلموا أنه لم يكن ليفضلني الا بصنعته دون صوته ، ثم انه اندفع يؤذن ، فاستوقف الناس واستلهاهم وتقاطروا نحوه ... وسمعه أبو العتاهية الشاعر يوماً فقال له : لقد رققت حتى كدتُ ان احسوك . فلو كان الغناء طعاماً لكان غناؤك أدما ، ولو كان شرابا لكان ماء الحياة .

وكان الخليفة الواثق يقول : ما غناني مخارق قط الا قدرت انه من قلبي خلق ولا غناني اسحاق إلا ظننت انه قد زيد في ملكي ملك آخر . وكان من ندماء المأمون والمتوكل إسحاق بن إبراهيم الموصلي (٧٦٧ — ٨٥٠م) عميد أهل الموسيقى في عصره . وقد تمثلت فيه بعد أبيه روح الموسيقى العربية الكلاسيكية . أما مكانته كموسيقي ملم بالصناعة بوجه عام فليس ما يدانيها بحيث قيل فيه إنه « أعظم من أنجبهم الاسلام في هذا الفن » وقد ادعى إسحاق كما ادعى أبوه من قبل وكما ادعى زرياب بعد ، أن الجن كانت تلهمه الألحان
إن هؤلاء وسواهم من أرباب الموسيقى الذين نشؤوا في ظلال الخلفاء الوارفة ولا تزال أسماؤهم مقرونة بأسماء الخلفاء كانوا أكثر من موسيقيين . فقد

منحوا من الذكاء والفطنة وسرعة الخاطر وقوة الحافظة قدراً كبيراً . وكانوا فوق ذلك يحفظون كثيراً من الأشعار المختارة والنوادر المستملحة وغير ذلك من ضروب الفنون ، فهم إذن مغنون وشعراء وعلماء تثقفوا بالثقافة العلمية في عصرهم . ويأتي بعد هؤلاء مرتبة الضاربون ، وأهمهم أصحاب الأعواد ، أما الضاربون على الرباب فقد كانوا أدنى مرتبة . ويلي الضاربين طبقة القيان اللآتي كن يشتركن في الحفلات من وراء الستار وقد كن من الزينة الضرورية في بيوت الحريم. وأصبحت تربيتهن وتثقيفهن من الصناعات الهامة ، وقد ربى إسحاق جارية حتى برعت فبذل فيها رسول صاحب مصر عشرة آلاف دينار فلم يبعها ، وساومه رسول امبراطور الروم فيها على ثلاثين الفاً ثم أوصله رسول صاحب خراسان إلى أربعين ألف دينار ، واحتال إسحاق على أمره معهم بأن أعتقها وتزوجها . لقد فاق بنو العباس في بغداد بني أمية في دمشق بمن خرج منهم من المغنين\والمنشدين والضاربين على العود فمن آل العباس نبغ ابراهيم بن المهدي (أخو الرشيد) الذي نازع المأمون الولاية سنة ٨١٧ م وقد اكتسب شهرة عظيمة في الموسيقى والغناء أما الواثق فكان يضرب على العود وقد صنع مئة صوت ، فكان بذلك أول موسيقي بين الخلفاء ، ومن بعده قام المنتصر والمعتز فأظهرا مقدرة في الشعر والموسيقى ، إلا أن الخليفة الذي برع في الموسيقى هو المعتمد وقد القى الجغرافي الشهير ابن خرداذبة في حضرته خطبة في الموسيقى والرقص تعد من الأصول الهامة التي بين أيدينا عن حالة هذين الفنين في ذلك العصر .

الموسيقى النظرية في المشرق : وكان هناك من جملة الكتب اليونانية الكثيرة التي نقلت إلى العربية في العصر العباسي بضعة كتب

تبحث في الموسيقى النظرية . منها اثنان لأرسطو نقلها إلى العربية الطبيب النسطوري الشهير حنين بن إسحاق الواحد تحت عنوان « كتاب المسائل » والثاني « كتاب النفس » وقد ترجم حنين كتاباً لجالينوس بعنوان « كتاب الصوت » ومما ينسب أصله إلى اقليدس كتابان في العربية هما « كتاب النغم » ولم يكن من تأليف اقليدس أصلاً و « كتاب القانون » ، أما ارستوكسنس من رجال القرن الرابع قبل الميلاد فقد عرف خاصة بـ « كتاب الايقاع » كما أن نيكوماكس بن أرسطو عرف « بكتاب الموسيقى الكبير » . وقد عدّ « إخوان الصفا » ، وكان بعضهم فيما يظهر من أصحاب النظريات في الموسيقى ، هذا الفن فرعاً من الرياضيات ، وبجلوا فيثاغورس باعتباره مؤسساً للموسيقى النظرية . وقد استمد العرب من هذه الكتب وغيرها من كتب الاغريق آراءهم العلمية في الموسيقى وأصبحت لهم ثقافة قائمة بذاتها في مبادىء نظرية الصوت الفيزيائية والفسيولوجية ؛ ومن هنا كانت الناحية العلمية الرياضية للموسيقى العربية مستمدة من أصول يونانية ، أما الناحية العملية فنماذجها كما أظهرت أبحاث فارمر عربية بحتة ، وفي هذا العهد استعيرت لفظة موسيقي (وبعدئذ موسيقى) عن اليونانية وأطلقت على مناحي العلم النظرية وخصصت لفظة « الغناء » القديمة للفن العملي وقد كانت إلى ذلك الزمن تفيد الغناء والموسيقى معاً ، أما لفظا « قيثار » و « ارغن » وكثير من الألفاظ الفنية اليونانية الأصل فإنها لا تزال تستعمل في العربية حتى الآن ، ومن الواضح أن الأرغن جيء به من بلاط البيزنطيين . ولقد عاش في القرن الثاني عشر اثنان من صناع الأرغن هما أبو المجد بن أبي الحكم الدمشقي (المتوفى م ١١٨٠) وأبو زكريا يحيى البيامي الذي اتصل بصلاح الدين وكان في خدمته . وكان زعيم



الشكل ـ١٢٩ـ

قطعة فريدة من الرق محفوظة في مكتبة تشستر بيتي فيها صورة العود المثمن ويذكر النص بأنه آخر اختراع الامام الفارابي .
كما يذكر صفاته وبعض التعليمات الموسيقية .

الكتاب الموسيقيين الذين تبعوا المدرسة الاغريقية الفيلسوف الكندي الذي زها في الشطر الثاني من القرن التاسع م وتظهر في كتبه أول معالم الأثر اليوناني . ونجد في واحد من الكتب التسعة المنسوبة اليه أول استعمال صريح لعلامات الموسيقى عند العرب . ولم يكن الكندي وحيداً في علم الموسيقى النظرية بل إن عدداً من رجال الفلسفة الاسلامية والطب كانوا كذلك أيضاً . وقد وضع الرازي (٨٦٥ – ٩٢٥ م) كتاباً في هذا الفن أشار اليه ابن أبي أصيبعة ، وليس غريباً أن يكون قد وضع غير كتاب واحد . وأما الفارابي (المتوفى ٩٥٠ م) فقد كان يجيد الضرب على العود وهو أعظم من كتب في أصول الموسيقى بين كتاب العصور الوسطى فإنه علاوة عن اشتغاله باخراج طائفة من الشروح على مختلف كتب اقليدس المفقودة اليوم قد وضع ثلاثة أبحاث مبتكرة منها « كتاب الموسيقى الكبير » وكان أهم مرجع في الشرق ، أما في الغرب فأعظم كتبه أثراً وأكثرها شهرة هو كتاب « إحصاء العلوم » وهو أقدم كتاب في هذا الموضوع وقد نقل إلى اللاتينية . وقد نقلت أيضاً إلى اللاتينية تآليف ابن سينا (المتوفى ١٠٣٧ م) الذي لخص كتباً سابقة لعهده وعقد في « الشفاء » بحثاً في الموسيقى ، وتآليف ابن رشد (المتوفى ١١٩٨ م) وأصبحت هذه التآليف كتباً مدرسية في أوروبا الغربية . أما الغزالي فقد كان لدفاعه عن السماع الأثر الأكبر فيما بلغته الموسيقى من شأن في الطرق الصوفية . .

ومما يؤسف له أن معظم هذه الرسائل الفنية قد فقدت أصولها العربية : فالموسيقى العربية وعلاماتها وما كانت تقوم عليه من أصول النغم والايقاع ظلت تنقل بالسماع من جيل إلى جيل إلى أن تلاشى أمرها . إن الأغاني العربية اليوم فقيرة بالأنغام غنية بالايقاع ، وليس بين أرباب الموسيقى العربية الحديثة من يستطيع أن يشرح جلياً الكتب الباقية في موضوع الموسيقى

القديمة أو يفقده تماماً علاماتها القديمة وتعابيرها الفنية الموضوعة بهـا . ويمكن أن نرجع كثيراً من هذه المصطلحات إلى أصول فارسية أو هندية . . .

موسيقى الاندلس :

كان زرياب واضع حجر الأساس في فن الموسيقى الأندلسية وهو تلميذ مدرسة الموصلي البغدادية . وقد نزل زرياب قرطبة عام ٨٢٢ م واستطاع بفضل اتساع معرفته بالموسيقى والأصوات التي لا يعرفها أحد غيره وتضلعه في العلوم الطبيعية وشخصيته الجذابة ولطف معاشرته وظرفه وتأدبه وحضور ذهنه أن يكون مثال الرجل الاجتماعي الممتاز . وكان في قرطبة تحت رعاية عبد الرحمن الثاني عندما اخترع زرياب مضرب العود من قوادم النسر معتاضاً به عن مضرب الخشب ، فأبدع في ذلك للطف ضرب الريشة ونقائه وخفته على الاصبع . وزاد في أوتار عوده وتراً خامساً ،وأنشأ مدرسة غدت معهداً كبيراً للموسيقى الأندلسية ، ثم تبعتها مدارس أخرى في إشبيلية وطليطلة وبلنسية وغرناطة . . . ويتلو زرياب مرتبة أبو القاسم عبـاس بن فرناس (المتوفى ٨٨٨ م) وإليه يعزى الفضل الأكبر في إدخال الموسيقى الشرقية إلى اسبانيـا وتعميمها ، ويقال إنه أول من استنبط في الأندلس صناعة الزجاج من الحجارة . وإنه صنع آلة في منزله على هيئة السماء يخيل للناظر فيها أنه يرى النجوم والغيوم والبروق .

وكان ابن فرناس أول رجل في تاريخ العرب حاول الطيران بطريقة علمية . وكانت عدته عبارة عن رداء من ريش كسا نفسه به وجعل له فيه جناحين ، وقد قيل انه طار في الجو مسافة ولكنه لم يحسن الاحتيال في وقوعـه فتأذى في مؤخرتـه لأنه لم يعمل له ذنباً . على أن الموسيقى النظرية والتطبيقية التي أدخلها زرياب وابن فرناس كانت فارسية عربية ،

وبتوالي الأعوام أخذت أصول الموسيقى اليونانية والفيثاغورية تحل محلها ، حين كانت الكتب اليونانيـــة التي تدور حول هـذا الموضوع تنقل إلى العربية . ومما يدل على سلطان الموسيقى والألحان على قلوب أهل الأندلس ما أورده ابن عبد ربه في العقد الفريد عن فضلها قال: « هي الصناعة التي هي مراد السمع ومرتع النفس وربيع القلب ومجال الهوى ومسلاة الكئيب وأنس الوحيد وزاد الراكب . . . وقد يتوصل بالألحان الحسان إلى خير الدنيا والآخرة فمن ذلـك أنهـا تبعث على مـكارم الأخلاق من اصطناع المعروف ، وصلة الرحم والذب عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب وقد يبكي الرجل بها على خطيئتـــه ويرقق القلب من قسوته ويتذكر نعيم الملكوت ويمثله في ضميره » .

وعلى العموم فان المسلمين الغربيين كانوا أكـثر ميلاً إلى فن السماع والضرب من زملائهم الشرقيـين . ولم يأت آخر القرن الحادي عشر حتى كانت الموسيقى الأندلسية قد كشفت شهرة بغـداد في هذا الموضوع ، وفي هذه الحقبة أصبحت اشبيلية تحت حـكم بني عباد الذين حكموا قرطبة أيضاً مدة وجيزة مركزاً للموسيقى والغناء وغيرهما من ضروب اللهو التي تقرن عادة بعصور العرب الزاهية في ربوع الاندلس . فالمعتمد العبادي لم يكن شاعراً ملهما فحسب بل كان يحسن الانشاد أيضـاً والضرب على العود ، واشتهرت عاصمة بني عبّاد بصناعة الآلات الموسيقية وتصديرهـا ، وهناك رسالة في الموسيقى ترجع إلى عصر المرابطين للفيلسوف ابن ماجـه (المتوفى ١١٣٨ م) الذي زها في اشبيليـة وفاس وهي مفقودة الآن ، ولكنها كانت عنـد أهل الغرب توازي من حيث قيمتها وأهميتها الرسالة التي ألفها الفارابي في الشرق ، وظهر في عهد الموحدين فيلسوف آخر هو

ابن سبعين « المتوفى ١٢٦٩م » بحث في تناسب الأنغام الموسيقية في كتاب الأدوار المنسوب » منه نسخة وحيدة محفوظة في القاهرة ، وحدث مرة في مناظرة جرت في حضرة المنصور ثالث ملوك الموحدين بين ابن رشد والرئيس ابي بكر بن زهر في المفاضلة بين قرطبة واشبيلية أن رد ابن رشد على ابن زهر بهذا الكلام مدافعاً عن قرطبة :

ما أدري ما تقول غير أنه إذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى اشبيلية . . .

اثرها في اوروبا : وكان كلما ازداد ارتياح عامة الشعب من الاسبان والمولدين إلى النماذج الغنائية العربية ازدادت الأغاني العربية انتشاراً وشعبية في أنحاء اسبانيا ، وقد لمع من العرب موسيقيون في قصور الملوك بقشتالة والأرغون ، وعرف كثيرون من أهل الرقص والغناء العرب في اسبانيا بعد سقوط غرناطة بيد الأفرنج بزمن طويل ، وكانوا لايزالون يعملون بواسطة فنهم على تسلية أبناء اسبانيا والبرتغال ، وتشير أبحاث ريبيرا الاخيرة إلى أن الموسيقى الشعبية في اسبانيا بل موسيقى الجنوب الغربي من أوربا بأسرها في القرن الثالث عشر وما بعده كانت كالروايات الغرامية الغنائية والتاريخية في الأقاليم مشتقة من منبع أندلسي انبثق في نشأته من مصادر عربية وفارسية وبيزنطية ويونانية ، كما انتقلت الفلسفة وعلم الرياضيات والطب من بلاد الإغريق وروما إلى بيزنطة وفارس وبغداد ثم إلى اسبانيا ومنها إلى انحاء اوربا انتقلت أيضاً عدة فروع من الموسيقى النظرية والعملية العربية إلى أوروبا . والواقع أن كثيراً من الآلات الظاهرة في الرسوم الاسبانية الدقيقة وصور بعض الأشخاص الضاربين عليها هي دون جدال إسلامية الأصل ، ومن الرسوم الاسبانية الدقيقة ما يظهر فيها موسيقيون عرب يلعبون

الشطرنج . وقد ورد في اللغة الاسبانية نفسها أول وصف لهذه اللعبة بلغة أوروبية وذلك في مؤلف لألفونسو العاشر ملك قشتالة وليون من عام ١٢٥٢ إلى ١٢٨٢ م . وكان الفونسو من أعظم دعاة العلوم الاسلامية في اسبانيا النصرانية واليه يرجع الفضل في وضع تلك المجموعة الشعرية الرائعة التي ترجع موسيقاها في رأي ريبير إلى أصل اندلسي اسلامي ، وقد أثر الشعر العربي على ظهور طبقة « التروبادور » الذين أخذوا يحاكون منشدي العرب ، لا من حيث العاطفة والطبيعة فحسب ، بل من حيث الصور والأشكال نفسها التي أخرجوا فيها أناشيدهم ، وقد كانت بعض العناوين التي أطلقها شعراء البروفنسال هؤلاء على مقطوعاتهم الغنائية ترجمة لعناوين عربية . والراجح أن أدلارد أوف باث الذي درس الموسيقى في باريس هو الذي ترجم رسالة الخوارزمي في الرياضيات وكان فيها قسم عن الموسيقى . ومن هنا فان هذه الرسالة هي من أقدم الرسائل التي أدخلت الموسيقى العربية إلى عالم اللاتينية . وكان في حوزة العرب منذ أيام ادلارد في الشطر الأول من القرن الثاني عشر رسائل اغريقية قديمة تعنى بالموسيقى مترجمة إلى العربية ، وعرفوا كذلك مؤلفات الكندي والفارابي وابن سينا وابن ماجه التي وضعوها هم أنفسهم في هذا الفن . ولم يأت آخر القرن حتى أصبحت أكثر هذه المؤلفات الجديدة معروفة في أوروبا بفضل ترجماتها اللاتينية التي وضعت في طليطلة . ومما يجدر ذكره هنا أنه في هذا العهد نفسه ظهر نظام جديد للموسيقى المسيحية الأوروبية يقوم على أن للنوتات والارقام الموسيقية قيماً وقتية محدودة أو نسبة معينة فيما بينها .

وأول من شرح حقيقة هذه الموسيقى القياسية أو الغناء المقيس ، رجل غامض الهوية اسمه فرانكو الكولوني « نحو ١١٩٠ م » وليست أرقامه

الموسيقية المعروفة بالأرقام الفرنكونيـــة لتختلف في أصلها عن أرقامنا الحديثة . ولكن هـذه الموسيقى القياسيـة نفسها كانت تشكل قسما قائماً بذاته من الموسيقى العربية وكانت تعرف باسم الايقاع ، وذلك قبل عصر فرانكو المذكور بما لا يقل عن أربعة قرون ، وقد أفاض الكندي (لمع نحو ٨٧٠ م) في ايضاحها ، وقد ظهرت بعد فرانكو رسالة منسوبة إلى جون أوف غارلنـد عولجت فيها أصول الـ « أوكيتس » أي « أسلوب التوقيع » ، ولعل لفظة « اوكيتس » نفسها هي تحريف لفظة ايقاعات العربية . والراجح أن الموسيقى القياسية هي أعظم ما نفح به العرب هذا الفن ، ولم تكن المأثرة الوحيدة في هذا المضمار، زد على هذا أن الآ لتين اللتين كان لهم السهم الأوفر في تقدم فن الموسيقى في الغرب هما « العود والرباب» وكلاهما دخيلان نقلها العرب إلى غربي أوروبا .

حياة الترف في المدن : إذا كانت الصحراء باقليمها الجاف تدعو سكانها لأن يعيشوا عيشة جافة خشنة ، ولأن يـكافحوا في سبيل الحياة ، فان حياة السهول الخصبة والمياه الجارية ، والاقليم المعتدل اللطيف ، تساعد سـكانها على أن ينعموا في ظلالهـا الوافرة، وخيراتها المتدفقـة ، وكان العرب الأوائل الذين خرجوا من الجزيرة العربية وفتحوا بـلاد الهـلال الخصيب وأطرافه الشرقيـة والغربيـة ، لا يزال تغلب عليهم البداوة ، والحياة الصحراوية ، ولا يزال الدين الجديد مسيطراً على كل حركة من حركاتهم ، فنظروا إلى متاع الدنيا وزخرفها نظرة ازدراء ، ولم ينغمسوا في نعيم ، اللهم إلا في بعض مظـاهر ، كالاحتفـاظ ببعض النفائس التي غنموها في الحرب ، أو باتخاذ كثير من الرقيق والاماء ، واتخاذ بعض الدور الحجرية العالية ، وتحسين أنواع الطعـــام . وكان معاوية قد قلد الاكاسرة بظاهر السلطـان وأبهـة الملك ، حتى يظهر — كما قاله لعمر بن

الخطاب ـ قوة المسلمين وعظمة أمرائهم . وكان العصر الأموي عصر نزاع بين حياة البداوة الجافة ، وبين الحياة المتحضرة المنعمة ، فكان هناك خلفاء يشجعون الغناء والموسيقى ، ويقضون ساعات من اللهو والمجون كيزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك ، وخلفاء أتقياء يقضون أيامهم في الجد وإدارة الملك كمعاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز ، وكان من ورائهم الشعب ، تارة تظهر عليه مظاهر التمتع بحياة الترف ، وأخرى تظهر عليه مظاهر الورع والتقوى والزهد بالدنيا . ولما نقلت العاصمة الاسلامية إلى بغداد ، وطغى الفرس ثم الأتراك والبويهيون والسلاجقة على السلطان والحكم ، وانفصلت الدول الصغيرة واستقلت ، وقامت دولة الامويين بالأندلس ، وانتشرت التجارة وتحسنت طرق المواصلات ، وتدفقت الأموال بكميات هائلة ، واغتنت طبقة كثيرة العدد ... تمتع السكان بحياة من الترف لم يعرف في العصر الاسلامي الأول ، وانتشرت عادات وتقاليد جديدة تزيد الانسان انغماساً في اللهو والمجون ، وتمسكاً بالحياة .. ولكن النزعة الدينية الشديدة لم تنعدم ، فبقي الصراع بين إرخاء العنان للجسد للتمتع باللذات الدنيوية ، وبين تقديس الروح وكبح جماح النفس وكثرت مظاهر الفريق الأول في المدن وفي بلاط الخلفاء والأمراء والأغنياء ، ومظاهر الثاني بالريف والصحراء ودور العلم والمساجد في المدن ، ولا نبالغ إذا قلنا إن المدن العربية كبغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة كانت في العصور الوسطى أشبه بعواصم العالم المتمدن في العصر الحاضر ، بسعتها وعظمتها ، واحتوائها على المتناقضات ، فالى جانب القصور العظيمة ومظاهر الأبهة ترى الأكواخ الفقيرة والحقيرة ، وإلى جانب طبقة غنية تصرف الملايين في حفلاتها وموائدها وزينتها ، طبقة فقيرة تكدح ليل نهار لتجد

لقمة طعام تسد به رمقها ، وإلى جانب مجالس العلم والأدب والدين والترجمة والنقل والتأليف والمناظرات تجيء مجالس الانس والشراب والمنادمة ... ولم تكن بغداد وخاصة في العصر العباسي ، باقل من باريز أو نيويورك في العصر الحالي ، يجد فيها المرء ما ينبغي مهما تعددت مشاربه وتنوعت أهواؤه ، من جامعات وأكاديميات ومكتبات وعلماء وأفاضل ، ومن دور للهو والمجون ، وحانات للخمر والدعارة ، ولعل أهم مظاهر الترف في المدن كان في الطعام والشراب ، والملبس والمسكن والحفلات والمآدب والأعياد وأنواع التسلية ...

في الطعام والشراب : بعد أن كان عمر يحاسب ولاته إذا بلغه أنهم يكثرون من أنواع الطعام على موائدهم ، صار الخلفاء والامراء والاغنياء يتسابقون إلى إقامة الولائم العظيمة وتقديم أنواع الأطعمة اللذيذة ، وفي كتب الأدب ذكر كثير من أنواع الطعام التي صار يتناوله العرب ، ووصفه وطريقة صنعه كالسكباج (ويشبه اللحم المطبوخ بالخل) والفالوذج واللوزينج والخشاف والجلاب والقطايف ، والهريسة وكلها أنواع من الحلوى.. كما أن الشراب كثر وظهرت أنواع من المشروبات ، ولم يتورع حتى بعض الخلفاء عن تناولها ، وفي خمريات أبي نواس كثير من وصفها . ويصف فيليب حتي تطور الذوق العربي في الطعام والشراب ويقول : « وكان الطعام يقدم في أطباق نحاس واسعة مدورة على موائد واطئة أمام الدواوين أو على الأرض مقابل الوسائد ، وفي منازل الأغنياء كانت الأطباق تصنع من الفضة ، والاخونة من الخشب المنقش بالابنوس واللؤلؤ أو الصدف على طراز المصنوع اليوم في دمشق ، هذا هو الشعب العربي نفسه الذي كان سابقاً في شظف العيش وخشونته يفاخر بأكل العلهز (وبر الابل مطبوخاً بالدم) ، والذي حسب أبناؤه الأرز لأول وهلة سما ،



الشكل — ١٣٠ —
احدى نقوش قطعة نسيج صنع في غرناطة وتمثل شاعرين اندلسيين يتساجلان في جلسة شراب

وظنوا المرقق من الخبز رقاعاً للكتابة : هذا الشعب تهيأت له الآن أسباب الحضارة فهذبت شهوته للطعام المريء ، وجعلته يستطيب لذائذ المدنية فصار يأكل من طعام الفرس السكباج والفالوذج ، وأصبح دجاجه يعلف بالجوز واللوز المقشر ويسقى الحليب . وصارت منازله في الصيف تبرّد بالثلج ، ومرطباته قوامها الماء يذاب فيه السكر ويعطر بماء البنفسج والموز والورد أو بعصير التوت » وقد قال أحد الشعراء :

قطائف قد حشيت بالموز   والسكر المادي حشو الموز
تسبح في آذي دهن الجوز   سررت لما وقعت في حوزي

في الملبس والمسكن : أخذ الناس يكثرون من ارتداء الالبسة المصنوعة من الديباج الخاص ، أو المخلوطة بالقطن والكتان ، وأكثر الخلفاء من الخلع وهي منح موظفيهم أنواعاً من الملابس في مناسبات مختلفة . وكان عند الخلفاء ديوان باسم **ديوان الطراز** ، وسمي في العهد الفاطمي باسم

دار الكسوة ، وكان للجند في العصر العباسي ملابس معينة حسب أجناسهم ورتبهم ، وتفننت النساء في اتخاذ أنواع اللباس المصنوع في شتى أنحاء الأرض ، وكانت أغطية الرأس عند الطبقة الغنية منهن ترصع بالجواهر ، وتحلى بسلاسل ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة ، كما كن يزين رؤوسهن بحلي مسطحة من الذهب ، ويلففن حولها عصابة منضدة باللؤلؤ والزمرد ، ويلبسن الخلاخل في أرجلهن كما استعملن أنواعاً من التجميل الصناعي .

أما المسكن ، فقد ذكرنا في كلامنا عن القصور وصفاً لبعض قصور الخلفاء ، وكان اقتناء الدور الواسعة ، وفرشها بأفخر الرياش والاثاث شائعاً عند كل ذي سعة من المال ، وروت الأخبار أن السيدة زبيدة زوج الرشيد كانت تصنع أعمالاً تفوق مقدرة الملوك ، كمثل اصطناعها بساطاً من الديباج جمع صورة كل حيوان من جميع الأجناس ، وصورة كل طائر من الذهب ، وأعينها من يواقيت وجواهر ، ويقال أنها أنفقت عليها نحو ألف ألف دينار ؛ وكمثل اتخاذها الآلة من الذهب المرصع بالجوهر ، والثوب من الوشي الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار ، والقباب من الفضة والابنوس والصندل عليها الكلاليب من الذهب الملبس بالوشي والديباج والسمور وأنواع الحرير ، وكمثل اتخاذها شمع العنبر واصطناعها الخف مرصعاً بالجوهر ... »

في الحفلات والمآدب والاعياد : احتفل المسلمون الأوائل احتفالات دينية بالعيدين : الفطر والأضحى ، وقد اقتبس الامويون ثم العباسيون ومن عاصرهم وأتى بعدهم عادة اقامة الاحتفالات الرسمية في كثير من المناسبات فاحتفلوا بعيد النيروز في أول الربيع ، والمهرجان ، في آخر العام وهما عيدان فارسيان قديمان . كما احتفل ولاة مصر وقادتها بعيد وفاء

النيل ، واحتفل الشيعة والفاطميون بيوم عاشوراء ومولد علي والحسن والحسين وفاطمـــة ، كما كثر الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ، ونصف رجب وأول ونصف شعبان وغيرها . وكانت المدن الكبرى تزدان بالأنوار ليلا وتتجاوب أصوات المسلمين بالتهليل والتكبير ، وتزدحم أنهار المدن النهرية الكبرى كبغداد والقاهرة بالزوارق المزينة بأبهى الزينات التي تسطع من جوانبها القناديل ، ويخرج الناس إلى الطرقات ويتبادلون الهدايا ، ويقيمون المآدب ويتزاورون ؛ كما أن الخلفـاء والأمراء أكثروا من استعراضـات الجند في كثير من المناسبات كالأعياد ، والسفر للقتال ، والعودة من النصر وكانت مواكب الخلفاء يوم ارتقائهم العرش وفي غدواتهم وروحاتهم تختلف جمالاً وروعة باختلاف المناسبة وقوة الخليفة أو الأمير أو صاحب الدولة المستقلة وغناه ...

وقد أكثر الخلفاء والأمراء والأغنياء من المآدب وتباهوا بعدد طباخيهم وكميات السمن والدقيق والحلوى وأنواع الخضر واللحوم التي يستهلكها كل منهم في الأسبوع ، وفي المناسبات المختلفة كشهر رمضان وأيام الأعياد .

وبرزت مظاهر الترف في حفلات الزواج وغيرها من الحفلات الخاصة ، وحفلات استقبال رسل الخليفة عند الامراء أو رسل الملوك الأجانب عند الخلفاء ، فكان الجند يصطف على الطريق لمسافات بعيدة ، بأبهى ملابسه وأتم استعداداته ، ويستقبل الرسول بالموسيقى ويُركب على أحسن الخيول أو في أجمل العربات وأكثرها زينة ، وينزل في قصور مؤثثة تأثيثاً يدل على غنى المضيف وقوته ، ويقدم للسفراء أو الرسل أنواع الهدايا .

ويتجلى اسراف خلفـــاء العصر العباسي الأول وبـذخهم في حفلات الزواج بما فعله المهدي عند زواج ابنه هارون الرشيـد بالسيدة زبيدة فقد

أقام ليلة زفافها وليمة لم يسبقه إليها أحد في الاسلام . ووهب الناس في ذلك اليوم أواني الذهب المملوءة بالفضة ، وأواني الفضة مملوءة بالذهب والمسك والعنبر ، وزينها بكثير من الحلي والجواهر ، حتى أنها لم تقدر على المشي لكثرة ما عليها من هذه الحلي والجواهر .. وقد أكدت السيدة زبيدة ... ان نفقات هذا الزواج كانت تتراوح بين خمسة وثلاثين مليون درهم وسبعة وثلاثين مليون ...

ووصف المقريزي جهاز قطر الندى ابنة خمارويه الطولوني عند زواجها من الخليفة المعتضد العباسي « فمن هذا الجهاز دكة من أربع قطع من الذهب عليها قبة من ذهب مشبك ، وفي كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من الجوهر لا يعرف لها قيمة ، ومائة هون من الذهب لدق الطيب ، والف تكة ثمن الواحدة عشر دنانير » .

أنواع التسلية : وهناك أنواع من التسلية للعامة والخاصة ، كالنرد والشطرنج ، والرمي بالنشاب ، والصيد ، ولعبة الجوكان وتكون بعصا معقوفة وتشبه لعبة البولو ، التي يسمونها القراح أو الطبطاب ، والسباحة ، والمصارعة وتربية الحيوانات المختلفة واقامة حدائق الحيوانات ، وخاصة في مصر في عهد الطولونيين ومن أتى بعدهم .

وكان الشطرنج ارفع الألعاب الذهنية التي يمارسها كبار رجال الدولة وقد ذكر أحد المؤرخين الألمان ان الهندوس الذين حرم عليهم القتل وسفك الدماء اخترعوا الشطرنج للقتل البريء ، القتل الذهني .

وذكر القلقشندي في صبح الاعشى أن الشطرنج من وضع حكماء الهند وضعه صلصة بن داهر الهندي لملك الهند « بلهب » مساواة لارديشيرين بابك في وضعه النرد . وعرضه على حكماء زمانه فقضوا بتفضيله .

وقد ادخل العرب بعد اقتباسهم لعبة الشطرنج بعض التعديلات على رقعته ، ونقلوه إلى اسبانيا ومنها انتشرت معرفته في جنوب فرنسا فأوربا والعالم . وفي مخطوطة في مكتبة الاسكوريال بمدريد تنسب إلى الفونس الحكيم الاسباني من القرن الثالث عشر الميلادي صورة لشطرنج يلعب به عرب اندلسيون بجوارهم عازفون ويعزفون على آلات موسيقية وتدل ملابسهم على أنهم عرب ، وذكر في مكان آخر بأن الشطرنج وصل بلاد أوربا للمرة الأولى عام ١٠٠٨ م .

ولعبة الشطرنج كانت لعبة الطبقة الارستقراطية في العصر العباسي ، مارسها الرشيد والمأمون ، واقيمت لها المباريات الشيقة وبرز فيها عدد من أعلام الناس من أمثال : العادلي والراضي والماوردي والصولي وأبي القاسم التوزي الذي سمي بالشطرنجي . ووصف هذه اللعبة عدد من الشعراء كابن الرومي وابن المعتز .

* * *

الفصل الثامن عشر

الحياة الفكرية

الثقافات السابقة للاسلام في الشرق الادنى

خرج العرب من الجزيرة مع الفتوح الكبرى يحملون عنصرين من عناصر الثقافة الاسلامية المقبلة : اللغة العربية (كعنصر جاهلي) والدين الاسلامي (من عهدهم الجديد) وقد وصلوا في الفتوح الواسعة الى الاندلس ومراكش غرباً والى التركستان وحوض السند شرقاً . ووقفوا عند هضبة الاناضول شمالاً . ولم تكن هذه المناطق الشاسعة محرومة من الحضارة ، بل بالعكس كانت بعض بقاعها تمثل في حضارتها خلاصة ما ابدع الانسان في العصور القديمة كلها من حضارةراقية ، وأبرز هذه الحضارات ثلاث :

١ ــ الثقافة اليونانية ومنطقتها تمتد ضمن مثلث الاسكندرية ــ القسطنطينية ــ نصيبين أي تضم البلاد القائمة على الحوض الشرقي للبحر الابيض المتوسط .

٢ ــ الثقافة الفارسية ومنطقتها هضبة ايران .

٣ ــ الثقافة الهندية وقد مسها العالم الاسلامي مسا محدوداً في حوض السند.

الثقافة اليونانية

١ ـ **الثقافة اليونانية :** اخصب الفكر الانساني في أرض اليونان في وقت مبكر من تاريخ البشرية ، ونمت في بلاد اليونان فلسفة عقلية راقية ، ونظمت العلوم ، وحاول العقل البشري ان يتعرف الى كنه الاشياء التي تقع عليها عينه ، بل حاول التعرف الى ما وراء الظواهر المرئية ، فاخترق الحجب ، وبحث فيما وراء الطبيعة ، وظهر من بني الانسان في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد بضعة عقول لا تزال موضع دهشة العالم بتفكيرها العميق ، وبحثها الدقيق ، ولا يزال فلاسفة يومنا هذا يترسمون خطاهم ، ويبنون على الاسس العقلية التي وضعوها .

وعرفت الثقافة اليونانية عند الكتاب باسم الحضارة الهيلينية نسبة الى هيلين الجد الاكبر الخرافي للشعب اليوناني ، وقد انتشرت هذه الحضارة الهيلينية مع امتداد نفوذ الاغريق التجاري الاستعماري ، ولما فتح الاسكندر المقدوني الشرق امتزجت الثقافة اليونانية بروح الشرق فنشأت ثقافة مزيجة عرفت بالهيللنستية، وأخصبت عدة مراكز في الشرق ، حملت مشعل هذه الثقافة المزيجة التي كانت لحمتها فلسفة اغريق بلاد اليونان ، وسداها الروح الشرقية ووحي الشرق والهام الشرق ، حملت هذا المشعل مراكز شرقية جديدة في الاسكندرية وانطاكية وغيرهما في وقت خبا هذا المشعل نفسه في بلاد اليونان ، حتى ان امراً رسمياً اغلق مدارس الفلسفة في اثينا مرة واحدة (٥٢٩ م) . ولما جاء الاسلام وجد في البلاد التي انضوت تحت لوائه الثقافة اليونانية والشرقية مزدهرة .

الاسكندرية : بنى الاسكندر اثناء فتوحاته ثلاث عشر مدينة جديدة سميت الاسكندرية لتخلد اسمه ، كانت اكبرها وأعظمها تلك المدينة التي خطها في كانون الثاني ٣٣١ قم على الساحل المصري للمتوسط والتي ميزت باسم « الاسكندرية العظمى » .. وما لبثت هذه المدينة أن اصبحت حاضرة دولة البطالمة حكام مصر الاغريق ، الذين عملوا جاهدين ان يرقوا بها الى زعامة العالم القديم ، وأصبحت

في عهدهم مدينة عالمية تظهر صفتها العالمية في اختلاف اجناس سكانها وكثرة علمائها وآلاف قصادها من الطلبة والتجار والمهاجرين .

وفي الاسكندرية نشأت مذاهب فلسفية كثيرة : الفيثاغورية المتأخرة ، الافلاطونية المهودة ، الافلاطونية الحديثة . وفي الاسكندرية نما علم الطب ورتب ، وفيها نبت علم الكيمياء وتكونت النواة الاولى له ، وفيها تقدمت الرياضيات والفلك ، ولمع في سماء الفكر الانساني اسماء علماء الاسكندرية : ايراتوستين الذي اشتغل بالتاريخ والفلسفة والفلك والجغرافيا خاصة ، واقليدس العالم الرياضي ، وتيو كريت الشاعر ، وبطليموس القلوذي صاحب كتاب المجسطي أشهر كتب الفلك في العصور القديمة ، وافلوطين مؤسس المدرسة الافلاطونية الحديثة .

انطاكية : إذا استثنينا الاسكندرية ، فالمركز الرئيسي للحضارة الهيللنستية كانت سوريا ، وقد سار السلوقيون ، حكامها الاغريق ، على غرار الاسكندر الاكبر في انشاء المدن ورعاية العلم والادب والفن والفلسفة ، فسلوقس الاول وحده أنشأ ما لا يقل عن ٧٥ مدينة جديدة على الطراز اليوناني ، الا ان انطاكية ذهبت بفخار المدن السورية الاغريقية . وبقيت حاضرة الدولة السلوقية السياسية والعلمية دشنها سلوقس الاول في ٢٢ مايس ٣٠٠ ق‌م . في موقعها الممتاز على نهر العاصي ، وقدم للآلهة ضحية بشرية ، فتاة جميلة ، لتحفظ المدينة من الزلازل .

اشتهرت انطاكية منذ أواسط القرن الرابع الى أواسط القرن الخامس الميلادي انها أولى المدن المسيحية التي قام زعماء الدين فيها بحركتهم الفكرية التي كانت ذات أثر كبير في شيوع الفلسفة اليونانية خاصة ، هذه الحركة التي بحثت طبيعة السيد المسيح ، وخلقت مذاهب لاهوتية خاصة .

الافلاطونية الحديثة : نشأ في الاسكندرية مذهب فلسفي درج كتاب العرب على

تسميته بالافلاطونية الحديثة ظناً منهم على انه مذهب مشتق من فلسفة أفلاطون[1] وقد حاول واضعوه ان يوفقوا بين الفلسفة اليونانيـة وبين التعـاليم الدينية ، اليهودية والمسيحية ، ويعرف هذا المذهب عند كتاب الغرب باسم ما بعد الافلاطونية Neo - Pltonismus • ويرى كثير من مفكري اليـوم انـه « ليس فلسفة ولا هو افلاطوني، وانما هو مزيج ملفق شوهت فيه فلسفة افلاطون وأرسطو » لان واضعيه ، أخذوا في سبيل تحقيق غايتهم الدينية يجمعون ويضمون الآراء التي توافقهم بعضها الى بعض ، ويمكن ان نقسمه الى مذهبين يجمعهما اسم المذهب الاسكندراني وهما :

آ ــ الافلاطونية المهودة : وزعيمها فيلون اليهودي (٢٥ قم ــ ٥٠ م) الذي تنبه الى أن الفلسفة اليونانية قد زعزعت أسس الروايات الدينية ، وان البشر اقتنعوا بالفلسفة وصحـة براهينها اكثر مما اقتنعوا بروايات التوراة واخبار الملوك فحاول القيام بأمرين متصلين بعضهما مع بعض : اقامة أدلة فلسفية على صحـة الدين اليهودي عموماً وتأويل الروايات الدينيةعلى شكل لا يخالف الفلسفة • فاستعان فيلون للبرهنة على صحة التوراة ، بالآراء الفلسفية الاغريقية من رواقية وافلاطونية وبالحكم المروية عن سليمان ، واخذ يشرح التوراة شرحاً رمزياً ، فهو مثلاً يذكر أن « حواء » كناية عن « الحس » وان الحية التي وسوس الشيطان بواسطتها لحواء حتى أكلت من الشجرة المحرمة كناية عن « اللذة » ولم يستطع فيلون الاسكندراني ولا غيره من فلاسفة الافلاطونية اليهود ان يستمروا في فلسفتهم

---

(١) افلاطون ٤٢٧ ــ ٣٤٧ ق.م . فيلسوف يوناني . كان شاعرا ثم تعرف على سقراط ، فكره الشعر . ومال الى الفلسفة ، وترك لنا كتبا عديدة اشهرها ، كتاب السياسة المعروف باسم « جمهورية افلاطون » . وفلسفة افلاطون مثالية ، فقد حاول ان يتخيل نظاما للوجود ، وان يرد اعمال البشر وسلوكهم الى مقاييس من الخير والجمـال ؛ فتصور في جمهوريته العالم كما يجب ان يكون ليعيش في مثل اعلا من الخير والجمال. ولذلك قيل ان جمهوريته لايستطيع ان يطبقها الا مخلوقات هم نصف آلهة .

من التناقض والضعف ، وان يخفوا تشويههم للفلسفة الاغريقية بمحاولتهم التوفيق بينها وبين تعاليمهم الدينية •

ب ـــ الافلاطونية الحديثة : ومؤسسها الاول امونيوس (١٧٥ ـــ ٢٤٢ م) الملقب « سكاس » أي الحمال ، اذ كان في أول أمره حمالا ثم صار معلم فلسفة في الاسكندرية ، وقد ولد من أبوين نصرانيين ، ثم صبأ الى الدين اليوناني القديم ، وحاول التوفيق بين تعاليم افلاطون وارسطو ونسب مذهبه الى تلميذه « افلوطين » (٢٠٣ ـــ ٢٦٩) وهو من مدينة اسيوط وتعلم الفلسفة في الاسكندرية ، وتنقل في آسيا حتى بلاد فارس وأسس في روما مدرسة فلسفية ، وترك كتبا عديدة أطلق عليها اسم التاسوعات Enneads وتفرع مذهبه الى فروع كثيرة أهمها فرع الاسكندرية وفرع الشام وفرع أثينا •

واذا مالت الافلاطونية الحديثة أو الافلوطينية أول أمرها الى البحث والتفكير العقلي المحض ، وناصرت الوثنية اليونانية ضد النصرانية ، فان انتصار النصرانية فيما بعد ، باغلاق جوستيان مدارس الفلسفة في اثينا واضطهاده الفلاسفة ، دفع الفلاسفة المتنصرين الى اخراج كتب في الافلاطونية الحديثة مصبوغة بالصبغة النصرانية ، وأصبح كتاب « ديونيسوس » الذي ألفه افلاطوني مجهول اتخذ اسم ديونيسوس وادعى انه من تلاميذ بولس الحواري ، أصبح هذا الكتاب عمدة لرجال الدين المسيحي في البحث الفلسفي لانه شرح أسرار الربوبية ودرجات عالم الملكوت والكنيسة السماوية على المذهب الافلوطيني [1] •

---

(١) اكثر ما اهتم به افلوطين بحث الاله الذي صدر عنه العلم ، وهو « الواحد ، المطلق ، العلة الاولى » وانه مصدر الاشياء كلها ولكنه يخالفها كلها لانه ليس عقلا ولا نفسا ولا متحركا ولا ساكنا ، وليس في زمان ولا مكان ولكنه « كائن مطلق » بسيط لايدركه الوصف لانه فوق الادراك و « الواحد » كاملة في نفسه لايحتاج الى شيء بينما كل شيء يحتاج اليه .

ومن اشهر تلاميذ افلوطين فرفوريس من اهل مدينة صور الذي هاجم التوراة مهاجمة عنيفة واقام الدليل على ان بعض اجزائها كتب في وقت متأخر وتتلمذ عليه ايامبليخنوس من اهل قرية عنجر في البقاع ، وهو الذي اسس الفرع السوري للافلاطونية الحديثة .

دور السريان في نشر الثقافة اليونانية : السريان هم من سكان ما بين النهرين ، ساهموا في نشر الثقافة اليونانية وخاصة المذهب الاسكندراني في الفلسفة ، فأنشؤوا نحو خمسين مدرسة في العراق وما حوله ، تعلم اللاهوت (الفقه المسيحي) باللغة السريانية ، ولم يبتكر السريان جديداً ، ولم يضيفوا على الافلاطونية الحديثة شيئاً ولكن دورهم كان بالترجمة وحفظ هذه الفلسفة بعد أن ضاع كثير من أصولها الاغريقية ، وكانت الترجمات هذه هي الاساس الذي اعتمد عليه العرب والمسلمون أول اتصالهم بالثقافة اليونانية •

وامتازت اللغة السريانية ـ وهي احدى اللغات الآرامية ـ انها بقيت مدة طويلة ، لغة كتاب النصارى في انطاكية وسوريا وفي العراق ودولة فارس ، وكان القسس والرهبان يتعلمون اليونانية والسريانية جنباً الى جنب ويكتبون بهما معاً • وأهم المراكز الثقافية التي انشأها السريان هي :

أ ـ الرها E dessa تقع اليوم على الحدود السورية داخلة في أملاك تركيا وبقيت خلال مدة طويلة من الزمن مركزاً للثقافة السريانية ، وأسس فيها النساطرة من النصارى مدرسة فلسفية ، واهتم أهل الرها باللاهوت والطب والمنطق ، فترجموا كثيراً من كتب ارسطو وافلاطون وفيثاغورث • واتهم الامبراطور زينون الايساوري أهل الرها بالتطرف في آرائهم فأغلق مدرستهم ٤٨٩ م ، فانتهز الفرس الساسانيون هذه الفرصة ودعوا علماءها الى املاكهم ، فهاجروا الى مدينة جديدة هي :

ب ـ نصيبين : حيث أسس النساطرة مدرستهم التي رفعت الفلسفة السفسطائية فوق كل علم ، واعتبروا القسيس طبيب الروح ، والطبيب مرقع الجسد ، واهتموا بالافلاطونية الحديثة •

ج ـ حران : وتقع قريباً من الرها ، في الجزيرة الفراتية ، وتمتاز بأن أهلها بقوا على عبادة الكواكب والاوثان ، وسموا انفسهم في عهد المأمون باسم الصابئة

على خلاف أهل نصيبين والرها النصارى • واشتهر أهل حران بالرياضيات والفلك والطب •

وبقيت حران مدة طويلة ملاذاً لكل فار يوناني من المسيحية ، ومن الاضطهاد الديني الجدلي ، فأصبح دين اهلها مزيجا من الديانة اليونانية القديمة ، والبابلية ممزوجة بتعاليم الافلاطونية الحديثة •

د ـ جنديسابور : بناها سابور ملك الفرس في جنوب غربي فارس (الاهواز) واسكن فيها اسراه من اليونان الذين حملوا معهم بذور الثقافة اليونانية ، ولما اضطهد جوستنيان الفلاسفة الاسكندرانيين في مملكته ، استقبل كسرى أنو شروان اللاجئين اليه منهم واسكنهم جنديسابور وبنى لهم مارستانا (مدرسة طبية) • لذلك اشتهرت هذه المدينة بالطب التي كاد يحتكره ابناؤها ، وجمعت جنديسابور الى جانب الثقافة اليونانية باللغة السريانية ، الثقافة الهندية باللغة الفهلوية والثقافة الفارسية ، فكانت ملتقى لثالوث فكري هام •

* * *

٢ ـ الثقافة الفارسية

الثقافة الفارسية : كانت مزيجا مختلف النسب من ثقافة ما بين النهرين القديمة والثقافة اليونانية المتمثلة في مدرسة جنديسابور وثقافة الهند • واذا توجت الفلسفة الفكر اليوناني ، فان الناحية الدينية هي التي اخذت على الفرس تفكيرهم ، وهي التي حفظت آدابهم وعلومهم ، كما شغلت النواحي الادارية والتنظيمات السياسية جزءاً كبيراً من حياتهم العقلية •

ولغة الفرس وآدابها تقسم الى قسمين : اللغة القديمة واللغة الفهلوية •

أ ـ **اللغة القديمة :** وتتمثل في آثار الدولة الفارسية القديمة « الكيانية » التي أسسها كزر كسيس (كورش) ونبغ فيها ابنه قمبيز ثم دارا الاكبر ، وقد بقي من هذه اللغة ما يزيد عن أربعين نقشا تاريخيا اكثرها مرقوم بلغتين آخرتين الى جانب اللغة الفارسية القديمة ، وهما الآشورية والعيلامية ، وهذا ما ساعد على قراءتها وترجمتها واشهرها نصوص نقوش دارا في صخرة بهيستون •

كما تتمثل اللغة أيضاً بكتاب (ابستاق) وهو الكتاب المقدس عند الفرس[1] •

ب ـ **اللغة الفهلوية :** وهي لا تختلف عن الفارسية الحديثة الا في الخط ، وهي

---

(١) ينسب هذا الكتاب الديني الى اشهر انبياء الفرس وهو زرادشت ، وهو مؤلف من قسمين : افستا Avesta وشرحه زندا فستا . ويجمع بين دفتيه احدى وعشرين سورة تقع كل منها في مائتي ورقة كانت مقسمة الى ثلاثة أجزاء متساوية تبحث في العقائد والعبادات (كاسانيك) وفي المعاملات (داتيك) وفي الفلسفة والعلوم (هتاك مانزريك) وقد ضاع أكثرها ، وحفظ بعضها مترجما الى اللغة الفهلوية وهو ما كان يقراه الفرس في صلواتهم قبل الاسلام .

سهلة القراءة ، وقد أثرت تأثراً شديداً في الآداب الفارسية الحديثة • وقد وصلتنا من هذه اللغة عدة نقود لملوك الساسانيين ، وللخلفاء الامويين قبل عبد الملك، كما وصلتنا انصاب تاريخية لا يزال بعضها قائما ، واشهرها نقش البارسيين في جهات بومباي في الهند يرجع للقرن الخامس الميلادي ، أما الكتب المكتوبة بهذه اللغة فهي كثيرة ، حتى أن بعضها كتب في عصر اسلامي متأخر لان علماء الزرادشتيين لم ينقطعوا عن الكتابة بهذه اللغة حتى اليوم • لهذا فان الآداب الفهلوية أغزر مادة ، وأوسع موضوعا وأجدر بالعناية من اللغة القديمة •

وأهم الآداب الفارسية المكتوبة بهذه اللغة هي :

أ ـ زندا : وهو شرح أفستا الكتاب الديني الزرادشتي • وتضم حوالي سبعين كتاباً ، وليست فهلوية خالصة في اسلوبها لانها تساير الابستاق في لغته •

ب ـ كتب دينية مختلفة من زرادشتية ومانوية ومزدكية ، منها كتاب تاريخ دين زرادشت وعقائده وفرائضه (دمنكرت) وقد كتب في القرن الثالث الهجري • وكتاب بيان ينفي الشك ، وهو يدافع عن مثنوية الدين الزرادشتي ضد عقائد اليهود والنصارى والمسلمين • والمانوية وهو أقرب الكتب جميعها الى البحث الفلسفي وكتب في القرن الثالث الهجري أيضاً ، ثم كتاب الشاهنامة الفهلوية (شاهنامة كشتاسب) وهو أقدم قصة حماسية فهلوية الفت في القرن الخامس الميلادي ويبحث في حروب احد ملوك الفرس المسمى كشتاب ضد ارجاسب ملك توران • وكتاب تاريخ اردشير المعروف في الكتب العربية باسم الكارنامج وكتب في القرن السادس الميلادي ويبحث في القصص التاريخية للعهد الساساني وهو من اعظم مصادر شاهنامة الفردوسي •

الاديان الفارسية : عبد الفرس منذ القديم المظاهر الطبيعية ، واشتهر عندهم آلهان اثنان هم : أهورمزدا واهريمان ، ورمزوا لاحدهما بالنور وللثاني بالظلمة

وهما في نزاع دائم ، لان كل ما في الطبيعة حسب رأيهم انما هو نزاع بين قوتين : قوة الشر وقوة الخير ، فرمزوا للخير بالنور وللشر بالظلام ودعوا الى تأييد آله الخير ضد اله الشر ، واشعلوا النار الدائمة في معابدهم لانها رمز الضوء أو رمز آلهة الخير ، ومن هنا نشأت عبادة النار عندهم [1] • ووجد عند الفرس عـدة أنبياء أهمهم ثلاثة :

أ ـ زرادشت Zoroaster : وهو أهم انبيائهم ، ظهر نحو منتصف القرن السابع ق•م• ومات عام ٥٨٣ ق•م• وعمره ٧٧ عاماً على أصدق الروايات ، وأيد هذا الفيلسوف المذهب الديني السابق بأن هناك نزاعا دائما بين قوتي الخير والشر ، وبين النور والظلمـة ، والخصب والجدب ، وأضاف الى ذلك انه :

١ ـ وحد بين آلهة الخير بشخص : اهورامزدا •• وحصر آلهة الشر بشخص « اهريمـان » •

٢ ـ قال ان لهذا العالم قانونا يسير عليه وان له ظواهر طبيعية ثابتة •

٣ ـ جاء بكتاب ديني مقدس هو ما ذكرناه سابقاً « افستا » وشرحه « زند »•

٤ ـ دعا اتباعه الى العمل المجدي النافع وحبب اليهم الارض والعمل عليها وزراعتها والعيش مع الماشية ، ومنعهم من الصوم الذي يضعفهم عن العمل ، وهو يريد اتباعه اقوياء عاملين •

٥ ـ اعتبر المواد الاربعة التي كان يظن انها المواد الاصلية للعالم وهي : الماء ـ الهواء ـ النار ـ التراب • اعتبرها عناصر طاهرة يجب أن لا تنجس ، ولهذا دعا الى تقديس النار واتخاذها رمزاً ، ودعا الى حرق الموتى ليطهروا ، ومنـع

---

(١) لعل وجود نيران مشتعلة بصورة طبيعية في بلاد فارس والعراق منذ اقدم العصور وهي التي سموها النار الابدية ، لعلها احدى أسباب عبادة النار أيضا • وهذه النار لاتزال حتى الآن مشتعلة لانها ناتجة عن احتراق بعض غازات منبعثة من احـواض البترول •

دفنهم في التراب حتى لا يدنسوه ، وحرم تنجيس الماء الجاري .

٦ ـ قال بوجود حياتين للانسان : حياة الدنيا ، وحياة الاخرة بعد الموت . وان يوم القيامة قريب حين يتغلب مزدا آله الخير على اهريمان آله الشر ويلقيه في الجحيم ليلقى عذابه هو واتباعه من الناس [1] .

ب ـ ماني : ولد عام ٢١٦ م . ولم يتبعه الا أقلية فارسية وان بقي مذهبه حتى القرن السابع الهجري وحاول أتباعه التأثير في الاسلام كثيراً وأهم مبادئه :

١ ـ أيد مذهب زرادشت بأن العالم نشأ من أصلين هما النور والظلمة .

٢ ـ زاد على مذهب زرادشت قوله أن الخير والشر في هذا العالم قد امتزجا امتزاجاً تــاماً .

٣ ـ خالف زرادشت باعتباره ان هذا الامتزاج شر يجب الخلاص منه .

٤ ـ دعاه ذلك الى مخالفة زرادشت فيما يطلب من اتباعه من عبادات ، فقد

للقراءة :

(١) نشيد كاثا من كلام زرادشت في الابستاق

« أسالك بالحق يا اهورا ؟ ان تعلمني :
من ذلك الذي صار ابا الحق منذ يوم الخلقة الاولى ؟
من الذي سير الشمس والنجوم ؟
من الذي يملأ القمر حينا ويفرغه حينا ؟
يا مزدا أريد أن أعلم هذا واشياء اخرى كثيرة .

. . .

اسالك يا اهورا بالحق ان تعلمني :
من الذي يحفظ هذه الارض السفلى ؟
ويمسك الفلك الاعلى ان يسقط ؟
من خالق الماء والعشب ؟
من يا مزدا خالق الخلق الطاهر ؟
اسالك بالحق يا اهورا ؟ ان تعلمني :
من خالق الضياء النافع والظلام ؟
من خالق الصبح والظهر ؟
والليل الذي يدعو الناس الى الصلاة ؟

حرم النكاح ليستعجل الفناء، ودعا الى الزهد ليقتل النفس، وشرع الصيام سبعة أيام في كل شهر ، وفرض صلوات كثيرة تأخذ على الانسان جل يومه ، ونهى عن ذبح الحيوان لما فيه من ايلام ، وبعبارة واحدة دعا الى فناء البشرية ليتغلب الخير على الشر ، ودعا الى الرهبنة والزهد بعكس زرادشت الذي دعا اتباعه الى العمل والزراعة والنشاط [1] .

ج ـ **مزدك** : ثالث انبياء الفرس ظهر حوالي ٤٨٧ م وأيد تعاليم من سبقه من مثنوية النور والظلمة لكنه خالفهما في :

١ ـ دعا الى تعاليم اشتراكية ، فالناس ولدوا سواء فليعيشوا سواء . ويجب أن يتساوى الناس في متع الحياة الدنيا : المال والنساء . فأباح الاموال وأحل النساء ، وظن أن الخلاف بذلك يزول ، ويقضي على الشر في الارض .

٢ ـ منع اتباعه من المخالفة والمباغضة والقتال ، فكانت دعوته سلمية انسانية .

---

(١) زرادشت وماني

تغلبت الزرادشتية منذ أيام كورش فما بعدها على آلهة نينوى وبابل الاقدمين وتعاليمه محفوظة لدينا في الزندافستا وان تعارض رب خير وهو هرمز (اهورمزدا) آله النور والصدق والصراحة والشمس ، مع رب شرير هو اهريمان ، رب الخفاء والمكر والسياسة والظلمة والليل هو محور ديانته . ويحدثنا التاريخ انها كانت محوطة بنظام طقوسي وكهنوتي ولم تكن لها تماثيل مقامة ولكن كان لها كهنة ومعابد وهياكل تتقد عليها نار مقدسة وتقام عليها الطقوس القربانية . ومن بين خصائصها المميزة الاخرى حظرها دفن الموتى أو احراقهم . والفرسيس Parsees الهنود ، وهم آخر من بقي من الزرادشتيين لايزالون يلقون موتاهم داخل ابراج معينة مفتوحة ، هي ابراج الخشوع التي تنتابها العقبان .

كانت هذه الديانة الرسمية للدولة ابان حكم بني ساسان من اردشير فمن بعده (٢٢٧ م) وكان رئيسها ثاني رجل في الدولة بعد الملك ... وكان مفروضا أن الملك قدسي أو شبه قدسي وله علاقة مودة خاصة مع هرمز .

ولد ماني مؤسس المانوية من عائلة طيبة بأكباتانا العاصمة الميدية القديمة (٢١٦ م) وقد تعلم في المدائن وكان أبوه يعيش عيش الناسك الديني ، فتربى في جو من الجدل الديني وانتهى به الامر الى الاقتناع بانه أصبح صاحب النور الكامل الذي هو القوة المحركة لكل المباهين الدينيين فدفعه ذلك الى اعلان مبادئه . وفي سنة ٢٤٢ م شرع بنشر تعاليمه عند تولي سابور الاول ثاني ملوك بني ساسان .

واحتوت تعاليمه على « الثيوقراسيا » (تطابق الآلهة المختلفين وامتزاجهم) فاعلن أنه لا يأتي بأي شيء جديد . فكبار مؤسسي الديانات من قبله كانوا على صواب:

٣ ــ الثقافة الهندية

١ ــ **العلوم الهندية :** الهند قارة تسكنها مجموعة شعوب ، مختلفة الاجناس والمذاهب الدينية والفكرية والاجتماعية ، وجهود الهند في التعليم قديمة جداً ، وأكثر نتاج الهند الفكري كتب باللغة السنسكريتية وهي معروفة الاصول مما ساعد على معرفة جميع نواحي الثقافة الهندية من علوم وفلسفة وأدب •

الثقافة الهندية : ساهم الهنود في جميع العلوم القديمة ، ونقلوا ما في العلوم اليونانية وشرحوها وزادوا عليها وأشهر علومهم :

أ ــ **الفلك والرياضيات :** ونشأ عن علم التنجيم ، وأقدم الرسائل الفلكية هي كتاب السد ذاتنا (حوالي ٤٢٥ ق•م•) واعترف كاتبه باعتماده على الفلك اليوناني ؟ ثم أبحاث « آريابهاتا » أعظم الفلكيين والرياضيين الهنود الذي علل الكسوف والخسوف في حركة الارض حول الشمس ، أي قال بدوران الارض حول الشمس قبل النهضة الاوروبية بعدة قرون • وشرح كروية الارض في دورتها الحيوية حول محورها • كما عرف هذا الرياضي النظام العشري • وابتكر عالم آخر اشارة

= فان موسى وزرادشت وبوذا وعيسى المسيح كانوا جميعا أنبياء صادقين ، بيد انه وكل اليه ان ينفي تعاليمهم الناقصة ويتوجها . وتنقل ماني في ايران مبشرا في افكاره ، ودخل تركستان وهبط الهند وعبر الممرات الى الصين ... وقد انتشرت فكرات ماني شرقا وغربا في سرعة عظيمة ، وكانت دوحة مثمرة قوية ثمارها الزندقات (الهرطقات) التي دامت في العالم المسيحي بأسره طوال مايقارب الالف سنة .

وعاد ماني الى ايران في زمان يقارب ٢٧٠ م وانضم اليه انصار كثيرون فتسبب عن هذا احتكاكه بالدين الرسمي وبالكهانة . وفي سنة ٢٧٧ م امر به الملك الحاكم فصلب ، وأمر بجسمه لسبب مجهول فسلخ ، ومن ثم اخذوا يصبون على اتباعه اعنف الاضطهاد .

عن ولز : معالم تاريخ الانسانية

الجذر ، وحسب الجذر التربيعي للعدد (٢) وحل بعضهم المعادلات من الدرجة الثانية وكان نجاحهم في الجبر أعظم من الهندسة .

ب ـ الفيزياء والكيمياء : ووجدت في الهند مذاهب فيزيائية مختلفة ، وقال بعضهم ان الضوء والحرارة ظاهرتان مختلفتان لعنصر احد ، وان الشمس مصدر الحرارة في العالم ، وفسر آخر الضوء بأنه مؤلف من ذرات صغيرة تنبعث من الاشياء وتطرق العين أي قال بنظرية نيوتن قبل عشرات المئات من السنين .

اما الكيمياء فتقدمت مع تقدم الطب الهندي والصناعة الهندية ، وكان الرومان ينظرون الى الهند كأمهر أمة في الصناعات الكيميائية مثل الصباغة والدباغة والصابون والزجاج ونوع من الاسمنت .

جـ ـ الطب : أشهر ما اشتهر به الهنود ، وكان أطباء الهنود منذ القرن السادس قبل الميلاد يعرفون الاوعية الدموية ، والانسجة الدهنية والضفائر العصبية ، والجهاز اللمفاوي وأنواع العضلات وحركاتها ، ويعرفون تجبير العظام ، ويفهمون عملية الهضم جيداً ، ويعرفون تطور الجنين ويشرعون في ضرورة فحص الزوجين قبل الزواج .

واشهر الكتب الطبية «أثرافا ـ فيدا» وفيه قائمة بكثير من الامراض وأعراضها ولكن تطبيبها محاط بكثير من السحر والتعاويذ ، وفي كتاب آخر وصف لمائة واحدى وعشرين اداة جراحية منها المشارط والملاقط والمناظير ، ووصف لكثير من العمليات الجراحية الكبرى .

٢ ـ الفلسفة الهندية : ان تفوق الهند في الفلسفة أوضح منه في الطب والعلوم . لأن الرغبة في الفلسفة اشتدت عند الهنود حتى أصبحت جانباً هاماً لا غنى عنه في الحياة ، حتى امتزجت الفلسفة بالدين [1] واقيمت لها احتفالات ومناقشات

---

(١) يقول الكونت كايسرلنج : ان هذه الامة الفلسفية قبل كل شيء ، لديها من الالفاظ السنسكريتية التي تعبر بها عن الفكر الفلسفي والديني، أكثرمما في اليونانية واللاتينية والجرمانية مجتمعة .

علنية كانت جزءاً من الاحتفالات الدينية ، وكانت الفلسفة الهندية تعتمد على الجدل المنطقي الشفوي أكثر من الكتابة ، حيث تقام مناظرات فلسفية دائمة ، ويلقى الفلاسفة كل تبجيل وتكريم ، وتقدم لهم الجوائز بنصيب أكبر مماكان يناله الرابحون في الاولمبياد الاغريقي •

ويبوب الهنود مذاهبهم الفلسفية كلها في صنفين : المذاهب الاستيكية والمذاهب الناستيكية •

أ ــ المذاهب الاستيكية : ومعناها المذاهب التي تثبت (آسي معناها موجود) وهي المذاهب المؤمنة باصول الدين ، والمسلمة بصواب الكتب المقدسة صواباً لا يأتيه الباطل ، وقبلت نظام الطبقات القائم منذ القديم في الهند • وأشهرها ستة مذاهب تسمى فيدات أو دارشانات أي البراهين ، ولزام على كل مفكر هندي ممن يؤمنون بسلطة البراهمة ان يعتنق احدى هذه المذاهب •

ب ــ المذاهب الناستيكية : ومعناها المذاهب التي تنفي (ناستي معناها معدوم) وهي المذاهب التي شكت وانكرت وجود الله ، وتجاهلت أحكام الفيدات ، وأكثر اتباعها من أنصار بوذا •

٣ ــ **الادب الهندي :** يتكلم الهنود لغات عدة ، ويكتبون بأحرف مختلفة ، وكان يربط رجال العلم والفلسفة والادب والدين لغة واحدة هي السنسكريتية ، التي كانت لغة ميتة لا يتكلم بها الشعب ، ولكنها اداة التفاهم بين جميع شعوب الهند المثقفة •

ونظراً لان أدباء الهند كانوا يعلمون أن نتاجهم الادبي سينتشر بين الناس الهندية القصيرة التي كانوا يقولونها شعراً مقفى تسهل تلاوته ويسهل حفظه في مضغوط بشكل حكمة سهلة الحفظ ، موسيقية اللفظ ، ومن هنا كثرت الحكم الهندية القصيرة التي كانوا يقولونها شعراً مقفى تسهل تلاوته ويسهل حفظه في الذاكرة ، ونجد أدب الهند كله تقريباً أدباً نظريا يشمل العلم والفلسفة والدين ، فالبحوث الطبية والقانون وقواعد النحو والتاريخ صيغت جميعها في قوالب من

الشعر •• اما النثر فقد استحدث في الهند بعد اتصالها بالاوربيين ، واعتبره الادباء ضرباً من الفساد جاء من اتصال الهنود بالغربيين •

والادب الهندي خصب بالحكايات الخرافية ، وخصب برواية المذاهب الفلسفية ، والآراء الاجتماعية على لسان الحيوان ــ كما في كليلة ودمنة ــ وخصب بالملاحم الكبيرة ، والاغاني والاناشيد الدينية[1] •

---

(١) القصائد الهندوسية الحماسية الكبرى

المهابهارتا : قصائد المهابهارتا العظيمة من أضخم آثار العالم الادبية . وهي تشتمل على ٢١٥ الف بيت شعر مع ان الالياذة لاتحتوي على اكثر من ١٥ الف بيت ولا تحتوي الاوذيسة على اكثر من ١٢ الف بيت . وتعد المهابهارتا من عمل القرون لا من عمل رجل واحد ، وتقدر المدة التي انقضت بين وضع نصها الاصلي وآخر تصحيح فيها بألف سنة ، ولا يمكن تحديد عمرها بالضبط .

وللمهابهارتا عظيم اهمية لدى الهندوس فقد قيل : ان كتب الويدا الاربعة وضعت في كفة ميزان وان المهابهارتا وضعت في الكفة الاخرى أمام الآلهة مجتمعة فرجحت كفة المهابهارتا ، ومما نص عليه ان قراءة ماتيسر منها يمحو الذنوب . والحق أن تقديس الهندوس لها كتقديس النصارى للكتاب المقدس . ويعتقد الهندوس أن المهابهارتا وضعت في السماء وان الآلهة انعمت بها على الناس .

عن غوستاف لوبون ــ حضارات الهند

٤ ــ اليهودية والمسيحية

اليهودية : دين جاء به النبي موسى خاص ببني اسرائيل • ولليهود كتابان دينيان هما :

ا ــ التوراة : وتتألف من خمسة أسفار ، وليست شريعة فحسب ، بل هي فوق ذلك تاريخ وشعر وفلسفة وقصص وأساطير دينية ، وقد وضعت في أوقات مختلفة ، من قبل كتاب كثيرين ، لذلك جاء اسلوبها يختلف باختلاف العصر الذي وضعت فيه ، وأروع ما فيها من قطع أدبية مزامير داود ، وأجمل قصصها قصة شاؤول وداود وسليمان •

ب ــ التلمود : وهو مجموع السنن والشروح والنصائح التي نقلت عن موسى وقد دونت في زمن متأخر عنه •

المسيحية : دين جاء به يسوع الناصري ، وكتاب المسيحيين الديني هو العهد الجديد أو الانجيل • وتوجد اربعة كتب مقدسة :

هي أناجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا • وقد جابه دعاة المسيحية الاول ومبشروها فلسفة يونانية وثنية ، فاضطروا الى التسلح بسلاح المنطق اليوناني للدفاع عن عقيدتهم ، وما لبث الجدل الديني أن ثار بين رهبان المسيحية حول طبيعة السيد المسيح ، فانقسم اتباع المسيحية الى فرق مختلفة ، وكان أشهر ما اختلفوا فيه أكان عيسى رباً ؟ أم خلقه الرب ؟ هل هو والرب سواء ، أو هو منفصل عن الرب ؟

الفكر العربي الاسلامي

« وقل رب زدني علما »

صدق الله العظيم

خصائص الفكر العربي : لكل أمة من الامم خصائص فكرية وعقلية خاصة ، تشتهر بها وتتميز عن غيرها ، وليس معنى هذا ان كل فرد من أفراد هذه الامة يتصف منفرداً بهذه الخصائص وهذه العقلية ، إذ تختلف خصائص الفكر في الافراد كما تختلف وجوههم وسحنهم ، وكما تختلف طبائعهم وأمزجتهم ، وإنما لكل أمة كمجموع ، مظاهر خاصة يمكن أن تميز بها عن أمة أخرى ، وعقلية الياباني أو الصيني تختلف طبعا عن عقلية العربي أو الامريكاني أو الروسي ، ويؤثر في هذه العقلية العامة للامة عوامل متعددة أهمها : البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية ، وعامل الارث والدين والاختلاط بغيرهم من الامم ، والامل العام لبناء المستقبل ، ويضيف بعض العلماء الى هذا عامل الدم والجنس •• ويعتبر بعضهم العاملين الاولين أهم أسس بناء العقلية عند الشعوب ، إذ يعتبرون الطبيعة أي ما يحيط بالامة من مظاهر طبيعية ، كالجبال والوديان ، والسهول والصحاري ، والانهار والبحار ، وما يتبع ذلك من مناخ رطب أو جاف ، قاري أو بحري ، قاس أو معتدل ، كل هذا عاملا في تكوين الفكر العام عند الامة ، ويعتبرون البيئة الاجتماعية متمما للبيئة الطبيعية ، فما يحيط بهذه الامة من نظم اجتماعية ، كنظام الحكم ، والاسرة والقوانين السائدة وغيرها يؤثر في تفكير أفرادها وتكوين عقليتهم • وليست العوامل الاخرى الا متفرعة من هذين العاملين أو ملحقة بهما ، فعامل الارث هو ما يرث المرء من معتقدات وتقاليد ، ومن ماض تاريخي مشترك ، وعامل الدين واضح في تكوين عقلية الامة ، اذ تختلف المثل العليا ، والتفكير في الكون وفي

علاقات الافراد باختلاف الاديان ، وليس تفكير عبدة النار والاوثان والصابئة والكونفوشيين والبوذيين كتفكير أصحاب الكتب السماوية الاخرى ، وكلا العاملين الارث والدين يعتبران من تفرعات أثر البيئة الاجتماعية بل من مقوماتها ، أما عامل الاختلاط بالامم المجاورة فيكون تأثيره من ناحية تلقيح الفكر الاساسي وتطوره ، وعامل الامل بتكوين مستقبل يؤثر في شعور الافراد جميعاً شعوراً مشتركاً لحاجة طبيعية أو اجتماعية ، ويعتبر بعض علماء الاجناس ، ولم تثبت فرضياتهم أبداً ، أن للدم علاقة أساسية في تكوين عقلية الامم والشعوب ، وأن هناك أجناساً تحمل دماً يؤهلها أن تسود في العالم وأن تتحكم فيه ، وأن تحتكر كل علم وثقافة وفن ، وأخرى لا يجري في عروقها الا دم العبودية والذل ، خلقت لتكون خاضعة للاولى تقلدها في مظاهرها ولا تصل اليها في جوهرها ، وأجناساً متوسطة بين هؤلاء وأولئك ، ولا نريد أن نناقش سخف هذه النظرية ، وبعدها عن الحقيقة العلمية ، اذ أن أكثر الامم ان لم يكن جميعها قد مرت قبل وصولها الى عصرها الذهبي ، بأدوار متشابهة ، من طور بداوة الى طور الحضارة ثم شاخت وتأخرت حضارياً وربما سياسياً وفكرياً . وقد تأثرت عقلية العرب في جاهليتهم بهذه المؤثرات جميعها فالصحراء وطبيعتها القاسية ، وحياة الترحال وانتجاع مواطن العشب والكلأ ، وتقاليد القبائل وعاداتها ، والديانة الوثنية الشائعة الى جانب آثار من ديانات سماوية ، وصعوبة اتصالهم بغيرهم من الامم الا اتصالاً ضئيلاً واهياً ، وحبهم المحافظة على شرف الاصل والدم ، وتفاخرهم بأنسابهم وأعمالهم .. جعل للفكر العربي الجاهلي خصائص متميزة ، ولغة العرب حوت كلمات وأسماء للاشياء المادية التي وقعت تحت حسهم ونظرهم كالابل والخيل ومظاهر الطبيعة ، وصفات للاسماء المعنوية التي كانت تلابسهم كالكرم والشجاعة والنجدة ، ووصف مناظر الصحراء ، ويمكن تلخيص خصائص الفكر العربي بما يلي :

يتجلى في الفكر العربي الجاهلي ضعف التعليل ، أي عدم ربط السبب بالمسبب ، والعلة بالمعلول ربطاً منطقياً يكاد يكون قانوناً ، فهم يربطون كثيراً من

الاشياء بمسبباتها ، والاسباب بنتائجها فيعرفون ان الغيم ينزل المطر ، وان الشمس تبعث الدفء ، وان هذا الدواء يشفي هذا المرض ، وكل معرفتهم انما هي ، معرفة بدائية ، لا معرفة العقل الدقيق الذي يتفلسف ، فلم يعرفوا في جاهليتهم منشأ الغيم وتحول الماء الى بخار ثم تكاثفه بالبرودة ولا مصدر الاشعة الشمسية وطبيعتها ، ولا أسباب المرض وعوارضه وخواص الدواء ، فكثيرا ما يخلطون بين الدواء الناجع وبين الشعوذة والسحر ، ويظنون مثلا من أصيب بمس من الجنون ، انه حلت فيه أرواح شريرة أو خالط لحمه ودمه الجن ، ويلاحظ هذا الضعف في التعليل في كثير من قصصهم الخرافية التي يستبعدها العقل الناضج ، ولا يقبل بصحتها ، كقصة سد مأرب التي يتوارثونها وكيف أن جرذاناً أتت الى حجارته الضخمة واقتلعتها بأنيابها وسببت خرابه ، وما نراه في بعض كتب التاريخ ، من أن فلاناً عاش ثلاثمائة سنة وخمسمائة أو يزيد عن ذلك أو ينقص قليلا ، ويتجلى في التفكير العربي أنه ينظر الى الاشياء نظرة عامة شاملة فاذا رأى العربي منظراً خاصاً أعجبه تحرك له ، وجاش صدره ، ببيت من الشعر أو قصيدة أو مثل أو حكمة ، ولكن لا ينظر اليه نظرة عامة شاملة ، ويصف دقائقه وعوارضه ، وانما يستهويه منه شيء خاص أو ناحية خاصة منه ، ولم يصل الفكر العربي ، في نظره الى العالم نظرة عامة شاملة ، كما فعل الاغريقي من قبل ، عندما نظر الى العالم نظرة واحدة ، واعتبره وحدة ، وفتش عن القوانين الثابتة التي يخضع لها نطاق الطبيعة ، وهذه النظرة غير الشاملة التي نظرها العربي الى ما حوله طبعت أدبه بشيء من الجمال ، لان فكره ينحصر في ناحية واحدة محدودة من موضوع هام واسع ، فينفذ الى باطنه ، ويأتي بالمعاني الرقيقة التي تتصل به ، كما و طبعت أدبه بشيء من النقص نعني بذلك عدم التسلسل المنطقي للافكار ، وعدم الارتباط العام بين أفكاره ، ووحدة الموضوع ، وأغلب القصائد العربية ، وهي تمثل تفكير الطبقة المستنيرة من الشعب ، ليس فيها وحدة ، فينتقل بك الشاعر من وصف ديار الحبيبة الى جمالها ، الى مدح نفسه والافتخار بأصله ونسبه الى غير ذلك من ضروب الشعر ، بل لو حذفت بعض أبيات من القصيدة أو قدمت وأخرت فيها ، ما شعر

السامع أو القارىء بذلك ، ولا يستنكره ذوقه • وبقيت هذه الناحية من نظرة العربي الجاهلي الى الاشياء نظرة خاصة ، دون أن يستطيع أن يوحد موضوعه ويتطرق الى جميع نواحيه ، حتى في العصور الاسلامية الاولى ، وكثير من كتب المسلمين ، كالعقد الفريد وكتب الجاحظ وغيرها تشعرك وأنت تقرأ بها ، أن كاتبها كان كالنحلة تنتقل من زهرة الى زهرة ، فلا تقرأ وصفاً للكرم أو للبخل حتى تنتقل الى مديح أو هجاء ، الى نكتة وقصة ، الى حادثة تاريخية ، أو وصف لبلد من البلدان أو منظر من المناظر ، فتشعر وأنت تقرأ بلذة التنوع ، ولكن لا تستطيع أن تعرف كل ناحية من جميع وجوهها •• وهذه الخاصة هي التي جعلت الادب العربي فقيراً في نوع من القصص الطويلة الحسنة الترتيب ، أو الشعر القصصي الراقي كملاحم الاغريق وقصصهم ، كالالياذة والاوذيسة • والفكر العربي كما يقول أحمد أمين ، يطوف جول الشيء الذي ينظر اليه ، فيقع منه على درر مختلفة الانواع لا ينظمها عقد •

أثر الاسلام في الفكر العربي : كان تأثير الاســلام في اتباعه ، العرب وغير العرب قويا واضحا • فقد رفع من المستوى الفكري للعرب رفعاً يكاد يكون معجــزة فهــو :

١ ــ نصب لهم مثلا أعلى جديداً في الحياة • وبعد أن كان للجاهلية قيمتها وأخلاقها واتجاهاتها ، جاء الاسلام فرسم للحياة مثلا آخر لا يتفق مع المثل الاعلى الجاهلي ، وكثيراً ما يناقضــه • ولعلنا نستطيع المقارنة بــين المثلين في قــراءة قولــه تعــالى :

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمــن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس اولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » •

وقد نستطيع أيضا أن نرى تعارض الحياة الجاهلية والاسلامية ، وصراع الفكر المسلم الذي يرى مثله الاعلى في التقوى والخلق الكريم مع العقلية الجاهلية التي تعتبر الانفة والعصبية ولذة النفس أروع الفضائل في النص الذي يروى عن جعفر بن أبي طالب حين هاجر الى الحبشة ٠

٢ ــ وحد الاسلام ونظم الفكر الديني عند العرب ، فنشر بين الناس عقيدة الوحدانية ونفى كل عقيدة أخرى ، وبالرغم من تثبيته لعدد من التقاليد الدينية الموروثة فقد حددها وأضاف اليها عقائد جديدة وعبادات منظمة موحدة محت الوثنية وعقلية السحر بين العرب ونقلتهم الى التفكير بالله الواحد وبآلاء الله وحدوده ٠

٣ ــ نشر الاسلام بين العرب الكثير عن أحوال الامم الاخرى وتاريخها باطناب أحيانا ، وبايجاز أحيانا أخرى ٠ وبعث النفوس على الاستزادة منها ٠ فكان في ذلك نوع من الثقافة أفاد العرب ووسع مداركهم ودعاهم الى تتبع أخبار الامم وأخذ العبرة منهم ٠

٤ ــ شرع الاسلام وشرح أحكاماً في الزواج والطلاق والشؤون المدنية والجنائية كانت قانونا ، ونظم أمور المسلمين في معيشتهم الاجتماعية والاقتصادية واتخذه الفقهاء والمشرعون مرجعهم يستنبطون منه الاحكام ويهتدون به فيما يعرض من حوادث جديدة خلقتها مدنيتهم فكان ذلك أساسا لحركة تشريعية واسعة ٠

٥ ــ ارتبط « العلم » في الاسلام بالدين (ويعني القرآن بكلمة« العلم » المعرفة بأوسع معانيها أي انه يشمل المعارف الدينية والدنيوية معا) فقد أقبل العرب والمسلمون على القرآن وفهمه وتقصي أسرار اعجازه وحكمه وتشريعه ؛ كما أقبلوا الاقبال نفسه على الحديث فكان من ذلك علوم عدة ، ثم ان الافكار الاسلامية صبغت جميع العلوم الاخرى الادبية والاجتماعية والفلسفية أيضا وجعلتها تسير ضمن دائرة الدين وتحوم حوله ، هذا بالاضافة الى أن التعليم بدأ

في المسجد واستمر كذلك حتى القرن الخامس الهجري • وكان المسجد هو المدرسة بجانب كونه مكان العبادة •

٦ ــ سلك الاسلام في دعوته الى الايمان بالله وصفاته من علم وقدرة ووحدانية مسلكا يثير العقل وهو الدعوة الى النظر الى ما في العالم من ظواهر • فكان لذلك أثره الكبير في الحياة العقلية : « أولم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء » « فلينظر الانسان مم خلق » « ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب » ولعل هذا التفكير هو ما عناه القرآن بكلمة (الحكمة) وقد قال تعالى « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » وجاء في الحديث « الحكمة ضالة المؤمن » •

٧ ــ حث الاسلام على طلب العلم وهناك آيات كثيرة بهذا المعنى :

« وقل ربي زدني علما »

« هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون »

« ن • والقلم وما يسطرون »

« إقرأ باسم ربك الذي خلق • خلق الانسان من علق • اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم »

وأحاديث مثلها :

« العلماء ورثة الانبياء »

« طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة »

« اطلبوا العلم ولو في الصين »

« وفوق كل ذي علم عليم »

« من سلك طريقاً يطلب فيه علماً ، سلك الله به طريقاً الى الجنة »

« ساعة عالم متكيء على فراشه ينظر في علمه خير من عبادة العابد ستين عاماً »

« لا بارك الله في يوم لا ازداد فيه علماً »

« قليل العلم خير من كثير العبادة »

« تناصحوا في العلم فان خيانة في العلم أشد من خيانة في المال »

ومن أقوال بعض المسلمين :

« اغد عالماً أو متعلماً أو محباً للعلم • ولا تكن الخامس أي جاهلا تهلك »

« العلم خير من المال ! العلم يحرسك وانت تحرس المال • العلم حاكم والمال محكوم عليه • مات خزان الاموال وبقي خزان العلم • أعيانهم مفقودة واشخاصهم في القلوب موجودة »

الامام علي بن أبي طالب

يا بني : تعلموا العلم فان كنتم وسطا سدتم ، وان كنتم سوقة عشتم •

عبد الملك بن مروان

ولا شك أنه قد كان لهذه الاوامر الدينية أثرها في اقبال المسلمين على العلم •

٨ ــ ان نشر الدين استتبع الحاجة الى القارئين والكاتبين • فقد كانت آيات القرآن تكتب ويتلوها من يعرف القراءة على من لا يعرف • وظهرت هذه الحاجة واضحة حين جعل الرسول (ص) فداء أسرى بدر تعليم الكتابة لعشر من صبيان المدينة ، بل حث الرسول بعض أصحابه على تعلم لغة غير اللغة العربية لما دعت الحاجة الى ذلك بعد انتشار الاسلام • كالذي روي عن حثه زيد بن ثابت على تعلم العبرية والسريانية •

ثم أنه لما كان الفتح اضطر العرب ، وهم الحكام والقادة ، الى تعلم القراءة والكتابة • ثم العلوم الاجنبية المختلفة لما أحوجتهم الحضارة الى ذلك • والعرب الذين كانوا أميين في الجملة في مطلع عهد الرسول أضحوا بعد نصف قرن أمة متعلمة •

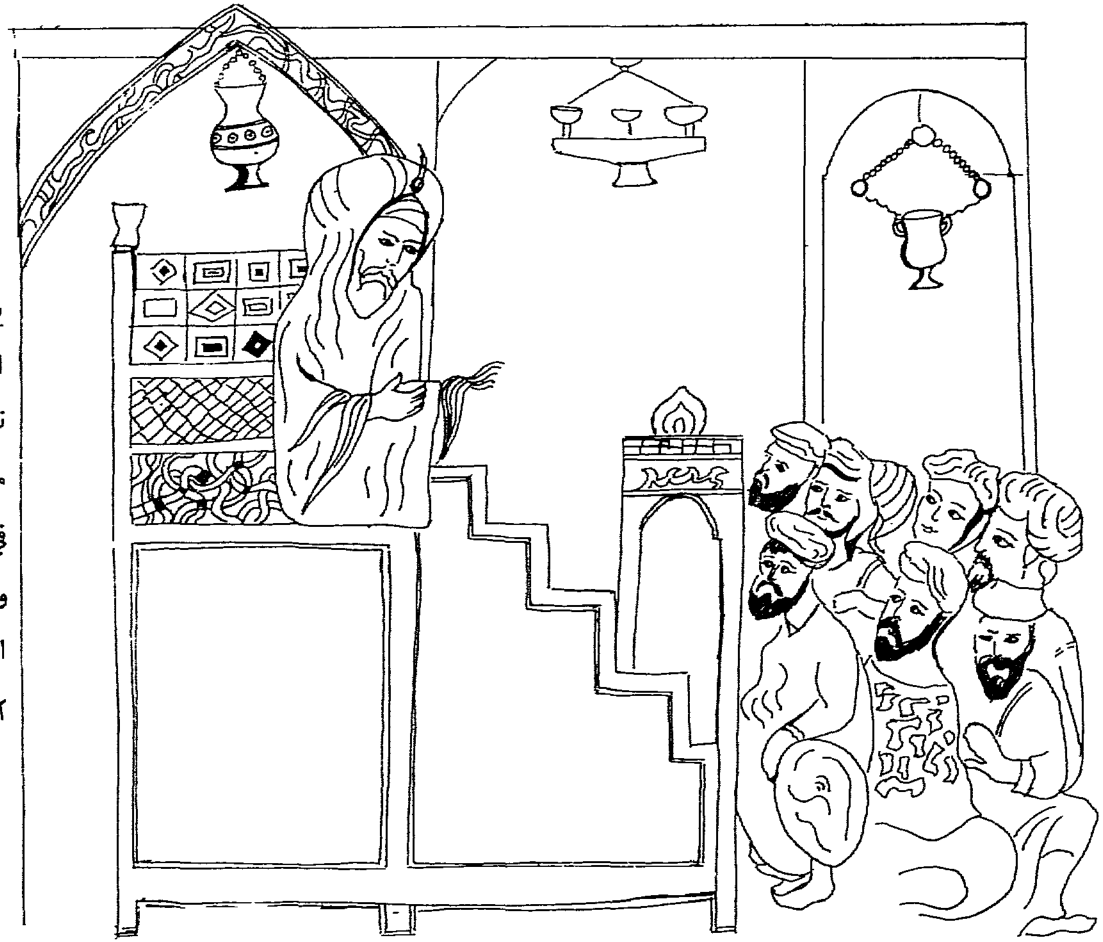
٩ ــ أثر الاسلام في اللغة العربية فأدخل عليها مصطلحات جديــدة دينية (كالوضوء والصلاة والزكاة ... الخ) وادارية (كالعامل والخراج والبريد ...) وحربية (كالدبابة والصنوبر والخميس ... الخ) بالاضافة الى ما دخلها فيما بعد من مصطلحات علمية وفلسفية بفعل الترجمة ورقي الحضارة ...

ثم ان الاسلام نشر اللغة (القرشية) فيما بين الصين والاطلسي فاضحت لغة السياسة والتجارة في القرون الوسطى ، واستعربت بذلك مناطق شاسعة هي شمالي افريقيا كله وسوريا والعراق . كما نشر الكتابة العربية في هذه البقاع وفي ايران والاناضول أيضا حتى لقد تركت هذه الكتابة تأثيرها في الهند .

١٠ ــ وأخيراً فقد ترك القرآن الكريم أثره الواضح في الاسلوب العربي وفي البيان فقد كان معجزة الرسول (ص) التي تحدى بها العرب والناس . وقد خفت الشعر وتراجع كل بيان أمام بلاغة القرآن بالاضافة الى جوامع الكلم من الحديث الشريف .

ونستطيع اذن أن نلخص أثر الاسلام في العرب بأنه كان نهاية عصورهم القديمة بكل ما فيها ، ومطلع عصورهم الرائعة التي جعلت منهم ومن المسلمين عامة أمــة الحضارة والعلم والعظمة السياسية والغنى الاقتصادي طوال العصور الوسطى .

تمازج الثقافات وأثره في تطور الفكر العربي : ما لبث العرب بعد الاسلام أن أخضعوا مصر والشام والعراق وفارس ، وشمال افريقيا والاندلس ، واختلطوا بسكان هذه البلاد وأثروا وتأثروا بهم في جميع مرافق الحياة الاجتماعية والعقلية ، إذ استتبع الفتح كما ذكرنا ، الحصول على آلاف من الاسرى بيعوا بيع الرقيق وكانوا من الكثرة بدرجة أنه لم يكد يخلو منهم دار عربي ، كما شاع التســري وكثر ، فاختلط الدم العربي بالدماء الفارسية والمصرية والسورية والبربرية والقوطية ، والتركية والشركسية وغيرها ، فنتج من ذلك جيل من المولدين ، يحمل الدم العربي من ناحية الاب ، والدم الاعجمي من ناحية الام ، كما أصبح العالم الاسلامي يحوي عدا هذين العنصرين : العرب والمولدين ، عناصر من أمم وشعوب شتى ، فهنــاك



شكل ــ ١٣١ ــ
خطيب المسجد الجامع يخطب بالمصلين يوم الجمعة والرسم في نسخة محفوظة من كتاب مقامات الحريري ملونة في الاصل تلوينا جميلا . وقد تم رسمها مع استنساخ الكتاب عام ١٢٢٢/١٢٢٣ م

السوري الذي أسلم والسوري الذي لـم يسلم ، والعراقي ، والفارسي والمصري والبربري ••• منهم من أسلم ومنهم من بقي على دينه ، وهناك حضارات مختلفة ، تأثرت بحضارات غيرها كثيرا أو قليلا ، فللمصريين حضارة ، وللقوط حضارة ، وفي سوريا آثار حضارة رومانية أو اغريقية وفي شرقي فارس آثـار حضارة هندية وسريانية ، وفي الشمال تأثيرات بيزنطية • وهناك عادات وتقاليد ، وعرف وقوانين ، ونظم للحكم والادارة وفنون للريازة والعمران والموسيقى وآداب قومية وهي في كل قطر تختلف عن القطر الآخر من ناحية وتتفق معه من ناحية أخرى ، وكـان للعرب الفاتحين أيضا من كل هذا ، وكان لابد من الاختلاط والتمازج ، ولا بد من عملية مزج وانتخاب وتصفية ، ولا بد من أن تتغلب التيارات القوية على الضعيفة وتتمثلها • وكانت حضارة العرب وفنونهم في أساليب حكمهم أقل من فنون الامم التي أخضعوها ، فكان لا بد لهم ، وقد حولوا الاسلام من دين الى دولة ، من ان يقتبسوا هذه الاساليب التي وقعت تحت أعينهم ، وكان العرب يحملون رايـة الاسلام ويجاهدون في سبيل نشره ، وكانت الغلبة العسكرية لهم ، فكان لابد لاكثر سكان البلاد المفتوحة من أن تخضع لهم وتدين بدينهم الجديد ، وكانت اللغـة العربية هي لغة الطبقة الحاكمة ، فكان لابد للشعوب من تعلمها لارضاء سادتها ، فانتشرت اللغة بين هذه الاقوام ، ولكن اللغة والدين لم يخل من شوائب ، فأعجمي يتعلم العربية لا بد ان يلحن ، ومسيحي أو صابئي أو وثني يسلم لا بد وأن تبقى في مخيلته آثار لدياناته السابقة ، ولا بد أن يفهم بعض تعاليم الدين بالعقلية التي كانت له قبل اسلامه ، وأن يفهم بعضها بالقدر الذي تسمح له به عقليته الجديدة وأثر الدين الجديد في نفسه ، وأخذ بعض اليهود يفسرون آيات القرآن وقصصه بما وجدوه في كتبهم الدينية من تفاسير ، وآخرون قد أسلموا ، ولما يخالط الاسلام دمهم ولحمهم ، بل تظاهروا به وأبطنوا الكفر ، اختلقوا الاحاديث ، وأوجدوا الفرق الدينية ، وأدخلوا فكرة حق الوراثة وحق الملوك المقدس ، وظهر في الدور العباسي كثير من حركات كالزندقة والالحاد والقول بتناسخ الارواح ••

لقد كان من تمازج هذه الثقافات المتعددة والعبادات والتقاليد والاعتقادات

أن تطور الفكر العربي ونما ، وعندما نقول الفكر العربي الآن وفي هــذا الدور الاسلامي ، فاننا ــ كما ذكرنا سابقا ــ لا نقصد فكر الرجل العربي الذي خرج من الصحراء فحسب بل نقصد جميع سكان الامبراطورية العربية من عرب أقحاح ومن عرب مولدين ، ومن فرس وسوريين وأقباط وبربر وغيرهم ، دخلوا الاسلام أو بقوا على دينهم ، وانما تكلموا العربية وكانت لغتهم السائدة ، وكان نتاج قرائحهم بها ، وكان هذا الفكر العربي الذي نقصده الآن قد أصبح أنضج وأكمل ، وقد خضع لنظام من التطور والتقدم والتغيير والتبديل عن الفكر العربي الذي كان في الجاهلية، ففي اللغة العربية فشا اللحن ، وكثر التصحيف ، وادخلت كلمات أعجمية كثيرة ، وبنفس الوقت ضبطت قواعد اللغة ، ووضع لها أسس وقوانين ، ودرست أحوالها المتعددة كما درست لهجات القبائل وجمعت آدابها وأشعارها ، وفي الدين تأثــر تفسيره بكثير من التعاليم الاخرى كما أوجدت الفرق الدينية المتعددة • وفي العلوم تقدمت كثيراً وانتقلت من طور المعرفة العامية كما يعرفها الفلاسفة الى طــور المعرفة العلمية ، وترجمت كتب اليونان والهند والسريان والأقباط ، وزاد عليها العــرب وتعهدوها بالنقد والشرح والتفسير وأوجدوا أبواباً في العلوم جديدة ، وعرفــوا التجربة وقاموا بكثير من التجارب العلمية • وفي الفنون أصبح لهم فن خــاص يتميــزون بــه ، عرفت زخرفتــه بالارابســك أو الارقشــة كمــا تميــز الفن المعمــاري الــديني والمــدني بطــابعــه الخــاص • وفي أنظمـــة الحكــم ، استبدلوا النظام القبلي القديم بأنظمــة للدولــة جــديدة ، وأدخــلوا الدواوين والوزارة والبريد ونظام الجاسوسية وضربوا النقود ، وعربوا أكثر أنظمة الحكم ، واستطاع الفكر العربي الآن ، بفضل ما صار اليه من نضوج علمي ، أن يتبوأ مركز الصدارة في العالم في الوقت الذي كانت فيه بقية أنحاء الارض وخاصة أوربا في عصورها المظلمة ، وكان له الفضل في حفظ تراث الحضارات السابقة وتسليمها زائدة غير ناقصة ، سليمة غير سقيمة للاوربيين في نهضتهم ليحافظوا عليها هم في دورهم بعد أن مال فكرهم الى الجمود ، وتأثر بالفوضى السياسية •

طرق تسرب الثقافات الاجنبية الى الثقافة العربية : هذه الثقافات الاجنبية التي كانت موجودة قبل الاسلام في الشام ومصر والعراق وفارس وبقيــة الاقطار التي دخلها الاسلام وضمت الى الدولة العربية تسربت الى الثقافة العربية والاسلامية عن طرق عديدة بعضها واضح قوي ، وبعضها خفي ضعيف وأهم هذه الطرق :

١ ــ الاحتكاك المباشر : فمنذ دعا محمد بن عبد الله الى دين الاسلام جادله الجاهليون في أصنامهم ودين آبائهم وأجدادهم ، وجادله النصارى في طبيعة السيد المسيح وقضية صلبه ، وجادله اليهود بما في توراتهم من أخبار الامم السالفة ، ومن قصة الخليقة • وحين انساح العرب خارج الجزيرة جابهوا حملة الثقافات الاجنبية فجادلوهم جدالا منطقياً عقلياً ، واضطر العرب أن يتسلحوا بسلاح الفلسفة ليجابهوا خصومهم بنفس السلاح الذي يهاجمونهم به ، وكان لهذا الاحتكاك المباشر نفسه طرق متعددة : التعامل التجاري ــ التسري ــ الموالي ــ المناقشات التي كانت تعقد في قصور الخلفاء والامراء وفي المساجد ــ البعثات العلمية •

٢ ــ دخول سكان البلاد التي فتحت في الاسلام : فقد آمن هؤلاء بالدين الجديد وفهموه فهماً يختلف عما فهمه عرب الجزيرة لانهم لم يستطيعوا أن يتخصلوا دفعة واحدة من ثقافاتهم ولا من دياناتهم السابقة •

٣ ــ الاختلاط في المسكن : والعرب لم يبنوا الا عدداً محدوداً مــن المدن العسكرية في البلاد التي فتحوها • بينما اختلطوا في أكثر البلدان بالســكان ، وشاهدوا حياتهم الاجتماعية ونشاطهم الاقتصادي ونظم معيشتهم عن كثب • وجزيرة العرب امتلأت بالاسرى والوافدين في موسم الحج وغير موسم الحج من مختلف العناصــر •

٤ ــ مدارس الثقافات الاجنبيــة : وأصبحت مراكــز الثقافة الهيلنستية : الاسكندرية وانطاكية • ومراكز الثقافة السريانية : حران ، ونصيبين ، والرهــا • ومراكز الثقافة الفارسية : جنديسابور ، وغيرها ••• من الرقعة العربية ، واقتبست اللغة العربية في أبحاثها العلمية ومجادلاتها •

٥ ـ عملية النقل والترجمة : ولعلها أهم طريق لتسرب الثقافات الاجنبية الى الثقافة العربية ويمكن أن نقسمها الى مراحل :

أ ـ النقل في العصر الاموي : ان اول من اهتم من المسلمين العرب بنقل العلوم الاعجمية الى اللغة العربية هو خالد بن يزيد بن معاوية (المتوفى عام ٨٥ هـ) فقد أخفق في نيل الخلافة فصعد ميوله نحو طلب العلم والانفاق على العلماء ونقل الكتب الى العربية ، حتى سمي « حكيم آل مروان » وقد أمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممن كان ينزل في مصر وقد تفصح بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي الى العربي ، وكان من بينهم راهب رومي اسمه « مريانوس » طلب اليه أن يعلمه صناعة الكيمياء ، فلما تعلمها أمر بنقلها الى العربية فنقلها له رجل اسمه اصطفان القديم ، وهذا أول نقل في الاسلام من لغة الى لغة . وانكب خالد بن يزيد على تعلم علم النجوم الى جانب تعلمه الكيمياء ، فاستحضر المنجمين وانفق أموالا طائلة في استحضار آلات للرصد من الاسكندرية ، ولعله أمر بترجمة بعض كتب هذا العلم ، مما لم يصلنا خبره ، وكل ما وصلنا عن اهتمامه بهذا العلم أن الذين شاهدوا مكتبة القاهرة في أواسط القرن الرابع الهجري شاهدوا فيها كرة من نحاس من عمل بطليموس ومكتوب عليها « عملت هذه الكرة للامير خالد بن يزيد بن معاوية » .

وفي عهد مروان بن الحكم نقل الطبيب السرياني « ماسرجويه » الى العربية كتابا طبيا باللغة السريانية هو كنّاش أهرون بن أعين وحفظت هذه الترجمة العربية في دمشق حتى أيام عمر بن عبد العزيز حيث حبب اليه بعضهم اخراجها للمسلمين للانتفاع بها ، فاستخار الله في ذلك أربعين يوما ثم أخرجها الى الناس وبثها في أيديهم . وذكر ابن النديم في الفهرست ان سالمًا كاتب هشام بن عبد الملك نقل الى العربية رسائل أرسطو الى الاسكندر .

لم تصلنا معلومات أكثر عن النقل في العصر الاموي ، اللهم سوى تعريب

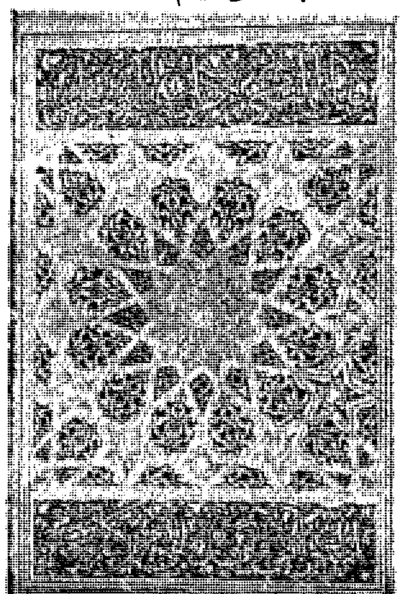
الدواوين في عهد عبد الملك ومن جاء بعده ، وتعريب السكة الاسلامية والطـراز ، وسوى اقتباسات الخلفاء من معاوية حتى مروان الثاني النظم الادارية ، ويظهر ان حركة النقل في العصر الاموي ، لم تسجل لانها لم تحظ بتشـجيع الخلفـاء ولا باهتمامهم ، وكان يقوم بها بعض الافراد من الخاصة أو بعض الاطباء من الاعاجم الذين وجدوا أنفسهم في محيط عربي صرف ، لا تصلح فيه الا البضاعة العربية أو المعربة ، فترجموا بعض الكتب التي كانت نواة لحركة الترجمة الواسعة في العصر العباسي ، ويجدر بنا أن نلاحظ أن اللغة العربية لم تكن غريبة عن أكثر سكان الشام والعراق ومصر ، للصلة التي كانت قائمة قبل الاسلام بين عرب الجاهلية في الجزيرة وعرب الاطراف كما لم تكن العربية بعيدة عن الآرامية التي يتكلم بها السوريون •

ب ـ النقل في العصر العباسي الاول :

واذا كان العصر الاموي عصراً بدوياً عربياً ، سادت فيه الطباع العربية ، وتغلبت فيه الحركات العسكرية في اخماد الفتن الداخلية والقيام بالحروب الخارجية، فان العصر العباسي من بعد السفاح الذي اهتم باقامة الدولة ، وجد حاجة الى اغتراف العلوم غير العربية ووجد متسعاً من الوقت ، واستعداداً طبيعياً في عقليـة شعوب العالم العربي ، وجواً ملائماً من النشاط الفكري ، فترجمت فيـهأعظم كتب اليونان والهند والفرس ، وعلق على هذه الكتب وشرحت ونوقشت وزيد عليهـا وطبق ما فيها من نظريات ، ثم ألف في أكثرها ، تأليفاً علمياً • ولم يقف العرب في هذا الدور موقف الناقل الامين لعلوم الامم المختلفة في العصور القديمة فحسب وحفظها من الضياع في وقت ساد أوربا عصر من الجهل والتعصب ، بل زادوا على ذلك موقف الدارس والشارح والمتتبع والمؤلف كما سنرى في بحث العلوم العربية الاسلامية • ويحسن أن نقسم حركة النقل في هذا العصر الاول الى ثلاثة أدوار :

١ ـ **الدور الاول :** من خلافة المنصور الى آخر عهد الرشيد (١٣٦ ـ ١٩٣ هـ) : اعتقد كثير من الاقدمين ، ولا يزال يعتقد كثير من المحدثين أن للكواكب

وابراجها ومنازلها علاقة وثيقة بما يحدث على الارض مـن حوادث ، وما يرافق الانسان من أعمال موفقة أو غير موفقة ، وخلط القدماء بين علم النجوم أو الفلك وبين التنجيم ، وكان المنصور أول خليفة مسلم قرب المنجمين وعمل باحكام النجوم فكان لا يعمل عملا الا استشار المنجمين فيه ، ولعل ميله الى التنجيم كان أول باعث له على تشجيع حركة النقل والترجمة ، التي أصبحت غوايته وغواية من خلفه من الخلفاء وخاصة الرشيد والمأمون • وكانت صناعة النجوم رائجة عند الفرس فقرب المنصور اليه نوبخت المنجم الفارسي ، ودعاه الى الاسلام فأجاب ، وصار يصحبه معه حيثما توجه ، ولما ضعف نوبخت قرب اليه ابنه أبا سهل ، وما زال آل نوبخت ، الذين توارثوا التنجيم وعلم النجوم في خدمة العباسيين يقومون على خدمتهم ويترجمون لهم الكتب المختلفة •• ونظرا لكلف المنصور بالنجوم ، فقد وفد الى بغداد عدد كبير من المنجمين من جميع الامم القديمة ، فقربهم اليه كابراهيم الفزاري المنجم وابنه محمد ، وعلي بن عيسى الاسطرلابي المنجم ، وبعض الهنود ، وأمر المنصور ابراهيم الفزاري ان يترجم له كتاب السند هند الكبير الذي بقي أصلا في حركات الكواكب حتى أيام المأمون • ولما أصيب المنصور بمرض في معدته ، أخذ



شكل ـ ١٣٢ ـ

تزيين صفحة من مخطوطة اسلامية محفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة تم رسمها واستنساخها عام ١٣١٣ م

يهتم بالطب ويترجم كتبه فاستدعى جورجيوس بن بختيشوع السرياني رئيس أطباء جنديسابور وكان يعرف اليونانية والسريانية والفارسية والعربية فنقل عددا من الكتب الطبية الى العربية •

ولم يتفرغ المهدي والهادي الى الترجمة ، وان استمرت حركة النقل تسير سيراً طبيعياً بما يقوم به الاطباء من تعريب ، فلما صار الناس في عصر الرشيد ، كثر الجدل الديني واتسع أفق السكان بالرحلات التجارية والاتصالات مع الامم المختلفة، وغدت بغداد مركز العالم المتمدن ومجمع النابغين من مختلف الشعوب واللغات في كل علم وفن ، فتقدمت الترجمة واهتم العرب بالكتب الفلسفية والعلمية والادبية ، وكان الرشيد والبرامكة يبذلون من وقتهم واهتمامهم ومالهم الكثير في سبيل دفع حركة النقل الى الامام ، فقد عثر الرشيد في حروبه في أنقره وعمورية وغيرهما من بلاد الروم على كتب كثيرة حملها معه الى بغداد ، وأمر طبيبه يوحنا بن ماسويه بترجمتها وأمر البرامكة بنقل كثير من الكتب من الفارسية واليونانية والهندية ، فنقل كتاب المجسطي لبطليموس عن اليونانية ونقلت كتب طبية عن الهندية •

وفي هذا الدور الاول ، تم نقل كثير من الكتب الاخرى الى العربية • فنقل كتاب اقليدس النقلة الاولى على يد الحجاج بن مطر ، وسميت هذه الترجمة بالهارونية نسبة الى هارون الرشيد تمييزاً لها عن الترجمة المأمونية التي تمت في عهد المأمون • ونقلت بعض كتب أرسطو في المنطق ، وبعض مؤلفات افلاطون ، وأهم كتب جالينوس في الطب ، ودخلت الفلسفة اليونانية الى أبحاث العرب ، نستدل على ذلك أن المعتزلة الاوائل كالنظّام تأثروا في أبحاثهم بمنطق أرسطو فتكلموا في الطفرة والجوهر والعرض مما عرف عن فلاسفة الاغريق •

٢ ــ الدور الثاني : عصر المـأمون (١٩٨ ــ ٢١٨ هـ) : لو لم يكن المـأمون خليفة ، لكان أحد العلماء البارزين في العصر العباسي ، نشأ نشأة علمية ، وعاش في وسط علمي ، ومال الى مذهب الاعتزال ، لانه مذهب يعتمد علـى العقل في محاكماته للاشياء ، فأفاد المأمون من مركزه السياسي لتدعيم الحركة العلمية ، فأمر بنقل جميع ما يقع عليه من كتب فلسفية ومنطقية لتأييد مذهب الاعتزال ، ولم يتعصب للفلسفة فقط بل عطف على جميع العلوم ، وأنفق في سبيلها بسخاء ، حتى انه كثيراً ما أعطى وزن ما يترجم له ذهباً ، وكان يضع علامة على كل كتاب يترجم له ويشجع الناس على قراءة الكتب المترجمة ويرغبهم في تعلمها ، ويضع الجوائز الكبيرة للفائزين في المناظرات التي كانت تجري تحت اشرافه المباشر أو تحت رعايته • واقتدى بالمأمون أهل الوجاهة والثروة فتقاطر المترجمون من النساطرة واليعاقبة والصابئة والمجوس والروم والبراهمة وغيرهم على بغداد ، وكثر الوراقون وباعة الكتب ، وراجت صناعة العلم والادب واغتنى محترفوها •

« وكان المأمون يجل علماء اليهود والنصارى ويحتفي بهم فيمجلسه ، لا لعلمهم فحسب ، بل لثقافتهم في لغة العرب وحذقهم في معرفة لغة اليونان وآدابها ، وقد أخرجوا من أديرة سوريا وآسيا الصغرى وسواحل الشام وفلسطين كتبا خطيـة في الفلسفة والتاريخ وعلم الهندسة لعلماء اليونان وفلاسفتهم ، ثم ترجموها الى العربية بدقة وعناية عظيمة » كما يؤكد ذلك الكاتب الانكليزي (ميور) •

وشملت الكتب المترجمة جميع المواضيع ، ففي الفلسفة ترجمت كتب افلاطون وارسطو ، وفي الطب كتب سقراط وجالينوس ، وفي الرياضيات والنجوم كتب اقليدس وارخميدس ومنالاوس • وأقيمت في عصر المأمون مراصد جوية مختلفة في

الشماسية في بغداد ، وفي دمشق على جبل قاسيون ، وفي تدمر في بادية الشام ، وقيس محيط الارض بعد التأكد من كروية الارض ومعرفة دوائر نصف النهار كما سنرى ذلك في بحث علم الفلك .

واشهر المترجمين في عصر المأمون أحمدبن‌محمد الفرغاني أحد منجمي المأمون ، وبختيشوع جورجيس طبيبه ، وجبرائيل الكحال المأموني ، والحسن بن سهل بن نوبخت . وموسى بن شاكر وبنوه محمد واحمد والحسن وهم من أبصر الناس بالهندسة وعلم الحيل ، وغيرهم كثير مما لا يحصرهم عد .

٣ ـ **الدور الثالث :** حركة النقل بعد المأمون : وأصبحت حركة النقل ديدناً لكثير من الناس ، فلما مات المأمون استمرت الحركة العلمية ، واستمر النقل والتصحيح والتحقيق في التراجم السابقة ، وشاعت اللغات الاعجمية بين الناس حتى أصبحت الهندية واليونانية والفارسية لغات شائعة عند الطبقات المتأدبة التي لم تصل الى رتبة العلماء . ومن أهم ما ترجم في هذا الدور كتاب الفلاحة النبطية نقله الى العربية أحمد بن علي بن المختار النبطي المعروف بابن وحشية سنة ٢٩١ هـ وظل معتمد أهل الزراعة الى أمد غير بعيد ، وترجمت أسفار التوراة نقلها سعيد الفيومي المتوفى عام ٣٣٠ هـ . وكتب عديدة عن آداب الهند وعلومهم المختلفة ، نقل بعضها أبو ريحان البيروني المتوفى عام ٤٤٠ هـ .

طريقة الترجمة : اتبع المترجمون طريقتين : الاولى واتبعها ابن البطريق وابن ناعمة الحمصي وتقوم على ترجمة كل كلمة وحدها بما يقابلها في اللغة العربية وهي طريقة غير مرضية ولا سليمة النتائج ، لأنه‌لا يوجد في العربية كل الكلمات

الاجنبية ، ولأن تركيب الجمل يختلف من لغة الى لغة . والطريقة الثانيــة هي التي اتبعها أكثر التراجمة كحنين بن اسحاق والجوهري وثابت بن قرة وقسطا بن



شكل - ١٣٣ -

صورة مرسومة عام ١٢٢٩ م في شمالي العراق ، تزين صفحة من كتاب طبي لديسقوريدس، تمثله يشرح لتلميذا من تلاميذته صفات وفوائد احد الأعشاب .

لوقا والكندي ، وتقوم على قراءة الجملة أو الفصل واستيعاب المعنى الصحيح ثم وضعه في قالب عربي واضح ، وهي طريقة أحسن ، وكان أنصار هذه المدرســة معروفين بصدق النظر وسعة الاطلاع ، والنزاهة واستقامة الاخلاق فضلاً عن فهمهم الموضوع الذي يترجمونه باللغتين ؛ اللغة التي يأخذون عنها واللغة العربية .

* * *

١ ـ المدارس

قد سبق العالم الاسلامي الغرب بقرن او ما يقاربه ، اذ تمت به في عدد من المراكز في البصره والكوفة وبغداد والقاهرة وقرطبة على انقاض ما كان في بادىء الامر مدارس دينية تعتمد على المساجد سلسلة من الجامعات العظيمة . فاضاء نور هذه الجامعات خارج العالم الاسلامي الى مسافاتبعيدة ، واجتذب اليها الطلاب من الشرق والغرب .

مؤرخ اجنبي

المدارس والمؤسسات العلمية : لكلمة مدرسة معنيان مختلفان ، الاول ويقصد به المذهب الفكري ، وقد يكون لشخص معين مدرسة خاصة ، فيما اذا نحا منحى خاصاً في بحثه أو في كتابته ، فيقال المدرسة الافلاطونية ، ويقصد بها الطريقة التي أثبتها افلاطون في فلسفته ، ومن سار على غراره واتبع طريقته ، ومدرسة أبي حنيفة في القياس . وقد يكون لجماعة من الناس مدرسة أي مذهب فكري خاص ، وقد يكون لمدينة مدرسة متميزة ، فيقال مثلا مدرسة البصرة ، أو مدرسة الكوفة في النحو ، وقد يكون لقطر مدرسة خاصة ، فيقال مدرسة الحجاز في الفتوى والتشريع ، ومدرسة الشام في أنظمة الحكم والمذاهب السياسية . وقد يكون لأمة بالذات ، فيقال المدرسة اليونانية في التفكير الفلسفي ، والمدرسة الرومانية

شكل — ١٣٤ —



مدرسة لعلوم الدين والآداب والعلوم الكونية فيها التعليم مختلط بين الجنسين .
والرسم في مخطوطة عربية اسلامية من القرن العاشر الميلادي محفوظ اليوم في متحف نيويورك

في التشريع . والثاني ويقصد به المؤسسات العلمية ، والامكنة التي يتلقى بها المرء العلوم المختلفة ، وهذه قد تطورت في الاسلام وتطور معناها بتطور الامة العربية .

المذاهب الفكرية : أما المدارس بالمعنى الاول أي المذاهب الفكرية فلقد ظهرت في الامبراطورية العربية كثير من المدارس الفكرية في مختلف أقطارها وعصورها ، بالرغم من وجود ميزات عامة اتصفت بها الحضارة العربية ـ الاسلامية ، وكان لذلك أسباب كثيرة أدت الى هذا الضرب من وجود المدارس الفكرية المتميزة ، فالحجاز وخاصة مكة والمدينة وقد عاش فيهما الرسول (ص) معظم حياته ونزل فيهما القرآن والتشريع ، وقال فيهما الرسول (ص) حديثه ، كوّن مدرسة خاصة في التشريع والتفسير وجمع الحديث وتاريخ السيرة النبوية . وكل من أراد أن يتعرف الى ما قاله الرسول (ص) أو قام به أو رواه ، رحل الى الحجاز وأخذ عن الصحابة .. وكانت المدينة أيضا عاصمة الدولة الاسلامية وفي عصر النبي (ص) والراشدين ، وكان توزيع الاسرى لا يكون الا فيها ، وكان كثير من هؤلاء من الطبقات العليا في مجتمعهم ، وكان لهم آداب وعلوم ، وعرفوا تدوين العلم وجمعه وتبويبه ، وقد أسلم كثير منهم ، فكان لهم تأثير على تطور العلوم الدينية ، وكان لطبيعة البلاد في الحجاز ، وبعد سكانه عن الترف والرفاهية أن صبغ تشريعه بصبغة اختلفت عنه في العراق أو الشام ، ومن أشهر أصحاب المدارس في

مكة معاذ بن جبل الذي خلفه الرسول (ص) في مكة بعد فتحها ليفقه أهلها في دينهم ، وعبد الله بن عباس في أخريات أيامه ، ومن أتباع مدرستها الامام الشافعي حيث أخذ عن التابعين فيها الى أن بلغ ســن العشرين حيث تحول الى المدينة ، واشتهر في المدينة من الصحابة عمر وعلي ثم يزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر ، كما اشتهر الامام مالك بن انس •• اما العراق ، فكان موطناً لحضارات زاهية فارسية وسريانية ، وفيه كثير من الاســرى الاغريق ذوي الحضارة الهيلينستية ، وكــان موطناً لكثير من النزعات القبلية والنزاع السياسي ، فأدى ذلك الى وجود مدارس مختلفة من سياسية تبحث في أحقية الناس بالخلافة ، ومن المخطىء والمصيب مــن الخلفاء والامراء ؛ ودينية ظهرت في الفرق المختلفة ؛ وعلمية ظهرت في مدرســتي البصرة والكوفة في النحو ، وتعصب القبائل العربية بعضها ضد بعض • وامــا الشام ومصر فكان لها صفات فكرية خاصة ، تأثرت بوجود الخلافة في الشام في العصر الاموي ، وبالثقافات القديمة التي كانت موجودة في مصر ، وبمركز مصر أيام استقلالها ، وسندرس مختلف هذه المدارس او المذاهب الفكرية بشكل عام •

المؤسسات العلمية : لقد حض الرسول (ص) على طلب العلم ، حتى جعله فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وحث المسلمين على الحصول عليه ولو كلفهم ذلك مشاق طويلة ، وبحثوا عنه في أقصى المعمورة فقال : اطلبوا العلم ولو بالصين ، ويقصد بذلك اطلبوا العلم ولو في بلاد بعيدة بعد الصين عنكم • وقد افتدى بعض المشركين أنفسهم من الاسر في عهده بتعليم عشرة من صبيان المسلمين ، وكان التعليم بادىء ذي بدء انما يكون في المسجد ، والمسجد هو أول الابنية الاسلامية العامة ، فيه تقام الصلوات ، وفيه يبايع الخلفاء ، وفيه يفصل بين الناس ، وفيه يدعى القوم للجهاد ، وفيه توزع الغنائم ، وفيه يخطب الخلفاء خطب العرش على حد التعبير الحديث ، ويبينون سياستهم ، وفيه أيضا كانت تعقد حلقات الدراسة والتدريس ، ولقد كبرت المساجد في العصرين الاموي والعباسي ، وكان العلماء والفقهاء والادباء يجلسون في المساجد الكبرى ، وحــولهم طلبتهم وســامعوهم

والمعجبون بهم فيحدثون ، ويوعظون ، ويلقون محاضرات علمية ، فلم تكن حلقاتهم اذن فقط للوعظ الديني ، بل كانت أشبه بالمدارس أو بمحاضرات الكليات ، يلقي الاستاذ أو المحاضر في المسجد ، ما يرغب أن يلقيه من علم كلام وتصوف ولغة وفلسفة ، ويأخذ عنه السامعون ، ويناقشونه في آرائه ، ويستشهد لهم بأقوال من سبقه ، ولقد يرحل كثيرون من مدينة الى أخرى ليناظروا عالما اشتهر بحلقاته في هذه المدينة ، كما أن الطالب قد يتردد على حلقة هذا الاستاذ مدة معينة ، حتى اذا أجازه أي أعطاه وثيقة تشعر أنه تردد على دروسه مدة كافية وأنه أصبح باستطاعته أن يحدث وينقل عنه ، ويذهب ويكوّن حلقة أخرى ، أو يتتلمذ على شخص آخر ، ليدرس علماً آخر • ومن أشهر الحلقات ، حلقة الحسن البصري في مسجد البصرة ، وتلميذه واصل بن عطاء ، رأس المعتزلة ؛ كما أن الجامع الازهر الذي بناه الفاطميون ، ليكون مركزاً للدعوة الشيعية ، ولنشر التعاليم الشيعية في القطر المصري وفي الاقطار المجاورة ، كان أشبه بجامعة علمية ، ولا يزال حتى اليوم يقوم بمهمة التدريس الديني واللغوي هو وجامع الزيتونة في تونس ، ولقد بني على أطرافه وفي جوانبه أروقة خاصة للطلاب الاجانب ــ المسلمون طبعاً ــ يقيمون فيها ، وأجريت لهم جرايات من غذاء وملبس ومسكن •

وقد بدأت الدراسة بالازهر حين جلس قاضي القضاة الفاطمي أبو الحسن علي بن النعمان القيرواني وقرأ على الناس مختصر أبيه في فقه آل البيت ثم توالت حلقات بني النعمان بعد ذلك بالازهر (عام ٣٦٥ هـ) • وحذا حذوهم بعد ذلك الوزير ابن كلس ، فجلس بالازهر وقرأ على الناس كتابا ألفه في الفقه الشيعي • ثم استأذن هذا الوزير خليفته العزيز بالله ان يعين بالازهر جماعة من الفقهاء للقراءة والدرس ، يحضرون مجلسه ويلازمونه ويعقدون مجالس العلم كل يوم جمعة ، فوافق العزيز على اقتراح وزيره وعين بالازهر سبعة وثلاثين فقيها (عام ٣٧٨هـ / ٩٨٨ م) فكانوا اول فوج من الاساتذة الازهريين ، واصبح عندئذ جامعة اسلامية كبرى تعنى بعلوم الاسلام من تفسير وحديث وكلام وفقه وعقائد وأصول اللغة

العربية • وازدادت قيمته العلمية ، بعد سقوط بغداد (٦٥٨ هـ / ١٢٥٦ م) وسقوط قرطبة في نفس الفترة الزمنية ، فحمل وحده مشعل العلوم الاسلامية وتابع في تأدية رسالته •

هذه المؤسسات العلمية كانت قائمة بالاضافة الى المساجد • وكان الوزراء والخلفاء في العاصمة ، والامراء والولاة في مراكزهم يعقدون مجالس للمناظرة ، يحضرونها بأنفسهم ، أو تعقد تحت رعايتهم ، وفيها يتناظر العلماء حول القضايا المختلف عليها ، ويحاول كل فريق أن يدعم مزاعمه أو يؤيد مدرسته ــ بمعنى المذهب ــ بحجج يفعم بها خصمه ، ومن أشهر هذه المجالس ، تلك التي كان يعقدها الخليفة ويرأسها بنفسه ، وخاصة في قضية خلق القرآن التي قال بها المأمون وأجبر الناس على القول بها ، كما كان وزراء الفاطميين يعقدون مثلها في القاهرة ارضاء لخلفائهم ، ولنزع العقيدة السنية من الشعب ، واحلال العقيدة الشيعية محلهـا بالحجة والاقناع •

والمدارس بالمعنى الحاضر تقسم الى قسمين :

١ - كتاتيب ، وهذه أنشئت في العصور الاولى للاسلام ، وكان يتردد عليها الصغار ويتعلمون فيها مبادىء القراءة والكتابة والقرآن والعلوم الدينية ، وورد كثير من أسماء المعلمين كالحجاج قبـل أن يشتهر أمره •• وظهـر في العصـر الاموي « المؤدب » الخاص في البيوت ، فكانت الاسر الغنية تكلف أحد الاساتذة بتأديب اولادها في غرفة البيت لقاء أجر ، وكان على الاستاذ أن يعلم الاطفال القراءة والكتابة والقرآن والشعر والادب ، ومن نصائح الآباء الى المؤدبين نستدل على المنهج الذي يجب أن يتبعه المؤدبون •

فقد قال عتبة بن ابي سفيان لعبد الصمد مؤدب ولده : « ••• وعلمهم كتاب الله ، ولا تكرههم عليه ، فيملوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه ،ثم روّهم من الشعر أعفه ، ومـن الحديث أشـرفه •• وجنبهم محـادثة النساء ، وروهم سـيرة الحكماء ••• » وقال الحجاج بن يوسف لمعلم ولده : « علم ولدي السباحة قبل الكتابة ، فانهم يصيبون من يكتب عنهم ولا يصيبون من يسبح عنهم » •

٢ـ مدارس الكبار وهذه لم تنشأ الا بعد القرن الرابع الهجري كما يذكر المقريزي ، ويشبهها الكتاب المعاصرون بالكليات والجامعات ، لان طلبتها كانوا يترددون عليها بعد أن يختموا القرآن ويعرفوا كثيرا من الاسس والمبادىء العلمية ، ويفدون الى هذه المدارس لتعلم العلوم الثانوية ، وللتخصص في نوع من العلوم ، ويذكر المقريزي أن أول مدرسة بنيت على هذا الشكل كانت في نيسابور وهي المدرسة البيهقية ، وبنى الغزنويون كثيرا من المدارس في مملكتهم • وأشهر مدارس بغداد ، المدرسة النظامية التي أنشأها الوزير نظام الملك ، والمدرسة المستنصرية التي شيدها المستنصر بالله في النصف الاول من القرن السابع الهجري (٦٢٣هـ ـ ١٢٣٦م) وكانت جامعة بمعنى الكلمة ، اذ حوت أربع كليات أو مدارس مستقلة ، اختصت كل واحدة منها بتدريس مذهب من المذاهب الفقهية الاربعة • ومن أشهر مدارس القاهرة بعد الازهر دار الحكمة وأطلق عليها أيضا دار العلم ، وقد شيدها الحاكم بأمر الله ، وجلب اليها الاساتذة من أنحاء العالم الاسلامي في الشرق والاندلس ، وهي بالرغم من أنها أنشئت لنشر المذهب الشيعي وتعاليمه ، فانه وجد في مكتبتها العظيمة كثير من الكتب التي تبحث في العلوم عامة • وفي الشام شيد نور الدين زنكي في النصف الثاني من القرن السادس الهجري ، كثيرا من المدارس في دمشق وحلب وحمص وحماة وبعلبك ، كما بنت أخت صلاح الدين في دمشق مدرسة ست الشام ، وبنى أخوها صلاح الدين في القدس المدرسة الناصرية وعدة مدارس في القاهرة والاسكندرية ••• وفي شمال افريقيا ، انشئت مدرسة في جامع الزيتونة منذ بنائه عام ١٤١ هـ ما لبثت أن أصبحت مدرسة دينية وللغة العربية تخرج الطلاب والعلماء لجميع بلاد المغرب • وفي عام ٢٤٥ هـ بني جامع القرويين في فاس بالمغرب ، الذي تحول بدوره الى جامعة اسلامية ، وتعتبر جامعة القرويين أقدم جامعة استمرت باداء مهمتها ، لانها سبقت في اداء رسالتها العلمية أي جامعة أوربية[1] ومن مدارس

---

(١) اقدم جامعة أوربية انشئت في سالرنو في ايطاليا ١٠٥٠ م ثم تلتها جامعة بادوا ١٢٢٢ م واكسفرد عام ١٢٤٩ وكمبردج ١٢٨٤ ، وسلامانكا باسبانيا ١٢٤٣ ، ثم مونبيليه في فرنسا .

المغرب الشهيرة مدرسة مدرسة العطارين ومدرسة البيضاء ومدرسة الصهريج ومدرسة مصباح ، ومدرسة الصابرين التي أسسها يوسف بن تاشفين •

ويعتبر العالم السوفيتي من اكاديمية موسكو « بندلي » أن أقدم جامعة في العالم ليست في أوربا كما كان يظن ، بل في افريقيا ، وفي مدينة فاس عاصمة بلاد المغرب • بينما يرى « دلفان » في كتابه « فاس وجامعتها » ان جامعة القرويين تعتبر أول مدرسة في الدنيا ••• واشتهرت مدارس الاندلس بكثير من أساتذتها الاختصاصيين الذين كانت لهم شهرة عالمية ، ولم تكن خاصة بالمسلمين بل كان يؤمها الطلاب من جميع الاجناس والاديان ، ومنهم البابا سيلفستر الثاني الذي أقام في اشبيلية ثلاث سنوات يغترف من علوم مدارسها ، حتى أنه لما أخذ الاوربيون ينشئون جامعاتهم ، التفتوا الى الاندلس ينتدبون أساتذتها للتدريس فيها والقيام بأعباء الناحية التعليمية ، من ذلك كلية الطب التي أنشئت في مرسيليا بجنوب فرنسا في القرن الثالث عشر ميلادي ، فقد دعي اليها أساتذة من عرب الاندلس ، وقد ذكر أن قرطبة في عهد الحكم الثاني كانت تضم سبعة وعشرين مدرسة مجانية ، وجامعة كانت أعظم جامعة عالمية ، وان مملكةغرناطة كانت تضم مدرسة كبرى و ١٢٠ مدرسة صغرى ، وكانت تدرس في هذه المدارس العلوم من دينية ودنيوية ، فالى جانب القرآن والتشريع والفقه والحديث ، تلقى دروس في التاريخ والجغرافيا والفلك والطب والفلسفة والموسيقى وغيرها ، وكان في أكثر المدن ، الى جانب المساجد والكليات والجامعات مكتبات كبرى أو خزائن للكتب تضم بين جدرانها آلافاً مؤلفة من الكتب ، يباح للجميع ارتيادها ، وقراءة محتوياتها وكانت من أكبر المساعدين على نشر العلم بين مختلف الطبقات في العصور الاسلامية المختلفة •

٢ ـ المكتبات

المكتبـات : كانت الكتابة عند العرب الجاهليين قليلة ، ولقد سجل كتبة الوحي القرآن الكريم على سعف النخل والجريد ورقيق الحجارة ورق الغزال ، الا أن الدين الجديد حض على طلب العلم حتى جعله فريضة على كل مسلم ومسلمة ، فأقبل الناس على تعلم القرآن شفاها ثم مالوا الى القراءة والكتابة ، ولما فتحوا الامبراطورية العربية الواسعة وجدوها حافلة بالكتب ، كثيرة المكتبات العامة ، فأخذوا بقراءتها وترجمتها ، وما لبثت صناعة الورق التي نقلوها عن الصين ، ان انتشرت وعمت العالم الاسلامي ، وادخلت تحسينات كثيرة على صناعة الورق ، حتى أصبح الورق العربي أحسن أنواع الورق في العالم ، وعنه أخذ الاوربيون هذه الصناعة خلال الحروب الصليبية ، وكان طبيعيا أن تتحسن صناعة الورق مع انتشار العلم وتنشأ حرفة خاصة هي حرفة الوراقين .. وهم أصحاب المكتبات الادبية التي تبيع وتؤجر الكتب ، وكانت حوانيت الوراقين مجتمع الادباء والكتاب والظرفاء والشعراء ، وكثيرا ما كان المتأدبون يستأجرون دكاكين الوراقين ليلا ليقرؤوا جميع ما فيها ..

وقد شجع الخلفاء والامراء والاغنياء صناعة الكتب والوراقة ، وأنشؤوا المكتبات العامة ليقرأ فيها رواد العلم دون أن يقف غلاء الكتب وتكاليف الاستنساخ حاجزاً بينهم وبين العلم . وتباهى الخلفاء والامراء بعظمة مكتباتهم وتنوع ما فيها من كتب ، وندرة الكتب التي يشترونها ، وكانت بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وغرناطة وغيرها تشتهر بمكتباتها العامة التي فاقت ما كان أنشأه البابليون والفرس واليونان والمصريون من مكتبات عامة في عواصم ملكهم . ومثال بسيط نسوقه

عن تطور المكتبات السريع ، ويدل على محبة العرب المسلمين للكتب واقبالهم على التعلم ، وهو أنه لم يكن في مكة حين ظهرت الرسالة غير سبعة عشر رجلا يكتبون ويقرؤون ، وأصبحت مكة نفسها في منتصف القرن الاول الهجري تحوي خزانة كتب قريبة من الحرم ، تجمع بين كتب الدين من قرآن وحديث وفقه ، وكتب الشعر والاخبار • ويروى أنه كان لاحد رجالات مكة وهو عبد الرحمن بن أبي ليلى ، في نفس الفترة الزمنية « بيت فيه كتب يجتمع اليه القراء قلما تفرقوا الا عن طعام •»

وإذ نشأت خزائن الكتب اول أمرها في المساجد • فان العصر العباسي هو أول من أفرد أمكنة خاصة للكتب وللترجمة والاستنساخ والدراسة ولحلقات البحث العلمي وأصبح انشاء المكتبات عادة سارية في بقية العهود العربية الاسلامية ••

كانت أقيمت مكتبات خاصة تبحث في فروع معينة من العلوم ، الى جانب تلك المكتبات العامة الواسعة ، فاذا كان صاحبها مهتما بعلم الفلك جمع المؤلفات التي تبحث في هذا العلم ومشى على ذلك المعنيون بالطب والهندسة ، أو الكيمياء أو التاريخ أو الشعر •

وأحيانا يكون صاحبها راغبا في أكثر من فرع واحد مثل علي بن يحيى المنجم فانه أسس مكتبة في بيت كبير له بضواحي بغداد أطلق عليها اسم « خزانة الحكمة » حوت على أنفس المخطوطات في شتى العلوم • وشاعت شهرتها حتى كان الناس يقصدونها من كل فج عميق •• وقد زارها العالم الفلكي أبو معشر واعجب بها اعجابا شديدا •

قال ابو علي التنوخي في كتابه نشوار المحاضرة : كانت لعلي بن يحيى بن المنجم ضيعة نفيسة وقصر جليل ، فيه خزانة كتب عظيمة يسميها خزانة الحكمة ، يقصدها الناس من كل بلد ، فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم • والكتب مبذولة في ذلك لهم ، والصيانة مشتملة عليهم ، والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى•

وأشـــهر المكتبـــات العـــامة :

مكتبات بغداد : أشهر مكتبة في بغداد هي « بيت الحكمة » أو « خزانة الحكمة » ويعتقد أن الرشيد هو الذي أنشأها ، لكن اشتهر أمرها في عهـــد ابنه المأمون لما بذله من عناية فائقة في تزويدها بجميع الكتب التي ألفت أو ترجمت في عصره وعصر من سبقه • وبيت الحكمة كانت مكتبة واسعة ، رتبت فيها الكتب ونضدت على رفوف خاصة بحسب لغتها وفرع العلم الذي تبحث فيه وزودت بمقاعد للقراءة والمطالعة وجعل لها قيم لحفظها وترتيبها وتسليم كتبها الى القراء وما شاكل ذلك ، وكانت أيضا الى جانب ذلك تضم فرقا خاصة للترجمة والنسخ ، فكان المأمون قد راسل قيصر الروم وجلب من بلاده ما عنده من كتب قديمة وأمر المترجمون أن يترجموها عن الاغريقية وكانوا يجلسون في قاعات خاصة لهم ، وكذلك المترجمون عن السريانية أو الفارسية أو السنسكريتية ، وكان النســـاخ ينسخون هذه الكتب أما لقاء جراية معلومة من الخليفة فهم أشبه بموظفين لنسخ الكتب وكتابة عدة نسخ من كل مؤلف ، أو ينسخون على حساب العلماء والاغنياء لقا ءأجر معلوم ، اذ كثيراً ما يضطر الراغبون في الحصول على كتاب من الكتب أن ينسخوه من « بيت الحكمة » لانفرادها به •

وقد جعل الرشيد « يوحنا بن ماسويه » مشرفاً عاماً على ترجمة الكتب ، بينما جعل المأمون « سهل بن هارون » وهو برتبة الوزير ، مشرفا على المكتبة ، لما كان لها من أهمية في نظره ونظر الدولة التي يرأسها ، وزادت محتويات هذهالمكتبة ، بما قدم اليها هدية من الحكام العرب أو الاجانب تقرباً من دار الخلافة الاسلامية ، بالاضافة الى ما كانوا يبيعونه بأسعار مرتفعة جداً ، فقد أهدى صاحب جزيرة قبرص مجموعة قيمة من الكتب الى بيت الحكمة وكذلك فعل قيصر القسطنطينية ، بعد أن طلبها منه المأمون • ولعل أشهر المترجمين أو المعربين ، انمـــا ظهروا في فترة حكم الرشيد والمأمون أمثال : أبو سهل الفضل ويوحنا بن ماسويه ، وابن البطريق ، وحنين بن اسحاق ، وعمر بن القرحان ، وثابت بن قرة •

ومن مكتبات بغداد الشهيرة المكتبة التي ألحقت بالمدرسة المستنصرية وهي ذات قاعات واسعة للمطالعة مجهزة بما يساعد القراء على القراءة ، من مقاعد ، وصهاريج لتبريد مياه الشرب وساعة حائط لمعرفة الوقت والتنبيه الى أوقات الصلوات . والمكتبة التي وقفها وزير بهاء الدولة عام ٣٨١ هـ وجمع فيها أكثر من عشرة آلاف مجلد ، وقد احترقت عند دخول السلاجقة بغداد ٤٤٧ هـ .

مكتبات القاهرة : اهتم الفاطميون بانشاء المكاتب وجمع الكتب التي تؤيد المذهب الشيعي الفاطمي ومنافسة بغداد في ذلك ، فأنشأ يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمي « خزانة الكتب » لتضاهي بيت الحكمة البغدادية ، وكان الخلفاء الفاطميون يغذونها دائما بما يحصلون عليه من الكتب حتى ناف عدد مجلداتها على المليون والنصف مجلد ، منها عدة نسخ لكتاب واحد ، ومنها نسخة لكل كتاب ، وقد أنشأ الحاكم بأمر الله « دار العلم » أو دار الحكمة عام ٣٩٥ هـ وعين لها أساتذة لتدريس أصول المذهب لذلك كانت مكتبة ومدرسة في وقت معاً .

ويروي أحد المؤرخين : « انه قد حملت الى هذه المكتبة الكتب من خزائن القصور ، وحمل اليها من خزائن الحاكم من الكتب ما لم ير مثله مجتمعاً لاحد الملوك أو الخلفاء فط » وأجرى الحاكم بأمر الله الارزاق على من في دار الحكمة من العلماء والفقهاء والاطباء وأباح دخولها لجميع طبقات الشعب ، ومذاهب أهل السنة والشيعة ، للقراءة فيها أو للكتابة والنسخ والتعليم والترجمة . وصارت تعقد فيها الاجتماعات العلمية ، ليحيي فيها الجو العلمي الذي شهدته بغداد في عصري الرشيد والمأمون ، وصار الحاكم يحضر بنفسه أحيانا مجالس المناظرة العلمية ، ويخلع في نهاية كل جلسة يحضرها الخلع السنية على العلماء المساهمين في المناظرة والمناقشة والجدل العلمي والديني والادبي . وأكد الحاكم بأمر الله ، بأن ما أوقفه على دار الحكمة من أوقاف (ضياع وحوانيت وأبنية) ستمولها أبد الدهر ..

ومن وصف المقريزي لهذه المكتبة القاهرية نستطيع أن نأخذ فكرة عن البناء

وعن المحتويات ، حيث يقول ان دار الحكمة لم تفتح أبوابها للناس الا بعد أن فرشت وزينت وزخرفت وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور ، وعين لها القوّام والخدم •• وكان البناء عظيماً جداً ، اذ كانت عدة الخزائن برسم الكتب في سائر العلوم أربعين خزانة تتسع الواحدة منها لنحو ثمانية عشر الف كتاب وكانت الرفوف مفتوحة والكتب في متناول الجميع •• وهذا الوصف يدل على ان المقصود بالخزانة ليس ما نعرفه من الخزائن الخشبية أو المعدنية ، بل بما قصد المقريزي قاعة كبرى جعلت الرفوف في جدرانها وخصصت كل قاعة لفرع من العلوم •

مكتبات بلاد الشام : لم ينشيء الامويون مكتبات عامة ، وأهمل العباسيون أمر بلاد الشام لذلك لم تسم في مكتباتها الىدرجة بغداد والقاهرة ، واشتهر أمر المكتبة التي أنشأها الفاطميون في طرابلس الشام • وعرفت أيضاً بدار العلم وقد نهبها الصليبيون • ومكتبات الخزائن النورية التي أنشأها نور الدين زنكي ، ومكتبة انطاكية التي كان يتردد عليها أبو العلاء المعري ، عدا مكتبات حلب ودمشق الصغيرة والكثيرة العدد التي كانت تلحق بالجوامع والمدارس التي أتى الحريق ويد النهب والسلب على أكثرها •

مكتبات المغرب : أطلق على المكتبة في المغرب اسم « خزانة » وأشهرها خزانة القرويين ، وكان فيها حتى آخر القرن الماضي ثلاثون ألف مجلد ، وكانت بها أكثر مخطوطات « الاسكوريال » في مدريد • سرقت منها ، حين كلف السلطان زيدان السعدي قنصل فرنسا عام ١٦١٧ م بنقل اربعة آلاف مخطوط عربي الى أغادير ، فحول القنصل شراع مركبه الى فرنسا ، فأسره القراصنة الاسبان وغنموا المخطوطات ووضعوها في الاسكوريال •

ويروى أن أبا يوسف المريني كان قبل ذلك قد اشترط في صلح له مع ملك اشبيلية منحه جميع المخطوطات العربية التي انتزعت من المسلمين أيام انحسار حكمهم عن الاندلس ، فحمل منها الى جامعة القرويين ثلاثة عشر حملا •

مكتبات الاندلس : قلد الاندلسيون المشارقة وفاقوهم في بعض مظاهر الحضارة ، وأسس الحكم بن الناصر (توفي ٣٦٦ هـ) مكتبة في قصره في قرطبة ، وجلب لها الكتب من العالمين الاسلامي والاوربي وأقام لها الموظفين للعناية بشؤونها ، وزاد عدد كتبها عن الاربعمائة الف كتاب • ويقول الكاتب الاوربي كونديه Conde ان الاسبان عندما استولوا على قرطبة أحرقوا في يوم واحد نحو سبعين خزانة للكتب فيها ما يزيد عن مليون وخمسين الف مجلد •



شكل ـ ١٣٥ ـ
رسم مكتبة من المكتبات التي يتردد عليها العلماء
وجدت في مخطوطة عربية قديمة

العلوم الدينية

العلوم الاسلامية : نزل القرآن الكريم على الرسول (ص) وفيه التشريع الاسلامي ، وقام الرسول بكثير من الاعمال وحدث كثيراً من الاحاديث لحل جميع القضايا الدينية والاجتماعية التي اعترضت له ، وكان الناس يرجعون اليه في حل مشاكلهم ، ولكن كثيرا منهم كان بعيدا عن مكان اقامته ، كما أنه بعد وفاته عليه السلام انقطع الوحي ، وأصبح لزاماً على الناس أن يفهموا أو يدرسوا أقواله ، ويقيسوا الاشياء بنظائرها ، وجاءت طبقة جديدة اختلفت في تفسير آي الذكر الحكيم ، وكان لا بد لكل هذا من أن تنشأ علوم دينية مختلفة ، بعضها يتعرض لتفسير القرآن وآخر يبحث في الحديث ، وثالث يبحث في الفقه ..

علوم القرآن :

١ ـ علم القراءات : نزل القرآن بلهجة قريش واستعمل كلمات غير عربية كانت معروفة من قبل أكثر العرب ، وسمح الرسول لاتباعه بقراءة القرآن حسب

(★) زخرفة حاشية صفحة احد المصاحف ، وهي نموذج أساليب المدرسة البغدادية في زخرفة المخطوطات .

لهجاتهم الخاصة • وقد جمعت هذه اللهجات فيما بعد بسبع لهجات ووصل بها بعضهم الى عشر • ولا يزال القراء يقرؤون القرآن على هذه اللهجات • ولكن العامة في جميع العالم الاسلامي تقرأه على لهجة قريش •

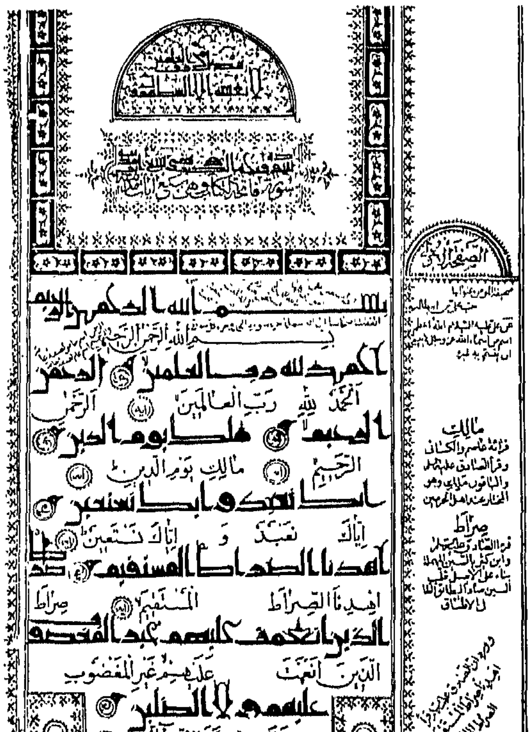
ووضع القراء قواعد وأسس لقراءةالقرآن ولهجاته جمعت في « علمالتجويد » •

٢ ــ التفسير : ان أي كتاب عام شامل يحتاج الى مفسرين يفسرون ما غمض من أصوله وقواعده ، لان الناس متفاوتون في فهم اللغة التي يتكلمون بهاواستيعاب مفرداتها وتراكيبها ، فكيف بالقرآن ، وهو كتاب جامع لاصول دين جديد ، استعرض أخبار الامم السالفة وشرع لاتباعه قانوناً أراد له البقاء وأمر اتباعه القيام بفرائض وعبادات متنوعة ، فلا بد للناس من تفسير لآياته وتعليماته كمناسك الحج مثلا ، وعدد ركعات صلاة كل وقت ، وبيان الآيات التي نزلت بمناسبة حوادث معينة وقعت في عهد الرسول • والقرآن وان نزل بلغة العرب الفصحى ، فقد آمن به أقوام غير عربية ، تحتاج الى فهمه ودراسة معانيه ، حتى العرب الاقحاح لم يكونوا على مستوى ثقافي واحد ، ليفهموا آياته على قدر سواء ، ونحن ندرك من واقعنا ، ان الخطبة تلقى على المستمعين ، فيأخذ كل منهم على قدر ثقافته ووعيه ، وان الكتاب يقرأ ، فلا يكون الجميع متساوين في فهمه واستيعابه • بل على قدر ثقافة السامع أو القارىء يكون الفهم ويكون الاستيعاب ، وعلى هذا نشأ علم التفسير الذي اعتمد على :

أ ــ تفسيرات الرسول : فقد كان الرسول عليه السلام يفسر ما جمل من آي الذكر الحكيم ، فقد فرض القرآن الصلاة ، وبيّن الرسول كيفية هذه الصلاة وعددها وأوقاتها وشروطها ونواقضها ، وفرض القرآن الزكاة فشرحها الرسول وبين نسبتها الى المال ، وبين شروطها في مختلف أحوال المال النقدي والعيني وهكذا نقل عن الرسول كثير من التفاسير •

ب ـ النقل عن الصحابة الاوائل : كان صحابة الرسول يرافقونه في حله وترحاله ويحفظون عنه أقواله ويراقبون أعماله ، فعرفوا أسباب نزول الآيات والظروف التي لابستها ، والناسخ والمنسوخ منها ، وأخذوا بعد وفاة الرسول يشرحون ذلك للناس ويفسرون لهم ما غمض عليهم من المعاني •

جـ ـ الاجتهاد : وهو أن يدرس العلماء الآيات معتمدين على معاني كلماتها



شكل ـ ١٣٦ ـ
سورة الفاتحة من مخطوطة مصحف كتب بالخطين الكوفي والنسخي بيد زين العابدين الشريف الصفوي (بدىء بكتابة هذا المصحف في عام ١٣١٢ وتمت الكتابة عام ١٣٢٣ في عهد مظفر شاه قاجار في ايران) •

اللغوية ، ومناحي القول عند العرب بدراسة أشعارهم ولغتهم دراسة مستفيضة ، ومطابقة هذا التفسير على روح الاسلام العامة ، وقد عرف ذلك أيضا باسم «الرأي» وأول من فعل ذلك ابن عباس وابن مسعود •

د ـ مافي الكتب السماوية الاخرى : آمن كثير من اتباع الديانتين السماوية اليهودية والنصرانية ، ووجد هؤلاء أن القرآن نحى في ذكر قصصه عن الامم الغابرة منحى العظة دون ان يتعرض للتفصيل ، وقد مال الناس بعد ذلك لاستقصاء الحوادث ومعرفة وقائعها ، ففسرها لهم هؤلاء اليهود والنصارى الذين أسلموا بما في كتبهم الدينية ، وهكذا فسرت الآيات التي ذكر فيها أصحاب الكهف وقصة آدم والجنة والشجرة التي نهى آدم عن الاكل منها • وأشهر المفسرين الذين اعتمدوا على التوراة هو وهب بن منبه وكان يهوديا فأسلم ، كما اعتمد الطبري في تفسير سورة مريم على الانجيل •



شكل ـ ١٣٧ ـ

صفحة من مخطوطة مصحف نادر مكتوب بالخط الاندلسي وفيها الآيات ٧٥ ـ ٧٧ من سورة النساء

المفسرون وكتبهم :

الذين فسروا آيات القرآن أكثر من أن يحصروا ، ولكن الذين اشتهروا بالتفسير وتركوا لنا تفاسير مدونة طبعت اليوم يمكن معرفة آرائهم وطريقة بحثهم ومناقشة تفاسيرهم قليلون ، فبعد الصحابة الاوائل مثل علي وعبد الله بن عباس وعبد الله ابن مسعود وأبي موسى الاشعري الذين لم يصلنا من تفاسيرهم شيء جاءت طبقة من المفسرين في عصر التأليف والتدوين منهم :

الطبري : وكتابه جامع البيان في تفسير القرآن •

البغوي : وكتابه معالم التنزيل

الزمخشري : وكتابه الكشاف •

الرازي : وكتابه مفتاح الغيب •

البيضاوي : وكتابه أنوار التنزيل وأسرار التأويل •

جلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلي:وكتابهما تفسير الجلالين •

وفي عصرالنهضةالحديثة نهض بعض العلماء لدراسةالقرآن وتفسيره تفسيراًيتلاءم

عصر النهضة الحديثة نهض بعض العلماء لدراسة القرآن وتفسيره تفسيراً يتلاءم
والعقلية الحديثة والعلوم العصرية ، ويتماشى مع الواقع في النهضة الجديدة • اذ ان معجزة القرآن التي جعلته فوق مستوى أي قانون وضعي آخر ، تلك المرونة العجيبة ، والمعاني الكثيرة التي يفهمها الانسان بحسب ذكائه وثقافته وبيئته ، فكان تفسير القرآن — كما يقول المرحوم أحمد أمين — في كل عصر من العصور يتأثر بالحركة العلمية فيه ، وهو صورة منعكسة لما في العصر من آراء ونظريات علمية ومذاهب دينية ، حتى لتستطيع اذا جمعت التفاسير التي ألفت في عصر من العصور أن تتبين فيها مقدرة الحركة العلمية ، وأي الآراء كان سائداً وشائعاً وأيها غـير ذلك •

وأشهر التفاسير الحديثة تفسير الشيخ رشيد رضا نقلاً عن استاذه الشيخ محمد عبده ، وتفسير فريد وجدي ، والتفاسير الجزئية لآيات معينة أو سور معينة التي نشرها سيد قطب أو علماء الاسلام في الازهر وغيره .

ولنذكر شيئا عن أقدم كتاب تفسير بين أيدينا وعن كاتبه : **« الطبري »**

كانت ولادة الامام ابو جعفر محمد بن جرير الطبري سنة (٢٢٤هـ / ٨٣٨) في بلدة آمل عاصمة طبرستان ، وقد عاش خمسا وثمانين سنة حيث توفي سنة (٣١٠ هـ / ٩٢٣) في بغداد ودفن بها .. أعني أنه عاش في أزهى عصور الاسلام تقدماً وانتاجاً على كل المستويات الفكرية ..

وكانت الصفة البارزة للذين تعرضوا لتفسير القرآن ، تهيبهم من القول فيه بآرائهم ، واعتمادهم على ما وصل اليهم من روايات يتناقلونها ، منها الصحيح ، ومنها الضعيف أو الموضوع أو المستمد من الاسرائيليات .. وقد أثر هذا الجو على الطبري فكانت عنايته البالغة بالرواية ، وان لم يمنعه هذا من أن يدلي برأيه موافقاً أو مخالفاً . فكان تفسيره يمثل دائرة معارف ضخمة في كل العلوم التي كانت سائدة في هذا العصر ، وتتصل بتفسير القرآن ..

وقد انطوى تفسير الطبري واندثر ، ونامت نسخـه في بعض المكتبات ... فمرت عليه قرون دون أن يعرفه أحد اللهم الا بعض نماذج وورقات مبعثرة كانت تشير اليه وتثير تلهف العلماء عليه حتى نجد المستشرق نولدكه يكتب سنة ١٨٦٠م بعد أن اطلع على نماذج من هذا التفسير : « ولو حصلنا على هذا الكتاب لاستطعنا أن نستغني عن كل كتب التفسير المتأخرة عليه » . وقد أراد الله لهذا الكتاب العظيم ان يبعث من جديد ، وفي عهد النهضة المطبعية اذ وجدت منه نسخة كاملة كما يقول جولد تسيهر في مكتبة أمير حائل وأمكن الاعتماد عليها في طبعه بالقاهرة فـي أوائل هذا القرن...

وقد جاء الطبري في تفسيره باشتات من الروايات • وهو يعلم ان منها الموضوع والمكذوب • فترك لضعاف العقول عقلية خرافية تراودهم مدى الدهر ••• وكنا نحب الا تنقل الى مابعد عصره ، والا تحويها الكتب ••• ولكن وجودها مع ذلك يعطينا جانبا من صورة الجو الفكري الذي راجت فيه رواجا جعل الطبري وأمثاله يعنون بتدوينها[1] •

يروي ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله : التفسير على أربعةأوجه : « وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، تفسير تعرفه العلماء ، وتفسير لايعلمه الا الله »•

ولم يتعرض المفسرون كثيرا للوجهين الاول والثاني لانهما معروفان لدى القارىء والسامع من العرب ولا الوجه الرابع كوقت قيام الساعة مثلا مما استأثر الله بعلمه • وانما كان الوجه الثالث هو مدار التبيان والسؤال والجواب •

٢ ــ **الحديث وأصوله** : كان لدى المسلمين بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كتاب مدوّن هو القرآن ، وأحاديث غير مدونة هي مجموع ماقاله الرسول ، ولقد خشي الصحابة الاوائل ان يجمع الحديث في كتاب واحد ، فيشغل الناس عن القرآن ، ولقد روي عن عمر بن الخطاب أنه قال في معرض نصائحه لبعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا من المدينة الى العراق : « جوّدوا القرآن، وأقلوا الرواية عن رسول الله » •

ينقسم علم الحديث الى قسمين : علم الحديث رواية • وعلمه دراية •

أما علم الحديث رواية ، فهو علم يشتمل على نقل ما اضيف الى النبي عليه السلام أو الى أحد أصحابه أو من دونهم ، قولا أو فعلا أو تقريرا أو صفة • أو هو

---

(١) الشيخ عبد المنعم النمر ، رئيس تحرير « الوعي الاسلامي » ، الكويت . مقالان في مجلة العربي عدد ١٢٩ و ٣١٣ .

بتعبير آخر : علم يبحث فيه عن كيفية اتصال الاحاديث بالرسول عليه السلام من حيث أحوال رواتها ضبطا وعدالة ، ومن حيث كيفية السند اتصالا وانقطاعا واشتهر بأصول الحديث .

وأما علم الدراية ، فهو علم باحث عن المعنى المفهوم من ألفاظ الحديث وعن المراد منها مبنيا على قواعد العربية وضوابط الشريعة ومطابقا لاحوال النبي صلى الله عليه وسلم .

والحديث ينقسم الى متواتر وغير المتواتر والمتواتر هو الحديث الذي يكون له أسانيد كثيرة ، (من عشرة الى أكثر) وغير المتواتر ماورد بثلاثة أسانيد فصاعدا ويسمى مشهورا ، وما ورد باثنين ويسمى عزيزا وما ورد بواحد ويسمى غريبا ، وهذه الثلاثة تسمى آحادا ... وهي تنقسم الى : مقبول وهو ما يجب العمل به عند الجمهور ، والى مردود ، وهو الذي لم يرجح صدق المخبر به . كما تنقسم الآحاد الى صحيح ، وحسن ، وضعيف ...

وضع الحديث : كان لعدم تدوين الحديث في عهد مبكر ، أن استباح قوم لانفسهم وضع الحديث ونسبته الى الرسول عليه السلام حتى أن بعض الناس لم يتورع عن افتراء الحديث على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام في حياته ، يدلنا على ذلك قوله : « من كذب علي عامدا متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » ولعل ذلك الحديث قيل ليمنع الناس من الكذب على لسانه ، وانما وضعت كثير من الاحاديث في العصور التي تلته لاسباب عديدة منها :

١ ـ الخصومة السياسية : عندما انقسم المسلمون منذ الفتنة الاولى التي انتهت بمقتل عثمان واستمرت الى نزاع بين علي ومعاوية ، ثم ظهرت على شكل نزاع بين الامويين والعلويين والخوارج والزبيرية وغيرهم ، عمد كل فريق من هؤلاء الى الحديث يضع ما يؤيد رأيه ويدعم حجته من تفضيل لقبائل على قبائل ، وأعمال على أعمال .

ب ـ الخصومة الدينية : وقـد نشأت عندما بحثت الفرق أمورا دنيوية لها مساس بالدين أو أمورا دينية بحتة كمسألة الخلافة وأمر مرتكب الكبيرة وصفات الله تعالى ، وقد عمد بعضهم عندما عجز عن تأييد دعواه بالمنطق السليم الى الافتراء على لسان رسول الله •

ج ـ الخصومات العنصرية : اتبع الامويون سياسة عربية وأبعدوا الموالي عن أعمال الدولة فنقم هؤلاء عليهم ، وأيدوا الثورات التي قامت ضد الامويين ، ثم ناصروا العلويين والعباسيين وأقاموا الدولة العباسية على أكتافهم ، وقاوموا النفوذ العربي في المجال السياسي والديني والادبي ونشأت حركة الشعوبية خلال هذا الصراع العنيف ، ووضع كل فريق من العرب والعجم الاحاديث بتفضيل العرب على العجم او بالعكس •

د ـ التقرب من ذوي النفوذ والجاه ومتابعة هوى الخلفاء والامراء : كان بعض من يتسم بسمة العلم ، يتقرب من ذوي المكانة في الدولة بتأييد أعماله وأفعاله ولو كانت مخالفة للشرع الحنيف ، وذلك باختلاق الاحاديث الكاذبة تبعالهوى هؤلاء المتنفذين طمعا في مال أو حظوة •

هـ ـ رغبة بعض العلماء الحث على الفضائل والترهيب من عمل الحرام رأى بعض العلماء أن قسما من الناس لايرعوون عن منكر ، ولا يقبلون على مستحب الا اذا كان لذلك أصول دينية ، فلما شاهدوا بعض المسلمين قد انصرفوا عن تعاليم الدين، أوجدوا أحاديث جمة بفضل قراءة القرآن وبعض سوره في أوقات معينة ، وبفضائل الصحابة والاولياء والعلماء ، وفي الدعوة الى التصوف وغيرها حتى يقبل الناس على قراءة القرآن وعمل الخير واحترام أهل العلم ، والابتعاد عن الاسترسال وراء الشهوات لان الكثيرين أصبحوا لا يقبلون العلم والدين الا ما اتصل منه بالكتاب والسنة •

ولهذا دخل في الحديث كثير من الموضوع المختلق بشكل روع أهل العلم في عصر التدوين فانبروا الى جمع الحديث وتدوينه بعد تنقيته وتمييز صحيحه عن موضوعه ، واتبعوا في ذلك طرقا تعد أحسن طرق علمية يمكن ان تتبع للتأكد من صحة الحديث وهي :

أ ــ الاسناد : أي اسناد الحديث الى رواته فيقال مثلا : حدثني فلان عن فلان ••• عن رسول الله أنه قال •••

ب ــ الجرح والتعديل : أي دراسة رواة الحديث أنفسهم وترتيبهم حسب صدقهم وأمانتهم في النقل ، وحيادهم المذهبي والسياسي ، فمتى عرف أحدهم ولو بكذبة واحدة في حياته أو انتمى لفرقة سياسية أو دينية جرّح ولم يقبل منه الحديث، ومن لم يعرف عنه ذلك ، واشتهر بالتقى والورع والصدق ، « عدّل » وقبل منه الحديث • وعلى هذا الاساس نقد الاسناد ودرست أحوال السند بعناية فائقة وبطرق علمية ، وصنف المحدثون بطبقات حسب أهميتهم ومقدار الثقة برواياتهم •

أشهر المحدثين الاوائل : أبو هريرة ــ عائشة أم المؤمنين ــ عبد الله بن عمر ــ عبد الله بن عباس ــ أنس بن مالك •

تدوين الحديث :

عندما جمع القرآن في عهد أبي بكر فكر جماعة في جمع الحديث لكن عمر مانع في ذلك خشية أن ينصرف الناس الى الحديث ويتركوا القرآن • وقد بقي الحديث محفوظا في الصدور يتناقلونه شفاها أو مكتوبا بشكل مفرق عند بعضهم ، جاء في كتاب كشف الظنون : واما مبدأ جمع الحديث وتأليفه وانتشاره ، فانه لما كان من أصول الفروض ، وجب الاعتناء به والاهتمام بضبطه وحفظه • ولذلك يسر الله سبحانه وتعالى العلماء الثقاة الذين حفظوا قوانينه واحتاطوا فيه ، فتناقلوه كابرا عن

كابر ، وأوصله كما سمعه أول الى آخر ، حتى لقد كان أحدهم يرحـل المراحل ، ويقطع الفيافي والمفاوز ويجوب البلاد شرقا وغربا في طلب حديث واحـد يسمعه من راويه ، فمنهم من يكون الباعث له على الرحلة طلب ذلك الحديث لذاته ، ومنهم من يقرن بتلك الرغبة سماعه من ذلك الراوي بعينه ... فانبعثت العزائم الى تحصيله . وكان اعتمادهم أولا على الحفظ والضبط في القلوب ، غير ملتفتين الى ما يكتبونه، محافظة على هذا العلم كحفظهم كتاب الله سبحانه وتعالى . فلما انتشر الاسلام ، واتسعت البلاد ، وتفرقت الصحابة في الاقطار ومات بعضهم ، وقل الضبط ، احتاج العلماء الى تدوين الحديث وتقييده بالكتابة .

وجاء في صحيح البخاري في كتاب العلم : ان عمر بن عبد العزيز كتب الـى ابي بكر بن حزم أمير المدينة وقاضيها (توفي سنة ١٢٠ هـ) : انظر ماكان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاكتبه ، فاني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا يقبل الا حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، وليفشوا العلم وليجلسوا حتى يعلم من لا يعلم فان العلم لا يهلك حتى يكون سرا ...

وفي مصدر آخر (مفاتيح السنة) ان عمر بن عبد العزيز كتب الى عماله فـي انحاء المدن الاسلامية بجمع الحديث ...

الا ان ما جمع في عهد هذا الخليفة الاموي لم يصلنا وان كان أحـد المراجع التي اعتمد عليها من دونوا الحديث من بعده .

وعندما بدأ التدوين في أواخر العصر الاموي جمع كثير من العلماء ما سمعوا من حديث ، ولما قويت الحركة العلمية من تأليف ونقل وجمع ، انكب جماعـة من العلماء على تصنيف الحديث وتدوينه وانقسموا الى فريقين : فريق جمع كل الاخبار المروية عن الرسول عليه السلام من أحاديث العقائد وأحاديث الاحكام ، والاحاديث الاخرى التي تعرضت لشؤون الحياة والمعاملات كالتربية النفسية والادب الديني

وخلق المجتمع الفاضل ، وبث الروح الاسلامية وغيرها • وسميت كتبهم بالجوامع مثل كتاب صحيح البخاري (٢٥٦ هـ) وصحيح مسلم (٢٦١ هـ) • وفريق رتب أحاديث الفقه ترتيبا بحسب ابواب الفقه ، فتتبع رواتها أحاديث الاحكام وقضاء النبي صلى الله عليه وسلم وأعماله التي ستنبىء عن أحكام فقهية وما أقرّه من أقوال واعمال تتعلق بالاحكام ، ويروون معها أقوال الصحابة الفقهية • وأول هذه الكتب : الموطأ للامام مالك (٩٤ ـ ١٧٩ هـ) وقد ذكر فيه أقوال الصحابة وما يستنبط منها من فقه • وذكر في المقدمة أن هـذا الاستنباط متصل بصلة وثيقة بالسنن والآثار •

ونهج على غرار مالك جامعو الاحاديث التي عرفت كتبهم بالسنن وهمأربعة:

١ ـ أبو داود (٢٠٢ ـ ٢٧٥ هـ) : الامام سليمان بـن الاشعب الازدي السجستاني • صنف كتاب السنن ، جمع فيه المهم من أحاديث الاحكام • وقد رحل في سبيل طلبه وجمعه وتصنيفه الى مدن العراق والحجاز والشام ومصر •

٢ ـ الترمذي : (٢٠٩ ـ ٢٧٩ هـ)

هو محمد بن عيسى بن سورة الترمذي نسبة الى ترمذ التي ولد فيها ، ومات ضريرا في مسقط رأسه •

قال علماء الحديث : « لما مات البخاري لم يخلفه في خراسان مثل أبي عيسى الترمذي في علم الرواية والورع والتقوى ، فاعتبروه خليفة البخاري في خراسان وعزاء الناس فيه بعد موته • وقد قام الترمذي بعملين جليلين في التأليف في علم الحديث :

أولهما : كتابة الحديث وجمعه وترتيبه وتدوينه في كتابه «الجامع» وسمي سننا ، وقد قال عنه الحافظ بن كثير : كتاب الجامع أحد الكتب الستة التي يرجع اليها العلماء في كل الاوقات •

ثانيهما : دراسته لرجال الحديث ومراتبهم من حيث قوة الثقة فيهم ، فكتب : كتاب التواريخ وكتاب العلل وكتاب الاسماء والكنى .

ويعقد بعض علماء الحديث موازنة بين « جامع » البخاري و « جامع » الترمذي ، فيجمعون على أن جامع البخاري أقوى ثقة وأصح جمعا لدقته في الرواية وشروطه الشديدة فيمن يأخذ عنهم ، وان جامع الترمذي أكثر وضوحا وبيانا ، لانه لايكرر الحديث اذا تعددت طرق روايته ، بل يختار واحدة ، وهي التي يراها أوثق من غيرها . وقد يشير الى غيرها من تكرار لنص الحديث .. من هذه الموازنة قول أحد العلماء : « كتاب الترمذي عندي أنور من كتاب البخاري ، لانه لا يصل الى الفائدة من البخاري الا من هو من اهل المعرفة التامة بهذا الفن . وكتاب الترمذي قد شرح أحاديثه وبينها ، ليصل اليها الناس من الفقهاء والمحدثين وغيرهم .

٣ ـ ابن ماجه (٢٠٩ ـ ٢٧٣ هـ) : الامام المحدث ابو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه الربعي القزويني . ارتحل في سبيل العلم الى مدن العراق والحجاز والشام وفارس ومصر . وله من علم الحديث كتاب السنن .

وقال عنه الحافظ بن كثير : « السنن لابن ماجه دالة على عمله وعلمه وتبحره واطلاعه واتباعه للسنة في الاصول والفروع ويشتمل على اثنين وثلاثين كتابا ، وألف وخمسمائة باب ، وعلى أربعة آلاف حديث كلها جياد سوى اليسيرة » وقال الذهبي في كتابه تذكرة الحفاظ : سنن أبي عبد الله بن ماجه كتاب حسن لولا ما كرره من أحاديث واهية ليست بالكثيرة .

٤ ـ النسائي (توفي سنة ٣٠٣ هـ) : الامام ابو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي ، وكان فقيها ، وحافظا ، وعابدا ، ومجاهدا ، وله كتاب السنن الكبرى ، والسنن الصغرى المسمى بالمجتبى وقد اختصره من الاول .

الفقه الاسلامي

الفقـه : الفقه لغة العلم بالشيء والفهم له • والفقه اصطلاحا • العلم بالدين والفهم له • فالفقه الاسلامي اذن : التبحر في الدين الاسلامي واستنباط أحكامـه الشرعية من مصادرها الرئيسية فهو علم التشريع الديني • ومصادره هي :

أ ــ القرآن الكريم : دستور المسلمين ومصدر تشريعهم الرئيسي• أكثـر آياته المدنية هي آيات تشريعية ، بحثت في الامور الدنيوية ونظمت علاقات الفرد بالمجتمع وبالحكومة ، وتعرضت لامور البيع والشراء والزكاة وأنواعها ، والعائلة وأسسها وما شاكل ذلك • والقرآن كلام الله لاتغيير فيه ولا تبديل • والتشريـع الاسلامي على هذا تشريع الهي بعكس التشريعات الوضعية الاخرى •

ب ــ الحديث والسنة : وضع القرآن الخطوط الرئيسية في التشريع الاسلامي ولم يتعرض للتفصيل فيها وترك كثيرا من الامور للظروف المواتية ، وكان الرسول عليه السلام في حياته يفسر ماجاء مجملا في القرآن ويحل المشاكل التي تعرض له ولم تنزل فيها الآيات كما سبق وذكرنا • فكان عمله وقوله المصدر الثاني للتشريع في الاسلام •

(★) الزخرفة العلوية هي زخرفة حاشية الصفحة الاولى من مصحف مكتوب بخط الخطاط الحافظ عثمان . وتمثل نموذجاً من أسلوب زخرفة المصـاحف في العهد العثمـاني .

ج ـ القياس : ماكاد الرسول ينتقل الى الرفيق الاعلى حتى واجه المسلمون مشاكل لم ينزل فيها نص ولم تحدث في حياة الرسول حتى ترد فيها سنة ، كمن يخلف الرسول بعد وفاته ، وكأمر المرتدين الذين أقروا بالدين الاسلامي ولكنهم امتنعوا عن دفع الزكاة ، وقصة جمع القرآن ، والمشاكل المعقدة التي جابهتهم في الشام ومصر والعراق من ارث وفتنة وسرقة... فماذا يفعل الخلفاء ؟ أيقفون جامدين أمام هذه المشاكل جميعها فتصاب دولتهم بالجمود والرجعية • أم يجدون لها حلا ملائما ؟ لقد قاسوا الامور بأشباهها ، وعرفت طريقتهم « بالقياس » كما عرفت فيما بعد باسم « الرأي » لان أهل الرأي صاروا يبدون آراءهم فيما لم يرد فيه نص بما يوافق روح الاسلام العامة ، وكان أكثر أهل الرأي في العراق الذين جابهوا حضارة قديمة معقدة ، ومشاكل جديدة لم تألفها حياة الصحراء ، ففرعوا الفروع ، وتساءلوا « أرأيت لو أن الامر كذا ؟ فما حكم الشرع فيه ؟ » وقد سماهم خصومهم بالأرأيتيين •

د ـ الاجماع : في كثير من القضايا التي يحتمل فيها وجهان أو أكثر ، كان الخلفاء يأخذون رأي علماء عصرهم ، فما اتفقوا عليه أقروه وحكموا بموجبه ، واعتبروه تشريعا عاما لمثل هذه الاحوال ، وصارت قاعدة عامة فيما بعد ، أن يعتبر اتفاق علماء عصر من العصور في تحليل أو تحريم أمر من الامور تشريعا ، وبذلك لم يقف التشريع عند حدوده التي كانت في عهد الرسول ، بل خضع الى ناموس التقدم والتطور وملائمة الحضارات المختلفة ومجابهة كل المشكلات التي تعترض الانسان في حياته ، مهما اختلفت اشكال الحكم ، ومهما تعقدت الحياة الاجتماعية •

المذاهب الفقهية : اذا كانت مصادر التشريع الاسلامي أربعة : قرآن ـ سنة ـ قياس ـ إجماع • فان جميع الناس لايستطيعون استنباط الاحكام الشرعية من هذه المصادر الاربعة ، بل لا بد لهم أن يسألوا العلماء المتفقهين بأمور الدين ، وصاروا يتبعونهم في أمور دينهم ودنياهم ، وكان أهل الحجاز لا يفتون فيما لم يرد فيه نص،

ويعتبرون الاعمال التي اجمع أهل المدينة على القيام بها مصدرا من التشريع لان الرسول قضى بينهم الشطر الاكبر من حياته ، ولم يكونوا يفتون الا فيما وقع من الامور بعكس أهل العراق الذين بحثوا الامور بحثا علميا مجردا ، سواء وقعت الحوادث فعلا أم لم تقع ، حتى ولو كان وقوعها يكاد يكون من المستحيل ، وعلى هذا تعددت المذاهب الفقهية وتنوعت • وظهر عدد من علماء الفقه اختلفوا في الحكم على الامور وصار الناس يتبعون رأي أحدهم مثل : الحسن البصري ـ الاوزاعي ـ النووي ـ داود الظاهري، ـ الطبري • الا أن هذه المذاهب جميعها تبلورت على أربعة مذاهب ، نسبت الى أربعة علماء ، هم الامام أبو حنيفة ـ الامام مالك ـ الامام الشافعي ـ الامام أحمد بن حنبل • واندثرت بعدهم المذاهب الاخرى وأصبح السنيون في العالم الاسلامي اليوم يتبعون هذه المذاهب الاربعة • وللشيعة أئمة مجتهدون آخرون •

١ ـ الامام أبو حنيفة (٨٠ ـ ١٥٠ هـ) فارسي الاصل ولد في الكوفة واشتغل بتجارة الثياب وتتلمذ بنفس الوقت على فقهاء الكوفة مثل سفيان الثوري وابراهيم النخعي ، ومحمد بن عبد الرحمن ، والامام جعفر الصادق ، وتردد على حلقات المتكلمين فاستمع الى نقاشهم وجدالهم الفلسفي الفقهي ، وقد أعجبه أصحاب الفكر الحر الذين يعتمدون على العقل في تصريف الامور والتمييز بينها ، واشترك في كثير من الجدل دلّ حديثه فيه على صحة منطقه ، وقوة حجته ، وسلاسة أسلوبه الجدلي المبني على الحجة والمنطق الصحيحين ، وما لبث أن أصبح زعيما لمذهب فقهي يعتمد على الرأي وينظر الى الامور الدينية بمنظار المصلحة العامة لان الدين جاء لتنظيم المجتمع تنظيما ساميا ، وقد فرع الفروع وافتى فيما لم يقع ، وما يستبعد وقوعه ، وكانت طريقته في ابحاثه الفقهية كما قال عن نفسه : اني آخذ بكتاب الله اذا وجدته ، فما لم أجده فيه أخذت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والآثار

الصحاح عنه التي فشت في أيدي الثقات ، فاذا لم أجد في كتاب الله ولا سنة رسول الله أخذت بقول أصحابه من شئت ، وادع قول من شئت ثم أخرج عن قولهم الى قول غيرهم ، فاذا انتهى الامر الى ابراهيم الشعبي والحسن البصري وابن سيرين وسعيد المسيب و ... فلي أن اجتهد كما اجتهدوا » .

وعلى هذا فاعتماد ابي حنيفة في فقهه أولا على القرآن الكريم ، فما لم يجده فيه ، فتش على الحديث ، وكان يتشدد على الحديث تشددا كثيرا خوفا من قبول حديث موضوع ، حتى أنه لم يكتف بتجريح الاسناد بل نظر الى المتن وفحصه . واذا وجد في المتن شيئا من ركاكة الاسلوب ، او مخالفته التاريخية للحادثة التي ذكر فيها ، أو ذكره أسماء اشخاص لم يعيشوا في زمن الرسول فانه يرد الحديث ولا يقبله ولا يعمل بمضمونه بل يعمل بالرأي ، ولهذا لم يعتمد فقه أبي حنيفة على الحديث ، ولم يصح عنده الا عدد قليل من الاحاديث .

ولم يترك أبو حنيفة لنا أي كتاب في الفقه ، وانما وصلتنا آراؤه الفقهية ومذهبه كما دونها تلاميذه الكثيرون كأبي يوسف قاضي قضاة الرشيد ، ومؤلف كتاب « الخراج » ومحمد بن حسن الشيباني . ولكن من الكتب التي نسبت الى أبي حنيفة : الفقه الكبير ــ العالم والمتعلم ــ الرد على القدرية .

٢ ــ الامام مالك : (٩٦ ــ ١٧٩ هـ) عربي الاصل . ولد وعاش في المدينة ولم يغادرها الا الى مكة حاجا ولذلك تأثر بأهل المدينة واعتبر إجماع أهل المدينة على عمل من الاعمال من السنة . لان الرسول عاش بينهم أكثر أيام بعثته فشاهدوه عن كثب واقتبسوا أعماله وأفعاله ، ونظرا لان أهل المدينة حفظوا الكثير من الاحاديث فقد اعتمد الامام مالك على الحديث كثيرا بعد القرآن ، ولم يفتِ في أمر لم يقع كما فعل أبو حنيفة ، ولم يفرّع الفروع ويفترض الفرضيات ولم يعمل بالرأي ، وأهم ما وصلنا عن الامام مالك كتابه « الموطأ » وهو كتاب حديث أكثر

منه كتاب فقه ويدلنا على طريقته الفقهية • وهي كما يقول الفقهاء : وسطية بين الحرفيين المتمسكين بظاهر النصوص ، وأصحاب الرأي الذين لم يكن للنقل ولا للنص عندهم أهمية كبيرة •

٣ ـ الامام الشافعي : (١٥٠ ـ ٢٠٤ هـ) عربي من قريش يلتقي نسبه من جهة أبيه مع نسب الرسول عليه السلام في عبد مناف • ولد في غزة وحملته أمه في حداثته بعد موت أبيه الى مكة حيث درس الحديث على علمائها • ثم وفد الى المدينة فتتلمذ على الامام مالك وحفظ الموطأ • ومن ثم أخذ في الرحلة في سبيل العلم فجاء الى بغداد وتعلم فقه أبي حنيفة وأقوال العراقيين ثم ذهب الى مصر حيث أمضى بقية حياته الى أن أدركته منيته •

وكان مذهب الشافعي وسطا بين مذهب أبي حنيفة المتوسع في الرأي ومذهب مالك المعتمد على الحديث ، فقد درس الشافعي على هذين الامامين ورأى مبالغة كل منهما في طريقته وشاهد بنفسه خلال تجواله الطويل ، انماط الحياة المختلفة في الحجاز والعراق ومصر ، واختلاف الناس في حضارتهم واقتصادهم • وأدرك سبب تشدد أبي حنيفة في قبول الحديث واستسلام مالك الى كل حديث يجمعه ، فجمع بين المذهبين في كثير من المسائل وقرب الشقة بينهما • وكانت طريقته في الاجتهاد كما قال هو عنها : « الاصل قرآن وسنة ، فان لم يكن فقياس عليهما ، واذا اتصل الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصح الاسناد منه فهو سنة، والاجماع أكبر من الخبر الفرد أو الحديث على ظاهره ، واذا احتمل معاني فما أشبه منها ظاهرة أولاها به ، واذا تكافأت الاحاديث فأصحها اسنادا أولاها ••• ولا يقاس أصل على أصل ، ولا يقال للاصل لم وكيف ؟ وانما يقال للفرع لم ؟ فاذا صح قياسه على الاصل صح وقامت به الحجة » •

أشهر كتبه « الام » واسلوبه جدلي فيه كثير من الاستدلالات بالحديث واستعمال القياس . ومن تلاميذه الامام الرابع أحمد بن حنبل .

٤ ــ الامام الحنبلي : هو أحمد بن حنبل (١٦٤ ــ ٢٤١ هـ) عربي الاصل ولد ومات في بغداد ، لكنه كان كثير الرحلة كالشافعي ، زار العراق والحجازواليمن والشام واتصل بعلمائها واستمع الى كبار الفقهاء والمحدثين في عصره ، وعاصر المأمون وحركته العلمية ، ولم يقل بقول المعتزلة بأن القرآن مخلوق ، وكان بينه وبين المعتزلة مناقشات عقلية ودينية وفقهية كثيرة ، تشدد فيها برأيه ونقض حجج المعتزلة فتغلبوا عليه بنفوذهم السياسي وأذاقوه أنواع العذاب من ضرب وسجن دون أن تلين قناته أو يقول بقولهم ، وبقي مسجونا الى مابعد وفاة المأمون وأخيه المعتصم حيث أفرج عنه .

وينحو ابن حنبل منحى أستاذه الشافعي ، الا أنه أنكر عليه أخذه بالرأي واعتبر الحديث أفضل من الرأي . فعاد الى رأي المالكي ، وصار ابن حنبل إمام أهل الحديث في عصره .

وقد اشتهر بتدوين ما يسمع من الثقاة ، ونقل ما يقرأ من كتب من سبقه ، وخاصة رواية ماجاء في موطأ مالك من فتاوى وأقضية للصحابة ، وما أفتى بهمالك، وخصوصا ماكان يبنيه على عمل أهل المدينة ، وكان يقول عن نفسه : « أنا أطلب العلم الى أن أدخل القبر » وقال مرة لرجل سأله لم يكثر من الكتابة وقد أصبح إمام المسلمين : « مع المحبرة الى المقبرة » . وأشهر كتبه « المسند » ويعتبر أكبر موسوعة لاحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ولفتاوى الصحابة وأقضيتهم .

انتشار المذاهب الاربعة :

تبلورت المذاهب الفقهية في العالم الاسلامي السني على هذه المذاهب الاربعة، وانتشر كل مذهب في قطر أو أقطار دون سواها . فالمذهب الحنفي انتشر في العراق والشام والاناضول وآسيا الوسطى والباكستان وكان مذهب الحكومة العثمانية الرسمي . والمذهب الشافعي انتشر في القطر المصري وفي جزر اندونيسيا ، والمذهب الحنبلي انتشر في نجد والحجاز . والوهابيون في الحقيقة أتباع هذا المذهب .

العـــلوم العربية

اللغة العربية : لغة عرب الجاهلية هي اللغة العربية السليمة ، لغة جميع العرب، مع وجود لهجات مختلفة باختلاف القبائل ، ومعاني لبعض الكلمات تختلف من لهجة الى أخرى • وأوجه للصرف والنحو مختلفة ، الا أن القبيلة الواحدة تتكلم بلهجة واحدة وتتبع أسلوبا واحدا ، فهناك من يستعمل مثلا للفعل فاعلين كأصحاب لغة « أكلوني البراغيث » ولم يكن ذلك خطأ في عرفهم ، وكان يوجد في الجاهلية على ما يظهر لغة راقية فصحى هي لغة الشعر التي يفهمها الجميع ويتبعون فيها أصـــولا متقاربة دقيقة للتخاطب ، وفيها اختلاف بين القبائل •

وبعد الاسلام اختلط العرب الفاتحون بسكان البلاد المفتوحة ، في السكن والتزاوج وفي كل مرافق الحياة ، ولم تعد الامبراطورية العربية مكونة مـــن شعب واحد بلغة واحدة ونزعة واحدة ودين واحد ، بل اصبحت رقعتها معرضا تعرض فيه كل أمة ماكان لها مـن لغة وعلم ونظم سياسية واجتماعية ، واذا كان العرب قـــد شعروا أنهم دون هذه الامم علما وفلسفة ونظمـــا سياسية واجتماعية واقتصادية ، فانهم تغلبوا على هذه الامم حربيا وتغلبوا عليهم بنشر لغتهم ودينهم ، ومـــا لبث لاسلام أن أصبح دين الغالبية العظمى من السكان ، وما لبثت اللغة العربية أن طغت على سائر اللغات المحلية وسادت عليها وأصبحت الاداة لنشر الثقافة والحضارة بين

هذه الامم المختلفة ، بعد أن زادت في مادة لغتها وتركيبها وأساليبها مما دعا اليه ارتقاء الحضارة واتساع العمران ، وأصبح كل متأدب من أي جنس ، انما يجري حكمته أو أدبه أو شعره أو فلسفته وعلمه بالعربية وفي ذلك يقول ابن خلدون : « ولما هجر الدين اللغات الاعجمية ، وكان لسان القائمين بالدولة الاسلامية عربيا هجرت كلها في جميع ممالكها لان الناس تبع للسلطان على دينه . فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الاسلام وطاعة العرب . وهجر الامم لغاتهم وألسنتهم في جميع الاقطار والممالك وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك في جميع أمصارهم وصارت الالسنة الاعجمية دخيلة فيها وغريبة » وليس في مقدور هذه الاقوام الاعجمية المختلفة التي أصبحت العربية لغتها ، أن تنطق بها كأهلها بالسليقة، فأوجدت أنواعا من اللكنة ، وأحدثت أوضاعا من الخطأ ، وفشا اللحن والتصحيف والتحريف في سكان المدن والموالي ومالبث أن وصل الى بيوت الخلفاء والامراء ، وخاف العلماء ضياع اللغة بعد أن أصبحت لغتين أو كادت ، لغة الكتابة ولغة الكلام، وكان العرب قد أخذوا بأساليب البحث العلمي ، فوضعوا للغتهم قواعد للنحو والاعراب ، ولشعرهم أوزانا وعروضا ، ولمفرداتهم معاجم وفقه اللغة ، وبذلك حفظوها من الضياع ، ووقفوا في وجه التيار العامي الذي اتجهت اليه وهي مايسميها الجاحظ لغة المولدين والبلديين .

علم النحو وقواعد اللغة :

قال الجلال السيوطي في رسالته : الاخبار المروية في سبب وضع علم العربية : قدم اعرابي في زمان عمر ، فقال من يقرئني مما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم . فأقرأه رجل « براءة » فقال : ان الله بريء من المشركين ورسوله «بالجرّ» فقال الاعرابي اوقد برىء الله من رسوله . ان يكن الله قد برىء من رسوله فأنا ابرأ منه ... (فبلغ الخبر عمر بن الخطاب فاستدعى الاعرابي وسمع مقالته) فقال

له : ليس هكذا يا اعرابي • ان الله بريء من المشركين ورسوله (بالضم) فقال الاعرابي وأنا والله ابرأ مما بريء الله ورسوله منه • فأمر عمر أن لايقرىء القرآن الا عالم باللغة • وأمر أبا الاسود الدؤلي فوضع النحو •

بينما تروي كتب أخرى أن أبا الاسود الدؤلي قال : دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فوجدت في يده رقعة • فقلت ماهذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال : اني أملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء (يعني الاعاجم) فأردت أن أضع شيئا يرجعون اليه ويعتمدون عليه ، ثم ألقى الي الرقعة وفيها مكتوب : الكلام كله اسم وفعل وحرف • والاسم ما انبأ عن المسمى والفعل ما انبىء به ، والحرف ماافاد معنى • وقال لي : انح هذا النحو ، وأضف اليه ما وقع اليك • واعلم يا ابا الاسود ان الاسماء ثلاثة : ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر • وانما يتفاضل الناس يا أبا الاسود فيما ليس بظاهر ولا مضمر (وأراد بذلك الاسم المبهم)• قال : ثم وضعت بابي العطف والنعت ثم بابي التعجب والاستفهام الى أن وصلت الى باب ان واخواتها ما خلا لكن ، فلما عرضتها على علي أمرني بضم لكن اليها • وكنت كلما وضعت بابا من أبواب النحو عرضته عليه الى أن حصلت ما فيه الكفاية• فقال : ما أحسن هذا النحو الذي قد نحوت فلذلك سمي النحو •

ويروي آخرون انه على أثر توافد الرقيق الى المدينة عاصمة المسلمين الاولى، فشا اللحن فيها بكثرة أذهلت أولي الامر ، ففكر الامام علي بوضع قواعد نحوية للغة ليتبعها الاعاجم فلا يخطئون ، وفشا اللحن بعد ذلك في العراق ، لاقبال الاعاجم على التكلم بالعربية لغة الحكام ، وكانت في العراق مدينتان عربيتان وسط محيط أعجمي هما : الكوفة والبصرة ، فأقبل العراقيون عليهما يتعلمون لغة أهلها ، ووضع أبو الاسود الدؤلي المتوفى عام ٦٧ هـ أساس علم النحو ، في مدينة البصرة ، وقلده أهل الكوفة بوضع قواعد نحوية ، وعلى ذلك نشأت مدرستان للنحاة منذ العصر الاموي :

مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة تنافستا على التسامي في الدراسات اللغوية والنحوية من منتصف القسم الثاني للعهد الاموي حتى استقطبا في مدرستين للنحو تبعهما كل العالم الاسلامي ، ولم تظهر بعد توحدهما في مدرسة بغداد التي جمعت بين المدرستين ، مدرسة للنحو غيرهما • وقد أخرجت كل من المدينتين ثلاثة أجيال من فطاحل علماء النحو ، فمن علماء الكوفة حماد الراوية ، وأبو عمرو الشيباني ، وابن الاعرابي وابو عبيد والكسائي والفراء وابن منظور ، ومن علماء البصرة : أبو عمرو ابن العلاء وأبو محرز خلف بن حيان الاحمر ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى • والاصمعي والجمحي ••• والخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه ، والاخفش • وغالبية هؤلاء من أصل عربي ، لان فقه اللغة العربية والدراسات النحوية وما يتصل بها تتطلب السليقة العربية الاصيلة والمنطق السليم ، وكل ما فعله غير العرب من هؤلاء العلماء ، هو التنسيق العلمي • واذا كان بعض الغربيين يرى في شهرة سيبويه المسلم الاعجمي في هذا الباب أثرا للاساس الاجنبي في قواعد اللغة والنحو والصرف ، فان الواقع يثبت ان علماء هذه الابواب من المعرفة انما افادوا من العقلية العلمية الخصبة التي اكتسبوها في العصر العباسي الاول من خلال تمثلهم للثقافات الفلسفية والعلمية الاجنبية، وليس مما نقلوا أو طبقوا لغتهم على اصول ونحو اللغات الاخرى اذ اعتمدت كل مدرسة على لهجات قبائل معينة ، وفتشت في القرآن وفي أشعار العرب على ما يؤيد مذهبها ، وكثيرا ما احتدم الجدل العلمي بين نحاة البصرة الذين عرفوا باسم أهل المنطق لاتباعهم الاساليب المنطقية في ابحاثهم وبين نحاة الكوفة الذين خالفوهم واعتمدوا على السماع •

وأشهر علماء الكوفة : الكسائي الذي كان مهذبا لولدي الرشيد : الامين والمأمون وهو فارسي الاصل • ثم تلميذه الفرّاء ، والمفضل الضبي صاحب كتاب المفضليات •

وأشهر علماء البصرة ابو الاسود الدؤلي واضع الحجر الاساسي لعلم النحو وأبو عمرو بن العلاء ، والخليل بن أحمد الفراهيدي واضع علم العروض ومؤلف كتاب « العين » أول قاموس لغوي في العربية • وسيبويه صاحب «كتاب سيبويه» الذي نظم النحو ورتبه وبوبه ، وجمع فيه خلاصة ابحاث من تقدمه من علماء البصرة والكوفة وبقية من اشتغل بالنحو ، وصار هذا الكتاب المرجع الاول لعلماء النحو من بعده يقتبسون منه ويحاكونه ••• والاصمعي وأبو عبيدة اللذان تألق نجمهما في عهد الرشيد ، والمبرد مؤلف كتاب الكامل •

الشكل والتنقيط :

كانت الكتابة العربية قبل الاسلام قليلة الاستعمال ، لايعرفها الا القليل• وكانت أحرفها بدون تنقيط فالجيم تكتب كالحاء والخاء ، والباء تكتب كالتاء والثاء ، وكانت كلمة خبر يمكن أن تقرأ حبر ، حير ، جير ، جبر ، كما كانت الاحرف بدون شكل أي ليس لها علامات تشير الى الفتحة والضمة والكسرة والسكون والشدة والمدة • وقد وضعت أدوات الشكل هذه في أول العصر الاموي لتساعد على القراءة الصحيحة ، وأمر الحجاج من بعدها بتمييز الاحرف المتشابهة شكلا فوضع كاتباه وتلميذا أبي الاسود الدؤلي النقط لها وهما نصر بن عاصم ويحيى بن عامر وبذلك صارت الابجدية العربية كما نعرفها اليوم متميزة لا لبس في كتابتها ولا غموض •

يقول ابن خلكان : « ان الناس غبروا يقرؤون في مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه نيفا وأربعين سنة الى أيام عبد الملك بن مروان • ثم كثر التصحيف (بمعنى غفلة القارىء عن مواضع النقط فيقرأ خبر مكان خير أو حبر) وانتشر في العراق • ففزع الحجاج الى كتابه وسألهم أن يضيفوا لهذه الحروف المشتبهة علامات• فيقال ان نصر بن عاصم قام بذلك ، فوضع النقط أفرادا وأزواجا ، وخالف بين أماكنها • فغبر الناس بذلك زمانا لا يكتبون الا منقوطا فكان مع استعمال النقط أيضا يقع التصحيف فأحدثوا الاعجام •• (تنقيط الحروف) ••• كما يروى أن الحركات احدثت أيضا زمن الحجاج •

ويرى بعض الكتاب ان الاعجام والحركات كانت مألوفة من قبل منذ أيام الجاهلية ، ولكن الحجاج فرضهما في القرآن الكريم ••• ويستدلون على ذلك ان الناس ظلوا حتى العصر العباسي لايستعملون الاعجام والتحريك في الكتابة العادية ، ويعتبرونهما احتقارا للمكتوب اليهم •

ويعتقد أن أبا الاسود الدؤلي ، اول من ابتدع علم النحو ، ووضع أساس الشكل للاحرف العربية ، انما استعان بطريقة السريان في وضع هذه الرموز ، اذكان كثير المخالطة لهم ، وربما درس وتعلم على أيدي أساتذة منهم ، واستمر استعمال الرموز التي اختارها ابو الاسود وتلاميذه من بعده للشكل والاعجام سائدا طوال العصر الاموي ومطالع العصر العباسي ، حتى جاء الخليل بن أحمد الفراهيدي،فوضع رموزا أوضح ، جعل أساسها صور الحروف التي تتولد من مدها فرسم الضمة واوا صغيرة توضع في أعلى الحرف ، وجعل رمز الكسرة ياء صغيرة توضع تحت الحرف ، ورمز الفتحة ألفا مسطوحة تكتب فوقه • واذا كان الحرف المتحرك منونا كرر رمز الشكل فيكتب مرتين ••• وتمم بقية العلامات فوضع المد والتشديد وجعله الجزء الاول من حرف الشين أخذا من كلمة شديد ، ووضع لهمزة القطع رأس عين (ء) وجعل لالف الوصل رأس حرف صاد (ص) ••• الخ

المعاجم وفقه اللغة :

رغب بعض العلماء في عصر التدوين ، بجمع كلمات اللغة ومفرداتها وتفسير معانيها المختلفة ، فرحل أكثرهم الى البادية يستمع الى الاعراب ويدون ما يسمع من معانيها • وكانت أول كتبهم تضم المفردات دون ترتيب ، ثم صاروا يجمعون الكلمات التي تتعلق بموضوع واحد ، ويضعونها في باب واحد مثل كتاب الانواء وكتاب الابل للاصمعي • ثم ظهرت الكتب التي تجمع بين دفتيها جميع الكلمات ومعانيها أي ظهرت القواميس المرتبة ترتيبا هجائيا وأولها كتاب العين للفراهيدي، وقد ابتدأه بالكلمات التي تنتهي بحرف (ع) ثم أتبعها بالكلمات المنتهية بالاحرف الحلقية

وهكذا الى الاحرف الشفوية ثم الاحرف الهوائية • ومن المعاجم الاولى كتاب « الجمهرة في اللغة » لابي بكر بن دريد ، والصحاح للجوهري ، وأساس البلاغة للزمخشري ، ولسان العرب لابن منظور ، والمحيط للفيروزابادي •

البلاغة :

فسدت الملكة اللغوية عند العرب باختلاطهم بالاعاجم واستعمالهم الكلمات والتعابير العامة ، فعمد العلماء الى الكشف عن روائع أساليب القرآن وفصاحته وبلاغته ، ليحاكيه المتأدبون ويقلدوه ، وتعرضوا لاقوال القدماء وشرحوا ما فيها من استعارات وتشابيه وأوجه بلاغة • وأشهر من كتب في ذلك :

أبو عبيدة معمر بن المثنى (٢٠٦ هـ) في كتاب مجاز القرآن •

الجاحظ (٢٥٥ هـ) في كتابيه « اعجاز القرآن » و « البيان والتبيين » •

أبو الهلال العسكري (٣٩٥ هـ) في كتابه « الصناعتان : الشعر والكتابة » •

الجرجاني (٤٧١ هـ) في كتابيه « دلائل الاعجاز » و « أسرار البلاغة » •

العروض :

درس الخليل بن أحمد الفراهيدي أشعار العرب فوجد أوزانها محدودةفحصرها في خمسة عشر وزنا سماها بحورا ، ثم جاء الاخفش فزاد عليها البحر المتدارك فأصبحت ستة عشر • ووضع العلماء للشعر مصطلحات خاصة حتى أصبحت علما عرف بالعروض •

الشعر

الشعر في الجاهلية :

كان الشعر في الجاهلية ديوان العرب ومجمع مآثرهم ومفاخرهم ، وسجلا لاعمالهم وتقاليدهم وعقائدهم ، وكانت القبائل تفتخر بنبوغ شاعر منها يذود عن حياضها ويدافع عنها ، ويهجو أعداءها ويحمس شبابها في القتال ، وكانت تقام للشعر مباريات في الاسواق العامة كسوق عكاظ ، وقيل أن درر القصائد الجاهلية كانت تعلق على الكعبة تقديرا لها ، وبلغت قبل الاسلام سبعا وقيل عشرا .

الشعر في صدر الاسلام :

عندما نزل القرآن الكريم بلغة عربية فصحى ، لا هي شعر ألفه العرب ، ولا نثر عرفوه ، بهرهم جماله ، وقهرتهم قوته ، فانصرفوا عن الشعر اليه يقرؤونه ويتفهمون آياته ، وكان لمعاني القرآن وأسلوبه وللمثل العليا الدينية الجديدة والفضائل التي طلب الاسلام من أتباعه التحلي بها أن تأثر الشعر العربي بها في أغراضه ومعانيه وكلماته وأبوابه ، فذكرت الجنة والنار ، والثواب والعقاب ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر في الشعر ، وكان أبرز شعراء هذا العصر حسان بن ثابت الانصاري وعبد الله بن رواحة .

الشعر في العصر الاموي :

استرداد الشعر قيمته بعد كبوته ، لأسباب مختلفة منها :

١ — تشجيع الخلفاء والامراء للشعر والشعراء لأغراض سياسية وقومية واغداق الاموال عليهم وتقريبهم كما كان شأن الاخطل وجرير والفرزدق في عهد عبـــد الملك •

٢ — النزاع الحربي بين العلويين والامويين والخوارج والزبيريين ، فعمد كل فريق الى الشعر يؤيد دعواه ويجلب له الانصار ويهاجم خصومه ويفند مزاعمه ، فنشأ الشعر السياسي الذي لم تعرفه الجاهلية كشعر الطرماح شاعر الخوارج وعبد الله بن قيس الرقيا شاعر الزبيرية ، ومضر الكميت الاسدي شاعر الشيعة •

٣ — الترف : عمد معاوية بعد أن نقل عاصمته من الحجاز الـى الشام الى الاغداق على أهل الحجاز حتى يلهيهم بالاموال عـــن فقدان مركزهم السياسي ، ففشا الترف بين شباب الحجاز واندفع بعضهم وراء اللذائذ يتصيدها ، وظهر ذلك في شعرهم الغزلي الرقيق كشعر عمر بن ابي ربيعة •

وظهر في بعض القبائل غزل شريف تنزه عن الفحش ، وكان أكثر ما يكون في بني عذرة وخزاعة فسمي بالغزل العذري كشعر جميل بثينة ، وكثيّـرة عزة •

الشعر في العصر العباسي :

ما كاد العصر العباسي يبتدىء حتى ظهرت آثار الحضارة العربية الزاهرة في كل فن من الفنون ، وفي كل ناحية من النواحي الاجتماعية ، وظهـــر ذلك كله جلياً واضحاً في الشعر •

فمجالس الخلفاء والامراء وما فيها من شراب وقيان ومغنين ومغنيات ،

وحياة بغداد وما فيها من سعة وبهجة ، وعادات الامم التي تكون منها مجموع السكان وميلهم الى الانغماس في الملذات ، وتشجيع الخلفاء والولاة وامراء الدويلات المستقلة وظهور المتكلمين ، ووصول الفلسفة والمنطق اليونانيين الى العرب •• كل هذا جعل الشعر العربي يصل في هذا العصر الى درجة الكمال وتعدد الابواب والاغراض وتنوع الاسلوب ، وأهم ما طرأ على الشعر :

١ً — تنوع الشعر الوصفي ، فوصف الشعراء أحوال النفس وانفعالاتها ، ووصفوا المعارك كأبي تمام والمتنبي ، ورسموا صوراً قوية لمجالس الشراب واللهو والتهتك كأبي نواس والحسين بن الضحاك وبشار •

٢ً — ظهرت الشعوبية في أشعار الاعاجم لتقاوم العزة القبلية والعصبية للقومية العربية •

٣ً — رقت ألفاظ الشعر ، واتسع خيال الشعراء ، وازداد تأنقهم واهتم بعضهم بالبديع والتكلف اللفظي والصناعة كشعر ابن المعتز والوأواء الدمشقي •

٤ً — كما تنوع الاسلوب فظهر الشعر الغزلي الرقيق الذي يدل على حياة الرفاه الجديدة البعيدة كل البعد عن حياة العرب الاولى ، وظهر التشبيب بالغلمان ، والاشادة بالخمرة ووصف آنيتها وشرابها كشعر أبي نواس وبشار ، وحاول جماعة من الشعراء الوقوف في وجه تيار اللذة والتشبيب والغزل ، فأكثروا من الزهد في شعرهم كأبي العتاهية ، واستعمل غيرهم المذاهب الفلسفية والتصوف في شعره كالمعري وابن سينا وابن الفارض والحلاج ، واقتبس بعضهم حكم الفرس والهند واليونان وعقدها شعراً خالداً كأبي تمام والمتنبي ، وتقرب قسم آخر من الخلفاء والامراء بوصف قصورهم ومراكبهم وحفلاتهم وأعيادهم وغزواتهم وانتصاراتهم كأبي تمام والمتنبي أيضاً ، ولم تترك ناحية من نواحي الحياة العامة ، الا تطرق اليها الشعراء ، ووصفوها ، حتى القصص على لسان الحيوانات كقصائد لافونتين

الشاعر الافرنسي فقد نظم مثلها شعراء العرب كأبان اللاحقي الذي نظم كتاب كليلة ودمنة ، وقد حافظ هؤلاء الشعراء على أوزان الشعر الجاهلي وقوافيه ولكن رقت ألفاظهم ، وأكثروا من العناية بالصناعة والبديع والتكلف اللفظي .

الشعر في الاندلس :

نافس خلفاء الاندلس ، خلفاء بغداد في الاغداق على الشعراء ورعايتهم وتشجيعهم ، وامتاز الشعر الاندلسي باتساع أفق الخيال والدقة في وصف مجالس الشراب والحدائق والطبيعة والقصور ، ومال شعراء الاندلس الى الاوزان القصيرة وابتدعوا نوعين من الشعر هما : الموشحات التي لا تلتزم فيها قافية واحدة ولا وزن واحد ، والزجل وهو شعر عامي لا يتقيد بقواعد اللغة واصولها . وأشهر شعراء الموشحات أحمد بن عبد ربه ولسان الدين بن الخطيب ، وأشهر الزجالين أبو بكر ابن قزمان القرطبي .

النثر والخطابة

في الجاهليـــة :

طغى الشعر على جميع فنون الادب الجاهلي ، وقد وصلتنا نماذج محدودة من سجع الكهان وخطب بعض الجاهلية مثل اكثم بن صيفي ، وقس بن ساعدة الايادي.

في صدر الاسلام :

شجع الاسلام الخطابة ، وجعلها واجبا في مواسم معينة كالجمعة والعيدين ، ونزل القرآن نثرا لا شعرا ، وكتب الرسول رسائل الى الملوك والامراء يدعوهم فيها الى الاسلام باسلوب نثري ، فارتفع شأن الكتابة والخطابة ، واقتبس الكتاب اسلوب القرآن والحديث وتأثروا ببلاغتهما ، وامتاز النثر في صدر الاسلام بايجازه وبلاغته وهجره سجع الكهان واغترافه من معاني الاسلام ، وأشهر الخطباء : الرسول عليه السلام والخلفاء الراشدون ومعاوية وسحبان وائل .

في العصر الاموي :

أوجد معاوية ديوان الرسائل ، وافرد له الموظفين الأخصائيين ، وعرب عبـد الملك الدواوين ، وشجع الكتابة بالعربية ، فأقبل الاعاجم على العربية يدرسونها ويتعلمونها حتى يحظوا بمقام مرموق في الدولة ، وما لبثت الكتابة ان أصبحت في أواخر العصر الاموي صناعة خاصة لها نظمها وأساليبها ، فقد تحـولت من البساطة والايجاز الى التوسع في الاسلوب وتنوع الاغراض والمبالغة بفضل عدد

من الكتاب غير العرب الذين نقلوا اساليبهم القديمة الى العربية مثل عبد الحميد الكاتب الذي يعد أول من أطال الرسائل وفتق أكمام البلاغة •

ووصلت الخطابة في هذا العصر الى القمة للحاجة الماسة اليها في الدعاية السياسية للاحزاب المختلفة من شيعة وزبيرية وخوارج تثور على الامويين وتحاول الانقاص من سلطتهم السياسية ، ولا تزال الخطب التي وصلتنا عن هذا العصر تعد نموذجاً رفيعاً لفن الخطابة العربية كخطبة الحجاج في أهل العراق ، ومن أشهر خطباء هذا العصر ، معاوية ، وعبد الملك ، والحسين بن علي وابن الزبير والمختار بن أبي عبيد الله الثقفي وقتيبة بن مسلم والحجاج •

في العصر العباسي :

كثرت الترجمة وراجت صناعة التعريب في العصر العباسي ، واضطر المترجمون الى التفتيش عن معاني جميع الاصطلاحات والكلمات الاعجمية ، في جميع العلوم والفنون التي تعرضوا لترجمتها كالفلسفة والمنطق والاخلاق ، والطب والفلك والكيمياء والرياضيات ، وقد نجحوا في ذلك نجاحا منقطع النظير ، لمرونة اللغة العربية وسعة باب اشتقاقها ، وبذلك ظهرت الكتابة العلمية الى جانب الكتابة الادبية في مختلف ابوابها من الرسائل الاخوانية الى الرسائل الادارية والسياسية الى صنعة الكتابة التي ظهرت في « المقامات » • وكثير من كتاب هذا العصر وعصر الدويلات المنفصلة وصل الى أرقى المراتب السياسية فاستلم الوزارة وسمي بذي الرياستين : رياسة القلم ورياسة السيف ، ولهذا أصبحت الكتابة فناً خاصاً له أساليبه وأدبه حتى وضع بعضهم الكتب المختلفة في أدب الكتابة وصناعتها وحاجات الكاتب كما فعل القلقشندي في كتابه « صبح الاعشى » •

واشهر كتاب هذا العصر : ابن قتيبة مؤلف عدد كبير من الكتب الادبية منها : أدب الكاتب ـ عيون الاخبار ـ المعارف ـ الشعر والشعراء الذي نادى

فيه بالتجديد وانحى على كل قديم لوماً • وعمرو بن بحر الجاحظ ومن مخلفاته : كتاب الحيوان وفيه كثير من تحري القضايا العلمية ومن الملاحظة والتجربة ، وكتاب البخلاء وكتاب البيان والتبيين • وبديع الزمان الهمذاني والحريري ويعدان أشهر من كتب في المقامات •



شكل — ١٣٨ —
ابو زيد السروجي سراج الغرباء وتاج الادباء ، كما وصفه الحريري في مقاماته، وهو يحدث جماعة من اهل العراق ، حديث بعض المقامات . والرسم ملون في الاصل ، وموجود في نسخة مخطوطة لكتاب مقامات الحريري من القرن الثالث عشر الميلادي .

اما الخطابة فلم ترق الى ما رقي اليه الشعر والنثر لان الدولة قامت على أكتاف الفرس والاعاجم وهم لايتقنون العربية ولا يتأثرون ببلاغة خطبها التي تدعو الى قتال أو تأييد فكرة • ولأن العباسيين وأمراء الدويلات المستقلة شجعوا الشعراء والكتاب والمؤلفين ولم يشجعوا الخطابة بنفس المقدار ، اللهم سوى الخطب الدينية في المساجد التي خبا نورها في عصر الدويلات واصبحت تقليداً رتيباً للاقدمين ، ثم عادت الى القوة والنضج ابان الحروب الصليبية لحض الناس على الجهاد والتطوع للقتال •

بسم الله الرحمن الرحيم

العلوم الاجتماعية

١ ـ التاريخ

العرب امة اشتهرت بالتاريخ
مارغوليوث
العرب اول من ارّخوا حوادثهم باليوم
والشهر والسنة

التاريخ : التاريخ لغة التعريف بالوقت ، يقال : : أرخ الكتاب وورّخه أي بين وقت كتابته كما جاء في لسان العرب • وتاريخ الشيء وقت حدوثه• وعلم التاريخ يعني العلم الذي يتضمن ذكر الوقائع وأوقاتها وأساليبها ، ومظاهر الحضارة ونظرها وعوامل تفرقها واضمحلالها •• والمؤرخ هو كاتب التاريخ •

وكان أغلب ما ألف في التاريخ العربي بعد الاسلام ، بقصد المنفعة والعبرة ، والحصول على ملكة التجارب ، حيث كان المسلمون يرون في كتاب الله مثلا يقتدى به ، فقد قص القرآن كثيراً من أخبار الامم الماضية للتذكرة والعبرة ••

وربط المسلمون التاريخ بكل العلوم مثل : الادب والسياسة والاجتماع والفقه والجغرافيا والرحلات • فكان بحق علم العلوم •

تطور التاريخ عند العرب :

أ ـ في الجاهلية :

تناقل عرب الجزيرة أخبار أيامهم ووقائعهم وشجاعة فرسانهم وكرم ساداتهم واطلعوا على بعض أخبار الامم المجاورة عن طريق قوافل التجارة التي كانت ترد هذه البلاد وتختلط بتجارها ، وأرخوا حوادثهم بالنسبة لأحداث كبيرة كخراب سد مأرب ، وعام الفيل وموقعة ذي قار ، وعرف عرب الجاهلية شيئاً من أخبار اليهودية والمسيحية ممن كان يدين بأحد هذين الدينين ويعيش بين ظهرانيهم .

ب ـ في الاسلام :

تعرض القرآن الكريم لأخبار الامم القديمة وأحوالها ، فزادت مادتهم في معرفة التاريخ وجاء ذكر الاخبار في القرآن مقتضباً دون تفصيل لأنه أوردها في سبيل العظة لا في سبيل الشرح التاريخي ، فدفع ذلك المسلمين الى التساؤل والبحث عن المزيد من هذه الاخبار كقصة آدم وبدء الخليقة ، والشجرة المحرمة ، وقصة الناقة ، ويوسف وسليمان وغير ذلك .

ومع الفتح اطلع العرب المنتصرون على أحوال الامم الاخرى وسمعوا أخبارها السالفة ، وكان معاوية مثلا يستمع في كل يوم الى اخبار غيره من الملوك وسيرهم ليتجنب مساقطهم ويتبع أحسن أساليب الملك ..

وزادت مع الزمن مادة التاريخ الاسلامي ، من اخبار الرسول واعماله وأقواله الى أخبار الراشدين وأخبار الفتوح وما جرى فيها من حوادث ، وأخبار الفرق التي تنازعت للوصول الى الحكم ، وكان ذلك كله ينقل شفاهاً ويخضع لعامل التغيير والتبديل ، والمبالغة أو الاقتضاب ، ولما جاء عصر التدوين اهتم العرب بتدوين التاريخ لأسباب :

١ ـ رغبة العرب في معرفة تاريخهم السياسي وسيرة زعمائهم .

٢ ـ رغبة المسلمين في معرفة كل ما يتصل بحياة الرسول العربي من أعمال وأقوال ليستعينوا بها على تفسير القرآن .

٣ ــ الرغبة في معرفة أنساب القبائل العربية وعلائقها مع بعضها وأنساب كثير من الأسر التي ازداد تمسكها بعروبتها وفخرها بذلك مع ازدياد الحركة الشعوبية ٠

٤ ــ تشجيع الخلفاء والامراء ورجال الدولة ، للكتاب بتسجيل حوادث زمانهم لتطلع عليها الاجيال القادمة ٠

٥ ــ ميل الكتاب الذين ينتمون الى بعض الفرق تسجيل أخبار فرقهم الدينية والسياسية وتتبع حوادث الفرق المناوئة ٠ فقد دفعت الشعوبية كلا من العرب والعجم الى ذكر مناقبهم ومساوىء خصمهم ٠

٦ ــ اقبال علماء اللغة على تدوين الادب العربي من شعر وخطابة وأمثال ومفردات لغوية فذكروا الحوادث المتصلة بكل هذا ، ولا تزال كتب الادب العربي القديم منهل رواد التاريخ لكثرة ما تحتويه من مادة تاريخية غزيرة ٠

٧ ــ الرغبة العلمية التي سيطرت على كثير من علماء الادب واهابت بهم الى الاقبال على العلم للعلم لا لنفع مادي أو معنوي ، فدون بعضهم أخبار التاريخ لهذه الغاية النبيلة فقط دون أن يتأثروا بارضاء الطبقة الحاكمة أو فئة سياسية أو دينية معينة ، ولهذا كانت أبحاثهم أكثر تجرداً من غيرها ٠

الكتب التاريخية :

١ ــ القصص التاريخية وأيام العرب : استمر القصص التاريخي ، الذي تناقله عرب الجاهلية بما دخله من الاساطير والمثيولوجيا الى ما بعد الاسلام ، كما استمر اهتمام المسلمين بتناقل اخبار «أيام العرب» ٠٠ التي تتعرض لحروب الجاهلية الكبرى كحرب البسوس وداحس والغبراء وذي قار وغيرها ، وما أظهر فيها المقاتلون من صنوف البطولة ، وضروب الشجاعة ، وما اضفى المحدثون عليها من خيال خصب ، يجذب اليه السامع ويشده الى متابعة الاخبار ، والتعصب لهذا البطل أو ذاك ، أو لهذه القبيلة او تلك ، وكانت هذه القصص والايام تنقل شفاها ،

ويدخل عليها التحريف والتعديل ، ويستشهد فيها بالشعر والاراجيز الشعرية التي كانت تعتبر سنداً للرواية •• ومن أشهر القصاصين العرب بعد الاسلام عبيد بن شرية الذي الف لمعاوية بن ابي سفيان كتاب « أخبار الماضين » • ووهب بن منبه (١١٠ هـ) •

٢ ــ كتب المغازي والسيرة : تبحث كتب المغازي في غزوات الرسول عليه السلام والحروب التي اشترك فيها هو وأصحابه ، وتبحث كذلك في مناقب الغزاة والمجـاهدين •

أما كتب السيرة ، فتتخصص بدراسة شخصية الرسول عليه السلام وأقواله وأفعاله وما شهده فأقره أو استنكره ، ومن اجتمع بهم ، وماذا دار في مجالسه •• وتتعرض الى جميع سيرة النبي الكريم ، في جميع مراحل حياته ، الخاصة والعامة ، ونظراً لأن القرآن الكريم ذكر قوله تعالى : « ما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحى ، علمه شديد القوى » اهتم المسلمون بالسيرة النبوية ليقتدوا بها ، ويتخلقوا بأخلاق الرسول الفاضلة ، ويعتمـدوا في تشريعهم وتنظيمهم الاداري والاجتماعي والمالي والقضائي عليها •• لذلك اعتمدت السيرة ، كما اعتمد علم الحديث على الاسناد للتأكد مما يدون فيها ويروى عن اعمال الرسول عليه السلام وأقواله وتوسع الكتاب في العصر العباسي فأضافوا الى أبحاث المغازي الحروب التي خاضها الصحابة بعد وفاة الرسول فذكروا معارك القادسية واليرموك ، كما ذكروا الحروب الاهلية كوقعة الجمل وصفين •

وأول من ألـّف في المغازي « أبان بن عثمان » (١٠٥ هـ) ولكن أشهر من كتب فيها محمد بن عمر الواقدي (٢٠٧ هـ) •

كما يعتبر ابن اسحاق (١٥١ هـ) أول من كتب في السيرة كتابا بإذن الخليفة المنصور لم يصلنا وانما وصلنا من كتابه « المغازي » ما أخـذ عنـه ابن هشام (٢١٣ هـ) وقد طبع كتابه عدة طبعات ويعد المرجع الرئيسي في هذا الباب •

٣ ــ كتب الطبقات : عند جمع الحديث والتحقيق في صدقه ، صنف المحدثون في طبقات حسب أهميتهم في رواية الحديث ، ثم صنف المؤرخون على نفس النمط كتباً في طبقات الصحابة أو الاطباء أو الشعراء أو الادباء أو الفقهاء أو النحاة أو العلماء . واشهر كتب هذا النوع : طبقات الصحابة للواقدي (٢٠٧ هـ) طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي (١٣٩ ــ ٢٣٢ هـ) والشعر والشعراء لابن قتيبة (٢١٣ ــ ٢٧٦ هـ) وطبقات الاطباء لابن أبي أصيبعة (٦٦٨ هـ) .

٤ ــ كتب الفتوح: بعد أن جمع المؤرخون غزوات الرسول وحروبه في كتب سموها المغازي ، وأصبحت مرادفة لكتب السيرة ، اهتموا بفتوح البلدان والامصار ليعرفوا أيها فتح حرباً وأيها فتح صلحاً لأن الضرائب تختلف في كل من الحالين . وأشهر كتب هذا النوع : فتوح الشام للواقدي ــ فتوح البلدان للبلاذري (٢٧٩ هـ) .

٥ ــ تواريخ البلدان : وضعت كتب خاصة ، لتأريخ مدن وأقطار خاصة كتاريخ دمشق لابن عساكر (٥٧١ هـ) ويحقق فيه المجمع العلمي العربي اليوم ، وينشر أجزاءه واحداً بعد واحد ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٤٦٣ هـ) والخطط للمقريزي (٨٤٥ هـ) ونفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب للمقري .

٦ ــ التراجم : وتبحث في حياة مشاهير الرجال وأعمالهم وأقوالهم سواء كانوا علماء أو أدباء أو خلفاء ، مثل معجم الادباء لياقوت الحموي ، ووفيات الاعيان لابن خلكان .

٧ ــ التواريخ العامة : ولا يقتصر بحثها على تاريخ العرب أو جزء من بلادهم ، بل يشمل التاريخ العام منذ بدء الخليقة حتى عصر الكاتب واعتمد الكتاب على تاريخ الامم الاخرى غير العربية الى ما نقلوه عنهم من ذلك : تاريخ الامم والملوك للطبري (٣١٠ هـ) ومروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي (٣٤٦) والكامل لابن الاثير (٦٣٠ هـ) وكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون (٨٠٨ هـ).

طريقة تدوين التاريخ :

اتبع المؤرخون العرب في تدوين كتبهم طريقتين :

ا ـ الحوليـات : وهي ذكر الحوادث سنة بعد سنة • فلكي نستقصي أخبار رجل من الناس او حادثة وقعت في عدة سنين يجب أن نرجع الى جميع السنين التي حصلت فيها ، فنجد الكتاب مثلا يقول : وفي سنة كذا حدث كذا من الحوادث حتى اذا انتهى من هذه السنة انتقل الى التي بعدها •

ب ـ التاريخ المتسلسل : ويبدأ المؤرخ بالحادثة فيسردها من أولها الى آخرها أو بتاريخ دولة أو منطقة فيعرضها كوحدة مستقلة •

أشهر المؤرخين :

الطبري : وكتابه تاريخ الامم والملوك أهم الكتب التاريخية العربية • وله عـدة طبعات أدقها طبعة ليدن في هولندا بتحقيق المستشرق دي جوي •

ابن الأثير : وكتابه المشهور « الكامل في التاريخ » وفيه بحث واف عن مصر والانـدلس •

أبو الفداء : صاحب حماة (٧٣٢ هـ) وكتابه « المختصر في أخبار البشر » وهو هام في بحثه عن النصف الاول من القرن الثامن الهجري الذي عاصره •

ابن العبري : (٦٨٥ هـ) وهو راهب مسيحي ألف كتاب « تاريخ مختصر الـدول » •

المسعودي : صاحب مروج الذهب وابن خلدون أعظم كتاب المغرب •

واليك أشهر المؤرخين المسلمين في كل قرن :

١ ـ أشهر مؤرخي القرن الثاني الهجري :

عروة بن الزبير (٩٤ هـ / ٧١٢ م) وقد ألف السيرة ـ وهب بن نبه (١١٠ هـ / ٧٢٨ م) الف عن ملوك حمير ـ ابن شهاب الزهري (١٢٤ هـ/٧٤٢ م) تكلم في المغازي ابن سحاق (١٥٠ هـ / ٧٦٧ م) الذي منحه ابن خلدون لقب « أستاذ » على كتابه في السيرة النبوية .

٢ ـ أشهر مؤرخي القرن الثالث الهجري :

الواقدي (٢٠٦ هـ / ٨٢١ م) ـ ابن الكلبي (٢٠٤ هـ / ٨١٩ م) ـ ابن هشام (٢١٣ هـ / ٨٢٨ م) ـ ابن سعد (٣٢٠ هـ / ٨٢٢ م) ـ ابن عبد الحكم (٢٥٧ هـ / ٨٧١ م) ـ ابن قتيبة (٢٨٦ هـ / ٨٨٩ م) ـ البلاذري (٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) ـ الدينوري (٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) ـ اليعقوبي (٢٨٣ هـ / ٨٩٦ م) النوبختي .

٣ ـ اشهر مؤرخي القرن الرابع الهجري :

الطبري (٣١٠ هـ / ٦٢٢ م) ـ ابن البطريق (٣١١ هـ / ٩٢٣ م) ـ ابن عبد ربه (٣٢٧ هـ / ٩٣٩ م) ـ الصولي (٣٣٥ هـ / ٩٤٦ م) ـ المسعودي (٣٤٦ هـ / ٩٥٦ م) ابن القوطية (٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) ـ ابن النديم (٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م) .

٤ ـ أشهر مؤرخي القرن الخامس الهجري :

ابن حزم (٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م) ـ ابن مسكويه (٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م) ـ البغدادي (٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م) ـ الثعالبي (٤٢٩ هـ / ١٠٣٨) ـ الماوردي (٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) ـ الخطيب البغدادي (٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م) .

٥ ـ أشهر مؤرخي القرن السادس الهجري :

اسامة بن منقذ (٥١٢ هـ / ١١١٨ م) ـ ابن عساكر (٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م)

ويلي ذلك (القرن السابع) : ابن الأثير (٦٢٠ هـ / ١٢٣٣ م) ــ ابن الجوزي (٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م) ــ القفطي (٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م) ــ ابن أبي اصيبعة (٦٦٧ هـ / ١٢٧٠) ــ ابن خلكان (٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) ــ (القرن الثامن) أبو الفدا (٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) ــ لسان الدين بن الخطيب (٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م) (القرن التاسع) ابن خلدون (٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) ــ القلقشندي (٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) ــ المقريزي (٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) ــ (القرن العاشر) السيوطي (٩١١ هـ/١٥٠٥م) ــ (القرن الحادي عشر) المقري (١٠٤١ هـ / ١٦٣٣ م) ــ حاجي خليفة (١٠٦٧ هـ / ١٦٥٧ م) •

٢ ــ الجغرافيا والرحلات

معنى الجغرافيا :

كلمة جغرافيا يونانية الاصل معناها علم وصف الارض وأطلق العرب على هذا العلم أسماء متعددة منها علم تقويم البلدان ــ علم المسالك والممالك ــ علم مسالك البلدان وامصار •

تطور علم الجغرافيا

أ ــ في الجاهلية :

انتشرت بين عرب الجاهلية كثير من المعارف الجغرافية وخاصة ما يتعلق بالانواء والهداية بالنجوم لمعرفة الجهات ومسالك الطرق الصحراوية واتتاج الممالك المجاورة وما يصلح منها للتجارة ، لأن العرب كانوا واسطة النقل التجاري ، فكانت لقريش نفسها في كل عام رحلتان : رحلة الشتاء ورحلة الصيف •

ب ـ في الاسلام :

خرج العرب من جزيرتهم للفتح ، وانساحوا في بلاد امبراطورية واسعة شملت معظم العالم المتمدن في حينه ، فاطلعوا على أحوالها الجغرافية من طبيعة أرض وانتاج واقليم ونشاط بشري فزادت معارفهم الجغرافية بطبيعة الحال ولكنهم خصوا الجغرافيا كعلم قائم بذاته بكثير من عنايتهم فلم يكتفوا بترجمة أبحاث اليونان مثل كتاب المجسطي لبطليموس، بل درسوها وزادوا عليها وقاموا بالتجارب العديدة، فقاسوا محيط الارض ورحلوا براً وبحراً وسجلوا ملاحظاتهم ، فلا غرو أن يعترف الاوروبيون اليوم أن علم الجغرافيا قفز خطوات واسعة في ظل العرب في وقت نسي الناس في العصور الوسطى المعاصرة لنهضة العرب أكثر المعلومات الجغرافية البسيطة التي كان يعرفها اليونان ، ولعل مما دفع الى تقدم علم الجغرافيا عند العرب :

١ ـ **الفتوح :** يستلزم الفتح عادة معرفة الطرق والمسالك ، واماكن المياه وتموين الجيش والمسافات الواقعة بين المراكز المدنية وما شابه ذلك ، كما يستتبع احتلال بلاد عديدة والبقاء فيها والتعرف الى طبيعتها ، ودراسة مشاكلها الاقتصادية لجباية الضرائب ولادراتها بشكل يغني السكان لتغنى الحكومة .. وهذا كله صادف العرب في فتوحهم ، وألفوا الكتب العديدة التي جمعت الى أخبار الفتح أخباراً جغرافية متنوعة .

٢ ـ **الحج :** وفرض على من استطاع اليه سبيلا من المسلمين ، فأخذ أبناء الامبراطورية العربية المترامين يفدون من كل فج عميق الى الحجاز ويطلعون على الطرق الموصلة اليه ، وأحوال الجماعات التي يمرون بها وقد سجل الكثيرون ذلك .

٣ ـ **تدوين الادب والتاريخ :** فقد رحل العلماء الى البادية يتتبعون أخبار القبائل وأقوالها فدونوا خلال ذلك مشاهداتهم الجغرافية كما فعل الهمذاني في كتاب « صفة جزيرة العرب » .

٤ ـ **الرحلات :** كثرت الرحلة في العصور الاسلامية واشتهر عدد من الرحالين الذين دونوا جميع ما شاهدوه حتى غدت كتبهم أحسن مصدر لنا عن أحوال عالم العصور الوسطى ، والرحلة كانت لأسباب سياسية أو تجارية أو علمية أو حباً بالرحلة والتعرف على أرض الله الواسعة .. وجميعها كانت من عوامل تنشيط الابحاث الجغرافية . ومن أشهر هؤلاء الرحالة ابن بطوطة وابن جبير .

٥ ـ **الترجمة :** لم يتجه المترجمون الى علم واحد ، بل نقلوا جميع ما عثروا عليه من كتب قديمة ، فكان من بينها كتب جغرافية مثل المجسطي لبطليموس الذي ذكرنا أنه نقل الى العربية .

اشهر الجغرافيين ومؤلفاتهم :

١ ـ ابن خرداذبه (٢٣٢ هـ) مؤلف كتاب « المسالك والممالك » واعتمد في بيان حدود الارض ومسالكها وممالكها على المجسطي لبطليموس .

٢ ـ ابن حوقل (٣٨٠ هـ) وصف في كتابه « المسالك والممالك والمفاوز والمهالك » رحلته من العراق الى الشام وجزيرة العرب ومصر والمغرب والاندلس وصقلية ، وزين الكتاب بكثير من الخرائط .

٣ ـ المقدسي (٣٨٠ هـ) وكتابه « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » وهو مزين بالخرائط وفيه وصف للعالم الاسلامي الذي زاره بنفسه .

٤ ـ الادريسي : أشهر جغرافيي العرب في أوروبا لأن الكرة التي صنعها من فضة لملك صقلية النورماندي ما تزال محفوظة في برلين حتى اليوم ، وكتابه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » مترجم الى معظم لغات أوروبا الحديثة . فقد ترجم الى الالمانية ١٨٢٨ م والايطالية ١٨٨٥ م والاسبانية ١٧٩٣ م والفرنسية ١٨٣١ م وطبعت خريطة ملونة منه باللاتينية ١٩٣١ وطبعت نسخة بالعربية ١٩٥١ .

يقول عنه المؤرخ غوتيه : ان الشريف الادريسي الجغرافي كان أستاذ الجغرافيا الذي علم أوروبا هذا العلم ، ودام معلما لها مدة ثلاثة قرون ولم يكن لاوروبا مصور للعالم الا ما رسمه الادريسي . ويقول دوسلان ان كتاب الادريسي لا يمكن ان يوازن به أي كتاب جغرافي سابق له ، وان بعض اجزاء من العمورة لا يزال هذا الكتاب دليل المؤرخ والجغرافي في الامور المتعلقة بها .. وتعتبر دائرة المعارف الفرنسية هذا الكتاب « أعظم وثيقة علمية جغرافية في القرون الوسطى » .

٥ ـ ياقوت الحموي (٦٢٦ هـ) ولعله أول من صنف البلدان تصنيفاً جيداً كالمعاجم وذكر أحوالها وتاريخها ، في كتابه « معجم البلدان » وهو من أهم الامهات التي نعتمد عليها الآن لمعرفة مواقع البلدان التي يرد ذكرها في التاريخ .

ومعجم البلدان ليس بكتاب بلدان فحسب . بل انه كتاب تاريخ أمم وتراجم رجال وعادات وأقوام وتقاليد شعوب .. واحتوى مـن الادب درراً ، نثراً ، وشعراً ، ومن القصص طرائف ، بعضها المضحك ، وبعضها المبكي ، وبعضها نقتبس منه العبرة الهادئة .

٦ ـ ابن جبير : وهو رحالة أندلسي قام بثلاث رحلات واسعة ابان الحروب الصليبية سجلها في كتابه « رحلة ابن جبير » بأسلوب أدبي رفيع ، وطريقة علمية دقيقة الملاحظة .

٧ ـ ابن بطوطة (٧٧٧ هـ) رحالة اندلسي ساح في أكثر أجزاء العالم الذي عاصره ووصل الى أماكن لم يصل اليها ماركو بولو الرحالة الجنوي ، فقد وصل الى روسيا وتركستان والهند والصين وجزيرة سرنديب (سيلان) وجزر اندونيسيا ومر بمكة عدا البلاد الاسلامية ، وجمع مشاهداته بكتابه « تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » والمشهور باسم « رحلة ابن بطوطة » .

٨ ـ الحسن بن محمد الوزان : ويعرفه الاوربيون باسم ليو الافريقي ، وهو

رحالة عربي من مواليد غرناطة بالاندلس ، وقضى شطرا من حياته في تونس ومراكش ، وأسر في رحلة بحرية ، وقدم هدية الى البابا ليو العاشر الذي عمده بنفسه وسماه باسمه ، وكتب وهو في روما ، كتابه « وصف افريقيا وتاريخها » ونشره باللغة الايطالية ، وبعد أن مكث في ايطاليا من ١٥١٨ الى عام ١٥٥٠ م تمكن من الفرار الى تونس ، حيث رجع الى الاسلام حيث توفي مسلما عام ١٥٥٢ م في عهد آخر ملوك بني حفص • ويعتبر كتابه وصف افريقيا أول مرجع ساعد الاوروبيين على معرفة افريقيا التي كانت لا تتعدى المناطق الواقعة شمال خط الاستواء وهي أرض البربر ـ ليبيا ـ السودان الغربي ـ اثيوبيا ـ بلاد المغرب ومصر •

المصورات الجغرافية :

رسم العرب خرائط لأكثر الامكنة التي زاروها وعرفوها • وذكروا أن المقدسي زين كتابه « أحسن التقاسيم » المار ذكره ، بخريطة مثل فيها الاقاليم وحدودها وخططها ، ولونها فجعل الطرق المعروفة بلون الحمرة ، والرمال بالصفرة ، والبحار المالحة بالخضرة ، والانهار بالزرقة ، والجبال بالغبرة • والخريطة لم تصلنا الا أن وصفها يدل على انها تشبه خرائطنا الحديثة من حيث التلوين •

جاء في التنبيه والاشراف ان الخليفة المأمون أمر برسم صورة يظهر فيها العالم بأجوائه ونجومه وقاراته وبحاره ومواطنه وسكناه وصحاريه ومدنه وعرفت باسم الخريطة المأمونية ، اجتمع على صنعتها عدد من جغرافيي عصره فاقت كل الخرائط التي رسمها مارينوس وبطليموس وغيرهما من القدامى وكانت مصورة بأنواع الاصباغ •

ويصف المقريزي الخريطة التي صنعت للخليفة المعز لدين الله الفاطمي (٣٤١ ـ ٣٦٥هـ / ٩٥٢ ـ ٩٧٥) والتي انفق عليها اثنين وعشرين الف درهم فيقول انها عبارة عن « مقطع من الحرير الازرق ، غريب الصنعة ، منسوج بالذهب ، وسائر ألوان الحرير • فيه صورة أقاليم الارض وجبالها وبحارها ومدنها

وأنهارها ومسالكها . وفيه صورة مكة والمدينة مبينة للناظر . وقد كتبت على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وطريق اسمه بالذهب أو الفضة أو الحرير كما كتب عليها : ما أمر بعمله المعز لدين الله شوقا الى حرم الله واشهارا لمعالم رسول الله . في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة » .

ولم يكتف العرب برسم الخرائط البرية ، بل رسموا كثيرا من الخرائط البحرية للبحار التي جابوها وخاصة مابين خليج البصرة والهند . ويذهب بعض العلماء المحدثين الى أن العرب هم أول من رسم الخرائط البحرية .

الاكتشافات الجغرافية والمعلومات العامة :

اشتهر من جغرافيي العرب البحار أحمد بن ماجد الذي دل فاسكو دي غاما على طريق الهند ، و « الفتيان المغررون » الذين قاموا برحلات عديدة في المحيط الاطلسي ويعتقد أنهم وصلوا الى أمريكا .

هذا وقد عرف العرب كروية الارض ، وقاسوا أبعادها في عهد المأمون بطريقة لم يسبقهم اليها أحد ، واتخذوا احدى جزر الباليار مبدءاً لخطوط الطول .

وانتقل علم الجغرافيا ، وما يتعلق به من معلومات فلكية الى الاندلس خلال القرن الثالث الهجري خلال امارة عبد الرحمن بن الحكم رابع الأمراء الامويين ، الذين عنوا بالكتب العلمية وانفقوا في جلبها من المشرق ، وكان مما أحضر الى قرطبة ترجمة كتاب السند هند وفيه معلومات فلكية عن حساب النجوم ، وكان من اثر اطلاع علماء قرطبة على هذه الكتب ان انتشرت بينهم فكرة كروية الارض وكيف قاسها المسلمون في زمن المأمون وان الفصول تتبادل في نصفي الكرة الارضية واشتهر من علماء قرطبة مسلم بن أحمد بن ابي عبيد الليثي ، ومعاوية بن الشبانسي ... حتى ان احد فقهاء قرطبة وفلاسفتها وهو ابن حزم ، قد أعلن تحيزه لجانب العلماء ، ضد العامة وجهلاء العلماء الذين حاربوا هذه الافكار العلمية ، وقال بكروية الارض واستدل على ذلك لا بالمشاهدة ولا بما قام به علماء المأمون من

قياس وانما بما جاء في القرآن الكريم ، ورأى ابن حزم ان القول بكروية الارض وبغيرها من المعلومات يؤيد الدين لا ينقضه(1) .

---

(1) كان كثير من علماء الدين والادب قد هاجموا المشتغلين بالجغرافيا والحساب والفلك . ومما يروى أن الشاعر ابن عبد ربه عندما سمع أن العلماء يتخذون آلات فلكية ويقولون بكروية الارض وان الصيف في الجنوب يقابله شتاء في الشمال هاجم المشتغلين بهذه العلوم بقوله :

أين الزيج والقانون والاركند (اسم لزيج) والكمة
واين السند هند البطل والجدول هل ثمة
سوى الافق على الله تعالى مُنْشِر الرِّمة

بينما قال ابن حزم بأن أوضح بيان في تكوير الارض قوله تعالى : « يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » .

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

٥ ــ العلوم الكونية

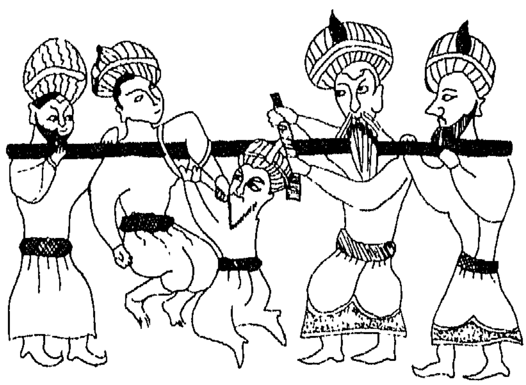
آ ـ العلوم الطبية

الطب : الطب والدين هما أول ما اهتم به الانسان القديم عندما أخذ ينتقل من حالته الهمجية الى التمدن ، واحتكر الطب رجال الدين عند أكثر الامم القديمة ومنهم العرب القدماء كما ذكرنا ، واختلط التطبيب بالشعوذة ولا يزال حتى الآن من يعتقد بأثر التمائم والتعاويذ في طرد الشياطين التي تتلبس الانسان أو تخالطه • وعرب الجاهلية عرفوا كثيرا من أمور الصحة والتطبيب الطبيعي لحاجتهم اليه ، واشتهر أمر كثير من أطبائهم وكان بعضهم حتى في عصر الرسول العربي يذهب الى مدرسة جنديسابور الطبية ومستشفاها لدراسة الطب فيها • وروي عن الرسول نفسه ما يقارب الثلاثمائة حديث عرفت بالطب النبوي أو طب النبي تحتوي على قواعد لحفظ الصحة والاستحمام والشراب والمأكول والزواج والامراض •

وبعد الفتح ، اعتمد الخلفاء والناس في العصرين الاموي والعباسي على أطباء غير عرب وغير مسلمين ، وكان أكثر أطبائهم من النصارى الذين بقوا على دينهم

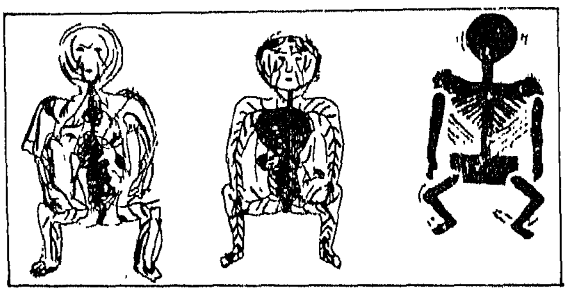
ولاقوا من احترام الخلفاء والشعب ما دفع الكثير منهم أن يهجر بلاده ، ويفد الى البلاد العربية ، وساهم هؤلاء الاطباء بأكبر نصيب في حركة النقل ، فوضعوا بين أيدي تلاميذهم العــرب خلاصة الابحاث الطبية اليونانية والسريانية والهندية ، وأنشؤوا المستشفيات التي تمرن بها طلاب الطب العرب ، فنشأ من تفاعل الطب الاعجمي والطب العربي القديم ، وتجارب الاطباء غير العرب والعرب فيما بعد طب عرف بالطب الاسلامي الذي تمثل بعد نضج العلم في الكتاب « الملوكي » لابي بكر الرازي الملقب جالينوس العرب ألفه للملك عضد الدولة بن بويه وجمع فيه كل ما وجده متفرقا من ذكر الامراض ومداواتها في كتب القدماء الى زمانه في أواسط القرن الرابع الهجري • وما زال هذا الكتاب المعول عليه في الطب حتى ظهر كتاب « القانون » لابن سينا وهو موسوعة في الطب والصيدلة ، لابحاث اليونان والكلدان والهنود والفرس والعرب في الامراض ومعالجتها والعقاقير وخصائصها •

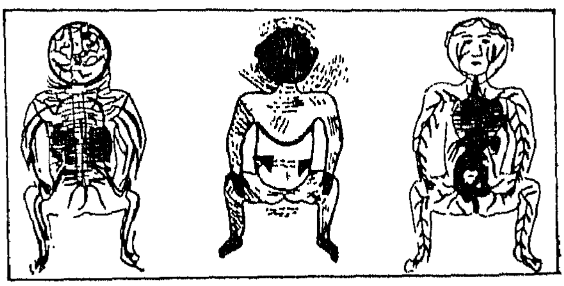
الاطبـــاء : بقي النصارى والهنود وأطباء جنديسابور يحتكرون هذه المهنة طوال العصر الاموي والصدر الاول من العصر العباسي حتى اذا اكتمل عصـــر الترجمة ، واطلع عليها العرب ، نبغ عدد من الاطباء العرب المسلمين الذين ساهموا في النهضة الطبية جنباً الى جنب مع الاطباء غير العرب • وبلغ من كثرة الاطباء



شـــكل — ١٣٩ —
رسم من مخطوطة عربية يمثل عملية تجبير عظم الكتف
(من رسم القرن السادس الهجري)

من جميع الاجناس ،في العواصم الاسلامية المختلفة ، ان الحكومات المحلية كانت تجري لهم امتحانات رسمية وتمنحهم شهادات للعمل ، وقد ورد نص احدى هذه الشهادات في الجراحة كما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم •باذن الباري العظيم نسمح لـ (فلان) بممارسة فن الجراحة لما يعلمه حق العلم ويتقنه حق الاتقان حتى يبقى ناجحاً وموفقاً في عمله ، وبناء على ذلك فان بامكانه معالجة الجراحات حتى تشفى ، وبفتح الشرايين ، واستئصال البواسير وخلع الاسنان ، وتخييط الجروح وطهارة الاطفال •• وعليه أيضاً أن يتشاور دوماً مع رؤسائه ويأخذ النصح من معلميه الموثوق بهم وبخبرتهم » كما كان للاطباء في كل مدينة كبيرة نظام ، فعليهم رئيس هو الذي يمنحهم ويجيز من يرى فيه الكفاءة للتطبيب ، وأشهرهم سنان بن ثابت رئيس أطباء بغداد • ويقال مثل ذلك في الصيادلة ، وتخصص الاطباء في الشرق





شكل — ١٤٠ —
لوائح تشريحية وجدت في مخطوط للطب العربي الاسلامي

والاندلس فهناك الجراح والفاصد والكحال والاسناني وطبيب أمراض النساء ، وطبيب المجانين ، كما انفرد بعض الاطباء لتطبيب جماعات معينة ، فللخلفاء أطباء ينقطعون اليهم يداوونهم مع عائلاتهم ، وللوزراء مثل ذلك ، وللجيش أطباء متخصصون يرافقونهم في حلهم وترحالهم • ولم تقتصر مهنة الطب على الرجال بل اشتهر عدد من النساء الطبيبات أمثال رفيدة وأم سليم وأم سنان وأمينة بنت قيس الغفارية وكعيبة بنت سعد الاسلمية •• في صدر الاسلام وأخت الحفيد بن زهر الاندلسي وابنتها ، وزينب الشامية طبيبة نساء خلفاء بني أمية ، وبنت دهين اللوز الدمشقية ، وكان الاطباء يجازون قبل السماح لهم بالعمل في هذه المهنة • وكانت فحوص الاطباء (كولوكيوم) التي تمنح الاجازة تعقد في العواصم الاسلامية المختلفة من شرق وغرب • ولنضرب مثلا واحدا عنها ما ذكرته المصادر عن « اجتماع اربعة من علماء فاس في ٨ شوال ١٣١٠ لامتحان طبيب مغربي ، فشهدوا بعد استفساره بتضلعه في الطب وقوانينه وتطبيقاته ، ومعرفته بتركيب الادوية وتقاسيم الشرايين ، ووظائفها ، وعددها ، وعدد العظام ، وتمييزه بين أنواع العصب والعضلات في الجسم ، ومعرفة النباتات والازهار والاعشاب الطبية ، وخواصها واسمائها ، وطرق اذابتها ، والاوقات المناسبة لوصفها للمرضى •• وبعد المداولة بين العلماء خولوا للطبيب اجازة »(١) •

ومن أشهر الاطباء المسلمين :

أبو بكر الرازي : (٨٥٠ — ٩٣٢ م) بدأ بدراسة الطب بعد أن بلغ الثلاثين من عمره ، وسرعان ما أصبح « الطبيب الاعلى » انتخب من بين مائة طبيب لرئاسة المستشفى العضدي في بغداد ، وكان أول من دون من العرب ملاحظاته على مرضاه ، وراقب تطور المرض وظواهره ، وأثر العلاج فيه وسجل ذلك كله ، وكان يراجع بنفس الوقت كل ما وقع تحت نظره من كتب طبية ، فكان كثير الملاحظة ، عظيم الانتاج ، الف العشرات من الكتب وأشار الى مصادرها اليونانية والهندية

---

(١) عبد العزيز بنعبد الله : الطب والاطباء بالمغرب ص ٨٩ — ٩٠

والفارسية والعربية . وهو أول من وصف الجدري والحصبة في كتيب هو خير ما وصلنا من تراث أطباء العرب القدماء ، وهو أول من قال بالعدوى الوراثية وأول من استخدم الماء البارد في الحميات المستمرة مما أخذ به علم الطب الحديث ، وكان الى جانب ذلك كيماويا . وهو أول من استعمل الزئبق وأملاحه على القردة ليرى مفعولها فيها . وأخص مؤلفاته :

١ ـ الحاوي : ويقسم الى قسمين أحدهما « الاقراباذين » وهي كلمة مأخوذة عن اليونانية ومعناها رسالة صغيرة ويقتصر بها على تركيب الادوية ويقابلها اليوم كلمة فورما كوبيا Pharmacopeia وثانيهما مجرد ملاحظات سريرية جمعها تلامذته بعد وفاته من قيودات المستشفى العضدي ومن مذكراته . وقد ترجم الحاوي الى اللاتينية ترجمه فرج بن سليم (المعروف باللاتينية باسم فراجوت) وطبع مرارا في البندقية في القرون الوسطى .

٢ ـ رسالة في الجدري والحصبة : وهي أوجز وأفضل مما كتب في الطب العربي القديم ترجمت الى اللاتينية وطبعت عدة مرات ، وفي القرن الماضي ترجمت الى الانكليزية ١٨٤٨ م وطبعت بالعربية في بيروت وعلق عليها فان ديك .

٣ ـ الكتاب المنصوري : كتبه الرازي للامير منصور حاكم خراسان وهو عشرة أقسام أكثر ترتيباً ووضوحاً من الحاوي النظري والعملي ، وترجم الى اللاتينية وبقي كتاب التدريس المقرر في جامعات أوربا الطبية هو وكتاب «القانون» لابن سينا حتى القرن السابع عشر ، وطبع عدة طبعات في ميلانو والبندقية وليون وبادوا وبال .

٤ ـ كتاب الاسرار : وهو كتاب كيماوي يبحث في الادوية وتركيبها وتحضيرها وخصائص الاجسام ، ترجم الى اللاتينية عام ١١٨٧ م وبقي الكتاب المدرسي حتى ترجمت كتب جابر بن حيان وحلت محله في التدريس .

٥ ـ الكتاب الجامع : وقد جمع فيه الرازي العلوم الطبية قديمها وحديثها

مضافاً اليها اختباراته الواسعة •

٦ ــ كتاب طب الفقراء ، أو كتاب الــى من لا يحضــره طبيب ويبحث في الاسعافات الاولية في حالة غياب الطبيب والادوية الموجودة في كل مكان وفائــدة الماء البارد ومداواة الزكام ، ومنافع الحمام ومضاره •

ابن سينا : (٩٨٠ ــ ١٠٣٧ م) اذا كان ابن سينا أسطع نجــم في سمــاء الطب العربي ، فانه من ألمع الشخصيات العلمية الاسلامية جمع الطب والفلسفة والرياضيات والفلك والموسيقى واللغة معاً ، فهو بالنسبة للعصر العباسي ، ليوناردو دوفينشي بالنسبة لعصر النهضة الاوربية ، فلا غرو أن ميز ابن سينا من بين سائر علماء عصره بلقب الرئيس أو الشيخ ، واسمه أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا ولد قرب بخارى في بيت له اشتغال بخدمة الدولة ، وتلقى العلوم العقلية والشرعية في بيت أبيه ، وقد نضج عقله وجسمه نضوجاً سريعاً مبكراً ، وكانت له ذاكرة غريبة ، فقد حفظ القرآن في سن العاشرة من عمره ، ودرس الفلسفة والطب في بخارى وأصبح طبيباً يمارس الطب ويعلمه في السادسة عشرة من عمره ، وبعد عام أسعده الحظ بشفاء الامير نوح بن منصور الساماني على يديه فقربه اليه وأذن له بالدخول في دار كتبه ، فانكب على التهام ما فيها من كتب في الطب والفلسفة ومختلف العلوم فانفتح عليه الكثير من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ، وكان ذلك كله من غير استعانة بمعلم ، وقد قال عن نفسه أنــه ملك جميع العلوم والمعلومات الميسورة لجيله حتى سن الواحدة والعشرين ، ولم يكتسب بعدها سوى خــبرة ونضجاً •• واشتغل ابن سينا بالسياسة فتعرض لتقلباتها ، وأخذ يتنقل من قصر أمير الى قصر أمير حتى قلد الوزارة لشمس الدولة في همذان ، ثم سجن وافرج عنه • وهكذا جمع ابن سينا بين العلم والفلسفة والطب والسياسة حتى مات في سن السابعة والخمسين في همذان •

استثمر ابن سينا كل دقيقة من حياته استثماراً تاماً ، ففي النهار يعنى بشؤون الدولة ، أو الطب أو التدريس ، وفي الليل يتمتع بمحافل الصداقة والانس واجتناء

لذات الهوى ، ثم يعكف على القراءة والكتابة ، ويتناول المنبهات ليطرد النعاس ، وقد قيل فيه « وكم شهدته الليالي عاكفاً على التأليف ، قلمه في يده ، وقدح الشراب الى جانبه ، مخافة أن يغلبه النوم » .

وابن سينا أول من وصف التهاب السحايا الاولي وصفا صحيحا ، ووصف أسباب اليرقان وصفا مستوفيا ، وفرق بين شلل الوجه الناتج عن سبب داخلي في الدماغ أو عن سبب خارجي ، وفرق بين داء الجنب وألم الاعصاب ما بين الاضلاع ، ووصف السكتة الدماغية الناتجة من كثرة الدم ، ووصف أعراض حصى المثانة . واتتبه الى أثر المعالجة النفسانية في الشفاء ، ومساعدتها للعقاقير فقال : « علينا ان نعلم أن أحسن العلاجات وأنجعها هي العلاجات التي تقوم على تقوية المريض النفسانية والروحية وتشجيعه ليحسن مكافحة المرض ، وتجميل محيطه واسماعه أعذب ألحان الموسيقى وجمعه بالناس الذين يحبهم » .

وتآليفه الطبية تمتاز بحسن وضعها وبترتيبها وابرازها في قالب منطقي قوي الحجة قاطع البرهان مما جعل كتاباته شديدة التأثير على رجال العلم في القرون الوسطى حتى قال اوسلر عن كتابه القانون أنه « كان الانجيل الطبي لاطول فترة من الزمان » لانه كان كتاب التدريس الطبي عند العرب والافرنج لمدة تنوف على الثمانية قرون . واذا تجاوزت تآليفه المائة ، في مختلف العلوم فان أهم آثاره الطبية هي :

١ ــ القانون في الطب : وهو أفضل تراث في الطب العربي ، ويقسم الى خمسة أقسام تبحث في تشريح جسم الانسان ، وفي حفظ الصحة والوقاية من الامراض وفي العلاج عموماً والادوية المفردة مرتبة حسب الحروف الهجائية ، وفي الحميات والقروح والجراحة والكسر والسموم وأمراض الجلد وما اليها .

ترجم القانون الى اللاتينية وطبع أكثر من ثلاثين طبعة .

٢ ــ الارجوزة في الطب : وهي قصيدة من الشعر من ١٣١٤ بيتاً جمعت أصول الطب وحفظ الصحة وأنواع العلاج ، ترجمت الى اللاتينية وعلق عليها ابن رشد وابن

زهر تعليقاً حسناً .

٣ ــ عدة كتب ثانوية منها : كتاب الشفاء وكتاب النجاة وكتاب الادوية القلبية .

ابن زهر (١) : (١٠٩٤ ــ ١١٦٢ م) انبغ ابناء عائلة اندلسية عرف أكثر رجالها بالطب ، وهو آخر العلماء المسلمين القلائل الذي حصر جهده في الطب فقط . ويدعى ابا مروان عبد الملك بن ابي العلاء بن زهر ، وكان ينتقد آراء ابن سينا والاطباء المشارقة لكثرة ما فيها من آراء فلسفية غير منطبقة على الملاحظة ، وهو يرى ان الطب شيء والفلسفة والمنطق شيء آخر . من اشهر كتبه « التيسير في المداواة والتدابير » أهداه لتلميذه الفيلسوف ابن رشد . ويحوي وصفا للامراض واضحا وخاليا من النظريات الفلسفية .. وقد كتب ابن زهر وصفا دقيقا لبعض الامراض وخاصة التهاب غشاء القلب (ويظهر انه كان مصابا به) وأعراض السرطان .

---

(١) ينتمي إلى أسرة زهرا العربية التي توطنت اشبيلية في الاندلس منذ أواخر القرن العاشر الميلادي . وأول اطباء هذه الاسرة هو الطبيب عبد الملك بن محمد وكنيته أبومروان الذي مارس الطب في القيروان بتونس والقاهرة ومات في الاندلس (١٠٧٨م) وفاقه ابنه زهر في صنعة الطب وكنيته ابو العلاء بعدان درس هذه المهنة في قرطبة والتحق ببلاط المعتمد بن عباد آخر ملوك اشبيلية من العباديين ، ولما فتح يوسف بن تاشفين اشبيلية صار زهر وزيراً له وتوفي عام ١١٣١ م وكان قد انجب ولداً عام ١٠٩١ ، هو الذي أصبح المع هذه الاسرة والمعروف بابن زهر Avenzoar الذي يعتبر اكبر سروري (اكلينيكي) في الاسلام بعد الرازي لكثرة ما اعتمد على التجربة . واسمه الكامل عبد الملك بن ابي العلاء زهر وكنيته ابو مروان كجده (١٠٩١ ــ ١١٦٢) وكان ابنه سحر طبيبا أيضا واشتهر باسم « الحفيد » لانه ابن ابن زهر (ولد في اشبيلية ١١١١م) ومات في مراكش ١١٩٩ م وينسب اليه كتاب في أمراض العين . وولد لهذا الحفيد ابنة أصبحت طبيبة مولدة ماهرة وخلفتها ابنتها أيضا في الطب والتوليد . اما ابن الحفيد واخو الطبيبة المولدة ، فيدعى عبد الله بن الحفيد وصار طبيبا ناجحا في خدمة الموحدين واصغر ولديه صار طبيبا من بعده ويمثل الجيل السادس للاطباء من أسرة زهر .

ابن نفيس : من مواليد دمشق في النصف الاول من القرن الثالث عشر الميلادي ، وتعلم في مدارس دمشق ، ثم رحل الى القاهرة وتولى رئاسة المستشفى المنصوري ، وقد جمع الى جانب الطب ، علوم اللغة والفلسفة والمنطق والفقه والحديث • ومن كتبه كتاب « الموجز » وهو ملحق لقانون ابـن سينا ، وكتاب « شـرح تشريح القانون » وفيه وصف لاول مرة في تاريخ الطب للدورة الدموية الرئوية ، وتبيان بأن الدم ينقى في الرئتين ، وهو اول اكتشاف سبق أول القائلين به مـن الاوربيين (سرفيتوس) بثلاثة قرون •

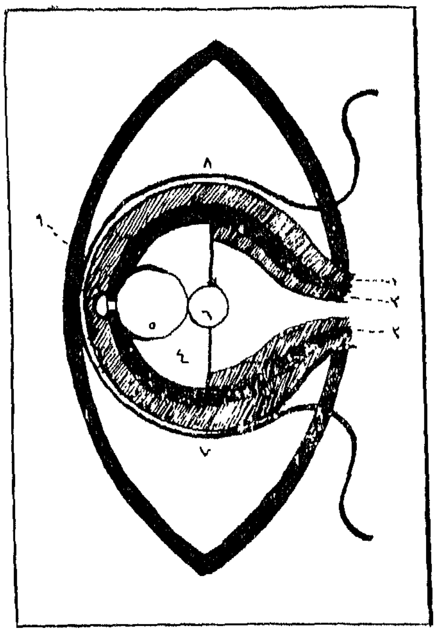
الزهـراوي : وهو ابو القاسم القرطبي خلف بن العباس الزهراوي ، جعـله كتابه « التصريف لمن عجز عن التأليف » من أكبر جراحي العرب واستاذ علم الجراحة في أوربا في العصور الوسطى وعصر النهضة الاوربية حتى القرن السابع عشر ، والكتاب عبارة عن دائرة معارف طبية تحتوي ثلاثين فصلا مبوبة في ثلاثة أقسام : الطب الداخلي ــ الاقراباذين والكيمياء ــ الجراحة • وامتاز القسم الثالث وهو الجراحة بذكر جميع المعلومات الجراحية في زمانه بطريقة واضحة مع رسوم آلاتها وآلات خلع الاسنان • ومن دراسة كتبه تبين انه أول من وصف عملية تفتيت الحصاة في المثانة وبحث في التهاب المفاصل وبالسل واكتشف مرآة خاصة للمهبل وآلـة لتوسيع باب الرحم للعمليات وأشار باستخدام مساعدات وممرضات من النســاء في حال اجراء عملية جراحية لامرأة لان ذلك أدعى الى الطمأنينة والرقة •

وفي كاتدرائية ميلانو بايطاليا صورة ملونة مصنوعة من الزجاج القديم فيها رسم للزهراوي مع الطبيبين المسلمين : ابن سينا والرازي تخليداً لهم جميعاً وتقديراً•

الاختصاص في الطب : هل ظهر الاختصاص في الطب عند العرب المسلمين ؟ اذ كان مـن صفات « الحـكمة » أن يلم الحكيم بالطب والفلسفة والرياضيات والطبيعة والموسيقى وغيرها من المعرفة فهو يتعدى التخصص في فرع واحد مـن الطب ؟ الواقع أن بعض الاطباء ، رغم اطلاعه على سائر فنون الطب والعلوم الاخرى التي تكون منه انسانا مثقفا ، فان عددا منهم تبحر في نوع واحد ، وانقطع للعمل

فيه،كطبيب ومؤلف، وكان أمره كأمر الاختصاصيين في وقتنا الحاضر، لايتخصصون الا بعد حصولهم على شهادة طبية عامة .. من ذلك مثلا :

الكحالة : من مشاهير الكحالين عيسى بن علي وهو من تلاميذ حنين ابن اسحاق صاحب كتاب تذكرة الكحالين ، وعلي بن عيسى صاحب كتاب في علاج العين ، وعمار الموصلي مؤلف كتاب علاج العيون وفيه تشريح مفصل للعين وأمراضها ، والشاذلي ، وابن عزوز المراكشي مؤلف كتاب امراض العينين ، وابن رصيف البغدادي وغيرهم ، الى جانب الاطباء الاخرين الذين ألفوا في مختلف فنون الطب ، ومنها أمراض العين كابن سينا (علاج العين) والرازي وغيرهم .



شكل ـ ١٤١ ـ

صورة العين وطبقاتها مرسومة في رسالة لحنين بن اسحاق ، والمخطوطة محفوظة في الخزانة التيمورية بالقاهرة .

وأسماء طبقات العين كما جاء في المخطوطة هي :

١ ـ الصلبة ٢ ـ المشيمية ٣ ـ الشبكية ٤ ـ الرطوبة البيضية ٥ ـ العنبية ٦ ـ الجليدية ٧و٨ ـ الملتحمة ٩ ـ القرنية .

وقد جاء في كتاب المنصوري للرازي وصف هيئة العين كما يلي « العين مركبة من سبع طبقات وثلاث رطوبات وترتيبها على ما أصف ان العصبة المجوفة التي هي أول العصب الخارج من الدماغ تخرج من القحف الى قعر العين وعليهما غشاءان ، غشاء الدماغ •• ويسميه المشرحون الطبقة الصلبة •• والغشاء الرقيق ويسمى الطبقة المشيمية لشبهها بالمشيمة (خلاص الجنين عند الولادة) •• ويتكون في وسط الغشاء الشبكي جسم لين رطب في لون الزجاج يسمى الرطوبة الزجاجية وفي وسطه الرطوبة الجليدية ••



شكل — ١٤٢ —
صورة ملونة من مخطوطة طبية عربية :
طبيب عربي ، يحاضر طلابه ، في علم الطب ويشرح لهم تصالب العصب البصري وامراض العين وطلابه يسجلون في كراريسهم اقوال مدرسهم الطبيب .

وروي ان بعض الكحالين مال الى التنويم المغناطيسي بحكم صنعته ، فقد ذكر داود البصير الانطاكي في تذكرته في مادة مغنطيس ما يلي « يصنع من

المغنطيس كحل ومن الحديد كحل آخر ، وتكحل من شئت من الحديد ، وتتكحل أنت من المغناطيس فاذا أطلت النظر اليه فانه ينقاد اليك وقد جربه ابن سينا » •

٢ ــ طب الاسنان : تفرد بعض الاطباء لمداواة الاسنان ، ومن الرسائل الخاصة بذلك رسالة ما يضر الاسنان وسائر بدن الانسان للشيخ أحمد الحنفي الحصوني، وهي مخطوطة محفوظة في خزانة في المدينة المنورة• ومن رسوم الالات الجراحية الموجودة في كتاب الزهراوي ، رسوم الات لقلع الاضراس ولجردها أي لتنظيفها ونشر الاسنان النابتة على غيرها ، وتشبيك الاضراس بخيوط الفضة والذهب وقطع اللحم الزائد في اللثة ، مع وصف لهذه الالات والعمليات التي تجري فيها ، ومن أجمل ما قيل في وصف اسناني (طبيب الاسنان) قول الصفي الحلي :

لحا الله الطبيب فقد تعدى   وجاء لقلع ضرسك بالمحال
اعاف عن كلتا يديه الظبي   وسلط كلبتين على غزال

مما يدل على ان استعمال كلمة « كلبة » على آلة الطبيب التي يقلع فيها الاضراس قديم •

٣ ــ الجراحون : وهم أكثر أطباء العرب والمسلمين ، ويسمى الجراح أيضا في بعض كتبهم « الجرائحي » فقد جاء في كتاب ابن بطلان (القرن الخامس الهجري / الحادي عشر ميلادي) : يحتاج الجرائحي ان يكون عالما بالتشريح ومنافع الاعضاء ومواضعها ليتجنب في فتح المواد قطع الاعصاب واطراف العضل والاوتار والالياف •• كما جاء في نفس الكتاب أسماء بعض أدوات الجراح وهي : كلبة الاضراس ، مكاوي الطحال والرأس ، النشاب ، صنابير السبل ، زراقات القولنج ، قاثا طير (اسمها الميل في أيامنا) التبويل ، ملزم البواسير ، مخرط المناخير ، رصاص التنقيل (آلة الرص للالزاق والضم) ، منجل الثآليل ، مخالب التشمير ، محك الجرب ، منشار القطع ، مهت القدح (المبزل) ، مجرفة الاذن ، مقص السلع

(الخراج البارد) ، خشبة الكتف ، حمال الورك ، مفتاح الرحم ، نوار النسا (لعرق النسا) ، مكمدة الحشا ، مقدح الشوصة (ذات الجنب) درج المكاحل ، مرهمدان المراهم ، دست المباضع •• والمدورات والشفرات والمزوبات والحربات وفأس الجبهة وصنارة الصدغ ••

اكتشافات العرب الطبية : يصعب على الباحث ان يعرف ما نقله العرب عن غيرهم من الامم وما اوجدوه بانفسهم ، الا أن الغربيين يقرون في كتبهم ان المسلمين هم أول من استخدم البنج في الطب استخرجوه من الزيوان او الشيلم ، وهم أول من استخدم الكاويات في الجراحة ، وأول من وجه الفكر الى شكل الاظافر في المسلولين • ووصفوا علاج اليرقان والهواء الاصفر واستعملوا الافيون في معالجة الجنون ، وأشاروا الى عملية تفتيت الحصاة ، وكتبوا في الجذام ، ووصفوا الحصبة والجدري ، وخالفوا القدماء بكثير من الادوية والطرق العلاجية مما يقوم عليه الطب الحديث •

المستشفيات العربية : اهتم حكام المسلمين اهتماماً بالغاً بالرفاه العام لشعوبهم ، وانفق الامويون بسخاء على المستشفيات العامة المجانية ، وكذلك فعل العباسيون وحكام الدول المنفصلة • وظهرت في العالم الاسلامي مستشفيات متخصصة لانواع من الامراض ، وكثيراً ما كان يطلق على المستشفيات اسم بيمارستانات • والكلمة مشتقة من (بيما) بمعنى مريض و (ستان) بمعنى محل • أي محل المريض ، وقد خففت اللفظة أحيانا فقيل (مارستانات) • وأهمها :

١ ــ مستشفيات الجذام : وهي أول أنواع المستشفيات ، كان يجمع فيها المجذومون ويعزلون عن المجتمع حتى لا يسري داؤهم الى غيرهم ويعالجون ، واول مستشفى للجذام في الاسلام أنشأه الوليد بن عبد الملك (٧٠٧ م) بينما بني أول مستشفى للجذام في أوربا في القرن الثاني عشر نقله اليها الصليبيون عن سوريا • ولكن بقيت أوربا بشكل عام لا تداوي الجذام حتى روي ان الملك فيليب الجميل أمر بحرق جميع المجذومين في فرنسا • عام ١٣١٣م •



شكل — ١٤٣ —
نماذج من الادوات الجراحيــة التي استخدمها
الاطباء الجراحون من العرب والمسلمين

٢ ـ مستشفيات المجانين : أقيمت منذ العصر الاموي في سوريا ، وافردت حجر خاصة في المستشفيات العامة لمداواتهم سريرياً ونفسياً وبينما كانت أوربا تداوي المجانين بالضرب المبرح •

٣ ـ المستشفيات العسكرية : أقيمت مستشفيات خاصة للجيش ، تنتقل معه ، وتحمل أدواتها على الجمال والبغال ، ويرافق المستشفى ممرضات يتخصصن بتمريض جرحى الحرب والجند •

وقد روى ابن خلكان ان المستشفى العسكري للسلطان محمود السلجوقي كان ينقل على أربعين جملاً ، وبينما كان اسعاف الجنود في أوربا يلقى على عاتق الجندي نفسه ، ولم يوجد الصليب الاحمر ، والممرضات في الجيش الا من بعد حرب القروم ١٨٥٤ ـ ١٨٥٦ م في أوربا ، كان المسلمون قد سبقوهم بأكثر من ألف عام الى ذلك •

٤ ـ مستشفيات السجون : أوجدت في بغداد في العصر العباسي الاول فقد جاء في طبقات الاطباء أن الوزير علي بن عيسى بن الجراح كتب الى سنان بن ثابت رئيس أطباء بغداد كتاباً جاء فيه : « فكرت مد الله في عمرك ، في أمر من في الحبوس وأنه لا يخلو مع كثرة عددهم ، وجفاء أماكنهم أن تنالهم الامراض ، وهم معوقون عن التصرف في منافعهم ولقاء من يشاورونه من الاطباء فيما يعرض لهم ، فينبغي أن تفرد لهم أطباء يدخلون اليهم في كل يوم وتحمل اليهم الادوية والاشربة ويطوفونها في سائر الحبوس ويعالجون فيها المرضى » •

٥ ـ مآوي العجزة والعميان والايتام : واوجدت منذ عصر الوليد بن عبد الملك وزادت في العصر العباسي •

٦ ـ المستشفيات المتنقلة : في العصر العباسي اوجد هذا النوع من المستشفيات التي تتنقل في الريف والقرى البعيدة عن المدن والتي لا يوجد فيها أطباء ، وتذهب خاصة الى الاماكن المرزغية ، ويكثر عملها وعددها عند انتشار بعض الاوبئة ، وربما

كان ذلك أول خدمة طبّية في العالم للريف وسكانه •

٧ ـ محطات الاسعاف : وتقام بالقرب من الجوامع ، وفي أوقات الصلاة خاصة ، وقد أفرد ابن طولون في مسجده مكاناً خاصاً للاسعاف ، عليه أطباء متناوبون ليل نهار يسعفون المصابين والناس أجمعين حين الحاجة •

٨ ـ المستشفيات العامة : لم تخل منها مدينة كبيرة ، لا في المشرق ولا في المغرب ، وكان الخلفاء والامراء والاغنياء يتبارون بانشائها والتبرع لها ووقف الاوقاف الواسعة للانفاق عليها •

ومهمة المستشفيات العربية المتعددة واضحة ، يكفي أن نقرأ ما جاء في نص وقف البيمارستان المنصوري في القاهرة لندركها ، فقد ذكر ان السلطان وقف هذا البيمارستان « لمداواة مرضى المسلمين الرجال والنساء ، الاغنياء والفقراء ، ومصر وضواحيها ، من المقيمين بها والواردين اليها من البلاد والاعمال على اختلاف أجناسهم وأوصافهم وسائر أمراضهم من أمراض الاجسام قلّت أو كثرت ، اتفقت أو اختلفت ، وأمراض الحواس خفيت أو ظهرت ، واختلال العقول •• مما تدعو حاجة الانسان الى صلاحه واصلاحه بالادوية والعقاقير المتعارفة عند أهل صناعة الطب والاشتغال فيه •• يقيم فيه المرضى الفقراء من الرجال والنساء لمداواتهم الى حين برئهم وشفائهم » •

ووصف ابن جبير الاندلسي المستشفى الذي بناه صلاح الدين في القاهرة بأنه « قصر من القصور الرائعة حسناً واتساعاً •• وعليه قيّم من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير •• ووضعت في مقاصير ذلك القصر أسّرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسي • وبين يدي ذلك القيّم خدمة يتكلفون بتفقد المرضى بكرة وعشية •• وبإزاء هذا الموضع مقتطع للنساء المرضى •• وموضع متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك من الحديد اتخذت مجالس للمجانين • ولهم أيضاً من يتفقد كل يوم أحوالهم » •

وهذه المستشفيات جميعها كانت تلحق بها صيدلية مجهزة بالادوية ، وتقدم الدواء والغذاء بل والكساء أحياناً مجاناً دون تفريق في اللون أو الجنس أو الدين بين القادمين عليها ، وكثيراً ما كانت ادارة المستشفى تدفع للمعافين الفقراء مالاً يساعدهم على كسب قوتهم بعد الشفاء • كما كان يلحق بالمستشفيات الكبيرة مدارس للطب ، يدرس الطلاب فيها المؤلفات الطبية ويتمرنون ويعاينون المرضى يومياً في المستشفى •

الكيمياء والصيدلة : لعل الفكرة التي كانت سائدة عند علماء العصور القديمة والوسطى ، وهي امكان تحويل المعادن الخسيسة الى معادن ثمينة ، هي التي دفعت خالد بن يزيد بن معاوية الى استدعاء الراهب مريانوس من الاسكندرية ، وتكليف اسطفان القديم بترجمة كتب الكيمياء اليونانية الى العربية كما ذكرنا في بحث النقل والترجمة •• الا أن هذه الغاية المادية وان بقيت تحمس الكثيريين الى بذل المال بسخاء على التجارب الكيماوية ، أو علم الصنعة كما يسمونها ، فانها لم تكن الحافز الوحيد لتقدم هذا العلم ، لان العناية بالطب ، وترجمة الكتب الطبية المختلفة ، دعيا الى العناية بتحضير الادوية وتجهيزها ، فنشطت بذلك صناعة الكيمياء والصيدلة معاً ، ولعل جميع من ذكرنا من أطباء ، ومئات الاطباء الآخرين الذين لم نذكرهم ، كانوا صيادلة عارفين بتركيب الادوية وتجهيزها ، وكانوا على سعة اطلاع بالشؤون الكيماوية تتميما لعلمهم ولمهنتهم ، ولم ينفرد الا القليل بشؤون الكيمياء ، دون الطب ، ولهذا بقي اسم جابر بن حيان يلمع في سماء الفكر العلمي ، ويرفرف وحيداً في عالم الكيمياء ، حتى عده برتيللو صاحب كتاب « تاريخ الكيمياء في العصور الوسطى » انه أول واضع للقواعد العلمية لعلم الكيمياء ، واعتبره بالنسبة للكيمياء كأرسطو طاليس بالنسبة للمنطق ، ولكن جابراً لم يكن وحيداً في تبحره في علم الكيمياء ، فقد تتلمذ على جعفر الصادق (٨٠ ـــ ١٤٧ هـ الموافق ٦٩٩ ـــ ٧٦٥ م) الذي قرأ جميع ما ترجم خالد بن يزيد بن معاوية ، كما كان لجابر تلاميذ كثيرون لعل أشهرهم أبو بكر الرازي ، الطبيب والفيلسوف والكيماوي •

جابر بن حيان : ويعرف بالكوفي نسبة الى الكوفة التي أقام فيها ، وبالصوفي نسبة الى تبحره في الصوفية وانتسابه الى مذهب التصوف ، وهو من مواليد القرن الثاني للهجرة (بين سنتي ١١٢ أو ١٢٣ ــ ١٩٥ هـ الموافق ٧٣٠ أو ٧٤٠ ــ ٨١٠ م) عاش في بلاط هارون الرشيد واتصل عن قرب بالبرامكة وخاصة يحيى بن خالد البرمكي وابنيه الفضل وجعفر وينسب اليه أكثر من خمسمائة مؤلف في الكيمياء[1]، ويرجح أن بعضها كتبه تلاميذه الكثيرون ونسبوها اليه ، إما لانهم تعلموها منه ، أو احتراما منهم لاستاذهم ، كما يظهر أن بعض من كتب في اللاتينية في هذا العلم نسبها اليه أيضا لتلاقي رواجاً في أوربا ، لان كتب جابر بن حيان Geber كانت هي الكتب الوحيدة التي تدرس في أوربا خلال عدة قرون حتى جاء برتيللو في القرن الماضي ونظم هذا العلم على أسس حديثة وفيه يقول لوكليرك في كتابه « تاريخ الطب العربي » : كان جابر من أكبر الشخصيات في القرون الوسطى لا يساويه شخص آخر في زمانه في سعة معارفه • وقد وجه عبقريته الى فرع معين هو الكيمياء وصار السيد فيه بدون منازع ، واليه يعود الفضل في حمله عصبة من التلاميذ المجتهدين على متابعة الابحاث مدة قرون ، فهيؤوا الوصول الى عصر العلم الحديث • وابن حيان هو أول من حضر حامض الكبريتي المعروف بزيت الزاج • ويعتبر العلماء الحاضرون أن استهلاك كمية هذا الحامض واستثماره هو مقياس لثقافة الشعوب وتقدمها نظراً لاهميته في الصناعة الحديثة ، فجابر بن حيان على من المحسنين الى الجنس البشري والى الصناعة القائمة التي تدين بكثير من انتاجها

---

(١) يسميه الاوربيون Geber واشهر كتبه في اللاتينية Summa Perfectionis وهو ترجمة كتاب « الخالص » . وقد حاول بعضهم أن يتخذ من الفرق بين لفظتي جابر العربية وجبير اللاتينية مطعنا ضد ابن حيان فيدعي أنهما شخصان مختلفان وهذا ليس من الحقيقة في شيء كما يعترف برتيللو .

والواقع انحياة جابر اقترنتبكثير منالغموض والاختلاف في الرواية ، فبعضهم يذكر أنه عربي وآخرون يذكرون انه فارسي ، ويظهر ان صناعته أثارت حسدالناس حتىانهم عزوا غناء البرامكة وثروتهم الىجابر حين علمهم بعض الصنعة واستخرج لهم الذهب من المعدن الخسيس ، ويعللون ذلك باضطراره للفرار من وجه الرشيد ، بعد نكبة البرامكة واختبائه في الكوفة حتى أيام المأمون .

الى تحضيره الكيمياوي ، كما يعزى اليه اكتشاف حامض النيتريك وماء الذهب (النترو هيدروكلورين) وهيدرو كسيد الصودا والسليماني (كلوريد الزئبق) والانتيموان •

وأشهر تآليفه : كتاب الخالص (حسب رأي هرمز في كتابه تاريخ الكيمياء) ـ كتاب الوصية (نسخته بالمتحف البريطاني) كتاب شرح المجسطي (منه ثلاث نسخ في اكسفورد وبودلي وكمبردج) ـ كتابا البيان والنور (في الهند) ـ كتاب الشمس وكتاب القمر (أي كتاب الذهب والفضة • في المكتبة الاهلية بباريس) ـ كتاب التراكيب (المكتبة الاهلية بباريس) كتاب الاسرار (المتحف البريطاني) كتاب الارض أو أرض الاحجار (طبعه برتيللو عن مكتبة ليون والمكتبة الاهلية بباريس) وعشرات غيرها ، ونخص بالذكر الكتاب الذي لا يزال بأصله العربي موجوداً وهو « كتاب السموم » ، وفي المكتبة التيمورية بمصر نسخة من كتاب السموم كتب عليها أن مؤلفها « هو ابو موسى جابر بن حيان الصوفي تلميذ جعفر الصادق ، وان هذه النسخة نسخت بشيراز سنة ثلاث وخمسمائة خراجية » مما يدل على أنها من أقدم الكتب العربية التي وصلت الينا •

والكتاب مقسوم الى ستة فصول : الفصل الاول في أوضاع القوى الاربع وحالها مع الادوية المسهلة والسموم القاتلة وحال تغيير الطبائع والكيموسات المركبة منها أبدان الحيوانات • والفصل الثاني في أسماء السموم ومعرفة الجيد منها والرديء وكمية ما يسقى كل واحد منها وكيف يسقى وأوجه ايصالها الى الابدان • والفصل الثالث في ذكر السموم العامة الفعل في سائر الابدان والتي تخص بعض أبدان الحيوان دون بعض والتي تخص بعض الاعضاء من أبدان الحيوانات دون بعض • والرابع في علامات السموم المسقاة والحوادث العارضة عنها في الابدان والانذار فيها بالاخلاص والمبادرة الى علاجه • والخامس في السموم المركبة • والسادس في الاحتراس من أخذ السموم قبل أخذها فاذا أخذت لم تكد تضر ، وذكر الادوية النافعة بها السموم اذا شربت من بعد الاحتراس •

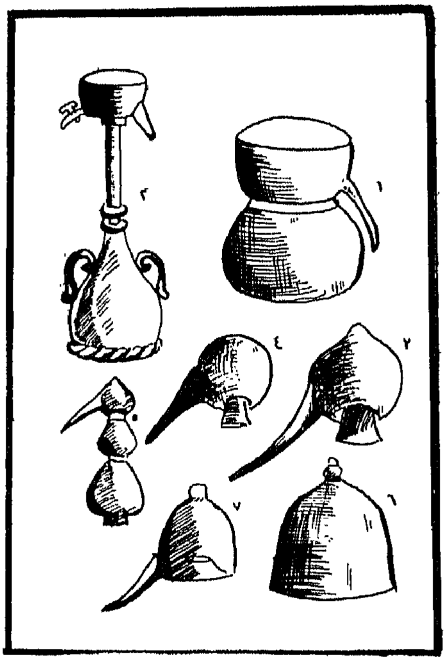
وقد قسم السموم الى ثلاثة أنواع : حيوانية ونباتية وحجرية : فمثال الاولى مرارة الافعى ومرارة النمر ولسان السلحفاة وذنب الايل والارنب البحري والضفدع والعقارب والكلب الكَلِب • ومثال الثانية البيش وقرون السنبل والافيون والبنج الاسود والشيح والجوز ماثل ، وبزر قطرنا والكمأة ، وصمغ الشذاب ، وعنب الثعلب والحلتيت ومثال الثالثة : الزنجار والزئبق والزرتيخ والنورة والزاج والشبة وبرادة الحديد وبرادة الذهب •

وقد ذكر جابر بن حيان في كتاب العلم الالهي القواعد التي يجب اتباعها لاجراء التجارب الكيماوية وهي قوله :



شكل — ١٤٤ —
صورة موجودة في مخطوطة تمثل فرن جابر بن حيان الذي اقتبسه الاوربيون وذاع استعماله لديهم في أعمال الكيمياء والسيمياء في القرون الوسطى •

١ ـ عين الغرض من التجربة واتبع التعليمات الخاصة بها •
٢ ـ تجنب المستحيل وما لا فائدة منه •
٣ ـ اختر للتجربة الوقت الملائم •
٤ ـ كن صبوراً ومثابراً وصامتاً متحفظاً •
٥ ـ اختر لمعمل التجارب مكانا منعزلا •
٦ ـ لا تصادق الا من تثق به •
٧ ـ لا تغتر بالظواهر لان هذا يؤدي بتجربتك الى نتيجة خاطئة •



شكل ـ ١٤٥ ـ
ادوات عربية كيميائية هي :
١ ـ قرعة وانبيق مصنوعان من النحاس وهذا مما يعرف بالانبيق البارد .
٢ ـ قطعة من انبيق طويلة الرقبة .
٣ ـ انبيق كبير .
٤ ـ انبيق مدور صغير .
٥ ـ انبيق بثلاثة حويصلات .
٦و٧ ـ انبيقان لاستخراج ماء الكبريت .

واذا أطلقنا على العصر الذي عاش فيه جابر ، اسم عصر جابر بن حيان ، كما سماه جورج سارطون فان عصره عرف كثيرا من الامور الكيماوية الهامة منها :

آ ــ تقطير الخل للحصول على حامض الخليك المركز أي الحصول على حامض الخليك النقي بتقطير الخل • أي أن جابر بن حيان أو احد علماء عصره أدرك أن درجة الغليان في حامض الخليك ادنى من درجة غليان الماء ، وهكذا فتح الى العالم سرا من أسرار التحليل الكيمياوي الصحيح البسيط ، ذلك أنه أدرك أن للسوائل المختلفة درجات غليان مختلفة ، فاذا أحببنا فصل سائلين ممزوجين أو بضعة سوائل ممزوجة معا فما علينا الا أن نرفع المزيج على النار ونبدأ بتصعيده أي بتقطيره ، ونرفع درجة الحرارة شيئا فشيئا ، فكلما وصلنا الى درجة معينة انفصلت مادة معينة من ذلك المزيج •

ب ــ نظرية الكبريت والزئبق في المعادن : وهي القول بأن المعادن (واعتبرها العرب سبعة معادن) تتألف من كبريت وزئبق بنسب متفاوتة ، فاذا زادت كمية الكبريت في معدن ما ، كان ذلك المعدن أكثر هشاشة (أسهل كسرا وانقساماً) وأكثر قبولا للصدأ وكان أخف ؛ واذا كانت نسبة الزئبق فيه أكثر فان ذلك المعدن يصبح ألين ولكن غير قابل للصدأ ولا مطاوعا للانقسام وكان أثقل وزنا (نظرية غير صحيحة اليوم لكنها تتحدى نظرية أرسطو القائلة بوجود العناصر الاربعة والتي بقيت مقبولة في أوربا حتى القرن السابع عشر) •

جـ ــ استعمال ثاني أوكسيد المانغنيز في صنع الزجاج : وذلك لازالة اللون الازرق أو الاخضر الذي يميل اليه لون الزجاج الطبيعي •

د ــ تحضير مداد مضيء من المرقشيشا الذهبية Golden masite (بيريت الحديد أو كبريتيد النحاس) ليستخدم بدل الذهب الغالي الثمن في كتابة المخطوطات الثمينة •

هـ ــ تحضير نوع من الطلاء الذي يقي الثياب البلل ويمنع الحديد الصدأ .
و ــ استخدام مادة الشبه في تثبيت الالوان في الصباغة .
ز ــ صنع ورق غير قابل للاحتراق .

الرازي : أبو بكر محمد بن زكريا الرازي ، ولد في الري من أعمال فارس جنوبي طهران وتوفي عام ٣١١ هـ ، ذكرنا شيئا عنه كطبيب ، وهو صيدلي وكيماوي من الطراز الاول ،تأثر بتعاليم جابر بن حيان ، ونسب اليه أنه أول من استطاع تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب فاتخذصحونه وأدوات سفرته من الذهب الخالص، ولذلك كان طعامه لذيذا لانه مطبوخ في قدور من الذهب ، لكنه امتنع عن تعليم صنعته لاي انسان لاعتبارات أخلاقية ، كما يعزى هذا التحويل قبله الى جابر بن حيان ولم يثبت تمكن الرجلين من هذه العملية .

وقد سلك الرازي في بحوثه وتجاربه مسلكا علميا خالصا فهو يذكر في كتاب « سر الاسرار » تجاربه مبتدئا بوصف المواد التي يشتغل بها ثم الادوات والآلات التي يستعملها ثم الطريقة التي يتبعها في تحضير الخميرة (ويقصد بها المركب) . وهذا هو النهج الصحيح في البحث العلمي .

مكتشفات العرب الكيماوية والصيدلانية : أطلق المسلمون على العقاقير تعبير « عجائب المخلوقات » ويقصدون بذلك ان الله تعالى خالق السموات والارض ، وخالق كل شيء ، قد خلق هذه العقاقير ليستعملها الانسان وتعود عليه بالنفع والخير. وعلى الطبيب أن يعرف طرقها وكيف تشفي من الامراض وكيف تعالج .

واذا أخذ المسلمون فن العقاقير عن ديوسقريدس Dioskurides (المتوفى حوالي عام ٧٠)م وجالينوس Calen (المتوفى حوالي عام ٢٠٠ م) فقد زادواعليه واستكملوه بفضل خبراتهم الطبية التي اقتبسوها مما كان في بلاد مابين النهرين والهند والشرق الاقصى وشمالي افريقيا .

وقد أشار البيروني (المتوفى عام ٤٤٠ هـ ـ ١٠٥٠ م) في مقدمة « كتاب الصيدلة » الى ما للعقار من مكانة خاصة بين الاطعمة والسموم فقال : « وجميع ما يتناول بقصد أو بجهل فمقسم اول الامر الى أطعمة وسموم ، والادوية واقعة في البين لانها بالاضافة الى الاغذية مفسدة ، والى السموم مصلحة ، لايظهر فعلها الا الطبيب الحاذق المشفق لها ، ولهذا توسط بينها وبين الاغذية ماسموه دوائيا، وبينها وبين السموم ما سموه دواء سميا . واعتمدها الاطباء بعد اصلاح قواها والاحتيال لدفع غوائلها حتى تم الانتفاع بها . »

ووجب على الطبيب ، كما وجب على الصيدلاني معرفة خصائص « عجائب المخلوقات » فقد ذكر أحمد الغافقي (المتوفى عام ٥٦٠ هـ ـ ١١٦٤ م) في كتابه « الجامع في الطب في الادوية المفردة » انه اذا كان أطباؤنا يرون أن هذا انما يلزم



شكل ـ ١٤٦ ـ

صفحة من مخطوطة كتاب طبي منسوب لديوسقوريدس ، وهو احد الكتب التي ترجمها العرب المسلمون عدة ترجمات وهذه النسخة مكتوبة في بغداد عام ١٢٢٤م وتمثل نباتا طبيا كتب شرحه واوصافه وفوائده وكيفية استعمالاته ، مع نظريته . وكانت رسوم النبات الطبي توضح دائما الشرح حتى لا يخطىء الطبيب أو الصيدلاني (العطار) بـه .

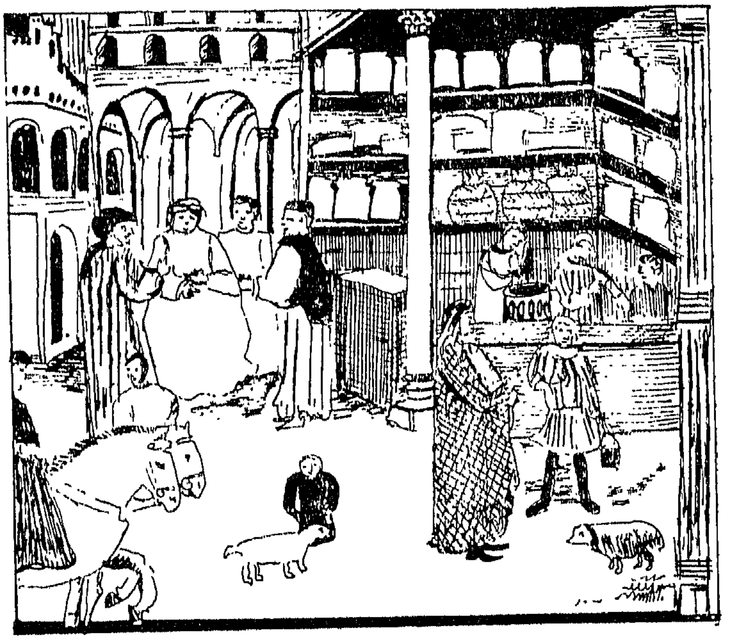
الصيدلاني دون الطبيب لكان ظنهم صادقا لولا أنهم يتولون بأنفسهم عمل الادوية المركبة ، وما أقبح بأحدهم ان يطلب أدوية مفردة فيؤتى بأدوية لا يعلم هل هي التي أرادها أم غيرها فيركبهاويسقيها عليله مقلدا فيها الدجالين ومتعاطي الحشائش ، قوم لا يقرؤون الكتب ولا يعرفون من الادوية الا أقلها » ،

وكانت الادوية المفردة هي العقاقير الاصلية ، سواء كانت نباتية أو معدنية أو حيوانية ، فاذا ما جمعنا عقارين أو أكثر حصلنا على الادوية المركبة التي سماهاعلماء المسلمين « الاقراباذين » وأعلنوا في كتبهم وابحاثهم ان قوى الادوية المفردة ستبلغ حدا بعيدا من التأثير باكمال بعضها بعضا ، ومنها صنفوا المراهم والشرابوالمعاجين والحبوب وغيرها ،

وكان تحضير الادوية المركبة من وظائف الصيدلاني فقد ذكر البيروني ان « الصيدلاني هو المحترف بجمع الادوية على أحمد صورها ، واختيار الاجود من أنواعها مفردة ومركبة على أفضل التراكيب التي خلدها له مبرزو أهل الطب » ،

وقد وضع لطريقة تحضير الاقراباذين كتب فيها القواعد الاساسية لهذهالعملية دعيت « بالدستور البيمارستاني » أي بدستور المستشفيات ، وكانت « الصيدلة اشرف الصنائع بعد صناعة الطب » كما ذكر كوهين العطار (أي الصيدلاني) (المتوفى عام ٦٥٨هـ-١٢٥٩م) في كتابه « منهاج الدكان » ،

وأول من ألف بعلم الاقراباذين في الدولة الاسلامية باللغة العربية هو يوحنا ابن ماسويه ثم سابور بن سهل من مستشفى جنديسابور ثم ابن التلميذ عميد أطباء بغداد ومؤلف « الاقراباذين الكبير » وتعرض لهذا البحث أكثر الاطباء المسلمين مثل علي بن ريان الطبري (٢٤٦هـ/٨٦٠ م) في كتابه « فردوس الحكمة » والرازي (٣١٣هـ/٩٢٥ م) في كتابه « الحاوي في الطب » وابن سينا (٤٢٨هـ/١٠٣٦م)



شكل ــ ١٤٧ ــ
صورة قديمة في مخطوط تمثل دكان عطار (صيدلية عربية)

في كتابه « القانون في الطب » والزهاوي (٤٠١هـ/١٠١٠م) في « كتاب التصريف» وابن القف (٦٨٥هـ/١٢٨٦م) في « كتاب العمدة في صناعة الجراحة » .

وأوجد العرب طرق التقطير والترشيح والتكليس والتحويل والتبخير والتذويب والتبلور وهم الذين اكتشفوا الكحول والقلويات والنشادر ونترات الفضة (حجر جهنم) والراسب الاحمر والبورق وحامض الطرطير وملح البارود والقلي والزرنيخ وزيت الزاج (حامض الكبريتيك) والبوتاس وروح النشادر .

أما الادوية الجديدة التي اكتشفها او استعملها العرب فمنها السنامكةوالكافور والصندل والراوند والمسك والمر وجوز القيء والتمرهندي والحنظل وجوز الطيب

والقرفة • وهم الذين اخترعوا الاشربة والكحول والمستحلبات والخلاصات العطرية ومنها الورد ، وتوصل ابن سينا الى تغليف الحبوب التـــي يصفها للمرضى منعـــا لمرارتها أن تؤذي اللسان ، وتوصل أطباء العرب الى عمل الترياق المؤلف من عشرات الادوية ، وحسنوا تركيب الافيون والزئبق وتوسعوا في استعمالها ، وهـــم أول من استعمل الحشيش والافيون والزيوان للتخدير •

والصيادلة ، كالاطباء كانوا خاضعين منذ عهد المأمون ، للامتحان والحصول على اجـــازة الممارسة وللتفتيش المنظم ، وكان الصيادلـــة يدعون « عطارين » ولهـــم عميد يرأسهم •

ولما فتح العرب الاندلس حملوا اليها علومهم ومؤلفاتهم ، فكانت سراجا منيرا انتشر شعاعه في أوربا وحفز أهلها الى الاشتغال بهذه العلوم التي وصلت اليهم من الشرق ، وكان لزاما عليهم اذ ذاك ان يترجموا الكتب العربية ، وقد فعلوا ذلـــك وبدؤوا به في أواخر القرن الحادي عشر • وكانت الطريقة الشائعة في الترجمة ان تحمل نسخة من الكتاب العربي الى مدينة طليطلة Toledo ويقرؤها باللغة الاسبانية أحد المغاربة الذين اعتنقوا المسيحية ثم تدون عباراته باللغة اللاتينية •

وأول كتاب كيميائي نشر في انكلترا ينسب الى Robert of Chester نقله من العربية سنة ١١٤٤ م ، وموضوعه « تركيب الكيمياء » والمقصود بالكيمياء هنا تلك المادة التي تؤثر على المعادن الدنيئةفتحيلها ذهبا ••• واعتمد روجر باكون الانكليزي Bacon (١٢١٤ ـــ ١٢٩٢ م) على مؤلفات ابن سينا في الكيمياء ••• وتتابع بعد ذلك ظهور المؤلفات الكيميائية بين موضوع منها ومنقول من العربية ، حتى اذا ماحل منتصف القرن السادس عشر كانت هذه المؤلفات شائعة في معظم البلاد الاوروبية• ومما يؤسف له أن الكيمياء اتجهت في اوربا اتجاها ماديا ، اذ أصبح الغرض منهـــا تدبير الذهب والفضة ، وانحصر بحثهم في تحضير تلك المادة التي يتحول بتأثيرهـــا المعدن الرخيص الى أحد هذين الفلزين ، وكان العرب يسمونها الاكسير Elixir

أما الاوربيون فأطلقوا عليها اسم حجر الفلاسفة Philosopher's stone أو الصبغة Tincture وليس هناك شك في أن بعض العلماء كان يعتقد بامكان الحصول على حجر الفلاسفة ، وكانوا متأثرين في ذلك بما قرؤوا عنه في الكتب العربية وبايمانهم بصدق نظرية ارسطو • وقد خدعتهم بعض الظواهر التي توصلوا الى مشاهدتها في تجاربهم العملية الكبيرة •••

كان جـابر خبيرا بالعمليات الكيميائية الشائعة كالاذابة والتبلور والتقطـير والتكليس والاختزال •

ولجابر بحوث أخرى في الكيمياء يعجز عنها الحصر منها :

١ ــ كشفه أن مركبات النحاس تكسب اللهب لونا أزرقا •

٢ ــ استنباطه طرقا صالحة لتحضير الفولاذ وتنقية المعادن وصبغ الجلـود والشعـر •

وللبيروني كتاب « الصيدنة في الطب » (بالنون وليس باللام) يذكره بن أبي أصيبعة بقوله : « استقصى فيه البيروني معرفة ماهيات الادوية ، ومعرفة أسمائها ، واختلاف آراء المتقدمين فيها ، وما تكلم كل واحد من الاطباء وغيرهم فيه ، وقـد رتبه على حروف المعجم » وقد نشر هذا الكتاب في برلين عام ١٩٣٢ منقبل ماكس مايرهوف ، وتقوم على تحقيقه جامعة البيروني في طشقند في الاتحاد السوفييتيحيث يدرسه الكيميائي السوفييتي عبد الله كاريموف من كليـة الدراسات الشرقية في هذه الجامعة •

ومن الصيادلة المسلمين عز الدين الجلدكي وهو كيميائي مسلم توفي ودفن في القاهرة عام ١٣٦٠ م واسمه الكامل عز الدين ايدمر بن علي الجلدكي • ترك مؤلفين في الكيمياء : نهاية الطلب والتقريب في أسرار التركيب • ويبلغ كل منهما نحوا من

ألف صفحة تحوي أهم أوصاف المواد ، وطرق تحضيرها ، وتنقيتها ، وتفاعلاتها ونواتج اتحادها ، وحواصل فصلها ••• والتغييرات التي تحدث عليها بالاضافة او الفصل ، وكيفية المحافظة على نقاوة هذه المواد •

وثبت اليوم ان الجلدكي هو أول من وضع القوانين في الكيمياء الحديثة ، حين قرر « ان المواد لاتتفاعل الا بأوزان معينة » وهو القانون الذي وضعه براوست بعده بخمسة قرون باسم « قانون النسب الثابتة في الاتحاد الكيميائي » وقد نبه ، في كتبه المشتغلين بالعمليات الكيميائية الى اتخاذ الاحتياطات ، للبعد عن خطر استنشاق الغازات والابخرة الناتجة منها ، وأوصى باستعمال الكمامات •••

ويعتبر أول من فصل الذهب عن الفضة بمعاملة المخلوط بحامض الآزوتيك •• وهي الطريقة المستعملة حتى الآن ••

وللجلدكي كتاب البرهان في أسرار الميزان يبحث في الصوت وعلله والصدى ورجعه• ومنهم أبو القاسم المجريطي (القرن التاسع الميلادي) : زعيم الكيميائيين المسلمين في الاندلس الذي اهتم بتجارب الاحتراق والتفاعلات الناتجة عنه ، والتغيرات التي تتم عن أوزانها ؛ وأهم كتبه : « رتبة الحكيم » وفيه وصايا لطالب الكيمياء ، وما يجب أن تتوفر فيه من شروط « اذ يلزمه أن يتثقف أولا في الرياضة بقراءة اقليدس، وفي الفلك بقراءة المجسطي لبطليموس ، وفي العلوم الطبيعية بقراءة أرسطو ، ثم ينتقل الى كتب جابر بن حيان والرازي ليتفهمهما ••• ثم يدرب يديه على اجراء التجارب ، وعينيه في ملاحظة المواد الكيميائية وتفاعلاتها ، وعقله على التفكير فيها»•

علم النبات : اهتم العرب بالنبات كعلم ، وترجموا كتبه الاجنبية في عصر الترجمة العباسي وأول كتاب ترجم هو كتاب ديوسقوريدس في النبات والاقراباذين ترجمه اصطفن بن باسيل في أيام الخليفة المتوكل ، الا أن المترجم لم يستطع أن يجد لكل الالفاظ اليونانية مرادفا عربيا ، فترك كثيرا منها على أصلها ، وبقي هذا الكتاب على

علته الكتاب النباتي الوحيد ، حتى ترجم ترجمة ثانية أدق في الاندلس عام ٩٥١م ، عندما أهدى امبراطور الروم الخليفة الناصر الاندلسي نسخة من هذا المؤلف مزينة بالرسوم (٩٤٨ م / ٣٣٧ هـ) وأرسل اليه الراهب نقولا الذي يعرف اللاتينية واليونانية فقام بترجمته ترجمة دقيقة بمساعدة الاطباء المحليين الذين يعرفون اللاتينية ، ووضعت جميع الاسماء العربية التي كان قد جهل مرادفها ابن باسيل . وبذلك أتم الاندلسيون مابدأه المشارقة ، ومالبث العرب ان درسوا كتاب ديوسقوريدس وعلقوا عليه ، فنشر الطبيب الاندلسي ابن جلجل في مطلع القرن الحادي عشر الميلادي كتابا عن الاشياء التي أغفلها العالم النباتي اليوناني وألحقها بترجمة ابن باسيل فجاء الكتابان مؤلفا كاملا ، ونشر بعده أبو حنيفة الدينوري كتابا من تأليفه الخاص جمع فيه ملاحظاته الشخصية فكان بحق أول المؤلفين العرب في علم النبات ، ثم جاء أبو جعفر احمد بن محمد الغافقي ونشر (١١٦٥ م) كتابه « الادوية المفردة » ذاكرا كل نبات باسمه العربي واللاتيني والبربري ، وعنه نقل العالم النباتي ابن البيطار ، وأصبح علماء النبات العرب من بعد ذلك لا يعتمدون على النقل وانما على الدراسة والملاحظة والتجربة ، فكانوا يراقبون النبات ويرسمونه في مختلف مراحل نموه ، ويدرسون تكاثره ، وتدريكه وتفسيخه ، وتطعيمه وماشاكل ذلك ، فنبغ عدد من النباتيين الذين يعتبرون بحق أساتذة العالم في هذا العلم،منهم:

رشيد الدين الصوري : (١١٧٧ — ١٢٤١ م) : عميد الاطباء في دمشق: ولد في صور ودرس الطب في دمشق ، ألف كتابا على اسم كتاب الغافقي سماه «الادوية المفردة » ، وزينه برسوم النبات بألوانها الطبيعية ، وصف فيه ٥٨٥ عقارا منها ٤٦٦ من فصيلة النبات و ٧٥ من المعادن و ٤٤ من فصيلة الحيوان . وكتابه أول كتاب مصور في علم النبات باللغة العربية . وقد وصفه ابن ابي أصيبعة بقوله : « وهذا الكتاب بدأ بعمله في أيام الملك المعظم وجعله باسمه واستقصى فيه ذكر الادوية المفردة وذكر أيضا أدوية اطلع على معرفتها ومنافعها لم يذكرها المتقدمون . وكان يستصحب مصورا ومعه الاصباغ والليف على اختلافها وتنوعها ، فكان يتوجه ابن

الصورى الى المواضع التي بها النبات مثل جبل لبنان وغيره من المواضع التي اختص كل منها بشيء من النبات فيشاهد النبات ويحققه ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله ويصور بحسبها ويجتهد في محاكاتها • ثم انه سلك أيضا في تصوير النبات مسلكا مفيدا وذلك أنه كان يرى النبات للمصور في ابان نباته وطراوته فيصوره ثم يريه أيضا وقت كماله وظهور بزره فيصوره تلو ذلك ، ثم يريه أيضا وقت ذواه ويبسه فيصوره ، فيكون النبات الواحد يشاهده الناظر اليه في الكتاب وهو على انحاء مايمكن أن يراه به في الارض فيكون تحقيقه له أتم ومعرفته له أبين » •

ابن الرومية : هو أحمد بن محمد بن أبي الخليل مفرج الاموي ويعرف بابن الرومية • ولد في اشبيلية ٥٦١هـ/١١٦٥ م وتوفي فيها (٦٣٧هـ/١٢٣٩م) •

وكانت قاعدة الحكومة الموحدية بالاندلس ، ومركز العلوم والآداب بعد ان تضاءلت هيبة قرطبة السياسية والادبية • وجمع ابن الرومية من علم الحديث وعلم النبات ومن كتبه في علم النبات : شرح حشائش ديسقوريدس وأدوية جالينوس والتنبيه على أوهام ترجمتها ــ التنبيه على اغلاط الغافقي ــ الرحلة النباتية ــ المستدركة ــ الادوية المفردة •

ابن البيطار : فاق استاذه ابا العباس بن الرومية وأصبح علما من أعلام النبات لما قام به من أسفار الى بلاد اليونان وبلاد الروم ، وجميع بلاد العالم الاسلامي ، ليجتمع بمن يعاني هذا الفن من مسلمين وعرب ومن يونان ورومان ويدارسهم في أنواع النبات ، وخواصه وفوائده ، وكان في كل ترحاله يدرس النبات في منابته ويدرس الحجر الذي ينمو فيه ، والارض التي تنبته ، والعوامل المختلفة المتركزة عليه ، حتى اذا جمع خبرة طويلة مستندة على الملاحظة الدقيقة ألف كتابيه « المغني في الادوية المفردة » و « الجامع لمفردات الادوية والاغذية » •

ويصف ابن أبي أصيبعة هذا الكتاب الاخير فيقول : « استقصى ابن البيطار

في كتابه الجامع ، ذكر الادوية المفردة وأسمائها وتحريرها وقواها ومنافعها ، وبين الصحيح منها وما وقع الاشتباه فيه » • بينما نقرأ في مقدمة الكتاب قول ابن البيطار نفسه : « بهذا الكتاب استيعاب القول في الادوية والاغذية المستعملة على الدوام ، والاستمرار عند الاحتياج اليها في ليل كان أو نهار ، مضافا الى ذلك ذكر ما ينتفع به الناس من شعار ودثار • واستوعبت فيه جميع مافي الخمس مقالات من كتاب الافضل ديسقوريدس بنصه ، وهذا مافعلته أيضا بجميع ما أورده الفاضل جالينوس في الست مقالات من مفرداته بنصه • ثم ألحقت بقولهما من أقوال المحدثين وعلماء النباتيين مالم يضعاه • وأسندت في جميع ذلك الاقوال الى قائلها ، وعرفت طريقة النقل فيها بذكر ناقلها : واختصصت بما تم لي به الاستعداد وصح لي القول فيه ووضح عندي الاعتماد عليه » •

يضاف الى فضل ابن البيطار هذا بالنقل ، والامانة في النقل ، وبالتجربة ، أنه رتب كتابه على حروف المعجم لتقريب مأخذه ، وليسهل على القارىء والطلبة مطالعته دون مشقة وعناء ، وأشار ، الى كل دواء وقع فيه وهم أو غلط لمتقدم أو متأخر لاعتماد أكثرهم ـــ كما يقول ابن البيطار ـــ على النقل ، واعتماده هو على التجربة والمشاهدة •

كما يمتاز هذا الكتاب أيضا بذكر أسماء الأدوية بسائر المصادر المتباينة التي اطلع عليها ، وعرف بها ، مع ذكر منابت الدواء ومنافعه وتجاربه الشهيرة • فهو معجم نباتي طبي ترجم فيما بعد الى اللاتينية والفرنسية والالمانية •

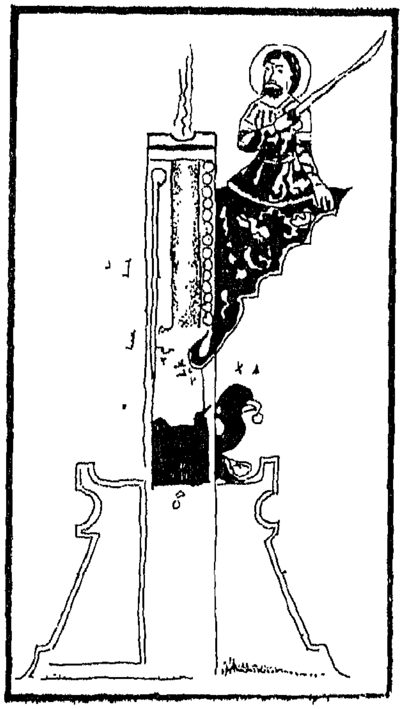
وابن البيطار يدعى ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد ، ولد في القلعة المالكية على مقربة من مالقة باسبانيا ، وساح في اسبانيا والمغرب ومصر وسوريا وآسيا الصغرى ، ولما كان في مصر دخل في خدمة الملك الكامل الايوبي وكان يعتمد عليه في الادوية المفردة والحشائش حتى جعله رئيسا على العشابين وكبير العطارين والصيادلة ، في مصر كلها ، وكانت وفاة ابن البيطار في دمشق عام ١٢٤٨م/٦٤٦هـ •

ونشر ابن البيطار وهو في مصر كتابا ثالثا سماه « المغرب » ضم ٢٣٣٠ فصلا عن الاطعمة والادوية النباتية ، وقد عثر فيه عن ٣٠٠ وصفا لادوية كانت مجهولةعند الذين تقدموه وتناولوا هذا الموضوع ، وهذا دليل على مزية المؤلف الشخصية في البحث علاوة على قيمة جمع هذه المعلومات من مختلف المصادر ٠ ولهـذا اشتهر ابن البيطار ولايزال يعرف في أوربا بلقب « ابو علم النبات » كمـا يلقب هيردوت « أبو التاريخ » ٠

ب ـــ العلوم الطبيعية

العلوم الطبيعية : اطلع العرب على علوم اليونان الطبيعية كما اطلعوا على علومهم الطبية والكيمياوية وفلسفتهم وترجموا هذه الكتب ودرسوها ، ثم انتقدوها، وأخذوا بدورهم يجربون النظريات القديمة ويراقبون التجارب ، فيزيدون عليها وينتقدون أو يعدلون اخطاءها ، ثم يضعون ملاحظاتهم الجديدة عليها وبذلك ـــ كما يقول وايدمان ـــ أسدوا الى العلم خدمات لاتقل عن الخدمات التي أتت من مجهودات نيوتن ، وفرادي ، ورونتجن ، لانهم بعد أن فهموا النظريات اليونانية وطبقوها على حالات كثيرة مختلفة ، وضعوا نظريات وبحوثا جديدة مبتكرة . وقامت عبقريتهم في هذه العلوم على خمس دعائم هي : نفيهم الخرافات القديمة ـــ سعة اطلاعهم على علوم الاقدمين ـــ رحلاتهم الكثيرة للبحث والتنقيب ـــ تجاربهم ـــ موازنتهم بين مختلف مظاهر الطبيعة ، من جماد وحيوان ونبات وانسان ، ودراسة أوجه النسب والخلاف بينها . وأهم العلوم الطبيعية عندهم كانت : علم الميكانيك أو الحيل وعلم الفيزياء .

علم الميكانيك : وسماه العرب علم الحيل وقسموه الى قسمين : أحدهما يبحث في آلات الحركات وصناعة الاواني العجيبة ، وثانيهما في جر الاثقال بالقوة اليسيرة. ودرسوا في هذا العلم كثيرا من الادوات الميكانيكية كالرافعة والمخل ، واللولب والاسفين وغيرها ، وكان اعتمادهم اولا على الكتب المترجمة مثل كتاب الفيزيكس لارسطو وكتاب الحيل الروحانية وكتاب رفع الاثقال وكتاب الآلات المصونة،وكتب قطيزنيوس وهيرون الاسكندري في الآلات المفرغة للهواء والرافعة للمياه وغيرها ،



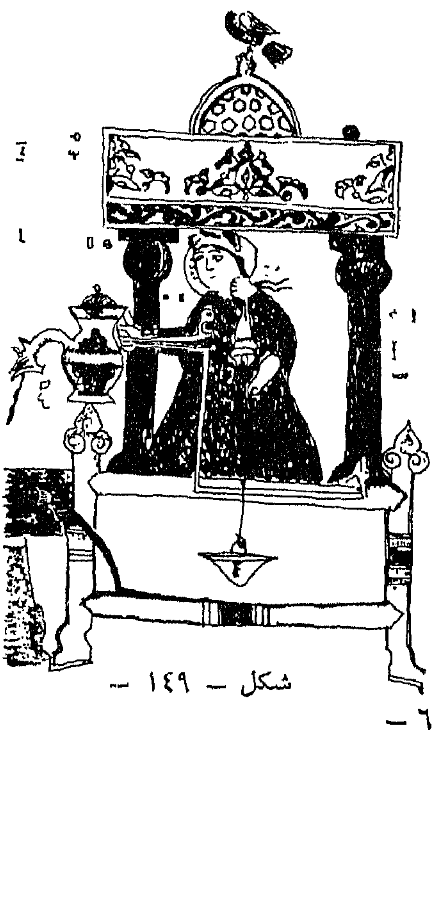
شكل — ١٤٨ —

صورة تمثل احدى « الحيل » التي ابتدعها العرب، وتمثل شمعة كبيرة وطائراً وسيافاً ، وكرات . ويعتقد ان هذا الجهاز كان ساعة زمنية ، فكلما ذاب الشمع ، بمدة محدودة ، سقطت كرية فتحرك مقعد السياف فهز سيفه وسقطت الكرية على الطائر فتحرك واسمع صوتا خاصا به .

اما المده الزمنية لكل حركة فلم نستطع معرفتها ، وهي حتما بالدقائق لا بالساعات .

من روائع علم « الحيلة » العملية اي الالات التي صنعها العرب هذه الدمية البشرية المرسومة في مخطوط عربي وفيها شرح لفائدتها واستعمالاتها :

يملأ الاناء بماء زلال ، ويوضع في الاناء الصغير فوقه ماء الورد ، او عطر مركز ، وتمسك الدمية بيدها على الانبوب الذي يصل اناء العطر باناء الماء ، فحين يغسل الضيوف او اصحاب الدار ايديهم قبل الطعام او بعده ، يحرك الثقل المربوط بيد الدمية الاخرى فتتحرك الدمية وتسمح للعطر ان ينزل قطرات من الماء، وينفتح صنبور الماء تلقائيا .. وهكذا يغسل الناس ايديهم ووجوههم او يتوضؤون بالماء المعطر . (من مصنوعات القرن السابع الهجري) .



شكل — ١٤٩ —

وما لبث العرب بعد ترجمة هذه الكتب واشباهها أن قاموا بالتجارب وألفوا الكتب الجديدة في هذا العلم • وأشهر علماء العرب في هذا المضمار هم :

ابناء موسى بن شاكر : وموسى أحد المنجمين المعنيين بشؤون الفلك في بلاط المأمون ، رزق بثلاثة أولاد هم محمد وأحمد وحسن رعى المأمون تربيتهم فأوكل أمر العناية بهم الى اسحاق بن ابراهيم المصعبي ، حتى اذا ما شبوا دفع بهم الى يحيى ابن أبي منصور رئيس بيت الحكمة فتفتحت أمامهم في تلك الاكاديمية كل أنواع المعرفة والعلوم ووسائل الدرس والاستفادة ، حتى برزوا في علوم الفلك والرياضيات والميكانيكا والهندسة والموسيقى والطب والحكمة وعلم هيأة الفلسفة[1] • وبرزوا أول مابرزوا في ميدان الترجمة العلمية ، حين أصبحوا مشرفين على قسم العلوم في بيت الحكمة وكان أكبرهم وأشهرهم « محمد » يشرف على مايترجم في بيت الحكمة من كتب الجبر والمقابلة • وقد سافر عدة مرات الى آسيا الصغرى واليونان تفتيشا على كتب الفلسفة والرياضيات والفلك والميكانيك ••• وقد أوكل المأمون الى هؤلاء الاخوة أمر اختيار المترجمين والكتب والمواضيع المترجمة ، فيعزى اليهم اكتشاف حنين بن اسحاق ، وابنه اسحاق بن حنين وابن أخته حبيش بن الاعسم ، وثابت بن قرة الذي نقلوه من الشام الى بغداد للعمل معهم في الترجمة والتأليف الرياضي ••• ثم ما لبثوا ان تحولوا من الترجمة الى الدرس والتجربة والرصد والتأليف ، ونبغ محمد في الفلك والرياضيات والفلسفة والطب ، ونبغ أحمد في علم الميكانيكا ، وبرز الحسن في علم الهندسة • وبعد أن عمل الاخوة الثلاثة في دار

---

(١) يقول ابن النديم في الفهرست ص ٣٧٨ — ٣٧٩ : «وهؤلاء الاربعة ممن تباهى في طلب العلوم الفرعية وبذلوا فيها الرغائب واتعبوا فيها نفوسهم وانفذوا الى بلاد الروم من اخرجها اليهم فأرضوا النقلة من الاصقاع والاماكن بالبذل السني فأظهروا عجائب الحكمة ، وكان الغالب عليهم العلوم الهندسية والحيل والحركات والموسيقى والنجوم وهو الاقل » ويقول ابن خلكان في كتابه وفيات الاعيان ج ٥ ص ٧٩ « ولابناء موسى بن شاكر كتاب عجيب نادر يشتمل على كل غريبة ، ولقد وقفت عليه فوجدته من أحسن الكتب وامتعها وهو مجلد واحد » •

الرصد المأمونية في الشماسية في أعلى بغداد ،أنشؤوا مرصدا خاصا بهم في دارهم التي أقاموها عند باب « الطاق » في جانب الرصافة من بغداد • وساهموا في عملية قياس محيط الارض التي تمت في عهد المأمون في صحراء سنجار في شمال العراق وصحراء تدمر في بر الشام •

وألف هؤلاء الاخوة عددا من الكتب ، فلهم مشتركون كتاب يحتوي على قياسات المساحات المسطحة والمستديرة • ويعرفه في أوربا باسم كتاب الاخوةالثلاثة في الهندسة بعد أن ترجمه جيرار الاكويني •

وكتاب حيل بني موسى جمعوا فيه علم الميكانيك القديم ، وتجاربهمالخاصة، وهو يحوي على مائة تركيب ميكانيكي ، عشرون منها ذات قيمة عملية ، وكتاب القرسطون ويذكره ابن النديم في الفهرست ، وكتاب الآلات الحربية •

وكان اهتمام أحمد منصبا على الاختراعات العملية ذات الفوائد المنزلية ولعب الاطفال والاثقال وغيرها ، وقد جاء وصفها في كتاب فن الآلات الروحية[1] من ذلك اختراعه لبراميل تملأ بالخمر وتفرغ من ذاتها كميات معينة من الشراب تعقب كل كمية منها فترة استراحة محددة ، وآلات تمتلىء بالسوائل وتفرغها تلقائيا ، وقناديل ترتفع فيها الفتائل تلقائيا ويصب منها الزيت ذاتيا ولا تستطيع الرياح اطفاءها ،

---

(١) جاء في كتاب ارشاد القاصد الى أسمى المقاصد للانصاري أن علم مراكز الاثقال هو علم يتعرف منه كيفية استخراج ثقل الجسم المحمول ، والمراد بمركز الثقل حد في الجسم عنده يتعادل بالنسبة الى الحامل ، وان فن الآلاتالروحية علم يتبين فيه كيفية ايجاد الآلات المرتبة على ضرورة عدم الخلاء ونحوها من آلات الشراب وغيرها ومنفعته ارتياض النفس بغرائب هذه الآلات كقدحي العدل والجور . ويشرح كتاب كشف الظنون هذين القدحين بقوله : أما قدح العدل فهو اناء اذا امتلأ على قدر معين يستقر فيه الشراب وان زيد عليها ولو بشيء يسير ينصب الماء ويتفرغ الاناء عنه بحيث لايبقى قطرة ، واما قدح الجور فله مقدار معين ان صب فيه الماء بذلك القدر القليل يثبت ، وان ملىء يثبت ايضا، وان كانبين المقدارينيتفرغ الاناء ، كل ذلك لعدم امكانالخلاء» .

ومعالف خاصة لبعض الحيوانات ، لايستطيع استعمالها الا لما وضعت له ، ونافورات تندفع مياهها في صور شتى ...

بينما ألف محمد ، دون مشاركة أخويه كتاب حركة الفلك الاولى وكتاب المخروطات ، وكتاب المثلث ، وكتاب الجزء وكتاب أولية العالم ، وكتاب مائية الكلام، وكتاب الشكل الهندسي وكتاب التقاويم لمنازل السيارات .

وألف الاخ الثالث الحسن كتاب الشكل المدور والمستطيل ، وكتاب مساحة الاكر ، وكتاب قسمة الزاوية بثلاثة أقسام متساوية وغيرها (١) .

وغير أبناء موسى كثيرون ممن اشتغلوا بهذا العلم(٢) ، ودرسوا نواحي مختلفة

---

(١) من مقال لسليم طه التكريتي ، العربي ١٥٥ .

(٢) ذكر ابو العز بن اسماعيل بن الرزاز الجزري في كتابه « الحيل الجامع بين العلم والعمل » انه « صنع زورقا عليه صور بعض ندماء السلطان ، وصور جماعة من مطربات مجلسه ، واتخذه من خشب فيه دكة عليها صور الملك جالسا ، وعن يمينه حاجبه قائما ، وعن شماله حامل السلاح ، وبين يديه غلام في يده قدح كأنه يسقي ، ودون ذلك جماعة من الندماء جلوس عن اليمين وعن الشمال ، وبين ايديهم أواني الشراب ، وقبالة الملك دكة عليها زامرة ... ووراء الدكة الجواري الملاح ، وعلى حافة الزورق ملاحان بأيديهما مجذافان ، فيوضع الزورق على سطح الماء في بركة كبيرة ، فلا يكاد يسكن ، بل يتحرك ، وكلما تحرك ، فان الملاحين يتحركون ، لانهم على محاور ، والمجاذيف تحركهم بحركتها في الماء ، فاذا مضى نصف ساعة تزمر الزامرة ، وتلعب الجواري بالملاهي بأصوات يسمعها من حضر ، ثم يسكتن ، ثم يعدن الزمر واللعب . . »

وفي هذا الكتاب المحفوظ بالخزانة التيمورية بالقاهرة صور عديدة للساعات المائية والدواليب والآلات المنوعة ووصف المقري في النفح ساعة كانت عند ابي حمو سلطان تلمسان : « لها ابواب مجوفة على عدد ساعات الليل الزمانية ، فمهما مضت ساعة ، وقع النقر بقدر حسابها ، وفتح عند ذلك باب من أبوابها ، وبرزت منه جارية وفي يدها رقعة مشتملة على نظم فتضعها بين يدي السلطان ، ويسراها على فمها مؤدية بالمبايعة حق الخلافة .

وصنع أبو عنان المريني على يد موقته علي التلمساني عام ٧٥٨ ساعة من نحاس مقابلة لباب مدرسة الجديدة بسوق القصر بالمغرب وجعل شعار كل ساعة ان تسقط صنجة في طاس .

منه ، فشرح بعضهم صعود مياه الفوارات والعيون الى أعلى وكيفية ترشح مياه الآبار من الجوانب وبينوا كيفية صعود المياه الى الاماكن العالية بالقلاع ورؤوس المنارات وطبقوا ذلك في حاجاتهم اليومية وفي قلاعهم المرتفعة ، وكان علم السوائل عندهم من فروع الحيل . وللبيروني في كتاب « الآثار الباقية » شروح وتطبيقات كثير من الظواهر التي تتعلق بضغط السوائل وتوازنها . وكتب بعضهم كالخازن[1] في الانابيب الشعرية ومبادئها وتعليل ارتفاع الموائع وانخفاضها فيها ، وهذا البحث قادهم الى البحث في التوتر السطحي Surface Tension وأسبابه . واهتم بعضهم الآخر بتطبيق مبادىء الميكانيك عمليا ، فأوجد عددا من الروافع المبنية على القواعد

⇐

وجاء في وصف مقصورة جامع مراكش المصنوعة ايام الموحدين انها كانت تتحرك جدرانها ونبرها بمجرد ما تمس رجل الخليفة الازرار الموضوعة في المدخل الخاص عند دخوله المقصورة .. اذ كانت تدار هذه المقصورة بحيل هندسية بحيث تنصب اذا استقر المنصور ووزراؤه بمصلاه منها ، وتختفي اذا انفصلوا عنها وقد اتخذها المنصور بجامعه المتصل بقصره في مراكش ، وفيها يقول ابو بكر بن مجبر شاعر المغرب في وقته :

طورا تكون بمن حوته محيطة — فكأنها سور من الاسوار
وتكون حيناً عنهم مخبوءة — فكأنها سرٌ من الاسرار
وكأنها علمت مقادير الورى — فتصرفت لهم على مقدار
فاذا أحست بالامام يزورها — في قومه قامت الى الزوار
يبدو فتبدو ثم تختفي بعده — كتكون الهالات للاقمار

وذكر المقري في النفح انه زار مراكش عام ١٠١٠ فلاحظ أن حركات هذه المقصورة بطلت وبقيت آثارها (راجع كتاب مظاهر الحضارة المغربية ج ٢ — تأليف عبد العزيز بنعبد الله) .

(١) الخازن : من رياضيي العرب المشهورين ويسمى محمد بن حسن أبو جعفر الخازن ، ونبغ في أوائل القرن الرابع للهجرة ، وهو أول عربي حل المعادلات التكعيبية هندسيا بوساطة قطوع المخروط .

الميكانيكية لجر الاثقال بقوى يسيرة أو لرفعها أو لوزنها ، وفي كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمي شرح لكثير من هذه الآلات كالمخل والبيرم والاسفين واللولب والقرسطون وغيرها ، وقد دفعهم هذا الى اتخاذ أنواع من الموازين المختلفة منها الموازين الدقيقة التي تضاهي أدق الموازين الكيميائية الحديثة الموضوعة ضمن صناديق من الزجاج ؛ اذ ثبت من بعض الابحاث ان فرق الخطأ في وزن بعض مواد تجاربهم كان أقل من أربعة من ألف جزء من الغرام[1] ومنها الموازين الكبيرة كالقبان الذي عزوا خاصته الى النسبة ، فذكر أخوان الصفا في احدى رسائلهم قولهم «ومن عجائب خاصته النسبية مايظهر في الابعاد والاثقال من المنافع ، على ذلك مايظهر في القرسطون أعني القبان وذلك أن أحد رأسي عمود القرسطون طويل بعيدمن المعلاق، والآخر قصير قريب منه ، فاذا علق على رأسه الطويل ثقل قليل وعلى رأسه القصير ثقل كثير تساويا وتوازنا متى كانت نسبة الثقل القايل الى الكثير كنسبة بعد رأس القصير الى بعد رأس الطويل من المعلاق »[2] .

ومن الابحاث الهامة ، التي دخلت عندهم في بحوث علم الحيل حساب الوزن النوعي فاخترع الخازن آلة لمعرفة الوزن النوعي لاي سائل ، وكان البيروني يستخرج الثقل النوعي بوزن الجسم في الهواء أولا ثم بوزنه في الماء بعد أن يدخله في وعاء مخروطي الشكل مثقوب على علو معين ، ثم يزن الماء الذي أزاحه الجسم ، فمن حجم الماء المزاح كان يعرف حجم الجسم ، ومن قسمة وزن الجسم في الهواء على وزن الماء المزاح يحصل على الثقل النوعي للجسم الموزون . واستنبط غيره آلات خاصة لحساب الثقل النوعي حسابا دقيقا ، فالرازي استعمل ما سماه بالميزان

---

(١) وزن الاستاذ فلندر بتري ثلاثة نقود عربية قديمة فوجد ان الفرق بين أوزانها جزء من ثلاثة آلاف جزء من الغرام فقال : انه لايمكن الوصول الى هذه الدقة في الوزن الا في استعمال ادق الموازين الكيماوية ، وبتكرار الوزن مرارا حتى لايبقى فرق ظاهر في رجحان احد الموازين على الآخر ، ولذلك فالوصول الى هذه الدقة لما يفوق التصور ولايعلم ان احدا وصل الى دقة في الوزن مثل هذه الدقة .

(٢) المعلاق هنا نقطة الارتكاز ، وقد الف ثابت بن قرة كتابين في الموازين احدهما في صفة استواء الوزن واختلافه وشرائط ذلك ، والثاني في القرسطون .

الطبيعي ووصفه في كتابه محنة الذهب والفضة والميزان الطبيعي . والخازن وصف في كتابه ميزان الحكمة عددا من الموازين التي استعملها العرب في تجاربهم وفيه أيضا وصف لميزان غريب التركيب لوزن الاجسام بالهواء والماء . ولعل الدافع اليهم رغبتهم في معرفة الوزن النوعي للاحجار الكريمة والمعادن ، وقد صنفوا الجداول الكثيرة للاوزان النوعية للمعادن كالذهب والزئبق والفضة ، وللبن البقر والجبن والزيت وللاحجار الكريمة كالياقوت الاحمر ، والزمرد واللازورد والعقيق ، وهي جميعها قريبة مما اتفق عليه الآن ، مع العلم أن الوزن النوعي اليوم يؤخذ بالنسبة للماء المقطر ، بينما لم يكن كذلك عند العرب[١] .

ولعل فكرة الاوزان النوعية هي التي حدث بالعالم العربي الاندلسي عباس ابن فرناس[٢] الى التفكير بالطيران ، فقد أدرك كيفية طيران الطيور في الفضاء ،

---

(١) في كتاب عيون المسائل من أعيان المسائل لعبد القادر الطبري جداول للاثقال النوعية كما ذكرنا ، ونحن نورد هنا جدولا مختصرا للاوزان النوعية التي حصل عليها البيروني والخازن مع مقارنتها بالارقام الحديثة :

المـــادة	ارقام البيروني		ارقام الخازن	الارقام الحديثة
الذهب	١٩ر٢٦	١٩ر٠٥	١٩ر٠٥	١٩ر٢٦
الزئبق	١٣ر٧٤	١٣ر٥٩	١٣ر٥٦	١٣ر٥٦
النحاس	٨ر٩٢	٨ر٨٣	٨ر٦٦	٨ر٨٥

كما أن البيروني لاحظ أن الفرق بين الثقل النوعي للماء البارد والماء الحار ٤١٦٧٧ر٠ . كما قام الخازن بتجارب أخرى على مختلف السوائل .

(٢) ويدعى ابو القاسم عباس بن فرناس بن ورداس التاكرني الاموي المتوفى عام ٢٧٤هـ ٨٨٤ م . بعد عمر ناهز على الثمانين . نشأ ودرس في قرطبة مركز العلم والفن والادب في أوربة ... صار طبيبا خاصا للاسرة الحاكمة ، وخدم الحكم بن هشام وابنه عبد الرحمن ومحمد بن عبد الرحمن . ولكنه نبغ أيضا في الفلسفة والمنطق والنجوم والعلوم الروحانية والنحو فأطلق عليه لقب « حكيم الاندلس » .

تذكر الروايات انه قام بالاعمال التالية :

١ ــ قام بدراسة ثقل الاجسام ومقاومة الهواء لها ، وتأثير حفظ الهواء عليها اذا ⇐

وأن ثقلها النوعي يخف لمكان الريش منها ولمقاومة الهواء لجناحي الطير ، فكسا نفسه ريشا وجعل له جناحين وقذف نفسه من برج في مدينة قرطبة فطار مسافة قصيرة ثم سقط على مؤخرته لانه غفل أن يجعل لنفسه ذنبا يقاوم الهواء أثناء سقوطه على الارض .

وقد بحث العرب في سقوط الاجسام وانتقدوا قول أرسطو الذي بقيت أوربا تتبعه حتى القرن السابع عشر عندما برهن غاليلو (١٦٤٢ م) بتجربته فساد رأي أرسطو في سقوط الاجسام ، ثم أوجدت قوانين سقوط الاجسام . فقد كان أرسطو يقول أنه اذا ألقي جسمان من شاهق ، وكان احدهما أثقل من الآخر مرتين مثلا ،

ما طارت في الفضاء . وقام بأول تجربة بشرية للطيران : كسا نفسه بريش اتخذه من سرقي الحرير (شقف الحرير الابيض والواحدة سرقي) لمتانته وقوته ، وهو يتناسب مع ثقل جسمه ، وصنع له جناحين من الحرير ايضا يحملان جسمه اذا ما حركهما في الهواء ... وأعلن للناس انه يريد ان يطير في الجو وأن طيرانه سيكون من الرصافة ـ ظاهر مدينة قرطبة ـ فاجتمع الناس فيها ليشاهدوا البطل يتهاوى في سماء قرطبة . وصعد فوق مرتفع ، وحرك جناحيه ، وقفز في الجو ، وطار في الفضاء مسافة بعيدة عن المحل الذي وقف فوقه والناس ينظرون اليه بدهشة واعجاب ، ولما هم بالنزول الى الارض ، تأذى في ظهره ، وفاته ان الطائر انما يقع على زنكه (ذيله) . (وقد قام بعد قرن من الزمان اسماعيل بن حماد الجوهري المتوفى ٣٩٣ هـ ــ ١٠٠٣ م) بتجربة ثانية ، حين صعد سطح الجامع القديم في نيسابور بعد أن اتخذ لنفسه جناحين كجناحي الطير وانما من مصراعي باب) .

٢ ــ اخترع الآلة الفلكية المسماة ذات الحلق .

٣ ــ عمل الميقاتة لمعرفة الاوقات وهي تقوم مقام الساعة في وقتنا .

٤ ــ اتخذ في داره هيئة السماء وصور فيها الشمس والقمر ، والكواكب ومداراتها ، والغيوم والرعد والبرق .

٥ ــ صنع نوعا من الزجاج الحجري (الكريستال) .

فالجسم الثقيل يصل الى الارض في نصف المدة التي يقتضيها الجسم الخفيف ، وجاء العرب فجربوا قول أرسطو فوجدوا فيه نقصا وخطأ ، فقد جاء في كتاب : « ميزان الحكمة » للخازن أن هنالك علاقة بين سرعة الجسم والبعد الذي يقطعه والزمن الذي يستغرقه ، وأن قوى التثاقل تتجه دائما الى مركز الارض[1] كما بحث الخازن نفسه في الضغط الجوي .

٢ ـ **علم الفيزياء :** وبحث العرب في جميع العلوم الفيزيائية ، **ولكن أبحاثهم** لم تصلنا جميعها لان أكثرها ترجم الى اللغات اللاتينية واليونانية **وأهمل أسماء** المؤلفين العرب وانتحل اسماء أوربية جديدة ، **ولولا ان الصفة العلمية ، والروح** التي تسود بعض منصفي العلماء الاوربيين المعاصرين من التفتيش عن الحقيقة واسناد الامور الى أصحابها لبقينا نجهل أن أكثر هذه النظريات كان من وضع العرب ، واذا لم تكن بصيغتها النهائية كدساتير ، فهم على الاقل هيؤوا لهذه الدساتير ومهدوا لها على أن تأخذ شكلها القانوني (بشكل قوانين ثابتة) وكل كتاب جديد يعثر عليه في زوايا المكتبات العامة ، يكشف لنا جانبا عظيما من اهتمام العرب بهذا النوع من العلم البحت ، واذا كانت بعض العلوم التي ذكرناها في البحث السابق ضمن اطار الميكانيك ، وهي من فرع الفيزياء ، فلأن العرب كانوا قد وضعوها ضمن علم الحيل ، وهي بحسب تقسيم العلوم الحالي تدخل ضمن العلوم الفيزيائية ، وأهم أبحاث العرب في هذا المضمار :

---

(١) وشرح العرب الجاذبية فقال ثابت بن قرة : ان المدرة تعود الى السفل لان بينها وبين كلية الارض مشابهة في الاعراض أعني البرودة والكثافة والشيء ينجذب الى اعظم منه . وشرح الرازي هذه العبارة بقوله : اننا اذا رمينا المدرة الى فوق فانها ترجع الى اسفل فعلمنا ان فيها قوة تقتضي الحصول في السفل حتى اذا رميناها الى فوق اعادتها تلك القوة الى أسفل .

ا ـ الضوء : ويسميه العرب علم البصريات أو علم المناظر ، وقد اهتم بـه العرب منذ بدء اهتمامهم بالعلوم وبالفلسفة خاصة ، وليس من المبالغة القـول مع القائلين بأنه لولا البصريات ونتائج العرب فيها لما تقدم علما الفلك والطبيعة تقدمهما العجيب فيما بعد ، فالكندي ألف حوالي ١٦٥ هـ (٨٧٠ م) كتابين أحدهما فـي « اختلاف المناظر » وثانيهما في « اختلاف مناظر المرآة » ، وابن سينا المتوفى عـام ٤٢٨ هـ (١٠٢٧ م) الطبيب والفيلسوف والرياضي والفيزيائي اشتغل كثيرا في هذا الباب وأوجد بعض النظريات الجديدة(١) ولكن الذي تخصص في هـذا الباب ، وانفرد فيه ، وبقي رائد علم الضوء (٢) في القرن السابع عشر للميلاد هو :

ابن الهيثم : أبو علي بن محمد حسن البصري المعروف بابن الهيثم ، ظهـر في البصرة ونبغ في علم الحيل والبصريات ، وسمع عن النيل وفيضانه ، ففكر بطريقـة لخزن مائه فقال كما يروي ابن القفطي في كتابه اخبار العلماء بإخبار الحكماء « لو

---

(١) عرف ابن سينا البصر بأنه « مرآة يتشبح فيها خيال المبصر (بفتح الصاد) مادام يحاذيه فاذا زال ذلك المبصر ولم يكن قويا انسلخ » وعرفه بصورة أدق بقوله : « هو قوه مرتبة في العصبة المجوفة تدرك ما ينطبع في الرطوبة الجليدية في أشباح الاجسام ذوات اللون المتأدية في الاجسام الشفافة بالفعل الـى سطوح الاجسام الصقيلة » وانتقد ابن سينا نظرية البصر اليونانية فقال : « وقد غلط مـن ظن ان الابصار يكون بخروج شيء من البصر الى المبصرات (بفتح الصاد) يلاقيها » واثبت ابن سينا أول من اثبت في العالم أن شبح الجسم الملون هو الذي ينعكس على العـين ، ووضع برهانا هندسيا طبيعيا لذلك بقوله : « اذا فرض جسمان متساويا الحجم على بعدين مختلفين ، فان الجسم الابعد يرى أصغر من الجسم الاقرب لان صغر الشبح في راي العين ناتج من زاوية البصر التي ينعكس عليها الشبح الى العين » .

(٢) عرف الانصاري علم الضوء بقوله : علم المناظر علم يتعرف منه أحوال المبصرات في كميتها وكيفيتها باعتبار قربها وبعدها عن المناظر واختلاف شكلها وأوضاعها ومـا يتوسط بين المناظر والمبصرات وعلل ذلك ، ونفعته معرفة ما يغلط فيه البصر من أحوال المبصرات ويستعان به على مساحة الاجرام البعيدة والرؤيا المحرفة أيضا .

كنت بمصر لعملت في نيلها عملا يحصل النفع في كل حالاته من زيادة أو نقصان » فسير اليه الحاكم بأمر الله جماعة أحضرته الى مصر فأخذ يدرس أحوال النيل وسار مع مجراه حتى وصل الى الموضع المعروف بالجنادل قبل مدينة أسوان وهو موضع مرتفع ينحدر منه ماء النيل فعاينه وباشره واختبره من جانبيه فوجد أمره لا يمشي على موافقة مراده ، وتحقق الخطأ عما وعد به ، وعاد خجلا منخذلا واعتذر فقبل الحاكم ظاهره ووافقه عليه وخشي ابن الهيثم انتقام الحاكم فتظاهر بالجنون وبقي على حاله حتى مات الحاكم ، فأظهر العقل وعاد سيرته الاولى من الدراسة والبحث وأخذ بتأليف كتبه التي أهمها كتاب « المناظر »[1] وهو كتاب علمي يقوم على المشاهدة والتجربة والاستنتاج ، مبوب تبويباعلميا منطقيا ، يشبه الى حد كبيرأحسن الكتب المبوبة حديثا مما يجعلنا نقر بفضل ابن الهيثم لا من الناحية العلمية فحسب، بل من ناحية التأليف والبحث المنطقي المتسلسل ، وقد ترجم هذا الكتاب الى

---

(١) قال ابن ابي اصيبعة : « كان ابن الهيثم فاضل النفس قوي الذكاء متفننا في العلوم لم يماثله أحد من أهل زمانه في العلم الرياضي ولايقرب منه » وجاء في دائرة المعارف البريطانية « ان ابن الهيثم كان أول مكتشف ظهر بعد بطليموس في علم البصريات » وقال سارتون Sarton: ان ابن الهيثم أعظم عالم ظهر عند العرب في علم الطبيعة ، بل أعظم علماء الطبيعة في القرون الوسطى ومن علماء البصريات القايلين المشهورين في العالم كله . وقال مصطفى نظيف الذي نشر كتاب ابن الهيثم وعلق عليه: « ان ابن الهيثم بدأ البحث من جديد ... وأعاد بحوث الذين تقدموه ؛ لا لاستقصاء البحث فحسب ، بل لقلب الاوضاع أيضا ... فظاهرة الامتداد على السموت المستقيمة ، وظاهرة الانعكاس ، وظاهرة الانعطاف ، تلك الظواهر التي استقصى ابن الهيثم حقائقها ، لم تكن تتعلق البتة بالشعاع الذي زعم المتقدمون بأنه يخرج من البصر . ورأى ابن الهيثم وكان أول من راى أن الابصار يكون به . فابن الهيثم قلب الاوضاع الفكرية وانشأ علما جديدا . لقد أبطل علم المناظر الذي وضعه اليونان وانشأ علم الضوء الحديث بالمعنى والحدود التي نريدها الآن . واثر ابن الهيثم في هذا لا يقل في نظري عن اثر نيوتن في الميكانيك ، فاذا عد نيوتن رائد علم الميكانيك فيالقرن السابع عشر فان ابن الهيثم خليق ان يعد بحق رائد علم الضوء في مستهل القرن الحادي عشر للميلاد .

اللاتينية وبقي الكتاب الوحيد الذي يقرأه الباحثون في هذا العلم طوال العصور الوسطى ، وقد درسه أكابر علماء أوربا في هذا الباب ، مثل روجر بايكون(٦٩١هـ/ ١٢٩٢ م) واضع أساس العلم التجريبي ، وكبلر صاحب قوانين كبلر المشهورة بالفلك ، وليونارد دافنشي عبقري عصر النهضة وبرتيللو مؤسس الكيمياءالحديثة ، ونقل عنه هؤلاء وغيرهم ، فكتاب جون بكام (١٢٩١ م) في « المناظر » ليس سوى مختارات وافية من كتاب ابن الهيثم ، وكتاب فيتلو الالماني في المناظر أيضا ليس الا مأخوذا بالحرف الواحد من كتاب المناظر لابن الهيثم .

وكتاب ابن الهيثم يقع في الاصل في سبعة مجلدات ، تبحث في علم المناظر ، وفي تشريح العين ورسمها وأسماء أقسامها ، ولعله أول من وضع لاقسامها أسماء عربية ترجمت الى اللغات الاجنبية لاتزال تعرف بها الى الآن مثل الشبكية Retina والقرنيةCornea والسائل الزجاجي والسائل المائي ، ويبحث الكتاب في وظيفة كل جزء من أجزاء العين وفي كيفية النظر الى الاشيا ءبالعينين في آن واحد ، وكيف تسير الاشعة من النور ، من الجسم المرئي الى العينين ووقوع ذلك على الشبكية في محلين متماثلين من العينين ، ثم يبحث في العدسات وقوى تكبيرها [1] وينتقل بعدها الى بحث النظريات الضوئية المختلفة ، فيذكر أقوال المتقدمين ويؤيدها بتجاربه أو ينتقدها أو يكملها ، ويؤيد أقواله بالتجارب التي قام بها بنفسه ، ويرسم ما يحتاج منها الى رسم ، ويشير الى كيفية اجراء التجربة ويذكر شروطها[2] ويقارن بين

---

(١) ترى دائرة المعارف البريطانية أن ابن الهيثم أوفى الشرح في تشريح العين، وان بحثه مهد السبيل لاكتشاف الاستريسكوب ، كما مهد السبيل بحثه عن العدسات لاصلاح عيوب العين بالعدسات .

(٢) نجد مثلا في كتاب المناظرلابن‌الهيثم القانون اليوناني القائل بأن زاويتي السقوط والانعكاس على سطح مستو عاكس متساويتان ، ثم نجد تتمة هذا القانون الذي أوجده ابن الهيثم وقوله « وان زاويتي السقوط والانعكاس واقعتان في مستوىواحد» ⇐

مايحدث في الطبيعة وما يمكن مشاهدته وتجربته في المعمل « المخبر » مثل ذكره للغرفة السوداء وهي صندوق محكم الاغلاق يمر النور من عدسة في أحد جوانبه فيعكس أشباح مايمر عليه من الاجسام على الجانب المقابل (وهذا أساس آلة التصوير) ومقابلة ذلك مما يحدث في العين حين الرؤيا .

كمال الدين الفارسي : (أواخر القرن السادس الهجري) ، استهواه ما كتبه

⇒

ونجد ماعرف عنده باسم « مسائل ابن الهيثم » وهي النظريات والمسائل التيأوجدها بنفسه مثل ذلك قوله : « اذا علم موضع نقطة مضيئة ووضع العين ، فكيف نجد على المرايا الكرية والاسطوانية النقطة التي تتجمع فيها الاشعة بعد انعكاسها ؟ » وقداجاب عنها ابن الهيثم نفسه باستعمال القطع الزائد لان حلها يحتاج الى معادلة من الدرجة الرابعة وهذا ماشغل رياضيي اوربا مدة طويلة نظرا للصعوبات الهندسية التي تنشأ عنها . ويذكر ابن الهيثم كيف صنع مرآة مكونة من بعض حلقات كرية ولكل منها نصف قطر معلوم ومركز معلوم اختارها بحيث ان جميع الحلقات تعكس الاشعة الساقطة عليها في نقطة واحدة . ويستعمل ابن الهيثم جهازا يتركب من حلقة مدرجة من النحاس تغمر وهي في وضع رأسي الى نصفها في الماء ، وفي الحلقة ثقب صغير وعلى سطح الماء قرص مثقوب عند مركزه وموضوع بحيث ينطبق مركزه على مركزالحلقة ، وقاس به زاوية السقوط والانكسارية ووجد خطأ نظرية بطليموس القائلة بأن زاوبتي السقوط والانكسار ثابتة ... ووضع ابن الهيثم جداول أدق من جداول بطليموس للانكسار ووصل الى بحث الظواهر الجوية التي تنشأ عن الانكسار فسبق العالم الى القول « ان الضوء الذي يصل الينا من الاجرام السماوية يعاني انكسارا باختراقه الطبقة الهوائية المحيطة بالارض .. فالنجم يظهر على الافق قبل أن يكون قد بلغه فعلا ، وكذلك نرى الشمس او القمر على الافق عند الشروق والغروب وهمافي الحقيقة يكونان تحته » وبين أن من نتائج الانكسار وعدم ظهور قرص الشمس أو القمر بالقرب من الافق مستديرا بل بيضويا ، وعلل ابن الهيثم رؤية هالة حول الشمس أو القمر بالانكسار حين يكون في الهواء بلورات صغيرة من الثلج او الجليد فالنور الذييمر منها ينكسر وينحرف مع زاوية معلومة ، فيصل النور الى عين الرائي كأنه صادر من نقطة حول الشمس أو القمر فتظهر الاشعة في دائرة حول الجرمين المذكورين أو حول أحدهما .

ابن الهيثم في الضوء فدرسه ، وتابع الدراسة والتجربة وتسجيل ما حصل عليه من نتائج هي تتمة لاعمال ابن الهيثم ، وألف كتاب « تنقيح المناظر لذوي الابصار والبصائر » ومخطوطة أصلية منه موجودة الآن في المانيا ، وترجمات الى اللاتينية والعبرية والهندية وبعض اللغات الاوربية متوفرة في أكثر المكتبات العلمية .

ويذكر الفارسي في مقدمة كتابه سبب تفرغه لعلم الضوء فيقول : « ولما رأيت كلام بعض أئمة الحكمة عن غير واحد منهم أن الضوء يشرق من النيّر على خطوط مستقيمة ، فاذا صادفت سطحا كسطح الماء انعكست عنه على زوايا مساويات للزوايا المضادة ، ونفذت فيه على سمة الاشراق عليه ، وانقطعت فيه على سمت الانعكاس والنفوذ والانعطاف ، وكلها متساوية فتحيرت في هذه الاحكام من أين مأخذها ... وتفرغت اليها مدة ... وفي حديثه عن قوس قزح يبين ترتيب ألوانه وانها عبارة عن اللون الابيض المتحلل الى عناصر ، بالانكسارات والانعكاسات ، فيقول : «التقازيح ألوان مختلفة متقاربة فيما بين الزرقة والخضرة والصفرة والحمرة الداكنة ، تحدث من صورة نيّر قوي واردة الى البصر بالانعكاس والانعطاف أو بما يركب منهما ».

البيروني : محمد بن أحمد أبو الريحان البيروني الخوارزمي وهو من مواليد خوارزم عام (٣٦٢ هـ/٩٧٣ م) تنقل بين خوارزم وغزنة والهند وأخذ العلم فيها جميعها ونبغ في الرياضيات والفلك والفيزياء والحيل والتاريخ ، وامتاز بابتكاراته في بحوثه العلمية ، وارتدت كتاباته طابعا خاصا هو طابع دعمها بالبراهين والحجج المنطقية ، اطلع سخاو Sachau العالم الالماني الشهير على كتبه فقال «ان البيروني يتقن الى جانب العربية اللغات السريانية والسنسكريتية والفارسية والعبرية » اتخذه محمود الغزنوي صديقا ومستشارا واعتمد عليه في تصحيح حسابات الروم والسند وما وراء النهر ، فأفاد من فتوحات الغزنوي في الهند ، حيث تعلم الهندية فيها وما فيها أيضا من فلسفة يونانية ،واطلع على الرياضيات الهندية وسنذكر أثره في الرياضيات

أما البيروني كعالم طبيعي فقد ذكرنا آلته التي اخترعهالحساب الوزن النوعي ، وأثره في ما يعرف بعلم السوائل عند بحثه في مـاء الفوارات وصعود المياه الـى القلاع المرتفعة ، وقد قام بحفر الآبار المعروفة باسم الآبار الارتوازية ، وشرح كيفية تجمع المياه وصعودها الى أعلى فيها • وزاد عدد مؤلفات البيروني عن المـائة والعشرين مؤلفا في مختلف العلوم ترجم أكثرها الى اللغات الاوربية •

والبيروني هو أول من أعلن أن سرعة الضوء أعظم كثيرا من سرعة الصوت •

والبيروني ، الى جانب كل ماذكرناه يؤمن بانسانية العلم وبالوحدة الشـاملة التي يؤدي اليها العلم • فيدعو الى التوحيد بين العقول وازالة التنافر بينها ، وتقريب بعضها من بعض والتفاهم على أساس المنطق والحقيقة وعلى هذا الاساس فقد رأى البيروني في وحدة الاتجاه العلمي في العالمين الاسلامي والعربي اتحاد الشرق والغرب• وكأنه كان يدعو الى ادراك وحدة الاصول الانسانية والعلمية بين الشعوب في عالم واحد • فهو رغم أصله الاعجمي يطري العربيةولغتها وينصفالهند والاغريقفيقول: « كل واحدة من الامم موصوفة بالتقدم في علم مـا أو عمل • واليونانيون قبـل النصرانية موسومون بفضل العناية في المباحث وترقية الاشياء الى أشرف مراتبهـا وتقريبها من كمالها • وديننا نحن والدولة عربيتان توأمان يرفرف على أحدهما القوة الالهية وعلى الآخر اليد السماوية • وكم احتشد طوائف من التوابع في الباس الدولة جلابيب العجمة فلم ينفق لهم في المراد سوق ••• والى لسان العرب نقلت العلوممن أقطار العالم وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والاوردة ، وان كانت كل أمـة تستحلي لغتها التي ألفتها واعتادتها واستعملتها في مآربها • وأقيس هذا بنفسي••• فأنا في كل واحدة دخيل ولها متكلفوالهجو بالعربيةأحب الي من المدح بالفارسية»•

وقد أثبت البيروني معظم مؤلفاته في مخطوطه « الفهرس » وقد جاء فيه : « ••• اسماء الكتب التي اتفق لي عملها سنة سبع وعشرين واربعمائة ، وقد تم

من عمري خمس وستون سنة قمرية ، وثلاث وستون سنة شمسية ••• » ثم يصنف مخطوطاته ومؤلفاته في عشرة أبواب هي :

١ ـ أطوال البلاد وعروضها	وفيه خمسة عشرة رسالة
٢ ـ الحساب	وفيه ثماني رسائل
٣ ـ الاوقات والازمنة	وفيه خمس رسائل
٤ ـ المذنبات	وفيه خمس رسائل
٥ ـ الآلات وطريقة عملها	وفيه خمس رسائل
٦ ـ الشعاعات	وفيه أربع رسائل

٧ ـ تحقيق يتناول القمر وهو كتاب واحد يبلغ عدد صفحاته ٣٦٠ ويذكر بعد ذلك ١٠ مقالات في الفلك والطبيعة وخواص المعادن والهندسة •

٨ ـ التنجيم وفيه ستة رسائل

٩ ـ ١٢ رسالة نقلها عن الآداب الهندية والفارسية •

١٠ـ العقائد وفيها كتاب واحد هو تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة أو مرذولة •

ويذكر البيروني بعد ذلك خمسة كتب أخرى أتم تأليفها منها كتاب مترجم عن السنسكريتية ، وكتاب « القانون المسعودي » ويذكر انه تابع البحث وسيؤلف كتبا أخرى « معروفة من الله لو تأخر الاجل ، وسلمت الحواس ، وصح البدن ••• »

ولعل القانون المسعودي الذي كتبه البيروني عام ٤٢١هـ / ١٠٣٠ م وأهداه الى السلطان مسعود الغزنوي من أعظم موسوعات المسلمين في علوم الفلك والجغرافية والهندسة والرياضيات ، مما يجعل البيروني أحد الموسوعين العالميين ، الذين ألموا بمختلف العلوم والفنون في عصره ، وقد طبع الكتاب كاملا في الهند عام ١٩٥٤ وأبوابه الهامة هي :

١ ـ مبادىء علم الهيئة باجمال وايجاز •

٢ ـ علم التواريخ الرياضي ـ أي تواريخ الامم المختلفة ، واستخراج بعضها من بعض •

٣ ـ حساب المثلثات ، ولا سيما المثلثات الكروية •

٤ ـ دوائر الكرة السماوية والاحداثيات الناشئة عنها • وما يحدث بسبب حركة الكرة السماوية اليومية الظاهرية حول الارض من مطالع البروج في الفلك المستقيم ، وفي البلدان ، ومن سعة المشارق والمغارب ، ومن ارتفاعات الشمس في الاقاليم ، ثم معرفة عروض البلدان من قبل أظلال المقاييس وما أشبه ذلك •

٥ ـ صورة الارض وأبعادها • وكيفية تقويم أطوال البلدان ، وحساب المسافات بين بلدين معلومي الطول والعرض ••• وسمت القبلة ، ومسائل شتى تتعلق بالاطوال والعروض الجغرافية ، وقسمة الارض بالاقاليم وأوضاع المدن المشهورة بالطول والعرض •

٦ ـ حركات الشمس وكيفية تبيينها بشكل هندسي •

٧ ـ حركات القمر وتوضيحها بشكل هندسي ، وبيان اختلاف مناظر القمر في الارتفاع والطول والعرض •

٨ ـ اتصالات النيّرين وكسوفاتهما وحساب رؤية الهلال •

٩ ـ الكواكب الثابتة ومنازل القمر فيها •

١٠ـ حركات الكواكب الخمسة المتحيرة في الطول والعرض ، وبيانها بشكل هندسي •

١١ـ مسائل من حساب المثلثات الكروية • وعلم الهيئة الكروي •

١٢ـ حساب اتصالات الكواكب ومطارح الشعاع •

ب ـ الصوت : بحث العرب في الصوت ومنشئه وقوته واداهم ذلك الى البحث في الموسيقى والآلات الموسيقية والنقر عليها وأنواع الانغام ، ففي رسائل اخوان الصفا مثلا نجد تعليلا لحدوث الصوت الناتج عن حركة الاجسام المصوتة في الهواء « الذي لشدة لطافته وخفة جوهره وسرعة حركة أجزائه يتخلل الاجسام كلها فاذا صدم جسم جسما آخر انسل ذلك الهواء من بينهما وتدافع وتموج الى جميع الجهات وحدث من حركته شكل كروي واتسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجاج فيها ، وكلما اتسع ذلك الشكل ضعفت حركته وتموجه الى أن يسكن ويضمحل » .

وقسم العرب الاصوات الى أنواع : منها الجهير ، والخفيف ومنها الحاد والغليظ وشرحوا العلاقة بين طول الوتر وغلظه وقوة توتره وشدة النقر من جهة ونوع الصوت الذي يحدث من جهة أخرى ، وعللوا الصدى . وشرح القزويني سبب رؤية البرق قبل سماع الرعد بقوله « اعلم أن الرعد والبرق يحدثان معاً لكن يُرى البرق قبل أن يُسمع الرعد لان الرؤية تحصل بمراعاة البصر ، وأما السمع فيتوقف على وصول الصوت الى الصماخ وذلك يتوقف على تموج الهواء . وذهاب النظر (أي سير النور) أسرع من وصول الصوت » .

جـ ـ المغناطيسية وبيت الابرة : أخذ العرب المغناطيسية عن اليونان الذين هم أول من عرف خاصية الجذب في المغناطيس ، وعن الصينيين الذين هم أول من عرف خاصية الاتجاه فيه . وثبت انهم استعملوا الابرة المغناطيسية لمعرفة الاتجاه وقد جاء في كتاب كنز البحار : « ومن خواص المغناطيس ان رؤساء البحر الشامي اذا اظلم عليهم ولم يروا من النجوم ما يهتدون به الى الجهات الاربع يأخذون اناء مسلوءاً ويحترزون عليه من الريح بأن ينزلوه الى بطن السفينة ثم يأخذون ابرة وينفذونها في قشة حتى لتبقى معارضة فيها كالصليب ويلقونها في الماء الذي في الاناء

فتطفو على وجهه ، ثم يأخذون حجراً من المغناطيس كبيراً ملء الكف، ويدنونه من وجه الماء ويحركون أيديهم دورة اليمين فعندما تدور على صفحة الماء ثم يرفعون أيديهم على غفلة وسرعة ، فان الابرة تستقبل بجهتها جهة الجنوب والشمال • ورأيت هذا الفعل منهم عياناً في ركوبنا البحر من طرابلس الشام الى الاسكندرية في سنة اربعين وستمائة » • واختلف الباحثون في أن العرب هم أول من استعملها ، أم اقتبسوها عن الصين ، فمن مؤيد للرأي الثاني ، ومن منكر له ، فسيديو ينكر على الصينيين استعمال الابرة بقوله : « وكيف يظن ان أهل الصين استعملوا بيت الابرة مع انهم لم يزالوا الى عام ١٨٥٠ م يعتقدون ان القطب الجنوبي من الكرة الارضية سعير يتلظى » وهو يؤكد ان العرب هم أول من استعملها ويؤيده في قوله سارتون ، ويؤكد الجميع استعمال العرب لها ونقل اوربا بيت الابرة عن طريق العرب ويذكر بعض كتاب العرب البوصلة باسم « الحك » (بكسر الحاء) •

د ـ **الرقاص** : وسماه العرب الموار ، ومخترعه ابن يونس المصري المتوفى عام ٣٩٩ هـ ـ ١٠٠٩ م واسمه الكامل ابو سعيد عبدالرحمن بن أحمد بن يونس ، وجاء بعده عالم آخر باسم كمال الدين بن يونس المتوفى ٦٤٠ هـ و ١٢٤٢ م فلاحظ تذبذب الرقاص وعرف كثيراً من قوانينه ، وكان الفلكيون العرب يستعملونه لحساب الفترات الزمنية أثناء رصد النجوم ، وعلى هذا ، فنسبة اختراع الرقاص للعالم الايطالي غاليلو (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢ م) نسبة مجحفة بحق العرب ، لان العرب استعملوه قبله بستة قرون ، واستعملوه في الساعات الدقاقة •

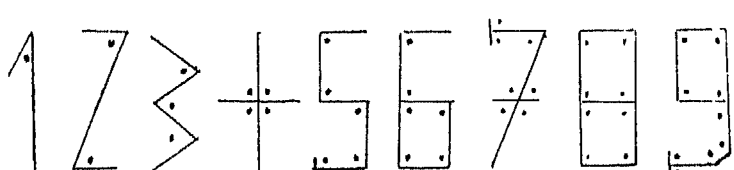
وقد ذكر سميث في كتابه تاريخ الرياضيات « ومع أن قانون الرقاص هو من وضع غاليلو الا ان كمال الدين بن يونس لاحظه وسبقه في معرفة شيء عنه » •

حـ ـ العلوم الرياضية

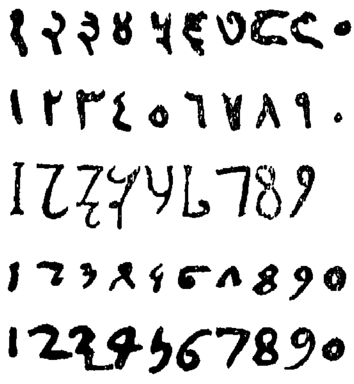
العلوم الرياضية : تشمل الرياضيات الحساب والجبر والهندسة والمثلثات كما تشمل علم الفلك ، وجميعها تحتاج الى قوة تجريد ، ورقي عقلي ، ولم يشتهر العرب قبل الاسلام بأي نوع من هذه العلوم • وان خلطوا التنجيم بعلم النجوم ، وقد وصلنا كثير من القصص التي تبين ضعف محاكماتهم الرياضية ، فلما كان صدر الاسلام لم يهتموا كثيرا بالرياضيات لانهم تركوا أمر الجباية والدواوين للموالي والذميين ، ولكن ما كاد عبد الملك يعرب الدواوين ، ويستعمل العرب فيها ، حتى انكب كثير منهم على تعلم الكتابة الرسمية والحساب ، واندفعوا وراء ذلك ، حتى قال ابن التوأم « علم ابنك الحساب قبل الكتاب » ، وما لبثوا أن مهروا في هذه العلوم كما مهروا في غيرها ، ولعل علماءهم فاقوا في هذا المضمار جميع علماء الفروع الاخرى •

أ ـ الحساب : أخذ العرب عن الهنود نظام الترقيم ، وقد هذب العرب أرقام الهنود وكونوا منها سلسلتين عرفت أحداهما بالارقام الهندية ولا تزال تستعمل في جميع البلاد العربية والاسلامية • وعرفت ثانيتهما بالارقام الغبارية وهي التي تكتب فيها شعوب أوربا ارقامها وتسميها ارقاما عربية

وقد سميت أحرفا غبارية لان الهنود كان يرشون غبارا ناعما على لوح من خشب



شكل ـ ١٥٠ ـ
الارقام العربية موضوعة على اساس عدد الزوايا



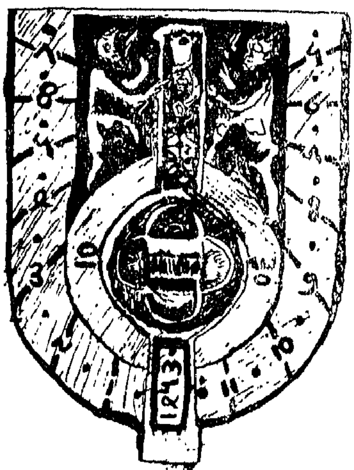
الارقام الهندية المستعملة حوالي عام ١٠٠٠ م

الارقام الهندية التي استعملها المشارقة العرب

الارقام العربية المستعملة في اسبانيا حوالي عام ١٩٧٦

الارقام العربية المستعملة في اوروبا الغربية حوالي عام ١٣٦٠

الارقام العربية المستعملة في ايطاليا حوالي عام ١٦٠٠



شكل — ١٥١ —

تطور الارقام من الهندية الى العربية الى الارقام المستعملة في الغرب اليوم ، كما نشرتها اليونسكو في كتاب تاريخ الانسانية

ودخل على هذه الارقام بعض التحوير فصارت الى ما نعرفه اليوم :

1 2 3 4 5 9 7 8 6

ويعتقد آخرون ان هذه الارقام مأخوذة من بعض الاحرف العربية وقدجمعوها في الابيات الآتيـــة :

الف وحــاء ثــم حج بعــده	عين وبعــد العــين عو ترســم
هاء وبعد الهــاء شكلٌ ظاهــر	يبدو كمخطاف اذا هــو يرقم
صفران ثامنهما وقــد ضما معا	والواو تاسعها بذلك تختــم

9	8	7	6	5	4	3	2	1
و	8	7	ه	عو	ء	حج	2	أ

ويذكر البيروني « ان الارقام الهندية كانت مختلفة باختلاف مناطق الهند ، وان العرب انتقوا منها ما رأوه مناسبا لهم ، واكتفوا بطريقتين مختلفتين لكتابة الارقام » الطريقة التي تكتب فيها في مشرق العالم العربي ١ ، ٢ ، ٣ ... والطريقة التي تكتب في مغربه 1 ، 2 ، 3 .. وقد اقتبس الغربيون الطريقة المغربية عن طريق الاندلس.

وقسم العرب الحساب العملي الى قسمين : الغباري وهو الحساب الذي يحتاج استعماله الى أدوات كالورق والقلم ، والهوائي وهو الحساب الذهني . وأوجــد العرب رقم الصفر ، وكان الهنود يستعملون « سونيا » أي الفراغ لتدل على معنى الصفر ، ثم استعمل العرب رقما للصفر[1] . هذا ولما كان اساس الكتابة بالارقــام العربية هو الصفر ، فقد أطلق على الارقام اسم الاصفار في اللغتين الفرنسية والالمانية

---

(١) ان أول كتاب عربي ظهر فيه الصفر مرسوما نقطة كما نرسمه اليوم كان عــام ٢٧٤ هـ (٨٧٤ م) بينما أول كتاب هندي استعمل فيه الصفر كان عام ٢٧٦ هـ أي بعد عامين من ظهور الكتاب العربي . وقد سهل استعمال الصفر العمليات الحسابية البسيطة والمركبة ، اذ أصبح الصفر لاول مرة يسمى « عدما » كما فهم الاوربيون في العصور الوسطى خطأ ، فسموه « لا شيء » ولكنه كمية ما ، يطرأ من جرائها علــى الاعداد تبدل أساسي ، فكل عدد مضروب بصفر ناتجه صفر وتقسيم عدد على عــدد يتناهى الى الصفر، واذا رفعت اللانهاية الى صفر حصل منها « واحد » .

واقتبس اسم الصفر في اللغات الاوربيـــة فصار Cipher و Chiiffres و ziffern و Zephirum و Zero . وتذكر المصادر الغربية أول من دعا لاستخدام الارقــام العربية من الاوربي هو ليوناردو (١٢٠٢ م) وظهرت من بعده في النقوش المختلفـة في اوربا ، وظهرت في العملة في سويسرا (١٤٢٤ م) وفي النمسا (١٤٨٤ م) وفي فرنسا (١٤٨٥ م) وفي المانيا (١٤٨٩ م) وفي اسكوتلندا (١٥٣٩ م) وفي انكلترا (١٥٥١ م) .

وقد تغيرت هذه الارقام في أثناء الطريق ، فالواحد والتسعة لم تتغير تغيرا يذكر ، والاثنان والثلاثة تغيرت تغيرا طفيفا . ففي الهند تكتب مائلة ٢ ، ٣ وعنـــد عرب المشرق رأسية ٢ ، ٣ وعند عـــرب المغرب أفقية ـ ـ . أما الستة والسبعـــة والثمانية فقد اختلط بعضها ببعض لدرجة صعب التفريق بينها في النقوش والمخطوطات القديمة . وأما الصفر فقد عبر عنه خلو الخانة . ثم اصبح عند الهنود يكتب دائـــرة فيها نقطة . أي خانة خالية . فأخذ عرب المشرق النقطة وتركوا الدائرة ، وأخذ عرب المغرب الدائرة وتركوا النقطة . ووضعوا علامة الكسر العشري وبحثوا كثيرا في الكسور العشرية . وقد قسم مؤلفوهم الحساب الى أبواب منها ما يتعلق بحساب الصحاح ومنها ما يتعلق بحساب الكسور ووضعوا ذلك كله في فصول : الاول فـــي الجمع والتضعيف ، والثاني في التنصيف ، والثالث في التفريق (الطرح) والرابـــع في الضرب والخامس في القسمة ويدخل فيه ما يسمونه القسمة بالمحاصصة أي التقسيم التناسبي ، والسادس في التجذير واستخراج الجذور .

واهتم معلمو الحساب بأصول تعليمه الى الصبية الصغار بطرق حسية سهلة ، وأكثروا من استخراج المجهول بطرق لاتختلف عن الطرق الحديثة ، وعرفوا المتواليات الحسابية والهندسية على أنواعها وذكروا قوانين جمعها ، كما ذكروا قواعد خاصة لاستخراج الجذور ولجمع المربعات المتوالية والمكعبات وبرهنوا على صحتها .

ويقول الاستاذ قدري حافظ طوقان الذي بحث في العلوم عند العرب في عـــدة

مؤلفات : « ان لهذه الارقام مزايامنها : أنها تقتصر على عشرة اشكال بما فيهاالصفر . ومن هذه الاشكال يمكن تركيب أي عدد مهما كان كبيرا . بينما نجد ان الارقام الرومانية تحتاج الى أشكال عديدة وتشتمل على أشكال جديدة للدلالة على بعض الاعداد . أما الارقام اليونانية والعربية القديمة القائمة على حساب الجمل فان عددها كان بقدر عدد أحرف الهجاء (١) :

ومن مزايا الارقام العربية او الهندية : أنها تقوم على النظام العشري وعلى أساس القيم الوضعية بحيث يكون للرقم قيمتان ، قيمة في نفسه ، وقيمة بالنسبة الى المنزلة التي يقع فيها .

يقول محمد بن موسى الخوارزمي : « حساب الهند قوامه تسع صور يكتفى بها في الدلالة على الاعداد الى ما لا نهاية له ، واسماء مراتبها اربعة ، وهي الآحاد والعشرات والمئون والالوف » فالواحد يقوم مقام العشرة ، ومقام مائة ، ومقام الف ، ومقام عشرة آلاف ، ومائة الف ، والف الف ... الى ما لا نهاية له من العقود . ويقوم الاثنان مقام العشرين ، ومقام المائتين ، ومقام الالفين ... وكذلك سائر العقود على هذا القياس ... وانما يعرف ذلك بمراتب الوضع ... الدوائر الصغار تسمى الاصفار ، توضع لحفظ المراتب في المواضع التي ليس فيها اعداد .

ولعل من أهم مزايا هذا النظام ادخال الصفر في الترقيم واستعماله في المنازل الخالية من الارقام .

ومما لا شك فيه أن هذا النظام هو من المخترعات الاساسية والرئيسية ذات الفوائد الجلى التي توصل اليها العقل البشري ، فلم تنحصر مزاياه في تسهيل الترقيم

---

(١) مثال ذلك :

حرف آ بدلا من رقم ١ حرف ب بدلا من رقم ٢ حرف حـ بدلا من رقم ٣ حرف د بدلا من رقم ٤ حرف ي بدلا من رقم ١٠ حرف ك بدلا من رقم ٢٠ حرف ل بدلا من رقم ٣٠ حرف ق بدلا من رقم ١٠٠ حرف ر بدلا من رقم ٢٠٠ حرف غ بدلا من رقم ١٠٠٠

وحده ، بل تعدته الى تسهيل جميع أعمال الحساب . ولولاه لما رأينا سهولة في الاعمال الحسابية ، ولاحتاج المرء الى استعمال طرق عويصة وملتوية لاجراء عمليتي الضرب والقسمة ، حتى أن هاتين العمليتين كانتا تقتضيان جهدا كبيرا ووقتا طويلا ..

ولسنا بحاجة الى القول أنه لولا الصفر واستعماله في الترقيم لما فاقت الارقام العربية والهندية غيرها من الارقام ، ولما كان لها أية ميزة ، بل لما فضلتهما الامم المختلفة على الانظمة الاخرى المستعملة في الترقيم .

ومن الغريب أن الاوربيين لم يتمكنوا من استعمال هذه الارقام الا بعدانقضاء قرون عديدة من اطلاعهم عليها ، أي أنه لم يعم استعمالها في أوربا والعالم الا في أواخر القرن السادس عشر للميلاد .

ومن المرجح أن العرب وضعوا علامة الكسر العشري ... فقد وضع بعض علمائهم « الكاشي » عند حساب النسبة التقريبية للرمز π ويقصد بالكاشي الفاصلة العشرية ، ولذلك يتبين أن العرب سبقوا الاوروبيين في استعمال النظام العشري .

ويشرح أحد العلماء المعاصرين طرق انتقال الارقام العربية الى أوربا وكيف بدأت في ايطاليا ، وكان عليها أن تعبر جبال الالب الى أوربا وكانت رحلتها شاقة محفوفة بالعقبات ، لان الكثيرين نظروا اليها بادىء الامر نظرة الشك والريبة فتساءل رجال المال والاعمال : ألا يمكن بمنتهى السهولة لمن شاء الخداع ، أن يغير الصفر 0 مثلا ليصبح ستة أو تسعة 6 أو 9 .

ولكن الارقام العربية بدأت برغم هذا تثبت وجودها ، اذ يكفي كتابة أربعة أرقام على كنيسة ليسجل عام بنائها . واستهوت تلك الارقام الناس فكتبوها على مقابر الموتى ، ثم دخلت رويدا رويدا الى سجلات الموظفين والتجار محل الارقام الرومانية الطويلة التي كانت تشغل صفحات وصفحات فالرقم DCCCCLVIII أصبح يكتب بثلاثة أرقام بسيطة هكذا 998

ب ـ **الجبر** : الجبر كلمة عربية يعود الفضل في ايجادها الى أبي عبد اللهمحمد ابن موسى الخوارزمي مؤلف كتاب « حساب الجبر والمقابلة » وعنه أخذ الاوربيون فسموا العلم Algebre والخوارزمي لم يبتدع هذا العلم كله ، بل رتبه ورقى بـه الى درجة العلم ، وتعرض لكثير من شؤونه ، ذلك لان المصريين القدماء كانوا قـد عرفوا حل المعادلات من الدرجة الاولى والثانية وعرفوا الجذر المربع ووضعوا لـه علامة • فقد ورد في بردية من عهد أحمس معلومات جبرية، أما في الهند فقد ورد هذا العلم فيكتب أريابهاتا (٤٧٦ م) وبراهما جبتا (٥٩٨ م) وماهافيرا (٨٥٠ م)• وعند الصينيين ورد في كتب تشانج تسانج (٢١٣ ق•م) وسن تسو (القرن الاول الميلادي) ولي هو (٢٦٣ م) ، وتشانج تشوتشن (القرن السادس الميلادي) • وعند الاغريق في كتب ديوفانتس (٢٥٠ م) ولكن جميع هذه الامم لم تعالج الجبر كمـا عالجـه الخوارزمي • ففي كتابه الجبر والمقابلة قصد بالجبر نقل الحدود من أحد طرفي المعادلة الى الطرف الآخر ، وقاصدا بالمقابلة اختصار مايجوز اختصاره بعد عملية الجبر • ثم ايجاد النتيجة • وقد عنى في هذا الكتاب بمعادلة الدرجة الثانية فرتبها وبوبها وصنفها وعالج كل صنف منها ، واستعمل في حلها الجبر والمقابلة ، واعترف بالجذور الصماء في معادلة الدرجة الثانية • وقد لخص أحد الشعراء العرب علم الجبر بقوله :

على ثـلاثـة يـدور الجبر   المـال والاعـداد والجـذر
بالمـال كـل عـدد ربـع   وجذره واحد تلـكِ الاضلع
والعدد المطلق مالـم ينسب   للمـال أو للجـذر فافهم تصب

وكذلك فالهنود حلوا معادلات من الدرجة الثانية وعرفوا الكميات الموجبـة والكميات السالبة وميزوا بينها ، فلما جاء الخوارزمي واشتهر بالرياضيات وقربـه الخليفة المأمون ألف كتابه في الجبر وحل المعادلات الجبرية وأوضحها دونأن يستعمل

الرموز من الاحرف الابجدية [1] ثم جاء من خلفه من العلماء فأوجدوا رموزا خاصة وهي تخالف الرموز الشائعة اليوم[2] ، وقد وصلنا عن عمر الخيام (٥١٧هـ/١١٢٣م) حل معادلات من الدرجة الثالثة والرابعة بواسطة قطع المخروط حتى قال كاجوري : « ان حل المعادلات التكعيبية بواسطة قطع المخروط من أعظم الاعمال التي قام بها العرب » وبذلك يكون العرب قد سبقوا ديكارت وبيكر في هذه البحوث والعرب هم الذين اكتشفوا النظرية القائلة بأن مجموع مكعبين لايكون مكعبا ويذهب ظن الكثيرين من العلماء المعاصرين الى أن العرب مهدوا لاكتشاف اللوغاريتمات، بعد أن أرادوا ابن يونس قد توصل في أبحاثه في المثلثات الى مثل اللوغاريتمات .وقرؤوا كتاب

---

(١) ترجم كتاب الخوارزمي الى اللغات الاوربية وبقي مصدرا لعلم الجبر مدة طويلة ، وفي السنين الاخيرة ، عثر على نسخة منه باللغة العربية محفوظة باكسفورد في مكتبة بودلين كانت نسخت في القاهرة بعد موت الخوارزمي بنحو ٥٠٠ عام فنشرت عام ١٨٣١ ، وعلق عليها الدكتور علي مصطفى مشرفة والدكتور محمد موسى احمد وقد قسمت الاعداد فيها حسب رأي الخوارزمي الى ثلاثة ضروب وهي جذوروأموال وعدد مفرد لاينسب الى جذور ولا الى مال . فالجذر هو ما يرمز له بالجبر الحديث بالرمز (س) والمال س٢ والعدد المفرد هو العدد الخالي من (س) واستعمل غيره من العرب لفظة « شيء » للمجهول ؛ ولمضروبه في نفسه كلمة مال .. ومضروب المال في المجهول يساوي « كعبا » أي انه س٢ × س = س٣ ، وما يتفرع عن هذه مال المال اي س٢ × س٢ = س٤ ، ومال الكعب أي س٢ × س٣ = س٥ وكعب الكعب اي س٣ × س٣ = س٦ واستعملوا التعبير « جزء الشيء » ليدل على معكوس الشيء اي $\frac{١}{س}$ ، وجزء المال ليدل على $\frac{١}{س^٢}$ وجزء الكعب ليدل على $\frac{١}{س^٣}$. وقد قسم الخوارزمي المعادلات الى ستة أقسام : أموال تعدل جذورا أي م س٢ = ب س وأموال تعدل عددا اي م س٢ = حـ وجذور تعدل عددا اي ب س = حـ واموال وجذور تعدل عددا أي م س٢ + ب س = حـ وجذور وعدد تعدل أموالا أي ب س + حـ = م س٢ .

(٢) لقد استعمل ابو الحسن القلصاوي في مؤلفاته لعلامة الجذر الحرف الاول من كلمة جذر (حـ) وللمجهول الحرف الاول من كلمة شيء (ش) يعني (س) ولمربع المجهول الحرف الاول من كلمة مال (م) يعني س٢ ، ولمكعب المجهول الحرف الاول من كلمة مكعب (ك) يعني س٣ ، ولعلامة المساواة حرف (ل) وللنسبة ثلاث نقط

سنان بن الفتح الحراني في الجمع والتفريق الذي شرح فيه الطريقة التي يسكن بوساطتها اجراء الاعمال الحسابية التي تتعلق بالضرب والقسمة بوساطة الجمع والطرح ، كما مهد العرب لنشأة علم التكامل والتفاضل Calculus (١)

جـ ـ الهندسة : ترجم العرب في عهد أبي جعفر المنصور كتاب اقليدس اليوناني في الهندسة وسموه « الاصول » • ثم ترجم عدة ترجمات أخرى بعد المنصور وسمي بالاصول كما سمي كتاب « الاركان » ووجدوا الهندسة في كتاب اقليدس قد



شكل ـ ١٥٢ ـ

صورة رمزية أوربية في العصور الوسطى تمثل النزاع بين مدرسة الخوارزمي في الحساب وبين المدارس الاوربية الاخرى

(عن كتاب تاريخ الانسانية ج٤ ص٨٧٢ نشر اليونسكو)

---

(١) نشرت وزارة التعليم العالي السورية كتاب الباهر في الجبر للسموءل المغربي ، عن مخطوطة قديمة وفي هذا الكتاب كثير من المعلومات الجبرية التي عرفها العرب •

وصلت الى غاية الكمال لان اقليدس جمع فيه بين عامي ٣٣٠ ـ ٣٢٠ ق.م خلاصة أبحاث اليونان ولم يترك شاردة ولا واردة من هذا العلم الا وجعلها بين دفتيه ، وفضل العرب في علم الهندسة اهتمامهم بها في وقت أهملها الاوربيون ، وبقيت الترجمات العربية هي المعتمدة في أوربا وعنها يأخذون الهندسة اليونانية حتى عام ١٥٨٣ م حينما عثروا على نسخة مكتوبة باليونانية من كتاب اقليدس فترجموها فوجدوها طبق الاصل العربي .

وقد أطلق العرب على الهندسة العملية اسم الهندسة الحسية ، وأطلقوا على الهندسة النظرية اسم الهندسة العقلية ... وطبقوا النظريات الهندسية في الحياة العملية . ولم يقف العرب عند دراسة هندسة اقليدس بل ألفوا فيها تآليف جديدة ، فابن الهيثم ألف كتابا على نسق « الاصول » « يستحق أن يعتبر واسطة بين كتاب القواعد المفروضة والبراهين الاستقرائية لاقليدس ، وكتاب المحال المستويةالسطوح لاوبولونيوس وبين كتابي سمسون وستيوارت »كما يقول سيديو.ومحمد البغدادي ألف رسالة موضوعها تقسيم أي مستقيم الى أجزاء متناسبة مع أعداد مفروضةبرسم مستقيم ، تشمل على اثنين وعشرين قضية هندسية . وكتب غيرهما في المساحات والحجوم وتحليل المسائل الهندسية واستخراج المسائل الحسابية بطريقتي التحليل الهندسي والتقدير العددي وفي التحليل والتركيب الهندسيين ، وفي تقسيم الزاويةالى ثلاثة أقسام متساوية ورسم المضلعات المنتظمة وربطها بمعادلات جبرية وفي محيط الدائرة ، وغير ذلك مما يتعلق بالموضوعات التي تحتاج الى استعمال هندسة، وبينوا كيفية ايجاد نسبة محيط الدائرة الى قطرها . وكان حساب الكاشي لها قريبا جدا من العدد الثابت π فكان في حسابه ٣ر١٤١٥٩٢٦٥٣٥٣٥٨ . وأطلق العرب على متوازي المستطيلات الذي تختلف أبعاده الثلاثة اسم المجسم اللوحي ، والذي قاعدته مربع وارتفاعه يختلف عن ضلع المربع اسم المجسم اللبني اذا كان الارتفاع أقل من ضلع المربع ، والمجسم البيري اذا كان ارتفاعه اكبر من ضلع القاعدة . وقالوا بأن الخط من نقطتين ، والسطح من خطين ، والجسم من سطحين وقالوا بأن المقادير هي

الكمية المتصلة وهي أربعة : الخط والسطح والجسم والزمان ، وتعرضوا للاشكال: البيضي والهلالي والمخروط الصنوبري والاهليلجي والطبلي والزيتوني •

واشتغلوا في علم تسطيح الكرة[1] والذي يتناول في الاكثر رسم الخرائط الجغرافية لانها تنقل ماهو مرسوم على كرة ، الى سطح مستو ، وبالعكس •

وأوجد ثابت بن قرة حجم المجسم المكافىء الناتج من دوران قطع مكافىء حول محوره ، ثم زاد ابن الهيثم فأوجد حجمه اذا دار حول أي قطر أو أي رأس • وحل الكوهي كيف يمكن انشاء قطعة كروية تكافىء قطعة كروية أخرى معلومة ، وتكون مساحة سطحها الجانبي مساوية لمساحة السطح الجانبي لقطعة كروية ثالثة معلومة •

وبعد أن اطلع العرب على محاولة الاغريق حل معادلة الدرجة الثانية هندسيا ، حاولوا حل معادلة الدرجة الثالثة هندسيا أيضا • وقد وضع الماهاني (٨٥٣م) مسألة أرخميدس وهي (قطع كرة بمستو بحيث تكون النسبة بين المساحة الجانبية للقطعتين الناتجتين مساوية نسبة معلومة) على صورة معادلة تكعيبية • وكان ابو جعفر الخازن (٩٦١ م) أول من حل هذه المعادلة بتقاطع القطوع المخروطية • وتبعه الكوهي (٩٨٨ م) وابن الهيثم (١٠٢١م) وقد حل أبو الجود المعادلة س٣ــس٢ــ٢س+١=• الناتجة عن ايجاد ضلع المسبع • أما عمر الخيام فقد أبدع وتفنن وقسم هذه المعادلات الى ثلاثية الحدود ورباعيتها وقسم كلا منها الى أنواع • وحل كل نوع • وحاول ابو الوفا (٩٤٠ــ٩٧٧م) حل المعادلة الرباعية هندسيا •

---

(١). طوقان : مآثر العرب في الرياضيات والفلك . جاء في كشف الظنون : « علم تسطيح الكرة هو علم يتعرف كيفية نقل الكرة الى السطح مع حفظ الخطوط والدوائر المرسومة على الكرة وكيفية نقل تلك الدوائر من الدائرة الى الخط . وتصور هذا العلم عسير جدا يكاد يقرب من خرق العادة ولكن عملها باليد كثيرا ما يتولاه الناس ولا عسر فيه مثل عسر التصور ودعوى عسر التصور ليست على اطلاقه بل هو بالنسبة الى من يمارس علم الهندسة ، ومن الكتب المصنفة فيه كتاب تسطيح الكرة لبطليموس والكامل للفرغاني والاستيعاب للبيروني » .

ويمكننا أن نلحق بالهندسة « فن الزخرفة العربية أو الأرقشة » Arabesque الذي يعتمد في جملته على قواعد هندسية في رسم المضلعات وترتيب الخطوط وأوراق وأثمار النباتات ترتيبا هندسيا متناسقا •

د ــ المثلثات : اذا كانت الهندسة علما يونانيا ، فان المثلثات كالجبر «علم عربي» بحت ، فاليونان لم يهتموا بعلم المثلثات لذاته ، بل لانه يساعدهم في علم الفلك ، والهنود لم يتقدموا في هذا العلم الا تقدما بسيطا فيما يتعلق بقياس الجيب[1] (قياس الزاوية المفروضة بالضلع المقابل لها مقسوما على الوتر في المثلث القائم الزاوية) ولكن العرب هم أول من نظم هذا كله علما قائما بذاته مستقلا عن علم الفلك، وكان الفضل في ذلك الى أبي الوفاء البوزنجاني ، ونصير الدين الطوسي (٦٧٢هـ ١٢٧٢م)•

واشتغل العرب بالمثلثات المستوية ، والمثلثات الكروية وأثبتوا فيها اثباتات جديدة ، وحلوا مسائل على المثلثات الكروية القائمة الزاوية والمائلة الزاويةواستعملوا المماسات والقواطع ونظائرها في قياس الزوايا والمثلثات ووصفوا الجداول التيذكرت أنها مهدت لاكتشاف قانون اللوغاريتمات[2] واخترع العرب حساب الاقواس التي تسهل قوانين التقويم وتريح من استخراج الجذور المربعة •

هـ ــ الفلك : يعزى ظهور علم الفلك الى العرب القدماء في بلاد مابينالنهرين، ومصر ، وعن البابليين العرب أخذ هذا العلم كل من الاغريق والهنود ، وجميع هذه الاقوام خلطت بين الفلك أو علم النجوم وبين التنجيم ، وربط حركات الكواكب وأبراجها بما يجري على سطح الارض من أحداث وحظوظ سعيدة أو شقية ،

---

(١) كلمة جيب مشتقة من الاصطلاح الهندي جيفا

(٢) كان اكتشاف اليونان لايتجاوز الانساب في المثلثات المنتظمة اي النسبة بين كل زاوية من زوايا المثلث وبين الضلع المقابل لها ، واكتشف الهنود قياس الجيب أي قياس الزاوية المفروضة بالضلع المقابل لها مقسوما على الوتر في المثلث القائمالزاوية . أما العرب فعرفوا جيب التمام أي قياس الزاوية المفروضة بالضلع المجاور لها مقسوما

والغريب ان هذه العلاقة بين النجوم وبين التنجيم لاتزال شائعة الاعتقاد عند كثيرين من أبناء عصرنا ، وظلت كراسي تدريس النجامة في بعض الجامعات الاوربية ، مثل جامعة بادوا وجامعة ميلانو قائمة حتى أواخر القرن السادس عشر .

فلما جاء الاسلام ، ونزل القرآن أتى على ذكر كثير من القضايا الفلكية، ففي سورة يس قوله تعالى « والشمس تجري لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون [1] القديم ، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » وفي سورة يونس : « وهو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب، ماخلق الله ذلك الا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعقلون . ان في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والارض لآيات لقوم يتقون » .

وكانت تعاليم الاسلام وفرائضه تقتضي معرفة واسعة في الفلك ، فأوقات الصلاة واختلافها بحسب الموقع الجغرافي والفصل الموسمي ، واتجاه المسلمين الى الكعبة في صلواتهم ، ورؤية هلال رمضان والصوم ، وصلاة الكسوف أو الخسوف وما شابه ذلك يقتضي من علماء المسلمين معرفة كثير من القضايا الفلكية مثل عرض المكان الجغرافي وحركة الشمس في البروج وسمت القبلة ، وقد اضطروا الى بحثها في مسائل عويصة متصلة بشروط رؤية الهلال واحوال الشفق فبرزوا في ذلك واخترعوا حسابات وطرقا بديعة لم يسبقهم اليها أحد من اليونان والهنود والفرس .

على الوتر في المثلث القائم الزاوية ، وعرفوا التماس وهو ما كانوا يسمونه الظل والظل التمام . وتوصلوا الى اثبات أن نسبة جيوب الاضلاع بعضها الى بعض كنسبة جيوب الزوايا المؤثرة بتلك الاضلاع بعضها الى بعض في أي مثلث كروي ، وكشفوا العلاقة بين الجيب والمماس والقاطع ونظائرها فأوجد أبو الوفاء العلاقة ٢ حا٢ $\frac{س}{٢}$ = — حاس

وعملوا الجداول الرياضية للمماس والقاطع وتمامه ، وأوجدوا الطريقة لعمل الجداول الرياضية للجيب وحسبوا جيب ٣٠ درجة .

(١) العرجون : قرط البلح .

ولكن هذا الاهتمام بالفلك كعلم له علاقة وثيقة بأداء فرائض الدين ، لم يمنع الكثيرين من الخاصة والعامة ، من الاعتماد على التنجيم ، بل كان للمنجمين مكان مرموق في أعين الخلفاء حتى أن ابا جعفر المنصور العباسي كان يصطحب معه دائما نوبخت المنجم الفارسي ، فلما كبرت سنه أمره باحضار ابنه ليقوم مقامه في صناعة التنجيم (١) .

وجاء اهتمام العرب المسلمين بترجمة كتاب الفلك ، بعد اهتمامهم بعلم الصنعة في عهد خالد بن يزيد ، اذ ترجم أول كتاب للفلك في أواخر العصر الاموي ، وهو كتاب « عرض مفتاح النجوم » المنسوب لهرمس الحكيم وتمت ترجمته قبل سقوط الدولة الاموية بسبع سنين . ولكن العباسيين اعتبارا من أبي جعفر المنصور رقوا بالفلك رقيا عظيما ، ووصلوا فيه الى أبحاث جديدة بالاهتمام وتطبيقات عملية في عصر المأمون . فقد أمر المنصور محمد بن ابراهيم الفزاري بترجمة كتاب «السندهند الكبير » الذي يبحث في حركات النجوم ومطالع البروج والكسوف وغيرها ، وهذا الكتاب هو الذي اختصره الخوارزمي وزاد فيه دراساته الخاصة وصنع منه زيجه الذي اشتهر في كل البلاد الاسلامية ، وقبل ان ينقضي عهد المنصور ترجم يحيى بن البطريق كتاب الاربع مقالات في صناعة احكام النجوم لبطليموس ؛ وما وافى عصر المأمون حتى أصبح الفلكيون والكتب المترجمة والمؤلفة ، وأشكال الاسطر لابات وأنواعها ، أكثر من أن تعد ، فقد اصلحت أغلاط المجسطي لبطليموس ، وألفت أزياج جديدة ليحيى بن أبي منصور ، ولموسى بن شاكر ولابنائه ولثابت بن قرة والبلخي والبتاني Albatanius (المتوفى ٩٢٩ م) والفرغاني Alferganus كما وضع

---

(١) جاء في الترجمة اللاتينية لكتاب الفارابي (احصاء العلوم) الذي فقد أصله العربي ان علم النجوم يشتمل على قسمين أحدهما علم دلالات الكواكب على المستقبل. والثاني العلم التعليمي وهذا هو الذي يعد من العلوم ويبحث فيه عن الاجرام السماوية وعن الارض من ثلاثة وجوه : ١ - عدد الاجرام واشكالها وترتيبها في العالم وابعادها . . ٢ - حركاتها واشكالها وكسوتها . . . ٣ - الارض وحركاتها وفصولها ومظاهرها .

العلماء المسلمون في المغرب والاندلس جداول فلكية مشابهة مثل أزياج المجريطي، والزرقاني الذي عاش في أواخر القرن الحادي عشر وثبت أن الملك الفونسو اعتمد على ابحاثه وجداوله في الاعمال الفلكية التي تمت في عصره بعد ان ترجمت المصادر العربية الى اللاتينية • كما يمكن أن نشير هنا الى ثلاثة علماء مغاربة اشتهروا في ميداني الفلك والرياضيات ترجمت كتبهم وأبحاثهم الى اللاتينية وانتفع من دراستها فلكيو الغرب وعلماؤه امثال : كبلر وباكون والبرتو ماجنو ، وليوناردو فيبو نوتشي وغيرهم • وهؤلاء العلماء المسلمون المغاربة هم : أبو العباس بن البنا (المتوفى عام ١٣٢١ م) وقد انتهت الينا بعض مخطوطاته في الرياضيات والفلك الى جانب صنعته في الطب ، والحسن بن عمر المراكشي الذي عاش أيضا في النصف الاول من القرن الثالث عشر وابو حسن علي المراكشي الذي عاش في النصف الثاني من نفس القرن الثالث عشر وقد هاجر الى الاندلس حيث قام بعدة بحوث فلكية •

وبعد ان درس العرب المسلمون كتب الفلك عند الامم التي سبقتهم في مضمار الحضارة خرجوا الى العمليات والرصد ، ففي عصر المأمون استخرجوا بطريقة علمية طول درجة من درجات خط نصف النهار ، تعد الى الآن أحسن طريقة ، كما وضع البيروني نظرية بسيطة لمعرفة مقدارمحيط الارض ذكرها فيآخر كتابه «الاسطرلاب» •

والعرب المسلمون اول من عرف اصول الرسم على سطح الكرة ، وحسبوا الحركة المتوسطة للشمس في السنة وضبطوا حركة أوج الشمس وتداخل فلكها في أفلاك أخر وقالوا باستدارة الارض وبدورانها ، وحسب البتاني ميل فلك معدل النهار فوجده ٢٣ درجة و ٣٥ دقيقة أي قريبا من الصواب المعترف به اليوم مع خطألايتعدى الدرجة الواحدة ، ووفق البتاني نفسه في حساب طول السنة الشمسية وحصل على نتيجة لاتختلف عن النتائج الحديثة بأكثر من دقيقتين و ٢٢ ثانية • ورصد غيره الاعتدالين الربيعي والخريفي ، وكتب عن كلف الشمس قبل أن تعرف أوربا أسباب هذا الكلف مدة قرون ، ووضع عبد الرحمن الصوفي مؤلفا في النجوم الثابتة وعمل

لها الخرائط المصورة ، وذكر أكثر من الف نجم مع رسمها كوكبات في صورة الاناسي والحيوان ••• ويذكر أحد العلماء أن خمسين بالمائة من أسماء النجوم المعروفة باللغات الاجنبية هي من وضع العرب ومستعملة بلفظها العربي في هذه اللغات الحديثة ومنها مجموعات النجوم المعروفة باسم الواقع Vega والطائر Altair والذنب Deneb وفم الحوت Famalhout وإبط الجوزاء أو (منكب الجوزاء) Betelgeuse والدبران Aldeberan كما اقتبس الغرب من العرب سمت الرأس Zenith والنظر Madir وسمت السموت Asimuth والجبهة Algieba والجنب Algenib والتظهير

وفي الشعر العربي اشارة الى كثير من النجوم :

قال أبو نواس :

مضى ايلول وارتفع الحرور واذكت نارها الشعرى العبور

ويقصد انه بعد ان انتهى ايلول (سبتمبر) وذهب الحر ، اشرقت الشعرى مع شروق الشمس أي أن الشعرى تشرق مع شروق شمس تشرين الاول (اوكتوبر) •

قال أبو فراس الحمداني :

أما ترى الشمس حلت الحملا وطاب وزن الزمان واعتدلا

ويقصد ان الشمس تكون في برج الحمل في فصل الربيع •

وقال الطغرائي :

لو أن في شرف المأوى بلوغ منى لم تبرح الشمس يوما دارة الحمل

ويقصد بدارة الحمل ، برج الحمل وهو في فصل الربيع •

وقال أيضا :

وان علاني من دون فلا عجب لي اسوة بانحطاط الشمس عن زحل

وقال المبرد :

اذا ما الثريا في السماء تعرضت　　يراها حديد العين ستة أنجم
على كبد الجرباء وهي كأنها　　جبيرة در ركبت فوق معصم

وقال عمر بن أبي ربيعة :

أيها المنكح الثريا سهيلا　　عمرك الله • كيف يلتقيان
هي شامية اذا ما استهلت　　وسهيل واذا استهل يمان

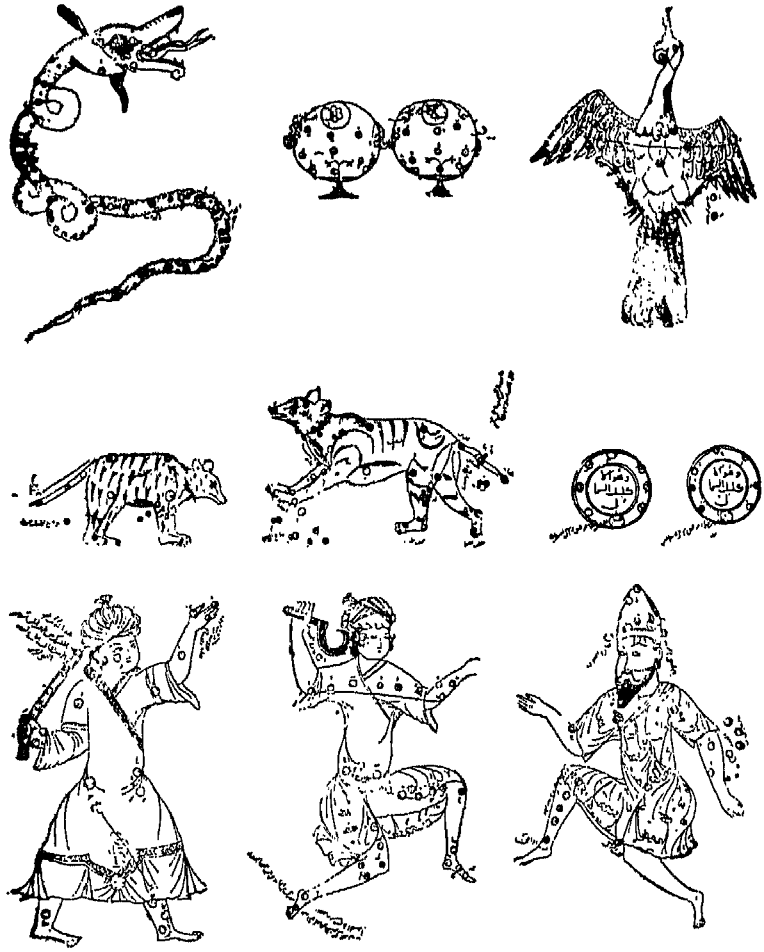
(الثريا وسهيل مجموعات نجوم) •

وقال آخر :

سكن السما كان السماء كلاهما　　هذا له رمح وهذا أعزل

والسماكان مجموعة نجوم ويعرف ذو الرمح باسم المرشد وسيفه ويستدل به على الجهات كنجم القطب ولكنه يشير الى الجنوب بدل الشمال •

وهنا لابد من الكلام عن مشكلة علاقة الشمس والارض • فقيل ان عالما يونانيا، من القرن الرابع ق•م أثار لاول مرة في التاريخ ، قضية فحواها أن الارض تدور حول الشمس ، ثم جاء بطليموس بعده بخمسمائة سنة تقريبا ، فأقر العكس ، وجعل الشمس تدور حول الارض ورغم أنه ثبت بعد الف واربعمائة سنة أنه كان مخطئا في رأيه ، حين برهن كوبرنيك العكس ، فان العرب لم يقبلوا جميعا برأي بطليموس، اذ بينما وافق عليه الرازي وابن سينا ، فان ابا الريحان البيروني شك في قول بطليموس ، وانتقده وهو يستعرض رأي علماء الفلك الهنود في دوران الشمس حول الارض ، ورجح ان تكون الارض تدور حول الشمس في كتابه مفتاح علم الهيئة • وهكذا نرى ان بعض علماء المسلمين لم يقبلوا اقوال الاقدمين كمسلمات بل انتقدوها ، وانهم قالوا عن دوران الارض حول الشمس قبل كوبرنيك •



شكل — ١٥٣ —

صورة بعض الكواكب وما رمز به اليها من اناسي وحيوان مرسومة في كتاب
« صور الكواكب » تأليف عبد الرحمن الصوفي
المحفوظ بمتحف المتروبوليتان في نيويورك

قياس محيط الارض في عصر المامون : ونضرب مثلا واحدا من أعمال العرب المسلمين الفلكية ، قياسهم محيط الارض . فقد جاء في كتاب الزيج الكبير الحاكمي لابن يونس المحفوظ بمكتبة لندن : « ذكر سند بن علي في كلام وجدته لهأن المأمون أمره هو وخالد بن عبد الملك المروروذي أن يقيسا مقدار درجة من أعظم دائرة من دوائر سطح كرة الارض. قال : فسرنا لذلك جميعا ، وأمر علي بن عيسىالاسطرلابي وعلي بن البحتري بمثل ذلك فسارا الى ناحية أخرى » قال سند بن علي : « فسرت أنا وخالد بن عبد الملك الى مابين واسط وتدمر ، وقسنا هنالك مقدار درجة منأعظم دائرة تمر بسطح كرة الارض فكان سبعة وخمسين ميلا (الميل العربي يساوي ١٩٧٣ر٢ مترا) وقاس علي بن عيسى وعلي بن البحتري فوجدا مثل ذلك وورد الكتاب من الناحيتين في وقت متفقين » .

وذكر احمد بن عبد الله المعروف بحبش في الكتاب الذي ذكر فيه ارصاد أصحاب الممتحن بدمشق ان المأمون امر بأن تقاس درجة من أعظم دائرة من دوائر بسيط كرة الارض ، قال فساروا لذلك في برية سنجار حتى اختلف ارتفاع النهار بين القياسين في يوم واحد بدرجة ، ثم قاسوا مابين المكانين ... ميلا وربع ميل منها أربعة آلاف ذراع بالذراع السوداء التي اتخذها المأمون . وأقول انا وبالله التوفيق أن هذا القياس ليس بمطلق بل يحتاج مع ارتفاعي نصف النهار بدرجة الى ان يكون القائمون جميعا في سطح دائرة واحدة من دوائر نصف النهار ، والسبيل الى ذلك بعد ان نختار للقياس مكانا معتدلا خاصيا ، ان نستخرج خط نصف النهار من المكان الذي يبتدىء من القياس ثم تتخذ حبلين دقيقين جيدين طول كل منهما نحو خمسين ذراعا ثم نمر احدهما موازيا لخط نصف النهار الذي استخرجناه الى ان

ينتهي ، ثم نضع طرف الحبل الاسفل في وسطه ونمره راكبا عليه ثم نرفع الحبل الاول ونضع أيضا طرفه في وسط الحبل الثاني ونمره راكبا عليه • ثم نفعل ذلك دائما ليحفظ السمت وارتفاع نصف النهار يتغير دائما بين المكان الاول الذي استخرج فيه خط نصف النهار والمكان الثاني الذي انتهى اليه الذين يسيرون ، حتى اذا كان بين ارتفاعي نصف النهار في يوم واحد درجة بآلتين صحيحتين تبين الدقيقة في كل واحدة منها ، قيس بين المكانين فما كان من الاذرع ، فهو ذرع درجة واحدة من أوسع دائرة تمر ببسيط كرة الارض ، وقد يمكن ان يحفظ السمت عوضا عن الحبلين بأشخاص ثلاثة تسير بعضها بعضا على سمت خط نصف النهار المستخرج ، وينقل اقربها من النصف متقدما ثم الذي يليه ثم الثالث دائما ان شاء الله تعالى••»

ويعقب نيللنيو على ذلك قوله : ان ما يستخرج من زيج ابن يونس وكتب غيره أن جماعة من الفلكيين قاسوا قوسا من خط نصف النهار في صحراوين ، أي البرية عن شمال تدمر وبرية سنجار ثم أن حاصلي العملين اختلفا فيما بين ٥٦ ١/٤ من الاميال و (٥٧) ميلا فاتخذ متوسطها ٥٦٥/٨ من الاميال تقريبا « أي أن طول الدرجة عند فلكيي المأمون ١١١٫٨١٥ مترا وطول المحيط ٤١٢٤٨ كم وهو قريب جدا من الحقيقة • ويتابع نيللينو تعليقه بقوله : « أما قياس العرب فهو أول قياس حقيقي أجري كله مباشرة مع كل ما اقتضته تلك المساحة من المدة الطويلة والصعوبة والمشقة واشتراك جماعة من الفلكيين والمساحين في العمل ، فلا بد لنا من اعتبار ذلك القياس من أعمال العرب العملية المجيدة المأثورة » •

وذكر غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب : « كانت بغداد مركزا مهما لمباحث علم الفلك ولكنها لم تكن المراكز الوحيدة لهذه المباحث ، فالمراصد التي كانت قائمة في البلاد الممتدة من آسيا الوسطى الى المحيط الاطلنطي كثيرة ، فمنها ما كان في دمشق وسمرقند والقاهرة وفارس وطليطلة وقرطبة الخ ••

« وكان علماء الفلك في افريقيا ولا سيما في طنجة وفاس ومراكش ينافسون

علماء الفلك في الاندلس •• وان أبا الحسن المراكشي الذي كان يعيش في القرن الثالث عشر من الميلاد عين ، بضبط لم يسبقه اليه أحد ، العرض والطول لاحدى وأربعين مدينة افريقية بين مراكش والقاهرة أي ما مسافته تسعمائة فرسخ فقيد مشاهداته في كتابه « جامع المبادىء والغايات في علم الميقات » وهو يحوي معارف ثمينة لآلات الرصد العربية » •

المراصد وآلاتها وازياجها : شاهد العرب عندما فتحوا مصر مرصدا قديما في الاسكندرية ، ولما اهتموا بالفلك ، بنوا أول مرصد في دمشق في العهد الاموي ، وبقي هذا المرصد وحيدا حتى كان عصر المأمون ، فأمر باتخاذ المراصد الفلكية وقدم لها ماتحتاج من أموال لبنائها ولتجهيزها بأدوات الرصد ، فبنى مرصدجبل‌قاسيون في دمشق ، ومرصد الشماسية في بغداد ، وبنى بنو موسى مرصدا آخر خاصا لهم على طرف الجسر في بغداد ، وقد استخرجوا حساب العرض الاكبر من‌عروض‌القمر وقلدهم غيرهم من العلماء المشتغلين بالفلك وتتابع بناء المراصد بعد المأمون في أنحاء المملكة الاسلامية • فبنى شرف الدولة مرصدا ، رصد فيه الكواكب السيارة التي كانت معروفة ، وأقام الفاطميون مرصدا على جبل المقطم عرف بالمرصد الحاكمي ، وأنشأ نصر الدين‌الطوسي الفلكي الشهير ، مرصدا في مراغة وجلب له أدق الآلات[١] وكان أشهر مراصد الشرق الذين اعتمد الاوربيون عليهم في عصر النهضة الاوربية•

وقد ألف بعضهم كتابا بأسماء آلات الرصد وأوصافها ، منهم الخازن في كتابه « الآلات العجيبة » ومنهم تقي الدين الراصد الذي وصف الآلات التي اخترعها بنفسه ، وأشهر هذه الآلات :

الاسطرلاب : أشهر الآلات الفلكية • وكلمة اسطرلاب جاءت من اليونانية

---

(١) قال الطوسي « اني جمعت لبناء المرصد جماعة من الحكماء منهم‌المؤيدالعرضي من دمشق والفخر المراغي الذي كان بالموصل ، والفخر الخلاطي الذي كان بتفليس ، ونجم الدين بن دبيران القزويني ، وقد ابتدانا في بنائه سنة ٦٥٧ هجرية بمراغة » .

وأصلها أسطر لابون وهي مؤلفة من « أسطرا » بمعنى النجم و « لابون » بمعنى المرآة أي مرآة النجوم ومن Astra الاغريقية جاءت كلمة Astronomy بمعنى علم النجوم ويقال ان اصلها كلمة (استرلابيوم) اليونانية وقد قالت العرب عن معناها انها تعني ميزان الشمس بينما المعنى الاصلي مقياس النجوم • وقال بعضهم ان اصل الكلمة فارسي (ستاره ياب) • وقد نعتها العرب باسم « الآلة الشريفة » لتقديرهم لفوائدها في المساعدة على حل مئات المسائل الفلكية والرياضية في المثلثات عامة والمثلثات الكروية خاصة من جيوب ، وجيوب تمام ، وظلال وظلال تمام وقواطع وقواطع تمام ••• ولما تمثله من عمليات رياضية وهندسية تحكمت في رسم الخطوط التي حوت على سطحها •• واستخدمها العرب في رسم مرتسم الكرة الارضية على مسطح ، ومن أبواب استعمالها أيضا : قياس الارتفاعات والمسافات وأعمال الآبار ، وارتفاع النجوم والكواكب السيارة والثابتة ، والزمن ، وتحديد أوقات الصلاة بالساعة والدقيقة من زوال وظهر وعصر وشفق ومعرفة قوس الليل ، ومطالع البروج• وفي كتاب فهرست كتاب العمل بالاسطرلاب لعبد الرحمن بن عمر الصوفي ٣٨٦ بابا لفوائد هذه الآلة الفلكية •

وقد اقتبس الاوربيون الاسطرلاب من الاندلس وأفريقيا واستخدموه في الملاحة البحرية أكثر من أي استخدام آخر (١) •

وللاسطرلابات عدة أنواع منها التام والمسطح والهلالي والزورقي والعقربي والقوسي ومنها التام والمجيب •

وأبسط أنواعه مؤلف من قرص معدني مقسم الى درجات ، ويدور على القرص عداد ذو ثقبين في طرفيه ، ويعلق الاسطرلاب من حلقته تعليقا عموديا ، ثم يوجه

---

(١) يمكن لمن يريد أن يعرف الكثير عن الاصطرلاب وكيفية قياسه بعدد من العمليات الفلكية والرياضية بشكل مفصل عليه الرجوع الى مقال للدكتور ابراهيم شركة في مجلة المجمع العلمي العراقي ــ المجلد ١٩ •

العداد نحو الشمس فمتى مرت أشعة الشمس من ذينك الثقبين قرىء ارتفاع الكواكب من الحد الذي وقف عليه ذلك العداد •

اللبنة : وهي جسم مربع مستو يعرف به عرض المكان وأبعاد الكواكب •

الحلقة الاعتدالية : يعلم بها التحويل الاعتدالي •

ذات الاوتار : وتتألف من أربع اسطوانات مربعة أدق من الحلقة الاعتدالية •

ذات الحلق : وهي خمس دوائر مصنوعة من نحاس ، الاولى دائرة نصف النهار وهي مركوزة على الارض ودائرة معدل النهار ، ودائرة منطقة البروج ودائرة العرض ودائرة الميل والدائرة الشمسية ، التي يعرف بها سمت الكواكب •

ويعزى الى الفيلسوف العالم العربي الاندلسي عباس بن فرناس اختراعها وادخال تعديل عليها ، اذ يروى انه صنع هذه الآلة ورفعها الى الامير عبد الرحمن ابن الحكم (٢٠٦ ـ ٢٧٨ هـ) مرفقة بهذه الابيات التي تعرب عن وظيفتها وفائدتها :

قد تم ما حملتني من آلة ... أعيا الفلاسفة الجهابذ دوني

لو كان بطليموس ألهم صنعه ... لم يشتغل بجداول القانون

فاذا رأته الشمس في آفاقها ... بعثت اليه بنورها الموزون

ومنازل القمر التي حجبت معا ... دون العيون بكل طالع حين

يبدون فيها بالنهار كما بدت ... بالليل في ظلماتهن الجنون

ذات السمت والارتفاع : وهي نصف حلقة قطرها سطح من سطوح اسطوانة متوازية السطوح يعلم بها السمت وارتفاعها ، وهي من مخترعات المسلمين •

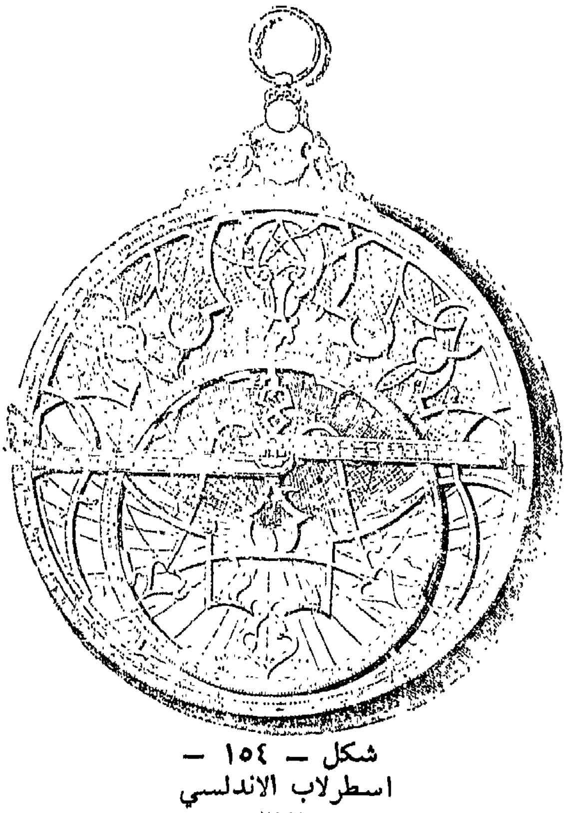
الميقاتة : وتدل على الجهات وتحدد أوقات الصلاة • اذ تروي كتب الادب ان

عباس بن فرناس قدم هذه الآلة هدية الى الامير عمر بن عبد الرحمن(٢٣٨ـ٢٧٣هـ) منقوشا عليها الابيات التالية :

الا انني للدين خير أداة　　اذا غاب عنكم وقت كل صلاة
ولم تر شمس بالنهار ولم تنر　　كواكب ليل حالك الظلمات
بيمن امام المسلمين محمد　　تجلت عن الاوقات كل صلاة

ذات الشعبتين : وتتألف من ثلاث مساطر على كرسي خاص يعلم بها الارتفاع.

أما الازياج فهي كلمة أعجمية مفردها « زيج » عرفها ابن خلدون في مقدمته : ومن فروع علم الهيئة علم الازياج وهي صناعة حسابية على قوانين عديدة فيما يخص كل كوكب من طريق حركته ، ولهذه الصناعة قوانين في معرفة الشهور والايام والتواريخ الماضية وأصول متقررة في معرفة الاوج والحضيض والميول وأصناف



شكل ــ ١٥٤ ــ
اسطرلاب الاندلسي

الحركات واستخرج بعضها من بعض ليضعونها في جداول مرتبة تسهيلا على المتعلمين وتسمى الازياج •

ونستطيع أن نختم بحثنا بأن فلكيي العرب تحققوا كروية الارض وانها سابحة في الفضاء • وفسروا دورانها وحركات جميع الكواكب السيارة ، وقاسوا خط الهاجرة أي خط دائرة نصف النهار ، وقاسوا مواقع البلدان الهامة ، وتمكن أحدهم وهو الفلكي ثابت بن قرة الحراني (توفي ٢٨٨ هـ ـ ٩٠١ م) من استخراج حركة الشمس وحساب طول السنة النجمية ، فكانت معه ٣٦٥ يوما وست ساعات وتسع دقائق وعشر ثوان ، وقاسوا محيط الارض ، ورسموا خرائط القبة السماوية واكتشفوا اختلاف سير القمر بين سنة وأخرى ، وأوجد أبو الوفاء البوزنجاني

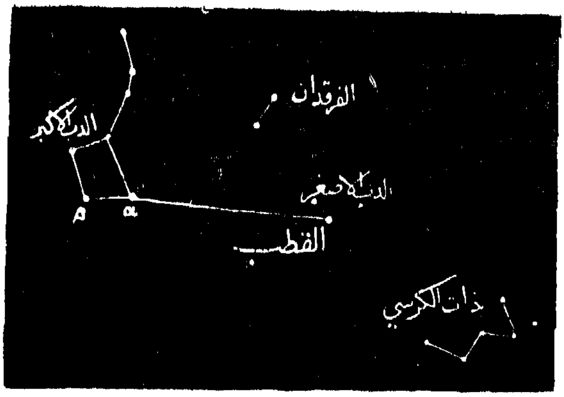


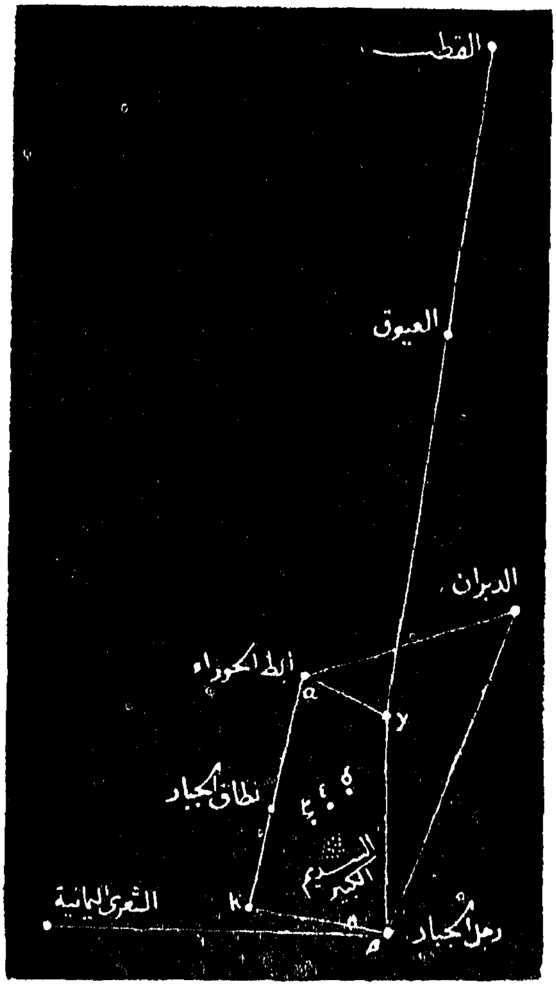
شكل ـ ١٥٥ ـ

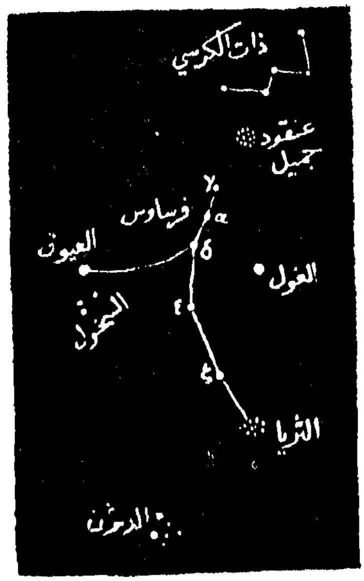
صورة مأخوذة عن كتاب « صور الكواكب الثابتة » للصوفي تمثل بعض الاجرام السماوية وتجمعها في شكل يساعد الفلكيين على دراستها ومتابعة مواقعها

(توفي ٣٨٨ هـ ــ ٩٩٨ م) أحدى المعادلات الضرورية لتقويم مواقع القمر سميت معادلة السرعة . ودرسوا الكلف على وجه الشمس ، وعرف ابن رشد (توفي ٥٩٥ هـ ــ ١١٩٨ م) بواسطة الحساب الفلكي وقت عبور عطارد على قرص الشمس ، فوجده وشاهد بقعة سوداء على قرصها في الوقت المعين ، ودرسوا نسبة مساحة الكواكب بعضها الى بعض ، وعرفوا أن الارض أصغر من الشمس ، ولاحظوا حركة الاوج والحضيض في الحركات الدورية، وانتقدوا نظام بطليموس الفلكي وأصلحوا أخطاءه ، وأدرك أبو سعيد أحمد بن محمد السجستاني (القرن الرابع الهجري) ان الارض متحركة وان الفلك بجميع مافيه ، سوى الكواكب السبعة ، ثابت ، فاستنبط اسطرلاباً خاصاً عرف بالاسطرلاب الزورقي ، وهذا يخالف رأي بطليموس القائل بأن الارض ثابتة وهي مركز النظام الشمسي ، أي أن الشمس والكواكب تدور حول الارض ، ولم ينتقدها من علماء أوربا أحد قبل كوبرنيقوس (١٥٤٣ م) .

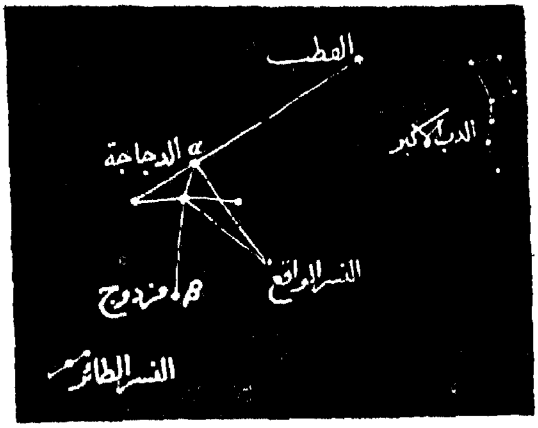
* * *

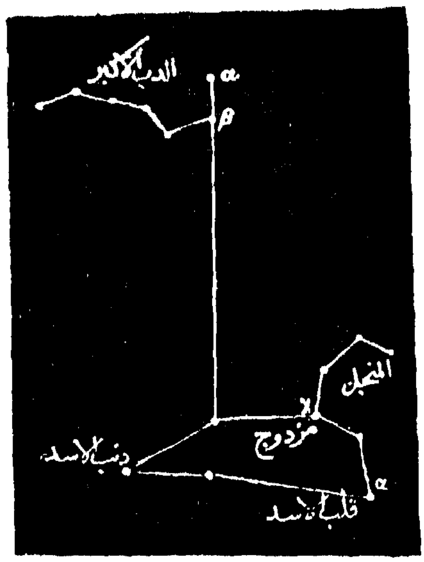

الفرقدان
الدب الأكبر
الدب الأصغر
القطب
ذات الكرسي

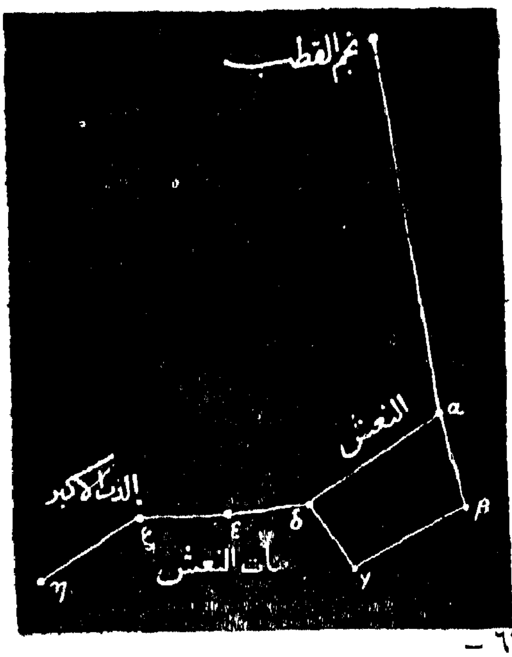

القطب
العيوق
الدبران
ابط الجوزاء
نطاق الجبار
السديم الكبير
الشعرى اليمانية
رجل الجبار


ذات الكرسي
عنقود جميل
فرساوس
العيوق
الغول
الثريا
الدبران


رأس التوأمين المقدم
رأس التوأمين المؤخر
الشعرى الشامية


القطب
الدجاجة
الدب الأكبر
النسر الواقع
مزدوج
النسر الطائر


الدب الأكبر
المنجل
مزدوج
ذنب الأسد
قلب الأسد


نجم القطب
النعش
الدب الأكبر

٦ ـ العلوم الفلسفية والفرق الدينية

الفلسفة والفلاسفة : لم يكن لعرب الجاهلية فلسفة شبيهة بفلسفة الاغريق لأن طبيعة بلادهم كانت تدعوهم الى الكفاح في سبيل الحياة ، والانسان ـ كما يقول الفلاسفة ـ يجب أن يعيش قبل أن يتفلسف ، ولكن بعد الاسلام ، عندما دخل كثير من اتباع الديانات الاخرى ومن الاجناس غير العربية في الاسلام بدؤوا بنقل بعض الفلسفة الاغريقية وغيرها الى المسلمين ، ولما أقبل المسلمون على الكتب الاعجمية يترجمونها ويدرسونها ، ويفسرونها ويعلقون عليها ، كانت الفلسفة الاغريقية وخاصة مذهب الافلاطونية الحديثة أكثر ما جذبتهم الىدراستها وتفهمها ، وكان العلماء الذين بدؤوا ينبغون في العصر العباسي الاول أشبه بعلماء العصور القديمةوالوسطى ، ملمين بأكثر من علم واحد ، فكان كثير منهم يشتغل بالرياضياتوالفلك والتنجيم والكيمياء معا ، كما أن كثيرا من أطبائهم كان يشتغل بالفلسفة وبالعلوم الاخرى ، فالاختصاص لم يظهر لا في الشرق ولا في الغرب حتى هذا التاريخ ، وكان الرجل لا يعتبر عالماً أو فيلسوفاً الا اذا أحاط بأكثر من علم ، ولكن يغلب عليه اسم رياضي ، أو فلكي أو منجم ، أو طبيب ، أو فيلسوف ، أو موسيقي ، فيما اذا تغلبت هذه الناحية عليه على سائر العلوم الاخرى التي يتقنها .

وعلى هذا الاساس يمكن ان نعتبر كثيرا من علماء العرب فلاسفة وخاصة في أول نشأة الفلسفة ، ولكن المؤرخين المتأخرين ، يفرقون بين الفيلسوف وبين المشتغل بغيره من العلوم ، مما يدلنا على أنهم حاولوا التفريق بين ذوي الاختصاص ، ومهدوا السبيل للاختصاص العلمي ، فتراهم مثلا لا يلقبون الغزالي بالفيلسوف وهو قد

اعتمد كثيرا على الفلسفة في طريقته التي اتبعها للبرهان المنطقي والاثبات العقلي لتعاليم الدين . والفلسفة كما عرفها الفارابي ** اسم يوناني معناه إيثار الحكمة . والفيلسوف معناه المؤثر للحكمة . والمؤثر للحكمة هو الذي يجعل المؤكد من حياته والغرض من عمره الحكمة : بينما عرفها ابن سينا بأنها الحكمة وهي « صناعة نظر يستفيد منها الانسان تحصيل ما عليه الوجود كله في نفسه ، وما عليه الواجب مما ينبغي أن يكسبه فعله لتشرف بذلك نفسه وتستكمل ، وتصير عالماً معقولا مضاهياً للوجود ، وتستعد للسعادة القصوى بالآخرة ، وذلك بحسب الطاقة الانسانية » . لكن ابن رشد يعتبر « فضل الفلسفة ليس شيئاً أكثر من النظر في الموجودات من جهة دلالتها على الصانع ، وكلما كانت المعرفة بصنعتها أتم كانت بصانعها أتم » .

أما أشهر من نبغ في الفلسفة في الاسلام فهم :

الكندي : واسمه أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي ، وهـو عربي الاصل من قبيلة كِندة ، نشأ في الكوفة وتعلم في البصرة ثم في بغـداد ونبغ في الترجمة ، وأخذ بترجمة الكتب الفلسفية اليونانية ـ ولم يذكر في عدد المترجمين لانه لم يكتسب من هذه المهنة ـ واطلع على آراء المعتزلة ورسائل اخوان الصفا وتأثر بها . ولم يكتف بترجمة كتب ارسطو ، بل انتقد بعضها وعلق عليها ، وألف كثيرا من الكتب الفلسفية ولكنها لم تصلنا كما هي ، وانما اطلعنا عليها من بعض ما ترجم منها الى اللغات الاجنبية في عصر النهضة الاوربية ، وما نقله من أتى بعده من الفلاسفة عنه ، ولقد لقب بفيلسوف العرب .

وقد أورد ابن النديم أسماء كتب الكندي في ثماني صفحات وعدها سارتون فوجدها مائتين وسبعين كتابا ** ومن دراسة ما وصلنا منها عرفنا أن الكندي كان واسع المعرفة بعلوم وفلسفة الاغريق ، وأن من خصائصه الدقة في تحديد الالفاظ الفلسفية وفي وجوه استعمالها ، وبناءه البحث الفلسفي على أسس من الرياضيات . وتفسيره أوجه النشاط في الطبيعة تفسيراً الهياً ، وتلخص فلسفة الكندي بالافكار التاليـة :

أ ــ الاعداد متناهية في نفسها ، وسلسلة الاعداد غير متناهية في خيالنا لان بامكاننا أن نزيد عدداً بالجمع أو بالتضعيف بلا نهاية ، ولكن المعدودات متناهية لانها أجسام ولانها أشياء مادية مخلوقة • ألم يقل تعالى :

« وكل شيء أحصيناه في إمام مبين » (سورة يسن) • والرياضيات عند تكون بالاقتناع بل بالبراهين •

ب ــ كل جسم متناه في المكان ومتناه في الزمان من أوله • والجسم جزء من الطبيعة ، والطبيعة هي الوجود المتحرك (الخاضع للحركة) والمتعلق بالسببية ، اذ لا يوجد جسم بلا سبب ، وما كان له سبب فلا يمكن أن يكون أزلياً • وللعالم شكل ، والشكل الوحيد الممكن للعالم هو الشكل الكري ، فالعالم اذن متناه من حيث المكان ومحدود (على شكل الكرة) • والزمان شيء • وهو قياس للحركة وحادث بحدوثها • وهذا كله يعني أن العالم والحركة والزمان متناهية وحادثة •

ج ــ تكون المعرفة من طريق العقل ومن طريق الحواس ، ومن طريق المخيلة التي هي رتبة وسط بين العقل والحس • أما النبوة فهي ضرورية للبشر في المعرفة وفي الهداية •

٢ ــ **الفارابي** : وهو فارسي الاصل من خراسان ويسمى ابو نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي • تنقل في أمهات المدن الاسلامية ومكث مدة بدمشق ، وأخذ الفلسفة في بغداد وحران ، ويذكر ابن خلكان أنه قرأ ببغداد علوم الفلسفة وتناول جميع كتب أرسطو ، وتمهر في استخراج معارفها والوقوف على أغراضه فيها • ويقال انه وجد كتابا لارسطو ، وعليه مكتوب بخط ابن نصر الفارابي ، اني قرأت هذا الكتاب مائة مرة • ولقب الفارابي بفيلسوف المسلمين والمعلم الثاني ، على اعتبار أن أرسطو كان يلقب بالمعلم الاول ، وقد كان يجيد الضرب على العود وألف كتاب الموسيقى الكبير •

ومن كتب الفارابي : رسالة في العقل وينحي فيه منحى أرسطو ، وكتاب احصاء العلوم ويقسم العلوم فيه الى خمسة أقسام • وكتاب الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون وأرسطوطاليس ويحاول فيه نفي الخلاف بين هذين الفيلسوفين لانهما حكيمان منظوران واامامان مبرزان ولا يمكن لحكيمين كبيرين أن يختلفا • وسبب الخلاف الظاهر بين فلسفتهما قصور الناس عن فهمهما • وكتاب آراء أهل المدينة الفاضلة ويشمل قسمين متميزين : الاول فلسفي عقلاني ، والثاني في الفلسفة السياسية وقد استقى نظرياته السياسية في هذا القسم من البيئة التي كان يعيشها في القرن الرابع للهجرة حيث كانت توجد خلافة عباسية (هي مدينة فاضلة كبرى) ودولة بويهية (مدينة فاضلة وسط) ودولة حمدانية (مدينة فاضلة صغرى) والدول الفاطمية والساسانية والاخشيدية وهي من مضادات الخلافة العباسية • كما يبدو أنه استقى فكرة المدينة الفاضلة من أفلاطون ، وفكرة اقرار المدن غير الفاضلة لان أهلها راضون عنها رغم ما فيها من فساد من أرسطو •

٣ ـ **جماعة اخوان الصفا** وهم جماعة سرية ذوو نزعة شيعية ، وكانوا موضع عطف بني بويه في بغداد وقد صرحوا أن غرضهم صلاح الدين والدنيا والاقتداء بالحكماء وبالفيثاغوريين ، وأن مذهبهم النظر في جميع العلوم الطبيعية والرياضية والالهية وأنهم لا يعادون علماً من العلوم ولا مذهباً من المذاهب • واستطاعت هذه الجماعة ـ كما يقول براون ـ ان تتمم ما بدأه المعتزلة ، وخاصة ما يتعلق بالتوفيق بين العلم والدين والانسجام بين الشريعة الاسلامية والفلسفة اليونانية ، وتوحيد الثقافة في صورة دائرة معارف • ولقد نشر هؤلاء الجماعة عددا من الرسائل بلغت واحداً وخمسين رسالة ، تبحث في كثير من النواحي الفلسفية ، حتى أصبحت أشبه بدائـرة معارف عامة ، وتتعرض الى الكلام عن الرياضيات والمنطق والطبيعيات « فترد كل شيء الى النفس وما لها من قوى ، وتنتهي أخيراً الى الاقتراب من معرفة الله على نمط صوفي » ومن أشهر مؤلفي هذه الرسائل : المقدسي ، والزنجاني ، والمهرجاني ، والعرفي ، وزيد بن رفاعة • ويدل مسلك حياتهم العملية أنهم كانوا

مشتركين في العلم والمال • وأنهم يرون أن النجاة في الآخرة لا تكون بالعبادة والاخلاق فقط بل بالاحاطة بالعلوم والمعارف أيضا •

٤ — ابن سينا : وقد ذاع صيته في العصور الوسطى في الشرق والغرب ، في الفلسفة والطب ، اشتغل بكثير من الوظائف الادارية في الدولة السامانية في بخاري ، وقد اقتفى أثر الفارابي في بحث المنطق ، وزاد عليه في أبحاثه في الالهيات ،



شكل — ١٥٦ —
الرئيس ابن سينا يحاضر طلابه في الطب والفلسفة .
الرسم موجود في مخطوطة عربية من القرن العاشر الميلادي

كما شرح الهيات أرسطو ، وحاول ما استطاع أن يوفق بين فلسفته وعقيدة أهل السنة والجماعة ، ولم يقيد نفسه بمذهب من المذاهب بل كان يأخذ من كل مذهب بما يلائم تفكيره وميوله • ولقد أداه بحثه الى اعتبار العقل هادي النفوس النافعة الانسانية ، ومن أشهر كتبه كتاب الشفاء ويعتبر موسوعه فلسفية كبرى حوت أقسام الفلسفة من منطق وطبيعيات والهيات وقد ترجم الى اللاتينية ومنها الى بعض اللغات الاوربية ، وضاع أصله العربي ويقال أنه كان في ثمانية عشر مجلداً • والذي وصل الينا من هذا الكتاب هو موجزه بقلمه ويسمى النجاة ، وله كتاب الاشارات وفيه ينحو نحو الافلاطونية الحديثة في بحثه • لكنه لم يقيد نفسه بمذهب فلسفي واحد ، بل كان متخيراً أخذ من كل فيلسوف ما أعجبه •

٥ ـ ابن باجه : فيلسوف اندلسي عاش في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري في عصر دولة المرابطين وأكثر كتبه كانت شرحاً لمذهب أرسطو وله كتاب يسمى تدبير المتوحد ، وترجم الى اللاتينية •

٦ ـ ابن طفيل : ولد ابن طفيل القيسي القرطبي الاشبيلي في مدينة كواديش قرب غرناطة في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي ومات بمدينة مراكش المغربية سنة ١١٨٥ م • وخرج الملك المغربي آنذاك في جنازته تقديرا للمكانة العظيمة التي كان يحظى بها عنده ••

والكتاب الوحيد الذي نعرفه له هو كتاب « حي بن يقظان » وقد وجد له صدفة بخزانة القرويين ، قصيدة شعرية في الطب تجاوزت الثلاثمائة بيت •• وقد ذكر انه كان كاتبا لحاكم غرناطة وطبيبا خاصا لثاني ملوك الموحدين بالمغرب وفي مدينة مراكش بالذات وهو ابو يعقوب يوسف •

وكان ابن طفيل أحد ثلاثة فلاسفة اندلسيين : ابن باجة ، ابن طفيل ، ابن رشد • وكان أصغر من الاول واكبر من الثاني •• هذا الثلاثي يعد من أكبر فلاسفة الاندلس

والعرب والمسلمين ، وهم لم يكونوا فلاسفة فقط ، بل كانوا مفكرين أحرارا وقادة للرأي في زمانهم وبيئتهم •

ان ابن طفيل لم يكن اشراقيا كما انه لم يكن صوفيا ، ولا زاهدا متنسكا ، ولا بداعية الى فكرة معينة يريد ان يلفت نظر المجتمع والناس اليها • ليس هو المتزمت ، ولا بالجاحد الملحد الثائر على مايعتقده الناس في عصره • بل هو عالم نظري ، يكتب للخاصة دون الكافة ، ويبحث بكل نزاهة واخلاص وصدق عن التوفيق بين العقل والايمان •

ان ابن طفيل فيلسوف تأملي ، وليس جوليا ، انه ليبحث عن الحكمة الخالصة الصحيحة ويعتقد جازما ان العقل وحده والعلم والبديهة والحدس العقلي هو الطريق الوحيد للوصول الى الحقيقة • ولهذا كان في هذا المضمار المبدع الاول والمكتشف الاول لمبدأ « التربية الذاتية » قبل غيره من العلماء سواء منهم الاوربيون أو غيرهم •

يقول العلامة الاسباني الكبير مينيندث ابيلايو : « ان كتاب حي بن يقظان هو العمل الفلسفي والادبي والديني والتربوي والنفساني الاكثر أصالة وعمقا في تاريخ الادب الاسباني العربي على الاطلاق ان هذا الكتاب لا يهم الفلاسفة فحسب ، بل يهم كل من يهتم بتاريخ الفكر الانساني قاطبة » •

ويقول رينان : « قد يكون حي بن يقظان الكتاب الوحيد عن الفلسفة الشرقية اطلاقا الذي يستطيع أن يملك اهتمامنا بطريقة متواصلة دون ان يقودنا الى النواحي التاريخية » •

وترجم ابن طفيل الى العبرية عام ١٣٤١ م واللاتينية عام ١٦٧١ م والانكليزية ١٧٠٨ م والهولندية ١٦٧٢ و ١٧٠١ م والالمانية ١٧٢٦ و ١٧٨٣ م والفرنسية ١٩٠٠ م والاسبانية ١٩٠٠ و ١٩٣٤ م •

ان « حي » عن طريق التأمل والزهد والتنسك والملاحظة والحدس العقلي يصل الى معرفة وجود الذات العلوية •• ان ابن طفيل يفضل الانسان الذي يصل الى الاعتقاد عن طريق العقل على المؤمـــن عن طريق التلقين ان الاخلاق الدينية عنده هي حرية التفكير من أجل الوصول الى الحقيقة • ومن الناحية الاجتماعية يعتقد ابن طفيل جازما ان الانسان يجب أن يساير ويتعايش مع المجتمع الذي يعيش فيه ويأخذ بيده الى طريق الايمان •

ان ابن طفيل وكأنه يعيش بين ظهرانينا الآن في هذه المرحلة العصيبة من تاريخ أمتنا العربية الاسلامية ويدعونا الى الروّية في تفكيرنا وسبر أغوار نفسيتنا العربية ، ويدعونا الى الحب والاصالة والخير والجمال والايمان بالله العلي القدير جل علاه • وما أحوجنا الآن الى مفكرين مثل ابن طفيل رضي الله عنه وأرضاه[1] •

٧ ـ ابن رشد : أشهر فلاسفة الاندلس ، كان تلميذ ابن طفيل ، وشرح كتب أرسطو ورد على الغزالي بكتاب تهافت التهافت ، وانتقد الفارابي ومنطقه ، ولقد اتهم بالزندقة لكثرة أبحاثه العقلية فأمر خليفة الموحدين باحراق كتبه النفيسة جميعها واحتفظ له بالكتب الطبية والرياضية •

ومما يلاحظ على الفلسفة الاسلامية بصورة عامة انها اعتمدت على الفلسفة الاغريقية وخاصة فلسفة ارسطو ، كما اعتمدت على الافلاطونية الحديثة وخاصة ان هذا المذهب انما نشأ وانتشر في الاسكندَرية ، وقد أصبحت الاسكندرية من أملاك العرب ، وأخذ المسلمون منها ما يلائمهم ، واهتموا بناحية التوفيق بـــين الفلسفة والدين •

علم الكلام : يعرف المؤرخون علم الكلام بأنه العلم الذي يبحث في العقائد

---

(١) راجع مقال الدكتور محمد احمد المليجي الاستاذ بجامعة محمد الخامس بمدينة فاس ــ العربي ١٤٥ •

وفي الرد على المخالفين بالادلة العقلية • فهو مبني على أن أصحابه يؤمنون بالعقائد الدينية وبصحة هذه العقائد الاسلامية ، ثم يجادلون بالجدل والاقناع ، والمنطق والفلسفة برهان صحة هذه العقائد واقناع المخالفين أو غير المؤمنين بصحتها إقناعاً عقلياً ، كما اقتنعوا هم بالقرآن وتعاليمه وجدانياً ، لذلك اختلفت طريقة بحثهم عن طريقة البحث الفلسفي الذي يتطلب من صاحبه أن يكون خالي الذهن من أي فكرة خاصة ، فيستقصي الحقيقة ، ويقرها ويؤمن بها ، ولقد كانت هناك أسباب كثيرة ادت الى نشوء هذا العلم وتطوره حتى أصبح علما له قواعده وأسسه وأنصاره وأتباعه منها أن الفرق الاسلامية أخذت تختلف في كثير من القضايا وتحتكم الى الجدل تارة والى السيف تارة أخرى في تأييد دعواها ، فهناك قضية الخلافة ومن أحق بها ؟ وهل هي إرث لآل النبي أم انتخابية شورية أم ملكية كما جعلها الامويون ؟ وهل أخطأ أبو بكر وعمر بقبولهما الخلافة مع وجود علي وهو أحق منهما أم أصابا ؟ وهناك امر مرتكب الكبيرة ، هل هو كافر ، أم مؤمن ، أم له منزلة بينهما ؟ ومنها أن القرآن تعرض للاديان الاخرى ورد عليها ، فأخذ علماء الدين ينهجون نهجه للرد على المخالفين ، وكان كثير من أتباع الديانات الاخرى قد دخلوا في الاسلام ، فأثاروا كثيرا من مسائل دياناتهم القديمة والبسوها لباس الاسلام ، فدعا المسلمين الى دحض هذه المفتريات الجديدة بالطرق العقلية المنطقية السليمة ، كما أن نزاعاً جدليا أثير بين الاسلام واتباع الديانات الاخرى ، كل يؤثر دينه ويجادل فيه ويدعو اليه ، وكان غير المسلمين يعتمدون على الفلسفة والمنطق في تأييد دعواهم ، فتسلح المسلمون بنفس سلاحهم ليحاربوهم به ، زد على ذلك أن بعض الفرق الدينية كالمعتزلة أخذت على عاتقها الدعوة للاسلام ، والرد على المخالفين ، فدعاها هذا الى الاطلاع على الفلسفة والاحاطة بأقوال الفرق الاجنبية وحججها ، وكان شأنهم شأن المتدينين من اليهود والنصارى ، الذين جابهوا فلسفات قديمة مخالفة ، فدرسوا هذه الفلسفات ليدحضوها بنفس أساليبها وطرقها ، واذا كان علم الكلام بدأ في أواخر العصر الاموي ، فانه اينع في العصر العباسي ، وقد أخذ به المعتزلة كما أخذ به اتباع الفرق الاجنبية الاخرى كالشيعة

والمرجئة والخوارج ويشبه الاستاذ أحمد أمين في كتابه ضحى الاسلام موقف المتكلمين في الدين الاسلامي ، بموقف محام مخلص اعتقد بصحة قضيته وتولى الدفاع عنها ، بينما يشبه موقف الفلاسفة بقاضٍ عادل تعرض عليه القضية فيبحثها ليصدر حكمه فيها ..

التصوف : إزاء ميل كثير من الخلفاء والامراء والاغنياء الى حياة الترف والنعيم ، وظهور كثير من مظاهر اللهو والتمتع بملاذ الدنيا من أثاث فاخر ، وطعام مختلفة ألوانه ، وشراب ، وموسيقى وغناء وقيان وامتلاك للاملاك الواسعة ، إزاء هذه الحركة التي أخذت تباشيرها بالظهور منذ العهد الاموي وبدت واضحة جلية في العصر العباسي وما رافقه وتلاه ، رأى جماعة من المسلمين أن يزهدوا في الحياة ويعيشوا عيشة الكفاف ، وينصرفوا الى العبادة والتقوى عسى ربهم أن يدخلهم جنات تجري من تحتها الانهار ، جزاء ما كسبت أيديهم ، وقد ارتدى هؤلاء الملابس الصوفية ، مقلدين كما يقولون بعض الصحابة كعمر بن الخطاب وسلمان الفارسي وأبي عبيدة بن الجراح ، وأطلق على هؤلاء اسم الصوفيين — وهناك أقوال أخرى في أصل كلمة صوفية سنشرحها ولعل ما ذكرناه من أصحها — وفي ذلك يقول المسعودي في مروج الذهب : « ولما تقدم الزمن بالمسلمين وصارت المادية والبذخ ، حافظ بعض المسلمين على سنة خلفاء الرسول في الملبس ، واحتجوا بذلك احتجاجاً صامتاً على المادة والتبذير اللذين انغمس فيهما معاصروهم ، فاطلق عليهم الصوفيون[1] » ولم يكن للمتصوفين الاوائل أي نظام أو فلسفة أو تعاليم أو مظاهر ، ولكن في القرن الثالث عندما تسلح المتكلمون بالفلسفة للاقناع والحجة في صحة

(١) اختلف العلماء في أصل اقتباس كلمة « الصوفية » فقال المتصوفون انها مشتقة من الصفا وان الصوفي رجل صافاه الله . وقال آخرون ان الاسم مشتق من الصف الاول الذي كانوا يجلسون فيه للصلاة في المسجد . أو من الصفة وهي دكة في مسجد الرسول في المدينة ينقطع عندها اناس للعبادة . وقال بعض المستشرقين ان كلمة صوفية تعريب لكلمة سوفيا اليونانية اي الحكمة ، واجمع اكثرهم على انها من الصوف اللباس الغالب على الزهاد .

تعاليم الاسلام ، رأى المتصوفون أن يتقربوا الى الله عن طريق آخر هو هذا النوع من حياة الزهد والتقشف والتعلق بالله عز شأنه ، حتى يصلوا الى معرفة الله ، لا عن طريق المنطق والمجادلة وانما عن طريق الكشف والاشراق الالهي •• ويقول بعض المؤرخين أن فلسفة التصوف في هذا العصر قامت على مذهب الافلاطونية الحديثة لوجود شبه في فلسفتهما ، ذلك أن الافلاطونية الحديثة مذهب حب لا تتطرق اليه الاعراض المادية ولا النزعات الحسية ، والمتصوفة يحبون الله حباً روحانياً خالياً من الماديات أو النزعات أي يحبونه على حد التعبير العلمي حباً أفلاطونياً ، كما يقولون ان التصوف اقتبس بعض تعاليم هندية وفارسية وغيرها ، ولكن بدرجة أقل من تعاليم الفلسفة الاغريقية •

وكانت رابعة العدوية شهيدة الحب الالهي وهي من أشهر المتصوفات تقول : الهي ان كنت أعبدك رهبة من النار فاحرقني بنار جهنم ، وان كنت أعبدك رغبة في الجنة فاحرمنيها ، وأما اذا كنت أعبدك يا الهي من أجل محبتك فلا تحرمني منجمالك الأزلي • وكانت تقول أيضاً : حبي لله لا يترك مجالا في قلبي لحب مخلوق • أي أنها تحب الله لذات الله لا لأن بيده الجنة والنار ، يكافىء المؤمن والمحسن ويجازي المسيء •

تطور الصوفية ــ فلسفتها وطرقها : ما لبث التصوف أن أصبح مذهبا خاصاً ، وظهر كثير من المتصوفين ، بعضهم مغالٍ وبعضهم معتدل ، حتى خرج بعضهم عن القول المألوف عند عامة المسلمين ، كالحسين بن منصور الحلاج ، الذي كان من غلاة المتصوفين ، وبلغ من غلوه أن ادعى الألوهية في عهد المقتدر العباسي ، وكان مجوسياً من فارس ثم أسلم ، ذهب الى الهند وتعلم الشعوذة وأخذ يؤثر على بعض أتباعه الذين ظنوا فيه النسك والعبادة ، وكان يحفر في بعض الطرقات ــ كما في صلة تاريخ الطبري ــ موضعاً يضع فيه زقاً فيه ماء ، ثم يحفر موضعاً آخر يضع فيه طعاماً ، ثم يسير مع أصحابه الى الموضع الاول ، فاذا احتاجوا الى

ماء نبش هذا الموضع بعكاز فيخرج الماء ، فيشربون ويتوضؤون ، ثم يسير الى الموضع الآخر فيخرج منه الطعام ، ويوهم أصحابه أن ذلك من كرامات الاولياء ...

وادعى بعض أتباعه أنه أحيا ببغاء ميتة ، وقد خالف في كتبه بعض تعاليم الاسلام فأباح الحج الى غير مكة بشروط وضعها ، وأباح افطار رمضان لمن صام ثلاثة أيام بلياليها ولم يفطر وأفطر في اليوم الرابع على ورقة من الهندب (وهي نبات) ، وأباح ترك الصلاة لمن صلى ركعتين من أول الليل الى آخره مرة واحدة فيكفيه ذلك عن الصلاة ما عاش بعدها .. الى آخر ما هنالك من أمور ..

أما المعتدلون من المتصوفة فلم يصلوا الى ماوصل اليه الحلاج وأتباعه ، ولكنهم اتبعوا طرقاً وتعاليم خاصة ، ووضعوا للوصول الى معرفة الله ، وانكشاف وجهه تعالى اليهم طريقاً يدعى من سلكه (السالك) ومن يعاهده الناس على طريقته (المسلّك) ومن يقطعه (الواصل) والسير فيه يدعى عندهم (سفر أو حج) ولا بد لقطعه من (مقامات) هي التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والتوكل والرضا . ولا بد للسالك من شيخ يهديه هذا الطريق حتى يكون سعيه مشكوراً ، ووضعوا لذلك كثيرا من النظريات لا نريد أن نطيل بشرحها من خصائص مباحث الفلسفة ، منها نظرية (مذهب الاشراق) أي يشرق الايمان في قلب صاحبه اذا خلصت نفسه من الشوائب وتجرد من كل شيء سوى الله ، ونظرية (المعرفة) أي معرفة الله ولا تكون الا باشغال القلب والروح والسريرة بالله تعالى ، ونظرية الحب الالهي وغيرها ، وقد اتخذوا كثيرا من التكايا والزوايا ، وصاروا يقيمون الاذكار بصوت عال أو منخفض ، ويعقدون الحفلات العامة ، ويدقون بالطبل والزمر ، وأنـواع الآلات الموسيقية ، وانصرف كثير منهم الى حياة الاستكانة في هذه الاماكن لا يعمل أعمالا دنيوية ويعيش على ماتجود به أكف المؤمنين الاغنياء لهـم ، ولايزال حتى يومنا كثير من هـذه المذاهب التي تمت الـى التصوف بصلة ، وهي تختلف بعض الاختلاف في عاداتها وتقاليدها كالشاذلية ، والاحمدية والسنوسية ، والنقشبندية ، ومنها أيضا طريقة المولوية اتباع جلال الدين الرومي الافغاني ، والذين كانوا الـى

عهد قريب في سورية يقومون بحفلات خاصة يدورون بها دورانا متزنا ويلبسون الطرابيش الطويلة والفساتين الفضفاضة فيكون لدورانهم منظر أخاذ .

الفرق الاسلامية : منذ واجه المسلمون أول مشكلة بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام أخذ المسلمون يتساءلون في كثير من القضايا كيف تحل ، وما هو وجه الصواب فيها وما هو وجه الخطأ ؟ وما المقصود من هذه الآيات أو الاحاديث وما هو غير المقصود ؟ وهل تفسر بالمعنى الظاهر او لها معان مستترة ؟ ومن أحق بأن يلي أمورهم وهل إمامتهم واجبة دينا او غير واجبة ؟ وهل الانسان في الدنيا مخير أم مسير ؟ الى غير ذلك من أمور لم يتفقوا عليها جميعا ، فنتج عن ذلك كثيرمن الفرق الدينية كالخوارج والمرجئة والشيعة والمعتزلة ، واستعمل بعضهم السيف ، وخاض الحروب للدفاع عن رأيه ، كما حاول بعضهم الوصول الى الخلافة بكل الطرق ، واعتزل فريق آخر القتال والفتنة ولم يرض ان يخطّىء هذا أو يكفّرذاك، وترك الامور لله الى يوم القيامة ، ولقد تطورت هذه المذاهب وأصبحت لها في كل عصر تعاليم وقواعد تختلف فيه عن العصر الذي سبقها او لحقها .

الخوارج : نشأ الخوارج في وقعة صفين عندما رفع جماعة معاويةالمصاحف باشارة عمرو بن العاص وقالوا كتاب الله بيننا وبينكم ، فقبل بعض جماعة علي رضي الله عنه وأوقفوا القتال ،وقال جماعة آخرون انها خدعة لايعتد بها وقالوا لا حكم الا لله ، وما لبثوا ان خرجوا على علي فسموا خوارج واجتمعوا في حروراء بالقرب من الكوفة فدعوا بالحرورية وكان سبب خروجهم أنهم رأوا ان التحكيم خطأ ، وطلبوا من علي أن يقر على نفسه بالخطأ ، بل بالكفر لانه قبل التحكيم ، وكان رفضه سببا لقتاله ، وما لبثوا ان وضعوا لانفسهم نظرية في الخلافة ، وهي ان الخليفة يجب ان يختار اختيارا حرا من المسلمين ، ولايشترط فيه ان يكون قرشيا بل يصح ان يكون عبدا حبشيا ، واذا اختير فلا يصح له ان يتنازل عن الخلافة او يحكّم، ويتبع تعاليم الله في سياسته واذا حاد عنها يجب عزله ، ومن ذلك نرى أن الخوارج انما نشأت فرقة سياسية ، خرجت على علي ، وحاربته وحاربت الامويين ، وما لبثت

أن مزجت السياسة بالدين لتأييد دعواها ، وكان أكثر افرادها من العرب ، ومن الاتقياء الورعين ، ورأت صحة خلافة أبي بكر وعمر ، وعثمان في سنيه الاولى الى ان حاد عن الصواب ، وعلي الى أن رضي بالتحكيم ،ولم ترض بخلافة معاوية ولا أحد من بعده ودافعت عن عقيدتها بالقوة ، ومزجت هذه العقيدة بأبحاث لاهوتية ، فقالت بأن الايمان ليس الاعتقاد فحسب ، بل لابد من القيام بأوامر الدين كالصلاة والصوم والصدق والعدل ، والانتهاء عن نواهيه كشرب الخمر ، ولعب الميسر والربا وقتل النفس التي حرم الله الا بالحق ... وما لبثت هذه الفرقة أن انقسمت الى فرق كثيرة زادت عن العشرين فرقة اختلفت في بعض التفاصيل واتفقت في الاساسين اللذين ذكرناهما وهما : مسألة الخلافة ، ومسألة الايمان وأن العمل بأوامر الدين جزء من الايمان ... فمن فرقهم المغالية فرقة الازارقة اتباع نافع بن أزرق الذي اعتبر اضحابه وحدهم على حق في دعواهم ، وكل ماعداهم من المسلمين مخطىء ، بل هم أشبه بكفار العرب وعبدة الاوثان ، أي لايقبل منهم الا الاسلام او السيف اي الا قبول مذهبه هو باعتباره الاسلام الصحيح ، والا وجب قتالهم ، فكان بذلك المسيحي والموسوي وغيرهما من أصحاب الكتاب أقل عداء للازارقة من المسلم غير الازرقي . ولم يكن الازارقة يصلّون وراء غيرهم ، ولا يأكلون من ذبائحهم ، ولا يتوارثون منهم ولا يورثونهم وقد حاربوا الامويين حربا لاهوادة فيها ، وأرسل لهم الحجاج المهلب بن أبي صفرة لقتالهم .

ومن فرقهم من أداه اجتهاده في تعاليم الدين الى القول بأن المخطىء معذور اذا اجتهد وأخطأ ، فمن أداه اجتهاده الى استحلال حرام أو تحريم حلال فهو معذور ، كالنجدات اتباع نجدة بن عامر ، وقد انتشروا في اليمن والطائف واليمامة وحضرموت .

ومن فرقهم الصُفرية اتباع زياد بن الاصفر ، والاباضية وهم الذين هاجروا الى شمالي افريقيا ولا تزال أعقابهم الى اليوم ، ولم ينقرضوا كغيرهم من الخوارج ، وهم موجودون في جنوب القطر الجزائري في المنطقة المعروفة باسم الاحجار من الصحراء الكبرى ويعرفون باسم الملثمين .

واذا كان الخوارج لم يأخذوا بشيء من التعاليم الفلسفية ، كما قلنا ، فانهم برعوا في ناحيتين عظيمتين هما شجاعتهم في الحروب وأدبهم الرفيع من شعر وخطابة وعلم باللغة يضاف الى ذلك ورع أكثرهم وتقاه ، حتى لقد يقال ان احدهم طعن في القتال فجعل يسعى الى قاتله والرمح في جسمه ويقول : « وعجلت اليك رب لترضى» وفي كتب التاريخ أمثلة كثيرة عن شجاعتهم حتى لقد كان كثيرا ما تتغلب فئة قليلة منهم على جيش كبير العدد ، ولقد هددوا العراق مرارا وكلفوا الدولة الاموية اكبر جهد لاخماد حركاتهم ، ولكن أمرهم ضعف في العصر العباسي •

الشيعة وفرقها : كان من أثر وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم دون ان يوصي لمن يخلفه ، أن ذهب تفكير المسلمين مذاهب شتى ، ظهرت في اجتماع بني ساعدة وانتهت بمبايعة أبي بكر ، ولكن ماذهبت الصدمة العظيمة التي مني بها الصحابة بوفاة الرسول ، حتى أخذ فريق يفكر بأولية أناس للخلافة دون أناس ، وتروي الكتب التاريخية أن علي بن أبي طالب بايع أبا بكر بعد تردد ، اذ كان يرى في نفسه أحقية للخلافة ، اذ هو أقرب الناس الى النبي ، ولكن عليا لم يطالب بالخلافة بالحاح ولم يذكر ولا حديثا واحدا على لسان الرسول عليه السلام لمح له بالخلافة من بعده أو أوصى له بها • ولقد فكر جماعة من الصحابة بأن الخلافة ارث ادبي ، وليس أحق بالارث الادبي من الذي يرث الاشياء المادية ، وأقرب الناس قرابة من الرسول عليه السلام هم بنو عمومته : العباس وعلي ، والعباس لم ينازع عليا ذلك ، فكان علي أحق الناس بالخلافة • ولقد نفخ في بوق هذه الدعوة أحد يهود اليمن الذين أسلموا وهو عبد الله بن سبأ وأخذ ينشر بين المسلمين فكرتين اقتبس أحداهما من أصول الديانة الموسوية والاخرى من المعتقدات الفارسية حيث كان يحكم بلاده الفرس ، وهاتان الفكرتان هما : الوصاية بمعنى ان عليا هو وصي محمد عليه الصلاة والسلام ، اوصى له بالخلافة نصا ولايجوز لغيره أن يغتصبها منه كما كان أنبياء بني اسرائيل يوصون للرسل من بعدهم • وفكرة حق الملوك الالهي المقدس أي أن علي بن أبي طالب الواجبة خلافته بعد الرسول ، يستمد حكمه من الله ، ويحكم بوحي من الله

أو أمر منه ولايجوز ان ينازع في ذلك • ويظهر لنا من دراسة تاريخ علي بن أبي طالب ، وابن سبأ أن عليا لم يرض أن يقبل أفكار ابن سبأ هذا ، ولكن قتل علي واغتصاب معاوية الحكم منه ، وموت الحسن ثم قتل الحسين في كربلاء أثار نفوس كثير من الناس واتخذوا حب آل علي دينهم وسموا علويين أو شيعة ، ويذكر كثير من المؤرخين ان معركة كربلاء كانت أكبر سبب في بعث مذهب التشيع في نفوس الكثيرين ، وخاصة ان الفرس وهم الذين يعتقدون بحق الملوك الالهي المقدس الذي ذكرناه ،كانوا يرون في أولاد الحسين بن علي خلفاءهم الطبيعيين ، اذ أنهم يحملون أشرف دم عربي وهو دم علي وفاطمة من ناحية الاب ، وأشرف دم فارسي حيث يرون ان الحسين بن علي تزوج احدى أسيرات الحرب وكانت بنت يزدجرد الثالث آخر ملوكهم ، وبذلك جمع هؤلاء الاولاد أشرف الدمين معا ، دم الاسلام والعروبة ودم ملوك الفرس ، ولكن هذه الفكرة الاساسية التي اعتمدت على حب علي وآله لقرابته من الرسول بالنسب تطورت وتشعبت واختلفت أشياعها فرقا وشيعا ، حتى قيل ان عدد الفرق الشيعية فيما بعد أصبح نيفا وسبعين فرقة ، وتتفق هذه الفرق بالدعوة لآل علي بالخلافة لكنها تختلف اختلافا تصاعديا حتى يصل بعضها الى الالحاد والكفر وتأليه علي وأولاده ، اذ بينما تعتقد الفرق المعتدلة ، ان أبا بكر وعمر وعثمان اخطؤوا لقبولهم الخلافة مع وجود من هو أحق منهم وهو علي ، ترى الفرق المغالية أن هؤلاء الخلفاء قد كفروا وخرجوا عن الدين لانهم اغتصبوا الخلافة اغتصابا ، وأن عليا وأولاده من بعده معصومون عن الخطأ لان صفات الله تعالى قد حلت فيهم وتقمصت اجسامهم ، واقتبست فرق منهم بعض المعتقدات الدينية الاخرى من فارسية او هندية او مسيحية او يهودية ، ولقد غدا التشيع في بعض الظروف المذهب الذي يتستر به كل من أراد بث سمومه في الدين وفي أتباعه ، ــ كما يقول أحد الكتاب ــ وكانت بعض الفرق تعبد بعض الشيعة كالآلهة ، أمثال من كان يعتقد بألوهية الحاكم بأمر الله أحد الخلفاء الفاطميين • أما فرقهم فكثيرة وأهمها :

١ ــ الزيدية : وهم أكثر الفرق اعتدالا في آرائهم وأقربهم الى أهل السنة ،

فهم يرون أن خلافة أبي بكر وعمر صحيحة ، لان عليا بايعها ، مع أفضلية علي بها ، ووضعوا لذلك قاعدة ، وهي أنه يجوز امامة المفضول مع وجود الافضل فاذا وجد امام منهم ورضي عن الخليفة القائم به فتجوز خلافة هذا الخليفة دون الامام ، وهم أيضا يعترفون بأنه لم يرد نص رسمي عن الرسول في وجوب الامام ، وليس في الامام جزء الهي ، ويشترطون في الامام أن يطالب بالخلافة ويقاتل في سبيلها حتى ينالها ، ولقد قام رأس هذه الفرقة وهو زيد بن الحسن بن علي بن الحسن بن علي ابن أبي طالب ، في عهد هشام بن عبد الملك بثورة انتهت بقتله وصلبه سنة ١٢١ هـ كما قام ابنه يحيى من بعده ولحق به بعد أربع سنين ، ولعل اعتدال هذه الفرقة في تعاليمها يرجع الى أن زيدا امامها الاول قد تتلمذ لواصل بن عطاء رأس المعتزلةوأخذ عنه كثيرا من آراء المعتزلة فأثر ذلك في عقليته ومعتقداته .. ولايزال لهذه الفرقة أتباع كثيرون في اليمن .

ب ــ الامامية : وسميت بهذا الاسم لقولها بوجود امام نص على خلافته الرسول عليه السلام ، فهم يتبرؤون من ابي بكر وعمر ويعتبرونهما خارجين عن تعاليم محمد ، بل كفارا ، لان الرسول قد أوصى لعلي من بعده نصا وتلميحا ، وجعلوا الاعتراف بالامام جزءا من الايمان فكل من لا يؤمن بأئمتهم يكون ناقص الايمان ، لا يتم اسلامه الا بذلك ، وجعلوا أئمتهم معصومين من الخطأ ، ومحيطين بالعلوم جميعها ، ماظهر منها وما بطن ، ولكنهم اختلفوا في أشخاص الائمة ، فحصرها بعضهم في أولاد علي من فاطمة فقط أي حرمها من أولاد محمد بن الحنفية ثالث أولاد علي ، وجعلها بعضهم في الابن الاكبر ، لايجوز تحويلها او اغتصابها ، واعتبر بعضهم أن عليا لم يمت ، وان الائمة خالدون ، ولكنهم يغيبون ، وسيعودون ليملؤوا الدنيا عدلا كما ملئت جورا وظلما ، ولقد قسموا الى فرق عديدة ، أيدت كل فرقة اماما من الائمة ، وتأثرت كثيرا أو قليلا بمعتقدات المذاهب الاخرى من براهمية وبوذية وزرادشتية وموسوية وعيسوية . وأهم الفرق الامامية :

الامامية السبعية او الاسماعيلية : وقد انشقت هذه الفرقة من الامامية لانها

اعتبرت الامام اسماعيل بن جعفر الصادق سابع الأئمة المتسلسلين من علي امامهم ، وذلك أن أباه جعفر الصادق كان قد أوصى له بالامامة ، ثم اتهم اسماعيل بشرب الخمر فحول الاب الامامة من بعده الى أخيه موسى الكاظم ، ولقد مات اسماعيل في حياة أبيه ، ولكن اتباعه انكروا موت اسماعيل ، وقالوا قد تغيب « ولا يموت حتى يملك الارض ويقوم بأمر الناس » كما قالوا بأنه لايجوز لأبيه جعفر ان يحول الخلافة منه الى أخيه موسى حتى بعد وفاة أخيه اسماعيل ، لان الامامة لا تنتقل من أخ الى أخ بعد الحسن والحسين ، ولا تكون الا في الاعقاب ... ولقد تأثر الاسماعيلية بمذهب الافلاطونية الحديثة وطبقوه على مذهبهم الشيعي تطبيقا غريبا، كما استخدموا مانقله اخوان الصفا في رسائلهم عن هذا المذهب الافلاطوني ،وقالوا ان للقرآن ظاهرا وباطنا ـــ ولذاسماهم البعض باسم الباطنية ـــ ولقدلعبالاسماعيلية دورا دينيا وسياسيا كبيرا في تاريخ الدولة الاسلامية ، واستطاع بعض فرقهم ـــ اذ انقسموا الى فرق أيضا ـــ أن يؤسس دولة كبيرة نازعت الدولة العباسية السلطة والنفوذ وهي الدولة الفاطمية في مصر وافريقيا ، كما كان منهم فرقة القرامطة اتباع عبد الله بن ميمون القداح وحمدان بن الاشعث الملقب بقرمط الذين أولوا القرآن تأويلا خاصا بهم ، وحلّلوا اتباعهم من قيود الشريعة والقيام بتكاليفها من صلاة وصوم وزكاة ، كما طبقوا الاشتراكية بين اتباعهم .

٢ ـ **الامامة الاثنى عشرية :** ولقد قبل هؤلاء بتحويل الامامة من اسماعيل الى أخيه موسى الكاظم بن جعفر الصادق حسب وصية أبيه ـــ ولذلك يدعوناحيانا باسم الامامية الموسوية ـــ وبسلسلة أئمتهم الى اثني عشر اماما ، أولهم علي بن أبي وآخرهم الامام محمد المهدي الذي مات أبوه وعمره خمس سنين ، وقد دخل محمد المهدي هذا سردابا في مدينة سامراء وأمه تنظر اليه ، ولكنه لم يعد ، ولم يقف احد له على أثر بعدها ، فلذلك يعتقد أتباعه أن محمداً قد اختفى سنة ٢٦٥ هـ ولا يزال مختفيا حتى اليوم ، وهم ينتظرون عودته ليملأ الارض عدلا كما ملئت جورا ، ولذلك سموه الامام المنتظر ، والقائم بالامر والحجة . يقولون ان الله أخفىامامهم

الثاني عشر هذا عن أعين الخلق ولكن لايزال حيا ، وهو يظهر من حين لآخر ويتصل بغيره ، وبيده تقرير حظوظ أشياعه وكل هذا معجزة ومكرمة له •• ولقد تبع هذا المذهب اسماعيل الصفوي وجعل مذهب الشيعة الامامية الاثني عشرية المذهب الرسمي للدولة الصفوية في فارس في القرن السادس عشر الميلادي ، وأضاف الى الاذان بعد ذكر الشهادتين ، عبارة « أشهد أن عليا ولي الله » ولا يزال هذا المذهب مذهب دولة ايران الى اليوم •

٣ ــ **المرجئة :** لم تكن المرجئة في أول امرها فرقة متميزة ، وان كانت تضم تلك الفئة من الناس التي لم ترض ان تغمس يدها في فتنة ، ولا تؤيد حزبا أو تعاكس آخر ، ولا أن تحكم على هذا بالكفر او الايمان ، بالخطأ او الصواب ، بل أرجأت أمر الجميع الى الله تعالى يحكم فيهم يوم القيامة ، اذ رأت جميع من قام بالفتن من المسلمين ، ممن لهم مقام محفوظ ، ومركز ممتاز ، وأفضلية في الاسلام ، فرجال الفتن في عهد عثمان ، وطلحة والزبير ، وعائشة ، وعلي ومعاوية ، وعبد الله بن الزبير ، والحسن والحسين ، ومن قبلهم جميعا أبو بكر وعمر وعثمان وهؤلاء كلهم وأمثالهم الذين ظهرت الاحزاب الدينية والسياسية تؤيدهم أو تناصبهم العداء كانوا من الصحابة ومن المقربين للرسول ، ولقد اجتهدوا وأخطأ بعضهم وأصاب بعضهم ، وتراشق أكثرهم بالتهم ، فكفّر الخوارج عثمان في أواخر حكمه ، وعليا بعد ان حكّم ، ومعاوية وغيرهم • ونسب العلويون والشيعة الى علي صفات ليست له ، واتهموا الشيخين أبي بكروعمر بالتآمر ضده واغتصاب الخلافة منه ، وذهب الخوارج في قضية الخلافة مذهبا شديدا خاصا حتى كانت لديهم أشبه بالنظام الجمهوري ، وأخذ الشيعة على وجوب الامامة بالنص وبالارث ، فكان لديهم أشبه بالنظام الملكي ، أما المرجئة فوقفوا وقفة المتفرج ، لا يميلون الى هذا ولا الى ذاك ، ولا يكفرون ولا يؤيدون ولا يعاكسون أي فرقة بل قالوا اننا نترك أمرهم الى الله يوم القيامة ، ولكن هذا الموقف السلبي الذي كان في أول نشأتهم ، مالبثت ان دخلت عليه كثير من التعاليم وانقلبوا من حزب سياسي الى حزب ديني ، اذ بحثوا في كثير

من المسائل الدينية ، وأخذوا الفلسفة في العصر العباسي ، لكــن حزبهم مالبث أن تلاشى في أواسط العصر العباسي ••• ويقول حسن ابراهيم حسن أن حزب المرجئة ظهر في دمشق بتأثير بعض العوامل المسيحية خلال النصف الثاني من القــرن الاول الهجري وان المرجئة قاموا بدور هام في التوفيق بين المصالح المتعارضة بين العرب وغيرهم من المسلمين ، اذ قالوا بأنه لايحل للحكومة ان تعامل المسلمين مــن غــير العرب ، كما لو كانوا لايزالون على كفرهم ، وجاهروا بأن جميع المسلمين اخوة في الدين لا فرق بين عربي وأعجمي ، أي نادوا بمبدأ المساواة بين الشعوب الذي أقره الاسلام ، ولقد خرج منهم الحارث بن سريج بثورة ضد الامويين في بلاد مــا وراء النهر لاشتطاطهم في جمع الضرائب من الاهلين ، وما عتم أن زعم أنه المهدي الذي بعثه الله لتخليص المضطهدين والاخذ بناصر المظلومين •• وهذا مخالف لما قالــه الاستاذ أحمد امين من أن موقف المرجئة كان موقف تأييد للحكومة القائمة ، ولكنه موقف سلبي لا ايجابي ، أي لايقاتلون مع الحكومة او ضدها ، أما أبحاثهم الدينية اللاهوتية فأهمها وقوفهم موقفا وسطا بين الخوارج والشيعة في مسألة تحديد الايمان والكفر ، فلم يقبلوا رأي الشيعة القائل بأن الايمان بالامام والطاعة له جزء مــن الايمان • بل اعتبروا كل من أسلم وآمن بالله مؤمنا ولو أهمل القرآن أو ارتكب الكبائر ، وغالى بعض المرجئة برأيه فقال : ان الايمان هو الاعتقاد بالقلب ولو أعلن المؤمن الكفر بلسانه ، وعبد الاوثان أو لزم اليهودية والنصرانية وعبد الصليب طالما أنه يبطن في قلبه الاعتقاد بالله ورسله ••• وعلى الجملة فيمكن اعتبارهم الفئــة المسالمة من الناس ، حاولت أن تسالمهم جميعا ، وان شذت قصة ثورة ابن سريــج التي ذكرناها •

٤ ـ **المعتزلة** : اختلف المؤرخون في أصل تسمية معتزلة ، فبعضهم نسبها الــى واصل بن عطاء عندما اعتزل حلقة الحسن البصري في مسجد البصرة ، وكوّن لنفسه حلقة خاصة ، على أثر السؤال الذي عرض على الحسن وكان يشغل عقول كثير من اتباع المذاهب وهو هل مرتكب الكبيرة كافر أم مؤمن ؟ ولقد أفتى واصل بأنه لا

كافر ولا مؤمن ، بل هو في منزلة بين المنزلتين ، وبعضهم نسبها الى اعتزال واصل وأشباهه الاقوال الشائعة عندهم في الحكم على مرتكب الكبيرة ، وأفتوا بشيءجديد لها ، أو نسبها الى قولهم بأن صاحب الكبيرة اعتزل عن الكافرين والمؤمنين معــا • وعلى كل فلقد ظهر في البصرة ، في أواخر العصر الاموي حزب عرف بالمعتزلة ، كان يضم نخبة من العلماء ، ما لبثوا أن اطلعوا على الفلسفة وعلم الكــلام ، واعتمدوا عليهما في اثبات آرائهم ، وهم يختلفون عن كلمة معتزل أو معتزلي التي ظهــرت في العصر الاول للاسلام بمعنى اعتزل عن الخصام او الخلافات الحزبية والسياسية أي بمعنى قريب من معنى المرجئة في أول عهدهم •

ولقد أدى الى نشوء مذهب الاعتزال ظهور فرق صغيرة أخذت تبحث بعــض القضايا الجدلية التي اعترضت للفكر الانساني منذ أخذ يتفلسف ، وتناولها أكثــر الفلاسفة القدامى بالبحث والشرح ، وهي قضية الجبر والاختيار أي هل الانســان مخير أو مسير ؟ ولقد أخذ المسلمون عندما بــدأ عقلهم يتفلسف يتساءلون هــذه الاسئلة ، والتفتوا الى القرآن يستمدون منه الهاما وهداية ، فاذا فيه آيات تؤيد الجبر ، وان كل شيء في الكون بأمره وتسخيره ، وأخرى تؤيد الاختيار وان للانسان عقلا يستطيع أن يميز به الخبيث من الطيب والصالح من الطالح ، ولقد قال بالجبر جماعة من المسلمين ، أي قالوا بأن الانسان مجبور في أعماله ، لا اختيار له ولاقدرة، وان الله قدر عليه الحالة لا بد أن تصدر منه رغب أم كره ، وسمي هؤلاء الجماعة بالجبرية ـــ كما سموا بالجهمية نسبة الى رئيسهم جهم بن صفوان ـــ وقال آخرون بالحرية أي أن الانسان حر الآراء وله قدرة على أعماله وسموا بالقدرية ، وجــاء المعتزلة وأخذوا بعض مبادىء الجبرية وبعض مبادىء القدرية ، وبنوا لانفسهم تعاليم كثيرة خلاصتها :

١ ـــ القول بان مرتكب الكبيرة ليس بكافر ولا مؤمن : ولكنــه فاسق يستحق النار لفسقه ، أي القول بالمنزلة بين المنزلتين ، منزلة بين الكفر والايمان •

٢ ــ **القول بالقدر :** أي أن الله لايخلق افعال الناس ، وانما هم الذين يخلقون اعمالهم والله تعالى عادل ، فيثيب الانسان ويعاقبه حسب أفعاله .

٣ ــ **القول بالتوحيد** ، فليس لله صفات أزلية من علم وقدرة وحياة زائدةعلى ذاته ، بل الله عالم وقادر بذاته .

٤ ــ **القول بسلطة العقل :** وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ولو لم يرد بهما شرع ، وقد جاء الشرع طبق طبيعة الشيء قبيحا أو حسنا ، وأمر بالشيءالحسن ونهى عن الشيء القبيح ولا يستطيع الشرع أن يعكس الامر .

٥ ــ **القول بخلق القرآن اي أن القرآن مخلوق ،** أي هو أصوات وحروف خلقها الله في غيره فوصلت الى نبيه عن طريق الوحي كما جاء في قوله تعالى : وما كان لبشر أن يكلمه الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء .

٦ ــ **القول بان العالم حادث :** فالله تعالى وحده القديم ، والعالم ليس بقديم بل حادث على خلاف رأي أرسطو ومن نحا نحوه من الفلاسفة .

ولقد استخدم المعتزلة الفلسفة اليونانية ، بعد ان صبغوها بالصبغة الاسلامية في تأييد آرائهم ، وكانوا أول من خلق علم الكلام في الاسلام ، وأخذوا يردون على اليهود والنصارى والمجوس وما أتوا به من شكوك في الدين الاسلامي حول كثيرمن القضايا ، ويقنعوهم بالحجة والمنطق الجدلي والاقناع العقلي .. ولقد أثروا في السياسة عندما اتبع مذهبهم الخليفة المأمون ، وصار يجبر الناس على القول بخلق القرآن ويضطهد كل مخالف لرأيه ، واقتدى به أخوه المعتصم ، وحمل الناس على القول بخلق القرآن وأهان الامام أحمد بن حنبل وسجنه لرفضه القول بذلك ، وتشدد ابنه الواثق بالله في فرض هذا المذهب على الناس ، حتى انه اعتبر كل من

لا يقول بخلق القرآن خارجا على الاسلام ، لذلك اشترط في تبادل الاسرى مع الدولة البيزنطية ولم تتبادل به الدولة الاسلامية ، ولكن عاد الخلفاء بعد ذلك الى الدول البيزنطية ولم تتبادل به الدولة الاسلامية ، ولكن عاد الخلفاء بعد ذلك الى عدم التداخل في آراء الناس ومعتقداتهم • ويجمع الكتاب على أن المعتزلة ، رغم اعتمادهم على سلطان الحكومة لنشر افكارهم ، يعدون فلاسفة الاسلام ، لانهم درسوا العقائد الاسلامية دراسة عقلية مقيدين انفسهم بالحقائق الدينية الاسلامية غير منطلقين في غير ظلها • فهم يفهمون نصوص القرآن في العقائد فهما فلسفيا ، ويعدون أيضا حماة الاسلام لانهم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وردوا كيد الزنادقة والملاحدة والكفار في نحورهم وكان وجودهم عاملا في وقف تيار الزندقة الذي طم في أول ظهور الدولة العباسية • ولا ينكر هؤلاء الكتاب ان للمعتزلة شذوذا في الفكر ، وشذوذا في الفعل ، ويبدو ذلك في المحنة التي أنزلوها بمخالفيهم وشدة حملتهم على الفقهاء والمحدثين ابان قوتهم وتبني الدولة لآرائهم (١) •

---

(١) يقول الدكتور مصطفى الصاوي الجويني :

« لقد وقف المعتزلة منذ البدء من تفسير القرآن والحديث المروي موقفا عقليا واضحا ، وذلك انهم اعتبروا العقل قبل الشرع . وعلى هذا ارتضوا خمسة اصول فكرية لم يخالفوا فيها ، وان خالفوا في مسائل فرعية منها ـ وهي : التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ومما بحثوه : هل الارادة الانسانية حرة مختارة او مجبرة مسيرة ؟ اما العقل فيشير الى استحالة ان يجبر الله امرءا على فعل ثم يحاكمه عليه ، اذن فلتؤول الآيات في هذا المجال الفكري بعدئذ بفنون وحيل .

وقد اخطأ المعتزلة حين وقفوا من ظاهر النص القرآني موقفين متعارضين : الظاهر ماساند مذهبهم ، والا رفضوه ونادوا بالتأويل وباعمال العقل ...

والحق ان خطأهم الاكبر انما يكمن في اعتمادهم لمبادئهم الفكرية اعتمادا قاطعا باتا حاولوا به أن يخضعوا الدين ـ وفيه من الغيبيات مافيه ـ لتلك المبادىء. وكانت التهم الاولى في ذلك العقل الذي جمحوا به جموحا أوردهم موارد الشطط والتعسف مسخرين في سبيل تلك الغاية ما وعوا من معارف .

ولئن كانت بدايتهم دفاعا عن الاسلام من طعنات اعدائه ، فلقد كانت نهايتهم تعصبا مذهبيا لغاية التعصب ومرد ذاك كله تأويلهم النص القرآني .

ويقول المحامي الاستاذ ظافر القاسمي :

« ليس في تاريخ الحركات الفكرية الاسلامية اعجب ولا اغرب من الازمة التيخلقها المعتزلة في اوائل القرن الثالث الهجري حول خلق القرآن .

لم يكن بين السنة والمعتزلة اي خلاف حول القرآن الكريم ، لا من حيث نصوصه ، ولا افكاره ولا اي شأن من شؤونه وانما اختلفوا حول قدمه وحدوثه .

قال اهل السنة بأنه قديم
وقال المعتزلة بأنه مخلوق

واتفق ان تسلط المعتزلة على الخليفة المأمون ، فقال بقولهم ، واخذوا في اكراه مخالفيهم على اعتناق مذهبهم وسلكوا لذلك طرقا تختلف كل الاختلاف مع ما دعوا اليه من حرية فكرية ، ومن تحكيم العقل ، وتقديمه على النقل .

ان مشكلة خلق القرآن لم تكن الا مظهرا من مظاهر الترف العقلي عند العرب في ازهى عصورهم .

وان الدولة قد تتبنى عقيدة فرعية وتعتبرها اهم المسائل في حياتها . وان العقيدة لاتخلو في اي عصر من العصور من ناصر لها ، يركب في سبيلها أعظم الاخطار ... وان الترف لا يدوم ، وان كان عقليا فما اسرع ما يزول . وان كثيرا من اصحاب العقائد تخالف افعالهم اقوالهم » .

الفهرس